دار الكتب المصرية

القسم الأدبي



نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

السفر الخامس عشر

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٦٩ هـ — ١٩٤٩ م



الطبعة الأولى بمطبعة دار الكتب المصرية



فهرس

السفر الخامس عشر

من

كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر أخبار مصر

ومن ملكها من الملوك قبل الطوفان وبعده ، وما بنوه بها من المدن ، وما أقاموه من المنارات والأهرام والبرابى وغير ذلك من المبانى ، وما وضعوه بها من العجائب والطِّلَّسمات والحكم ، وما أثاروا من المعادن وما دبّروه من الصّنعة ، وما شقّوه وأنبطوه من الأنهار وغير ذلك من عجائبها وأخبارها

فأمّا ملوكها قبل الطّوفان فقد ذكرهم إبراهيم بن القاسم الكاتب فى مختصر كتاب العجائب الكبير الّذى ألّفه إبراهيم بن وَصِيف شاه . قال : أوّل من ملك مصر من الملوك قبل الطّوفان نَقْرَاوُس [1] ، ومعناه مَلِكُ قومه وعظيمهم . وذلك أن بنى آدم لمّا بغى بعضهم على بعض وتحاسدوا وتغلّب عليهم بنو قابيل تحمّل نَقراوس الجبّار [2] ابن مصرايم بن برَاكيل بن زَرَابيل بن غِرْناب بن آدم فى نيّف وسبعين رجلا من بنى غِرناب جَبابرة ، كلّهم يطلبون موضعا ينقطعون فيه من بنى آدم . فلمّا نزلوا على النيل ورأوا سَعَة البلد وحسنه أقاموا فيه وبنوا الأبنية ، وقالوا : هذا بلد زَرْع ؛ [وبنى نقراوس مصر] [3] وسمّاها بآسم أبيه مصرايم ثم تركها [4] . وكان نقراوس

---

(١) ورد هذا الضبط بالقلم هكذا فى نسخة ب .

(٢) اختلفت المراجع فى ذكر هذه الأسماء فاكتفينا بما ورد فى الأصول .

(٣) التكملة من خطط المقريزى (ج ٣ ص ٦ طبعة فييت) .

(٤) كذا فى خطط المقريزى . وفى الأصل : « تبرّكا بها » .

جبّارا له أيْدٌ و بَسْطة، وكان مع ذلك كاهنا عالما ، له مُعاون من الجنّ ، فملك بنى أبيه ولم يزل مطاعا فيهم . وقد كان وقع إليه من العلوم التى كان زرابيل علّمها من آدم . قال: فهو و بنوه الجبابرة الذين بنوا الأعلام، وأقاموا الأساطين العظام، وعملوا المصانع ، ووضعوا الطِّلّسمات ، وآستخرجوا المعادن ، وقهروا من ناوأهم من ملوك الأرض ولم يطمع طامعٌ فيهم . وكل علم جليل فى أيدى المصريين إنما هو من فضل علم أولئك القوم، كان مرموزا على الحجارة . فيقال إن فليمون الكاهن الذى كان ركب مع نوح عليه السّلام فى السفينة هو الذى فسّرها لهم وعلمهم كتابتها، وسنذكر إن شاء الله تعالى خبر فليمون فى موضعه .

قال : ثم أمرهم نقراوس حين استقرّ أمرهم ببناء مدينة فقطعوا الصخور والأحجار من الجبال ، وأثاروا معادن الرصاص وبنوا مدينة وسمّوها أَمسُوس[1] ، وأقاموا بها أعلاما ، طول كل علَم مائة ذراع ، وعمّروا الأرض، وأمرهم ببناء المدائن والقُرى، وأسكن أهل كل بيت ناحية من أرض مصر. وهم الذين حفروا النيل حتى أجروْا ماءه اليهم، ولم يكن معتدل الحفر إنما كان يتسطح و يتفرّق فى الأرض . قال : ووجّه الى بلد النوبة جماعة حتى هندسوه وشقّوا منه أنهارا الى مواضع كثيرة من مدنهم التى بنَوْها ، وشقّوا نهرا عظيما الى مدينتهم أَمسوس يجرى فى وسطها وغرسوا عليه الغروس ، فكثُر خيرهم وعزّت أرضهم وتجبّر ملكهم . قال : و بعد مائة وعشرين سنة من مُلْكه أمر بإقامة الأساطين العظام وز بر عليها ذكر دخولهم البلد ، وكيف نزلوا به، وحربهم لمن حاربوه من

---

(١) أمسوس ، وردت مضبوطة بالقلم هكذا فى نسخة ب وهى أوّل مدينة بنيت بالديار المصرية قبل الطوفان . وموضعها خارج الاسكندرية تحت البحر الرومى (البحر الأبيض المتوسط) كما ذكره بعض المؤرخين، وشق لها نهرا يتصل بها من النيل (راجع صبح الأعشى ج ٣ ص ٣١٩) .

الأمم، ثم أمر ببناء قبّة على أساطين مُثبتة فى الرَّصاص، طولها مائة ذراع، وجعل على رأسها مرآة من زبرجد أخضر، قُطْـرها سبعة أشبار، ترى خُضرتها على أمد بعيد. قال: وفى مصاحف المصريين أنه سأل الذى كان معه أن يعرّفه مخرج النيل، فحمله حتى أجلسه على جبل القُمْر[(1)] خلف خطّ الآستواء على البحر الأسود الزِّفتى[(2)]، وأراه النيل كيف يجرى فوق ذلك البحر[(3)] الأسود مثل الخيوط حتى يدخل تحت جبل القُمْر، ثم يخرج الى بطائح[(4)] هناك. ويقال: إنه عمل بيت التماثيل هناك، وعمل فيه هيكلا للشمس. ورجع الى أَمسُوس فقسم البلد بين بنيه، فجعل لنقارس الجانب الغربى، ولسوورب الجانب الشرقى، ولآبنه الصغير وهو مصرام مدينة سمّاها برسان[(5)] وأسكنه فيها، وأقام فيها أساطين وشقّ لها نهرا وغرس بها غروسا. وعمل بأَمسوس عجائب كثيرة، منها صورة طائر على أُسطوانة عالية، يَصفِر كل يوم مرّتين عند طلوع الشمس وعند غروبها صفيرا مختلفا، فيستدلّون به على مايكون من الحوادث فيتأهّبون لها؛ ومخزن للماء المقسوم على جَناتهم مائة وعشرين قسما لا يقــدر أحدٌ أن يجوز ما ليس له. وعمل وسط المدينة صنمين من حجر أسودَ، اذا تقدّم السارق لم يقدر على الزوال عنها حتى يسلك بينهما، [فإذا دخل بينهما أطبقا عليه فيؤخذ][(6)].

(١) المراد بخلف هنا شمال خط الاستواء.

(٢) هذه التسمية وردت هكذا أيضا فى خطط المقريزى (ج ٣ ص ٨ طبعة فييت) أثناء كلامه على نقراوش والعلة فى هذا أن النويرى والمقريزى ينقلان عن مرجع واحد وهو ابن وصيف شاه. ولم نوفق الى تحقيقه فى مرجع آخر.

(٣) كرر المؤلف هنا عبارة «البحر الأسود الزفتى» ولا معنى له واكتفينا بما ورد فى خطط المقريزى.

(٤) المراد بالبطائح هنا منابع النيل.

(٥) ذكر القلقشندى فى صبح الأعشى (ج ٣ ص ٣١٩) هذه المدينة على أنها القاعدة الثانية من قواعد مصر قبل الطوفان ثم قال: «ولم أقف على مكانها».

(٦) الزيادة من المقريزى (ج ٣ ص ٨ طبعة فييت). وفى الأصلين مكانها: «يسقطان عليه».

وله أعمال كثيرة سوى هذه . قال : وعمل فى برسان صورة [من] نحاس مذهب على منار عال لاتزال عليها سحب تظلّها ، مَن آستمطرها أمطرت عليه ماء ، فهلكت فى الطوفان . وعمل على حدود بلادهم أصناما من نحاس مجوّف وملأها نارًا وكبريتا وجلب اليها روحانيّة [النار][1] ، فإن قصدهم قاصد بسوء أرسلت تلك الأصنام من أفواهها نارا أحرقته . وكان حدّ بلادهم الى داخل الغرب مسافة أيام كثيرة عامرًا كلّه بالقصور والبساتين ، وكذلك فى المشرق الى البحر ، ومن الصعيد الى بلاد علْوة[2] . وعمل فوق جبال بطرس منارا يفور بالماء يسقى ما تحته من المزارع . وملكهم مائة وثمانين سنة . فلما مات لطّخوا جسده بالأدوية المُمْسكة ، وجعلوه فى تابوت من ذهب ، وعملوا له ناووسا مُصَفَّحا بالذهب ، وجعلوا معه كنوزا من أنواع الجواهر وتماثيل الزَّبرجد ، وكنزا من الصّنْعة المعمولة ، وأوانى الذهب ، والطِّلَّسمات التى تدفع الهَوامّ وغيرها ، وزَبَروا عليه تاريخ الوقت .

ولما مات ملك بعده آبنه نقارس بن نَقْرَاوُس ، فتجبّر وعلا أمرُه ، وبنى مدينة يقال لها خلجة[3] ، وعمل فيها جنّة صَفّح حيطانها بصفائح الذهب والحجارة الملوّنة ، وغرس فيها أصناف الفواكه والغروس الحسنة ، وأجرى تحتها الأنهار ، وأمر بإقامة الأساطين والأعلام ، وركّب[4] عليها أصناف العقاقير والأدوية وجميع العلوم . وكان معه شيطان يعمل له التماثيل العجيبة . وهو أوّل مَن بنى بمصر هيكلا

(١) الزيادة من المقريزى . والعبارة فيه : « ووكل بها روحانية النار » .

(٢) بلاد علوة : هى من بلاد النوبة ، وتقع على ضفة النيل أسفل من مدينة دنقلة ؛ وبينهما مسيرة أيام فى النيل (راجع المغرب وأرض السودان ص ١٩ طبع مدينة ليدن) .

(٣) فى المقريزى (ج ٣ ص ١١ طبعة فييت) « خلجلة » وأشير فى الهامش الى أنها فى السيوطى « جلجة » .

(٤) لعله « وكتب » .

وجعل فيه صور الكواكب السبعة، وزبر على رأس كل كوكب محارته[1] وما يعمله من المنافع والمضار، وألبسه الثياب الفاخرة وأقام له كاهنا وسدنة . وخرج مغربا حتى بلغ البحر المحيط وعمل عليه أعلاما، وجعل على رأس كل علم أصناما تُسْرَج عيونها بالليل كأنها مصابيح، ورجع على بلاد السودان الى النيل، وأمر ببناء حائط على جانب النيل، وجعل له أبوابا يخرج الماء منها . وبنى فى صحراء الغرب وراء الواحات ثلاث مُدُن على أساطين، وجعل شُرَفها من الحجارة الملونة التى تَشُفّ، وجعل فى كل ناحية منها ثلاث خزائن للحكمة، وهى أول عجائب الأرض، جعل الدخول الى هذه المدائن من الأساطين التى بنيت عليها . ففى إحدى هذه الخزائن صنم الشمس الذى هو أعظم أصنامهم، وهى معلقة عليه فى بيت شرفها[2]، وعلى رأسه إكليل فيه كواكبها الثابتة . وفى إحداها[3] صنم للشمس رأسُه رأس طاووس فى جسد إنسان من ذهب أزرق، وعيناه جوهرتان صفراوان، وهو جالس على سرير مغنطيس، وفى يده مصحف العلوم . وفى إحداها صنم رأسه رأس إنسان وجسده جسد طائر، وصورة امرأة جالسة من زئبق معقود، لها ذؤابتان، وفى يدها مرآة وعلى رأسها صورة كوكب، وهى رافعة بالمرآة الى وجهه، ومطهرةٌ فيها سبعة ألوان، من الماء السائل لا يختلط بعضها ببعض ولا يوارى بعضها بعضا، وصورة شيخ من حجر الفَيْروزَج، وبين يديه

(١) المحارة : المكان الذى يحور أو يحار فيه (المدار) . والمحارتان : رأسا الورك المستديران اللذان يدور فيهما رءوس الفخذين . والمعروف أن لكل كوكب محورا يدور فيه . وقيل له محور : للدوران، لأنه يرجع إلى المكان الذى زال عنه؛ فالمراد بالمحارة هنا الدائرة التى يدور فيها الكوكب .

(٢) بيت شرفها : أى محل عزها وعلوها وسعادتها وحلولها فى الحمل وهو محل قوة الكوكب . فالشمس من أجل أنها إذا حلت الحمل تصاعدت فى الشمال وظهرت قوتها وصار شرفها فيه (راجع شرح العلامة الحضرى على متن اللغة ورقة ٨٧ من النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٠٨ ميقات) .

(٣) كذا فى المقريزى . وفى الأصل : « صورة أحدها » .

(٤) كذا فى المقريزى . وفى الأصل : « والآخر » .

صِبْيَةٌ يعلّمهم، وهم من أصناف العقيق والجوهر . وفى الخزانة الثانية صورة هِرْمِس [يعنى عُطَارد][1] وهو مُكِبٌّ ينظر الى مائدة بين يديه من نُوشَادِر على قوائم كبريت أحمر، وفى وسطها مثل الصَّحْفة من جوهر أحمر فيها دواء أخضر من الصنعة، وصورة عُقَاب من زُمرّد أخضر عيناه من ياقوت أصفر، وبين يديه حيّة من فضّة قد لوتْ ذنبها على رجليه ورفعت رأسها كأنها تريد أن تنفخ عليه، وفى ناحية منها صورة المِرّيخ راكبا على فرس وبيده سيف مسلول من حديد أخضر، وعمود من جوهر أخضر، عليه قبّة من ذهب فيها صورة المُشْتَرِى، وقبّة [من أدرك][2] على أربعة أعمدة من جَزْع أزرق فى سقفها صورة الشمس والقمر متحاذِيَيْن فى صورة آمرأة ورجل كأنهما يتحادثان، وقبة من كبريت أحمر فيها صورة الزُّهَرة على صورة آمرأة مُمْسِكة بضفيرتها وتحتها رجلٌ من زبرجد أخضر، فى يده كتاب فيه علم من علومهم كأنه يقرأ فيه عليها[3]. وجعل فى كل خزانة من بقية الخزائن من العجائب ما لا يحدّ، وعلى باب كل مدينة طِلّسمات تمنع من دخولها فى صور مختلفة لا يشبه بعضها بعضا، وفى كل مدينة من الجوهر النفيس والذهب والفضة والكبريت الأحمر والتُّربة الصنعيّة فى البرانى الملوّنة، وصنوف الأدوية النفيسة المؤلّفة والسموم القاتلة. وعلّم كل باب من الأساطين بعلامة يعرف بها يُصعد اليها من مسارب تحت الأرض. قال: وجُعل بين هذه المدائن[4]

(١) زيادة عن المقريزى (ج ٣ ص ١٠ طبعة فييت).

(٢) زيادة عن المقريزى (طبعة فييت). والأدرك: الحجر الأحمر. وفى طبعة بلاق «من آنك» والآنك: القصدير.

(٣) كذا فى المقريزى (ج ٣ ص ١٠ طبعة فييت) وفى الأصول: «... وكأنهم يقرءون عليه».

(٤) يريد: وجعل بين أولى هذه المدائن وبين مدينة خلجة، وهى التى عمل فيها الجنة، سبعة أميال الى الغرب، وبين مدينة خلجة وبين الثانية أربعة عشر ميلا، وبينها وبين الأخيرة واحد وعشرون ميلا. ففى العبارة هنا قصور.

و بين مدينة خلجة، وهى التى عمل فيها الجنة، سبعة أميال الى الغرب، و بينها و بين الأخرى أربعة عشر ميلا، و بين الأخرى واحد وعشرون ميلا . وكان له من مدينته إلى هذه المدائن أسراب تحت الأرض يصل منها اليها، وكذلك من بعضها الى بعض . وعمل عجائب كثيرة أزالها الطوفان، وركبت هذه الأرض الرمال فأزالت طلّسماتها . قال : وملك نقارس مائة سنة وسبع سنين ثم هلك فعُمل له ناووس، وجُعل معه من الأشياء العجيبة ما يطول الأمر بذكره .

ثم ملك بعده أخوه مِصرام بن نقراوس، فبنى للشمس هيكلا من المرمر الأبيض ومؤهه بالذهب، وجعل وَسَط الهيكل كالعرش [(1)] من جوهر أزرق عليه صورة الشمس من ذهب أحمر وأرخى عليها كِلَل الحرير الملوّن، وأمر أن يوقد عليها بطيّب الأدهان، وجعل فى الهيكل قنديلا من الزجاج الصافى، وجعل فيه حجرا مدبّرا يضىء كما يضىء السراج وأكثر منه ضوءا، وأقام له سَدَنةً، وعمل له سبعة أعياد فى السنة . وقيل : إن مصر سمّيت به . وتسمّى به مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح بعد الطوفان لأنه وجد آسمه مزبورا على الحجارة . وكان فليمون الكاهن أخبرهم أخبار هؤلاء الملوك . وكان مصرام هذا قد ذلّل الأُسْد فى وقته فكان يركبها . وصحبه الروحانىّ الذى كان مع أبيه لما رأى من حرصه على لوازم الهياكل والقيام بأمور الكواكب ، وأمره أن يحتجب عن الناس . وألقى على وجهه بسحره نورا عظيما لا يقدر أحد أن يتمكّن من النظر اليه . فآدّعى أنه إله ، وغاب عن الناس ثلاثين سنة، وآستخلف عليهم رجلا من ولد غرناب وكان كاهنا . ويقال : إنّ مصرام ركب فى عرش وحملته الشياطين حتى آنتهى الى وسط البحر الأسود، فعمل فيه القلعة الفضّة وجعل عليها صنمين من النحاس وزبر عليها : أنا مصرام الجبّار، كاشف الأسرار، الغالب القهار ، صنعتُ

(1) فى المقريزى (ج ٢ ص ١١ طبعة فييت) : « وفى وسطه فرس من جوهر » .

الطِّلَّسمات الصادقة ، وأقمتُ الصُّوَر الناطقة ، ونصبت الأعلام الهائلة على البحار السائلة ، ليعلم من بعدى أنه لا يملك أحد ملكى ، وكل ذلك فى أوقات السعادة . وكان قد عمل فى جنّته شجرة مولدة يؤكل منها جميع الفواكه ، وقبّة من زجاج أحمر على رأسها صنم يدور مع الشمس ، ووكّل بها شياطين إذا آختلط الظلام نادَوْا : لا يخرج أحد من منزله حتى يُصبح وإلّا هلك ، وكان أوّلَ مَن عُمِل له ذلك . وأمرهم أن يجتمعوا له ، وجلس لهم فى مجلس عال مزيّن بأصناف الزينة وتجلّى لهم فى صورةٍ هالتهم وملأت قلوبهم رعبا ، فخرّوا على وجوههم ودعَوْا له . فأمر بإحضار الطعام والشراب فأكلوا وشربوا ورجعوا إلى مواضعهم ثم لم يروه بعد . و بلغ بكهانته ما لم يبلغه أحد من آبائه .

ثم ملك بعده عِنْقَام(١) الكاهن ، فعدل فيهم ، وعمل مدينة عجيبة قرب العريش جعلها لهم حرسا . وقيل : إن إدريس عليه السلام رُفع فى زمانه . قال : ويَحكى عنه أهل مصر حكايات كثيرة تخرج عن العقول . وكان قد رأى فى عِلْمه كون الطوفان ، فأمر الشياطين التى تصحبه أن تبنيَ له مكانا خلف خطّ الأستواء بحيث لا يلحقه الفساد ، فبُنِيَ له القصر الذى فى سفح جبل القُمْر ، وهو قصر النحاس الذى فيه التماثيل ، وهى خمسة وثمانون تمثالا ، يخرج ماء النيل من حُلوقها وينصبّ الى بطيحة . ولمّا عُمل له ذلك القصر أحبّ أن يراه قبل أن يسكنه ، فجلس فى قبّته وحملته الشياطين على أعناقها اليه . فلمّا رأى حكمة بنيانه وزخرفة حيطانه وما فيه من النقوش وصور الأفلاك والكواكب ، وغير ذلك من صنوف العجائب — وكان يُسرَج بغير مصابيح ، وتُنصب فيه موائد يُوجَد عليها من كل الأطعمة ولا يُدْرَى مَن يعملها ، وكذلك الأشربة فى أوانٍ ، يُستعمَل منها ولا تنقُص . وفى وسطه [بركة](٢)

(١) ضبط هكذا بالقلم فى نسخة ب . (٢) زيادة عن المقريزى (ج ٣ ص ١٢ طبعة فييت) .

من ماء جامد الظاهر تُرى حركته من وراء ما جمد منه، وأشياء كثيرة من هذا النوع وإن كانت تنبو عن العقول — أعجبه ما رأى، ورجع الى مصر فٱستخلف ٱبنه عِرْناق وأوصاه بما يريده وقلّده المُلْك، ورجع الى ذلك القصر فأقام به حتى هلك هناك. واليه تُعزى مصاحف القبط التى فيها تواريخهم وجميع ما يجرى الى آخر الزمان.
قالوا: ولم تطل مدّة ملكه.

ثم ملك بعده ٱبنه عِرْناق بن عِنقام[1]. ملك بعد أبيه وعمل عجائب كثيرة، منها شجرة صُفْر فيها أغصان حديد بخطاطيف حادّة اذا تقرّب منها الظالم والكاذب تقرّبت اليه تلك الخطاطيف فتعلّقت به وشكّت بدنه ولم تفارقه حتى يُحدّث عن نفسه بالصدق ويعترف بظلمه ويخرجَ عن ظُلامة خَصْمه. وعمل صنما من صَوّان أسود وسمّاه عبد قزويس[2]، أى عبد زُحَل، فكانوا يحتكمون اليه، فمن زاغ عن الحقّ ثبت فى مكانه فلم يقدر على الخروج منه حتى يُنْصِف من نفسه ولو أقام سنة أو أكثر. ومن كانت له حاجة منهم أو طلب شيئا بخّر الصنم ليلا ونظر الى الكواكب وذكر اسم عِرْناق وتضرّع فيُصبِح وقد وجد حاجته على باب منزله. قال: وكان عِرْناق ربما حملته أطيار عظام وتمرّ به وهم يرونه. وكان ربما غضب على ناس فجعل ماءهم مُرّا لا يُذاق، وسلّط عليهم وُحوش الأرض وسباعها وهوامّها. قال: وتجرّأ على صيد السباع والوحوش، وعمل عجائب، منها أنه عمل شجرة من حديد ذات أغصان لطّخها بدواء مدبّر، فكانت تجتلب كل صنف من الوحش. قال: وفى كتب المصريين أنّ هاروت وماروت كانا فى وقته وعلّما أهل مصر أصنافا من

(١) ضبطت هكذا بالقلم فى نسخة ب.

(٢) فى نسخة أ: «عبد فرديس».

السحر، ونُقِلا بعد الطوفان الى بابِل. وكان عرناق يجتلب النساء بسحره و يغتصبهنّ، وكان يسكن الجنة التى عملها نقارس، فآحتالت عليه آمرأة من المغصوبات فسمّته فهلك و بقى مدّة لا يعرف خبره. وكان من رَسْمه - إذا خلا بنسائه - لايقرَبه أحد، فلمّا تأخر خبره عن الناس هجم عليه فتًى من بنى نقراوس يقال له لُوخيم[١] ومعه نفر من أهله، فوجدوه ملقى فى فراشه جيفة. فأمر أن توقد له نار فأحرقه فيها. و جمع النسوة اللواتى كنّ فى الجنــة، فمن كانت من نسائه تركها، ومن كانت من المغصــوبات سرّحها الى أهلها، ففرح الناس بذلك و بمــا نزل به.

وملك بعده لُوخِيم وجلس على سرير المُلْك ولبس تاج أبيه، وأمر بجمع الناس وقام فيهم وتكلّم وذكر ما كان عليه عِرْناق الأثيم من سوء السيرة وآغتصاب النساء وسَفْك الدماء ورفض الهياكل والآستخفاف بالكهنة الى أن هلك، وأنه أحقّ بتُراث أبيه[٢] وجدّه. وضمن للناس العدل والإحسان والقيام بأمرهم ودفع كل أذى عنهم. فرضى الناس به وأطاعوه وقالوا: أنت أحقّ بالمُلْك، ولا زلتَ دائم السعادة طويلَ العمر قائما بتجويد الهياكل وتعظيمها. فركب الى هيكل الشمس فقرّب له بقرا كثيرا، وسار فى الناس بالعدل. قال: وكانت الغَرانيق[٣] قد كثُرتْ فى زمن عِرْناق فأهلكت زروع الناس. فعمل لوخِيم أربع منارات من نحاس فى أربعة جوانب أمسوس، وجعل على كل منارة صورة غراب فى فمه حيّة قــد آلتوت عليه فلم يقربهم شيء من تلك الطيور، فكانت كذلك حتى أزالها الطوفان.

(١) فى المقريزى (ج ٣ ص ١٤ طبعة فييت): «لوجيم» بالجيم المعجمة.

(٢) فى أ: «أخيه».

(٣) الغرانيق: الذكور من الطير واحدها غرنوق وغرنيق، وهو طائر مائىّ طويل القوائم والعنق أسود وقيل أبيض (راجع شرح القاموس مادة غرنق).

قال : ومن ملوكهم خصليم وهو أوّل من عمل مقياسا لزيادة المـاء، وذلك أنه جمع أصحاب العلوم والهندسة فعملوا بيتا من رُخام على حافة النيل، وجعل فى وسطه بركة من نحاس صغيرة فيها ماء موزون، وعلى حافَتَى البركة تمثالُ عُقابين من نُحاس ذكر وأنثى. فإذا كان فى أوّل الشهر الذى يزيد فيه المـاء[1] فتح باب البيت وحضر الكُهّان وأمناء الملك وتكلّموا بكلام لهم حتى يصفِر أحد العقابين، فإن صَفَر الذكر كان المـاء زائدا، وإن صفرت الأنثى كان المـاء ناقصا، ثم يعتبرون المـاء فكلّ إصبع يكون فى تلك البركة فهو ذراع من زيادة النيل، وكل إصبع ينقص فهو نقصان ذراع. فإذا علموا ذلك حفروا الترع وأصلحوا الجسور. وعمل على النيل القنطرة التى هى ببلاد النوبة. وكان له آبن سمّاه هِرْصال[2]، أى خادم الزُّهَرة، لرؤيا كانت رأتها أخت الملك أن الزُّهَرة تخاطبها، وكفلت الغلام عمّته، وآسمها خِرداقة[3]، وأدّبته أحسن التأديب، وزوّجته عشرين[4] آمرأة من بنات الملوك والعظماء، وبنت له مدينة فيها عجائب كثيرة، احتفلت بها وزيّنتها بأحسن النقوش والزينة والعمارة، وعملت فيها حمّاما معلّقا على أساطين يرتفع المـاء إليها حارّا من غير وَقِيد[5]. ولمّا هلك خصليم دُفن فى ناووس.

ثم ملك بعده آبنه هِرْصال بن خصليم فتحوّل إلى المشرق وسكنه، وبنى مدينة هى إحدى المدائن ذوات العجائب، وعمل فى وسطها صنما للشمس يدور بدورانها فيبيت مغرّبا ويصبح مشرّقا. ويقال: إنه عمل من تحت النيل سَرَبا. وهو أوّل

---

(١) كذا فى الأصول. وفى المقريزى (ج ٣ ص ١٤ طبعة ڤييت) : «النيل».

(٢) ضبطت هكذا بالقلم فى نسخة ب.

(٣) ضبطت هكذا (بكسر الخاء المعجمة) بالقلم فى نسخة ب.

(٤) فى نسخة (ب) : «وزوجته آمرأة».

(٥) الوقيد : ما توقد به النار من الحطب ونحوه.

مَن عمل ذلك. وخرج متنكّرا يشقّ الأمم إلى أن بلغ بابِل، ورأى ما عمل الملوك من العجائب. وعلم حالَ ملِكها فى الوقت وسيرته ومجارى أموره. ويقال: إنّ نوحا عليه السلام وُلد فى وقته. قال: ووُلد لهِرْصال عشرون ولدا، جعل مع كل ولد منهم قاطرا[1] وهو رأس الكهنة. وتزعم القبط أنه بعد مائة وسبع وعشرين سنة من مُلْكه لزم الهياكل وتعبّد للكواكب فأخفته عن أعين الناس. وأقام بنوه على حالهم كل واحد منهم فى قسمه الذى أعطاه إياه يدبّره ولا يشركه فيه غيره. وأمور النـاس جارية على سداد، فأقاموا كذلك سبع سنين. ثم وقع بين الإخوة تشاجر، وآجتمع رأى الكهنة على أن يجعلوا أحـدهم ملكا، ويقيم كل واحد منهم فى قسمه. فآجتمعوا فى ذلك اليوم فى دار المملكة، وقام رأس الكهّان فتكلّم وذكر هِرْصالَ وسعادة أيامه وما شملهم فيها من الخير، وأخبر بمـا رأته الجماعة من تقليد أحدهم المُلْك. فإن كان هِرْصالُ لم يمُت ورجع إليهـم لم ينكر ما فعلوه لأنهـم أرادوا بذلك حفظ ملكه؛ وإن لم يرجع كان الأمر قد جرى على ماسلف من قيام ملك بعدملك فآجتمع رأيهم على أكبر ولده وهو:

نَدْسان[2] بن هِرصال. فملك وسار سيرة أبيه وحمد الناس أمره. وعمل قصرا من خشب ونقشه بأحسن النقوش، وصوّر فيه صور الكواكب ونجّده بالفرش وحمله على المـاء وكان يتنزّه فيه. فبينما هو فيه إذ زاد النيـل زيادة عظيمة وهبّت ريح عاصـف فآنكسر القصر وغرِق المـلك. وكان قـد نفى إخـوته إلى المدائن

(١) فى المقريزى: «ناظرا».

(٢) فى المقريزى (ج٣ص٥١ طبعة ڤييت) وحسن المحاضرة للسيوطى (ج١ص١٩) «قدرسان» وعبارة المقريزى: «... وكان اسمه قدرشان وقيل قدرسان». وفى صبح الأعشى (ج٣ص٤١١): «بدرسان».

الداخلة فى الغرب . وآقتصر على آمرأة من بنات عمّــه ، وكانت ساحرة، فتفرد بها وآستخلف بعض وزرائه على المُلْك وأقبل على لذّته ولهوه . فلمّا هلك كتمت آمرأته الساحرة موته ، وكان أمرها ونهيها يخرجان إلى الوزير عن الملك . وأقام الناس تحت طاعته سبع سنين لا يعلمون بأمره . فلما رأى إخوته طول غيبته جمعوا جموعا كثيرةً وقدّموا على أنفسهم أحدهم وهو شمرود الجبّار[(1)] وساروا إلى أمسوس . وبلغ ذلك آمرأة نَدْسان الساحرة فأمرت الوزير بالخروج إليهم ومُحاربتهم ، ففعل ذلك ولقيهم فمزّقوه وقتلوا كثيرا ممن كان معه ، ودخلوا مدينة أمسوس ، وأتوا دار المملكة فلم يروا نَدْسان وأيقنوا بهلاكه .

وملك شمرود بن هرْصال فسُرّ الناس به ، ووعدهم بحُسن السِّيرة فيهم وتغيير ما كانوا يُنكرونه على أخيه . وآستولى على كنوزه وخزائنه ففرّقها على إخوته ، وأقطعهم جميع ما كان فى يد نَدْسان . وطلب آمرأته الساحرة وآبنها ليقتلهما ، فآنتقلت إلى مدينة أهلها من الصعيد ، وكانوا كلّهم كُهّانا سحرة ، فآمتنعت بهم ، وأرسلت إلى الناس وعرّفتهم أنّ آبنَها الملِكُ فى وقته ؛ لأنّ أباه قلّده المُلْك وأمرها أن تدبّر أمره حتى يكبَر ، فصدّقوها وأجابوها وقالوا : إنّ الغلام مغصوب على ملك أبيه ، وإنّ شمرود متغلب . فآجتمع فى ناحيتها جماعة من أهل البلد وزحف آبن الساحرة وقد عمل له السَحَرة أصنافا من التخاييل الهائلة والنيران المحرقة ، فقامت الحرب بينهم أياما ؛ فآنهزم شمرود وإخوته وتعلّقوا ببعض الجبال .

ومَلك تُوميدون[(2)] بن ندسان وهو آبن الساحرة . ودخل دار الملك وجلس على السرير ولبس التاج الذى كان لأبيه وأطاف به بطانة أبيه ، وهو يومئذ حَدَث السنّ ،

(١) فى المقريزى (ج ٣ ص ١٦ طبعة فييت) « نمرود » وقال : ويقال له «شمرود» .

(٢) فى المقريزى : « بوسيدون» وراجع تعليقاته عليه (ج ٣ ص ١٦ طبعة فييت) . وفى صبح الأعشى (ج ٣ ص ٤١١) : «فرسيدون» .

وكانت أمه تدبّر أموره، فقتل كلّ من كان مع شمرود . وطلب شمرود حتى ظفر به، واجتمع الناس لينظروا ما يصنع به، فشدّ رأسه برأس أسطوانة قائمة، ورجلاه برأس أسطوانة أخرى . وكان طوله فيما يذكر القبط عشرين ذراعا، ووكّلت الساحرة به حرسا لتقتله يوم عيدها، وكان قريبا . فصاح بالليل صيحة مات منها بعض الحرس وهرب الباقون . فلمّا اتّصل بها ذلك أوقدت نارا وأمرت بإنزاله وجعلت تقطع منه عضوا عضوا وترميه فى النار . قال : وخرج ابنها[1] كاهنا منجّما، وعملت له الشياطين قبّة الزّجاج[1] الكبيرة الدائرة على دوران الفلك، وصوّروا عليها صور الكواكب، وكانوا يعرفون الطالع منها وما يحدث بطلوعه بعد ستين سنة . ثم ماتت أمه الساحرة وأوصت أن يجعل جسدها تحت صنم القمر فإنه يخبرهم بالعجائب وما يسألون عنه ففعلوا ذلك . وذل الناس لابنها وهابوه، وكان يتصوّر لهم فى صور كثيرة، وملكهم مائة سنة وستين سنة . ولمّا حضره الموت أمرهم أن يعملوا له صنما من زجاج على شقّين ويطبق على جسده بعد أن يطلى بالأدوية الممسكة ويلحم ويقام فى هيكل الأصنام، ويجعل له عيد فى السنة ويقرّب له قربانٌ، وتدفن علومه وكنوزه تحته، ففعلوا ذلك كله .

ولمّا مات ملك بعده ابنه شرناق[2] بن توميدون، فعمل بسيرة أبيه وجدّته، واجتمع الناس عليه . وزحف رجل من بنى صرابيس[3] بن إرم من ناحية العراق، فتغلّب

(١) عبارة المقريزى (ج ٣ ص ١٦ طبعة فييت) : «... وقام بوسيدون بن قدرشان بالملك فى مدينة أمسوس، وكان عالما فاضلا، فقوى بسحر أمه وعملت له أعمالا عجيبة، منها قبة من زجاج على هيئة الكرة تدور بدوران الفلك، وصورت فيها صور الكواكب . فكانوا يعرفون بها أسرار الطبائع وعلوم العالم . فلما ماتت أمه الساحرة بعد ستين سنة من ملكه طلى جسدها بما يدفع عنه النتن والحشرات، ودفن تحت صنم القمر . ويقال إنها كانت بعد موتها يسمع من عندها صوت بعض الأرواح فتخبرهم بعجائب وتجيب عما تسأل عنه» .

(٢) فى المقريزى : «سرباق ويقال فيه شرباق» . وقد أوردت هذا الاسم عدّة مصادر بصور مختلفة .

(٣) فى المقريزى : «من بنى فراشى بن آدم، ويقال من بنى صوانيقى بن آدم» وقد أوردت هذين الاسمين عدّة مصادر بصور مختلفة .

على الشام، وأراد أن يزحف إلى مصر، فعرف أنه لا يصل اليها لسحر أهلها، فأراد أن يدخلها متنكرا ليقف على أحوالها، فخرج فى نفر حتى بلغ الحصن الذى كانوا بنوه على مصر. فسألهم الحرس الموكّلون به عن أمرهم، فعرّفوهم أنهم قصدوا بلدهم ليسكنوه، فحبسوهم وطالعوا الملك بخبرهم. وكان الملك قد رأى فى منامه كأنه قائم على منار لهم ٥ عال، وكأن طائرا عظيما انقضّ عليه ليختطفه، فحاد عنه حتى كاد يسقط عن المَنارة فجاوزه ولم يضُرّه، فانتبه مرعوبا، وبعث إلى رأس الكَهَنة فقصّ عليه رؤياه، فعرّفه أن مَلِكا يطلب مُلْكه فلا يصل اليه. فنظر فى علمه فرأى أنه قد دخل بلده. فلما وردت الرسل بذكر القوم علم أن المَلِك فيهم؛ فوجّه جماعةً من أصحابه فاستوثقوا منهم وحملوهم اليه، وقد كان أمرهم أن يطوفوا بهم فى أعمال مصر كلها ليروْا ما فيها من ١٠ الطِّلّسمات والأصنام المتحرّكات والعجائب المعجزات، فبلغوا بهم إلى الإسكندرية، ثم ساروا بهم إلى أمسوس وطيف بهم على عجائبها. ثم سيرَ بهم إلى الجنّة التى عملها مِصْرام، وكان الملك مُقيما بها وأمر السحرةَ بإظهار التهاويل والتخاييل، فجعلوا يتعجّبون مما رأوا الى أن وصلوا الى شرناق الملك والكهنة حوله وقد أظهروا صنوف العجائب، وجعلوا بين يدى الملك نارا عظيمة لا يصل اليه إلا مَن خاضها ١٥ ولا تضرّ إلا مَن أضمر للملك غائلة، وأمر بدخولها، فشقّوها واحدا واحدا لم ينلهم منها أذًى، وكان الملك آخرَهم، فلمّا دنا من النار أخذته فولّى هاربا. فأُتِىَ به شرناق فسأله عن أمره فأقرّ، فأمر بقتله على أسطوانة عند باب الحصن من ناحية الشام، فقُتِل وزُبِر عليه: هذا فلان المتغلِّب على الشام أضمر غائلة الملك، طلب ما لا يصل اليه فعوقب بهذا. وأمر بإخراج الباقين من بلاده فأُخرجوا. وقيل لهم: قد وجب ٢٠ عليكم القتل لصُحبتكم من أراد الفساد فى الأرض، ولكنّ الملك عفا عنكم. فكانوا لا يمرّون على أحد إلّا حدّثوه بما رأوا من العجائب، فانقطعت أطماع الملوك عن

الوصول الى مصر والتعرض إليها . وعُملت فى أيامه عجائب كثيرة ، منهـا أنه عمل على باب كل مدينـة بطّة نحاس قائمة على أُسطوانة ، فإذا دخل الغريب من الباب صفّقت بجناحيها وصرَخت ، فيؤخذ ويكشف عن أمره . وشقّ الى مدائن الغرب نهرا من النيل ، وبنى على عِبْره منازل وأعلاما وغرس بينها غروسا ، وكان اذا خرج إليها سار فى عِمارة متّصلة . وملكهم مائة سنة وثلاثين سنة ثم مات . ٥

وملك بعده آبنـه سهلوق بن شرناق ، وكان كاهنا منجّما ، فأفاض العدل وقسم ماء النيل قسما موزونا ، صرف الى كل ناحية قسْمها ، ورتّب المراتب وجعلها على سبعة أقسام : فالطبقة الأولى الملك وولده وأهل بيته ومن يلى عهده ورأس الكهّان والوزير الأكبر وقائد الجيش الأكبر وصاحب خاتَم الملك وصاحبُ خزانته . والطبقة الثانية مراتب العمّال والمتولّين جباية الأموال والإشراف على النفقات فى أمر المملكة ومصالح البلد والعِمارات وقسمة المياه . والطبقة الثالثة الكهّان وأصحابُ الهيا كل وخدمتها ومتولو القرابين والمشرفون على جميع ما يتقرّب به من بواكير الفواكه والرياحين وفُتِيِّ البقر والفراريج الذكور ورءوس خوابى الشراب . والطبقة الرابعـة المنجّمون والأطباء والفلاسفة . والطبقة الخامسة أصحاب عِمارة الأرض ومتولّو أمر الزراعة . والطبقة السادسة أصحـاب الصناعات والمِهَن فى كلّ فنّ ، والمشرفون على أعمـالهم ونقلِ ما يستجسنون منها الى خزانة الملك . والطبقة السابعة أصحاب الصّيد من الوَحْش والسّباع والطير والهوامّ والخَشاش ، والمشرفون على أخذ دمائها ومرائرها وشحومها وحملها الى الأطبّاء لإصلاح العقاقير وتأليف الأدوية . وتقدّم ألا يدخل أهل مِهْنة ولا صناعة فى غيرهم ، ومن قصّر فى عمـله عوقب ، ومَن أحسن فى عمـله جوزى بقدره . وكانت رتبة الألحان والملاهى فى قسمة الملك . وتقدّم فى آستنباط المعادن وبناء المدائن ونصب الأعلام والمنارات وإبداع الصناعات وجرّ المياه وتوليد غرائب

١١٠/١٢ ١٠ ١٥ ٢٠

الأشجار . وأقام على أعالى الجبال سَحَرة يقسمون الرياح و يمنعون مَن يقصدهم و يقصد بلادهم بأذًى، وكذلك كلّ مفسد من طائر وسبع ووحش وهوامّ، وأجرى أمر البلاد والناس على سَـدَاد، وجعل فى كلّ صِنف من النـاس صِنْفا من الكَهَنة يعلّمونهم الدين ، ودينهم يومئـذ الصابئة الأولى . و يرفع كلُّ صنف منهم ما يجرى من أمر ما يتولّونه الى الملك فى كلّ يوم . وعمل البيت ذا القِبَاب النوريّة الثلاث، وأوقد فيـه النار الدائمة تعظيما للنـور . والقبط تزعم أنه أوّل من وضع بيتا لتعظيم النار . وقيل : إن جَمْ الفارسىّ إنما بنى بيت النار ـ وهو أوّل من عمل ذلك للفُرس ـ اقتداءً بسهلوق مصر . وكان السبب فى عمـل سهلوق بيت النـار أنه رأى أباه فى نومه يقول له : انطلق الى جبل كذا من جبال مصر فإنّ فيه كُوّةً من صفتها كذا وكذا، و إنك واجد على باب الكوّة أَفْعىً لها رأسان، و إنها اذا رأتك كشّت فى وجهك، فليكن معك طيران صغيران، فإذا رأيتَ الأفعى فاذبحهما لها وألقهما إليها، فإنه يأخذ كلُّ رأس من رأسيها أحدَ الطيرين وتتنحَّى الى سَرَب قريب من الكوّة فتدخله ، فإذا غابت عنك فآدخل الكوّة فإنك تنتهى الى آخرها[(١)] الى صورة آمرأة جميلة الخَلْق ، وهى من نور حارّ يابس، وسوف يقع عليك وَهَجها وتُحِسّ بحرارة شديدة، فلا تقرُب منها فتحترق، وقِفْ وسلّم عليها فإنها تخاطبك فآسكن الى خطابها، وآنظر ما تقوله لك فآعمل به، فإنك تشرُف بذلك . وهى حافظة كنوز جدّك مِصرام التى رفعها الى مدائن العجائب المعلّقة وهى تدلّك عليها . وتنال مع ذلك شرفا فى بلدك وطاعة فى قومك، ثم مضى وتركه . فلمّا آنتبه سهلوق جعل يفكّر فيما رأى و يتعجّب منه، ورأى أن ينفّذ ما أخبره به أبوه، فمضى الى الجبل وحمل الطيرين معـه وفعل جميع ما أمره أبوه الى أن وقف حذاء المرأة وسلّم عليها، فقالت له : أتعرفنى؟ قال : لا، لأنّى ما رأيتك قبل وقتى هذا .

(١) كذا فى الأصلين، ولعله : « فى آخرها » .

قالت : أنا صورة النار المعبودة فى الأمم الخالية، وقد أردتُ أن تُحيي ذكرى وتّخذَ لى بيتا وتُوقد فيه نارا دائمة بقدر واحد، وتّخذ لها عيدا فى كل سنة تحضره أنت وقومك فإنك تّخذ بذلك عنـدى يدًا وتنال به شرفا وملكا الى مُلْكك ، وأمنع عنك وعن بلدك من يطلبك ويعمل الحيلة عليك ، وأدلّك على كنوز جدّك مصرام . فلمّا سمع ذلك منها ضمِن لها أن يفعل، ودلّته على الكنوز التى كانت لجدّه تحت المدائن المعلّقة، وكيف يصير إليها ويمتنع من الأرواح الموكّلة بها وما يبخّرها به . فلمّا فرغ من ذلك قال لها : كيف لى بأن أراكِ فى الأوقات وأسألك عمّا أريده ، أأصير اليك فى هذا المكان أو غيره؟ قالت : أمّا هذا المكان فلا تقدر بعد وقتك هذا عليه؛ لأنّ الأفعَى التى رأيتَها فيه قيِّمتُه لأنّ فيه آيةً تمنع أن يوقف عليها فى وقتنا هذا، ولكن إن أحببتَ أن ترانِى فدخِّن فى البيت الذى تعمله لى بكذا وكذا : أشياءَ ذكرتْها له، منها : عظام ما يقترب له من القرابين والذبائح والصُّموغ، فإنى أتخيّل لك وأخبرك بكل حقّ و باطل مما يكون فى بلدك . فلمّا سمع ذلك منها سُرّ به وغابت عنه، وظهرت الأفعَى وخرج هاربا وجعـل على الكُوَة سَدّا، وعمل ما أمرتْه به وأخرج كنوز جدّه .

١١١ / ١٢

وعمل من العجائب بأمسوس وغيرها ما يطول شرحه . وعمل القبّة المركّبة على سبعة أركان، ولها سبعة أبواب، على كل باب صورةٌ معمولة، وكان يقال لها قبة القصر. وكان السبب فى بنائها أنّ بعض الكهّان جار فى قضيّة قضى بها، وذلك أن بعض العامّة أتاه يشكو آمرأته ـ وكان يحبّها والمرأة تُبْغِضه ـ وسأله أن يقوّمها له، وكانت المرأة من أهل بيت الكاهن، فمالأها على زوجها، وأمره بتخليتها فلم يفعل، فحبسه وشدّد عليه، وكان من أهل الصناعات، فاجتمع جماعة من أهل صَنعته ممّن كان قد عرف حال المرأة معه وأنها له ظالمةٌ وهو لها منصفٌ، فوقفوا على ظلم الكاهن فآستعدَوْا عليه عند خليفة الملك . فأحضر الكاهن وسأله ، فذكر أنه لم يحكم إلّا بواجب . فأحضر

رؤساء الكهنة والقومَ الذين شهدوا للرجل، فوقف على ظلم الكاهن فأخرج الرجل وحبس الكاهن مكانه، وأمر بعقوبة المرأة وردّها إلى زوجها ورفع ذلك إلى الملك، فأمر بإخراج الكاهن من رسم الكِهانة، وأن يُعاقَب ويحبس إلى أن يَرى فيه رأيَه. وآهتمّ الملك لذلك وخشى أن يجرىَ من غير ذلك الكاهن فى أمر الرعيّة مثلُ ماجرى منه، فبات مهموما . ثم فكّر فى أمر النار، فأَتى إلى بيت النار ودخّن بالدُّخْنة التى أمرته بها، فأتته وخاطبته . فسألها أن تعمل له عملا يقف به على حقيقة أمر المظلوم من الظالم، فأمرته أن يعمل بيتا مربّعا على سبعة أركان ويجعلَ له سبعة أبواب فى كل ركن باب، ويعمل فى وسطه قبّة من صُفْر، ويصوّرَ عليها صور الكواكب السبعة، ويعمل تحت القبّة مَطْهَرة من جوهر ملوّن، ويجعل فيها سبعة أدهان من أشجار مختلفة؛ وتكون القبّة معلّقة على سبعة أساطين، ويُعمل على الباب الأوّل تمثال أسد رابض، وحِذاءه من الجانب الآخر لبؤة رابضةٌ من صُفْر ويقرب لها جرو أسد ويبخّرهما بشعره . وعلى الباب الثانى صورةُ ثور وبقرة ويذبح لها عجلا ويبخّرهما بشعره، وعلى الباب الثالث صورة خنزير وحذاءه خنزيرة ويذبح لها خِنّوْصا[1] ويبخّرهما بشعره . وعلى الباب الرابع صورة فرس وحِجْر[2] ويذبح لها مهرا ويبخرهما بشعره . وعلى الباب الخامس صورة ثعلب وحذاءه أُنثاه ويذبح لها جرو ثعلب ويبخّرهما بوَبَره . وعلى الباب السادس صورة حمار وحذاءه أتان ويذبح لها عَيرا ويبخّرهما بشعره . وعلى الباب السابع صورة ديك وحذاءه دَجاجة ويذبح لها فَرُّوجا ويبخّرهما بريشه، ويلطخ وجوهها جميعا بدم مايذبح . ثم يُحْرق بقيّة القُرْبان ويُجْعَل تحت عَتَب أبوابها وتُغَلّق الأبواب، ويُقام للبيت سَدَنة[3] يُوقدونه ليلَه ونهاره . فإذا فرغ ذلك

(١) الخنّوص : ولد الخنزير . (٢) الحجر (بالكسر) : الأنثى من الخيل .
(٣) كذا فى الأصلين، ولعله : « فاذا فرغت من ذلك فتكلم ... الخ » .

يتكلّم على باب الكواكب السبعة ، فإنى سوف ألقى روحانيّـة الكواكب على تلك الصور فتنطق . وإذا فرغت من ذلك فآجعل لكل مرتبة من المراتب التى قسمتها بابا من تلك الأبواب ، وليكن باب الأسـد لأهل بيت المملكة ، وسائر الأبواب لسائر المراتب . فإذا تقدّم الخصمان إلى شىء من تلك الصور آلتصقت بالظالم وشدّت عليه شدّا عنيفا يُؤلمه حتى يخرج لخصمه من حقّه، الذكر للذكر، والأنثى للأنثى ، ٥
فيُعرف بذلك المظلوم من الظالم، ومن كان له قِبَل أحد حقّ ودعاه الى تلك الصور فلم يجئ معه فأتاه المظلوم،وقد عرّف الصورة ذلك ، أُقعد الظالم من رجليه وخَرِس لسانه ولم يتحرّك . فآستراح الملك الى تلك الصورة . ولم تزل على ذلك حتى أزالها الطوفان مع ما أزال من أعمالهم وطِلّسماتهم وعجائبهم . وعُملت فى أيام سهلوق أعمال كثيرة ،وكُتِبت سيرته وما عمل من العجائب فى مصحف . وعمل عقاقير كثيرة وتماثيل ١٠
ومحرّكات وصَنْعة، وأمر أن يُحمل ذلك كلّه إلى ناووس عمله لنفسه فى الجبل الغربىّ ١١٢/١٢
ونقل اليه حِكَمه . وهلك بعد أن ملك تسعا وستين سنة وحمل إلى ناووسه، وأقام أهل المملكة ووجوه المدينة ونساؤهم عند ناووسه شهرا يبكون عليه ويتوجّعون عنده، وآغتمّوا عليه غمّا لم يغتمّوه على ملكٍ قبله ، وأقاموا لناووسه سَدَنة يخدمونه .

وملك بعده آبنـه سُوريد بن سُهلوق ،وكان أبوه قد قلّده الملك قبل مَهْلِكه ، ١٥
فملك وآقتفى سيرة أبيه فى العِمارة ومصالح البلد والإنصاف بين الناس والأخذ لهم من نفسه وأهل بيته ،وعمل الهياكل وبنى المنارات ، ونصب الأعلام والطِّلّسمات فأحبّه الناس . وبنى بالصعيد ثلاث مدائنَ وعمل فيهـا عجائب كثيرة . وهو أوّل من جبى الخراج بمصر، وألزم أهل الصناعات على أقدارهم ،وأوّل من أمر بالإنفاق على الزَّمْنَى والمرضَى من خزائنه . وعمل مرآة من أخلاط كان ينظر منها جميع الأقاليم ما أخصب منها ٢٠
وما أجدب وما حدث فيها ،وكانت المرآة على منارة من النحاس وسط مدينة أمسوس ،

وكان يعلم من المرآة مَن يقصد مدينته من جميع النواحى فيتأهّب له . وهو أوّل من عمل صحيفة فى كلّ يوم يكتب فيها جميع ما يكون فى يومه وما يعمله ويُرفَع اليه، ثم يُخلد فى خِزانته يوما بيوم . وإذا مضى الشهر نُقلت إلى مصحف الملك وختمه بخاتَمه، وما صلح أن يُزبَر على الحجارة زَبَره : وكذلك ماعُمل من الصنائع وما أحدِث منها . وكان يُعطِى الرغائب على الصِّناعات العجيبة والحِكَم الغريبة . وعمِل فى المدائن صورة آمرأة جالسة فى حِجرها صورة صبىّ كأنها تُرضعه ، فمن أصابتها عِلّة بجسمها مسحت ذلك الموضع من جسد تلك الصورة فيزول عنها ما تجد، وكذلك إن قلّ لبنها مسحت ثديها، وإن أحبّت أن يعطف عليها زوجها مسحت وجهها بدهن طيِّب وقالت افعلى كذا وكذا ، وإن قلّت حيضتها مسحت فوق رَكَبها ، وإن كثر دمها ونزفت مسحت تحت رَكَبها ،وإن أصاب ولدها شىء فعلت مثل ذلك بالصبىّ فيبرأ ، وإن عزّت[1] ولادتها ومَسحت رأس الصبىّ سهلت ويسهل افتضاضها ، وإذا بخرته ومسحته بدهن طيِّب منع جميع التوابع . وإذا وضعت الزانية يدها عليها ارتعدت حتى تكفّ عن زناها . وما كان من أعمال الليل بُخِّرت ليلا ، وما كان من أعمال النهار بُخِّرت نهارا . وكانت تعمل أعمالا كثيرة إلى أن أزالها الطوفان .

قال : وفى بعض كتب القِبْط أنها وجدت بعد الطوفان وأنهم استعملوها وعبدوها. وصورتها مصوّرة فى جميع البرابى ، وآسمها نبلوية ، والذى دلّهم عليها قرابة فليمون[2] الكاهن . قال : وعمل سوريد عجائب كثيرة، منها الصنم الذى يقال له نكرس[3] المعمول من عدّة أخلاط كان يعمل أعمالا كثيرة فى الطبّ ودفع الأسقام

(١) عبارة المقريزى (ج ٣ ص ٢١ طبعة فييت) : «وإن عسرت ولادة امرأة مسحت رأس الصبىّ الذى فى حجر الصورة فتضع حملها» .

(٢) فى المقريزى (طبعة فييت) : «فيلمون» وفى معجم البلدان وبعض نسخ المقريزى : «قليمون» بالقاف . (٣) فى ب « تكرس » بالتاء .

والعلل، و يعرفون به من تبرئه الأدوية فيعيش، و إن كان يموت فله علامات فيقصرون عن علاجه، وكانوا يغسلون المواضع التى بإزاء أعضاء العلّل منه ويسقى لصاحب الداء فيزول عنه . وهو أوّل من عمل الأفروثنات(١) وزبر فيها جميع العلوم . وهو الذى بنى الهرمين الكبيرين .

ذكر خبر بناء الأهرام وسبب بنائها وشىء من عجائبها

قال: كان بناء الأهرام قبل الطوفان بنحو ثلاثمائة سنة . وقد ذكرنا فيما سلف من كتابنا هذا نبذة من خبر الأهرام فى الباب الثالث من القسم الخامس من الفنّ الأوّل(٢)؛ وذلك فى السِّفر الأوّل من هذه النسخة . ونحن الآن نذكر من خبرها خلاف ماقدّمناه مما أورده إبراهيم بن القاسم الكاتب مما آختصره من كتاب العجائب الكبير لإبراهيم بن وصيف شاه . قال: كان سبب بنائها أن الملك سوريد رأى رؤيا أفزعته؛ رأى كأنّ الأرض آنقلبت بأهلها، وكأنّ الناس يخرّون على رءوسهم، وكأنّ الكواكب تتساقط و يصدم بعضها بعضا بأصوات هائلة مفزعة، فغمّه ذلك ولم يذكره لأحد، وعلم أنه سيحدث فى العالم أمر عظيم . ثم رأى بعد ذلك [بأيام](٢) كأنّ الكواكب الثابتة [نزلت الى الأرض](٣) فى صور طيور تنصب(٤)، وكأنها تخطف الناس وتلقيهم بين جبلين عظيمين، وكأنّ الجبلين انطبقا عليهم، وكأنّ الكواكب النيّرة مظلمة كاسفة؛ فآنتبه أيضا مذعورا فزعا، فدخل الى هيكل الشمس وجعل يمرّغ خدّيه و يبكى . ولمّا أصبح أمر

(١) الأفروثنات : لفظ يونانى معناه القبور . وفى معجم البلدان لياقوت (ج ٤ ص ٩٦٣ طبع أوربا) : « الأفرونيات » .
(٢) راجع (ج ١ ص ٣٨٨ من هذه الطبعة) .
(٣) التكملة من خطط المقريزى (ج ٢ ص ١١٣ طبعة فييت) .
(٤) فى خطط المقريزى « ... طيور بيض » .

بجمع رؤساء الكهنة من جميع أعمال مصر فآجتمعوا، وكانوا مائة وثلاثين، فخلا بهم وقصّ عليهم رؤياه، فأعظموه وأكبروه وأوّلوه على أمر عظيم يحدث فى العالم. فقال لهم فليمون — وكان من كبارهم وكان لا يبرح من حضرة الملك لأنه رأس كهنة أمسوس — : إنّ فى رؤيا الملك لعجبا وأمرا كبيرا، والملوك رؤياهم لا تجرى على فساد ولا كذب لعِظَم أخطارهم، وكِبَر أقدارهم. وأنا أخبر الملك عن رؤيا رأيتها منذ سنة لم أذكرها لأحد من الناس. فقال له الملك: قُصّها علينا. قال: رأيت كأنى مع الملك على رأس المنار الذى فى أمسوس، وكأنّ الفلَك قد آنحطّ من موضعه حتى قارب سَمْت رءوسنا، وكان علينا كالقبّة(١) المحيطة بنا، وكأنّ [الملك قد رفع يديه نحو السماء وكواكبها](٢) قد خالطتنا فى صور مختلفة، وكأن الناس يستغيثون بالملك وقد آنضمّوا الى قصره، وكأنّ الملك رافع يديه ليدفع الفلك أن يبلغ رأسه، وأمرنى أن أفعل فعله ونحن على وجل شديد، إذ رأينا منه نورا مضيئا طلعت علينا منه الشمس، فكأنّا استغثنا بها، فخاطبتنا بأنّ الفلك سيعود الى موضعه اذا مَضت ثلاثمائة دورة، وكأنّ الفلَك لِصق بالأرض ثم عاد الى موضعه، ثم آنتبهت فزعا. فعند ذلك قال لهم الملك: خذوا آرتفاع الكواكب فآنظروا هل من حادثة تحدث. فنظروا فأخبروه بأمر الطوفان وبعده بذكر النار [التى تخرج من بُرْج الأسَد تحرق العالم](٣)، فذكروا له أن ذلك يكون فى وقت عيّنوه له من مقارنات النجوم ونزولها فى الأبراج على ما حرّروه من الدقائق، وشرحه إبراهيم فى كتابه ممّا لا فائدة لنا فى ذكره. قال: فلما تبيّن ذلك له أمر بقطع الأساطين العظام ونشر البلاط

(١) كذا فى المقريزى (ج ٢ ص ١١٤ طبعة فييت) وفى الأصلين: «كالمكبة».

(٢) التكملة من خطط المقريزى. وفى الأصول: «وكأن كواكبه».

(٣) الزيادة من خطط المقريزى.

الكبير المصفّح، وآستخراج الرصاص من أرض المغرب ، وإحضار الصخور السود التى جعلها أساسا من ناحية أسوان ، وكانت تُحمَل على أطواف[1] . وقيل : كانت لهم فراقل من خوص لها عَذَبٌ وعليها كتابة منقوشة، فكانوا إذا ضربوا بها الحجارة عَدَتْ على وجه الأرض وحدها مقدار رمية سهم حتى وضعت الأساساتُ . وأمر أن يُزبَر على البلاط المنشور المهندم جميعُ علومهم . ثم بنى الأهرام الثلاثة الأُوَل : الشرقىّ، والغربىّ، والملوّن؛ فكانوا يجعلون فى وسط البلاطة قلب حديد قائما ويركّبون عليه بلاطة أخرى مثقوبة الوسط، ثم يُدْخَل ذلك القلب الحديد فى ثقب البلاطة التى تُطبَق عليه، ويذاب الرّصاص ويُصبّ حول البلاطة بعد أن تؤلّف الكتابة التى عليها . وجعل أبوابها من تحت الأرض بأربعين ذراعا فى آزاج[2] مبنيّة بالحجارة فى الأرض، طول كل أَزَج مائة وخمسون ذراعا . قال : فأما باب الهرم الشرقىّ فإنه من الناحية الجنوبيّة[3] على قياس مائة ذراع من وسط حائط الهرم الى الناحية الجنوبيّة، ويحفر حتى ينزل الى باب الأزج ثم يدخل اليه منه . وأما باب الهرم الغربىّ فمن الناحية الغربيّة يُقاس أيضا من وسط الحائط الغربىّ الى الغرب مائة ذراع، ويحفر حتى ينزل الى باب الأزج المبنىّ ويدخل منه اليه . وأما باب الهرم الملوّن فمن الناحية البحرية[4] يقاس أيضا من وسط الحائط البحرىّ مائة ذراع ، ويحفر حتى ينزل الى باب الأزج . وجعل طول كل واحد منها أربعمائة

(١) الطوف : خشب يشد بعضه الى بعض ويركب عليه فى الماء .

(٢) الأزج بالتحريك : بيت يبنى طولا ، ويقال له بالفارسية : « أوستان » وانظر الكلام عليه فى شرح القاموس واللسان والصحاح والمصباح وكتاب الألفاظ الفارسية المعربة لأدّى شير .

(٣) فى معجم البلدان لياقوت (ج ٤ ص ٩٦٤) : « الناحية البحرية » . وفى خطط المقريزى : « الناحية الشرقية » .

(٤) فى معجم البلدان لياقوت : «الناحية القبلية» . وفى خطط المقريزى : « الناحية الجنوبية » .

ذراع بالملكى، يكون خمسمائة بذراعنا . وجعل تربيع كل واحد أربعمائة ذراع . وبناها فى الأستواء الى أربعين ذراعا ثم هرّمها[(١)] . وكان أوّل بنائهم لها فى أوقات السعادة، فلمّا فرغ منها كساها ديباجا مُلوّنا من أعلاها الى أسفلها، وعمل لها عيدا عظيما لم يبق فى المملكة أحد إلّا حضَره . ثم أمر بعمل[(٢)] ثلاثين جرنا من حجارة الصوّان ملوّنة فجعلت فى الهرم الغربىّ، ونقل اليها من الكنوز والأموال والجواهر المعدنيّة، والجواهر المسبوكة الملوّنة، والآلاتِ الزَّبَرْجَد، والتماثيل المعمولة، والطِّلّسمات، والحديد الفاخر، والسلاح الذى لا يصدأ، والزجاج الذى ينطوى[(٣)] ولا ينكسر، والنواميس والمولّدات والدُّخَن وأصناف العقاقير والمفردات والمؤلّفات والسموم وغير ذلك شيئا كثيرا لا يدرك وصفه . ونقل الى الآخر وهو الشرقىّ أصنام الكواكب والقباب الفلكيّة، وما عمل أجداده من التماثيل والدُّخَن التى يتقرب بها لها ومصاحفها، وما عمل لها من التواريخ والحوادث التى مضت، والحوادث التى تحدث، والأوقات التى تحدث فيها، ومن يلى مصر من الملوك الى آخر الزمان، وكَون الكواكب الثابتة وما يحدث بكَوْنها وقتا وقتا، وجعل فيها المطاهر[(٤)] التى فيها المياه المدبّرة والبودقات الدهنية وما أشبه هذه الأشياء . وجعل فى الهرم الآخر أجساد الكهنة فى توابيت من الصوّان الأسود، وعند كل كاهن منهم مصحف فيه عجائب صناعته وسيرته وما عمل فى وقته . وكانوا سبع مراتب . فالمرتبة الأولى القاطرون، وهم الذين يعبدون الكواكب السبعة لكل كوكب

(١) يلاحظ أن هذا الوصف ينطبق عما كان فى عصر المؤلف . وقد كشف العلم الحديث عن أشياء كثيرة تدل على عظمة بناء هذا الأثر الخالد .

(٢) عبارة المقريزى: «ثم عمل فى الهرم الغربى ثلاثين مخزنا من حجارة صوان ملون وملئت بالأموال الجمة والآلات والتماثيل المعمولة من الجواهر النفيسة ... الخ» . (٣) كذا فى خطط المقريزى . «الذي لا يطوى» . (٤) كذا فى خطط المقريزي . وفى الأصلين «والمطاهر» .

سبع سنين ، ومعنى القاطرون جامع العلوم . والمرتبة الثانية لمن يعبد ستّة من الكواكب وهم اللاحقون بالدرجة الأولى . ثم يسمّون صاحب الخمسة وما دونها كل واحد بآسم ، فجعل فى كل ناحية من الهرم مرتبة من هذه المراتب ، فأجسادهم هناك وما عملوه من العجائب . وجعل فى الحيطان[1] من كل جانب مما يدور أصناما [تعمل][2] بأيديها جميع الصنائع على مراتبها وأقدارها ، وصفة كل صنعة وعلاجها وما يصلح لها ، وكذلك أصحاب النواميس ومن عالج شيئا من الأشياء وجعل فيها أموال الكواكب التى أُهديت إليها الكواكب وأموال الكهنة . وجعل لكل هرم منها خادما ، فخازن[3] الهرم الشرقىّ صنم من جزع أسود [مجزّع بأسود][3] وأبيض له عينان مفتوحتان [برّاقتان ، وهو][3] جالس على كرسىّ ، ومعه شبيه بالحربة ، إذا نظر إليه الناظر سمع من جهته صوتا كالرعد يكاد يفزع قلبه ، فيهيم على وجهه ويُختَلَس عقله ، ولا يكاد يفارق الهرم حتى يموت فيه . وجعل خازن الهرم الآخر من حجر الصّوّان المجزّع ، معه شبيه بالحربة ، وعلى رأسه حيّة تطوّق[4] بها ، من قَرُب منه وثبت عليه من ناحيته وتطوّقت فى عنقه فقتلته [ثم تعود إلى مكانها] . وجعل خازن الهرم الثالث صنما صغيرا من حجر البِهِتّة[5] على قاعدتيه ، من نظر إليه آجتذبه إليه حتى يلتصق به فلا يفارقه حتى يموت . فلمّا فرغ من ذلك حصنها[6] بالأرواح وذبح لها

(١) كذا فى خطط المقريزى (ج ٢ ص ١١٧ طبعة فييت) وفى الأصلين : «فى حيطان البربى مما يدور» .

(٢) الزيادة عن خطط المقريزى (ج ٢ ص ١١٧ طبعة فييت) .

(٣) فى خطط المقريزى كلمة "خادم" بدل "خازن" فى هذا المقام .

(٤) كذا فى خطط المقريزى . وفى الأصلين « مطوّقة » .

(٥) حجر البهتة ، ويقال له البهت والباهت ، يوجد فى المحيط الأطلنطى وكانت له شهرة فى أفريقية الغربية حيث يباع بثمن غال . وقد نسب اليه أهل الشرق خصائص عجيبة . (عن قاموس دوزى باختصار) .

(٦) كذا فى المقريزى . وفى الأصلين : «صدها» .

الذبائح لتمنع[1] عن نفسها [من أرادها] إلا من قرّب إليها وعمل لهـا أعمال الوصول فإنه يصل إليهـا . قال : وذكر القبط أنه كُتِب عليها آسم الملك والوقت الذى بناها فيه ، ويقول : إنا بنيناها فى ستّ سنين[2] فقل لمن يأتى بعدنا يهدمها فى ستمائة سـنة فإن الهدم أهون من البُنيان . وإنا كسوناها الدِّيباج الملوّن المذهب المرقوم
٥ بالذهب فقل لمن يأتى بعدنا يكسوها حصيرا . فنظروا فوجدوا أحدا لا يقوم بهدمها وكسوتها لأنه لا يستطاع ذلك ولا يُقدَر عليه .

قال : وحُكى عن هذه الأهرام عجائب يطول الشرح بذكرها ؛ منها أن المأمون لمّـا دخل إلى مصر أحبّ أن يهدم أحدها ليعلم ما فيهـا ، فقيل له : إنك لا تقدر على ذلك . فقال : لا بدّ من فتح شىء منه[3] . فعولجت الثُّلمة المفتوحة منه فأنفق
١٠ عليها مالا كثيرا لنار توقد وخلّ يُرَشّ ومنجنيقات ترمى بها ، فوجد عرض الحائط قريبا من عشرين ذراعا . فلما آنتهوا الى داخل الهـرم وجدوا خلف الحائط عند النقب مطهرة خضراء فيها ذهب مضروب دنانير، وزن كل دينار أُوقية[4] من أواقينا ، وكان عددها ألف دينـار ، فعجبوا من ذلك ولم يعرفوا ما معناه ، ثم أُتِىَ المأمون بالذهب والمطهرة فجعـل يتعجّب من الذهب وحسنه وجودته وحمرته ، فقال :
١٥ ارفعوا لى حساب ما أنفقتموه على هذه الثُّلْمة ففعلوا ، فوجده بإزاء المـال الذى أصابوه لا يزيد ولا ينقص . فعجب المأمون من معرفتهـم على طول المُدَد بأنهم سيفتحونه من ذلك الموضع بعينه، ومعرفتهم بمقدار ما يُنفَق عليه وتركهم مقداره

(١) فى الأصلين : «فتمنع» والتصويب من خطط المقريزى .

(٢) فى الأصلين : « فى ستة أشهر » .

٢٠ (٣) وكان ذلك فى سنة ست عشرة ومائتين كما فى صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٢٥ .

(٤) بهامش نسخة ب ما نصه : « الأوقية هى سبعة مثاقيل زنتها أربعون درهما فيما مضى . وأوقية الأطباء عشرة دراهم وخمسة أسباع درهم وهو أستار وثلثا أستار، وأوقية بزر القز إثنا عشر درهمـا » .

فى موضعه، فقال : كان هؤلاء القوم من العلوم بمنزلة لا ندركها نحن ولا أمثالنا . وقيل : إنّ المطهرة التى وُجد فيها الذهب كانت من زَبَرْجَد، فأمر المأمون بحملها إلى خزانته، وكانت أحد ما حمل من عجائب مصر .

ومن عجائب أخبارها أنّ المأمون لمّا فتح الهرم أقام الناسُ سنين يقصدونه ويدخلون فيه ويتزلون الزّلاقة التى فيه، فمنهم من يسلَم ومنهم من يهلك . ٥ وأنّ جماعة من الأحداث آهتمّوا، وكانوا عشرين رجلا، على أن يدخلوا الهرم ولا يبرحوا منه حتى يقفوا على منتهى أمره، فأخذوا معهم من الطعام والشراب ما يكفيهم لشهرين، وأخذوا السكك والحبال والشمع والوقيد والفئوس والقِفاف ودخلوا الهرم، ونزل أكثرهم فى الزّلاقة الأولى والثانية، ومضَوْا فى أرض الهرم فرأَوْا فيه خفافيش بقدر العِقْبان تضرب وجوههم، فانتهَوْا إلى لِصْب(1) فى حائط تخرج ١٠ منه ريح باردةٌ لا تفتُر، فذهبوا ليدخلوا فآنطفأتْ سُرُجهم، فجعلوها فى زجاج وذهبوا ليدخلوا فكاد اللِّصْب ينطبق عليهم فهابُوه فقال أحدهم : اربُطُوا وَسَطِى بحبل وأنا أدخل، فإذا كاد اللِّصْب ينطبق بجرّونى إليكم؛ وكان على باب اللّصب أجرنةٌ(2) فارغةٌ فعلموا أنّ أجساد موتاهم داخل ذلك اللصب، فربطوه بالحبل، فلمّا تقحّم(3) اللصبَ انطبق عليه بجزّه أصحابه فلم يقدروا على نَزْعه وسمعوا عظامه تُتكسّر، وسمعوا صيحة ١٥ هائلة فسقطوا على وجوههم لا يعقلون . فلمّا أفاقوا طلبوا الخروج فأخرجهم أصحابهم بشدة، وسقط بعضهم فى وقت صعودهم من الزّلاقة فنزل، وخرجوا من الهرم فجلسوا فى سَفْحه متعجّبين، فإنهم كذلك إذ أخرجت لهم الأرض صاحبهم

١١٥/١٢

(1) اللصب (بالكسر) : الشعب الصغير فى الجبل .

(2) أجرنة : الأجرنة جمع جرن بالضم وهو حجر منقور للماء . ٢٠

(3) تقحم اللصب : دخل فيه .

يتكلّم بكلام كاهنيّ فسّره لهم بعض أصحاب الديارات بالصعيد: هذا جزاء من يطلب ما ليس له؛ ثم سقط ميّتا، فحملوه وفُطِن بهم فأُخذوا وأُتِيَ بهم إلى الوالى فحدّثوه بالخبر.

وفى خبر آخر: أنّ قوما دخلوا الهرم وآنتهَوْا إلى أسفله وطوّفوه فعَرض لهم مثلُ الطريق فساروا فيه فوجدوا قبّة تحتها كالمطهرة يقطُر فيها ماءٌ فينِشّ[1] ثم يَغيض[2] ولم يدرُوا ما هو، ووجَدوا موضعا كالمجلس المربّع حيطانه كلّها بحجارة مُلوّنة عجيبة، فقلَع أحدهم منها حجرا وجعله فى كمّه فآنسدّت أذناه من الريح، ولم تزل تُصِر[3] وهو معه، ووجدوا مكانا كالفوّارة العظيمة فيها ذهبٌ مضروبٌ كثير يكون الدينار منه زهاءَ مائة مثقال، فأخذوا منه شيئا فلم يستطيعوا أن يمشُوا ولم يتحرّكوا حتى تركوه من بين أيديهم. ووجدوا فى مكان آخر كالصُّفّة فيها شيخٌ من حنتَم[4] أخضرَ كأنه مشتمل بشَمْلة، و بين يديه تماثيلُ صِغار فى صُوَر الصِّبيان وكأنه يعلمهم، فأخذوا منه شيئا فلم يقدِروا أن يتحرّكوا فردّوه، ومشَوْا أيضا فى ذلك الطريق فوجدوا بيتا مسدودا فيه دوِيّ هائلٌ وزمزمةٌ فلم يتعرّضوا له، ومضَوْا فوجدوا كالمجلس المربّع فيه صورة ديك من جواهرَ معمولةٍ، قائم على أُسطوانة خضراءَ، وله عينان يُسرج منهما المجلس، فلما قربُوا منه صوّت بصوت مُفزِع وخفَق بجناحيه، فتركوه ومضَوا حتى بلغوا صنما من حجر أبيضَ فى صورة آمرأةٍ منَكّسة على رأسها ومن جانبيها أسدان من حجارة كأنهما يريدان نهسها[5]، فجعلوا يتعوّذون و يقرءون إلى أن جاوزوها. قال: وقيل إنهم مشَوْا حتى لاح لهم نور فآتّبعوه فإذا بفُوّهة مفتوحة فخرجوا منها فإذا هم

(١) ينش: يأخذ ماؤه فى النضوب. (٢) يغيض: ينقص. (٣) تصر: تصوت صوتا شديدا. (٤) الحنتم: جرار خضر تضرب الى الحمرة.

(٥) نهسها: يقال نهسه الكلب والذئب والسبع بالسين المهملة، ونهشته الحية بالشين المعجمة.

فى صحراء ، و إذا على باب تلك الفُوهة تمثالان من حجر أسوَد معهما كالمزراقين فعجبوا من ذلك . ووجدوا أجرنة منقورة وأسطوانات مخروطة ، فساروا منها بُعُدًا فآنتهوا إلى ماء وجدوه فى نِقَار[1] حذاء تلك الفُوهــة ، وأخذوا نحو المشرق فساروا يوما حتى وصلوا إلى الأهرام من خارج فأخبروا والى مصر بخبرهم ، فوجّه معهم مَن يدخل من تلك الفُوهة ، فطافوا فلم يجدوها وأُشكل عليهم أمرُها . ووجد الآخِذُ للحجر الحجرَ جوهرا نفيسا فباعه بمـال .

قال : وحُكى أنّ قوما فى زمن أحمــَد بن طولون[2] دخلوا الهــرم فوجدوا فى طاق فى أحد بيوته أستاندانة زجاجا ثخينة فأخذوها وخرجوا ، ففقــدوا رجلا منهم فدخلوا فى طلبــه ، إذ خرج عليهم الرجل عُرْيانا يضحَك و يقول : لا تتعبوا فى طلبى ، ورجع هاربا الى أن دخل ، فعلموا أن الجنّ استهوته وشاع أمرُهم ، فأخذوا الأستاندانة منهم ومُنع الناس من الدخول الى الهرم ، ووُزنت الأستاندانة فكانت أربعــة أرطال زجاجا أبيضَ صافيا ، فآنتبه رجل من أهل المعرفة لهـا وقال : لم تُعمَل إلّا لشىء ، وملأَها ماء ووَزنهـا فوجد وزْنهـا وهى ملأَى مثل وزْنها فارغة لا تزيد ولا تنقُص فكانت أُعجوبة .

وحُكى أن قوما دخلوا الهرم ومعهم مَن يريدون يعبثون به ، فلمّا همّوا بذلك خرج عليهم غلام أسـودُ أمردُ فى يده عصا فأخذ فى ضَرْبهــم ، فخرجوا هاربين وتركوا ما كان معهم من طعام وشراب و بعض ثيابهم .

وحُكى أن رجلا دخل بآمرأة ليفجُر بها فصُرعا جميعـا ولم يزالا مجنونَيْن مشهورَيْن حتى ماتا .

(١) نقار : النقار جمع نقرة بالضم ، الوهدة المستديرة فى الأرض غير كبيرة .

(٢) فى عقد الجمان للعينى : « طولون بضم الطاء اسم تركىّ معناه : البدر الكامل » .

قال : وفى بعض مصاحف القِبْط أن سُورِيد الملك لما أخبره كهنته بخبر النار المحرقة وأنها تخرُج من برج الأسد فتحرق العالَم، عَمِل فى الأهرام مَسارِب موجّهة الى آزاج ضيّقة تجتلب الرياح الى داخل بصوت هائل . وعمِل فيها مَسارب يدخل منها ماء النيل الى مكان ينتهى الى موضع من أرض الغرب وأرض الصعيد، وملأ تلك الأسراب عجائب وطلّسمات وأصناما تنطق .

قال : وحَكى بعض القِبْط أن سُوريد لمّا أخبره منجّموه قال : انظروا لبلدنا هذا هل تلحقه آفة ؟ فنظروا فقالوا : يلحقه طوفان ويلحقه خراب يُقيم فيه عدّة سنين وتغلب عليها التنانين . قال : كيف يكون خرابها ؟ قالوا : يقصدها ملك فيقتل أهلها ويَغْنَم مالها ويهدم مصانعَها . قال : ثم ماذا ؟ قالوا : ثم تكون عمارتها من قِبَله . قال : ثم ماذا؟ قالوا : ثم يقصدها قوم مشوّهون من ناحية مصبّ النيل فيأتون على أكثرها . قال : ثم ماذا ؟ قالوا : ثم ينقطع نيلها ويجلو أهلها عنها ؛ فأمر أن يكتَب جميع ذلك على الأهرام .

قال : وذكر رجل من أهل الغرب ممن يختلف الى الواح ويحمل الشّمار(1) على جمل له أنه بات فى بعض الليالى قُرب الهرم فما زال يسمع الضوضاء والعطعطة فهاله ذلك وتباعد عنه بجمله، وكان يرى حول الهرم شِبْه النيران تأتلق، فلم يزل مرعوبا الى أن سرقته عيناه فنام وأصبح وهو فى الموضع الذى جمع منه الشّمار وشَماره موضوع بحاله، فتعجّب من ذلك وشدّ شماره على جمله ورجع الى الفُسطاط وآلى على نفسه ألّا يقرُب من الهرم بعد ذلك .

116/12

(1) الشمار : هو الرازيانج تعريب رازيانه وهو الأنيسون، وأنواعه ثلاثة : بستانى و برى وشامى . وهو نبات بزره حرّيف مرّ .

قال : والقبط يذكرون أنّ روحانيّة الهرم الغربى فى صورة آمرأة عُرْيانة مكشوفة الفرج حسناء لها ذؤابتان ، فإذا أرادت أن تستفزّ الإنْسِيّ ضحكت اليه فاختلسته الى نفسها فيدنو منها فتستهويه ويزول عقله . قال : وقد رأى جماعة هذه المرأة تدور حول الهرم وقت القائلة وعند غروب الشمس . وروحانيّة الهرم الشرقى غلام أمردُ أصفر عُريان له ذؤابة . قال : وقد رأوه أيضا يطُوف حوله . وروحانيّة الهرم الملوّن فى صورة شيخ يرى عليه بُرْطُلّةٌ(١) وفى يده مِجْمرة من مجامر الكنائس وهو يبخّر كذلك فى جميع الأفروثنات(٢) .

* * *

وأمّا روحانيّات البرابى : فبِرْبا إخميم(٣) روحانيّتها غلام أسود عُرْيان . وروحانيّة بِرْبا قفْط(٤) فى صورة جارية سوداء تحمل صبيّا أسود صغيرا . وروحانيّة بِرْبا دَندرة(٥) فى صورة إنسان رأسه رأس أسَد وله قرْنان . وروحانية بربا بُوصِير(٦) فى صورة شيخ

(١) برطلة ، البرطلة (بضم البا ، وفتح اللام وتشدّد) : المظلة الصيفية ، نبطية وقد استعملت فى لفظ العرب .

(٢) راجع الحاشية رقم ٤ صفحة ٢٠ من هذا الجزء .

(٣) إخميم : من البلاد المصرية القديمة واقعة على الشاطىء الشرقى للنيل . وكانت إخميم فى عهد الفراعنة قاعدة قسم « خمينو » وفى عهد الرومان قاعدة قسم « بانوس » وفى عهد العرب قاعدة كورة الإخميمية ، واستمرت كذلك الى آخر حكم دولتى المماليك . وفى العهد العثمانى ألغيت الإخميمية وأضيفت بلادها الى ولاية جرجا وأضحت إخميم إحدى بلاد مركز سوهاج . وفى سنة ١٩٠٣م صدر قرار من الداخلية بفصل البلاد الواقعة شرقى النيل من مركز سوهاج وجعلها مركزا باسم إخميم وهى قاعدة المركز من تلك السنة الى اليوم . (راجع النجوم الزاهرة الحاشية رقم ٢ ص ٣١٣ من الجزء الخامس طبع دار الكتب المصرية) .

(٤) قفط : مدينة بالصعيد الأعلى ، اسمها القديم «قوبطى» ومنه اشتق اسم قبطى وأقباط للمصريين . وهى وطن الوزير الصاحب جمال الدين القفطى الملقب بالقاضى الأكرم وزير حلب المتوفى سنة ٦٤٦هـ .

(٥) سيذكرها المؤلف فيما بعد أثناء كلامه على قفطريم بن قبطيم .

(٦) هى بوصير سمنود ، وكانت قاعدة شهيرة قبل الاسلام .

أبيض عليه زىّ الرهبان ومعه مصحف يحمله . وروحانية بِربا سمنود[1] فى صورة شيخ آدم طوال أشيب صغير اللحية . وروحانيّة بِرْبا عدىّ فى صورة راع عليه كساء ومعه عصا . وهـذه البربا فى أعمال المُرْتاحيّة[2] من عمل أشمون طنّاح[3] بقرب تلبانة عدىّ[4] .

قال : ولكلّ من هـذه الأهرام والبرابى قرابين وبُخورات تظهر كنوزها وتؤلّف بين الناس والروحانيّين الذين بها .

(١) سمنود : مدينة شهيرة بالوجه البحرى بمصر، واسمها الفرعونى تبنوتير واليونانى سبنيطوس .

(٢) المرتاحية : هو اسم أحد الأقاليم المصرية بالوجه البحرى فى العهد العربى، وكان يقال لها : كورة المرتاحيـة ثم الأعمال المرتاحية. وكان إقليم المرتاحية واقعا فى المنطقة التى تشمل اليوم بلاد مركزى المنصورة وأجا بمديرية الدقهلية، وكان يجاوره من الجهة البحرية إقليم الدقهلية . وكان إقليم الدقهلية فى ذاك الوقت واقعا فى المنطقة التى تشمل اليوم بلاد مراكز فارسكور ودكرنس والمنزلة بمديرية الدقهلية . وفى زمن حكم دولتى المماليك جعـل هذان الإقليمان إقليما واحدا باسم إقليم الدقهليـة والمرتاحية . وفى عهد الحكم العثمانى اختصر باسم الدقهليـة ولم يزل يطلق لغاية اليوم على مديرية الدقهلية التى قاعدتها مدينـة المنصورة . (راجع النجوم الزاهرة الحاشية رقم ٣ ص ٣١٢ من الجزء الخامس طبع دار الكتب المصرية) .

(٣) أشمون طناح، ويقال لها «أشموم طناح» : وهى من المدن المصرية القديمة واقعة على الشاطىء الشرقى للبحر الصغير الذى كان يسمى بحر أشموم نسبة الى هذه المدينة، وكان اسمها المصرى شمون أرمان، والرومى بانيفوسوس، وسماها العرب أشموم طناح نسبة الى كورة طناح التى كانت تقع أشموم فى دائرتها، وتعرف اليوم باسم أشمون الرمان، وهو اسمها القديم محرفا .

ولما تكلم عليها ابن دقاق فى كتاب الانتصار قال : « وتعـرف بأشموم طناح وأشمـوم الرمان، وهى قصبة كورة الدقهلية ومدينة ذات حمامات وأسواق وجوامع وفنادق» وقد استمرت قاعدة لإقليم الدقهلية والمرتاحيـة الى آخر عهد المماليك . وفى أوائل الحكم العثمانى نقلت القاعدة الى مدينة المنصورة ومن ذلك الوقت اضمحلت أشمون الرمان وزال ما كان فيهـا من آثار المدنية والعمران، وأصبحت اليوم قرية عادية من قرى مركز دكرنس بمديرية الدقهليـة . (راجع النجوم الزاهرة الحاشـية رقم ٢ ص ٣٢٨ من الجزء السادس طبع دار الكتب المصرية) .

(٤) تلبانة عدىّ : بلد بمركز المنصورة بمديرية الدقهلية . وقـد ورد فى المشترك والتحفة السنية لابن الجيعان : أنها من أعمال الدقهلية والمرتاحية . وفى مساحة سنة ١٢٢٨ هـ وردت مختصرة باسمها الحالى .

*
* *

ولنرجع الى أخبار الملوك قال : وأقام سُورِيد فى الملك مائة سنة وسبع سنين، وقد كان منجّموه عرّفوه الوقت الذى يموت فيه واليوم والساعة، فأوصى الى آبنه هِرجيبْ وعرّفه ما يعمل، وأمره أن يُدخل جسده الهرم، وأن يجعله فى الحُزْن الذى أعدّه لنفسه ويغشّيه بكافور، ويحمل معه ما أعدّه من فاخر الثياب والسلاح والآلات، فآمتثل جميع ما أمره به .

ولما مات ملك بعده آبنه هرْجيب(1) بن سُوريد فسار بسرة أبيه فى العدل والعمارة والرأفة بالناس، فأحبّوه . وبنى الهرم الأوّل من أهرام دَهْشور وحمل اليه من المال والجوهر . وكان غرضه جَمْعَ المال وعَمَل الكيمياء وآستخراج المعادن ودفن ما تهيّأ له من الكنوز فى كل سنة . وكانت له آبنة أفسدَت مع بعض خدمه فنفاها الى ناحية الغرب، وأمر أن تُبنى لها مدينة هناك ويقام عليها علَم ويُزبَر عليها آسمها، وأسكن معها كل آمرأة مسنّة من أهل بيته . قال : وشجّ رجل رجلا فأمر بقطع أصابعه ، ووجد سارقا من العامّة فملّك رقّه الذى سرق منه، وعمل منارات ومصانع وطلّسمات ، وملكهم نيّفا وسبعين سنة .

وملك عليهم بعده آبنه منْقاوش بن هرجيب وكان جبّارا أثيما فآذى الناس وسفَك الدماء وآغتصب النساء وآستخرج كنوز آبائه ، وبنى قصورا بالذهب والفضة [وأجرى](2) فيها الأنهار، وجعل حصباءها من صنوف الجواهر، وتخرّق(3) فى الهِبات وأغفل العمارات فأبغضه النـاس ، وأباح أصحابَه غَصْبَ نساء العامّة ، وأطاف به أهل الشرّ من كل ناحية ، وكان يَفْترِع النساء قبل أزواجهنّ، وآمتنع عليه قوم

(1) فى خطط المقريزى : « هوجيت » .
(2) التكملة من خطط المقريزى . (3) تخرّق فى الهبات : توسع فيها .

فى شىء أمرهم به فأحرقهم بالنــار، وسـلّط رجلا من الجبّارين آسمـه قرناس[1] من ولد وراديس بن آدم على النــاس ووجّهــه لمحاربة الأمم الغربية فقتل منهم أمما . وكان أشجع أهل زمانه ثم هلك، فآغتمّ عليـه الملك وأمر أن يدفن مع الملوك فى الهرم . ويقال : بل عمِل له ناوُوسا وأقام عنده أعلاما وزبرعليها آسمه وما عمله فى وقته . وملك مِنقاوش ثلاثا وسبعين سنة ومات ، فجُعل فى الهرم مع أجداده فى حوض مرمر مصفّح بالذهب والجوهر ، وحُمِـل معه كثير من ذخائره وأمواله وسلاحه وعجائبه .

١١٧ / ١٢

وملك بعد آبنه أقروش[2] بن منقاوش ، وكان عاقلا نخالف آثار أبيه وعدل فى الناس وردّ النساء اللاتى غصبهنّ منقاوش الى أهلهنّ . وعَمِل فى وقته فوّارة قُطرها مائة ذراع وطُولها خمسون ذراعا ، وركّب فى جميع جوانبها أطيارا تَصفِر بأصناف اللغات المطربة لاتفتُر . وعَمِل فى وسط المدينة منارتين من صُفْر عليهما صورة رأس إنسان من صُفْر كلّما مضت ساعةٌ من النهار صاح ذلك الرأس صياحا عاليا ، وكذلك الليل ، فيعلَم به دخول الساعات ، وجعل فيه علامة لكلّ ساعة تَمضى تُعرف بها عِدّتها . وعَمِل منارا آخر وجعل على رأسه قبّة صُفْر مُذهَب ولَطَخها بلطُوخات ، فإذا غربت الشمس اشتعلت تلك القبّة نارا[3] يُضىء بها أكثر المدينة لا تُطفئها الأمطارُ ولا الرِّياح ، فإذا كان النهار قلّ ضوءها بضوء الشمس . ويقال : إنه أهدى الدرمسيل [بن محويل][4] الملك ببابِل مائدة من الزبرجد قُطْرها خمسة أشبار ، وكان استهداه[5] ذلك ليجعلها فى بيت القُربان . ويقال إنهــا وُجدت بعد الطوفان . ويقال أيضا : إنه عَمِل على الجبل

(١) فى خطط المقريزى «قرماس» بالميم . (٢) فى خطط المقريزى : «أفراوس ابن مناوس» . (٣) فى خطط المقريزى : «نورا» . (٤) التكملة من خطط المقريزى . (٥) فى خطط المقريزى : «مدهنا» .

الشرقىّ صنما عظيما قائمـا على قاعدة [وهو][1] مصبوغ بلَطوخ أصفر مصوّر بالذهب ووجّهه الى الشمس يدُور معها حتى تغرُب، ثم يدُور ليلا الى الناحية الجنوبيّة حتى يحاذى الشمس[2] مع الصبح، فلم يزل الى أن سقط فى أيام فرغان[3] الملك فتهشم . وكان نصبه تعظيما للشمس . ويقال : إن أقروش كان يطلب الولد فنكح ثلاثمائة آمرأة يبتغى الولد منهنّ فلم يكن ذلك . وقيل : إنّ فى عصره عَقَمت الأرحام لمـا أراد الله عز وجل من هَلاك العالَم بالطوفان، وعَقَمت أرحام البهائم ووقع الموت فيها . وقيل : إن الأُسْد كثُرت فى وقته حتى كانت تتخلّل البيوت، فآحتالوا لها بالطِّلّسمات المـانعة والحِيَل المضرّة لها، فكانت تغيب وقتا وتعود، فرفعوا ذلك الى الملك فقال : هـذه علامة مكروهة ، وأمر أن تُعمَل أخاديد وتُملأ نارًا وآجترّوا إليهـا الأُسْد بالدُّخَن التى تجلب رُوحانيتها وأَلْقوها على تلك النِّيران، فآجتلبتها تلك الدخن فتهافتت فى تلك النيران فآحترقت . وبَنَى فى وقته مدائن فى ناحيــة الغرب تَلِفت بالطوفان مع أكثر مُدُنهم .

قال : وآرتفعت الأمطار عنهم وقلّ المـاء فى النيل فأجدبوا ، وهلك الزرع بالنار والريح الحـارّة وغيرها ، فأضرّ ذلك بهـم ، فآحتالوا لدفع النار بِطِلّسماتهـم فكانت تذهب وتعود . وقيــل : إنّ الذى فعل بهـم ذلك ساحر من سَحَرتهم كان منقاوش غصبه آمرأته فكان يعمل الحيلة قليلا قليلا فى إفساد طِلّسماتهم؛ لأن لكل طلسم شىء تبطل به روحانيته . وبهذه العلّة دخل بختنصّر الفارسىّ مصر وقد كانت ممتنعة من جميع الملوك . فلمّا أفسد ذلك الساحر الطلّسمات، سلّط عليهم تلك الآفات وأفسد طلّسمات التماسيح فهاجت عليهم ومنعتهم المـاء وعذّبهم عذابا كبيرا الى أن

(١) التكملة من خطط المقريزى . (٢) فى خطط المقريزى : «حتى يحاذى المشرق مع الفجر» .
(٣) فى خطط المقريزى : « فرعان » بالعين المهملة .

فطنوا به من قِبَل تلاميذه، وذلك أن أحدهم لامه على فِعْله فآنتهره ونفخ فى وجهه فأظلم عليه بصُره، فجاء الى وزير الملك وعرّفه القصّة فأنهاها الى الملك، فأمر الملك بإدخاله عليه فأدخل، فسأله عن الخبر فعرّفه بفعل الساحر، فأنفذ اليه جيشا ليأتوه به، فلمّا نظر الساحر الى القوم وقد أقبلوا دخّن دُخْنــة أغشتْ أبصارَهم وآرتفعت منها عَجاجةُ نارٍ أحرقت وحالت بينه و بينهم ، فهالهم ذلك، فرجعوا الى الملك وعرّفوه ما جرى فأمر بجمع السحَرة ، وكان من رَسْم السحَرة أن يعاهــدوا ملوكهم على أن يكونوا معهم ولا يخالفونهم ولا ينالهم منهم مكروه ولا يبغُونهم الغوائلَ ، فمن فعل ذلك سُلِب علمُه ، وكان للملك أن يسفِك دمَه ودمَ أهل بيتــه وولده ، وكانوا مع الملوك على هذه الحال يُوفُون بعهودهم . فلمّا اجتمع السحَرة عند الملك أخبرهم خبر الساحر ، وكان يقال له : أخْتاليس ، و بما عمِله وقال : تُحضرونه إلىّ و إلّا أهلكتكم؛ فسألوه النَّظِرَة[1] فأنظرَهم ، فأخذوا أولادهم ونساءهم وخرجوا هاربين ، فلمّــا خرجوا عنــه تكلّموا بينهــم وقالوا : إنكم لتعرفون كثرة عِلْم أختاليس وشدّةَ سِحْره، وما نرى لنا به طاقةً، ومنقاوش الملك الذى نقَض عهده وتعدّى عليه وأخذ آمرأته غَصْبا، فآحتالوا لخلاصكم منه ؛ فأجمعوا أنهم يَصدُقون الملك عن أنفسهم، ويستأذنونه فى الذهاب اليه ومداراته حتى يأتُوه به بعد أن يأخذوا له أمانا منه ويجدّد العهد بينه و بينه . فمَضَوْا الى الملك وصدَقوه عن أنفسهم، فأجابهم الى ما سألوه من ذلك، ثم مضَوْا الى أختاليس فلطَفُوا به ووعَظُوه الى أن أجابهــم الى ما أرادوا، فكتبوا الى الملك بذلك، فكتب للساحر أمانا وعهدا، فرجع ورُدّت اليه آمرأته، فأكرمها وردّها الى دار الملك، وعرّفهم أنه لا يرى فى ذمّته أن يلابس آمرأة لابَسها الملك على حال من الأحوال لمــا كانوا يراعونه من حقوق الملك ، فسُرّ الناس بذلك وعجبوا من عقله

(١) النظرة : التأخير والإمهال فى الأمر .

وحكمته، وصَلُح أمر النـاس، وعمل أختاليس طِلَّسمات وعجائب كثيرة . قال : وملّكهم أقروش أربعا وستين سنة، وهلك وليس له ولد ولا أخ، فدُفن فى الهرم وجُعلت معـه أمواله وذخائره وجواهره والصنائع التى عُمِلت فى وقتـه، وآجتمع الناس على تمليك رجل من أهل بيت الملك .

فملّكوا عليهم أرمالينوس، فلمّا ملك أمر بجمع الناس وقال : أرى الأمم الغربية قد تطرّقت إليكم فى نواحيكم، ويُوشِك أن تسير إليكم، وأنا مانع لبلادكم ودمائكم منهم بغزوهم والخروج إليهـم وتحويلكم إياهم، وأحتاج الى معونة من حكمائكم بالأعمال الهائلة والتخاييل العجيبة، فشكروه ودعَوْا له بالتوفيق . وقالت الحكماء : نحن نخرج مع الملك إذا خرج ونبلغ له مجابه أو يقيم ونحن نخرُج مع الجيش مكانه ونبـذُل أنفسنا دُونه . فآمتنع من ذلك وخرج فى جيش عظيم وحارب تلك الأمم ونكأ[1] فيها أعظم نكاية، ورجع غانما وخلّف فى وجوههم جيشا، فآجتمعت تلك الأمم فهزمت جيشه ورجع أصحابه مغلوبين فعظُم ذلك عليه . وكانت أصابته علّة من تغـيّر الهواء فأنفـذ ابن عمّ له يقال له فِرْعان بن مِسْوَر، وكان أحد الجبابرة الذين لا يطاقون، وهو أوّل[2] فرعون تسمّى بهذا الآسم ومن سُمّى بعـده سُمّى تشبيها به؛ فأنفـذه الملك أرمالينوس فى جيش عظيم فأجلى تلك الأمم ونفاها الى أطراف البحر، وعاد ومعه خلق كثير من الأسرى والرءوس، فأمر الملك بنصب تلك الرءوس حول مدينته وقتل جميع الأسرى . وكان منهم كاهن فأمر الملك أن يُوشَر[3] بمنشار، وهو أوّل من فعل

(١) نكأ : قتل فيهم وجرح وأثخن .

(٢) وكذا ورد فى صبح الأعشى (ج ٣ ص ٤١٢) أنه أوّل من لقب بلقب الفراعنة .

(٣) يوشر، يقال : وشر الخشبة بالمنشار إذا نشرها .

ذلك، فأعلم[1] الملكُ فرعانَ وألبسه خِلَعًا منظومةً بالجوهر، وأمر بأن يطاف به ويذكَر فضلُه، وأمر له ببعض قصوره .

وآتفق أن آمرأة من نساء الملك عشقته وراسلته فآمتنع فِرْعانُ من ذلك وفاءً للملك، ولأنّ التحظّى الى نساء الملوك كان من الأمور العظيمة عندهم . فلمّا طال ذلك عليها أحضَرتْ ساحرةً ولاطفَتْها وذكرت لها حالها ووجْدَها بفِرْعان، فضمِنت لها بلوغ مأربها منه وسَحرتْه لها، فآهتاج اليها وندم على ردّها وجعل يدسّ اليها الى أن آجتمعت معه، وتمكّن حبّ كلّ واحد منهما من صاحبه، الى أن ذاكرتْه أمرَ الملك وأنها لا تأمن أن يتّصل به خبرهما وقالت : أنا أعمل الحيلة فى قتله وتكون أنت الملكَ وأكون لك ونأمن على أنفسنا . فمن شدّة ما عنده من حبّها حسّن لها ذلك، فسمّت الملكَ فى شرابه فمات لوقته وحُمِل الى الهرم .

وملك بعده فِرْعان بن مِسْوَر وجلس على سرير المُلْك فلم ينازعه أحد، وفرح الناس بمكانته لشجاعته . وهو الذى كان الطوفان فى وقته . قال : ولمّا ملك علا فى الأرض وتجبّر وآغتصب الناسَ أموالَهم وأنفسَهم ونساءهم، وعمل مالم يعمله ملكٌ قبلَه ؛ وأسرف فى القتل وهابته الملوك وأقرّوا له . وهو الذى كتب الى الدرمسيل ملك بابل يشير عليه بقتل نوح عليه السلام . وذلك أن الدرمسيل بن مَحْويل كتب الى الأقاليم يسألهم : هل يعرفون آلهة غير الأصنام ؟ ويذكر قصّة نوح وأنه يريد تغيير ذلك، وأن له إلٰها غيرها، فكلٌّ أنكر ذلك . ولمّا أخذ نوح فى بناء السفينة كتب فرعان الى الدرمسيل يشير عليه بإحراقها، وكان عند أهل مصر خبر الطوفان ولكنهم لم يُقدِروا كثرتَه وطولَ مقامه على الأرض، فآتّخذوا السراديب تحت الأرض

(١) أعلمه : وسمه بسيماء الحرب .

١١٩/١٢ وصفّحوها بالزجاج وحبسوا فيها الرياح بتدبيرهم ، وآتخذ فرعان منها عدّة له ولأهل بيته . وكان فرعان قد أقصى الكهّان وباعدهم ، وكانوا مع الملوك على خلاف ذلك . ولنصل هذا الخبر بخبر الكُهّان وما كانوا عليه .

ذكر خبر كُهّان مصر وحالهم مع الملوك

٥ قال : وكُهّان مصر أعظم الكهان علما ، وأجلّهم فى الكَهانة حديثا . وكان حكماء اليونان يصفونهم بذلك ، ويشهدون لهم به ويقولون : أخبرنا حكماء مصر بذلك فآستفدناه منهم . وكانوا يَنْحون فى كهانتهم نحو الكواكب ، ويزعمون أنها هى التى تُفيض عليهم العلوم وتُخبرهم بالغيوب ، وهى التى علّمتهم أسرار الطبائع ، ودلّتهم على العلوم المكنونة ؛ فعملوا الطلّسمات المشهورة ، والنواميس الجليلة ، وولّدوا ١٠ الولادات الناطقة ، والصوَر المتحرّكة ، وبنَوْا العالىَ من البنيان ، وزَبَروا علومهم فى الصلب من الصّوّان ، وآنفردوا بعمل البرابى ، ومنعوا بها الأعداء من بلدهم ، وعجائبهم ظاهرة . وكان الذى يتعبّد منهم الكواكب السبعة المدبّرة ، لكلّ كوكب سبع سنين ، فإذا بلغ هذه الرتبة سُمّى قاطِرا (١) ، وكان يجلس مع الملك فى المرتبة ويصدُر الملك عن رأيه ، وإذا رآه قام له .

١٥ وكان من رَسْمهم فى كل يوم أن يدخل القاطر إلى الملك فيجلس إلى جانبه ، ويدخل الكهنة ومعهم أصحاب الصناعات فيقفوا حذاء القاطر ، وكلّ واحد من الكهنة منفردٌ بكوكب يخدمه لا يتعدّاه إلى سواه ، ويُسمَّى عبدَ كوكبِ كذا ، كما كانت العرب تُسمِّى عبد شمس ، فيقول القاطر للكاهن : أين صاحبك؟ فيقول :

(١) القاطر : معناه جامع العلوم ، وهو الذى يعبد الكواكب السبعة لكل كوكب سبع سنين ، كما ذكره ٢٠ المؤلف أيضا فيما سبق (ص ٢٣) من هذا الجزء .

فى البُرْج الفـلانى فى الدرجة الفلانية فى دقيقـة كذا ، ويسأل الآخر حتى إذا عرف مستقرّ الكواكب قال للملك : ينبغى لك أن تعمَل اليوم كذا ، وتَضعَ بنيان كذا ، وتوجّه جيشا إلى ناحيـة كذا ، وتُجامع فى وقت كذا ، وتأكل فى وقت كذا ، وجميـع ما يراه صَـلاحا له فى أموره كلّها ؛ والكاتب قائمٌ يكتب جميـع ما يقـوله القاطر ، ثم يلتفت إلى أهل الصـناعات فيقول : انقُشْ أنت صورة كذا على حجر كذا ، وآغرِسْ أنت كذا ، وآصنَعْ أنت كذا ، حتى يمرّ على أهل الصـناعات ؛ فيخرجون إلى دار الحكمة و يضعون أيديَهـم فى تلك الأعمـال ، ويستعمِل الملك جميع ما يأمره القاطر ، ويُشرَح ذلك اليوم فى الصحيفة وتُطوَى وتُودَع فى خِزانة الملك ، فعلى ذلك كانت تجرى أمورهم .

وكان الملك إذا نابَهُ أمرٌ جمعهـم وآصطفّ الناسُ لهم فى شارع المدينـة ، ثم يدخلون رُكبانا يقـدُم بعضهم بعضا ، ويُضرب بين أيديهم بطبل الآجتماع ، فيدخُل كلّ واحدٍ منهم بأُعجوبة : فمنهم مَن يعلو وجهَه نورٌ كنور الشمس فلا يقدِر أحدٌ على النظر إليـه ، ومنهم مَن يكون عليـه بَدَنَةٌ(١) جوهرٍ أخضر أو أحمر أو من ذهب منسوج . ومنهم مَن يدخل راكبا أسدا متوشّحا بحيّات عِظام . ومنهم مَن تكون عليـه قبّـة من نور أو من جوهر فى صنوف من العجائب كثيرة . ويصنع كلّ واحد منهم ما يدلّه عليه كوكبُه الذى يعبدُه؛ فإذا دخلوا على الملك قالوا : أرادنا الملك لأمر كذا وقـد علِمنا ، أو أضمر الملك كذا والصواب فيـه كذا . فكانوا مع ملوكهم على هذه الحال حتى ملك فِرعان فأبعدهم . وكان فليمونُ(٢) رئيسَ الكهّان ، فرأى فيما يرى النـائم كأنّ مدينـة أمسوس قـد آنقلبت بأهلها ، وكأنّ الأصنام

(١) بدنة : البدنة البقيرة ، وهى قميص لا كمين له ، تلبسه النساء .

(٢) فى خطط المقريزى : « فيلمون » .

تهوى على رءوسها ، وكأنّ ناسا ينزلون من السماء معهم مَقامع[1] فيضربون الناس بها ، وكأنه قد تعلّق بأحدهم وقال له : ما لكم تفعلون بالخَلْق هذا ! أما ترحمونهم؟ فقال : لأنهم كفَروا بإلٰهِهم . قال : أفما لهم من خلاص؟ قالوا : نعم ، مَن أراد الخَلاص فليَلْحَق بصاحب السفينة ، فآنتبه وهو يخاطبه ، فبقِىَ مرعوبا مما رآه . وكان له آمرأة وولدان ذكر وأنثى ومعه تلاميذه ، فأجمع على أن يَلحَق بنوح عليه السلام ، ثم نام أيضا فرأى كأنه فى رَوْضة خضراءَ ، وكأنّ فيها طيورا بيضاء تفُوح منها رائحة طيّبة ، وكأنه تعجّب من حُسنها إذ تكلّم بعض الطيور فقال لأصحابه : سيروا بنا نُنْجِ المؤمنين . قال له فليمون : ومَن هؤلاء المؤمنون؟ قال : أصحاب السفينة . فآنتبه مرعوبا وأخبر أهله وتلاميذه بذلك ثم نام .

فلمّا كان الغدُ أتى الملكَ فقال : إن رأى الملك أن يُنْفِذَنى إلى درمسيل لأعرف حال هذا الرجل الذى عمل السفينة فأشاهده وأناظره على ما جاء به من هذا الدِّين الذى أظهره وأتبيّن حقيقة أمره فليفعل ؛ فإنى أرجو أن يكون ذلك سببا لهلاكه ودفعه عما يدّعيه ، فأعجب الملك ذلك منه وأذن له فى الخروج ، فسار بأهله وولده وتلاميذه حتى آنتهَوْا إلى أرض بابل وقصد نوحا وسأله أن يشرح له دينه ففعل ذلك ، فآمن به وجميعُ مَن معه ، فقال نوح عليه السلام : من أراد اللهُ عز وجل به الخيرَ لم يَصدُفْه أحد عنه . فلم يزل فليمون مع نوح عليه السلام يخدمه هو وولده وتلاميذه إلى أن ركبوا السفينة .

وأمّا فِرْعان الملك فإنه أقام مُنهمكا فى ضلاله وظُلمه ، مقبلا على لَهْوه ، وآستخفّ بالكَهَنة والهياكل ، وضاقت الدنيا بأهلها ، وكثُر الهَرْج والظلم ، وفسَدت الزروع ،

(١) مقامع : المقامع جمع المقمعة ، وهى خشبة يضرب بها الإنسان على رأسه ليذل ويهان .

وأجدبت النواحى، وظلَم النـاسُ بعضهم بعضا، ولم يكن أحدٌ ينكر ذلك عليهـم، وسُدّت الهياكل والبرابى، وطُيِّنت أبوابها، وجاءهم الطوفان وأقبل المطر عليهم، وكان فِرعان سكران فلم يقُم إلّا بخرير المـاء، فوثب مُبادرا يريد [الهرب إلى] (١) الهرم فتخلخلتِ الأرض به، وطلب الأبواب نخانتـه رجلاه وسقط على وجهـه وجعل يخُور كما يخُور الثور، إلى أن أهلكه الله تعالى بالطوفان، ومَن دخل الأسراب منهم هلك بغمّها، ولحق المـاءُ من الأرض والأهرام إلى آخر التربيع، وهوظاهر عليها إلى الآن، وآنقرضت ملوك الدنيا أجمع بالطوفان ولم يسلم إلا أصحاب السفينة كما تقدّم. فعدّة مَن سُمِّى لنـا من ملوك مصر قبل الطوفان على هذا السِّياق تسعة عشر ملكا، ثم ملكها بعد الطوفان مَن نذكره.

ذكر مَن ملك مصر بعد الطوفان من الملوك

قال إبراهيم بن القاسم الكاتب: قال إبراهيم بن وَصِيف شاه: أجمع أهل الأثر أنّ أوّل مَن ملك مصر بعد الطوفان مصرِيم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام، وذلك بدعوة سبقت له من جدّه. وكان السبب فى ذلك أنّ فليمون الكاهن سأل نوحا عليه السلام أن يخلطه بأهله وولده وقال: يا نبىّ الله، إنى قصدتك رغبةً فى الإيمان بالله سبحانه وتعالى وتصديقك يانبىّ الله، وتركت وطنى و بلدى فآجعل لى رفعةً وقدرا أذكر بهما من بعدى، فزوّج نوحٌ عليه السلام بَيْصَر بن حام بنتَ فليمون الكاهن فولدت له ولدا سمّـاه فليمون مصريم (٢) باسم بلده، فلمّا أراد نوح قسمة الأرض بين بنيـه قال له فليمون: ابعث معى يا نبىّ الله ابنى حتى أمضى به إلى بلدى وأُظهره على كنوزه وأُوقفه على علومه ورموزه، فأنفذه معه فى جماعة من أهل بيته، وكان

(١) التكملة من خطط المقريزى (ج ٣ ص ٢٥ طبعة فييت).
(٢) فى خطط المقريزى (ج ١ ص ٧٣ طبعة فييت): «مصرايم».

غلاما مراهقا ، فلمّا قرُب من مصر بنى له عَرِيشا من أغصان الشجر وستره بحشيش الأرض ، ثم بنَى له بعد ذلك فى الموضع مدينة وسمّاها دَرْسان[1] ، أى باب الجنة ؛ فزرعوا وغرسوا الأشجار والأجنّة من درسان الى البحر. [فصارت هناك[2]] زروع وأجنّة وعمارة وكان الذين مع مِصْريم جبابرة ؛ فقطعوا الصخور وبنوا المعالم والمصانع وأقاموا فى أرغد عَيْش .

ونكح مصريم آمرأة من بنات الكَهَنة فولدت له ولدا سمّاه قبطيم ، ونكح قُبْطيم بعد سبعين سنة من عمره آمرأة ولدت له أربعة نفر ، وهم : قُفْطَريم ، وأُشمون ، وأَتريب ، وصا ، وكثروا وعمّروا الأرض وبُورك لهم فيها . وقيل : كان عدد مَن وصل مع مصريم ثلاثين نفرا فبنَوْا مدينة سمّوْها مافَهْ ، ومعنى مافَهْ ثلاثون بلغتهم ، وهى مَنف ؛ وكشف أصحاب فليمون عن كنوز مصر وعلّموهم خطّ البرابى ، وأثاروا لهم المعادن من الذهب والزبرجد والفَيْروزَج والأسباد شم[3] وغير ذلك ، ووصفوا لهم عمل الصنعة ، فجعل الملك أمرها الى رجل من أهل بيته يقال له مقيطام ، فكان يعمل الكيمياء فى الجبل الشرقىّ فسُمِّىَ به المُقطّم ، وعلّموهم أيضا عمل الطلّسمات . وكانت تخرُج من البحر دوابّ تفسد زرعهم وأجنّتهم وبنيانهم فعملوا لها الطلّسمات فغابت ولم تعُد . وبنَوْا على عَبْر البحر مُدُنا منها : رَقُودة مكان الإسكندرية ، وجعلوا فى وسطها قبّة على أساطين من نُحاس مُذهَب والقبّة مُذهَبة ، ونصبوا فوقها مرآة من أخلاط شتّى قُطْرها خمسة أشبار ، وكان آرتفاع القبّة مائة ذراع ؛ فكانوا اذا قصدهم قاصد من الأمم التى حولهم ، فإن كان مما يهمّهم أو من البحر عملوا لتلك المرآة عملا فألقت شُعاعها على ذلك الشىء فأحرقته ؛ فلم تزل على حالها الى أن غلب عليها

(١) درسان : هى مدينة العريش . (٢) التكملة من خطط المقريزى (ج ١ ص ٧٣ طبعة فييت) .
(٣) فى مروج الذهب للسعودى (ج ١ ص ١٨٠ طبع بلاق) : « الاشباد جشم » وذكر أنه نوع من الجواهر تتخذ منه النصول وغيرها .

البحر فنسفها . وقيل : إن الإسكندر إنما عمل المنارة تشبّها بها . وقد ذكرنا خبر المنارة فيما تقدّم من كتابنا هذا[1] .

وقال : لما حضرت مِصْرِيم الوفاة عهد الى ٱبنه قُبْطيم بن مصريم، فقسم قبطيم مصر بين بنيه الأربعة : فجعل لآبنه قُفْطَريم من قِفْط الى أُسوان الى النُّوبة، ولأُشمون من أشمون الى مَنْف، ولأَتْريب الحَوْف كلّه الى الشجرتين الى أيلة من الحجاز، ولِصَا من ناحية صَا البحيرة الى قُرْب بَرْقة؛ وقال لأخيه فارق : لك من برقة الى المغرب، فهو صاحب إفريقية . وولده الأفارق . وأمر كل واحد من بنيه أن يبنيَ لنفسه مدينة فى موضعه . وأمر مصريمُ عند موته أن يحفروا له فى الأرض سَرَبا وأن يفرشوه بالمرمر الأبيض ويجعلوا فيه جسده، ويدفنوا معه جميع ما فى خزائنه من الذهب والجوهر، ويَزبروا عليه أسماء الله تعالى المانعةَ من أخذه . فحفروا له سربا طوله مائة وخمسون ذراعا، وجعلوا فى وسَطه مجلسا مصفّحا بصفائح الذهب، وجعلوا له أربعة أبواب، على كل باب منها تمثال من ذهب عليه تاج مرصّع بالجوهر، جالس على كرسيّ من ذهب قوائمه من زَبرجَد، وزبروا فى صدر كل تمثال آيات عظاما مانعة، وجعلوا جسده فى جُرْن من المرمر مُصفَّح بالذهب وزَبَرُوا على مجلسه : مات مصريم بن بيصر بن حام بعد سبعمائة عام مضت من أيام الطوفان، ومات ولم يعبد الأصنام، إذ لا هَرَم ولا سَقام، ولا حُزْن ولا آهتمام، وحصنه بأسماء الله العظام، لايصل اليه إلا ملك ولدته سبعة ملوك يَدين بدين الملك الديّان، ويؤمن بالبعث والفُرقان، الداعى الى الإيمان فى آخر الزمان . وجعلوا معه فى ذلك المجلس ألف قطعة من الزبرجَد المخروط، وألفَ تمثال من الجوهر النفيس، وألفَ

(1) راجع (ج ١ ص ٣٩٥ من هذه الطبعة) .

برنية [مملوءة][(1)] من الدرّ الفاخر والصّنعة الإلهية ، والعقاقير البرّيّة ، والطلّسمات العجيبة ، وسبائك الذهب مكدّسةً بعضها على بعض ، وسقّفوا ذلك بالصخور العظام وهالوا فوقها الرمال [بين جبلين][(1)] .

وآستقلّ قبْطيم بالملك بعد أبيه .

ويقال : إنّ قِبط مصر منسوبون اليه . وهو أوّل مَن عمِل العجائب وأثار المعادن ، وشقّ الأنهار . ويقال : إنه لحق البلبلة[(2)] وخرج منهم بهذه اللغة القِبطية ، وعمِل ما لم يعمله أبوه من نَصْب الأعلام والمنارات والعجائب والطّلسمات . وملَكهم قبطيم [أربعمائة و][(3)] ثمانين سنة ومات ؛ فآغتمّ عليه بنوه وأهله ودُفن فى الشرق فى سَرَب تحت الجبل الكبير الداخل ، وصفّحوه بالمرمر الملوّن وجعلت فيه منافذ للرِّياح ؛ فهى تخترق فيه بدوىّ عظيم هائل ، وجُعل فيه من الكبريت الأحمر وأُكَر من نحاس مطليّة بأدوية مُشعِلة لا تُطفأ ، ولطّخوا جسده بالمرّ والكافور والمُومِيا ، وجعلوه فى جُرْن من ذهب فى ثياب منسوجة بالمَرجان والدرّ ، وكشفوا عن وجهه وجعلوه تحت قبّة ملوّنة ، فى وَسَطها درّة معلّقة تُضىء كالسراج ، والقبّة على أعمدة بين كلّ عمودين تمثالٌ فى يده أُعجوبة ، وجعلوا حول الجُرْن توابيتَ مملوءة جوهرا وذهبا وتماثيل وصَنْعة وغيرَ ذلك ، وحول ذلك مصاحف القِبط والحكمة ، وسدّوا عليه بالصخور والرّصاص وزَبَروا عليه كما زَبَروا على ناووس أبيه .

وملك بعده آبنه قُفْطريم بن قُبْطيم ، وكان أكبرَ ولد أبيه ، وكان جبّارا عظيم الخَلْق ، وهو الذى وضع أساسات الأهرام الدّهْشوريّة وغيرها ليعمل منها كما عمل الأوّلون ، وهو الذى بنى دَنْدَرة ومدينة الأصنام . ودَنْدَرة : بلد من بلاد إقليم قوص ، وهى فى البرّ الغربىّ مشهورة هناك . قال : وأثار من المعادن ما لم يُثره غيره ،

(1) التكملة من خطط المقريزى (ج ١ ص ٧٥ طبعة فييت) . (2) البلبلة : اختلاط الألسن .
(3) التكملة من خطط المقريزى (ج ٣ ص ٣٣ طبعة فييت) .

وكان يحز من الذهب مثلَ حَجر الرحى، ومن الزَّبرجَد كالأُسطوانة، ومن الأسباد شم فى صحراء الغَرْب كالقلّة . وعمِل من العجائب شيئا كثيرا . وبَنى منارا عاليا على جبل قفْط يُرَى من البحر الشرقىّ، ووجَد هناك مَعدِن زئبق فعمل منه بركة كبيرة، فيقال إنها هناك الى الآن، وأما المنار فسقط . وعمِل عجائب كثيرة . ويقال : إنه بنى المدائن الداخلة وعمِـل فيها عجائب كثيرة، منها : المـاء الملفوف القائم كالعمود لا ينحـلّ ولا يذوب، والبركة التى تسمّى فلسطين، أى صيّادة الطير، إذا مرّ عليها الطير سقط فيها ولم يمكنه أن يبرح حتى يؤخَذ . وعمِل أيضا عمودا من نحاس عليه صورة طائر إذا قرُبت الأُسْد والحيّات والأشياء المضرّة من تلك المدينة صفر صفيرا عاليا فترجع تلك الدوابّ هاربة . وكان على أربعة أبواب هـذه المدينة أربعةُ أصنام من نحاس لا يقرُب منها غريب إلّا ألقى عليـه النوم والسُّبات، فينام عندها ولا يستيقظ حتى يأتيه أهل المدينة وينفخون فى وجهه فيقوم، وإن لم يفعلوا ذلك لم يزل نائمـا عند الأصنام حتى يهلك . وعمِل منارا لطيفا من زجاج ملون على قاعدة من نحاس، وعلى رأس المنارة صورة صنم من أخلاط كثيرة، وفى يده كالقوس كأنه يرمى عنها، فإن عاينه غريب وقف فى موضعه لم يبرح حتى يُنحِّيَه أهل المدينـة . وكان ذلك الصنم يتوجّه إلى مهبّ الرياح الأربع من نفسه .

قال وقيـل : إن هذا الصنم على حالته إلى الآن، وإن النـاس تحامَوْا تلك المدينـة على كثرة ما فيهـا من الكنوز والعجائب الظاهرة خوفا من ذلك الصـنم أن تقع عين الإنسان عليـه فلا يزال قائمـا حتى يتلف . قال : وكان بعض الملوك عمِل على قلعه فـا أمكنه، وهلك لذلك خلق كثير . ويقال : إنه عَمِل فى بعض المـدن الداخلة مرآة من أخلاط ترى بجميع ما يسأل الإنسان عنـه وهى غربىّ البـلد . قال : وعمِـل خلف الواحات الداخلة مُدُنا عمِـل فيها عجـائب كثيرة

ووكّل بها الروحانيّين الذين يمنعون منها ؛ فما يستطيع أحد أن يدنوَ منها ولا يدخلها أو يعملَ قرابين أولئك الروحانيين فيصل إليها حينئذ ويأخذ من كنوزها ما أحبّ من غير مشقّة ولا ضرر. قال : وأقام قفطريم ملكا أربعمائة سنة . وأكثر العجائب عُملت فى وقته ووقت آبنه البودسير (١) . وكان الصعيد أكثر عجائب من أسفل الأرض . قال : وفى آخر أيام قفطريم هلكت عاد بالريح العقيم .

ولمّا حضرت قفطريم الوفاةُ عُمِل له ناووس من الجبل الغربىّ قرب مدينة الكَهنة، كان عمله لنفسه قبل موته فى سَرَب فى الجبل كهيئة الدار الواسعة وجعل دورها خزائن منقورة، وجعل فى سقوفها مسارب للرياح، وبنى ذلك بالمرمر، وجعل فى وسط الدار مجلسا على ثمانية أركان مصفحا بالزجاج الملوّن المسبوك، وجعل فى سقفه جواهر وحجارةً تسرج ، وجعل فى كل ركن من أركان المجلس تمثالا من الذهب بيده كالبوق ، وجعل تحت القبّة دكّة مصفّحة بالذهب، وجعل لها حوافىَ زَبَرْجَد، وفرش فوق الدكّة فرش الحرير، وجعل عليها جسده بعد أن لُطخ بالأدوية الممسكة، ومن جوانبه آلات الكافور المخروطة، وسُدِلت عليه ثياب منسوجة بالذهب، ووجهه مكشوف وعلى رأسه تاج مُلكه ، وعن جوانب الدكّة أربع تماثيل مجوّفات من زجاج مسبوك مثل صُوَر النساء وألوانهن، بأيديهن كالمراوح من ذهب، وعلى صدره من فوق الثياب سيف صاعقىّ قائمه من الزبرجد، وجُعل فى تلك الخزائن : من الزبرجد وسبائك الذهب والتيجان والجواهر وبرانى الحِكَم وأصناف العقاقير والطِّلَّسمات، ومن المصاحف الحاوية لجميع العلوم، مالا يحصى قدره كثرة ؛ وجُعل على باب المجلس ديك من ذهب على قاعدة من زجاج أخضر منشور الجناحين مزبور عليه آيات عظام مانعة، وجُعل على مدخل كل أَزَج صورتين من نحاس مشوّهتين بأيديهما

(١) فى خطط المقريزى : « البودشير » بالشين المعجمة .

سيفان كالبرق ، ووراءهما بلاطة تحتها لوالب فمن وطئها ضرباه بأسيافهما فقتلاه ، وفى سقف كل أَزَج كرة عليها لَطُوخ مدبّر يُسَرج، وسُدّ باب الأَزَج بالأساطين ورصُّوا على سقفه البلاط العظام وردموا فوقها الرمال، وزبروا على باب الأَزَج : هذا الداخل الى جسد الملك العظيم المهيب الكريم الشديد قفطريم ذى الأَيْد والفخر، والغلبة والقهر، أفَل نجمه وبقِىَ ذكره وعلمه ، فلا يصل أحد اليه، ولا يقدر بحيلة عليه، وذلك بعد سبعمائة وسبعين، ودورات مضت من السنين .

قال: ولمّا مات قُفْطريم ملك بعده آبنه البُودسير بن قفطريم؛ فتجبّر وتكبّر وعمِل بالسحر وآحتجب عن العيون، وقد كان أعمامه أشمون وأتريب وصا ملوكا على أحيازهم إلّا أنه قهرهم بجبروته وقوّته، فكان الذكر له كما كان لأبيه . ويقال : إنه أرسل هِرْمِس الكاهن المصرىّ إلى جبل القُمْر الذى يخرج النيل من تحته حتى عمِل هناك هيكل التماثيل النحاس، وعدل إلى البطيحة التى ينصبّ اليها ماء النيل. ويقال : إنه الذى عدّل جانبى النيل وقد كان يفيض [فى مواضع وينقطع فى مواضع][1] ، وأمره البودسير أن يسير مغربا فينظر الى ماهناك ، فوقع على أرض واسعة متخرّقة بالمياه والعيون كثيرة العُشْب ، فبنى منائر ومتنزهات ، وحوّل اليها جماعة من أهل بيته فعمَروا تلك النواحى وبنَوْا فيها حتى صارت أرض الغرب كلها عمارة، وأقامت كذلك مدة كثيرة وخالطهم البربر فتناكحوا ؛ ثم إنهم تحاسدوا وبغى بعضهم على بعض، وكانت بينهم حروب فخرب البلد وباد أهله إلا بقية منازل تسمّى الواحات هى موجودة الى وقتنا هذا .

ويقال : إنه عمل عجائب كثيرة فى وقته ، منها : قبّة لها أربعة أركان وفى كلّ ركن منها كوّة يخرج منها كالدخان الملتفّ فى ألوان شتّى [يستدلّون بكل

(١) التكلة من خطط المقريزى (ج ٣ ص ٣٧ طبعة فييت) .

اون على شىء] (١) ؛ فما خرج منه أخضر دلّ على العمارة وحسن النبات والزرع وصلاحه ، وإن خرج الدخان أبيض دلّ على الجدب وقلّة الزكاء (٢) ، وإن خرج أحمر دلّ على الدماء والحروب وقصد الأعداء ، وإن كان أسود دلّ على كثرة الأمطار والمياه وفساد بعض الأرض بذلك ، وإن كان أصفر دلّ على النيران وآفاتٍ تحدُث فى الفلك ، وما كان منها مختلطا دلّ على مظالم الناس وتعدّى بعضُهم على بعض وإهمالِ ملوكهم لهم ، وأشياء من هذا الضرب . وكانت هذه القبّة على منار أقام زمنا طويلا ثم هدمه بعض الملوك البربر؛ لأنه أراد غزو قوم بتلك الناحية فعلموا بحاله فانتقلوا عن ذلك الموضع الى قُرب النيل فلمّا جاء ولم يجدهم هدمه .

ومما عُمِل له فى الصحراء التى تقرُب منه — وكانت الوحش قد كثُرت وأفسدت عليهم زرعهم وكذلك خنازير الماء — شجرةٌ من نحاس عليها أمثالُ تلك الوحوش مُلجَمة أفواهُها بخيوط من نحاس ، فما يجوز بها من الوحش لا يستطيع الحراك ولا البَراح من عندها حتى يُؤخَذ قَبْضا ويُقتَل ؛ فأشبع الناس فى لحوم تلك الوحوش وانتفعوا بجلودها زمانا طويلا إلى أن انتزعها بعض ملوك الغرب سرّا من أهل مصر وقدّر أن ينصبها فى بلدهم فتعمل له مثل ذلك ، فلمّا عمِلها بطَلت ؛ لأنهم كانوا يعملون ما يعملون بطالع يأخذونه له ، فلا يزال عمله مستقيما إلى أن تغيّر عن مكانه فبطَل عمله .

ومما عُمِل فى وقته أنّ غرابا نقَر عين صبىّ من أولاد الكهنة فقلعها ، فعمِل شجرة من نحاس عليها تمثالُ غراب من نحاس فى منقاره حربة بادية الطرفين ، منشور الجناحين ، وكتب على ظهره كتابا ؛ فكانت الغربان تقع على تلك الشجرة

(١) التكملة من خطط المقريزى . (٢) الزكاء : النماء ؛ يقال زكا الشىء يزكو زكاء وزكوا ، نما .

ولا تبرح حتى تؤخذ فتقتل ، ففني أكثر الغربان وزالت عن تلك الناحية إلى ناحية الشام . ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن أصاب بعض ملوكهم علة ووصف له فيها لحم غراب يطبخه ويأكله ويشرب من مرقه فلم يوجد ، فوجه الى آخر العمل الذى بمصر من ناحية الشام من يأتيه بغراب فأبطأ عليه ، فأمر بنزع الشجرة فرجع الغربان وأخذ منها ماعولج به الملك قبل أن يرجع رسوله .

ومما عمل فى وقته — وكانت الرمال قد كثرت عليهم من ناحية الغرب حتى ظهرت على زروعهم — فعمل لذلك صنما من صوان أسود على قاعدة منه وعلى كتفه شبه القفة فيها كالمسحاة ، ونقش على جبهته وصدره وذراعيه وساقيه حروفا ، وأقامه الكاهن بطالع أخذه له ووجهه إلى الغرب ، فانكشفت تلك الرمال ورجعت إلى ورائها . فتلك الأكداس العالية فى صحراء الغرب منها . ولم تزل الرمال تندفع عنهم إلى أن زال ذلك الصنم عن موضعه . قال : وأقام البودسير مدة واحتجب عن الناس ، وكان يتجلى لهم فى صورة وجه عظيم ، وربما خاطبهم ولا يرونه ، ثم غبر[1] مدة وهم فى طاعته إلى أن رآه ابنه عديم وهو يأمره بالجلوس على سرير الملك .

فجلس عديم[2] بن البودسير على الملك وكان جبارا لا يطاق ، عظيم الخلق ، فأمر بقطع الصخور ليعمل هرما كما عمل الأولون . قال : وكان فى وقته الملكان اللذان

---

(١) غبر : مكث وبقى .

(٢) فى خطط المقريزى (ج ٣ ص ٣٨ طبعة فييت) ما نصه : «فلما مات ملك بعده ابنه أرقليمون ، وكان كاهنا ساحرا ، فعمل أعمالا عظيمة ، منها : أنه كان يجلس فى السحاب فيرونه فى صورة إنسان عظيم ، وأقام مدة على ذلك ، ثم إنه غاب عن أهل مصر وصاروا بغير ملك ، ثم رأوا صورة بحذاء جرم الشمس عند حلولها أول برج الحمل ، فأمرتهم أن يقلدوا الملك عديم بن قفطريم ، وأعلمتهم أنه ما بقى يعود إليهم . فولوا عليهم ملك مصر عديم بن قفطريم ، وكان جبارا عظيما ... الخ» .

هبطا من السماء، وكانا فى بئر يقال لها أفناوه، وكانا يعلّمان أهل مصر السحر، ويقال: إن عديم استكثر من علمهما ثم نُقلا إلى بابل .

قال: وأهل مصر من القبط يقولون إنهما شيطانان يقال لهما: مُهلة ومَهَالة، وليس هما المَلَكين . والمَلَكان ببابل فى بئر هناك يغشاها السحَرة إلى يوم الساعة .

ولنصل هذا الفصل بخبر هاروت وماروت وإن لم يكن منه؛ وإنما الشىء بالشىء يذكر . والله أعلم .

ذكر خبر هاروت وماروت

قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ (١) الآية . قال أبو إسحاق الثعلبىّ فى تفسيره: وكانت قصّتهما – على ما ذكره ابن عباس رضى الله عنه والمفسّرون – أن الملائكة رأوا ما يصعَد إلى السماء من أعمال بنى آدم الخبيثة وذنوبهم الكثيرة؛ وذلك فى زمن إدريس عليه السلام فيعيّرونهم بذلك، ودعت عليهم الملائكة وقالوا: هؤلاء الذين جعلتهم فى الأرض وآخترتهم فهم يعصونك؛ فقال الله عزّ وجل لهم: لو أنزلتكم إلى الأرض وركّبت فيكم ما ركّبت فيهم لركبتم ما آرتكبوا؛ فقالوا: سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نعصيك؛ قال الله تعالى: فآختاروا ملَكين من خياركم أهبطهما إلى الأرض، فآختاروا هاروت وماروت، وكانا من أصلح الملائكة وأعبدهم . قال: وقال الكلبىّ: قال الله لهم: اختاروا ثلاثة فآختاروا عَزّا وهو هاروت، وعَزَايا وهو ماروت، وغُيّر آسمهما لمّا قارفا الذنب، وعزابيل؛ فركّب الله فيهم الشهوة التى ركّبها فى بنى آدم وأهبطهم إلى الأرض، وأمرهم أن يحكموا

(١) سورة البقرة آية ١٠٢

بين الناس بالحق ، ونهاهم عن الشرك والقتل بغير حق ، ونهاهم عن الزنا وشُرب الخمر . فأما عزرايل فإنه لمّا وقعت الشهوة فى قلبه استقال ربّه وسأله أن يرفعه إلى السماء فأقاله ورفعه، فسجد أربعين سنة ثم رفع رأسه . ولم يزل بعد ذلك مطأطئا رأسه حياءً من الله تعالى . وأما الآخران فإنهما بقيا على ذلك، وكانا يقضيان بين الناس يومَهما فإذا أمسيا ذكرا آسم الله الأعظم وصعدا إلى السماء . قال قَتادة : فما مرّ عليهما أشهر حتى افتتنا .

قال الثعلبيّ : قالوا جميعا : وذلك أنه اختصم اليهما ذات يوم الزُّهَرة، وكانت من أجمل النساء . قال علىّ رضى الله عنه : كانت من أهل فارس ، وكانت ملكة فى بلدها ، فلمّا رأياها أخذت بقلوبهما ، فراوداها عن نفسها فأبت وآنصرفت ، ثم عادت فى اليوم الثانى ففعلا مثل ذلك، فأبت وقالت : لا ! إلا تعبدا ما أعبد، وتصلّيا لهذا الصنم ، وتقتلا النفس ، وتشربا الخمر . فقالا : لا سبيل إلى هذه الأشياء ؛ فإن الله عز وجل نهانا عنها ، فآنصرفت ؛ ثم عادت فى اليوم الثالث ومعها قدح من خمروفى أنفسهما من الميل إليها ما فيها، فراوداها عن نفسها فعرضت عليهما ما قالت بالأمس فقالا : الصلاة لغير الله عظيم ، وقتل النفس عظيم ، وأهون الثلاثة شرب الخمر ؛ فشربا فانتشيا ووقعا بالمرأة وزنيا ، فلمّا فرغا رآهما إنسان فقتلاه . قال الربيع بن أنس : وسجدا للصنم فمسخ الله عز وجل الزُّهَرة كوكبا .

وقال علىّ بن أبى طالب والسدّى والكلبىّ رضى الله عنهم : إنها قالت لهما : لن تدركانى حتى تخبرانى بالذى تصعدان به إلى السماء . فقالا : بآسم الله الأكبر . قالت : فما أنتما بمدركانى حتى تعلّمانيه . فقال أحدهما لصاحبه : علّمها ! قال : إنى أخاف الله . قال الآخر : فأين رحمة الله ! فعلّماها ذلك . فتكلّمت به وصعدت

إلى السماء . فمسخها الله تعالى كوكبا . فعلى قول هؤلاء هى الزُّهَرة بعينها ، وقيّدوها فقالوا : هى هذه الكوكبة الحمراء واسمها بالفارسية «ناهيد» ، وبالنبطية «بيدخت» .

قال : ويدلّ على صحة هذا القول ما رواه الثعلبيّ بسنده إلى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا رأى سُهَيلا قال : " لعن الله سُهَيلا إنه كان عشّارا[1] باليمن ولعن الله الزُّهَرة فإنها فتنت مَلَكين " .

وقال مجاهد : كنت مع ابن عمر رضى الله عنهما ذاتَ ليلة فقال لى : ارمُق الكوكبة فإذا طلعت فأيقظنى ، فلمّا طلعت أيقظته ، فجعل ينظر إليها ويسبّها سبّا شديدا ، فقلت : رحمك الله تسبّ نجما سامعا مطيعا لله؟ ما له يُسَبّ! فقال : إن هذه كانت بغيًّا فلقِىَ المَلَكان منها ما لقيا . وقال نافع : كان ابن عمر رضى الله عنهما إذا رأى الزُّهَرة قال : لا مرحبًا بها ولا أهلا . وروى أبو عثمان النهدى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن المرأة التى فُتِن بها المَلَكان مُسِخَت ، فهى هذه الكوكبةُ الحمراءُ ، يعنى الزُّهَرة .

قال الثعلبيّ[2] : وأنكر الآخرون هذا القول وقالوا : إن الزهرة من الكواكب السبعة السيّارة التى جعلها الله قِواما للعالَم ، وإنما كانت هذه التى فَتَنت هاروت وماروت امرأة ، كانت تسمّى زُهَرة من جمالها ، فلمّا بغت جعلها الله تعالى شهابا ،

(١) العشّار : الذى يقبض عشر الأموال .

(٢) ويؤيد هذا ما قاله الإمام القرطبى فى تفسيره لهذه الآية الكريمة (ج ٢ ص ٥٢) : «هذا كله ضعيف وبعيد عن ابن عمر وغيره ، لا يصح منه شىء ، فإنه قول تدفعه الأصول فى الملائكة الذين هم أمناء الله على وحيه ، وسفراؤه إلى رسله (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) ، (بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) ، (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) . وأما العقل فلا ينكر وقوع المعصية من الملائكة ويوجد منهم خلاف ما كلفوه ، ويخلق فيهم الشهوات ؛ إذ فى قدرة الله تعالى كل موهوم ؛ ومن هذا خوف الأنبياء والأولياء الفضلاء العلماء ، لكن وقوع هذا الجائز لا يدرك إلا بالسمع ولم يصح . ومما يدل على عدم صحته أن الله تعالى خلق النجوم وهذه الكواكب حين خلق السماء ؛ ففى الخبر : =

فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الزهرة ذكر هذه المرأة لموافقة الآسمين فلعنها، وكذلك سُهَيل العشّار . والله أعلم .

قالوا : فلما أمسى هاروت وماروت بعد ما قارفا الذنب همّا بالصعود إلى السماء فلم تطاوعهما أجنحتهما ، فعلما ما حلّ بهما فقصدا إدريس عليه السلام فأخبراه بأمرهما وسألاه أن يشفع لهما إلى الله عز وجل ففعل ذلك ، فخيّرهما الله تعالى بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فآختارا عذاب الدنيا إذ علما أنه ينقطع ، فهما ببابل يعذّبان . واختلف العلماء فى كيفيّة عذابهما فقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : هما معلّقان بشعورهما إلى قيام الساعة . وقال قَتادة : كُبِّلا من أقدامهما إلى أصول أفخاذهما . وقال مجاهد : إن جُبّا مُلِئ نارا فجُعلا فيه . وقال خُصَيف : معلّقان منكّسان فى السلاسل . وقال عُمَير بن سعد : منكوسان يُضرَبان بسياط الحديد . ورُوى أنّ رجلا أراد تعلم السحر فقصد هاروت وماروت فوجدهما معلّقين بأرجلهما، مُزرقّة أعينهما ، مُسودّة جلودهما ، ليس بين ألسنتهما وبين الماء إلّا قدرُ أربع أصابع ، وهما يعذّبان بالعطش ، فلمّا رأى ذلك هاله مكانهما فقال : لا إله إلا الله ، وقد نُهِىَ عن ذكر الله هناك . فلمّا سمعا كلامه قالا : مَن أنت ؟ قال : رجل من الناس . قالا : من أىّ أمة أنت ؟ قال : من أمة محمد صلى الله عليه وسلم . قالا : وقد بُعِث؟ قال نعم . قالا : الحمد لله ! وقد أظهرا الآستبشار . فقال الرجل : ومِمّ استبشاركما ؟ قالا : إنه نبيّ الساعة ، وقد دنا آنقضاء عذابنا .

= "أن السماء لما خلقت خلق فيها سبعة دوّارة زحل والمشترى وبهرام وعطارد والزهرة والشمس والقمر" . وهذا معنى قول الله تعالى : (وكل فى فلك يسبحون) . فثبت بهذا أن الزهرة وسهيلا قد كانا قبل خلق آدم ، ثم إن قول الملائكة : ما كان ينبغى لنا عوده ، لا تقدر على فتنتنا ، وهذا كفر نعوذ بالله منه ومن نسبته إلى الملائكة الكرام صلوات الله عليهم أجمعين ؛ وقد نزهناهم وهم المنزهون عن كل ما ذكره ونقله المفسرون ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون » .

قال: وأمّا كيفية تعلّم السحر، فقد رُوِىَ فيه خبرٌ جامعٌ، وهو ما رواه أبو إسحاق بسنده عن هشام بن عُرْوة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت: قدمت علىّ امرأة من أهل دُومَة الجندل جاءت تبتغى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موته تسأله عن شىء دخلت فيه من أمر السحر ولم تعمل به؛ قالت عائشة رضى الله عنها لعُروة: يا بن أختى، فرأيتها تبكى حين لم تجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانت تبكى حتى إنى لأرحمها! تقول: إنى أخاف أن أكون قد هلكت؛ قالت: كان لى زوج فغاب عنّى فدخلتْ علىّ عجوز فشكوت ذلك إليها فقالت: إن فعلتِ ما آمرك به فلعلّه يأتيك، فلمّا كان الليل جاءتنى بكبشَيْن أسودَيْن فركبتْ أحدهما وركبتُ الآخر، فلم يكن كثير حتى وقفنا ببابِل، فإذا برجلين معلّقين بأرجلهما فقالا: ما جاء بكِ؟ فقلت: أتعلّم السحر، قالا: إنما نحن فتنة فلا تكفُرى وارجعى، فأبيت فقلت: لا، فقالا: إذهبى إلى ذلك التنُّور فبُولى فيه، فذهبت ففزِعت فلم أفعل، فرجعت إليهما فقالا: فعلتِ؟ قلت نعم، قالا: هل رأيتِ شيئا؟ قلت: لم أر شيئا، فقالا: لم تفعلى، ارجعى إلى بلادك فلا تكفُرى، قالت: فأبيت، فقالا: إذهبى إلى ذلك التنُّور فبُولى فيه، فذهبت فاقشعرّ جلدى فرجعت إليهما فقلت: قد فعلت، فقالا: هل رأيتِ شيئا؟ فقلت: لم أر شيئا، فقالا: كذبتِ لم تفعلى، ارجعى إلى بلادك فلا تكفُرى فإنك على رأس أمرك؛ قالت: فأبيت، فقالا: إذهبى إلى ذلك التنُّور فبُولى فيه، فذهبتُ إليه فبلتُ فرأيت فارسا مقنّعا بحديد خرج منّى حتى ذهب فى السماء وغاب عنّى حتى ما أراه، فجئتهما فقلت: قد فعلت؛ قالا: فما رأيتِ؟ قلت: رأيتُ فارسا مقنّعا بالحديد خرج منّى حتى ذهب فى السماء حتى ما أراه، قالا: صدقتِ، ذلك إيمانك خرج منك؛ اذهبى. فقلت للمرأة: والله ما أعلم شيئا، وما قالا لى شيئا. فقالت: لن تريدى شيئا إلا كان؛ خذى هذا القمح فابذُرى،

فبذَرت(٣)، قلت : أطلُعى، فأطْلعت(١)، فقلت، أحقِلى، فأحقَلت(٢)، ثم قلت : أفركى، فأفركت، ثم قلت : أطحنى، فأطحنت، ثم قلت : أخبزى، فأخبزت . فلما رأيت أنى لا أريد شيئا إلا كان، سُقِط فى يدى وندِمت . والله يا أمّ المؤمنين ما فعلتُ شيئا قطّ ، ولا أفعله أبدا .

٥ قال : وقال بعضهم : إنهما لايتعمّدان تعليم السحر ولكنهما يصفانه ويذكران بطلانه ويأمران بآجتنابه ، فيتعلّم الشقىّ منهما فى خلال صفتهما ويترك موعظتهما ونصيحتهما ، فلا يكون على هذا التأويل كفرا وإنما يكون العمل به كفرا . وقد أنكر بعضهم أن يكونا مَلَكين قال : وإنما كانا مَلِكَيْن . وقرئ فى الشواذّ : ﴿ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلِكَيْنِ ﴾ (بكسر اللام) . وقيل : كانا عِلْجين(٤) ببابل . حكاه القاضى عياض

١٠ فى كتاب الشفا(٥) . والله تعالى أعلم .

* * *

ولنرجع إلى أخبار عَديم(٦) بن البودسير الملك . قال : وعديم أوّل من صلب ؛ وذلك أنّ آمرأة زَنَت برجل من أهل الصناعات ، وكان لها زوج من أصحابه ، فأمر

١٢٦/١٢

(١) أطلعت : أطلع الزرع ، بدا . (٢) أحقلت : أحقل الزرع ، تشعب ورقه قبل

١٥ أن تغلظ سوقه . (٣) أفركى : يقال أفرك الزرع إذا بلغ أن يفرك باليد .

(٤) ورد بهامش نسخة ب هذه الحاشية ونصها : « والصحيح الذى ذكره القاضى عياض ، وأما الذى ذكر أولا ليس بصحيح ، فان صاحب العقل الراجح الصحيح هو الذى يقول بقول العلماء الأقدمين الذين درسوا العلوم الالهية الحقيقية والمعارف العقلية ، وهم الفلاسفة العظام الذين هم فى مراتب الأنبياء العظام مثل آدم ونوح و إبراهيم وموسى وهارون و يوشع وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين ، لأن

٢٠ الملائكة خلقهم الله تعالى خلقة غير خلقة ابن آدم وجعل فيهم من القوة والتلوّن ، يتصوّرون بكل صورة أرادوا ، وهم شباب لم يموتوا ولم يتغيروا ولم يجبروا ولم يرهم بشر إلا إن أرادوا ذلك . والصحيح أن هاروت وماروت ليسا ملكين وإنما كانا علجين ظالمين فأهلكهما الله سبحانه وضرب بهما المثل » .

(٥) راجع صفحة ١٧٢ طبع الآستانة . (٦) يعنى لأجل الزنا .

بصلبهما على منارتين، وجعل ظهر كلّ منهما إلى ظهر صاحبه ، وزَبَر على المنارتين آسمهما وما فعلاه وتاريخ الوقت الذى عُمِل ذلك بهما فيه، فآنتهى الناس عن الزنا. قال : وبنى أربع مدائن وأودعها صنوفا كثيرة من عجائب الأعمال والطِّلَّسمات وغير ذلك، وكنز فيها كنوزا كثيرة . وعمِل فى الشرق منارا وأقام على رأسه صنما(1) موجّها إلى الشرق، مادّا يديه يمنع دوابّ البحر والرمال أن تجاوز حدّه، وزبر فى صدره تاريخَ الوقت الذى نصبه فيه؛ ويقال: إن هذا المنار قائم إلى وقتنا هذا؛ ولولاه لغلب المـاءُ المالح من البحر الشرقىّ على أرض مصر. وعمل قنطرة على النيل فى أوّل بلاد النوبة ونصب عليها أربعة أصنام موجّهة [إلى أربع جهات الدنيا](2) فى يدى كل صنم جرسٌ يضرب به إذا أتاهم آت من تلك الناحية؛ فلم تزل بحالها إلى أن هدمها فِرعَوْن موسى . وهو الذى عمل البربا على باب النوبة، ويقال : إنه عَمِل فى إحدى المدائن الأربع التى ذكرناها حوضا من صَوّان أسود مملوءا ماء لا ينقُص على طول الدهر ولا يتغيّر؛ وكان أهل تلك الناحية يشربون منه ولا ينقُص ماؤه ؛ وإنما عمل ذلك لبعدهم عن النيل وقُربهم من البحر المالح . وقد ذكر بعض كهنة القبط أن ذلك لقربهم من البحر المالح، لأن الشمس فيما ذكروا ترفع بحرّها بخارا فيحصُل من ذلك البخار حرّ بالهندسة ، وقيل بالسحر . وملكهم عَدِيم مائة سنة وأربعين سنة ، ومات وهو آبن سبعمائة سنة وثلاثين سنة . وقيل : إنه دُفن فى إحدى المـدائن ذات العجائب فى أَزَج من رخام ملوّن بزرقة ، مبطّن برخام أصفر ، وطُلِيَ جسده بما يُمسكه ، وجُعل حوله كثير من ذخائره ، وذلك وسط المدينة، فهى محروسة بما يمنع منها من الروحانيّين .

(1) كذا فى المقريزى . وفى الأصل : «منارا عليه صنما» .

(2) التكملة من خطط المقريزى .

قال : وذكر بعض القبط أن عديما هذا عمل لنفسه فى صحراء قفط على وجه الأرض قبة عظيمة من زجاج أخضر برّاق، معقودة على ثمانية آزاج من صنفها، على رأسها أكرة من ذهب، عليها طائر من ذهب، متوشّح بجوهر، منشور الجناحين، يمنع من الدخول إليها، وقطرها مائة ذراع فى مثلها، وجعل جسده فى وسطها على سرير من ذهب مشبّك وهو مكشوف الوجه، وعليه ثياب منسوجة بذهب مغروزة بجوهر منظوم؛ والآزاج مفتحة، طول كل أزَج ثمانية أذرع، وآرتفاع القبّة أربعون ذراعا تُلقى الشعاعَ على ما حولها من الأرض، وجُعل حوله فى القبّة مائة وسبعون مصحفا من مصاحف الحكمة، وسبع موائد عليها أوانيها، منها: مائدة من أدرك رمّانىّ أحمر وآنيتها منها. ومائدة من ذهب فيلمونى[(١)] يخطَف البصر، وهو من الذهب الذى تعمل منه تيجان الحكماء، وآنيتها منها. ومائدة من حجر الشمس المضئ بآنيتها. ومائدة من الزبرجد المخروط الذى يخالطه شعاع أصفر بآنيتها، قال: وهذا الزبرجد إذا نظرت إليه الأفاعى سالت عيونها. ومائدة من كبريت أحمر مدبّر بآنيتها. ومائدة من ملح مدبّر برّاق يكاد نوره يخطف الأبصار بآنيتها. ومائدة من زئبق معقود وقوائمها وحافاتها من زئبق أصفر معقود مضىء، وعليها آنية من زئبق أحمر معقود. وجُعل فى القبّة جواهر كثيرة ملوّنة و برانىّ صنعة مدبّرة، وجُعل حوله سبعة أسياف صاعقية وكاهنية وأتراس من حديد أبيض مدبّر، وجُعل معه تماثيل أفراس من ذهب، [عليها سروج من ذهب][(٢)] وسبعة توابيت من الدنانير التى ضربها وصوّر عليها صورته، وجُعل معه من أصناف العقاقير والسمومات والأدوية فى برانىّ الحَنْتم[(٣)]، ومن أصناف الأحجار شىء كثير.

---

(١) كذا فى خطط المقريزى، وفى الأصول «فلزنى»، وفى هامش خطط المقريزى طبعة فييت «قلمونى». (٢) التكملة من المقريزى. (٣) الحنتم: جرار خضر تضرب إلى الحمرة

قال : وقد ذكر من رأى تلك القبة وأقاموا عليها أياما فما قدروا على الوصول إليها، وأنهم إذا قصدوها وكانوا منها على مقدار ثمانية أذرع دارت القبّة عن أيمانهم وشمائلهم وقد عاينوا ما فيها . ومن أعجب ما ذكروا أنهم كانوا يحاذون آزاجها أزَجا أزَجا فلا يرون غير الصورة التى يرونها من الأزَج الآخر على معنى واحد . وذكروا أنهم رأوا وجهه فى قدر ذراع ونصف بالذراع الكبير، ولحيته كبيرة مكشوفة ، ٥ وقدّروا طول بدنه عشرة أذرع وزيادة، وأنهم لمـّا تهيأ أن يصلوا إليها فنىَ ماؤهم وخافوا على أنفسهم فرجعوا ليمتاروا ما يكفيهم من الزاد ففعلوا ، ثم رجعوا فأقاموا أياما يطوفون تلك الصحراء ، ثم أخبروا أنهم رأَوْا بها عجائب كثيرة وصنوفا من الوحش لم يَرَوْا مثلها .

قال : وفى كتبهم أنهم لا يصلون إليها إلا بأن يُذبَح لها ديك أفرق ويبخّر بريشه ١٠ من بعد، ثم يسأل من المرِّيخ الوصول حتى يصل، وتكون الكواكب النيّرة على مثل ما كانت عليه وقتَ نَصبِهَا من اجتماعها فى البروج : يكون زُحَل والمُشْترِى والمرِّيخ فى بُرْج واحد، والشمسُ والقمر فى بُرْج واحد ، والزُّهَرة وعُطارد فى بُرْج واحد، ويتكلّم عليها بصلاة الكهنة سبع مرّات، فإذا وصل إليها لطّخ حائطها بدم الديك الذى قرّبه لها ويأخذ ما شاء من المال والتماثيل ولا يكثر المقام فيها ولا يقيم ١٥ غير ساعة واحدة .

١٢٧ / ١٢

قال : وذكر هؤلاء الذين رأَوْها أنهم لم يكونوا من تلك الناحية وإنما خرجوا يطلبون غيرها ؛ فإنهم سألوا أهل قِفْط عنها فلم يجدوا مَن يعرفها ولا رآها غير رجل شيخ منهم ، فإنه ذكر أن ابنا له خرج فى بعض الأمور ومعه جملٌ له فرآها ولم يصل إليها ، وبحث عن أمرها فعرف أن قوما من الشرق جاءوا فى طلبها وأنهم أقاموا ٢٠ يطوفون بقِفْط أياما وخرجوا إليها فما رجع أحدٌ منهم ولا عُرِف لهم خبر .

قال : وكان عديم قد أوصى إلى آبنــه شدّات عنــد موته أن ينصِبَ فى كل حيّز من أحياز عُمومتــه منارا و يزبرَ عليــه آسمه، فآنحدر إلى الأُشمونين فعمل منارا و زبر عليــه آسمه وعمل بهــا ملاعب ، وعمل فى صحرائهــا منارا وأقام عليه صنمــا ذا رأسين بآسم كوكبين كانا مقــترنين فى الوقت(١) . وخرج إلى أتريب و بنى فيها قبّة عظيمة مرتفعــة(٢) على عُمُد وأساطين بعضها فوق بعض ، وجعــل على رأسها صنمــا صــغيرا من ذهب، وعمل هيكلا للكواكب . وكان أبوه البــودسير أوّل من أقام للكواكب فأخذ ذلك عنه . ومضى إلى حيّز صا فعمل فيه منارا على رأسه مرآة من أخلاط توري الأقاليم، ورجع إلى أبيه فعهد له بالملك .

فملك شدّات(٣) بن عَدِيم وهو الذى بنى الأهرام الدهشوريّة من الحجارة التى قُطعت فى زمان أبيه . قال : مَن أنكر أن يكون العادِيّة دخلوا مصر إنما غلطوا بآسم شدّات بن عديم فقالوا شدّاد بن عاد لأنه أكثر ما يجرى على ألسنتهم، وقلة مايجرى على ألسنتهم شدّات بن عديم؛ و إلا فما قدر أحد من الملوك يدخل مصر ولا قوى على أهلها غير بُخْتَ نصّر . وشدّات الذى عمل مصاحف النارنجيّات(٤)، وعمل هيكل أرمنت(٥) وأقام فيه أصناما بأسماء الكواكب(٦) من ذهب وفضة وحديد أبيض ونحاس

(١) عبارة المقريزى : « كانا مقترنين فى الوقت الذى خرج فيه الى أتريب، و بنى فيها ... الخ » .

(٢) كذا فى المقريزى . وفى الأصول : « مربعة » .

(٣) كذا فى الأصل وكتاب الانتصار لآبن دقاق (ج ٥ ص ٣٨) . وفى المقريزى (ج ٣ ص ٣٩ طبعــة فييت) وصــبح الأعشى (ج ٣ ص ٤١٣) : « شدات » بالشــين المعجمة والتاء المثناة .

(٤) كذا فى الأصــل . والذى فى القاموس « النــيرنج » قال شارح القــاموس : « هــكذا فى سائر النســخ ، والمنقول عن نص كلام الليث « النــيرج » بإسقاط النون الثــانية . وكذا ورد فى لسان العرب لابن منظور . وهو أخذٌ كالسحر وليس به، إنما هو تشبيه وتلبيس» . (٥) أرمنت : بلدة بصعيد مصر الأعلى، بينها وبين الأقصر فى سمت الجنوب بعض مرحلة، وبينها و بين أسوان مرحلتان (راجع معجم البلدان والانتصار لابن دقاق) . (٦) كذا فى المقريزى . وفى الأصل : «أصنام الكواكب» .

مذهب ورصاص مُصفّى وزئبق معقود. وهذه الأجساد المعدنيّة فى طباع الكواكب وفى قسمتها . فلما فرغ منه زيّنه بأحسن زينة ونقشه بأحسن النقوش من الجواهر الملونة والزجاج المعمول الملوّن وكساه الوشى والديباج ولم يترك شيئا من التحف إلا عمله، وكذلك عمل فى المدن الداخلة من أنصِنا[(١)] هيكلا، والقبّة التى أقامها بأتريب[(٢)] وهيكلا شرقىّ الإسكندرية ، وأقام لزُحَل صنما من صوّان أسود على عبر النيل من الجانب الغربىّ . وبنى شدّاث من الجانب الشرقىّ مدائن وجعل فيها صورة صنم قائم له إحليل إذا أتاه المعقود والمسحور ومن لاينتشر فمسّه بكلتا يديه أزال عنه ذلك وانتشر وقوِىَ على الباه، وجعل فى إحداها بقرة لها ضَرْعان كبيران إذا مسحتهما المرأة التى آنعقد لبنها درّ وصلُح أمرها .

وفى أيامه بُنيت قُوص[(٣)] العالية ، بناها لآبنٍ له كان سَخِط على أمّه فحوّلها إليها وأسكن معها قوما من أهل الحكمة وأهل الصناعات . وقيل : إن شُطْب[(٤)] بُنيت فى أيامه ؛ وعمِل الصورتين الملتصقتين لكثرة النسل . وكانت الحبش والسودان عاثوا فى بلده فأخرج لهم آبنه منقاوش فى جيش عظيم فقتل منهم وسبى وآستعبد الذين سباهم وصار ذلك سنّة لهم ، واقتطع معدن الذهب من أرضهم وأقام ذلك

(١) أنصنا : بلدة بالصعيد الأوسط ، وبها آثار عظيمة أوّلية ، وهى على شط النيل من البر الشرقى قبالة الأشمونين من البر الآخر، ولها مزدرع كثير، وهى المدينة المشهورة بمدينة السحرة ومنها جليهم فرعون (راجع تقويم البلدان) . (٢) أتريب : كورة فى شرق مصر ، بناها أتريب بن قبطيم بن مصر ؛ وقد وصفها المقريزى وشرح ما فيها من آثار وعجائب (راجع ج ١ ص ١٧٥ طبع بلاق) .

(٣) قوص : أعظم مدائن الصعيد وهى على ضفة النيل الشرقية ، سميت باسم قوص بن قفط بن أخميم ، وهى باب مكة واليمن وسواكن ، وقد وصفها المقريزى فى خططه (ج ١ ص ٢٣٦) وآبن دقاق فى كتاب الانتصار (ج ٥ ص ٣٨) ووصفها الأدفوى كذلك فى كتابه الطالع السعيد (ص ٨) وصفا بديعا وذكر كثيرا من الأشعار التى قيلت فيها . (٤) شطب : مدينة من المدن التى أخربها بخت نصر وأحرقها ، وهى بالقرب من أسيوط . (راجع كتاب الانتصار ج ٥ ص ٢٤ ومعجم البلدان لياقوت) .

السبيّ يعملون فيه ويحملون الذهب إليــه ؛ وهو أوّل من أحبّ الصيد واتخذ الجوارح ، وولّد الكلاب السلوقيّة من الذئاب والكلاب الأهلية ، وعمل البَيْطرة وما تعالج به الدوابّ ، وعمل من العجائب والطلّسمات لكل فنّ ما لا يُحصَى كثرة ، وجمع التماسيح ، بطلّسم عمله لها ، إلى بركة بناحية أسيوط فكانت تنصبّ إليها من النيــل انصبابا فتقتلها ، وتستعمَل جلودها فى الســفن وغيرها ، وتستعمَل لحومها فى الأدوية والعقاقير المؤلّفة . قال : وبعض القبط يَحكى أنه عمل بمصر اثنتى عشرة ألف أُعجوبة وطلّسما ، ولم يعمل فى بلد كما عمل فيها ولا تهيّأ لأهله ما تهيّأ لهم من ذلك .

قال : وأقام شدّاث فى المُلْك تسعين سنة وخرج يَطرِد(١) فأكبّ فرسُه فى وَهْدة فقتله . وفى بعض كتبهم : أنه أخذ بعض خدمه ، وقد خالفه فى أمر من الأمور ، فأمر بطرحه من أعلى الجبــل إلى أسفل فطُرح فتقطّع جسده ، وندم على فعــله ذلك فرأى فى منامه أنه سيصيبه مثل ذلك فكان يتوقّاه ، وآلى على نفسه ألا يعلو جبلا ، وأوصى إن أصابه شىء أن يُجعل ناووسه فى الموضع الذى يلحقه فيه ما يلحقه ، ويُزبر عليه : ليس ينبــغى لذى القُدرة أن يخرج عن الواجب ويفعل مالا يجوز له فعله ، وهذا ناووس شدّاث بن عَديم بن قفطريم الملك ، عَمِل ما لا يحلّ له فكوفئ عليه بمثله .

قال : ولمّــا هلك عُمِل له سَرَب فى سفح الجبَــل فيه قبّة على مجلس قد صُفّح بالفضّة وجُعل فيــه على سرير مُلْكه ، وجُعل معه من الأموال والجواهر والتماثيل وأصناف الحِكَم والمصاحف شىءٌ كثير . وكان له أربعمائة وأربعون سنة .

وملك بعده ابنه منقاوُش(٢) بن شدّاث ، فملك بحزم وحُنْكة وأظهر مصاحف الحِكَم وأمر بالنظر فيها ، وأن يُنسَخ منها لهم بخطّ العامّة ليفهموها ، وردّ الكهنة إلى

(١) يطرد : يصطاد . (٢) فى المقريزى : « منقاوس » بالسين المهملة .

مراتبهم . وهو أوّل مَن عُمل له الحمّام من ملوك مصر . وكان كثير النكاح؛ تزوّج عدّة نساء من بنات عمه و بنات الكهنة ، وجعل لكل آمرأة منهن مكانا بجميع ما يُصلِحه من البنيان العجيب والصور المتقنة والغروس الحسنة والآلات العجيبة ، وأسكنهنّ فيها . وقد قال بعض أهل الأثر : إنه الذى بنى منف لبناته وكنّ ثلاثين بنتا ونقلهنّ إليها ، وعَمِل مدنا غيرها ومصانع ، وعمل هيكلا لصُوَر الكواكب وأصنامها على ثمانية فراسخ من منف ، وعمل بتلك الناحية طلّسمات كثيرة وعجائب أغرب فيها بفضل حكمة أبيه وجدّه ، وعمل فى السنة آثنى عشر عيدا لكل شهر عيدٌ يُعمَل فيه من الأعمال ما كان موافقا لبُرْج ذلك الشهر؛ وكان يُطعم الناس فى تلك الأعياد و يوسّع عليهم ، ففرح الناس به ورأَوْا معه ما لم يَرَوْه مع غيره ، وفُتح عليه من المعادن ما لم يُفتَح على أحد ، وألزم أصحاب الكيمياء العملَ فكانوا لا يفترُون ليلا ولا نهارا ؛ فآجتمع عنده أموال عظيمة وجوهرٌ كثيرٌ و زجاجٌ نفيس مسبوك وغير ذلك ، فأحبّ كنزه فدعا أخا له فقال له : قد ترى كثرة هذا الذهب والجوهر ، وما عُمل من هذه التماثيل الكثيرة ، ولست آمَنُ أن يتسامع بنا الملوك فيغزُونا من أجله ، فأمعِن فى أرض الغرب ثم انظر مكانا حريزا خفىّ الأثر ثم أحرزه فيه ثم آستره بعلامات وآكتب صفة المكان وطريقه وعلامته . قال : ويقول أهل الأثر : إنه حمل معه آثنتى عشرة ألف عجلة ، منها من الجوهر ثلاثمائة عجلة ، وسائرها من الذهب الإبريز الصفائح والمضروب ، ومن آلات الملوك وطرائفهم وسلاحهم وأوانيهم ؛ فسار فى الجنوب يوما ثم أخذ مغربا اليوم الثانى و بعض الثالث ، فآنتهى إلى جبل أسود مُنيف ليس له مصعد بين جبال مستديرة حوله ، فعمل تحت ذلك الجبل أسرابا ومغاور ودفن فيها ما كان معه وردمها وزبر عليها ورجع ؛ فمكث أربع سنين يبعث كل سنة عَجَلا عظيمة تُدفَن فى نواح شتّى .

وهو الذى عمل فى أنديمس المدينـة بيتا تدور به تماثيل لجميع العِلَل ، وكتب على رأس كل تمثال ما يصلُح له من العـلاج ، فآنتفع الناس بها زمانا إلى أن أفسدها بعض الملوك ضنّا بالحكمة . وعمل فى هـذه المدينة صورة آمرأة مبتسمة لا يراها مهمـوم إلا زال همّـه ونَسِيَه ؛ وكان النـاس يأتونها و يطوفون حولهـا ٥ ثم عبـدوها من بعد . وعمل تمثالا روحانيّا من صُفْر مُذَهّب بجناحين لا يمرّ به زانٍ ولا زانيـة إلا كشف عورته بيده ، وكان الناس يُمتَحَنون به فامتنعوا من الزنا فَرَقًا منه ، وآستمرّ كذلك إلى زمن كَلْكَمن الملك ، وذلك أن بعض نسائه ، وكانت حظية عنده ، عشقت رجلا من خدم الملك وخافت أن ينتهى إليه خبرها فيمتحنها بذلك الصنم فيقتلها ، فآحتالت لذلك فخلا بها الملك فى بعض الليالى ، وهمـا يشربان ، ١٠ فأخذت فى ذكر الزوانى وجعلت تسبهنّ وتذمهنّ ، فذكر الملك ذلك الصنمَ وما فيه من المنافع للناس ، وما يستحقّ مَن عمله من الثناء والذكر الجميـل ؛ فقالت المرأة : إنه كذلك وقد صدق الملك ، غير أن منقاوش لم يُصب الرأى فى أمره ؛ قال الملك : وكيف قلت ذلك ؟ قالت : لأنه أتعب نفسه وحكماءه فيما جعله لصـلاح العامّة دون نفسه ، وهذا أكبر العجز ؛ وإنمـا كان حُكْم هـذا التمثال أن يُنصَب فى دار ١٥ الملك حيث تكون نساؤه وجواريه ، فإن آقترفت إحداهنّ ذنبا علم بها فيكون رادعا لهنّ متى عرض بقلوبهنّ شىء من الشهوة ؛ لأن شهواتهنّ أغلب وأكثر من شهوات الرجال ؛ ولو حدث — وأعوذ بسعد الله الأعلى — فى دار الملك شىء من هذا فأحبّ امتحانه فضح نفسه وشاع فى الخاصّ والعامّ أمره ، وإن عاقب بغير أمر يتحققه كان متعدّيا آثما ، وإن لم يمتحنه صبر على المكروه . قال الملك : صدقت ، فكيف الوجه ٢٠ فى هذا الأمر؟ قالت : يأمر الملك بنزع هذا الصنم من مكانه ونقله إلى داره ففعل فبطل عمله ، وآمتحن فلم يصنع شيئا ، فعملت المرأة ما كانت همت به وآنهمكت فيه .

١٢٩ / ١٢

قال : ويقال : إن منقاوش بنى هيكلا للسحَرة على جبل القصير وقدّم عليه رجلا منهم يقال له مسّيس ، فكانوا لا يطلقون الرياح للمراكب المقلعة إلّا بضريبة يأخذونها منهم للملك . وكان الملك إذا ركب عمِلوا بين يديه التخاييل[1] العجيبةَ ، فيجتمع النـاس إليهـم ويعجبون من أعمالهم ، وأمر أن يُبنَى لهم هيكل للعبادة يكون لهم خصوصا ، وجعل فيه قبّة فيهـا صورة الشمس والكواكب ، وجعل حولها أصناما وعجائب ، وكان الملك يركب إليه ويقيم سبعة أيام ، وجعل فيه عمودَيْن زبر عليهما تاريخ الوقت الذى عُمل فيه ، وهما بعين شمس ، ونقل منقاوش إلى عين شمس كنوزا وجواهر وطلّسمات وعقاقير وعجائب ودفنها بها وبنواحيها .

قال : وكان منقاوش قسم خراج البلاد أرباعا : فربع منه للملك خاصة يعمل منه ما يريد ، وربع لأرزاق خدمه ، وربع ينفق فى مصالح الأرض وما يحتاج إليه من حفر ترعها وعمل جسورها وتقوية أهلها على العمارة ، وربع يدفن لحادثة تحدُث وحاجة تنزل . وكان خراج البلد فى ذلك الوقت مائة ألف ألف وثلاثة آلاف دينار ، وهو مقسوم على مائة وثلاث كور بعدّة الآلاف . وأقام ملكا إحدى وسبعين سنة ، ومات من طاعون أصابه ، وقيل : من سمّ جُعل له فى طعامه ، وعُمل له ناووس فى صحراء المغـرب ، وقيـل : فى غربىّ قُوص ، ودُفن معه من مصاحف الحكمة والصنعة المعمولة وتماثيل الذهب والجوهر ، ومن الذهب المضروب شىء كثير ، ودُفن معه روحانىّ الشمس من ذهب يلمع ، وله جناحان من زَبَرْجَد ، وصنم على صورة آمرأته التى كانت أحظى نسائه عنـده وكان يحبّها ، فأمر أن تُعمَل صورتها

(١) التخاييل : هى التمويه بالحيـل ، وهو أن يفعل الساحر أشياء ومعانى ، فيخيـل للناظر أنها بخلاف ماهى به ، كالذى يرى السراب من بعيد فيخيل إليه أنه ماء ، وكراكب السفينة السائرة سيرا حقيقيا يخيل إليه أن ما يرى من الأشجار والجبال سائرة معه .

فى هيا كلهم جميعا، فعُمل له تمثالها من ذهب بذؤابتين من ذهب أسود، وألبست حلّة من جواهر منظومة وجعلت جالسة على كرسىّ، فكانت تجعل بين يديه فى موضع تجلس فيه يتسلّى بذلك عنها، فدُفنت معه عند رجليه .

وملك بعده آبنــه مناوش بن منقاوش، ملك بوصيّة من أبيه، فطلب الحكمة على عادة أبيه وآستخرج كتبها وأكرم أهلها، وبذل فيهم الجوائز وطلب الإغراب فى عمل العجائب ، وكان كل واحد من ملوكهم يجهد جهده فى أن تُعمَل له غريبة من الأعمال لم تُعمَل لمن كان قبله وتثبت فى كتبهم وتزبر على الحجارة فى تواريخهم . قال : ومناوش هذا أوّل من عبد البقر من أهل مصر، وكان السبب فى ذلك أنه اعتلّ علّة يئس منه فيها ، وأنه رأى فى منامه صورة روحانىّ عظيم يخاطبه ويقول له : إنك لا يخرجك من علّتك إلا عبادة البقر لأن الطالع كان وقت حلولها بك فى صورة ثور بقرنين؛ ففعل ذلك ، وأمر بأخذ ثور أبلق حسن الصــورة ، وعمل له مجلسا فى قصره وسقفه بقبّة مذهبة، فكان يبخّره ويطيّب موضعه ، ووكّل به سادنا يقوم به ويكنس تحتــه ، وكان يتعبّد له سرّا من أهل مملكته ، فبرأ من علّته وعاد إلى أحسن أحواله .

ويقال : إنه أوّل من عمــل العَجَل وضبّبها بالذهب ، وعمــل فيها قبابا من الخُشب المذهبة وفُرشت بأحسن الفرش، وكان يركب عليها مع مَن أحبّ . وقيل: إنه عُمل له ذلك فى علّته لأنه كان لا يقدر على الركوب؛ وكانت البقر تجرّه فإذا مرّ بالمكان النزِه أقام فيه، وإن مرّ بالمكان الخراب أمر بعمارته . وقيل : إنه نظر إلى ثور أبلق من البقر الذى يجرّ عجلته فأعجبه حُسن بَشَرته فأمر بترفيهه وسوّقه بين يديه إلى كل موضع يسلكه إعجابا به، وجعل عليه جُلّا من الدّيباج المنسوج بالذهب، فلما كان فى بعض الأيام — وقد خلا فى موضع منفرد عن أتباعه والثور قائم بين يديه —

إذ خاطبه الثور وقال: لو رفّهنى الملك عن السير معه وجعلنى فى الهيكل وعبدنى وأمر أهل مملكته بعبادتى كفيته جميع ما يريده ، وعاونته على أمره، وقويته فى مُلْكه، وأزلت عنه جميع علّله ؛ فآرتاع لذلك وأمر بالثور أن يُغسل ويطيَّب وينظَّف ويدخل الهيكل ، وأمر بعبادته . وعُبد ذلك الثور مدّة وصارت فيه آية أنه لا يبول ولا يَرُوث ولا يأكل إلّا أطراف ورق القصب الأخضر فى كل شهر مرّتين ، فآفتتن الناس به وصار ذلك أصلا لعبادة البقر .

قال : وابتنى مناوش مواضع وكنز فيها كنوزا وأقام أعلاما . وبنى فى صحراء الغرب مدينة يقال لها ديماس وأقام فيها منارا ودفن حولها كنوزا . قال : ويقال : إن هذه المدينة قائمة، وإن قوما جازوا بها من نواحى الغرب وقد أضلّوا الطريق فسمعوا بها عَزِيف الجنّ ورأوْا أضواء نيرانهم . قال : وفى بعض كتبهم أنّ ذلك الثور، بعد مدّة من عبادتهم له ، أمرهم أن يعملوا صورته من ذهب أجوف ، ويُؤخذ من رأسه هو شعرات ، ومن ذنبه ومن نحاتة قرونه وأظلافه ، ويُجعل ذلك فى التمثال، وعرّفهم(1) أنه يُلحق بعالَمه وأمرهم أن يجعلوا(2) جسده فى جُرْن من حجر [أحمر(3)] ويُدفن فى الهيكل ويُنصب تمثاله عليه ، ويكون ذلك وزُحَل فى شَرفه والشمس مسعودة تنظر إليه من تثليث والقمر فى الزيادة ، ويُنقش على التمثال علامات الكواكب السبعة ففعلوا ذلك ، وعملت الصورة من ذهب ملمّع على شِبْه الثور، وجُعل له قرنان من ذهب وكُلّلا بأصناف الجواهر ، وجعلوا عينيه جَزْعتين سوادا فى بياض، ودفن جسد الثور فى الجرن الأحمر .

قال : وجعل فى المدينة شجرة تُطْلِع كل لون من الفاكهة، ومنارا فى وسطها طوله ثمانون ذراعا ، وعلى رأسه قبّة تتلوّن فى كل يوم لونا حتى تمضى سبعة أيام

(1) كذا فى المقريزى (ج ١ ص ٢٣٨ طبع بلاق) . وفى الأصل : «وعرفه» .

(2) كذا فى المقريزى . وفى الأصل : «بعالمه فيجعلوا» . (3) التكملة من المقريزى .

ثم تعود إلى اللون الأوّل فيكسو المدينة من تلك الألوان، وجعل حول المنار ماء شقّه إليه من النيل ، وجعل فى ذلك الماء سمكا من ذلك اللون ، وجعل حول المدينة طِلّسمات رءوسها رءوس قِرَدة وأبدانها أبدان الناس ، كل واحد منها لدفع مضرّة أو اجتلاب منفعة، وعمل على أبواب المدينة، وهى أربعة أبواب[1]، على كل باب صنما، ودفن تحت كلّ صنم كنزا من الكنوز، وباب كل واحد منها على قياس مائة ذراع منه إلى الجهة التى وجهه منصرف إليها، وكتب على كل واحد منها قُربانه وبخوره والوصول إليه ، وأسكنها السحرة فكانت تعرف بمدينة السحرة ، ومنها كانت أصناف السحرة تخرج .

قال : وأقام مناوش فى الملك سبعا وثلاثين سنة وهلك ، وعُمل له ناووس تحت الجبل الغربىّ ، وجعل وصيّته إلى ابنه من بعده هِرْميس بن منقاوش، فملك إحدى عشرة سنة لم يبن بنيانا ولا نصب منارا ولا عمل فى أيامه أعجوبة حتى إنه لم يكن يذكر فى عداد ملوكهم . فهذا ما أورده فى أخبار قفطريم بن قبطيم وبنيه على توالٍ واتساق فلنذكر أخبار أشمون .

ذكر أخبار أشمون ومَن ملك من بنيه

هو أُشمون بن قبطيم بن مِصْريم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام؛ وهو أخو قفطريم أبى الملوك الذين قدّمنا ذكرهم . كان مُلْكه من أُشمونين إلى منف ، ومن الشرق إلى البحر المالح، ومن الغرب إلى حدود برقة، وهو آخر حدّ مصر،

(١) وفى المقريزى (ج ١ ص ١٣٨ طبع بلاق) فى كلامه على أشمون بن قبطيم : أنها مدينة فى سفح الجبل لها أربعة أبواب من كل ناحية باب ، فعلى الباب الشرقى صورة عقاب ، وعلى الباب الغربى صورة ثور، وعلى الباب الشمالى صورة أسد ، وعلى الباب الجنوبى صورة كلب ، وفى هذه الصور روحانيات تنطق ، فإذا قدم غريب لا يقدر على الدخول إليها إلا بإذن الموكلين بها ودفن تحت ... الخ .

ومن الصعيد إلى حدّ أخميم . وكان ينزل مدينة الأشمونين وله بُنيت وبآسمه سُمّيت، وكان طولها آثنى عشر ميلا فى مثلها . قال إبراهيم : وأشمون أوّل من آتّخذ الملاعب بأنصنا والبهنسا وغيرها، وبنى القصور وغرس الغروس، وبنى مدينة تُعرف بِقَمَنْطر ذات العجائب، وهى بالقُرب من مدينة السحَرة التى تقدّم ذكرها فى أخبار منقاوش . قال : وفى وسط هذه المدينة قبّة تُمطر شتاء وصيفا مطرا خفيفا، وتحت القبّة مطهرةٌ فيها ماء أخضر يُتداوَى به من كل داء فيبرئه، وفى شرقها سَرَب لطيف له أربعة أبواب، لكل باب منها عِضادة صورة وجه يخاطب كل واحد منها صاحبه بما يحدُث فى قومه، ومَن دخل تلك البربا على غير طهارة نفخوا عليه فأصابته عِلّة قطيعة لا تفارقه إلى أن يموت . وكانوا يقولون إنّ فى وسطه مهبط النور وهو فى صورة العمود، مَن اعتنقه لم يحتجب عن نظره شىء من الروحانيّات، ويسمع كلامهم ويرى ما يعملون، وعلى كل باب من أبواب هذه المدينة صورة راهب فى يده مصحف فيه علوم الكهنة، فمن أحبّ ذلك العلم أتى تلك الصورة فمسحها بيديه وأمرّهما على صدره، فيثبت ذلك العلم فى صدره . ويقال : إن هاتين المدينتين قَمَنْطر ومدينة السحَرة بُنيتا على آسم هِرْمِس وهو عُطارد، وأنهما بحالها .

قال : وحُكى عن رجل أنه أتى عبد العزيز بن مروان، وهو على مصر، فعرّفه أنه تاه فى صحراء الشرق وأنه وقع على مدينة خراب، وأنه وجد فيها شجرة تحمل من كل فاكهة، وأنه أكل منها وتزود؛ فقال له رجل من القبط : هذه إحدى مدينتى هِرْمس وفيها كنوز كثيرة؛ فوجّه عبد العزيز معه جماعة وحمل معهم زادا وماء، فأقاموا يطوفون شهرا فى تلك الصحارى فلم يقفوا لها على أثر . ويقال : إن أُشمون عمِل فى وقته على باب الأشمونين إوزّة من نحاس، فكان الغريب إذا دخل المدينة صاحت الإوزّة وخففت بجناحيها فيعلَم به، فإن أحبّوا منعوه، وإن أحبّوا تركوه .

١٣١/١٢

قال : وفى أيامه كثُرت الحيّات فكانوا يصيدونها و يعملون من لحومها الأدوية والدِّرياقات ، ثم ساقوها بسحرهم إلى وادى الحيّـات فى جبال لوبيـة ومراقية فسجنوها هناك . قال : وهو أوّل من عمل النوروز بمصر ورتبه سبعة أيام يدمنون فيها الأكل والشرب واللهو . وفى زمانه بُنيت البهنسا وأقام بها أسطوانات، وجعل فيها[1] مجالسا من زُجاج أصفر وعليه قبّة مذهبة، فكانت الشمس إذا طلعت على القبّة ألقت شعاعها على المدينة . وعمل فيها عجائب كثيرة يطول الشرح بذكرها .

قال : ويقال إن أُشمون كان أوّل إخوته ملكا، وكان أعدل بنى أبيه وأرغبَهم فى صنعة تبقَ ويبقَ ذكرها . وهو الذى بنى المجالس المصفّحة بالزجاج الملوّن فى وسَط النيـل . وتزعم القِبْط أنه بنى سَرَبا تحت الأرض من الأُشمونين إلى أَنْصِـنا تحت النيل . وقيل : إنه عمله لبناته لأنهنّ كنّ يمضِينَ إلى هيكل الشمس . وكان هذا السَرَب مبلّط الأرض والحِيطان والسقف بالزجاج الثخين الملوّن . وقيل : إنه كان أطول إخوته مُلْكا . وقال أهل الأثر : إنه ملك ثمانمائة سنة، وإن قوم عاد انتزعوا منه المُلْك بعـد ستمائة سنة من مُلْكه وأقاموا تسعين سنة وآستوبَئُوا البلد فآنتقلوا [إلى الدَّثِينة من طريق الحجاز إلى وادى القرى فعمروها][2] واتخذوا [بها][2] المنازل والمصانع فسلّط الله عليهم الذّرّ فأهلكهم، وعاد ملك مصر إلى أُشمون بعد خروجهم من البلد . ويقال : إنه ملكهم ثمانمائة سنة وثلاثين سنة، ودُفن فى أحد الأهرام الصِّغار القبليّة . وقيل : بل عُمل له ناووس فى غربى الأُشمونين ودُفن معه فيه من الأموال والعجائب شىء كثير، وأصنام الكواكب السبعة التى كانت فى هيكل المرآة التى تُرى منها الأقاليم ، ودُفن معـه ألف سَرْج من ذهب وفضّة ، وعشرة آلاف

(١) فى المقريزى (ج ١ ص ٢٣٨ طبع بلاق) : « فيا فوقها » .

(٢) التكملة من المقريزى (ج ١ ص ٢٣٩) ، والدثينة : ناحية بين الجند وعدن .

خابية صغار من ذهب وفضّة وزجاج ، وألف عُقّار مدبّرة لفنون الأعمال وزُبر عليه آسمه ومدّة مُلْكه والوقت الذى مات فيه .

وآستخلف آبنه مناقيوس بن أشمون . وكان جَلْدا محنّكا فاستأنف العمارة وبنى القرى ونصَب الأعلام ، وجمع الحكمة ومصاحف الملوك والحكماء وعمل العجائب ، وبنى لنفسه مدينة وآنفرد بها ، وعمل عليها حصنا ونصب عليه أربعة أعلام ، فى كل ركن من أركانه علَم ، وبين تلك الأعلام ثمانون صنما من نحاس وأخلاط ، فى أيديها آلات السلاح وزبر على صدرها آياتها .

قال : وكان بمنف رجل من أولاد الكهنة من أعلم الناس بالسحر وأبصرهم بأخذ التماسيح والسباع ، وكان يعلّم الغلمان السحر فإذا حذقوا علّم غيرهم ؛ فأمر الملك أن تُبنَى له مدينة ويحوّل إليها فبُنيت ، وهى إخميم . وملك مناقيوس نيّفا وأربعين سنة ومات فدُفن فى الهرم المحاذى لإطفيح ، ونُقِل معه شىء كثير من المال والجواهر والآنية والتماثيل ، وزُبِر عليه آسمه والوقت الذى مات فيه .

وملك بعده آبنه — ولم يُسمّه إبراهيم (١) — فكان أحزم من أبيه ، فعظُم فى عيون أهل مصر . وهو أوّل مَن عمل المَيْدان وأمر أصحابه برياضة أنفسهم فيه . وأوّل من عمل البيمارستانات لعلاج المرضَى والزمْنَى وأودعها العقاقير ورتّب فيها الأطبّاء وأجرى عليهم ما يسعهم ، وأقام الأمناء على ذلك ، وصنع لنفسه عيدا وسمّاه عيد الملك ؛ فكان الناس يجتمعون اليه فى يوم من السنة ، فيأكلون ويشربون

(١) هو إبراهيم بن القاسم الكاتب مختصر كتاب العجائب الكبير الذى ألفه إبراهيم بن وصيف شاه وهو الذى اعتمد عليه المؤلف فى النقل فى كلامه على ملوك مصر كما أشار الى ذلك فى أوّل هذا الجزء . وقد رجعنا الى بعض المصادر التاريخية التى بأيدينا فلم نوفق الى معرفة اسم هذا الملك ، بل رأينا بعض المؤرخين ينكره (راجع الهامش رقم ٢ ص ٤٤ ج ٣ من خطط المقريزى طبعة فييت) .

سبعة أيام وهو يُشرف عليهم فى مجلس قد بُنِىَ له على عمد قد طُوِّقت ذهبا وألبست فاخر الذهب المنسوج، وعليه قبّة مصفّحة من داخلها وخارجها بالذهب والزجاج المسبوك، وكان يعطى كلّ قوم قسطهم من النظر ثم يُكثرون الدعاء له و ينصرفون الى مواضعهم .

٥ وفى أيامه بنيت سَنْتَرِيّة[1] فى صحراء الواحات ، عملها من حجارة بيض مربّعة على تقدير واحد، وجعل فى كل حائط من حيطانها بابا فى وسطه شارع ينتهى الى الحائط المجاور له من الجهة الأخرى، وجعل فى كل شارع أبوابا يَمنة ويَسرة تنتهى طرقاتها الى داخل المدينة، وجعل فى وسط هذه المدينة ملعبا يدور به من كل ناحية سبع درج ، وعمل عليه قبّة من خشب مدهون على عمد[2] عظيمة ١٠ من رخام ، وفى وسطه منار من رخام عليه صنم من صوّان أسود يدور مع الشمس بدَوَرَانها ، و بسائر نواحى القبّة صور معلّقة تصفر وتصيح بلغات مختلفة . وكان الملك يجلس على الدرجة العالية من الملعب وحوله بنوه وأقاربه وأبناء الملوك، وعلى الدرجة الثانية رؤساء الكهنة [والوزراء][3] ، وعلى الثالثة رؤساء الجيش ، وعلى الرابعة أصحاب الفلسفة والمنجّمون والأطبّاء وأصحاب العلوم ، وعلى الخامسة أصحاب ١٥ العمارات ، وعلى السادسة أصحاب المِهَن ، وعلى السابعة العامّة؛ فيقال لكل طائفة منهم : انظروا مَن دُونكم ولا تنظروا مَن فَوقكم، فإنكم لا تلحقونهم . فكان فى هذا ضربٌ من التأديب .

١٣٢/١٢

قال : وكان للملك عدّة نسوة ، وكان يحبّ منهنّ امرأتين ويحظّاهما ويجمع بينهما فى مجلس واحد ، فقال لإحديهما فى بعض الأيام دون الأخرى ، فغارت

٢٠ (١) سنترية، مدينة فى غربى الفيوم دون فزان السودان وهى آخر أعمال مصر .
(٢) كذا فى المقريزى . وفى الأصل : «على خشب عظيمة من زجاج» وهو تحريف .
(٣) التكملة من المقريزى .

وغَرَب عقلها وتناولت سكّينا ودخلت الى الملك وهو مغتر وتلك المرأة جالسة الى جنبه فضربتها بالسكّين ،وقام الملك دُونها ليمنعها منها فضربته على فؤاده فخرّ صريعا ، وقُبض على المرأة وحُبست ، ومات الملك . وقد أوصى بقتل المرأة و وضع رأسها على ناووسه . ومدّة مُلْكه ستون سنة .

وملك بعــده آبنه مرقورة الملك؛ فدخل عليه العظماء وهنّــوه ودعَوْا له بدوام المُلْك والنعمة ، وكان حازما عاقلا ، فأخذ فى حُسْن التدبير وتقويم العمارة وترتيب المراتب،وجعل لرأس الكهّان الحكومة فى أمر الدِّين . قال : وفى كتبهم أنه أوّل مَن ذلّل السباع بمصر وركبها . قال : و بنى [المدن وعمّر][1] الهيا كل وأقام الأصنام التى غربى منف ، وكان مُلْكه نيّفا وثلاثين ســنة ، وعُمل له ناووس على طريق الغرب على مسافة يومين .

وقلّد آبنــه بلاطس بن مرقورة، فملك وهو صبىّ، وكانت أمّه تدبّر الملك مع الوزراء والكهنة،وكانت حازمة مجرّبة ،فأجرت الأمور على ما كانت فى حياة أبيه، وأحسنت الى الأولياء، وعدلت فى الرعيّة،ووضعت عنهم بعض الخراج فأحبّوها . وعُملت فى وقتــه البركة العظيمة فى صحراء الغَرْب، وجُعــل فى وسطها عمود طوله ثلاثون ذراعا، فى أعلاه قصــعة من حجارة يفور منها المــاء فهى لا تنقُص أبدا ، وجُعل حولها أصنام حجارة ملوّنة مر كل صنف على صُــوَر الحيوان والوحش والطير، وكان كل جنس يأتى الى صورته و يألفها فيُؤخَذ ولا يدرى .

قال : ولمــّا ترعرع الملك أحبّ الصيد ولَهِج به ، فعملت له أمّه متنزّها فيه مجالس مركّبة على أساطين من المرمر مصفّحة بالذهب ، عليها قباب مرصّعة بالتصاوير

(١) التكملة من المقريزى (ج ١ ص ١٣٨ طبع بلاق) .

العجيبة والنقوش المؤلّفة، يطلع من تحتها الماء فى فوارات وتنصب الى أنهار مصفّحة بالفضّة تُفضى الى حدائق فيها بدائع الغروس، عليها تماثيل تصفر بأصناف اللغات، ونُضِّدت بأنواع الفواكه، وأرخت عليها ستور الدِّيباج المنسوجة بالذهب، وآختارت له من بنات الملوك الحسان وأزوجته منهنّ، و بنت حول تلك الجنة مجالس يجلس فيها الوزراء والكهنة وأشراف أهل الصناعات يرفعون اليه ما يعملونه، فكان أكثر مقام الملك فى تلك الجنة، فإذا فرغوا من أعمالهم نُقِل اليهم الطعام والشراب من مطبخه، ولا يزالون فى أكل وشرب بقية يومهم وليلتهم، وأقاموا على ذلك والأمور جارية على السداد .

وكانت أيامه سعيدة كثيرة الخِصْب والسعة للناس والعدل فيهم والإحسان اليهم . وكان له يوم يخرج فيه الى الصيد ويرجع الى جنّته فيأمر لمن معه بالجوائز والأطعمة والأشربة ، ويجلس يوما للناس فينظر فى أمورهم ومصالحهم ويقضى حوائجهم ، ويجلس يوما للخلوة بنسائه، ثم جُدِر فمات ، وعُمل له ناووس فى جنّته وجعل فيه من الأموال والجواهر والصنعة والتماثيل كما كان يجعل لآبائه . وكان ملكه ثلاث عشرة سنة، وآنتقل المُلْك إلى أعمامه .

ذكر أخبار أتريب الملك

هو أتريب بن قِبْطيم بن مصريم بن بَيْصر بن حام بن نوح عليه السلام . قال: وكان أتريب قد انتقل إلى حيِّزه بعد وفاة أبيه قبطيم ، وهى المدينة التى كان أبوه بناها له ، وكان طولها آثنى عشر ميلا ، ولها آثنا عشر بابا ، وفى شارعها الأعظم ثلاثُ قِباب عالية على عمد بعضها فوق بعض ، منها قبّة فى وسط المدينة، وقبّتان فى طرفيها ، وجعل على كل ركن منها مرقبا كبيرا يُوقَد ليلا ، وعلى كل باب من أبوابها

حرسا كثيرا، وجعل فى كل جانب منها ملعبا ومجالس ومتنزّهات تشرف من تلك
المجالس عليها، وشقّ فى عرضها[1] نهرا وعمل عليه قناطر معقودة، وبنى فوقها مجالس
يتّصل بعضها ببعض، وجعل حوله منازل تدور بالخليج متّصلة بالقناطر على رياض
مزروعة وخلفها الأجنّة والبساتين؛ وعلى كل باب من أبوابها أعجوبة من تماثيل
وأصنام متحرّكة وأصنام ينبع الماء من آذانها، ومن داخل كل باب صورة شيطانين
من صُفْر، فكان إذا قصدها أحد من أهل الخير قهقه الشيطان الذى عن يَمنة
الباب، وإن كان من أهل الريب[2] بكى الشيطان الذى عن يَسرة الباب، وجعل
فى كل متنزّه منها من الوحوش الآلفة والطير المغرّدة كل مستحسَن، وجعل فوق
قباب المدينة صورا تصفر إذا هبّت الرياح، ونصب له فيها مرايا ترى البلدان
البعيدة والعجائب الغريبة، وبنى حذاءها فى الشرق مدينة وجعل فيها ملاعب
وأصناما بارزة كثيرة فى خلق مختلفة، وجعل فى وسطها بركة إذا مرّ بها الطير سقط
عليها فلا يبرح حتى يؤخَذ، وجعل لها حصنا [بآثنى عشر بابا][3] وجعل على كل
باب من أبوابها تمثالا يعمل أعجوبة وعمل حولها أجنّة، وجعل ما يقرُب منها من
ناحية الشرق مجلسا منقوشا على ثمانى أساطين، وفوق المجلس قبّة عليها طائر منشور
الجناحين يصفر كل يوم ثلاث صَفَرات: بكرة، ونصف النهار، وعند الغروب،
وأقام فيها أصناما وعجائب كثيرة، وبنى مدنا كثيرة وأكثر من العمارات، وأقام رجلا
يقال له برسان يعمل الكيمياء، وضرب منها دنانير، فى كل دينار سبعة مثاقيل عليها
صورته، وعمل منها تماثيل كثيرة. وعاش أتريب فى الملك ثلاثمائة سنة وستين سنة،

---

(١) فى المقريزى (ج ١ ص ١٧٥ طبع بلاق): «غربيها».
(٢) فى المقريزى: «الشرّ».
(٣) التكملة من المقريزى (ج ١ ص ١٧٦ طبع بلاق).

وكانت سنّه خمسمائة سنة . وعُمل له ناووس فى جبل بالشرق حُفر [له] (١) تحته سَرَب بُطِّن بالزجاج [والمرمر] (١) وجُعل على سرير من ذهب [مرصّع] (١) وحُملت إليه ذخائره، وجُعل على بابه صورة تنّين لا يدنو منه أحد إلّا أهلكه، وزبر عليه آسمه وتاريخ وقته، وسفَوْا عليه الرمال .

٥ وملكت بعده آبنته [تدرورة] (٢) فدبّرت الملك وساسته بأيد وقوة خمسا وثلاثين سنة ثم ماتت .

فقام بالملك بعدها أخوها فليمون (٣) بن أتريب (٤)، فردّ الوزراء إلى مراتبهم، وأقام الكهّان [على مواضعهم] (٥) ولم يخرج الأمر عن رأيهم، وجدّ فى العمارات وطلب الحكَم وعمل بها . وفى أيامه بُنيت تنّيس الأولى التى غرّقها البحر، وكان بينها و بين ١٠ البحر شيء كثير، وحولها الزروع والأشجار والكروم والقُرى ومعاصر الخمر وغيرها وعمارة لم يكن أحسن منها، فأمر الملك أن يُبنَى له [فى] (٥) وسطها مجالس، ويُنصب له عليها قباب، وتزيّن بأحسن الزينة والنقوش، وأمر بفرشها و إصلاحها، وكان إذا بدأ النيل فى الزيادة انتقل الملك إليها فأقام بها إلى النَّوْروز ورجع . وكان للملك بهـا أمناء يقسّمون المياه و يُعطون كل قرية قسطها، وكان على تلك القُرَى حصن ١٥ يدور بقناطر، وكان كل ملك يأتى يأمر بعمارتها والزيادة فيهـا و يجعلها له متنزّها .

---

(١) التكملة من المقريزى (ج ١ ص ١٧٦) . (٢) التكملة من المقريزى (ج ١ ص ١٣٨)، ووصف هذه الملكة بقوله : « وكانت كاهنة ساحرة، فساست الملك أحسن سياسة، ودبرت الملك أجود تدبير ؛ وعملت طلسمات عجيبة، منها طلسم منع الوحش والطير أن يشرب من النيل حتى مات أكثرها عطشا، ووقعت فى زمانها صيحة ارتجت لها الأرض فهلكت » . (٣) فى المقريزى (ج ١ ص ١٧٦) : ٢٠ « ابن أختها » . (٤) فى المقريزى : « قليمون » بالقاف . (٥) التكملة من المقريزى (ج ١ ص ١٧٦) .

ويقال: إن الجنّتين اللتين ذكرهما الله تعالى فى كتابه كانتا لأخوين من أهل بيت الملك أقطعهما الملك ذلك الموضع . وقد تقدّم ذكر خبرهما عند ذكرنا لبحيرة تِنِّيس[1]، وهو فى الباب السادس من القسم الرابع من الفن الأوّل فى ذكر البحار والجزائر وهو فى السفر الأوّل من كتابنا هذا .

قال : وفى زمان فليمون بُنيت دمياط على آسم غلام له كانت أمّه ساحرة لفليمون . قال: وملك فليمون تسعين سنة، وعمل لنفسه ناووسا فى الجبل الشرقىّ، وحوّل إليه من الأموال والجواهر وسائر الذخائر شيئا كثيرا، وجعل من داخله تماثيل تدور بلوالب فى أيديها سيوف فمن دخلها قطّعته بسيوفها . وجعل عن يمينه ويساره أسدَين من نحاس مذهب بلوالب أيضا فمن دنا منهما حطّماه، وزبر على الناووس: هـذا قبر فليمون بن أتريب بن قبطيم بن مصريم ، عمّر عمرا، وبقى دهرا ، وأتاه الموت فما آستطاع له دفعا ، فمن وصل إليه فلا يسلبه ما عليه، وليأخذ مما بين يديه .

وصار المُلْك بعده إلى آبنه قرسون بن فليمون، وجلس على سرير الملك ، ودخل إليه عظماء أهل البلد والخاص والعام فهنئوه بالملك، فتقدّم فى أمر الهيا كل والكهنة وطلب الحكمة ، وكان حَدَثا جميلا فعشقته إحدى نساء أبيه، وكانت تتولى طيبة[2] وتزعم أن أباه أمرها بذلك ، ثم بعثت إلى ساحرة من أعلم السحرة بمنف[3]

(١) راجع (ج ١ ص ٢٥٢ من هذه الطبعة) .

(٢) طيبة : هى ثيبة عاصمة الصعيد فى أيام الفراعنة وذات المائة باب، وفى بعض مكانها الآن مدينة الاقصر أو قصور أبى الحجاج (راجع قاموس الجغرافية القديمة للرحوم أحمد زكى باشا) .

(٣) منف : هو الاسم العربى لعاصمة مصر فى أيام الفراعنة ، وتسمى عند اليونان منفيس ، وعند قدماء المصريين مانوفرى ، وفى بعض محلها الآن قرية ميت رهينة بالجيزة . (راجع قاموس الجغرافية القديمة) .

١٣٤/١٢ فسألتها أن تسحره لها وبذلت لها على ذلك أموالا ، وإذا الساحرة قد عشقته أشدّ من عشقها ، فسحت بآمرأة أبيه وعرّفته ما بذلت لها على ذلك ، فأبعدها عن مجلسه ومنعها من الدخول إليه .

وبلغ ملكا من ملوك حِمْير أن مُلْك مصر صار إلى غلام حَدَث غِرّ فطمع فيه

٥ وسار إليه فى جموع عظيمة ، فخرج قرسون نحوه فآلتقوا بأيلة[1] وآقتتلوا قتالا شديدا حتى تفانَى الفريقان ، فأتت تلك الساحرة إلى الملك فقالت : ماتجعل لى إن أعنتك على عدوّك حتى تفضّ جموعه وتظفر به ؟ قال حُكْمك ، فأخذت عليه بذلك العهود والمواثيق ، وأصبحوا للحرب فدخّنت الساحرة بدخن عجيبة وأظهرت تخاييل هائلة ، فهرب الحميرىّ فى نَفَر يسير من ثقاته ، وقتل بقية أصحابه ، وحاز جميع ما كان فى خزائنهم ، وعاد

١٠ الملك إلى منف بالظفر والغنيمة ، فأتته الساحرة فسألته الوفاء بالشرط فقال : احتكمى ما أحببتِ ، فهذه الأموال والخزائن بين يديك ؛ فقالت : ما أريد غير الملك ؛ فقال : ويحك ! إنك لست من أهل بيت الملك ، وقد علمت ما فى هذا على الملك ؛ فقالت : قد كان الملوك قبلك يغصبون نساء الناس ويلدن منهم ولا يسألون عن ولاداتهم ، وأنا آبنة فلان رئيس الكهنة ، ويوشك أن يحتاج

١٥ الملك إلىّ بعد هذا . ولم تزل به حتى انصرف قلبه اليها ، فتزوّجها وأحبّها وحظيت عنده . فضاقت الأرض بآمرأة أبيه فأخذت فى أعمال الحيلة عليها ؛ فدسّت جارية لها عاقلة لطيفة على ساقى الملك الذى يتولّى شرابه ، فاختلطت بجواريه حتى

---

(١) أيلة : فرضه على خليج العقبة ، سميت باسم أيلة بن مدين بن إبراهيم عليه السلام ، كانت مدينة شهيرة فى الأزمان الخالية ، وفيها قلعة شيدها أحمد بن طولون صاحب مصر ، وفى جنوبها على ساحل بلاد

٢٠ العرب كانت مدينة أز يونجابر القديمة . وخليج أيلة ، أو العقبة ، يعرف فى كتب اليونان باسم : « إلانيتيك » . (راجع معجم الخريطة التاريخية الإسلامية للرحوم أمين واصف بك) .

تمكّنت من إناء كان فيه شرابٌ للملك فألقت فيه سمّا وعادت فى الوقت إلى مولاتها وأخبرتها ، فدخلت إلى الملك فسجدت له وقالت : قد كنتُ للملك ناصحة ، وعليه مشفقة ، فأقصانى وآختصّ هذه الساحرة الفاجرة ، وقد سمّت شرابه فى إناء من صفته كذا وكذا ، فليسقها الملك منه ليعلم صدقى ؛ فدعا الملك بالإناء فوجده على ما ذكرت ، فأحضر الساحرة وأمرها بشرب قدح منه فشربته ولم تعلم ما فيه فسقط لحمها عن عظمها ، فأمر بدفنها فى ناووس وزبر عليه آسمها وما همّت به وما صار أمرها إليه ، وعاد إلى آمرأة أبيه وتزوّج بها وحسنت حالها عنده .

قال : وفى أيامه عُمل المنار على بحر القُلزُم (١) وجُعلت على رأسه مرآة من أخلاط تجتذب المراكب على شاطىء البحر ، فلا يمكنها أن تبرح أو تعشّر ، فإذا عُشّرت سترت المرآة فتجوز المراكب .

قال : وأقام قرسون ملكا مائتين وستين سنة ؛ وقد كان عمل لنفسه ناووسا خلف الجبل الأسود الشرقىّ ، وجعل فى وسطه قبة فيها آثنى عشر بيتا ، فى كل بيت أعجوبة لا تشبه الأخرى ، وزبر عليها آسمه ومدّة ملكه . قال : وملك بعده ثلاثة أو أربعة . فهؤلاء الذين سمّاهم من أولاد أتريب ممن ملك منهم . والله أعلم . (٢)

(١) هو الآن البحر الأحمر .

(٢) هنا ينتهى السفر الثانى عشر من هذا الكتاب من تجزئة الأصل من النسختين المأخوذتين بالتصوير الشمسى المحفوظتين بدار الكتب المصرية تحت رقمى ٥٤٧ ، ٥٥١ معارف عامة . وصورة ماجاء فى آخر هذا السفر من النسخة الأولى : « كمل الجزء الثانى عشر من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى فى أواسط شهر ربيع الأوّل من شهور سنة سبع وستين وتسعمائة على يد كاتبه أفقر الخلق الى رحمة الحق نور الدين بن شرف الدين العاملىّ بلدا الشافعىّ مذهبا غفر الله له ولوالديه ولمن يقرأ له الفاتحة ويهديها للنبىّ ثم له آمين » .

وصورة ماورد فى النسخة الثانية : « كمل الجزء الثانى عشر من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب على يد مؤلفه فقير رحمة ربه أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدايم البكرى التيمى القرشى المعروف بالنويرى عفا الله عنهم .

يتلوه إن شاء الله تعالى فى أوّل الجزء الثالث عشر منه ذكر أخبار صا بن قبطيم بن مصريم بن بيصر ابن حام بن نوح عليه السلام .

والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا وحسبنا الله ونعم الوكيل » .

١٠/١٣

ذكر أخبار صا بن قبطيم بن مصريم بن بيصر بن حام ابن نوح عليه السلام [(١)]

قال: ولمّا قسم قبطيم الأرض بين بنيه الأربعة كما تقدّم وانتقل كل واحد منهم إلى حيّزه، خرج صَا بأهله وولده وحشمه إلى حيّزه، وهو بلد البحيرة وما يليها إلى برقة، ونزل مدينة صَا، وذلك قبل أن تُبنَى الإسكندرية. وكان صا أصغر ولد أبيه وأحبّهم إليه، فلمّا ملك حيّزه أمر بالنظر فى العمارة، و بنى المدائن والبلدان والهيا كل، وعمل فى إظهار العجائب كما صنع إخوته، وطلب الزيادة فى ذلك. وكان مرهون [(٢)] الهندى [(٣)] صاحب بنائه [(٤)]، فبنى له من حدّ صا إلى حدّ لوبية ومراقية على عبر البحر أعلاما، وجعل على رءوس تلك الأعلام مرايا من أخلاط شتّى: فكان منها ما يمنع من دوابّ البحر وأذاهم، ومنها ما إذا قصدهم عدوّ من الجزائر الداخلة وأصابها الشمس ألقت شعاعها على مراكبهم فأحرقتها، ومنها ما يُرى المدائن التى تجاورهم من عدوة البحر وما يعمله أهلها، ومنها ما ينظر منها إلى إقليم مصر فيعلم ما يخصب وما يجدب منه فى كل سـنة. وجعل فيها حمامات تُوقد من نفسها ومستشرفات. وكان كل يوم فى موضع منها بمن يخصّه من حشمه وخدمه، وجعل حولها بساتين وسرّح فيها الطيور المغرّدة والوحش المستوحش والمستأنس والأنهار المطردة والرياض المونقة،

(١) أوّل الجزء الثالث عشر من تجزئة الأصل. وكتب المرحوم أحمد زكى باشا فى أوّل هـذا الجزء من نسخة ب ما نصـه: « يظهر لى أن هذا الجزء كتب فى أيام المؤلف، وفى آخره عبارة هذا نصها: "بلغ مؤلفـه مقابلته بأصله والحمـد لله" وهى بخط المؤلف كما يظهر من مضاهاتها بالأجزاء الأخرى المكتوبة بخطه ».

(٢) كذا فى المقريزى (ج ١ ص ١٨٢ طبع بلاق) ونسخة (ب). وفى نسخة (أ): «مرهوب».

(٣) كذا فى الأصل والمقريزى. وفى تعليقات المقريزى (ج ٣ ص ٢١٨ طبعة فييت): «المهندس».

(٤) فى المقريزى طبعة فييت: « صاحب بابه ».

وجعل شرف القصر من حجارة ملوّنة تلمع إذا أصابتها الشمس فتنشر شعاعها على ما حولها ؛ ولم يدع شيئا من آلة النعمة والرفاهية إلا استعمله . فكانت العمارة ممتدّة إلى برقة فى رمال من رشيد إلى الإسكندرية إلى برقة . وكان الرجل يسافر فى أرض مصر لا يحتاج إلى زاد لكثرة الفواكه والخيرات ، ولا يسير إلا فى ظلال تستره من الشمس . وعمل فى تلك الصحارى قصورا وغرس فيها غروسا ، وساق إليها من النيل أنهارا . وكان يسلك من الجانب الغربىّ إلى حدّ الغرب فى عمارة متصلة .

قال : فلما آنقرض أولئك القوم بقيت آثارهم فى تلك الصحارى وخربت تلك المنازل وباد أهلها . قال : ولا يزال مَن دخل تلك الصحارى يَحكى ما رأى فيها من الآثار والعجائب .

قال : ومن ملوكهم مرقونس ، وكان [فاضلا](1) حكيما ، محبّا للنجوم والحكمة ، فعُمل فى أيامه درهم إذا آبتاع به صاحبه شيئا اشترط أن يزن له ما يبتاعه منه بوزن الدرهم ولا يطلب عليه زيادة ، فيغترّ البائع بذلك و يقبل الشرط ، فإذا تمّ ذلك بينهما وقع فى وزن الدرهم أرطال كثيرة تساوى عشرة أضعافه ، و إن أحبّ أن يُدخل فى وزنه أضعاف تلك الأرطال دخل . قال : وقد وُجد هذا الدرهم فى كنوزهم فى أيام بنى أميّة ، فكان الناس يتعجّبون منه . وقد كانوا وجدوا درهما آخر قيل إنه عُمل فى وقته أيضا يكون فى ميزان الرجل ، فإذا أراد أن يبتاع حاجة أخذ الدرهم من ميزانه وقلبه(2) وقال : اذكر العهد ، ومضى فآبتاع به ما أراد ، فإذا أخذ السِّلْعة ومضى إلى بيته

(١) التكملة من المقريزى (ج ١ ص ١٣٩ طبع بلاق) .

(٢) فى المقريزى (ج ١ ص ٣٤) « وقبلة » .

وجد الدرهم قد سبقه إلى منزله ، ووجد البائع حيث وضعه ورقة آس أو قرطاس أو مثل ذلك بدور[١] الدرهم .

وقيل : إن فى وقته عُملت الآنيـة الزجاج التى تُوزَن ، فإذا مُلئت [ثم][٢] وُزنت لم تزد على وزنها الأول شيئا ، وهى تحمل من الماء بوزنها . وعُمل أيضا فى وقته الآنيـة التى إذا جُعل الماء فيها صار خمرا فى لونه ورائحته وسكره . قال : وقد وُجد من هـذه الآنية بإطفيح[٣] فى إمارة هارون بن خُمَارويه بن أحمد ابن طولون شربة جِزْع[٤] بعُروة زرقاء ببياض . وكان الذى وجدها أبو الحسن [الصائغ][٥] الخراسانىّ هو ونفرٌ معه ، فجلسوا ليأكلوا على عَبْر النيل وشربوا الماء بها فوجدوه خمرا فسكروا منه ورقصوا ، فوقعت الشربة فأنكسرت على عدّة قطع ، فاغتمّ الرجل وجاء بها إلى هارون مكسورةً ، فأسف عليها وقال : لو كانت صحيحة لأشتريتها ببعض مُلْكى .

وفى أيامه عُملت الصورة الحنتمية من الضفادع والخنافس والذباب والعقارب وسائر الحشرات[٦] ، فكانت إذا جُعلت فى موضع من المواضع آجتمع إليها ذلك الجنس بعينه ولا يقـدر أن يفارقها حتى يُقتَل . وعمل فى صحـراء الغرب ملعبا من زجاج ملوّن ، وجعل فى وسطه قبّـة من الزجاج خضراء صافية اللون ؛ وكانت إذا طلعت عليها الشمس ألقت شعاعها على المواضع البعيدة . وعمل من أربع جهاته أربعة مواضع عالية من الزجاج ، كلّ مجلس منها بلون ، ونقش كلّ مجلس منها بما

---

(١) كذا فى الأصل والمقريزى . وفى تعليقات المقريزى (ج ١ ص ١٥٠ طبعة فييت) : «بدون» .
(٢) التكملة من المقريزى .   (٣) إطفيح : هى الآن إحدى بلاد مركز الصف بمديرية الجيزة . وهارون بن خمارويه ولى مصر فى اليوم العاشر من جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين ومائتين .
(٤) سمى جزعا لأنه مقطع بألوان مختلفة ، أى قطع سواده بياضه وصفرته .   (٥) التكملة من المقريزى (ج ١ ص ٣٤ طبع بلاق) .   (٦) كذا فى المقريزى . وفى الأصل : «الدبابات» .

يخالف لونه من الطلّسمات العجيبة والنقوش الغريبة والصور البديعة ؛ كل ذلك من زجاج مطابَق يَشِفّ . وكان يقصد هذا الملعب ويُقيم فيه الأيام الكثيرة . وعمل له ثلاثة أعياد فى كل سنة ، فكانوا يحجّون إليه ويذبحون له ويقيمون فيه سبعة أيام؛ فلم يزل ذلك الملعب بحاله تقصده الأمم لتنظر إليه لأنه لم يكن له نظير ولا شكل ، ولا عُمل [فى العالم][1] مثلُه إلى أن هدمه بعض الملوك لأنه تعاطى مثله فلم يقدر على ذلك .

وكانت أمّ مرقونس آبنة ملك النوبة، وكان أبوها يعبد نجما يقال له السُّها، ويسمّيه إلٰها، فسألت آبنها أن يعمل لها هيكلا ويفردها[2] به ، فعمله لها وصفّحه بالذهب والفضّة [وأقام فيه صنما][1] وأرخت عليه ستور الحرير، فكانت تدخل إليه مع جواريها وحشمها وتسجُد له كل يوم ثلاث مرّات . وعَملت فى كل شهر عيدا تقرّب له فيه القرابين وتبخّره ليله ونهاره ، ونصبَت له كاهنا من النوبة فكان يقوم به ويبخّر[ه][1] ويقرّب [له][1]، ولم تزل بآبنها حتى سجد له ودعا الناس إلى عبادته .

قال : ولمّا رأى الكاهن أنّ الأمر قد أُحكم له من جهة الملك فى عبادة الكواكب،أحبّ أن يكون له مثالا فى الأرض على صورة شىء من الحيوان يتعبّد له ليكون حذاء عينيه ؛ فأقام يعمل الحيلة فى ذلك إلى أن آتفق بمصر كثرة العِقْبان حتى أضرّت بالناس، فأحضره الملك وسأله عن كثرتها فقال : إنّ إلٰهك أرسلها لتعمل له نظيرا يُسجَد له . فقال الملك : إن كان ذلك يرضيه فأفعله ، فعمل تمثال عُقاب طوله ذراعان فى عرض ذراع من ذهب مسبوك، وعمل عينيه من ياقوتتين،

---

(١) التكملة من المقريزى (ج ١ ص ٣٥ طبع بلاق) .

(٢) كذا فى المقريزى . وفى الأصل : « ويفرده » .

وعمل له وشاحين من لؤلؤ منظوم على أنابيب جوهر [أخضر][1]، وجعل فى منقاره كرة[2] معلّقة وسَرْوَله بادرك أحمر ، وأقامه على قاعدة [من][1] فضّة منقوشة ، وركّبها على قائمة زجاج أزرق، وجعله فى أزَج عن يمين الهيكل، وألقى عليه ستور الحرير ، وجعل [له]دُخْنة معمولة من جميع الأفاويه والصمغ، وقرّب له بعجل أسود و بكارة الفراريج و بواكير الفواكه والرياحين . فلما تمّت له سبعة أيام دعاهم إلى السجود له فأجابوه . ولم يزل [الكاهن][1] يُجهد نفسه فى عبادته، وعَمِل له عيدا دعاهم فيه إلى أن يبخّر له فى أنصاف الشهور بالمنَدَل وترشّ الهياكل بالخمر العتيقة [التى تؤخذ][1] من رءوس الجوابى[3]، ونطق لهم العُقاب وعرّفهم أنه أزال عنهم العِقبان وضررَها ، وكذلك يفعل فى غيرها ممّا يخافون ؛ فسُرّ الكاهن بذلك ووجّه إلى أمّ الملك فعرّفها ذلك فصارت الى الهيكل ، فلمّا سمعت كلام العقاب سرّها ذلك وأعظمته، و بلغ الملك خبره فركب إلى الهيكل حتى خاطبه وأمره ونهاه ، فسجد له وأقام له سَدَنة وأمر أن يزيّن بأصناف الزينــة ، وكان الملك يقوم بذلك الهيكل ويســجد لتلك الصورة ويسألها عمّا يريد[4] فتخبره .

وعمل من الكيمياء والذهب ما لم يعمله أحد من الملوك . فيقال : إنه دَفَن فى صحراء الغرب خمسمائة دَفِين . ويقال : إنه عمــل على باب صَــا عمودا وجعل عليــه صنما فى صورة آمرأة جالســة وفى يدها مرآة ينظر فيها العليل [أو ينظر له أحد فيها][1] فإن كان يموت رآه ميّتا، و إن كان يعيش رآه حيّا، والمسافر ، فإن كان مُقبلا بوجهه علموا أنه راجع ، و إن رآه مولّيا علموا أنه متماد ، و إن كان مريضا أو ميّتا رأوه كذلك . وعمل بالإسكندرية صــورة راهب جالس على قاعدة وعلى

(١) التكملة من المقريزى (ج١ص٣٥). (٢) فى المقريزى : «درّة» . (٣) كذا فى المقريزى . وفى الأصل : « الخوابى » . (٤) كذا فى المقريزى . وفى الأصل : « أحب » .

رأسه كالبرنس(١) وفى يده كالعكّاز إذا مرّ به رجل تاجر جعـل بين يديه شيئا من الذهب على قدر بضاعته، و إن حاذاه عن بُعْـد(٢) ولم يفعل ذلك لم يقدر على الجواز و يبيت قائمـا مكانه ، فكان يجتمع من ذلك مالٌ عظيم يفرّق فى الزمْنى والفقراء.

وعمل فى وقته كل أعجوبة طريفة، وأمر أن يُزبَر آسمه عليها وعلى كل علَم وكل طِلّسم وصنم . وعمل لنفسه ناووسا فى داخل أرض الغرب عند جبل يقال له سدام، وعمل تحته رحًى طوله مائة ذراع فى آرتفاع ثلاثين ذراعا فى عرض عشرين ذراعا، وصفّحه بالمرمر والزجاج الملوّن المسبوك وسقفه بالحجارة الصافية، وعمل فيما دار به مصاطب لطافا مبلّطة بالزجاج، وعمل على كل مصطبة فيها أعجوبة وتمثالا ممـا عُمل فى وقتـه ، وعمل فى وسط الأزَج دكّة من زجاج ملون ، على كل ركن من أركانها صورة تمنع من الدنو إليها ، و بين كل صورتين كالمنارة عليها حجـرٌ مضىء ، وجعل فى وسَط الدكّة حوضا من ذهب يكون جسده فيه بعد تضميده بالأدوية الممسكة، ونقل إليــه ذخائره من الجوهر والذهب وغير ذلك ، وأمر أن يُسَـدّ باب الأزَج بالصخور والرَّصاص وتُهال عليــه الرمال . وكان مُلْكه ثلاثا وسبعين سنة ، وعمره مائتين وأربعين سنة، وكان جميلا ذا وَفْرة حَسنة فنسَكت عامّة نسائه بعده ولزِمن الهيكل .

وعهد بالملك إلى آبنــه أنساد بن مرقونس ؛ فملك بعد أبيه وهــو غلام آبن خمس وأربعين سنة ، وكان مُعجبا جبّارا طمّاح العين ، فنكح آمرأة من نساء أبيـه وآنكشف أمره معها ، وكان أكبر همّه اللهو واللعب ، فجمع كل مُلْهٍ كان فى مملكته وقصده كل مَن هذه سبيله ، وجعل تدبير المُلْك إلى وزير له يقـال له

---

(١) كذا فى المقريزى . وفى الأصل : « كالريش » .

(٢) فى المقريزى : « تجاوزه » .

مسرور ، ورفض العلوم والهيا كل والكهنة والنظرّ فى أمور الناس . وعمل قصورا من خشب عليها قباب من خشب منقوشة مموّهة وجعلها على أطواف فى النيل ، فكان يشرب عليها مع من يحبّه من نسائه وخدمه ومَن يُلهيه . وعمِل عَجَلا فى البرّ وحمل عليها الأروقة المذهبة وفرشها بفاخر الفرش ، فكان يتنزّه عليها ويجرّها البقر ويقيم فى نزهته شهورا لا يمرّ بموضع نزِه إلاّ أقام فيه أياما . وولّد من الشجر توليدا كثيرا . وآستنفد أكثر ما فى خزائن أبيه لجوائز المُلْهِين والنفقات فى غير وجه . فلمّا أسرف فى ذلك اجتمع الناس إلى وزيره فأنكروا عليه حاله وسألوه مسألته والمشورة عليه أن يقع عمّا هو عليه فضمن لهم ذلك ، وفاوضه فيه فلم ينته عنه ، وسلّط أصحابه على الناس فأساءوا إليهم وأضروا بهم . وخرج فى بعض الأيام إلى متنزّه كان له قد صفّح مجالسه بصفائح الذهب والفضة ، وغريب الزجاج الملوّن ، والجواهر المخروطة ، والصهاريج المرخّمة الملونة ، وأمال إليه المياه ، وغرس فيه الرياحين والثمار ، وفرش مجالسه بأصناف الفرش ، وكان إذا أحبّ أن يخلو بآمرأة من نسائه خلا بها هناك ؛ فإنه فى ذلك المكان ، وقد أقام به أياما ، إذ خرج غلام لبعض حُرَمه فأتى بعض التجّار فى حاجة أراد أخذها بغير ثمن ، فمنعه التجّار منها ، فوثب بهم فضربوه حتى أسالوا دمه وحُمل ، وآتصل الخبر بالوزير وصاحب الجيش فركبا إلى الموضع وأنكرا على الناس فأغلظوا لهما ، فآنصرفا وعرّفا الملك الخبر ، فأراهما أنه لم يحفل بذلك ، وأمر بالنداء فى الناس مَن تعرّض لكم من خدم الملك وأصحابه بأذى فآقتلوه ، فشكره الناس وحمدوا فعله على ذلك ، وتواصَوْا بالوثوب على أصحابه ، حتى إذا مضى لذلك أسبوع وجه الملك إلى الوزير وصاحب الجيش فعرّفهما أنه قد عزم على الركوب إلى صحراء الغرب يتصيّد هناك ، وامر أن يركب معه الجيش ويتزودوا لثلاثة أيام ففعلوا ، وخرج إلى البرّية فسار حتى إذا اختلط

الظلام رجع الجيش حتى وافى باب المدينة ، وأمر أصحابه أن يضعوا السيف في الناس فقتلوا خلقا كثيرا ، ثم أمر أن ينادى : هذا جزاء من أقدم على الملوك من رعاياهم وأصحاب مهنهم ، وأخرب الموضع الذى ضُرب فيه الغلام ، فاستغاث به الناس ، فتقدّم إلى وزيره أن يطرح نفسه بين يديه و يسأله فيهم ، ففعل وأمّنهم وقال : مَن عاد إلى مثل ما كان فقد حلّ لنا دمه ، فدعَوْا له وٱنصرفوا . ثم ٱحتجب عن الناس وٱستخفّ بالكهنة والهياكل فأبغضته العامّة والخاصّة و بغَوْا الغوائلَ فٱحتال عليه خاصّته بطبّاخه وساقيه فسمّاه وهو ٱبن مائة وعشرين سنة فمات .

وصار الملك من بعده إلى ٱبنه صا بن أنساد بن مرقونس ؛ قال : وأكثر القبط تزعُم أن صا بن مرقونس أخو أنساد . فملك وهنّأه الناس ، فوعدهم بالعدل فيهم ، والإحسان إليهم ، وحُسْن النظر لهم ، وسكن منف وحكم الأحياز كلها ، وعمِل بها عجائب وطِلّسمات ، وردّ الكهنة إلى مراتبهم ، ونفى المُلْهِين وأهل الشرّ ممن كان يصحب أخاه ، ونصب العُقاب الذى كان أبوه عمله ، وشرف هيكله ودعا إليه . وعمل فى منف مرآة كان يرى منها ما يُخصِب من بلده وما يُجدِب . و بنى بداخل الواحات مدينة غرس حولها نخلا كثيرا . ونصب قُرْب البحر أعلاما كثيرة . وعمل خلف المقطّم صنما يقال له صنم الحِيلة ، فكان كل من تعذّر عليه أمرٌ يأتيه فيبخّره فيتيسّر عليه ذلك الأمر (١) . وجعل على أطراف مصر أصحابَ أخبار يرفعون إليه ما يجرى فى حدودهم . وعمِل على غربى النيل منائر يُوقَد عليها إذا قصدهم قاصد أو نابهم أمرٌ . و يقال : إنه بنى أكثر منف وكل بنيان عظيم بالإسكندرية .

قال : وكان لمّا ملك البلد بأسره جمع الحكماء إليه ونظر فى النجوم — وكان بها حاذقا — فرأى أن بلده لا بدّ أن تغرق بالطوفان من نيلها ، ورأى أنها تخرب على

(١) وورد فى المقريزى (ج ١ ص ١٥٥ طبعة فييت) بعد هذا ما نصه : «وجعل بحافة البحر الملح منارا يعلم منه أمر البحر وما يحدث فيه من أقصى ما يصل اليه البصر على مسيرة أيام وهو أول من اتخذها» .

يد رجل [يأتى][1] من ناحيـة الشأم ، بجمـع كل فاعل بمصر وبنى فى الواح الأقصى مدينة جعل طول حصنها فى الآرتفاع خمسين ذراعا وأودعها جميع الحِكَم والأمـوال .

وبنى المدينة[2] التى وقع عليها موسى بن نُصَير فى زمن بنى أميّة، وكان قـد أخذ على الواح الأقصى ، وكان عنده علم منها، وأقام سبعة أيام يسير فى رمال وصحارِى سَمتَ الغرب والجنوب إلى أن ظهرت له مدينة عليها حصنٌ وأبواب حديد، فأصعد إليها الرجال ليقفوا على ما فيها لمّـا لم يمكنه فتح أبوابها، ولغلبة الرمال على ما حولها؛ فكانوا إذا علَوا الحصن وأشرفوا عليها وثبوا إليها؛ وعَرْض حصنها عشرون ذراعا؛ فلمّا أعياه أمرها تركها ومضى،فهلك فى تلك الطريق جماعة من أصحابه . فلم يُسمَع بأحد بعد موسى بن نُصَير ولا قبله وقع عليها .

قال : وفى تلك الصحارى أكثر متنزّهاتهم ومدائنهم العجيبة؛ إلا أنّ الرمال غلبت عليها. ولم يبق بمصر ملك إلا وقد عمل للرمال دفعا ثم تفسد طِلّسماتهم على تقادُم الأيام.

(١) التكملة من المقريزى (ج ٣ ص ٤٨ طبعة ڤييت) .

(٢) هذه المدينة تسمى «مدينة النحاس» ويقال لها «مدينة الصفر» وتقع فى بعض مفاوز الأندلس . قال ياقوت فى معجمه : « ولها قصة بعيدة من الصحة لمفارقتها العادة وأنا برىء من عهدتها ، إنما أكتب ما وجدته فى الكتب المشهورة التى دوّنها العقـلاء ومع ذلك فهى مدينـة مشهورة الذكر فلذلك ذكرتها » ثم ذكر عن ابن الفقيـه أن ذا القرنين بناها وأودعها كنوزه وعلومه وطلسم بابها فلا يقف عليـه أحد ، وبنى داخلها بحجر البهتة وهو مغناطيس النـاس ، وذلك أن الإنسان اذا نظر اليها لم يتمـالك أن يضحك ويلق نفسه عليها فلا يزايلها أبدا حتى يموت . ولمـا بلغ عبد الملك بن مروان خبرها وخبر ما فيها من الكنوز والعلوم وأن الى جانبها بحيرة بها كنوز عظيمة كتب الى موسى بن نصير عامله على المغرب يأمره بالمسير اليها والحرص على دخولها وأن يعرفه ما فيهـا ، ودفع الكتاب الى طالب بن مدرك فحمله وسار حتى انتهى الى موسى بن نصير وكان بالقيروان ، فلمـا أوصله اليه تجهز وسار فى ألف فارس نحوها فلمـا رجع كتب الى عبدالملك بن مروان... وساق الكتاب الذى وصف فيه رحلته الى هذه المدينة وما صادفه فيها (راجع معجم البلدان فى كلامه على مدينة النحاس) .

وقال : وحكى قوم من الثُّنّاء[١] فى ضياع الغرب: أنّ عاملا من عمّالهم عَنُفَ بهم فهربوا ودخلوا فى صحـراء الغرب وحملوا معهم زادا إلى أن يصلح أمرهم ويرجعوا إلى بلادهم ، وكانوا على يوم وبعض آخر قد لَجِجوا[٢] فى سفح الجبل ، فوجدوا عَيْرا أهليّا قد خرج من بعض شِـعابه ، فتبعه نفر منهم ، فأخرجهم إلى مساكن وأشجار ونخل ومياه تَطَّرِدُ[٣] وقوم يسكنون هناك ويزرعون، فخاطبوهم وعجبوا منهم وسألوهم عن حالهم فعرّفوهم أنهم منـذ كانوا يسكنون تلك الناحيـة ويتناسلون ويزرعون ولا يطالبهم أحدٌ بخراج ولا يُؤذيهم، وأنهم لم يدخلوا إلى ضياع الغرب قطّ ، وقالوا لهم آنتقلوا إلينا ؛ فخرج القوم بعد أن صلحت أمورهم وآجتمعوا على الرجوع إلى ذلك الموضع والسكنَى فيـه بأهليهم ومواشيهم ، فخرجوا يطلبون الطريق مدّة فما عرفوا الطريق ولا تأتّى لهم الوصول إليه بعد ذلك فأسِفوا على مافاتهم منه .

وحُكى أيضا عن آخرين ضلّوا الطريق فى الغرب ، فوقفوا على مدينة عامرة ، كثيرة الناس والمواشى والنخيل والشجرَ، فأضافوهم وأكلوا عندهم وشربوا، وباتوا فى طاحونة يعمل فيها الخبز[٤]، فسكروا من الشراب وناموا، فلم ينتبهوا إلّا عند طلوع الشمس ، فوجدوا أنفسهم فى مدينـة كبيرة خراب ليس فيها أحدٌ، فآرتاعوا لذلك وخرجوا على وجوههم كالهاربين، وساروا يومهم على غير سَمْت حتى قرب المساء، فظهرت لهم مدينـة أخرى عظيمة أكبر من الأولى وأعمر ، وأكثر أهلا ودوابّ ومواشِىَ وشجرا ونخـلا ، فأنِسُوا بهم وأخبروهم بخبر المدينة ، فجعلوا يعجبون منهم ويضحكون ؛ وإذا لبعض أهل المدينة وليمةٌ فآنطلقوا بهم معهم ، فأكلوا وشربوا

(١) الثناء : المقيمون ؛ يقال : ثنـأ بالبلد يثنو ثنوا أقام به وقطنه . ويقال : هو من ثناء تلك الكورة، أى أصله منها . (٢) لجج بالمكان : لزمه . (٣) تطرد : تجرى .

(٤) كذا فى نسخة ب وفى نسخة أ : « الخمر » .

وغنّوهم بأصناف الملاهى ، وسألوهم عن حالهم فحدّثوهم أنهم ضلّوا عن الطريق فى هذه الصحَارِى، فقالوا لهم: الطريق بين أيديكم واضح مستقيم لا يمكن أن تغلطوا فيـه ، فإن أحببتم المسير وجّهنـا معكم مَن يُوقفكم على سَنَن الطـريق الكبير الذى يوصلكم إلى منازلكم، وإن أحببتم أن تقيموا عندنا رفدنا كم وكنتم إخواننا وأحبابنا.
٥ قالوا : فسُررنا بذلك من قولهم ، وأجمع بعضنا على المُقام معهم ، وأجمع من كان له منا أهلٌ وولدٌ على أن يسير إلى منزله ويحملَ أهله وولده ويعودَ إليهم. قال: وبتنا عندهم فى خير مَبيت، فرِحين بمـا ساق الله إلينا . فلمّا كان من الغد انتبهنا فوجدنا أنفسنا فى مدينة عظيمة ليس فيها أحدٌ من الناس وقد تشعّب بعض حصنها، إلاّ أن حولها نخلا قد تساقط ثمـره وتكدّس حَوله ، فلحِقنا من الخوف لذلك والآرتياع
١٠ ماآستوحشنا له، وخرجنا على وجوهنا هاربين مفكّرين فيما عاينّاه من أهلها، وإنّا لنجدُ روائح الشراب منّا ومعانى الخُمار ظاهرة ، فلم نزل نسير يومنا أجمع وليس بنا جوع ولا عطشٌ، حتى إذا كان المساء رأينا راعيا يرعَى غنما فسألناه عن العمارة وعن الطريق فدلّنا على الطريق وقال : إنّ العمارة حذاؤكم ؛ وإذا بنِقار(١) من ماء المطر فشربنا منه وبتنا عليها، ثم أصبحنا فإذا نحن فى خلاف موضعنا الذى كنّا فيه، وإذا آثار العمارة
١٥ والناس فما سرنا إلّا بعض يوم حتى دخلنا مدينة الأشمونين بالصعيد ، فكنّا نحدّث الناس ولا يقبلون منّا .

قال : وهذه مدائن القوم القديمة قد غلب عليها الجانّ، ومنها ما قد سترته عن العيون فلا ينظر إليها أحد .

قال : وذكر بعض القبط أن رجلا من بنى الكهنة الذين قتلهم أنساد سار إلى
٢٠ ملك الإفرَنْجة فذكر له كنوز مصر وعجائبها وخيرها، وضمِن له أن يوصّله إلى مُلْكها

(١) النقار : جمع نقرة (بالضم)، وهى الوهدة المستديرة فى الأرض .

وأموالها، ويدفع عنه أذى طِلَّسماتها حتى يبلُغ جميع ما يريده ويعرّفه مواضع الكنوز.
فلمّا ٱتصل بصَا الملك أنّ صاحب الإفْرَنْجة يتجهّز إليه، عمد إلى جبل بين البحر
المالح وشرقى النيل فأصعد إليه أكثر كنوزه وما فى خزائنه، و بنى عليها قِبابا وصفّحها
بالرَّصاص، وأمر ففتحوا جوانب الجبل إلى منتهى خمسين ذراعا، وجعلوا فى ٱنتهاء
المنحوت منه شبه الطرر البارزة خارجة من النحت بقدر مائة ذراع وهو بين جبال ٥
وعرة، فحصّن أمواله هناك. وتجهّز إليه صاحب الإفْرَنْجَة فى ألف مركب، فكان ٦/١٣
لا يمرّ بشىء من أعلام مصر ومناراتها وأصنامها إلّا هدمه وكسره بمعونة الكاهن له.
حتى أتى الإسكندرية الأولى فعاث فيها وهدم كثيرا من معالمها إلى أن دخل النيل من
ناحية رشيد وصعد إلى منف فحاربه أهل النواحى، وجعل ينهَب ما مرّ به و يقتُل
مَن قَدر عليه إلى أن طلب المدائن الداخلة ليأخذ كنوزها فوجدها ممتنعة بالطلّسمات ١٠
الشداد والمياه العميقة والخنادق الشدّاخات، فأقام عليها أياما كثيرة يعالج أن يصل
إليها، فلمّا لم يُمكنه ذلك قتل الكاهنَ، وهلك جماعةٌ من أصحابه، وٱجتمع أهل
النواحى على مراكبه وأصحابه فقتلوا منهم خلقا وأحرقوا بعض المراكب. ولما تيقّن
أهل مصر تلفَ الكاهن الذى كان معه أرسلوا إليه سحرهم وتهاويلَهم، وأتت مع ذلك
رياح غرقت كثيرا من مراكبه، وكان جلّ مرامه أن ينجو بنفسه فما عاد إلى ١٥
الإفرنجة إلا وَقيذا[1] بجراحات أصابته، ورجع النـاس إلى منازلهم وقُراهم، ورجع
صا إلى منف فأقام بها وترك ما كنزه على حاله.

قال: ولم يزل بعد ذلك يغزو بلاد الروم وأهل الجزائر ويخربها فهابته الملوك،
وتتبّع الكهنة فقتل منهم خلقا، وأقام سبعا وستين سنة، وكانت سنه مائة وسبعين
سنة وهلك، فدُفن بمنف فى ناووس عمله وسَط المدينة من تحت الأرض، وجعل ٢٠

(١) الوقيذ: الشديد المرض المشرف.

المدخل إليــه من خارج المدينــة من الجهة الغربية ، وحمل إليــه أموالا عظيمة وجواهر كثيرة، وتمـاثيلَ وطلّسمات وغيرَ ذلك كما فعل أجداده. وكان فيه أربعةُ آلاف تمثال ذهب على صُوَر شتّى برّية وبحرية ، وتمثال عُقاب من جوهر أخضر جُعل عند رأسه ، وتمثال تنّين من ذهب مشبّك عند رجليه وزبر عليه آسمه وسيرته ٥ وغلبته للملوك .

وعهد إلى آبنــه تدارُس بن صــا ، فملك الأحياز كلها بعد أبيه وصفا له مُلْك مصر . وكان محنّكا مجرّبا ذا أيدٍ وقوّة ومعرفة بالأمور ؛ فأظهر العــدل ، وأقام الهيا كل وأهّلَها قياما حسنا . وبنى غربى منف بيتا عظـيما للزُّهَرة وزبر جميــع الأخبار — وكان صنم الزهرة من لازَوَرْد مذهّب متوّجا بذهب — ١٠ وسوّره بسوارين من الزَّبَرْجَد الأخضر ؛ وكان فى صورة آمرأة لهـا ضفيرتان من ذهب أسود مدبّر، وفى رجليها خلخالان من حجر أحمر شفاف ونعلان من ذهب ، وفى يدها قضيبُ مَرجان وهى تشير بسبّابتها كالمسلّمة على مَن فى الهيكل ، وجعل حذاءها من الجانب الآخر تمثـال بقرة ذات قرنين وضَرعين من نحاس أحمــر مموّه بذهب موشّحة بحجر اللازورد ، ووجه البقرة محاذِيا(١) لوجه الزهرة ، وجعل بينهما ١٥ مطهرة من أخــلاط للأجساد على عمــود رُخام مجزّع فيهـا ماء مدبّر يُستشفَى به من كل داء ، وفرش الهيكل بحشيشــة الزهرة يبدلونها فى كل ســبعة أيام ، وجعل فيه كراسىّ للكهنة مصفّحة بذهب وفضّة، وقرب له ألف رأس من الضأن والمعز والوحش والطير، وكان يحضر يوم الزهرة ويطوف به . وكانت فُرُش الهيكل وستوره عن يمين تمثال الزهرة ويساره . وكان فى قبّته صورة رجل راكب على فرس ٢٠ له جناحان وله حربة فى سنانها رأس إنسان معلق، وبقى هذا إلى زمان بُخْتَ نصر

(١) فى المقريزى (ج ١ ص ١٥٦ طبعة فييت) «تجاه وجه» .

وهو الذى هدمه. ويقال: إن تدارُس الملك هذا هو الذى حفر خليج سخا، وآرتفع مال البلد فى أيامه مائة ألف ألف [دينار](١) وخمسين ألف [ألف](١) دينار . وقصده بعض عمالقـة الشأم فخرج إليه وآستباحه ودخل إلى فلسطين فقتل منها خلقا كثيرا وسبى بعض حكامها وأسكنهم مصر وهابته الملوك .

٥

قال : وعلى رأس ثلاثين سـنة من مُلْكه طمع السودان من الزّنج والنُّوبة فى أرضه فعاثوا وأفسدوا، فأمر بجمع الجيوش وأعدّ المراكب ووجّه قائدا من قواده يقال له : بلوطس فى ثلثمائة ألف، وقائدا آخر فى مثلها، ووجّه فى البحر(٢) ثلثمائة سفينة فى كل سفينة كاهنٌ يعمـل أعجوبة من العجائب [ثم خرج فى جيوش كثيرة، فلقى جموع السودان](٣) وكانوا فى زُهاء ألف ألف فهزموهم، وقتلوا أكثرهم أبرح قتل ، وأسر منهم خلقا كثيرا ، وتبعهم حتى وصل إلى أرض الفيلة من بلاد الزّنج(٤) فأخذ منهـا عدّة من النمـور والوحش وذللها وساقها معـه إلى مصر . وعمل على حدود بلده منارات وزبر عليهـا مسيرَه وظفرَه والوقتَ الذى سار فيه . ولمّـا وصل إلى مصر آعتلّ ورأى رؤيا تدلّ على موته ، فعمل لنفسه ناووسا ونقـل إليه شيئا كثيرا من أصنام الكواكب والذهب والجوهر والصنعة والتماثيل وهلك ؛ فحُمل إليه وزُبر عليه آسمه وتاريخُ الوقت الذى هلك فيه ، وجُعل عليه طِلَّسما تمنع منه .

٧/١٣ ١٠ ١٥

وعهد إلى آبنـه ماليق بن تدارس ، فملك بعد أبيه . وكان غلاما كريمـا حسنَ الوجه ، مجـرّبا ، مخالفا لأبيه وأهل بلده فى عبادة الكواكب والبقر .

(١) التكملة من المقريزى (ج ١ ص ٢٨٨ طبعة فييت) .
(٢) فى المقريزى : « فى النيل » .
(٣) التكملة من المقريزى . وفى الأصل : « وتوجه هو » .
(٤) بلاد الزنج هى الآن بلاد الصومال والحبشة و بلاد زنجبار (راجع معجم الخريطة التاريخية) .

٢٠

ويقال : إنه كان موحّدا على دين أجداده قبطيم ومصريم ، وكانت القبط تذمّه لذلك . وكان سبب إيمانه فيما حُكى أنه رأى فى منامه أن رجلين لهما أجنحة أتياه فآختطفاه وحملاه إلى الفلك ، فأوقفاه بين يدى شيخ أسود أبيض الرأس واللحية ، فقال : هل عرفتنى ؟ فدخلته فزعة الحداثة ، وكانت سنه نيّفا وثلاثين سنة ، فقال له : ما أعرفك ! فقال : أنا قرويس ، يعنى زُحَل ، فقال : قد عرفتك ، أنت إلٰهى ، فقال : إنك وإن كنتَ تدعونى إلٰها فإنى مربوب مثلك ، وإلٰهى الذى خلق السموات والأرضَ وخلقنى وخلقك ، فقال : وأين هو ؟ فقال : هو فى العلو لا تراه العيون ، ولا تلحقه الأوهام ، وهو الذى جعلنا سببا لتدبير العالَم الأسفل . قال له ماليق الملك : فكيف أعمل ؟ قال : تُضمِر فى نفسك ربوبيّته علينا ، وتُخلِص فى وحدانيّته وتعرف بأزليّته . ثم إنه أمر الرجلين فأنزلاه ؛ فآنتبه وهو مذعور ، فدعا رأس الكهنة فقصّ عليه رؤياه فقال : قد نهاك عن عبادة الأوثان فإنها لا تضُرّ ولا تنفع ، فقال له : مَن أعبد ؟ قال : الله الذى خلق السمواتِ والكواكب التى فيها والأرض ومَن عليها . فكان الملك يحضر الهيكل فإذا سجد انحرف عن الصنم وأضمر السجود لخالق السمواتِ والأرض دون غيره ، ثم أخذ فى الغزو والغيبة عن أهل مصر وجال فى البلدان .

قال : وقال بعض أهل مصر : إنّ الله تعالى أيّده بملك من الملائكة يعضّده ويرشده ، وربما أتاه فى نومه ، فأمره أن يأمر الناس باتخاذ كل فارهٍ من الخيل ، واتخاذ السلاح وما يصلُح للأسفار ، وإعداد الزاد ، وآتخذ فى بحر الغرب مائتى سفينة ، وخرج فى جيش عظيم فى البرّ والبحر ، فلقيه جموع البربر فى جموع لا تُحصَى فهزمهم وآستأصل أكثرهم ، وبلغ إلى إفريقية وسار منها ، وكان لا يمرّ بأمة إلّا أبادها إلى أن عدّى من ناحية الأندلس يريد الإفْرَنْجَة ، وكان بها ملك عظيم يقال له : أرقيوس ، فأقام يحاربه شهرا ثم طلب صلحه وأهدى له هدايا كثيرة فسار عنه ، ودوّخ الأمم المتّصلة

بالبحر الأخضر[1] وأطاعه أكثرها . ومرّ بأمة عُراة لهم حوافر فى أرجلهم ، وقرون صغار ، وشعور كشعور الدوابّ ، ولهم أنياب بارزة من أفواههم ، فقاتلهم قتالا شديدا حتى أثخنهم ، فنفَروا منه إلى غِيرانٍ[2] لهم مظلمة عظام .

والقبط تذكر أنه رأى سبعين أعجوبة ، وعمل أعلاما على البحر وزبر عليها آسمه ومسيرَه ، وخرب مدن البربر حيث كانت ، وألجأهم إلى قرون الجبال ورجع ؛ فتلقّاه أهل مصر بأصناف اللهو والطيب والرياحين ، وفُرشت له الطرقات ولَقوه بآبنه بلهقانس وكان وُلد بعد مسيره فسُرّ به . واتصل خبره بالملوك فهابوه وحملوا إليه الهدايا من كل وجه ومكان .

قال : وبلغه أن قوما من البربر سحرةً لهم تخاييل عجيبة وبخورات يدلّون بها ، وأنهم فى مدينة لهم يقال لها : قرميدة ، فى الغرب من مصر ، قد ملّكوا عليهم آمرأة ساحرة يقال لها : اسطافا ، فاتصل به كثرة أذاهم للناس فغزاهم ، فلما قرب منهم ستروا عنه مدينتهم بسحرهم فلم يرها ، وطمّوا مياههم فلم يعرفها ، فهلك أكثر أصحابه عطشا . فلما ستروا عنه البلد صعد إلى ناحية الجنوب ، ثم رجع على غير الطريق التى سار إليهم فيها ، فمرّ بهيكل كان لهم يحضرونه فى أعيادهم ، فهدم بعضه وسقط منه موضع على جماعة ممن تولّى هدمه فأهلكهم ، فلما رأى ذلك تركهم وآنصرف ، وخرجوا إلى هيكلهم فبنَوْا ما سقط منه وحرسوه بطِلَّسمات محكمة ، ونصبوا فوق قبّته طِلَّسما من نحاس مذهب ، وكان إذا قصده أحد صاح صياحا منكرا يَرْعَد منه مَن سمعه ويبهت فيخرجون إليه ويصطلمون[3] . وكانت ملكتهم أحذق منهم بالسحر فقالت :

(١) البحر الأخضر ، ويقال له بحر الظلمات : هو المحيط الأطلنطى ، ويسمى أيضا : بحر الظلمة أو بحر أقيانس أو البحر الأعظم ، ويقرأ فى بعض الكتب « بحر أقنابس » وهو تصحيف ظاهر (راجع معجم الخريطة التاريخية للمالك الاسلامية للرحوم أمين واصف بك) . (٢) الغيران : جمع غار ، وهو ما ينحت فى الجبل شبه المغارة فاذا اتسع قيل كهف . (٣) يصطلمون : يستأصلون .

إنى أعمل الحيلة فى إفساد مصر وأضرّ وآذى أهلها، فعملت أشياء وأرسلتها مع مَن ألقاها فى النيل، ففاض النيل على مزارعهم وغلّاتهم، وكثرت فيه التماسيح والضفادع، وكثرت العلل فى الناس، وآنبثّت فيهم الثعابين والعقارب، فأحضر ماليق الكهنة والحكماء وقال : أخبرونى عن هذه الحوادث التى حدثت فى بلادنا ما هى ؟ ولِمَ لم تشرحوها فى طالع السنة ؟ فآجتمعوا فى دار حكمتهم ونظروا حتى علموا أنه من ناحية الغرب، وأنّ آمرأة عملته وألقته فى النيل، فعلم أنه من فعل تلك الساحرة، فقال لهم: اجهدوا أنفسكم فى هلاكها فقد بلغت فيكم مرادَها، فآجتمعوا للهيكل الذى فيه صور الكواكب وأصنامها، وسألوا الملك الحضور معهم فلم يمكنه الخلافُ عليهم . فلما أمسى لبس مِسْحا وافترش رمادا وآستقبل مصلاه وأقبل على الآبتهال إلى الله والتضرّع وقال: يا ربّ يا الله، أنت إله الآلهة، وخالق الخلق، ولا يكون شىء إلا بقضائك، أسألك أن تكفينى أمر هؤلاء القوم، وغلبه السهر فأغفى فى مصلاه، فرأى آتيا يقول له : قد رحم الله تضرّعك، وأجاب دعاءك، وهو مُهلك هؤلاء القوم ومدمّر عليهم، وصارف عنك الماء المفسدَ والدوابّ المضرّة . فلمّا أصبح الكهنة غَدْوا عليه وسألوه حضور هيكلهم، فقال لهم: قد كفيتكم أمر عدوّكم وأهلكتهم، وأزلت الماء الفاسد والدوابّ المضرّة عنكم، ولن ترَوْا بعدها شيئا تكرهونه، فنظر بعضهم إلى بعض كالمنكرين لقوله وقالوا : قد سررنا بما ذكره الملك، وهم يضمرون الآستهزاء به والتكذيب له، ومضَوْا إلى دار الحكمة فقال بعضهم : الرأى ألا تقولوا فى هذا شيئا، فإن كان حقا وقفتم عليه، وإن كان باطلا اتسع لكم اللفظ فى لومه، وسيتبين لكم أمره .

فلما كان بعد يومين انكشف ذلك الماء الفاسد، وهلكت تلك الدوابّ المضرّة، فعلموا أن الذى أخبرهم به حقّ؛ وأمر قائدا من قوّاده ورجالا من الكهنة أن يمضوا

حتى يعلموا علم هؤلاء القوم ، فأتوا المدينة فوجدوا حصنها قد سقط وقد هلكوا بأجمعهم
واحترقوا واسودّت وجوههم ، ووجدوا الأصنام منكّسة على وجوهها ، وأموالهم
ظاهرة بين أيديهم ، فطرقوا المدينة فلم يجدوا فيها غير رجل واحد كان مخالفا لهم
بسبب رؤيا رآها ؛ ووجدوا من الأموال والجواهر وأصنام الذهب والتماثيل
ما لا يُحصى ولا تعرف له قيمة ، ووجدوا صورة كاهن لهم من زبرجد أخضر على ٥
قائمة من حجر الأسباد شم ؛ ووجدوا صورة روحانيّ من ذهب ، ورأسه من
جوهر أحمر ، وله جناحان من درّ ، وفى يده مصحف فيه كثير من علومهم فى دفّتين
مرصّعتين بجوهر ملوّن ؛ ووجدوا مِطهرة من ياقوت أزرق على قاعدة من زجاج
أخضر مسبوك ، وفيها فضلة من الماء الدافع لأسقامهم ، وفرسا من فضّة مَن
عزم عليه بعزائمه ودخنه بدُخنة وركِبه طار به فيما يزعمون ، وغير ذلك من العجائب ١٠
والأصنام ؛ فحملوا من ذلك ما قدروا عليه من الأموال والجواهر ، وسأل الملك
ذلك الرجل : ما أعجب ما رأيت من أعمالهم ؟ فقال : نعم أخبرك أيها الملك ؛ إنه
قصدهم بعض ملوك البربر ، وكان جبّارا من أهل بيت سحر ، فجاء بالجموع الكثيرة
وتخاييل هائلة ، فأغلق أهلُ مدينتنا حصنهم ولجأوا إلى أصنامهم يخضعون لها
و يتضرّعون إليها ، وكان لهم كاهن عظيم الشأن ، فسار إليه رؤساؤهم وشكَوْا اليه ١٥
ما دهمهم من عدوّهم ، فأتى إلى بركة عظيمة بعيدة القعر كانوا يشربون منها ، ٩/١٣
فجلس على حافتها وأحاط رؤساء الكهنة بها وزمزم على ماء البركة ، فلم يزل كذلك
حتى فار الماء وفاض ، وخرجت من وسطه نار تتأجج ، وظهر من وسطها وجه
كدارة الشمس وعلى صورتها وضوئها ، فخرّ الجماعة وسجدوا لذلك الوجه ، وتجلّلهم
نور ، وجعل يعظم حتى ملأ البركة ، وصعد حتى خرق سقف القبّة ، ثم ارتفع ٢٠
إلى رأسها وسمعتُه يقول : قد كفيتكم شرّ عدوّكم ، وأمرهم أن يأخذوا دوابّهم ففعلوا

ذلك ، وهَلَكَ الملك الذى قصدهم وجميعُ مَن كان معه، وآنصرفوا ؛ فأقبلوا يأكلون ويشربون، فقلت لبعض الكهنة : لقد رأيت عجبا من ذلك الوجه فما هو؟ فقال: تلك الشمس تبدّت لنا فى صورتها وأهلكت عدوّنا ، صاحت بهم صيحة أحرقتهم فأصبحوا خامدين .

٥ قال : وكان هـذا الرجل عاقلا فاتخـذه ماليق وزيرا . ولم يزل ماليـق على التوحيد ، وهو مع ذلك يساير أهل البلد خوفا من آضطراب مُلكه ، وأمر أن يُعمَل له ناووس ، فكان يقصِـده ويتعبّد فيه ، وأمر ألا يُدفَن معـه ذهب ولا جوهر ، فلم يُدفَن معـه شىء سوى الطِّيب وصحيفـة مكتوبة بخطـه فيهـا : هـذا ناووس ملك مصر ماليـق ، مات مؤمنا بالله العظيم لا يعبـد معـه غيره ، ١٠ بريئـا من الأصـنام وعبادتها ، مؤمنا بالبعث والحساب والمجازاة على الأعمـال ، عاش كذا وكذا سـنة ، ملك فيهـا كذا وكذا ، فمن أحب النجاة من عذاب الآخرة فليدِن بمـا دان به . وأوصى ألا يُدفَن معه فى ناووسه أحد من أهله ، وكان قد كنَز كنوزا عظيمة وزبر عليهـا أن تخرجها أمة النبىّ المبعوث فى آخر الزمان .

وآستخلف آبنه حِرْما (١) بن ماليق . قال : وكان ليّنا سهلَ الخُلُق ، لم يمت أبوه ١٥ حتى شرح له التوحيد ، وأمره أن يدين به ، ونهاه عن عبادة الأصنام ؛ وكان معه على ذلك فى حياته ، ثم رجع عنه بعد وفاته الى دينهم . وكان سبب رجوعه الى عبادة الأصنام أن أمه كانت من بنات كبار الكهّان ، فنقلته بعد موت أبيـه الى دينها وغلبته على رأيه ، وأمرت بتجديد الهياكل وتشدّدت فى عبادة الأصنام . وتزوّج حرما آمرأة من بنى عمّـه فأحبها حبّا شديدا وهام بها ، فأفسدته على جميع نسائه ،

---

٢٠ (١) فى المقريزى (ج ٣ ص ٩٤ طبعة فييت) : « خربتا » .

فاشتدّ ذلك على أمه، وكانت له قَهْرَمانة من أهـل سُيُوط ساحرة لا تطاق، وكانت تميل الى هـذه المرأة لأنها كانت تعشـق أخاها ؛ فزادت فى سحرها لتـلك المرأة فأوحشت ما بين الملك وأمّه حـتى رفضها وآستخفّ بأمرها ، وزاد الأمر حتى حلف ألّا يجاورها ، وأنه يغزو وينصرف فلا يرجع الى مصر أو يتّصل به موتُها ، ففعل ذلك وغزا بلد الهنـد وأرض السودان . ٥

وكان سبب خروجه الى الهند أن ملكا من ملوكها يقال له مسور خرج فى عدد كثير وسايرته مراكبه فى البحر ففتح بلدانا وجزائر، وأكثر القتل والسبى؛ وذُكِرت له مصرُ فقصـدها وآعتلّ فرجع من طريقه ، فأمر حرما الملكُ بعمل مائة سفينة على شكل سفن الهنـد، وتجهّز وركب وحمل معـه المرأة ووجوه أصحابه وقوّاده، وآستخلف آبنَـه كلكن على مصر وكان صبيًّا ، وجعـل معه وزيرا يقال له لاون، ١٠ وكاهنا يقال له ويسموس ، وخرج فمـرّ على ساحل اليمن وعاث فى مدائنه . وكان لا يمرّ بمدينة إلا أقام صنما وزبر عليه آسمَه ومسيرَه ووقتَـه ، وبلغ سرنديب(١) فأوقع بأهلها، وغَنِم منها مالا وجوهرا كثيرا، وحمل معه حكيما لهم، وبلغ جزيرةً بين الهند والصين بهـا قوم سُمْرٌ طوال يجزون شعورهم، ورأى لهم الدوابّ والطيـور وشجر الطيب والنارَجيل والفواكه التى لا تكون إلا عندهم ، فأذعنوا له بالطاعة وحملوا ١٥ اليه أموالا وهدايا فقبلها وسار عنهم . وأقبـل يتنقّل فى تلك الجزائر عدّة سنين ؛ فقيل : إنه أقام فى سفره سبعَ عشْرةَ سـنة ، ورجع إلى مصر بالظَّفَر والغنيمة ، ووجد أمه قد هلكت ، ووجد آبنه على الملك كما آستخلفه ؛ فسُرَّ بذلك وهابه مَنْ حوله من الملوك . وبنى عدّة هياكل وأقام فيها أصنام الكواكب؛لأنها — فيما زعم — هى التى أيّدته فى سـفره حتى ظَفِر بما ظفـر به وغَنِم ما غنمه . وقـد كان حمـل ٢٠

(١) سرنديب : هى جزيرة سيلان الآن .

١٠/١٣

معه من الهند حكيما وطبيبا ، وكان معهما من كتبهم وحكمهم ما أظهرا به فى مصر عجائب مشهورة ، وحمل معه صنما من أصنام الهند من الذهب مقرّطا بالجوهر، فنصبه على بعض الهيا كل التى عملها . وكان حكيم الهند يقوم به ويخدِمُه و يقرّب له . وكان يخبرهم بما يريدون منه .

قال : وأقام حرما بعد مُنْصَرَفِه من الهند مدّة ثم غزا نواحىَ الشام فأطاعه أهلها وهادَوْه ورجع إلى مصر . ثم غزا نواحى النوبة والسودان فصالحوه على خراج يحملونه له ، ورفع أقدار الكهنة وزاد فى تعظيم دينهم ؛ فصوّروه فى هيا كلهم ومضاجعهم ، وملكهم خمسا وسبعين سنة . وعمل لنفسه فى صحراء الغرب ناووسا، وعمل برقودة (١) مصانع وعجائب ، وأقام بها إلى أن مات وآبنُه كلكن بمنف ، فضمد جسده بالموميا والكافور والمرّ، وجعل فى تابوت من ذهب ، وجُعِل معه مالٌ كثير، وجوهر نفيس ، وسلاح عجيب ، وتماثيلُ وصنعة وعقاقيرُ ، ومصحف الحكمة . وصوّر فى جانب الناووس صورا وزبر عليها ذكرَ السفن التى سار فيها ، والبلدانَ التى فتحها ، وسدّ باب الناووس وزبر عليه اسمَه ومدّتَه وتاريخَ الوقت الذى هلك فيه ، وقتل جماعةٌ من نسائه أنفسَهنّ عليه . وكان جميلا سمح الأخلاق ، وآغتمّ عليه الكهنة لإكرامه لهم ، وأهل المملكة لإتباعه لهم .

وملك بعده آبنه كلكن بن حرما ، وعقد التاج على رأسه بالإسكندرية بعد موت أبيه وأقام بها شهرا ورجع إلى منف . وكان أصناميّا على دين أبيه وآستبشر به أهل مصر . وكان يحبّ الحكمة و إظهار العجائب و يقرّب أهلها ويُكثر جوائزهم . ولم يزل يعمل الكيمياء فى مدّة ملكه ؛ نخزن أموالا عظيمة بصحارى الغرب . وهو أوّل من أظهر علم الكيمياء بمصر وكان مكتوما . وكان الملوك قبله

(١) رقودة : هى مدينة الإسكندرية .

أمروا بترك صنعتها لئلا تجتمعَ ملوك الأمم على غزوهم ، فعملها كلكن وملا
دور الحكمة منها حتى لم يكن الذهبُ بمصر أكثر منه فى وقته ولا الخراجُ ؛
لأنه كان فى وقته — فيما حكاه القبط — مائةَ ألفِ ألفٍ و بضعةَ عشَرَ ألفِ ألفِ
مثقالٍ . قال : وكان المثقال الواحد من الصّنعة يطرح على القناطير الكثيرة فيصبغها ،
فآستغنَوْا عن إثارة المعادن لقلّة حاجتهم إليها . وعمل من الحجارة المسبوكة الملوّنة ٥
الصمِّ التى تَشِفّ[1] شيئا كثيرا لم يعمل مثله أحدٌ ممن تقدّمه . وعمل من الأدرك
الملوّن والفيروزج أشياء تخرج عن العقول، حتى كان يسمّى حكيمَ الملوك . وغلب
جميع الكهنة فى علومهم، وكان يخبرهم بما يَغيب عنهم، فهابوه وآحتاجوا إلى علمه .
وكان نمروذ بن كنعان الذى أهلكه الله تعالى على يد إبراهيم الخليل عليه السلام
فى وقته، فيقال : إنه لما آتصل بنمروذ خبر حكمته استزاره فوجّه إليه أن يلقاه ١٠
منفردا من أهله وحشمه بموضع كذا ، ففعل النمروذ ذلك وسار إلى الموضع الذى
ذكره ، وأقبل كلكن على أربعة أفراس تحمله ذواتِ أجنحة ، وقد أحاط به نور
كالنار، وحوله صُوَرٌ هائلة قد خَيَّل بها، وهو متوشّح بثعبان محتزما ببعضه، والثعبان
فاغرٌ فاه، ومعه قضيب آس أخضر كلما حرّك الثعبان رأسه ضربه بالقضيب . فلما
رآه النمروذ هاله أمره وخاطبه ؛ فاعترف له بجليل الملك والحكمة، وسأله أن يكون ١٥
ظهيرا له .

وتقول القبط : إن كلكن الملك كان يرتفع ويجلس على الهرم الغربىّ فى قبّة
تلوح على رأسه . وكان أهل البلد إذا دهمهم أمر آجتمعوا حول الهرم . ويقولون:
إنه ربما أقام على رأس الهرم أياما لا يأكل ولا يشرب ، ثم آستتر عنهم مدّة حتى
توهّموا أنه هَلَكَ . وكان يجول فى الأرض وحده حتى طَمِعت الملوك التى حوله ٢٠

(١) أنظر الحاشية رقم ٢ ص ٥ من هذا الجزء .

فى ملكه ؛ فقصده ملك من ملوك الغرب يقال له «سادوم» فى جيش عظيم، وأقبل من ناحية المغرب من نحو وادى هيبب (١) ليكبس البلد، فأقبل حتى وافاهم، ثم جلّلهم بشىء من سحره كالغمام شديد الحرارة، فأقاموا تحته أياما لا يدرون أين يتوجّهون، فطار إلى مصر فآستأنس النـاس لمقدَمه ، فعرّفهم ما جرى وأمرهم بالخروج إليهم ليعـرفوا خبرهم ، فوجدوهم ودوابّهم أمـواتا فعجبوا لذلك ، وهابه الكهنة هيبـة لم يهابوها أحدا قبله ، وصوّروه فى جميع الهيا كل، وملكهم زَمانا .

و بنى فى آخر عمره هيكلا لزُحَل من صوّان أسود فى ناحية الغرب ، وجعل له عيدا ، وجعل فى وسطه ناووسا ، وحمل إليه ما أراد من ذهب وجوهر ، وحِكَم وعقاقيَر، وعرّفهم بموته ، وجعل على باب النـاووس طِلّسمات تمنع منه ، وغاب عنهم فلم يقفوا على موته .

وكان قد أوصى إلى آبنه ماليا بن كلكن فملك بعد أبيه . وكان شَرِهاً كثيرَ الأكل والشرب، منفردا بالرفاهة، غيرَ ناظر فى شىء من الحكمة، وجعل أمر البلد إلى وزيرله . وكان معجبا بالنساء ؛ وكان له ثمانون آمرأة ، ثم آتخذ آمرأة من بنات الملوك التى بمنف وكانت عاقلة سديدة الرأى ، وكان بهـا مُعْجَبًا لحمته النساءَ . وكان له بنون وبنات، وكان أكبر بنيه يقال له : طوطيس ، فكان يستجهل أباه فأعمل الحيلة فى قتله ، وإنما حملته على ذلك أمه وجماعة نسائه وبعض وزراء أبيـه ؛ فهجم عليـه فى وزرائه وهو سكران وتلك المرأة عنـده فقتله وقتل المرأة وصلبهـا .

(١) وادى هيب : هـذا الوادى بالجانب الغربىّ من أرض مصر فيا بين مريوط والفيوم ، يجلب منه الملح والنطرون . عرف بهبيب بن محمد الغفارىّ أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . شهد فتح مصر (راجع خطط المقريزى ج ١ ص ١٨٦ طبع بلاق) .

وملك بعده آبنه طوطيس بن ماليا وجلس على سرير الملك ، وكان جبّارا جريئا شديد البأس مهيبا ، فدخل عليه الأشراف وهنئـوه ودعَوْا له ، وأمرهم بالإقبال على مصالحهم وما يعنيهم ، ووعدهم الإحسانَ .

والقبط تزعم أنه أوّل الفراعنة بمصر ، وهو فرعون إبراهيم الخليل عليه السلام . ويقولون إن الفراعنة سبعة هو أوّلهم . قال : ثم تذاكر الناس ما فعله بأبيه وأنكروه وآستقبحوا صلبه المرأة فأنزلها ودفنها ، وآستخفّ بالكهنة والهياكل .

ولنذكر خبره مع إبراهيم الخليـل عليه السـلام فى أمر سارة[1] ، ونورد من ذلك ما أورده أهل الأثر وما ورد فى الحـديث الصحيح النبوىّ من هـذه القصة . قال إبراهيم بن القاسم الكاتب فى سياقة أخباره : لمـا فارق إبراهيم عليـه السلام قومَه والنمروذَ بن كنعان ونزل الشام ثم خرج إلى مصر ومعـه سارة امرأته وخلّف آبن أخيـه لوطا بالشام وسار إلى مصر ، وكانت سارة أحسن نساء العالمين فى وقتها ، ويقال إن يوسف الصدّيق ورث جزءا من حسنها لأنهـا جدّة أبيه . قال : فلمـا سار إبراهيم إلى مصر وأتى الحرس المقيمون على أبواب المدينة فرأوا سارة وعجبوا من حسنها ورفعوا خبرها إلى طوطيس[2] . وقد روينـا فى ذلك حديثا بسندنا الذى قدّمناه إلى أبى عبد الله البخارىّ رحمه الله قال : حدثنا أبو اليمان قال : أخبرنا شعيب قال : حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " هاجر إبراهيم عليـه السلام بسارة فدخل بها قرية[3] فيها ملك

---

(١) سارة : بتخفيف الراء، وقيل بتشديدها .

(٢) فى شرح البخارى للقسطلانى (ج ٤ ص ١٢٢ طبع بلاق سـنة ١٢٩٣ هـ) أن اسم هـذا الملك صاروق ، وقيل سنان بن علوان ، وقيل عمرو بن امرئ القيس بن سبأ ، وكان على مصر .

(٣) فى شرح البخارى للقسطلانى : «هى مصر . وقال ابن قتيبة : الأردن » .

من الملوك أو جبار من الجبابرة فقيل : دخل إبراهيم بآمرأة هى من أحسن النساء، فأرسل إليه أنْ يا إبراهيم مَنْ هذه التى معك؟قال: أختى. ثم رجع إليها فقال: لا تكذّبى حديثى فإنى أخبرتهم أنكِ أختى، والله إنْ[(١)] على الأرض من مؤمن غيرى وغيرك، فأرسل بها إليه فقام إليها فقامت تَوَضَّأُ وتصلى، فقالت : اللهم إن كنتُ آمنتُ بك و برسولك وأحصنت فرجى إلا على زوجى فلا تسلّط علىّ هذا الكافرَ، فغُطّ[(٢)] حتى ركض برجله .

٥

قال الأعرج : قال أبو سلمة بن عبدالرحمن : إن أبا هريرة قال: قالت : اللهم إن يمت يقال[(٣)] هى قتلته فأُرسل ، ثم قام اليها فقامت تَوَضَّأُ وتصلى وتقول : اللهم إن كنتُ آمنتُ بك و برسولك وأحصنتُ فرجى إلا على زوجى فلا تسلّط علىّ هذا الكافر، فغُط حتى ركض برجله . قال عبد الرحمن : قال أبو سلمة : قال أبو هريرة : فقالت : اللهم إن يمت فيقال هى قتلته فأُرسل فى الثانية أو فى الثالثة . فقال : والله ما أرسلتم الىّ إلا شيطانا ! إرجعوها الى إبراهيم وأعطوها آجر،[(٤)] فرجعت إلى إبراهيم عليه السلام فقالت : أشعَرْتَ أن الله كبَت الكافرَ وأخدم وليدةً" . هذا ما رويناه من صحيح البخارى[(٥)] . وقد ورد فى أخبار طوطيس زيادات نذكرها، وهو أن الملك لما أطلقته فى المرة الثالثة قال لها : إن لك ربّا عظيما لا يُضيِّعك، وأعظم قدرها وسألها عن إبراهيم فقالت: هو قريبى وزوجى. قال : فإنه ذكر أنك أخته . قالت : صدق أنا أخته فى الدين، وكل من كان على ديننا فهو أخ لنا . قال : نعم الدينُ دينكم ! ووجهها الى ابنته حوريا، وكانت من العقل والكمال بمكان كبير، فألقى الله تعالى محبة سارة فى قلبها فعظّمتها حوريا وأضافتها أحسن ضيافة ، ووهبت لها جوهرا ومالا ، فأتت

١٢ / ١٣

١٠

١٥

(١) إن بكسر الهمزة وسكون النون نافية بمعنى « ما » . (٢) غط : بضم الغين المعجمة وتشديد الطاء المهملة، أى أخذ بمجارى نفسه حتى سمع له غطيط . (٣) يقال هى قتلته : بإثبات الألف فى «يقال» على أن جواب الشرط المجزوم محذوف تقديره « ... أعذب و يقال ... » .
(٤) هى هاجر أم اسماعيل كما سيأتى بعد . (٥) راجع (ج ٣ ص ٥ ٣ طبع بلاق سنة ١٢٩٠).

٢٠

به إبراهيمَ عليه السلام فقال لها : رُدِّيه فلا حاجة لنا به فردته؛ فذكرت حوريا ذلك لأبيها فعجب منها وقال : هؤلاء من قوم كرام ومن أهل بيت طهارة فتحيّلى فى برّها بكل حيلة ، فوهبت لها جاريةً قبطيةً من أحسن الجوارى يقال لها آجر، وهى هاجر أم إسماعيل عليه السلام، وعملت لها سِلالا من الحلوى وقالت : يكون معك هذا للزاد . وجعلت تحت الحلوى جوهرا نفيسا وحليّا مصبوغا مكلّلا . فقالت : أشاور صاحبى ؛ فأتت إبراهيم عليه السلام فشاورته فقال : إذا كان مأكولا فخذيه ، فقبلته منها وخرج إبراهيم عليه السلام . فلما أمعنوا فى السير أخرجت سارة بعض تلك السلال فأصابت الجوهر والحلىّ ، فعرّفت إبراهيم ذلك ، فباع بعضه وحفر من ثمنه البئر التى جعلها للسبيل وفرّق بعضَه فى وجوه البرّ ، وكان يُضيف كل من مرّ به .

قال : وعاش طوطيس إلى أن وجهت إليه هاجر من مكة تعرّفه أنها بمكان جدب وتستغيثه ، فأمر بحفر نهر فى شرقىّ مصر يمرّ بسفح الجبل حتى ينتهى إلى مرفأ السفن فى البحر المالح ، فكان يحمل إليهما الحنطةَ وأصناف الغلّات فتصل إلى جُدّة وتحمل من هناك على المطايا ، فأحيا بلد الحجاز مدّة . ويقال : إن كل ما حُلِّيَتْ به الكعبة فى ذلك العصر هو مما أهداه ملك مصر . ويقال : إنه لكثرة ما كان طوطيس يحمله إلى الحجاز سمّته العرب «جُرْهُمَ الصادق» وكذلك يسمِّيه كثير من أهل الأثر . وقد تقدّم فى قصة[1] إبراهيم الخليل عليه السلام أن آسم الملك صادوق ، ويقال : إنه سأل إبراهيمَ عليه السلام أن يبارك له فى بلده ، فدعا بالبركة لمصر ، وعرّفه إبراهيم أن ولده سيملكها ويصير أمرها إليه .

قال : وطوطيس أوّل الفراعنة بمصر ؛ وذلك أنه أكثر القتل حتى قتل قراباته وأهلَ بيته وبنى عمه وخدمه ونسائه ، وأكثر الكهنة والحكماء . وكان حريصا على الولد

(١) راجع (ج ١٣ ص ١١٥ من هذه الطبعة) .

فلم يرزقه الله ولدا غير آبنته حوريا، وكانت عاقلة حكيمة تأخذ على يده كثيرا وتمنعه من سفك الدماء، فأبغضته وأبغضه الخلق : الخاص والعام . فلما رأت أمرَه يزيد خافت على زوال ملكهم فسمّته فهلك . وكان ملكه سبعين سنة . ولما مات اختلفوا فيمن يملّكوه عليهم بعده فقالوا : لا يُمَلَّكُ علينا أحد من أهل بيته، وأرادوا تمليك بعض ولد أتريب ؛ فقام بعض الوزراء ودعا إلى تمليك آبنته لصنيعها فيه، ولِمَا كانت تنكر عليه، وتبعه أكثر القوّاد والوجوه فتمّ لها الأمر .

وملكت حوريا بنة طوطيس وجلست على سرير الملك، ووعدت الناس بالإحسان، وأخذت فى جمع الأموال وحفظها، فاجتمع لها من الأموال والجوهر والحلىّ والطيب ما لم يجتمع لملك، وقدّمت الكهنةَ وأهلَ الحكمة ورؤساءَ السَّحَرة ورفعت أقدارهم، وأمرت بتجديد الهيا كل وتعظيمها. وسار مَنْ لم يرضها إلى مدينة أتريب وملّكوا عليهم رجلا من ولد أتريب يقال له أنداخس ؛ فعَقد على رأسه تاجا وآنضمّ إليه جماعة من بنى عمه وأهل بيته، فأنفذت إليه جيشا فحاربه ؛ فلما رأى أنه لا طاقة له بها دعاها إلى الصلح وخطبها إلى نفسه وقال لها : إن الملك لا يقوم بالنساء، وخوّفها أن يزول ملكهم بمكانها ؛ فعملت صنيعا وأمرت أن يحضره الناس على منازلهم، فحضروا وأكلوا وشربوا وبذلت لهم الأموال وعرّفتهم ما جرى من خِطبتها، فبعضٌ صوّب الرأى، وبعضٌ امتنع وقالوا : لا يتولّى علينا غيرها لمعرفتنا بعقلها وحكمتها، وهى وارثة الملك ؛ ووثبوا على نفر ممن خالفها فقتلوهم، وخرجوا فى جيش كثيف فلقوا جيش الخارج بأتريب فهزموه وقتلوا كثيرا من أصحابه، فهرب إلى أرض الشام وبها الكنعانيون من ولد عمليق، فاستغاث بملكهم وضَمِن له أخذَ مصر وفتحها، فجهزه بجيش عظيم إلى مصر، فاجتمع الناس كلهم إلى حوريا، ففتحت خزائن أبيها وفرّقت ما فيها على الناس فأحبّوها، وقوّت السحرة بالمال ووعدتهم الإحسان .

فلما تقدّم أنداخس بالجيوش أمرت السّحرةَ أن يعمَلوا له عمــلا ، وكان على جيوشهم قائدٌ من عظماء قوّاد ملكهم يقال له جيرون ؛ فلما نزلوا أرض مصر بعثت ظئرا لهــا من عقلاء النساء إلى جيرون سرًّا من أنداخس تعرّفه رغبتها فى تزويجه، لأنها لا تختار أحدا من أهل بيتها، وأنه إن قَتَل أنداخس تزوّجت به وسلمت إليه ملك مصر ومنعت منــه صاحبه . فرغب فى ذلك وسمّ أنداخس بسمّ أنفذته إليه فقتله ؛ فوجهت إليه أنه لايجوز أن أتزوّجك حتى تُظهِرَ فى بلدى قوّتَك وحكمتك وتبنىَ لى مدينة عجيبة — وكان آفتخارهم حينئذ بالبنيان و إقامة الأعلام وعمل العجائب — وقالت له : انتقل من موضعك هــذا إلى غربىّ بلدى فثمّ آثار لنا كثيرة فاقتف تلك الأعمــال الغريبة وآبن عليها . ففعل ذلك و بنى لهــا مدينة بصحراء الغرب يقال لها تندومة[1]، وجرّ إليها من النيل نهرا وغرس عليها غروسا كثيرة، وأقام بها منارا عاليا، وعمل فوقه منْظرا وصفّحه بالذهب والفضة والصُّفْر والرخام الملوّن والزجاج المسبوك وأبدع فى عمله . وكانت تمدّه بالأموال وتكاتب صاحبه عنه وتهاديه وهو لا يعلم .

فلما فرغ من بنــاء المدينة قالت له : إن لنا مدينة حصينة كانت لأوائلنا وقد خَربت منها أمكنة [وتشعّث حصنها][2] فامض إليها واعمل فى إصلاحها إلى أن أنتقلَ إلى هــذه المدينة التى بنيتها وأنقل إليها جميع ما يُحتاج إليه ، فإذا فرغتَ من إصلاح تلك المدينة فأنفذ إلىّ جيشا حتى أصير إليك وأنظرَ ماصنعته ، وأبعد عن مدينتى وأهل بيتى فإنى أكره أن آتيك بالقرب منهم . فمضى وجدّ فى عمل الإسكندرية الثالثة .

قال : وأهــل التاريخ يسوقون شيئا من أخبار أنداخس و يذكرون أنه الذى قصد الوليد بن دومع العمليق ، وهو ثانى الفراعنة . وكان سبب قصده له أنه كانت به علّة فوجّه إلى المواضع ليُحمل إليه من مياهها حتى يعرف ما يلائم جسده، فوجّه

(١) فى خطط المقريزى (ج ٣ ص ٧٤ طبعة فييت) : «أندومة» . وأشار فى الهامش الى أنها وردت أيضا باسم . «تندومة . قندومة . فندومة» .
(٢) الزيادة من المقريزى .

غلاما له فأتى مملكة مصر ووقف على كثرة خيراتها[1] وحمل إلى صاحبه من مائها وألطافها وعاد إليه ، فعرّفه حالَ مصر فقصدها في جيش كثيف حتى حطّ عليها ، وكاتب الملكة وخطب إليها نفسها ، فوجهت إليه مَنْ أشرف على حاله فوجد قوما عظاما لايقوم بحربهم ، فأجابته إلى التزويج وألطفته وشرطت عليه أن يبنيَ لها مدينة يُظهر فيها أيْدَه وقوّته ويجعلها مهرا لها ، فأجابها ودخل مصر وآنتهى إلى ناحية الغرب ليبنيَ لها المدينة ناحية الإسكندرية ، فأمرت أن يُتلقَّ بأصناف الرياحين والفواكه وتُخَلَّق وجوه الخيل ، فمضى إلى الإسكندرية — وقد خربت بعد خروج العادية[2] منها — فنقل منها ما كان من حجارتها ومعالمها وعمدها ووضع أساس مدينة عظيمة وبعث إليها مائة ألف فاعل ، فأقام فى بنائها مدّة وأنفق جميع ما كان معه من المال ، وكان كلما بنى بناء خرجت من البحر دوابُّ تقلعه فإذا أصبح لم يجد منه شيئا ، فاهتمّ لذلك .

وكانت حوريا قد أنفذت إليه ألف رأس من المَعَز اللبون يستعمل ألبانها فى مطبخه ، وكانت مع راع يثق به ، وكان ذلك الراعى يطوف بها ويرعاها هناك ، فكان إذا أراد أن ينصرف عند المساء خرجت إليه من البحر جارية حسناء فتتوق نفسُه إليها ، فإذا كلمها شرطت عليه أن تصارعه فإن صرعها كانت له وإن صرعته أخذت رأسين من المَعَز ، فكانت على طول الأيام تَصرعه وتأخذ من الغنم حتى أخذت أكثر من نصفها وتغير باقيها لشغله بحب تلك الصورة عن رعيها ، وتغير هو أيضا فى جسمه ونحل ، فمرّ به صاحبه وسأله عن حاله وحال الغنم فخبّره الخبر خوف سطوته فقال : أى وقت تخرج ؟ قال : قرب المساء . فلبس ثياب الراعى وتولّى رِعْيَة[3] الغنم يومَه إلى المساء ، وخرجت الجارية فشرطت عليه كما شرطت على الراعى ، فأجابها وصارعها فصرعها وقبض عليها وشدّها فقالت له : إن كان لا بدّ

---

(١) كذا فى المقريزى . وفى الأصول : « خزائنها » . (٢) كذا فى الأصول والمقريزى . والعادية : نسبة إلى قبيلة عاد البائدة . (٣) رعية : بكسر الراء ، اسم من رعى الماشية يرعاها .

من أخذى فسلّمنى لصاحبى الأوّل فإنه ألطف بى، وقـد عذّبتُه مرةً بعد مرة، فردّها إليه وقال له : سلْها عن هذا البنيان الذى بنيتُه ويزول من ليلته مَنْ يفعل به ذلك، وهل فى بنائه من حيلة ؟ فسألها الراعى عن ذلك فقالت : إن دوابّ البحر التى تنزِع بنيانكم . قال : فهـل فيها من حيـلة؟ قالت : نعم . قال : وما هى ؟ قالت : تعمَل توابيتَ من زجاج كثيف بأغطية وتجعل فيها قوما يُحسنون الصناعة فى التصـوير، وتجعل معهم صحفا وأنقاشا وزادا يكفيهم أياما، وتجعل التوابيتَ فى المراكب بعد أن تَشُدّها بالحبال، فإذا توسّطوا المـاء صوّر المصوّرون جميـع ما مرّ بهم وتُرفع تلك التوابيتُ من المـاء، فإذا وقفتم على تلك الصور فآعملوا لهـا أشباها من الصُّفْر أو من الحجارة أو من الرصاص وآنصبوها أمام البنيان الذى تبنونه من جانب البحر، فإن تلك الدوابّ إذا خرجت ورأت صورها هربت ولم تعد . فعرّفه الراعى ذلك ففعله، وتمّ بنـاء المدينة .

وقال قوم من أهل التاريخ : إن صاحب البناء والغنم جيرون [المؤتفـكىّ](1) وكان قَصَدهم قبل الوليد، وإنمـا أتاهم بعد حوريا وقهرهم جيرون وملك مصر . وذكروا أن الأموال التى كانت مع جيرون نَفِدت كلها فى تلك المدّة ولم يتم البناء، فأمر الراعى فسأل تلك الجارية فقالت : إن فى المدينة التى خَرِبت ملعبا مستـديرا حوله سبعة عُمُدٍ على رءوسها تماثيلُ [من](1) صُفْرٍ قيام، فقرّب لكل تمثال منها ثورا سمينا ولطِّخ العمودَ الذى عليه التمثال من دم الثور، وبخّره بشعر من ذنبه وشيء من نُحاتة قرونه وأظلافه، وقل له : هذا قربانك فأطلق لى ماعندك، ثم قِسْ من كل عمود إلى الجهة التى يتوجّه إليها وجهُ التمثال مائةَ ذراع وآحفر، وليكن ذلك فى وقت آمتلاء القمر واستقامة زُحَل، فإنك تنتهى بعد خمسين ذراعا إلى بلاطة عظيمة فلطّخها بمرارة الثور وأقلعها فإنك تنزل منها إلى سَرَب طوله خمسون ذراعا فى آخره خِزانة مقفلة ومفتاح

(١) الزيادة من المقريزى .

القفل تحت عتبة البـاب بخذه ولطّخ الباب ببقية مرارة الثور ودمه وبخره بنُحاتة قرونه وأظلافه وشعره، وادخل الباب بعد أن تَخرُجَ الرياح التى فيه، فإنه يستقبلك صنم فى عنقه لوحٌ من صُفْر معلقٌ مكتوب فيه جميع ما فى الخزانة من مال وجوهر وتمثال وأعجوبة، نخذ منه ما شئت ولا تتعرض لميت تجده ولا لمـا عليه؛ وكذلك

٥ فافعل بكل عمود وتمثـاله؛ فإنك تجد فى تلك الخزائن نواويسَ سبعةٍ من الملوك وكنوزَهم. فلما سمع ذلك سُرّ به وفعله فوجد ما لا يُدرك وصفه، ووجد من العجائب شيئا كثيرا؛ فتم بناء المدينة. واتصل ذلك بحوريا فساءها؛ وإنمـا كانت أرادت إتعابه وهلاكه بالحيلة عليه. فيقال: إنه فيما وُجِد من العجائب درجُ ذهب مختومٌ بطين ذهب فيه مكحلة زبرجد فيها ذَرورٌ أخضر ومعها عِرقُ جوهر أحمرُ، من

١٠ اكتحل من ذلك الذّرور وكان أشيب عاد شابا واسودّ شعره وأضاء بصره حتى يدرك النظر إلى أصنـاف الروحانيين، ووُجِد تمثـالٌ من الذهب إذا أُظهر غيمت السماء وأمطرت، وتمثال غراب من حجر إذا سئل عن شىء صوّت وأجاب عنه. ويقال: إنه كان فى كل خِزانة عشر أعجوبات.

قال: فلما فرغ جيرون من بناء المدينة وجه إليها يعلمها ذلك ويحثّها على القدوم، ١٥/١٣

١٥ فحملت إليه فُرُشا فاخرة وقالت: ابسطها فى المجلس الذى تجلس فيه، وأقسم جيشك أثلاثا وأنفذ إلىّ ثلثه، حتى إذا بلغتُ ثلث الطريق فأنفذ إلىّ الثلث الآخر، فإذا جزتُ نصف الطريق فأنفذ إلىّ الثلث الباقى، ويكونون من ورائى لئلا يرانى أحد إذا دخلت عليك، ولا يكن عندك إلا صِبْيةٌ تثق بهم يخدمونك فإنى أوافيك فى جوارٍ تكفيك الخدمة ولا أحتشمهنّ؛ ففعل. وأقامت تحمل إليه الجهاز والأموال حتى علم

٢٠ بمسيرها ووجه إليها ثلث جيشه فعملت لهم الأطعمة والأشربة المسمومة، فلما أتَوْها استنزلهم جواريها وحشمُها وأقبلوا عليهم بتلك الأطعمة والأشربة والطيب والكساء

واللهو فلم يصبح منهم أحد يعيش، ولقيها الثلث الثانى والثالث بعده ففعلت بهم كذلك، وهى توجّه إليه أنهــا أنفذت جيشه إلى قصرها ومملكتها يحفظونه، إلى أن دخلت عليه هى وظِئرها وجوارٍ كنّ معها، فنفخت ظِئْرُها فى وجهه نفخة بُهِت إليها ورشّت عليه ماء كان معها فآرتعدت مفاصله فقال : من ظنّ أنه يغلب النساء فقد كذّبته نفسه وغلبته النساء، ثم فصــدت عروقه وأسالت دمه وقالت : دماء الملوك شــفاء . ٥ وأخذت رأسه فوجّهت به إلى قصرها فنُصِب عليه وحملت تلك الأموال الى منف . وبنت منارا بالاسكندرية وزبرت عليه آسمها وآسمه وما فعلت به وتاريخ الوقت .

قال : ولمــا آتصل خبرُها بالملوك الذين يتاخمون بلدها، هابوها وأذعنوا لهــا وهادَوْها . وعملت بمصر عجائب كثيرة، وأقطعت أهل بيتها وقوّادها وحشمها أقطاعا كثيرة، وأمرت أن يبنى على حدّ مصر من ناحيــة النوبة حصنٌ وقنطرة يجرى ماء ١٠ النيل من تحتها . وآعتلت حوريا فاجتمع اليها أهل مملكتها وسألوها أن تقدّم عليهم ملكا، ولم يكن فى ذلك الوقت من ولد أبيها وأهل بيته من يصلح لذلك، فقلدت عمتها دليفة بنت ماموم (١)، وكانت عذراء من عقلاء النساء وكبراهنّ ، فعهِدَت اليها وأخذت لها المواثيق على أهل مصر ألا يُسْلِموها وأن يتبعوا أمرها، وسلمت اليها مفاتيح خزائنها ، وأطلعتها على مواضع كنوز آبائها وكنوزها ، وأمرت أن يضمّد ١٥ جسدها بالكافور وتحمَــلَ الى المدينة التى بنيت لهــا فى صحراء الغرب ، وقد كانت عملت لهــا فيها ناووسا وعملت فيه عجائب ونقلت اليه أصنام الكواكب، وزينته بأحسن الزينة ونصّبت له قَوَمة، وأسكنت تلك المدينةَ جماعةً من الكهنة وأصحاب العلوم والمهن وبعض الجيش، وعمرت تلك المدينــة فلم تزل على حالهــا من العمارة الى أن خرّبها بُخْتَنَصّر وحمل بعض كنوزها . ٢٠

(١) فى المقريزى : « مامون » بالنون .

وجلست دليفة بنت ماموم على سرير الملك بعد وفاة حوريا، واجتمعت الكلمة عليها وأحسنت الى الناس ووضعت عنهم خراج سنة، وقام عليها أيمينُ يطلب بثأر خاله انداخس، واستنصر بملك العمالقة[1] فوجّه معه قائدا من قوّاده فى جيش كثيف، فأخرجت اليه دليفة بعض قوّادها فآلتقَوْا بالعريش، وجعل سَحَرَةُ الفريقين يُظهرون التخاييل الهائلة والعجائب العظيمة والأصوات التى تقرع الأسماع وتؤلمها، فأقاموا مدّة يتكافئون الحرب ويتراجعون فهلك بينهم خلق كثير، ثم آنهزم أصحاب دليفة الى منف وسار أصحاب أيمين فى آثارهم، ومضت دليفة فى جمع من جيوشها الى ناحية الصعيد فنزلت الأشمونين وأنفذت من قدرت عليه من الجيوش ووقعت الحرب بينهم بناحيــة الفيوم وخلّى أصحابُ دليفة الماءَ بينهم وبين عدوّهم، وآستنجدت دليفة بأهل مدائن الصعيد فحاربوا أصحاب أيمين حتى أزالوهم عن منف، وكانوا قد ظَفِروا بها وعاثوا فيها، فهزموهم حتى ركبوا المراكب وعدوا الى ناحيــة الحَوْف، وكان معهم ساحر من أهل ناحيــة قِفط فأظهر بسحره نارا حالت بينهم وبين أصحاب دليفة، فلما زاد الأمر وأشفق أهــل مصر من خروجها عن أيديهم سَفَرَ السفراء بينهم على أن يجعلوا البــلد قِسْمةً بينهم فأجاب كل منهما الى الصلح، ثم غدرت دليفة بعــد ذلك بأيمين وأخرجت الأموال والجواهر وفرقتها فى الناس، وكان بعضهم قد لامها فى الصلح، فرجعت الى الحرب فأقاموا ثلاثة أشهر ثم ظهر أيمين عليها وهزمها الى ناحيــة قوص وسار خلفها وتمكن من المملكة، فلما رأت ذلك سمّت نفسها فهلكت .

وملك بعدها أيمين، فتجبر وقتل خلقا كثيرا ممن كان حار به . وكان الوليد بن دومع العمليق قد خرج فى جيش كثيف يتنقل فى البــلدان ويقهر ملوكها ليسكن

(١) العمالقة : من ولد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام .

ما يوافقه منها؛ فلما صار بالشام انتهى اليه خبر مصر وعظم قدرها، وأن أمرها قد صار الى النساء وبادت ملوكها؛ فوجه غلاما له يقال له عون؛ فسار الى مصر وفتحها وحوى أموالا، ومولاه لا يعرف خبره ولا يشك فى هلاكه وهلاك الجيش الذى معه، لِمَا كان يسمع عما بمصر من الطّلّسمات والسحر؛ ثم اتصل به خبره فسار الى مصر فتلقاه عون وعرّفه أنه كان عزم على المسير اليه وإنما أراد تعديل البلد وإصلاحه فقبل قوله ودخل.

وملك مصر الوليد بن دومع العمليقىّ، واستباح أهلها وأخذ أموالها وقتل جماعة من كهنتها، ثم سنح له أن يخرج فيقف على مصبّ النيل ويعرف ما بناحيته من الأمم ويغزوهم، فأقام ثلاث سنين يستعدّ لخروجه، وأصلح ما يحتاج اليه، واستخلف عونا على البلد وخرج فى جيش كثيف فلم يمرّ بأمة إلا أبادها. فيقال: إنه أقام فى سفره سنين كثيرة، وإنه مرّ على أمم من السودان وجاوزهم، ومرّ على أرض الذهب وفيها قضبان نابتة؛ ولم يزل يسير حتى بلغ البطيحة[(1)] التى ينصبّ ماء النيل اليها من الأنهار التى تخرج من تحت جبل القُمْر[(2)]؛ ثم سار حتى بلغ هيكل الشمس فدخله. ويقال: إنه خوطب فيه. وسار حتى بلغ جبل القمر؛ وهو جبل عال. وإنما سمى جبل القُمْر لأن القمر لا يطلع عليه لخروجه عن خط الاستواء. ونظر الى النيل يخرج من تحته. وقد تقدّم خبر النيل[(3)].

---

(١) توجد بالجهات الاستوائية فى المصورات الجغرافية القديمة ومنها «الخريطة المنسوبة إلى الإدريسى عن ملر» ثلاث بحيرات هى التى تسمى: البطيحة الغربية، والبطيحة الشرقية، وبينهما البطيحة الكبرى، وهى التى يخرج منها نهر النيل المصرى، ونهر النيل السودانى الذى يطلق عليه اسم النيجر، وإلى الجنوب من هذه البطائح توجد سلسلة جبال القمر، ويظن أن البطيحة الكبرى هى التى تسمى الآن «فيكتوريا نيانزه» وهى التى أشار اليها المؤلف هنا (أفادنيه الأستاذ الجليل الشيخ محمد فخر الدين بك).

(٢) ضبطه بعض أهل الجغرافيا بفتح القاف والميم. والثقات منهم على أنه بضم القاف وسكون الميم (انظر تقويم البلدان ص ٦٤ طبع باريس).

(٣) راجع (ج ١ ص ٢٦٢ من هذه الطبعة).

قال : ودخل الوليد القصر الذى فيه تماثيل النحاس التى عَمِلها هِرمِس الأول فى وقت البودسير الأول بن قفطريم . قال : ولما بلغ الوليد جبل القُمْر رأى جبلا عاليا فأعمل الحيلة وصعد عليه ليرى ما خلفه ، فأشرف على البحر الأسود الزفتىّ المنتن ، ونظر إلى النيل يجرى عليه كالأنهار الرقاق ، وأتته من ذلك البحر روائحُ منتنة هلك كثير من أصحابه من ريحها فأسرع النزولَ بعد أن كاد يَهْلِك . ٥

قال : وذكر قوم أنهم لم يروْا شمسا ولا قمرا وإنما رأوْا نورا أحمر كنور الشمس عند مغيبها . وأقام الوليد فى غيبته أربعين سنة . وأما عَوْن الذى استخلفه بمصر فإنه فعل فى غيبة الوليد ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر خبر عون وما فعله فى غيبة الوليد وخبر المدينة التى بناها

١٠ قال : ولما مضت من غيبة الوليد بن دومع سبعُ سنين تجبّر غلامه عونٌ بمصر، وادّعى أنه الملك ، وأنكر أن يكون غلاما للوليد ، وأنه أخوه وقلّده الملك بعده ، ووثب على الناس وغلبهم بالسحرة وأسنى جوائزهم ولم يمنعهم محابّهم ؛ فمالوا إليه ووثّقوا أمره ، فلم يترك آمرأة من بنات ملوك مصر إلا نكحها ، ولا مالا إلا أخذه وقتل صاحبه . وكان مع ذلك يلزم الهياكل ويُكرم الكهنة ، فكانوا يُمسكون عنه إشفاقا منه وخوفا من السحرة الذين معه ؛ إلى أن رأى فى منامه الوليدَ بن دومع وكأنه ١٥ يقول له : مَنْ أمرك أن تتسمى بآسم الملك ، وقد علمتَ أنه من فعل ذلك استحق القتل ، ونكحتَ بنات الملوك وأخذتَ الأموالَ بغير واجب ، ثم أمر بقدور فملئت زيتا وأُحميت على أنه يغمر فيها ، فلما غلت أمر بنزع ثيابه فأتى طائر فى صورة عُقاب فاختطفه من أيديهم وحلق به فى الجو وجعله فى هوّة على رأس جبل ، وأنه سقط من رأس الجبل إلى واد فيه حية ، فانتبه مرعوبا طائر العقل . وقد ٢٠

١٧/١٣

كان فى فعله ذلك وتملّكه إذا خطرت بقلبه من ذكر الوليد خطرةٌ كاد عقله يزول، خوفا منه لِمَا يعلمه من فظاظته وبطشه وقوّته . ولم يتيقّن هلاكه وأضمر فى نفسه الهربَ من مصر بما معه من الأموال .

قال : ولما رأى الرؤيا لم يشك فى حياة الوليد وأنه سيعود ، فأطلع بعضَ السَّحَرَةِ ممن يثق به على أمره وقال : إنى خائف من الوليد وقد عزمت على ٥ الخروج من مصر فما الوجه عندكم ؟ قالوا : نحن نُنْجيك منه على أن تقبل منا . قال : قولوا ، قالوا : تعمل عُقابا وتعبده ؛ فإن الذى حصّنك منه أحدُ الروحانيين وهو يريد ذلك منك . قال عون : أشهد لقد قال لى وأنا معه : أعرِفْ لى هذا المقام ولا تَنْسَه . قالوا : قد بينا لك . فأجابهم إلى ذلك وعمل عُقابا من ذهب وعمل عينيه جوهرتين ووشّحه بأصناف من الجوهر، وعمل له هيكلا لطيفا وجعله ١٠ فى صدره وأرخى عليه ستور الحرير، وأقبل أولئك يبخّرونه ويقربون إليه ويَسْحَرُون إلى أن نطق لهم، فأقبل عون على عبادته ودعا الناس إليها فأجابوه .

فلما مضى لذلك مدّة أمره العُقاب ببناء مدينة يحوله إليها وتكون مَعْقِلا له وحرزا من كل أحد . فأمر عون أصحابه أن يخرجوا إلى صحارَى الغرب ويطلبوا كل أرض سهلة حسنة الاستواء، ويكون المدخل إليها بين هجُول[1] صعبة وجبال وعرة، ويتوخَّوْا ١٥ أن تكون قريبة من ناحية مَغِيض الماء التى هى اليوم الفيوم . وكانت مغيضا لماء النيل حتى أصلحها يوسف عليه السلام على ما نذكره إن شاء الله . وإنما أراد عون بذلك ليجرَّ الماء منها إلى مدينته التى يبنيها ؛ فخرج أصحابه وأقاموا شهرًا يطوفون الصحارى حتى وجدوا له بغيته ، ولم يبق فاعل ولا مهندس ولا أحد ممن

(١) هجول : جمع هجل (بفتح فسكون)، وهو المطمئن من الأرض . ٢٠

بيصُر البناء ويقطع الصخور ويحتها إلا وجّه به عون إليها ، وأنفذ معهم ألف رجل من جيشه وسبعمائة ساحر يعاونونهم بالروحانيين الذين فى طاعتهم ، وأنفذ معهم جميع الآلات وأقام يحمل لهم الزاد إلى هناك شهورا على العَجَل ؛ وطريق العجل على الفيوم واضحةٌ فى صحراء الغرب وخلف الأهرام — وهى التى يقصدها أصحاب المطالب — مشهورة .

٥ قال : فلما تكامل له ما أراد من ذلك ومن نحت الأحجار خَطّوا المدينة فرسخين فى فرسخين ، وحفروا فى الوسط بئرا وجعلوا فى تلك البئر تمثالَ خنزير من نحاس بأخلاط ونصبوه على قاعدة من نحاس وجعلوا وجهه إلى الشرق ، وكان ذلك بطالع زُحَلَ واستقامته وسلامته من المتضادين له فى شرفه ، وأخذوا خنزيرا فذبحوه له ولطخوا وجهه بدمه وبخروه بشعره ، وأخذوا شيئا من عظامه ولحمه ومرارته فجعلوه

١٠ فى جوف ذلك الخنزير النحاس ، وجعلوا فى أذنيه شيئا من مرارته ، وأحرقوا بقية الخنزير ، وجعلوا رماده فى قلة نحاس بين يدى الخنزير النحاس ، ونقشوا عليه آيات زحل ، ثم شقوا فى البئر أُخدودا من أربعة وجوه شرقا وغربا وجنوبا وشمالا ، ومدّوا تلك الأخاديد إلى حيطان المدينة ، وعملوا على أفواهها مسارب تجتلب الرياحَ إليها ، ثم سدّوا البئر وعملوا عليها قبة على عمد مربعة ، وجعلوا منها شوارع كل شارع ينتهى

١٥ إلى باب من أبواب المدينة وفصلوها بالطرقات والمنازل ، وجعلوا حول القبة تماثيل فُرسان من نُحاس بأيديها حِرابٌ ووجوهها مقابلة لتلك الأبواب ، وجعلوا أساس المدينة من حجر أسود وفوقه أحمر وفوقه أصفر وفوقه أخضر ، وفوق الجميع أبيض يشفّ ، مثبتة كلها بالرصاص المصبوب بين الحجارة ، وقلوبَها أعمدة من حديد على وضع بناء الأهرام ، وجُعل طول حصنها ستين ذراعا فى عرض عشرين ذراعا ،

٢٠ ونُصب على كل رأس باب من أبوابها فى أعلا الحصن تمثالُ عُقاب كبير من صفر وأخلاط ناشرَ الجناحين أجوفَ ، وعلى كل ركن صورةُ فارس بيده حربة ووجهه

١٨/١٣ إلى خارج المدينة، وساق المـاء إلى ناحية الباب الشرقى ينحدر فى صبَبٍ إلى الباب الغربى ويخرج إلى صهاريجَ هنالك، وكذلك من الباب الجنوبى إلى الشمالى، وقرّب لتلك العقبان عقبانا ذكورا، واجتذب الرياح إلى أفواه التماثيل، فكانت الرياح إذا دخلتها سُمعت لها أصواتٌ شديدة لا يسمعها أحد إلا هالته، ووكّدها بعفاريت تمنع[1] الداخل إليها إلا أن يكون من أهلها، ونصب العُقاب الذى كان يعبده تحت القبة التى فى وسط المدينة على قاعدة لها أربعة أركان فى كل ركن منها وجه شيطان، وجعلها على عمود يديرها، والعقاب يدور إلى كل الجهات الأربع، ويقيم فيها ربع السـنة، يقرب إليه من جهتها .

فلمـا فرغ من ذلك كله حمل إليهـا جميع الأموال والجواهر المخـزونة بمصر وما وجده فى خزائن الملوك، ومن التماثيل والحكم وتراب الصنعة والعقاقير والسلاح وغير ذلك، وحوّل إليها كبارَ السحرة والكهنة وأصحاب الصنائع والتجار، وقسم المساكن بينهم لا يختلط أهلُ صنعة بغيرها، وعمل لها رَبَضا[2] يحيط بهـا، وبنى فيـه منازل لأصحاب المهن والزراعة، وعقد على تلك الأنهار قناطر يمرّ عليها الداخل إلى المدينة، وجعل المـاء يدور حول الرَّبَض، ونصب عليها أعلاما وحرسا، ثم غرس وراء ذلك بالبرية النخل والكروم وأصناف الأشجار، ومن وراء ذلك مزارع الغلات من كل جهة، وكان يرتفع له بها فى كل سنة مايكفيه لعشر سنين، كل ذلك خوفا من الوليد .

قال : وبين هذه المدينة وبين منف ثلاثة أيام، فكان عونٌ يخرج إليها فيقيم بها عشرة أيام ثم يعـود إلى منف، وكان لهـا أربعة أعياد فى السنة، وهى الأوقات التى يتحوّل العُقاب فيها . فلما تمّ ذلك كله لعَون ٱطمأنّ قلبه، وسكنت نفسه .

(١) فى خطط المقريزى (ج ١ ص ٢٤١ طبع بلاق) : «ووكل بها أرواحا تمنع الداخل إليها ...» .
(٢) الربض هنا : سور المدينة .

ذكر عود الوليد إلى مصر وهرب عون إلى مدينته

قال : ثم وافا كتاب الوليد بن دومع من نواحى النوبة إلى عون يأمره أن يُنْفِذَ إليه الأزوادَ وينصبَ له الأسواق، فوجّه إليه ذلك فى المراكب وعلى الظهر[(١)]، وحوّل جميع عياله ومن آصطفاه من بنات ملوك مصر وكبرائها إلى المدينة ، حتى إذا قرب دخولُ الوليد إلى مصر خرج عون إلى مدينته وخلّف خليفة على مصر يكون بين يدى الوليد . ودخل الوليد مدينة منفَ وتلقاه أهل مصر وشكَوْا إليه عوناً وما حلّ بهم منه . قال : وأين هو؟ قالوا : فرّ منك . فغضب الوليد وأمر بجيش كثيف ينفذ إليه ، فعرّفوه أن الجيش لا يصل إليه ، وأخبروه خبر المدينــة وكيف بناها وخبر السّحرة الذين معه . فكتب إليه يأمره بالقدوم عليه ويحذّره التخلفَ عنه ، ويُقسم أنه إن لم يفعل وظفر به بضّع لحمــه بِضَعًا . فردّ جوابه يقول : ما على الملك منى مؤنة ، وأنا لا أتعرّض إلى بلده ولا أعيث فيه ؛ لأنى عبده، وأنا له فى هذا الموضع أردّ كل عدوّ يأتيه من نواحى الغرب ، ولا أقدر على المصير إليه لخوفى منه، فليقرّنى الملك بحالى كأحد عمّاله وأوجه إليــه ما يلزمنى من الخراج والهــدايا . ووجه إليه بأموال جليلة وجوهر نفيس . فلمــا رأى ذلك كفّ عنــه . وأقام الوليد بمصر فآستعبد أهلها وآستباح حريمهم وأموالهم . وملكهم مائة وعشرين ســنة فأبغضوه وسئموا أيامه . وآتفق أنه ركب فى بعض الأيام إلى الصيد فألقاه فرســه فى وهدة فهلك . وكان آبنــه الريان يُنكر عليــه فعلَه ولا يرضاه . فلما هلك عمل له ناووسا قرب الأهرام . وقيل : بل دفن فى الهرم .

---

(١) الظهر : الركاب التى تحمل الأثقال فى السفر، لحملها إياها على ظهرها .

١٩/١٣

ثم ملك بعده ابنه الريان بن الوليد بن دومع، وهو فرعون يوسف عليه السلام، والقبط تسميه نهراوش[(١)]، وجلس على سرير الملك. وكان عظيم الخَلْق، جميل الوجه، عاقلا متمكنا؛ فتكلم ومنَّى الناس وضمِن لهم الإحسان وأسقط عنهم الخراج ثلاث سنين، فأثنوا عليه وشكروه، وأمر بفتح الخزائن وفرّق ما فيها على الخاصّ والعامّ، وتمكنت منه أرْيحيّة الصِّبا فملَّك على الرعية رجلا من أهل بيته يقال له أطفين، وقيل فى اسمه: قطفير، وقيل: قوطيفر، وهو الذى يسميه أهل الأثر العزيز. وكان من أولاد الوزراء. وكان عاقلا أديبا متمكنا صائب الرأى كثير النزاهة مستعملا للعدل والعِمارة والإصلاح. وأمر الريان أن يُنصب له فى قصر الملك سرير من الفضة يجلس عليه ويغدو ويروح إلى باب الملك، ويخرج بجميع الوزراء والعمال والكتّاب بين يديه؛ فكفى الريّانَ ما خلف سريره[(٢)] وقام بجميع أمره وأخلاه للذّاته؛ فأقام الريان منعكفا على قصفه ولهوه منغمسا فى لذّته لا ينظر فى عمل ولا يظهر للناس ولا يخاطبهم، فأقاموا بذلك حينا. هذا والبلد عامر.

وبلغ الخراج فى وقته سبعة وتسعين ألف ألف مثقال فجعلها أقساما، فما كان للملك وأسبابه وموائده حُمل إليه، وما كان فى أرزاق الجيش والكهنة والفلاسفة وأصحاب الصنائع ومصالح البلد وأهل المهنة صُرف إليهم، والملك مع ذلك غير سائل عن شىء؛ قد عُملت له مجالسُ من الزجاج الملوّن وأُجْرِىَ حولها الماء وأرسِلت فيها الأسماك المقرّطة، فكانت الشمس إذا وقعت على المجلس منها أرسل شعاعا عجيبا يبهَر العيون. وعملت له عدّة متنزهات على عدد أيام السنة، فكان كل يوم فى موضع منها، وفى كل موضع منها من الفرش والآنية والآلات ما ليس فى غيره.

---

(١) هو أحد العمالقة، وكان أقوى أهل الأرض فى زمانه وأعظم ملكا. والعمالقة: ولد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح (راجع المقريزى). (٢) فى المقريزى: «ما خلف ستره».

فلما اتصل بملوك النواحى تشاغلُ الريان بلذاته وتدبير العـزيز لأمره، قصده رجل من العمالقة يقال له عاكن بن بيحوم وكنيته أبوقابوس، وقصد مصر حتى نزل على حدودها، فأنفذ إليه العزيز جيشا كثيفا وجعل عليه قائدا يقال له بريانس، فأقام ثلاث سنين يحاربه، ثم ظفر به العمليق ودخل من الحدود وهدم أعلاما ومصانع كثيرة، وتمكن طمعه فى البلد فأعظم أهلُ مصر ذلك وآجتمعوا إلى قصر الملك وجعلوا يصيحون و يستغيثون و يرفعون أصواتهم حتى سمعها الملك فقال : مابال الناس؟ فأُخبر خبر العمليق وأنه قد دخل عَمَلَ مصر وعاث وأفسد المزارع والمصانع والأعلام، وأنه سار بجيشه إلى قصر الملك، فآرتاع الريان لذلك وأنف منـه وآنتبه من غفلته وعرض جيوشه وأصلح أمره وخرج فى سمائة ألف مقاتل سوى الأتباع، فالتقَوْا من وراء الأحواف فى تلك الصحراء، واقتتلوا قتالا شديدا فآنهزم العمليق وآتبعه الريان إلى حدود الشام وقتـل من أصحابه خلقـا وأفسد زرعهم وأكثر أشجـار الفواكه والزيتون، وأحرق وصلب ونصب أعلاما على الموضع الذى بلغه وزبر عليها : إنى لِمَن يجاوز هذا المكان بالمرصاد . فلما تمّ له هذا الظفر هابته الملوك ولاطفوه وأعظموه . وقيل : إنه بلغ الموصل وضرب على الشام خراجا وبنى عند العريش مدينة لطيفة وشحنها هى وتلك الناحية بالرجال، ورجع إلى مصر فحشد جنوده من جميع الأعمال، وآستعدّ لغزو ملوك الغرب فخرج فى تسعمائة ألف واتصل بالملوك خبره، فمنهم من تنحّى عن طريقه، ومنهم من دخل تحت طاعته . ومرّ بأرض البربر فأجلى كثيرا منهم، ووجه قائدا يقال له مريطس فى سفن فركب البحر من ناحية رقودة . ومرّ الريان بجزائر بنى يافث فعاث فيها وآصطلم[1] أهلها ،وخرج من ناحية أرض البربر فقتل بعضهم وصالح بعضهم وحملوا إليـه الأموال ، ومضى إلى إفريقية وقرطاجنّة فصالحوه على أموال

(١) اصطلم أهلها : استأصلهم .

وألطاف كثيرة حملوها إليه، ومرّ حتى بلغ مصبّ البحر الأخضر[(١)] وهو موضع الأصنام النحاس، فأقام هناك صنما وزبر عليه اسمه وتاريخَ الوقت الذى خرج فيه، وضرب على أهل تلك النواحى خراجا، وعدّى إلى الأرض الكبيرة وصار فى الإفرنجة، والأندلس فى حوزهم وعليها لذريق الأصغر، فحاربه أياما وقتل من أصحابه خلقا وصالحه بعد ذلك على ذهب مضروب، وعلى ألا يغزوَ مصر ويمنع من رام ذلك من جميع أهل النواحى، وانصرف مشرّقا فشقّ بلد البربر فلم يمر بموضع إلا خرج أهله بين يديه وأهدوا له ودخلوا تحت طاعته. ثم أخذ نحو الجنوب ومر ببلد الكوسانيين فحاربوه فقتل خلقا كثيرا، وبعث قائدا إلى مدينة على عبر البحر الأخضر[(٢)] فخرج إليه ملك المدينة وأهلُها فعرّفهم حال الريان ومصالحة الملوك له فقالوا: ما بلغنا أحد قط، وسألهم هل ركب هذا البحر أحدٌ؟ فقالوا: ما يستطيع أحد أن يركبه، وأخبروه أنه ربما أظله الغمام فلا يرونه أياما، وأتى الريان فتلقّوه بهدايا وفاكهة أكثرها الموز، وحجارة سود فإذا جعلت فى المـاء صارت بيضاء، ثم تركهم وسار إلى أمم السودان حتى بلغ ملك الدمدم[(٣)] الذين يأكلون الناس، فخرجوا إليه عُراة بأيديهم العمد الحديد، وخرج ملكهم على دابة وهو عظيم الخلق له قرون، وكان جسيما أحمر العينين، فظفر بهم فانهزموا إلى أوحال وأدغال فلم يتهيأ له اتباعهم فيها، وجازهم إلى قوم على خلق القرود لهم أجنحة صغار يثبون بها من غير ريش. ومرّ على عبر البحر المظلم فغشيهم منه غمام فرجع شمالا حتى انتهى إلى جبل يقال له وسن، فرأى فوقه تمثالا من حجر أحمر يومى

---

(١) راجع الحاشية رقم ١ ص ٩٦ من هذا الجزء.

(٢) فى المقريزى «على البحر الأسود».

(٣) كذا فى الأصل. وفى مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى (ج ١ ص ٤٩) «تمم» وكتب بالهامش ما نصه: «ولعلها نمنم».

بيده : إرجعوا ، وعلى صدره مزبور: ما ورائى أحد . فتركه وسار راجعا فانتهى إلى مدينة النحاس فلم يصل إليهـا . ومضى حتى بلغ الوادىَ المظلم فكانوا يسمعون منه جلبة عظيمة ولا يَرَوْن أحدا لشدّة ظلمته . وسار حتى آنتهى إلى وادى الرمل ورأى على عَبْره [1] أصناما عليها أسماء الملوك قبله فأقام معها صنما وزبر عليها آسمه . فلما أسبت الرمل جاز عليه إلى الخراب المتصل بالبحر الأسود، وسمع جلبة وصياحا هائلا فخرج فى شجعان أصحابه حتى أشرف على السباع المقرنة الأنوف، فإذا بعضها تهِرّ وتأكل بعضها بعضا ، فعلم أنه لا مذهب له من ورائها فرجع ، وعدّى وادىَ الرمـل ومرّ بأرض العقارب فهلَكَ بعض أصحابه ورفعوها عنهم بالرُّقَى التى يعرفونها ،ثم جاوزهم حتى آنتهى إلى مكان صلوفة وهى حيــة عظيمة، فهجموا عليها ولم يعرفوها وظنوا أنها جبل، ثم عرجوا عنها وتعوّذوا منها بالرُّقَى . قال : ويزعم القبط أنه منعها من الحركة بسحره وتركها فهلَكت . وقيل : إن تعريجَ هذه الحية مِيلٌ وأنها كانت تبتلع السباع هناك .

وسار حتى بلغ مدينة الكند [2]، وهى مدينة الحكماء، فتهاربوا منه إلى جبل صَعِدوه من مواضع يعرفونها من داخل مدينتهم لم يعرفها غيرهم ، ولم يجد الريان ومن معـه إلى الصعود إليها سبيلا ، فأقاموا عليهـا أياما وكادوا يهلكون من العطش ، فنزل إليهم من الجبل رجل يقال له مندوس ، كان من أفاضل الحكماء وقـد لبس شعرُه جسدَه، فقال: أين تريد أيها المغرور الممدود له فى الأجل! المرزوق الكفاية! أتعبت نفسك وجيشك! ألا اقتنعت بما تملكه وآتكلت على خالقك [وربحت الراحة [3]] وتركت العناء والغرور بهذا الخلق. فعجب الملك من قوله وسأله عن الماء فدلّه عليه، وسأله عن

(١) أسبت هنا : سكن ولم يتحرك .

(٢) فى هامش خطط المقريزى طبعة فييت : «الكهنة» .

(٣) التكملة من المقريزى .

موضعهم فقال : موضع لا يصل إليه احد ولا بلغه قبلك أحد . قال : فما عيشكم؟ قال : من أصول نبات لنا نعتصم به ونقنع بأكله ويكفينا اليسير . قال : فمن أين تشربون؟ قال : من نِقار المـاء من الأمطار . قال : فلِمَ هربتم منا ؟ قال : رغبة عن خلطتكم وإلا فليس لنـا ما نخاف عليه . قال : فكيف تكونون إذا حَمِيت عليكم الشمس؟ قال : فى غِيرَانٍ تحت هذه الجبال . قال : فهل تحتاجون إلى مال أخلفه لكم؟ قال : إنمـا يريد المالَ أهلُ البذخ ونحن لا نستعمل منه شيئا ، آستغنينا عنه بمـا قد اكتفينا به ، وعندنا منه مالو رأيتَه لحقَّرت ما عندك . قال : فأَرِنيه ، فانطلق به مع نفـر من أصحابه إلى أرض فى سفح جبلهم فيها قضبان الذهب نابتة ، وأراهم واديا حافتاه حجارة الزبرجد والفيروذج ، فأمر الرّيان أصحابه أن يأخذوا من كِبار تلك الحجـارة ففعلوا ؛ ورآهم الحكيم يصلّون إلى صنم يحملونه معهم ، فسألهم ألا يقيموا بأرضهم خوفا من عبادة الأصنام ؛ فسأله الملك أن يدله على الطريق ففعل ، وودّع الحكيمَ وسار على السمت الذى وصفه له . فـلم يمر بأُمة إلا أبادها وأثرفيها إلى أن بلغ بلدَ النوبة ، فصالح أهلها على مال يحملونه إليه ، ثم أتى دُنْقُلَةَ فأقام بها عَلَما وزبر عليه آسمه ومسيره . ومرّ يريد منف ؛ فكان أهل كل مدينة من مدائن مصر يتلقَّوْنه بالفرح والسرور والطيب والرياحين والملاهى إلى أن بلغ منف ، فـلم يبق أحد من أهلها إلا خرج إليه مع العزيز وتلقَّوْه بأصناف الطيب والبخورات والرياحين .

وكان العزيز قد بنى له مجلسا من الزجاج الملوّن وفرشه بأحسن الفُرُش المذهبة ، وغرس حوله جميـع الأشجار والرياحين ، وجعل فيـه صِهْريجا من زجاج سمائى ، وجعل فى أرضه شبه السمك من زجاج أبيضَ وأنزله فيـه ، وأقام الناس يأكلون ويشربون أياما كثيرة . وأمر بعرض جيشه فوجد أنه قد فُقِد منهم سبعون ألفا ، وكان قد خرج فى ألف ألف ، ووجد من آنضاف إليه من الغرباء والمأسورين نيّفا

وخمسين ألفا، وكان مسيره وغيبته إحدى وعشرين سنة . فلما سمع الملوك بذكره وما فتح من البلاد وما أسر هابوه، وخافوا شدّة بأسه وعظم سلطانه . وتجبّر وبنى بالجانب الشرقى قصورا من الرخام ونصب عليها أعلاما، فكان يقيم بها الأيام الكثيرة . وكان الخراج قد بلغ فى وقته سبعة وتسعين ألف ألف فأحبّ أن يتمه مائة ألف ألف دينار، فأمر بوجوه العمارات و إصلاح الجسور والزيادة فى آستنباط الأراضى حتى بلغ ذلك وزاد عليه .

ثم كان من خبر يوسف الصديق عليه السلام و بيعه بمصر وخبره مع آمرأة العزيز وسجنه وقصته مع صاحبي الملك ورؤيا الملك وتعبيرها وتولية الريان بن الوليد يوسفَ عليه السلام رتبةَ العزيز وخبرِ القحط، ماقدّمنا ذكره فى أخبار يوسف عليه السلام، وهو فى السفر الحادى عشر[1] من نسخة الأصل . فلا فائدة فى إعادته . إلا أنه قد وردت زيادات أخرُ لم ترد هناك نحن نذكرها الآن . وهو ما حكاه مؤلف هذا الكتاب الذى نقلنا منه إبراهيمُ بن القاسم الكاتب عن إبراهيم بن وصيف شاه قال: إن يعقوب عليه السلام لما قدم مصر بأهله وولده، خرج يوسف عليه السلام فى وجوه أهل مصر فتلقاه وأدخله على الملك ؛ وكان يعقوب عليه السلام مَهيبا جميلا فقربه الملك وعظّمه وقال له : يا شيخ، كم سنوك وما صناعتك وما تعبد ؟ فقال : أما سنّى فعشرون ومائة سنة ، وأما صناعتى فانا غنم نرعاها وننتفع بها ، وأما الذى أعبد فربُّ العالمين، وهو الذى خلقنى وخلقك ، وهو إله آبائى و إلهك و إله كل شيء .

قال : وكان فى مجلس الملك فنيامين، وهو كاهن جليل القدر، فلما سمع كلامَ يعقوب ضاق به ذرعا وقال للملك بلغتهم : أخاف أن يكون خرابُ مصر على يد ولد هذا.

---

(١) راجع (ج ١٣ ص ١٣٠ — ١٥٦ من هذه الطبعة) .

فقال له الملك : فأنّى لنا[1] خبره ؟ فقال الكاهن : أرنا إلهك أيها الشيخ . قال : إلٰهى أعظم من أن يُرى . قال : فإنا نحن نرى آلهتنا . قال : لأن آلهتكم ذهبٌ وفضة ونحاس وخشب ، وما يعمله بنو آدم عبيدُ إلٰهى الذى آحتجب عن خلقه بعزّ ربوبيته، لا إله إلا هو العزيز الحكيم . قال له فنيامين : إن لكل شىء دليلا، وكل شىء لا تراه العيون فليس بشىء ، فغضب يعقوب وقال : كذبتَ يا عدوّ الله وطغيت فى هذه الدنيا؛ إن الله سبحانه وتعالى شىءٌ وليس كالأشياء، وهو خالق كل شىء لا إله إلا هو . قال : فصفه لنا . قال : إنما يوصف المخلوقون ولا يوصف الخالق عز وجل؛ لأنه يرتفع عن الصفات؛ لأنه واحد قديم مدبّر للأشياء فى كل مكان يَرَى ولا يُرَى . ثم قام يعقوب مُغْضَباً، فأجلسه الملك وأمر فنيامينَ أن يكفّ عنه و يكونَ بين يديه و يأخذَ فى غير هذا . ثم قال الملك : كم عدّةُ من دخل معك إلى مصر؟ قال ستّون رجلا . قال الكاهن : كذلك نجده فى كتبنا؛ إن خراب مصر يجرى على أيديهم . قال الملك : فهل يكون فى أيامنا؟ قال : لا، ولا إلى مدّة كبيرة . والصواب أن يقتله الملك ولا يستبقى من ذرّيته أحدا . قال الملك : إن كان الأمر كما تقول فما يمكننا أن ندفعَه ولا نقتلَ هؤلاء، و إن لهم إلٰها عظيما، وقد قبل قلبى هذا الشيخَ، وما لى إلى قتله من سبيل، فخاطبه بألين الكلام ؛ فجرت بينهما بعد ذلك مخاطبات ألان له فيها القول .

قال : ثم إن يعقوب عليه السلام أحبّ أن يعرفَ خبرَ مصر ومدائنها وكيف بُنيت وخبرَ طِلّسماتها وعجائبها . فسأله عن ذلك وسأله بحقّ الملك ألا يكتمه شيئا من أمرها فأخبره . قال : وأقام يعقوب عليه السلام مع الريان بن الوليد الملك يعظّمه و يبجّله إلى أن حضرته الوفاة، فأوصى أن يُحمل إلى مكانه من الشأم، فحُمِل فى تابوت

(١) كذا فى خطط المقريزى، وفى الأصل «أين» .

وخرج معه يوسف عليه السلام ووجوه مصر حتى بلغ الى موضعه ورجعوا . وقيل : إن عيصو منعهم من دفنه هناك لأن إسحاق عليه السلام كان قد وهبه الموضعَ فآشتراه يوسف عليه السلام منه . ويقال : إن الريان آمن بيوسف وكتم إيمانه خوفا من فساد ملكه .

وملك الريان مائة وعشرين سنة . وفى وقته عَمِل يوسف عليه السلام الفيوم لآبنة الملك، وكان أهل مصر قد وَشَوْا به وقالوا : قد كَبِر ونقص نفعه فآختبره . فقال له الملك : قد وهبتُ هذه الناحيةَ لآبنتى ، وكانت مغايضَ للماء فدبِّرها . قال : فقلع أدغالها ، وساق المنهى[1] ، وبنى اللاّهون[2]، وجعل الماء فيه مقسوما موزونا، وفرغ من ذلك كله فى أربعة أشهر، فعجبوا من حكمة يوسف عليه السلام .

قال : ولما مات الريان بن الوليد ملك بعده آبنه دريموس[3] بن الريان ابن الوليد ويسميه أهل الأثر دارم، وهو الفرعون الرابع عندهم . قال : ولما ملك خالف سنّة أبيه ، وكان يوسف عليه السلام خليفتَه كما كان مع أبيه، وذلك بأمر الريان. وكان يوسف يسدّده فربما قبل منه وربما خالفه، وظهر فى وقته معدن فضة على ثلاثة أيام من النيل فأبانَ[4] منه شيئا عظيما، وعمل منه صنما على آسم القمر ؛ لأن طالعه كان بالسرطان، ونصبه على القصر الرخام الذى كان أبوه بناه فى شرقى النيل، ونصب حوله أصناما كلّها من الفضة وألبسها الحريرَ الأحمر، وعمل لها عيدا فى كل سنة[5]، وهو إذا نزل القمرُ السرطان .

(١) المنهى : اسم فم النهر الذى احتفره يوسف الصديق يفضى الى الفيوم مأخذه من النيل .
(٢) اللاهون : هو السِّكْر الذى بناه لردّ الماء الى الفيوم .
(٣) كذا فى نسخة «ب» والمقريزى . وفى نسخة «ا» ديموش بالشين المعجمة .
(٤) أبان : فصل .
(٥) كذا فى نسخة ا . وفى نسخة ب «شهر» .

وكان يتنقّل الى مواضع شتّى يتنزّه فيها ، وإذا أراد أن يضرّ الناسَ بشيء منعه يوسفُ عليه السلام ودفعه عنــه الى أن تُوفِّى يوسف عليه السلام، كما تقدّم فى خبر وفاته، فاستوزر الملك دارمُ بعده بلاطسَ بن مذسا الكاهن، فكان بلاطس يُطلِق له ما كان يوسف يمنعه عنه، وحمله على أذى الناس وأخْذ أموالهم فبلغ منهم كل مبلغ. وعمــل الوادى المنحوت بين الجبلين فى الناحية الغربيــة وكنز الأموال فلا يُوصل ٥ إليها، وجعل صقالة من الوادى الى باب الخباء، وجعل له بابا من الحديد يُتوصّل إليه من تلك الصقالة، وصمده بجماعة من العفاريت يمنعون من ذلك الخبــاء، فمن رامه من الناس سقط فى الوادى . وقال آخرون : كنزها فى موضع منه يُدخَل إليه ويُنظر الى الأموال مكشوفةً مضروبةً، فى كل دينار عشرة مثاقيل عليها صورته ، فإن أخذ الداخل منهــا شيئا انطبق عليه الباب فلم يقدر على الخروج، فإذا ردّه الى ١٠ موضعه انفتح له الباب . وهو بحاله الى هذا الوقت كما زعموا .

قال : ثم زاد دارمُ فى التجبّر الى أن آختلع كلَّ آمرأة جميلة بمدينــة منف من أهلها، ولا يسمع بآمرأة حسناء فى ناحية من النواحى إلا وجّه فحُملت إليه. وفشا ذلك فى المملكة واضطرب الناس من فعله وشقّ عليهم أمره الى أن شَغَبُوا عليــه وعطّلوا الصنائع والأعمال والأسواق فعــدا على جماعة منهم فقتلهم . وزاد الأمر ١٥ حتى اجتمعوا على خلعه ، فخاف بلاطس الوزير أن يَفْسُدَ أمر المملكة فدخل على الملك وأشار عليه أن يتودّد الى الناس ويعتذر إليهم ويردّ نساءهم فأبى إلا مخالفتَه، ٢٣/١٣ وهمّ أن يخرج الى الناس فى خاصّته ويقتــلَ منهم وقال : إنمـا هم عبيدى وعبيد آبائى . فلم يزل يرفُق به الى أن سكن غضبه، فأمره أن يعتذر الى الناس عنه، ففعل الوزير ذلك وذكر عنه جميلا، فأبى الناس أن يقبلوا منه دون مخاطبتهم الملك فضَمِن ٢٠ لهم ذلك وخاطبه وأشار به عليه، فأمره أن ينادىَ فى الناس بالحضور فى يوم عيّنه،

ثم لبس أرفعَ ثيابه وأكبر تيجانه وجلس ودخل الناس عليه فذكروا ما حلّ بهم من أخذ أموالهم ، وعرّفوه أنه لم يجـر عليهم من مَلِكٍ قبله مثلُ هـذا ، فاعتذر إليهم ووعدهم الإقلاعَ عما شكوا منه وأسقط عنهم خراج ثلاث سنين .

ثم أمر بعمل قصر من خشب على أساطين خشب ممدودة بأضلاع مسمّرة يتنزّه فيه ، فعُمل ودُهن بالأدهان والأصباغ الملوّنة المذهبة ، وضُبِّب بالفضة والنحاس المذهب ، وعَمِل فوقه قبة من الفضة المذهبة مصوّرةً بالزجاج الملوّن وعلّق فيها الحجر المضيء الذى أتى به أبوه من المغرب . فلما فرغ القصر فرشه بأحسن الفرش وجعله طبقتين : طبقة له يجلس فيها مع من يحبّه ، وطبقة لحشمه ، وجعل حول ذلك أرْوِقة ملصقة بالمجلس يجلس فيها من يريد ؛ فكان يركب فيه بمن أحبّه من خاصته ونسائه ويُصعِّد فيه فى المـاء إلى ناحية الصعيد وتتبعه المراكب فيها أصحابه وغلمانه بالعُدد والسلاح وينحدر إلى أسفل الأرض ، فإذا مرّ بمكان يستحسنه أقام فيه أياما .

وآتفق أنه خرج فى بعض الأيام مُصَعِّدًا فوثب رجل من الإسرائيليين على رجل من سَدَنَةِ الهياكل فضربه حتى أدماه وعاب دينَ الكهنة ، فغضب القبط لذلك وخاطبوا خليفة الملك أن يُخرِجَهم من مصر فآمتنع دون مشاورة الملك ، وكتب إليه يعرّفه ذلك ، فكتب إليه ألا يُحدِث فى القوم حادثة دون موافاته ، فشَغَبوا وأجمعوا على خلعه وتمليك غيره ، وتعرّض بعضهم الى ذكر الملك فحشد أهلَ الصعيد وآنحدر اليهم ، فحاربوه فهَلَك بينهم خلق كثير . وعاونته آمرأة أبيه ، وكانت ساحرة ، فأظهرت من سحرها وتخاييلها ودُخَنِها ما أعمـاهم عن النظر ، وأضعف حواسهم وأسكرهم ، فقتل خلقا منهم وصلب خلقا على عبر النيل ، ورجع إلى أكثر ممـا كان عليه من ابتزاز النساء ونهب الأموال وآستخدام الأشراف والوجوه من القبط ومن بنى إسرائيل ؛

فأجمع الكل على ذمه . وكانت الساحرة لا تُخلّيه من معونتها الى أن ركب فى ذلك القصر فى بعض الليالى وقد أحدق النيل بالبلد، وهو من الجبل الى الجبل، وامتدّ القمر على الماء ، فأراد أن يعدّى من العُدوة الى العدوة الأخرى فلم يتهيأ له سَوْقُ القصر بسرعة لعظمه ، فركب مركبا لطيفا مع ثلاثة من خدمه والساحرة ، فلما توسّط البحرَ هاجت ريح عاصف فغرق هو ومن معه، وأصبح الناس شاكّين فى أمره لا يعلمون ما نزل به ،الى أن وُجدت جثته بشَطّنوف[1] فعُرِف بخاتمه وبجوهر كان يتقلّد به فحُمل الى منف .

وملك بعده آبنه معاديوس بن دريموس ؛ ويسميه أهل الأثر معدان آبن دارم ، وهو الفرعون الخامس . وذلك بتدبير الوزير ؛ فأجلسه على سرير الملك وبايعه الجيش ، وكان صبيا فكرهه الناس ثم رَضُوا به ، فأسقط عن الناس الخراج الذى كان أبوه أسقطه ، وزادهم سنة وأحسن إليهم فأطاعوه؛ وآستقام له الأمر وردّ نساءهم . وكان ينكر على أبيه فعله ولا يرضاه ؛ فلذلك رضُوا به .

قال : وفى زمانه كان طوفانٌ أضرّ ببعض البلد فلزم الملك الإقبال على الهياكل والتعبد ، وطلب القاطر ووجوه الكهنة بالحضور معه، وأنصف بعضَ الناس من بعض . وكثر بنو إسرائيل وعابوا الأصنام وثلبوها . وكان الوزير قد هلك فآستوزر كاهنا يقال له املاده ، فلما رأى ما فعله بنو إسرائيل أنكره وأمر أن يُفردوا بناحية من البلد لا يختلط بهم أحد غيرهم ، فأقطعهم موضعا فى قبلىّ منف، واجتمعوا إليه وعملوا لأنفسهم معبدا كانوا يتلون فيه صحف إبراهيم عليه السلام ، وآتفق أن رجلا من أهل بيت الكهنة عشق امرأة من بنى إسرائيل كانت قد جاءته

٢٤/١٣

(١) شطنوف : بلدة — مركز أشمون — مديرية المنوفية .

لتشتكى أخاها أنه غصبها ميراثها، وأرادت أن يعتنىَ بأمرها عند وزير الملك، فرآها ابنه فأحبها وسأل والده أن يزوّجه منها ، فخطبها من أهلها فأبوا ذلك ، فأنكر الناس فعلهم واجتمعوا الى الوزير وقالوا : هؤلاء قوم يَعيبوننا ويرغبون عنّا، ولا نحب أن يجاورونا إلا أن يَدينوا بديننا . فقال الوزير : قد علمتم إكرام الريان الملك لجدّهم يوسف عليه السلام ، وقد وقفتم على بركة جدّهم يوسف عليه السلام حتى جعلتم قبره وسط النيل فأخصب جانبا مصر بمكانه فلا تخوضوا فى هذا، فأمسكوا .

قال : وتغلّب أحد ملوك الكنعانيين على الشام وامتنع أهله أن يحملوا الضريبة التى كانت عليهم لملك مصر ، فأنكر أهل مصر ذلك وأشفقوا من غلبة صاحب الشام على بلدهم ، فحضّوا الملك على غزو الشام فقال : إن رام أحد حدود بلدنا غزوناه ، وما لنا فى ذلك البلد من حاجة؛ فاستنقصوا رأيه . وأقام على ملازمة الهياكل والتعبّد فيها ؛ فيزعم القبط أنه بينا ذات يوم قائم فى هيكل زُحَل حذاء صورته ، وقد أجهد نفسه فى التعبد، إذ تغشّاه النوم فتجلّى له زحل وخاطبه وقال : قد جعلتك ربًّا على أهلك وأهل بلدك، وحبوتك بالقدرة عليهم وعلى غيرهم، وسأرفعك إلىّ فلا تخل من ذكرى ؛ فعظُم عند نفسه ، واتصل خبره بأهل البلد ، وأخبرهم سَدَنةُ الهيكل أنهم رأوا النور وسمعوا الخطاب، وأعظم الناس أمره، فتجبّر فى نفسه وأمر الناس أن يسمّوه ربًّا ، وترفّع أن ينظر فى شىء من أمر المُلك، وأحضر الناس وقال : قد وقفتم على ما خُصِصت به دون الملوك ، وهذه مَوْهبة يلزمنى الشكر لواهبها عليها، ولست أتفرّغ للنظر فى أموركم ، وقد رأيت أن أجعل المُلك إلى ابنى أكسامس، وأكون من ورائه إلى أن يغيب شخصى عنكم كما وُعِدْتُ، وقد أيدته بالقاطرين، فانظروا كيف تكونون، ولا تتظالموا فإنكم منى بمرأى ومسمع ،

فرضُـوا بذلك وقالوا : نحن عبيد الملك ومن رضيته الآلهة لحكم الخلق أن يَرْضوه ولا يخالفونه .

فملك ابنـه أكسامس بن معـاديوس ؛ ويسميه أهل الأثر كاسم آبن معـدان ، وهو الفرعون السادس ، وجلس على سرير الملك وتُوّج بتاج أبيه وقام القاطرون بين يديه ، فجعل لكل واحد منهم رتبةً ، ورتّب النـاس مراتب ، ٥ وقسم الكُوَر والأعمال ، وأمر باستنباط العمارات و إظهار الصناعات ، ووسع على النـاس فى أرزاقهم وعلى حاشيته وحاشية أبيـه ، وأمر بتنظيف الهياكل وتجديد لباسها وأوانيها ، وزاد فى القرابين ؛ وكلمـا أتى شيئا من ذلك لم تخالفـه الكهنة وقدّروا أن ذلك عن أمر أبيه برضى الكواكب ، وآحتجب أبوه عن الناس . وأقام كاسم أعلاما كثيرة حول منف وجعل عليها أساطين يُمَرُّ عليها من بعضها إلى بعض . ١٠ وعمل برقُودة وصا ومدائن الصعيد وأسفل الأرض مدنا كثيرة وأعلاما ومنائر للوقود والطلّسمات . وعمـل كُرَةً من الفضة على عمـل البيضة الفلكية ونقش عليها صور الكواكب الثابتـة ودهنها بدُهن الصينى وركّبها على منار فى وسط منف . وعمل فى هيكل أبيـه روحانىَّ زُحَل من ذهب أسودَ مدبَّر . وعمل فى وقته الميزان الذى يعتبر به الناس ، وجعلت كِفّتاه من ذهب وعلائقه من فِضة وخيوطه سلاسل ذهب ، ١٥ وكان معلقا فى هيكل الشمس ، وكتب على إحدى كِفّتيه حقّ ، والأخرى باطل ، وتحتـه فصوص قد نقش عليها أسمـاء كل شىء من الكواكب ؛ فيـدخل الظالم والمظلوم ويأخذ كل واحد منهما فصّا من تلك الفصوص ويسمى عليها ما يريد ، ويجعل أحد الفصين فى كفّـة والآخر فى الأخرى ، فتثقل كفة الظالم وترتفع كفة المظلوم . وكذلك من أراد سفرا أخذ فصين فذكر على واحد آسم السـفر ، والآخر ٢٠ اسم الجلوس ، ويجعل كل واحد فى كفة ، فإن لم يرتفع أحدهما على الآخر جلس ،

وإن ارتفعا خرج ، وإن ارتفع أحدهما مكث شهرا ، ومن نحو هـذا من غائب ودين وفساد وصلاح . ويقال إن بُخْتَنَصَّر لما ظَفِر بمصر حمله فى جملة ما حمل الى بابل وجعله فى بيت من بيوت النار .

قال : وطالب كاسم النـاسَ بلزوم الأعمـال وإظهار الصنائع ، فعُملت كل غريبة منها : التنور الذى يَشوى من غير نار فيـه ، والقدور التى يطبخ فيها من غير نار ، والسكين التى تُنصب فإذا رآها شىء من البهائم أقبـل حتى يذبح نفسه بهـا ، والمـاء الذى يستحيل نارا ، والزجاج الذى يستحيل هواء ، وأشياء من ذلك .

قال : فأقام فى أوّل ولايته ثلاث سنين بأجمل أمر وأصلح حال ، ومات وزير أبيه الذى كان معـه فاستخلف رجلا من أهـل بيت المملكة يقال له طلما ، وكان شجاعا فارسا كاهنا كاتبا حكيما دهيّا متصرّفا فى كل فنّ ، وكانت نفسه تنازعه المُلْكَ فصلُح أمر المملكة بمكانه وأحبه الناس ، فعمل معالم كثيرة وعمر خرابا وبنى مدنا من الجانبين . ورأى فى نجومه أنه ستكون شدّةٌ فاستعمل ما آستعمله نهراوش ، وبنى بناحيـة رقودة والصعيد ملاعب ومصانع . وشـكا القبط اليه حال الإسرائيليين فقال : هم عبيد لكم ، فكان القبطىّ اذا أراد حاجة سخر الإسرائيلى ، وكان القبطىّ يضرب الإسرائيلىَّ فلا يُنكر عليه أحد ، وإن ضرب الإسرائيلىُّ القبطىَّ قُتل ، فكان أوّل من أذى بنى إسرائيل ، ويفعل نساء القبط بنساء بنى إسرائيل ما يفعل الرجال بالرجال من السُّخَر والضرب .

قال : وفى أيام أكسامس بُنيت منارة الإسكندرية . وفى زمانه هاج البحر المـالح فغرّق كثيرا من القـرى والجنان والمصانع . وحكى أن أكسامس تغيّب عن الناس مدّة . وقيل : مات وكتموا موته . وكانت مدّة ملكه إلى أن غاب إحدى وثلاثين سنة ، وأقام طلما إحدى عشرة سـنة يدبّر المملكة ثم اضطرب الناس على

طلما وتغيّروا واتصل بهم أنه قتل الملك بسمّ سقاه إياه فآجتمعوا وقالوا : لا بدّ لنا من النظر إلى الملك ، فعرّفهم أنه قد تخلّى عن الملك وولّى ابنَه لاطس فلم يقبلوا ذلك .

فأمر طلما الجيوش فركبت فى السلاح وأجلس لاطس بن أكسامس على سرير الملك ولبس التاج . وكان جريئا معجَبا فوعد الناس جميلا وقال : أنا مستقيم لكم ما استقمتم ، و إن ملتم عن الواجب ملت عنكم ، وأمر ونهى وألزم الناس أعمالهم ، وحط جماعة من الوجوه عن مراتبهم ، وصرف طلما عن خلافة المملكة وآستخلف رجلا يقال له لاهوق من ولد صا الملك ودفع إليه خاتمه ، وأنفذ طلما عاملا على الصعيد وأنفذ معه جماعة من الإسرائيليين ، وعمل الأعلام وأصلح الهيا كل و بنى قرى كثيرة ، وأُثيرت[1] فى أيامه معادنُ كثيرة وكنوز فى صحراء المشرق ، واستعمل آنية كثيرة من الجوهر الأخضر وأصناف الزجاج . وكان محبّا للحكم ثم تجبّر وعلا ، وأمر ألا يجلس أحد فى مجلسه ولا فى قصر الملك من الكهنة وغيرهم ، بل يقومون على أرجلهم إلى أن ينصرفوا ، و زاد فى أذى الناس والعنف بهم ، ثم منع الناس فُضولَ ما بأيديهم وقصرهم على القوت ، وجمع أموالهم وطلب النساء فانتزع كثيرا منهنّ ، وفعل فى ذلك أكثر من فعل مَنْ تقدّمه من الملوك ، وقهر الناس بالسطوة واستعبد بنى إسرائيل وقتل جماعة من الكهنة فأبغضه الخاص والعام .

وكان طلما لمـا صرفه لاطس عن خلافته وَجَدَ[2] فى نفسه وأضمر الغدر به . فلما خرج إلى الصعيد احتجز الأموال فلم يحملها ، وحال بين الملك و بين المعادن ، وأراد أن يقيم ملكا من ولد قبطريم ويجلسه فى الملك ، فأشار بعض الكهنة على طلما أن يطلب المُلك لنفسه وعرّفه أنه سيكون له حال . فلما شجّعه الكاهن وجرّأه على

(١) أثيرت : من الإثارة ، وهى الإخراج من تحت الأرض .

(٢) وجد بالتحريك : غضب .

ذلك دعا إلى نفسه وكاتب وجوه أهل البلد، فبعض أجابه وبعض توقف، ورفع كل واحد من ولد الملوك رأسه وطمع فى الملك .

قال : وفى بعض كتبهم أن بعض الروحانيين ظهر له وقال : إنى أطيعك إن أطعتنى ، وأقلدك مصر زمانا طويلا ، فأجابه إلى ماسأله وقرّب له أشياء ذكرها له ، منها غلام إسرائيلىّ ؛ فعاونه حينئذ وكان له رسولا الى رؤساء مصر ، فكان يُتصوّر بصور بعضهم ويشير بتمليكه عليهم إلى أن آستقام له الأمر ، قال : ولما منع طلما لاطسَ من مال الصعيد كتب بصرفه عن العمل فأبى أن ينصرف، فوجه اليه قائدا من أهل بيته وقلده مكانه وأمره أن يحمله اليه ، فحاربه وأعانه الروحانىّ فظفر به طلما وآعتقله ثم خلّاه وقرّبه وأدخله فى جملته ، وآتصل الخبر بلاطس فأنفذ اليه قائدا آخر فهزمه طلما وسار فى أثره بجيش كثيف ، وكاتب جميع القوّاد وأهل البلد وبذل لهم الأموال ، وخرج اليه لاطس فحاربه طلما وعاونه الروحانىّ فظفر به طلما وقتله وسار حتى دخل منف وعاش فيها .

وملك طلما بن قومس ؛ ونزل قصر المملكة وجلس على سرير الملك وحاز جميع ما كان فى خزائنهم . قال : وطلما هذا هو آبن قومس، وهو الذى يذكر القبط أنه فرعون موسى عليه السلام . وأهل الأثر يسمونه الوليد بن مصعب وأنه من العمالقة . وذكروا أن الفراعنة سبعة فأوّلهم : طوطيس بن ماليا، ثم الوليد بن دومع ، ثم آبنه الريان بن الوليد ، ثم دريموس بن الريان ، ثم معاديوس بن دريموس ، ثم أكسامس بن معاديوس ، ثم طلما .

قال : وكان طلما فيما زعموا قصيرا . قيل : كان طوله أربعة أشبار ، طويل اللحية ، أشهل العينين ، صغير العين اليسرى ، فى جبينه شامة . ويقولون : إنه

كان أعرج . وزعم قوم أنه من القبط . قال : والدليل على ذلك ميلُه إليهم ونكاحه فيهم ؛ ونسبُ أهل بيته مشهورٌ عندهم .

وقد اختلف الناس فى سبب ملكه وعمن تلقّى الملك ، فقيل ما ذكرناه ، وقيل ما قدّمناه[1] فى قصة موسى بن عمران عليه السلام، والله تعالى أعلم .

قال : ولما جلس طلما على سرير الملك اضطرب الناس عليه فبذل الأموال وأرغب من أطاعه ، وقتل من خالفه ، فاعتدل الأمر له . وكان أوّل ما عَمِل أن رتّب المراتب ، وشيّد الأعلام ، وبنى المدن ، وخندق الخنادق ، وعمل بناحية العريش حصنا ، وكذلك على حدود مصر، وآستخلف هامان ، وكان يَقْرُب منه فى نفسه ونسبه ، فأثار بعض الكنوز وصرفها فى بناء المدن والعمارات ، وحفر خلجانا كثيرة . ويقال : إنه الذى حفر خليج السَّرْدُوس[2] ، وكان كلما عرّجه الى قرية من قرى الحوف حمل إليه أهلها مالا ؛ فاجتمع له من ذلك شىء كثير ، فأمر بردّه على أهله[3] .

(١) راجع (ج ١٣ ص ١٧٥ من هذه الطبعة) .

(٢) ذكر ابن دقاق فى كتاب الانتصار (ج ٥ ص ٤٧) هذا الخليج أثناء كلامه عن مدينة قليوب فقال : « وبها خليج السردوس وهو أحد نزهات الدنيا وهو خليج يسار فيه بين بساتين مشتبكة وأشجار ملتفة وفواكه دانية ... ... الخ » . وورد فى صبح الأعشى (ج ٣ ص ٣٠٤) بعد وصفه لهذا الخليج ما نصه : « قلت : أما الآن فقد ذهب ذلك ، وبطل الخليج وعوّض عنه بحر أبى المنجا » .

(٣) هذا ما رواه ابن وصيف شاه . وذكر المقريزى بعد هذا ما قاله ابن عبد الحكم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه وهو متمم لهذه الرواية ونصه :

« إن فرعون استعمل هامان على حفر خليج سردوس فلما ابتدأ حفره أتاه أهل كل قرية يسألونه أن يجرى الخليج تحت قريتهم و يعطونه مالا . قال : وكان يذهب به الى هذه القرية من نحو الشرق ثم يردّه الى أهل قرية من نحو دبر القبلة ثم يردّه الى قرية فى الغرب ثم يردّه الى أهل قرية فى القبلة و يأخذ من أهل كل قرية مالا حتى اجتمع له من ذلك مائة ألف دينار فأتى بذلك يحمله الى فرعون فسأله عن ذلك فأخبره بما فعل فى حفره ، فقال له فرعون : ويحك ! إنه ينبغى للسيد أن يعطف على عباده و يفيض عليهم ولا يرغب فيما بأيديهم ؛ ردّ على أهل كل قرية ما أخذت منهم . فردّه كله على أهله » (وراجع أيضا فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم ص ٦ طبع أوربا) اه .

وانتهى الخراج فى وقته الى سبعة وتسعين ألف ألف دينار ، وكان يُنزل الناس على مراتبهم . وهو أوّل من عرّف العُرفاء على الناس ، وكان ممن صحبه من الإسرائليين رجل يقال له إمرى ، وهو عمران أبو موسى عليه السلام ، وهو أخو مزاحم لأبويه ، ومزاحم أبو آسية ، فهى ابنة عمّ موسى و بنت خالته ، فجعل فرعون عمران حارسا لقصره يتولى حفظه وفتحه و إغلاقه . وكان رأى فى كهانته أن هلاكه على يد مولود من الإسرائليين ، فمنعهم المناكحة ثلاث سنين؛ لأنه رأى أن ذلك المولودَ يكون فيها . ثم كان من خبر موسى فى حمل أمه به وولادته وغير ذلك من أمره ما قدّمنا(١) ذكره فى قصة موسى عليه السلام فلا فائدة فى إعادته .

وقد نقل أن موسى عليه السلام لمّا كبر عند فرعون عظُم شأنه وردّ فرعون إليه كثيرا من أمره وجعله من قوّاده ، وكانت له سطوة ؛ ثم وجهه فرعون لغزو الكوثانيين ، وكانوا قد عاثوا فى أطراف مصر ، فخرج فى جيش كثيف فرزقه الله عز وجل الظَّفَر ، فقتل منهم خلقا وأسر خلقا وانصرف سالما فسُرّ به فرعون وآسية . قال : واستولى موسى وهو غلام على كثير من أمر فرعون وأراد أن يستخلفه حتى قتل رجلا من أشراف القبط فكان من أمره ما تقدّم ذكره . والله أعلم .

هذا ما أورده إبراهيم فى كتابه ؛ ولم يذكر من أخبار ملوك مصر بعد غرق فرعون شيئا ولا ذكر مَنْ ملك بعده. وقد أشار المسعودى فى مروج الذهب الى نبذة من أخبار مَنْ ملك مصر بعد غرق فرعون نحن نذكرها . وأما سياقة أخباره فيما كان قبل فرعون فهذا الذى ذكرناه أتمّ منه وأكثر استيعابا .

(١) راجع (ج ١٣ ص ١٧٣ — ٢٣٢ من هذه الطبعة) .

ذكر نبذة من أخبار من ملك مصر بعد غرق فرعون

قال أبو الحسن على بن عبد الله المسعودى فى كتابه مروج الذهب[١] ومعادن الجوهر : لما أهلك الله تعالى فرعون وقومه بالغرق خشى من بقى بمصر من الذرارى والنساء والعبيد أن يغزوهم ملوك الشام والمغرب، فملكوا عليهم آمرأة يقال لها دَلُوكة، فبنت على أرض مصر حائطا يحيط بجميع البلاد من حدّ أرض رَفَح الى برقة، وجعلت الحراس على مسافة كل ميل منها يصل أخبار بعضهم الى بعض، فإذا حدث أمر فى أوّل ملكها بليل رُفعت النيران فى وقت حدوثه فعلم فى آخر المملكة بالخبر من ليلته، وإن كان بالنهار دخن . وهذا الحائط موجود الى حين وضْعنا لهذا الكتاب ويسمى حائط العجوز . وقيل فيه : حائط[٢] المجوز . وقيل : إنها بنت هذا الحائط من خوفها على ولدها .

واتخذت دلوكة بمصر البرابىَ وصوّرت فيها الصور، وأحكمت آلات السحر، وجعلت فى البرابى صُوَرَ من يرد فى البر ودوابّهم إبلا كانت أو خيلا ، ومن يرد

(١) راجع (ج ١ ص ١٧١ طبع بلاق) .

(٢) ذكر المؤلف فيما سبق (ج ١ ص ٣٩٢ من هذه الطبعة) ما نصه :

«وهذا الحائط من العريش (وهو حدّ مصر من جهة الشام) الى أسوان (وهى حدّ مصر من جهة النوبة) شاملا للديار المصرية من الجانب الشرقىّ» .

وقد وصف ابن فضل الله العمرى جزءا من هذا السور فى كتابه مسالك الأبصار (ج ١ ص ٢٣٩) فقال :

«وهو حائط يستدير بالديار المصرية، ممتدّا على جانب المزدرع بها، كأنه قد جعل حاجزا بين الرمل والمزدرع . على أنه غير عالى الذرى .

مشيت معه الى دندرا، من الصعيد الأعلى، ورأيته قد دثر غالبه، ومنقطعه أكثر من متصله، وهو مبنىّ من طوب، ليس بعريض السمك ولا عالى الجدار ... ... وأنه يصل الى ما بين العريش ورفح، منتهى الحدّ الفاصل بين مصر وبين الشام . وليس له هناك أثر، بل ولا فى أسافل أرض مصر» .

فى البحر فى المراكب من بلاد الغرب وسواحل الشام، وأحكمت جميع ذلك بحركات فلكيّة . فكان إذا ورد عليها عدوّ من نحو الحجاز واليمن عوّرت تلك الشخوص التى فى البرابى من الإبل وغيرها فيحدث العَوَر فى ذلك الجيش وتَهلِك دوابّهم ، وكذلك كل من يقدُم عليها من البر والبحر اذا بلغها خبر مقدمه صنعت فى تلك الصور مايحدث مثله فى ذلك الجيش من الآفات ، فهابها سائر ملوك الأمم . وخبر هذه المرأة مشهور . وأكثر هذه البرابى باقٍ الى وقتنا هذا وفيها التصاوير إلا أنها لا فعل لها . وقد قيل فى البرابى : إنها اتخذت مع الأهرام قبل الطوفان . والله تعالى أعلم .

وقيل أيضا : إن مما أنشأته هذه المرأة منارة الإسكندرية ، وقد تقدّم ذكر خبرها فى المبانى القديمة وهو فى السفر[1] الأول من كتابنا هذا من هذه النسخة .

قال : وملكت هذه المرأة نحوا من ثلاثين سنة ، وقيل أقل من ذلك .

ولما هلكت دلوكة ملك بعدها دركوس[2] بن بلوطس . ثم ملك بعد ولده بورش[3] . ثم ملك بعده ولده بغاش[4] بن بورش نحوا من خمسين سنة . ثم ملك بعده دنيا[5] ابن بورش نحوا من عشرين سنة . ثم ملك بعده بلوطس عشرين سنة . ثم ملك بعده بلوطس بن متنا كيل[6] أربعين سنة . ثم ملك بعده مالس[7] بن بلوطس . ثم ملك

(١) راجع (ج ١ ص ٣٩٥ من هذه الطبعة) .

(٢) فى المقريزى : « دركون » وفى صبح الأعشى (ج ٣ ص ٤١٦) : « دركون بن بطلوس ، ويقال : دركوس بن ملوطس » .

(٣) فى المقريزى : « بورس » وفى صبح الأعشى : « نودس » .

(٤) فى المقريزى : «لقاس» . (٥) فى المقريزى : « مرينا بن مرينوس » .

(٦) فى المقريزى : « منا كيل » وفى صبح الأعشى : « ميا كيل » .

(٧) فى المقريزى وصبح الأعشى : « مالوس » .

بعده بوليه[1] بن متنا كيل، وكانت له حروب وسِيَرٌ فى الأرض وهو فرعون الأعرج[2] الذى غزا بنى إسرائيل وخرّب بيت المقدس. ثم ملك بعده وينوس بن مرينوس[3] ثمانين سنة . ثم ملك بعده قومس[4] بن بغاس[5] عشر سنين . ثم ملك بعده مكاييل وكانت له حروب مع ملوك الغرب ، وهو الذى غزاه بختنصّر فقتله وقتل رجاله وخرّب أرض مصر، فقيل إنها خربت مدة أربعين سنة . وانقرض ملك الفراعنة . ٥

* * *

٢٨/١٣ وملك الروم أرض مصر فتنصّر أهلها؛ ولم تزل بيد ملوك الروم الى أن ملك كسرى أنو شروان فارسَ فغلبت جيوشه على الشام وسارت نحو مصر، فملك الفرسُ أرضَ مصر، وغلبوا عليها نحوا من عشر سنين . وكانت بين الروم وفارس حروبٌ كثيرة، فصار أهل مصر يؤدّون خراجين: للروم وللفرس، ثم انجلت الفرس ١٠ عن الشام ومصر لأمر حدث فى بلادهم ، فغلبت الروم على مصر والشام وأظهروا النصرانية ، واستمرّ ذلك الى أن جاء الله تعالى بالإسلام . وكان المقوقس ينوب عن ملك الروم، وهادى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم . ولم تزل الديار المصرية

(١) فى المقريزى : «بولة» .

(٢) ورد فى المقريزى (ج ٣ ص ٦٢ طبعة ڤييت) ما نصه : « وقيل له الأعرج لأنه لما غزا ١٥ بيت المقدس ونهبها وسبى ملكها يوشيا بن آمون بن منشا بن حزقيا همّ أن يصعد على كرسىّ نبىّ الله سليمان ابن داود وكان بلولب لايمكن أحدا أن يصعد عليه إلا برجليه جميعا فصعد برجل واحدة وهى اليمنى فدار اللولب على ساقه الأخرى فاندقت، فلم يزل يجمع بها الى أن مات فلذلك سمى الأعرج » .

(٣) فى المقريزى : «مرينوس بن بولة» ثم ذكر أن الذى استخلف بعده ابنه « قرقورة »ومكث ملكه ستين سنة . ثم توفى واستخلف أخاه « نقاس بن مرينوس» . وانهدم البربا فى زمنه فلم يقدر أحد ٢٠ على إصلاحه . ثم توفى نقاس واستخلف ابنه « قوميس بن نقاس... » .

(٤) فى المقريزى : « قوميس » .

(٥) فى المقريزى : « نقاس » . وفى صبح الأعشى : « بغاش » .

والشام بيد ملوك الروم الى أن فُتحت فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه على ما سنورد ذلك إن شاء الله تعالى فى خلافة عمر فى الباب الثانى من القسم الخامس من هذا الفن، وهو فى السفر السابع عشر من هذه النسخة .

قال المسعودى رحمه الله : والذى اتفقت عليه التواريخ ، مع تباين ما فيها ، ٥ فى عدد ملوك مصر الى آخر أيام الفراعنة أنهم آثنان وثلاثون ملكا . قال : فمن ملوك بابل الى آخر أيام آبنة ماموم — يشير الى دليفة — أحد عشر ملكا وملكة . ومن العماليق أربعة ملوك . ومن الفراعنة من لَدُن الوليد بن مصعب فرعون موسى بن عمران عليه السلام، والى أن خرج بختنصّر الفارسىّ على مكاييل وقتله سبعة عشر ملكا بما فى ذلك من مُلْك دَلوكة، وهو إنما يشير الى مَنْ ملكها بعد الطوفان . وأما مَن ١٠ ملكها قبل الطوفان فإنه لم يتعرّض الى ذكرهم . قال : وملكها من الروم سبعة ملوك . ومن اليونان عشرة ملوك . قال : وذلك قبل ظهور المسيح عليه السلام . قال : وملكها أناس من الفرس فكانت مدّة من ملكها من الفراعنة ومن بعدهم والعماليق والفرس والروم واليونان ألفى سنة وثلثمائة سنة . والله أعلم بالصواب .

الباب الثالث

من القسم الرابع من الفن الخامس

فى أخبار ملوك الأمم من الأعاجم ؛ وهم ملوك الفرس الأول، وملوك الطوائف من الفرس، والملوك الساسانية واليونان والسريان والكلوانيين والروم والصقالبة والنوكبرد والإفرنجة والجلالقة وطوائف السودان

ذكر أخبار ملوك الفرس

وهم الفرس الأوّل

وقد اختلف الناس فى الفرس وأنسابهم وكم من دولة كانت لهم . وسنذكر ها هنا مقالاتهم فى ذلك واختلافهم . فمن الناس من زعم أنهم من فارس بن ياسور ابن سام بن نوح، وهذا قول هشام بن محمد . ومنهم من زعم أنهم من ولد يوسف ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام . ومنهم من زعم أنهم من ولد هدرام ابن أرنخشد بن سام بن نوح ، وأنه وُلِد له بضعةُ عشر رجلا كلهم كان فارسا شجاعا ؛ فسمّوا الفرس لفروسيتهم، وفى ذلك يقول حِطّان بن المعلّى الفارسىّ :

وبنا سُمِّىَ الفوارس فُرسا نا ومنّا مناجِبُ الفتيان (١)

وزعم قوم أن الفرس من ولد لوط من آبنتيه رشا ورغوشا . وذكر آخرون أنهم من ولد بوّان بن أران بن الأسود بن سام بن نوح ، ولبوّان هذا ينسب شِعب بوّان وهو أحد متنزّهات الدنيا . وقد تقدّم ذكره فى باب الرياض من الفن الرابع (٢) .

---

(١) فى مروج الذهب للسعودى (ج ١ ص ١١٣ طبع بلاق) (... مناجب الفرسان) وبعد البيت :

وكهول طواهم الركب والكـ * ـر كمثل الكرات يوم الطعان

(٢) راجع (ج ١١ ص ٢٥٧ من هذه الطبعة) .

ومن الناس من يرى أن الفرس من ولد إيران بن أفريدون ، ولا خلاف بين الفرس أجمع أنهم من ولد كيومرث[1] وهو الأشهر ، وإليه يرجع جميع الفرس الأُوَل وملوك الطوائف والملوك الساسانية .

وأما التنازع فى دولهم فمن الناس من زعم أنهم أربعة أصناف ، وأن الصنف الأول منهم كان من كيومرث إلى أفريدون وهم الجرهانية ، وقيل الجهدهانية . والصنف الثانى من كان إلى دارا بن دارا وهم الكيانية . والصنف الثالث ملوك الطوائف . والصنف الرابع الساسانية . ومن الناس من جعلهم صنفين : فجعل الصنف الأول من كيومرث إلى دارا بن دارا . والصنف الثانى من أردشير بن بابك إلى يزدجرد ابن شهريار المقتول فى خلافة عثمان رضى الله عنه . فمدّة ملكهم فى الدولة الأولى ثلاثة آلاف سنة وثلثمائة وستة وعشرون سنة . وعدّة ملوكهم عشرون ملكا فيهم امرأة واحدة .

فأوّل مَلِك مَلَك من الفرس الأُوَل كيومرث وقيل فيه جيومرث .

وقد اختلف فى نسبه ، فمن الناس من قال : إنه ولد آدم[2] لصلبه . ومنهم من قال : إنه ولد لاوذ بن إرم بن سام بن نوح . وقد قيل : إنه أوّل مَلِك مَلَك من بنى آدم . وكان السبب فى ملكه أنه لمّا كثر البغى والظلم فى الناس اجتمع أكابر أهل زمانه ورأوا أنه لا يُقيم أمرَهم إلا ملك يرجعون إليه فيما يأمر وينهى ، فأتوه وقالوا : أنت أكبر أهل زمانك وبقية أبينا ، والناس قد بَغَى بعضهم على بعض ، وأكل القوىّ الضعيف ، فضمّ أمرنا إليك وكن القائم بصلاحنا . فأخذ عليهم العهود والمواثيق بالسمع والطاعة له وترْك الخلاف عليه . فصنعوا له تاجا ووضعوه على رأسه . وهو أوّل من وضع التاج على رأسه . فاستوثق له الأمر وقام

(١) كذا فى مروج الذهب للمسعودى (ج ١ ص ١٠٥ طبع بلاق) وغرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم للثعالبى (ص ٢) . وفى الأصل : « كيوخرت » بالتاء المثناة . (٢) وفى غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم : « وزعم علماء الفرس أن كيومرث هو آدم عليه السلام » .

بأمر الناس وحسُنَت سيرته فيهم . وكانت مدّة ملكه عليهم أربعين سنة . وكان ينزل إصطخر من أرض فارس حتى مات . وآختُلِف فى مقدار عمره ، فقيل : إنه عاش ألف سنة ، وقيل غير ذلك . والله تعالى أعلم .

فلما مات قام بالأمر من بعده أوشهنج ابنه وقيل : أخوه ، وقيل : أوشهنج ابن فيشداد[1] بن كيومرث . وفى الناس من يزعم أنه أوّل مَلِكٍ ملَك من الفرس ، وهو الذى جمع الأقاليم السبعة ، ورتب المُلك ونظّم الأعمال ، ولقّب بفيشداد ، وتفسيره بالعربية أوّل سيرة العدل . ويقال : إن أوشهنج هذا كان بعد الطوفان بمائتى سنة ، وهو أوّل من قطع الحجر وبنى به ، وآستخرج المعادن ، وبنى مدينتى بابل والسوس . وكان فاضلا حسن السياسة محمودَ الأثر . قال : ونزل الهند وتنقّل فى البلاد وعقد التاج وجلس على السرير . وكان من حسن سياسته أنه نفى أهل الفساد والدعارة من البلدان وألجأهم إلى رءوس الجبال وجزائر البحر ، وآستخدم منهم من كان يصلُح للخدمة وسمّاهم الشياطين والعفاريت ، وقرب أهل الخير والصلاح . وكانت مدّة ملكه أربعين سنة .

ولما مات ملك بعده طهمورث[2] وقيل فيه طهورث بن أنوجهان بن أوشهنج ، وقيل بل بينهما عدّة آباء . قال : ولما ملك سار فى الناس سيرة جدّه أوشهنج . وكان ينزل نيسابور . وقيل إنه الذى أنشأها ثم جدّدها بعد ذلك سابور . وقيل : إنه أوّل من كتب بالفارسيّة[3] ونفى أهل الدعارة والشرّ وآستقام له نظام الملك . قيل : وفى أيامه ظهر بوداسف[4] الذى أحدث دينَ الصابئة . وكان ملكه ثمانين سنة . وقيل ثلاثين سنة .

---

(١) فى تاريخ الطبرى (ص ٢٠٧ من القسم الأوّل طبع أوربا) : «أوشهنق بن فرواك» . وفى غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم : « أوشهنج بن سيامك بن كيومرث » .
(٢) كذا فى تاريخ الطبرى (ص ١٧٤ من القسم الأول طبع أوربا) ومروج الذهب للمسعودى وغرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم . وفى الأصل : « طهومرث » .
(٣) فى غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم (ص ١٠٠) : « بالفهلوية » .
(٤) كذا فى الأصول ، وفى الطبرى (ص ١٧٦ من القسم الأول) : «بوداسب» بالباء الموحدة ؛ وفى مروج الذهب (ج ١ ص ١٠٧ طبع بلاق) : « أبوداسف » .

ولما مات ملك بعده أخوه جمشيد[1]، وتفسير شيد : الشعاع ، سمى بذلك لوضاءة وجهه . قال : ولما ملك سلك سيرة من تقدّم وزاد عليها بأن صنّف الناس وطبّقهم ورتّب منازل الكتّاب وأمر لكل واحد وظيفة وأمره أن يلزمها . وعمل أربعة خواتيم : خاتما للحرب والشَّرط[2] وكتب عليه الأناة، وخاتما للخراج وجباية الأموال وكتب عليه العمارة، وخاتما للبريد وكتب عليه الوحا ، وخاتما للمظالم وكتب عليه العدل . فبقيت هذه الرسوم فى ملوك الفرس الى أن جاء الإسلام .

وكان ملكه سمائة سنة . وقيل سبعمائة سنة وستة أشهر . وقيل ألف سنة إلا عشر سنين . وفى أيامه أحدث النيروز[3] وجعله عيدا ، وأمر الناس أن يتنعموا فيه . ثم بدّل سيرته بالجَوْر بعد الإنصاف ، والظلم بعد العدل ، والإساءة بعد الإحسان، فثقُلت وطأته على الناس . ثم أظهر الكِبْر على وزرائه وكتّابه وقواده . ثم آنهمك على لذّاته وترك مراعاة كثير من السياسة الملوكية التى جرت عادة الملك أن يتولّاها بنفسه . وقيل : إنه آدّعى الإلٰهية فخرج عليه بيوراسب ، وكان من جملة عمّاله ، وآستجلب الناس وجمعهم عليه وآستصلحهم لنفسه ، وقصد جمشيد بعد أن كثرت أتباعه وقويت شوكته ، فهرب منه فآتبعه حتى أدركه وظفر به ونشره بمنشار .

وملك بعد جمشيد بيوراسب ، وهو الذى يسمّيه العرب الضحّاك . قالوا : وهو بيوراسب[4] بن أروندا سف بن بغاداس بن طوخ بن قروال بن ساعل بن فرس آبن كيومرث ، وهو الدّهّاك ، فعُرّب اسمه فقيل الضحّاك . وقيل : إنه ملك ألف سنة . وزعم قوم أنه نمروذ . وزعم قوم آخرون أنه كان من عمّال بيوراسب على كثير من أعماله .

(١) راجع معناه فيما تقدّم (ج ١ ص ١٨٥ من هذه الطبعة) . (٢) الشرط هنا : أول كتيبة تشهد الحرب وتتهيأ للموت . (٣) تقدّم الكلام عليه فى الجزء الأوّل (ص ١٨٥ من هذه الطبعة) . (٤) ورد هذا النسب فى مروج الذهب للمسعودى (ج ١ ص ١٠٧ طبع بلاق) باختلاف فى الأسماء .

قال : ولمـا ملك بيوراسب ظهـر منه خبث شـديد وبجور كثير ، وملك الأرض كلها ، فسار فيها بالجَوْر والعَسْف وسَفْك الدماء والصلب ، وهوّل على الناس ومحا سيرة من تقدّمه من الملوك ، وسنّ الأعشار وآتخذ الملاهىَ والغناء . وكان على منكبيه سِلعتان[1] يحـرّكهما إذا شاء كما يحـرك يده ، فآدّعى أنهما حيّتان تهويلا على ضعفاء الناس . وقد تقدّم ذكره فى الباب الرابع من القسم الثالث من الفنّ الأوّل ، وهو فى السـفر الأوّل[2] من نسخة الأصـل فى أخبار أعياد الفرس ، فلا حاجة الى إعادة ما قدّمنا ذكره من أمره .

قال : ولمـا عمّ الناس جَوْره كان من سوء عاقبة ذلك أن ظهر بأصبهان رجل يقال له كابى[3] من عوامّ النـاس . ويقال : إنه كان حدّادا . وكان الضحاك قتـل لكابى آبنين ، فبلغ به الجزع على ولديه مبلغا عظيما ، فقام وأخذ عصا وعلّق عليها جرابا . وقيل : بل علّق النِّطع الذى كان يشدّه على وسطه يتّقى به النار إذا صنع الحدادة . وقيل : بل كان جلد أسد . وقيل : بل جلد نمر ، ودعا الناس إلى مجاهدة بيوراسب ، فحمل الناسَ ما كانوا فيه من البلاء إن آتبعوه وأطاعوه ، فاستفحل أمره ، وكثرت أتباعه ، وآجتمع عليه أشراف النـاس وأكابرهم ؛ فقصد بيوراسب . فلما أشرف عليه هرب عن منازله ، فجاء أشراف النـاس إلى كابى الأصبهانى وآجتمعوا عليه ليملّكوه ، فامتنع من ذلك وقال : إنى لست من بيت الملك ، ولكن التمسوا من هو من بيت الملك فنولّيه علينا . وكان أفريذون[4] بن اثفيان قد استخفى من الضحاك

(١) سلعتان : مثنى سلعة بالكسر ، وهى زيادة تحدث فى الجسـد مثل الغدّة تمور بين الجـلد واللحم إذا ضغطت ، وتكون من قدر حمصة الى بطيخة . (٢) راجع (ج ١ ص ١٨٨ من هذه الطبعة) .

(٣) فى غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم (ص ٣٢) : «كاوة» .

(٤) كذا فى تاريخ الطبرى (ص ٢٠٥ ١ من القسم الأوّل) وغرر أخبار الفرس وسيرهم (ص ٣٥ ١) وخطط المقريزى (ج ٣ ص ١٠٣ طبعة فييت) . وفى الأصل : «أفريدون» بالدال المهملة .

فى بعض النواحى ، فجاء إلى كابى الأصبهانىّ ففرح الناس به وآستبشروا بمقدَمه ،
وكان مرشحا للملك فملّكوه عليهم ، وصار كابى من جملة أعوان أفريذون .

قال : وتفاءل الفرس وتبركوا بذلك العلَم الذى كان قد رفعه كابى الأصبهانى
وعظّموه ورصّعوه بعد ذلك بالجواهر وسمّوه الدِّرَفْس وجعلوه علمهم الأكبر الذى
٥ يتبرّكون به ، وهو الذى صار الى المسلمين فى وقعة القادسيّة[1] . وكانت الفرس
لاينشرونه إلا فى الأمور العظيمة .

قال : ولما هرب بيوراسب ملك بعده أفريذون ، وهو التاسع من ولد
جمشيد . قال : فأوّل مابدأ به أن آتبع بيوراسب فأدركه بدُنْبَاوَنْد[2] وقتله . وفى يوم
قتله أحدث المِهْرجان[3] على ما قدّمناه . قال : ثم ردّ أفريذون مظالم الناس وأمر
١٠ بالإنصاف و بسط العدل ، ونظر الى ما كان بيوراسب قد اغتصبه من أموال الناس
وأملاكهم وأراضيهم ، فردّ ذلك على أهله ، وما لم يجد أهلَه وقفه على المساكين
ومصالح العامة . وكان مؤثرا للعلم وأهله . وكان صاحب طبّ وفلسفة ونجوم .
وزعم بعض الفرس أن بيوراسب الضحاك هو النمروذ ، وأن أفريذون هو إبراهيم
عليه السلام . قال : ودام ملكه خمسمائة سنة . وقال : هو أوّل من تسمى بكَىْ ، ٣١/١٣
١٥ فكان يقال له : كَىْ أفريذون ، وهى كلمة يراد بها التنزيه ؛ أى روحانىّ منزّه متصل
بالروحانية . وهو أوّل من ذلّل الفِيَلة وقاتل بها الأعداء . قال : وكان لأفريذون

---

(١) القادسية : بلدة قرب الكوفة بينها و بين الكوفة خمسة عشر فرسخا ، و بينها و بين العذيب أربعة أميال ؛ وكانت بها وقعة القادسية المعروفة بين المسلمين والفرس فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه سنة ١٦ من الهجرة . وهذه الوقعة من أعظم وقائع المسلمين خيرا و بركة . (٢) دنباوند : جبل من نواحى
٢٠ الرىّ ، وهو جبل عال مشرف شاهق شامخ لا يفارق أعلاه الثلج شتاء ولا صيفا ، ولا يقدر أحد من الناس يعلو ذروته ولا يقاربها ، ويعرف بجبل البيوراسف يراه الناس من مرج القلعة ومن عقبة همذان ، والناظر اليه من الرىّ يظن أنه مشرف عليه ، وأن المسافة بينهما ثلاثة فراسخ أو آثنان ... و بهذا الجبل عيون كبريتية (راجع معجم البلدان لياقوت) . (٣) راجع الجزء الأوّل (ص ١٨٨ من هذه الطبعة) .

ثلاثة أولاد وهم : سَرْم وقيل فيه سلم ، وطوخ (١) ، وإيرج وقيل فيه إيران ؛ فخشى أفريذون ألا يتفقوا بعده وأن يبغىَ بعضهم على بعض ، وظن أنه إذا قسم الملك بينهم فى حياته بقىَ الأمر بعده على انتظام واتساق فقسمه بينهم . فجعل الرومَ والشامَ وناحيةَ المغرب لسرم . وجعل التركَ والصينَ لطوخ . وجعل العراقَ والهندَ لإيرج ، وهو صاحب التاج والسرير . ففى ذلك يقول شاعرهم : ٥

وقَسَمنا ملكنا فى دهرنا * قسمة اللحم على ظهر الوَضَم (٢)

فجعلنا الرومَ والشامَ الى * مغرب الشمس إلى المَلْكِ سَرَمْ

ولطوخ جُعِلَ التُّرْكُ له * فبلادُ الصين يحويها ٱبنُ عم

ولإيرانَ جعلنا عنوة * فارسَ الملك وفزنا بالنعم

فلما مات أفريذون وثب طُوخ وسَرَم بأخيهما إيران فقتلاه وملكا الأرض بينهما ، ولذلك نشأت العداوة بين الترك والروم ، وقامت الحروب ، وطلب بعضهم بعضا بالدماء . فكان من سوء عاقبة غدرهما بأخيهما وتغلبهما على ملكه أن نشأ ٱبن لإيران بن أفريذون يقال له منوجهر ، وقيل ٱسمه منواشجهر ، وقيل فيه منوشهر ، فغلب على ملك أبيه إيران . ١٠

وملك منوجهر بن إيران بلاد فارس ، ثم نشأ ٱبن لطوخ التركى فنفى منوجهر عن بلاده وجرت بينهما حروب ، ثم ظَفِر منوجهر وعاد الى ملكه ، ونفى ولدَ طوخ وقوى أمره وظهر ٱسمه . وكان منوجهر موصوفا بالعدل والإحسان فى مملكته . ويقال : إنه أوّل من خندق الخنادق ، وجمع آلة الحروب ، وأوّل من وضع الدّهقنة (٣) ، وجعل لكل قرية دُهقانا ، وجعل أهلها عبيدا وخَوَلا وألبسهم لباس ١٥

(١) فى تاريخ الطبرى (ص ٢٣٠ من القسم الأوّل) : « طوج » . وفى غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم : « توز » . (٢) الوضم : خشبة الجزار يقطع عليها اللحم . ٢٠

(٣) الدهقنة : مصدر واسم من دهقن ، والدهقان (بالكسر و يضم) هنا : رئيس الإقليم ، معرّب دهخان . (عن محيط المحيط للبستانى) مادة دهقن .

المذلّة . ولمـا قوى أمره سار نحو الترك وطلب بدم أبيه فقتل عمّيه اللذين قتـلا أباه ، وأدرك ثأره وآنصرف الى بلاده .

ثم نشأ فراسياب[(١)] بن ترك من ولد طوخ بن أفريذون و إليه ينسب الترك ، لحارب منوجهر وحاصره بطَبَرِسْتان[(٢)] ، ثم اصطلحا وضربا بينهما حدّا لايجاوزه واحد منهما ، وهو نهر بلخ ، فانقطعت الحرب بين فراسياب ومنوجهر . وكان لمنوجهر هذا خُطَبٌ تدل على سداد رأيه ، ووفور عقله ، وجَوْدة فهمه ، قـد ذكرنا بعضها فى البـاب الرابع[(٣)] من القسم الخامس من الفنّ الثانى فى وصايا الملوك . قال : وفى أيام منوجهر ظهر موسى بن عمران عليه السلام .

قال : ولمـا مات منوجهر تغلّب فراسياب على إقليم بابل آثنتى عشرة سـنة ، وأكثر الفساد ، وخرّب البلاد ، وطمّ الأنهـار ودفن القُنَى ، فقَحِط الناس الى أن ظهر زو بن طهماسب فأخرجه عن بلاد فارس الى تركستان .

وملك زو بن طهماسب وقيل فيه : زاغ ، وقيل فيه : زاب ، وقيل : راسب ، وهو من أولاد منوجهر ، و بينه و بين منوجهر عدّة آباء . قال : ولمـا ملك ابتدأ فى عمارة ما خرّبه فراسـياب ، وأمر ببناء ما هـدم من الحصون ، وحفر الأنهـار والقُنَى ، حتى عادت البلاد إلى أحسن ما كانت عليه ، ووضع عن الناس الخراج

(١) كذا فى نسخة (أ) ومروج الذهب للسعودى (ج ١ ص ١٠٨) . وفى نسخة (ب) وتاريخ الطبرى (ص ٤٣٤ من القسم الأوّل طبع أوربا) : « فراسيات » بالتاء المثناة .

(٢) طبرستان : ناحيـة واسعة الأرجاء ببلاد الفرس بين جرجان والديلم ، على بحـر قزوين الذى يسـمى أيضا باسمها « بحر طبرستان » وأشهر مدنها : آمل ، أو عامل ، والدامغان ، وقومسان (وهى الآن إقليم ما زندان) من مملكة إيران ، فتحها سويد بن مقرّن فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه (راجع معجم الخريطة الإسلامية للرحوم أمين واصف بك) .

(٣) فى الأصـل « الباب الثالث » وما أثبتناه هو ما ورد فى (ج ٦ ص ١٦ من هذه الطبعة) ، وقد راجعنا هذا الباب فلم نجد لتلك الخطب أثرا ، ولعلها سقطت من الأصل .

سبع سنين، فعَمَرت البلاد فى أيامه، ودرّت معايش الناس، واحتفر بالسواد[1] نهرا وسماه الزاب، و بنى على حافتيه مدينــة وهى التى تسمى المدينة العتيقة، وكوّرها كورا، وجعلها ثلاثة طساسيج[2]: الزاب الأعلى، والزاب الأوسط، والزاب الأسفل، ونقل إليها بذور الرياحين، وأصول الأشجار .

٣٢
٣١

وزوّ هــذا أوّل من اتخذ ألوان الطبيخ، وأنواع الأطعمة، وقسم الغنائم على جنوده . وكانت مدّة ملكه ثلاث سنين . ٥

ثم ملك بعده كرشاسب بن أسباس، وأمه من سبط يامين بن يعقوب عليه السلام . قال : وكان مسكنه ببابل . ومدّة ملكه عشرون سنة . و بعض المؤرّخين لم يذكره فى الملوك. وقال الشيخ أبو على أحمد بن محمد بن مسكويه فى كتابه المترجم بتجارب الأمم : إن كرشاسب كان و زيرا لزوّ بن طهماسب، وأنه من أولاد طوخ ابن أفريذون . قال : وقــد حكى أن زوّا وكرشاسبا اشــتركا فى المــلك . قال : والصحيح من أمره أنه كان وزيرا لزوّ ومعينا له، والذى أثبت كرشاسب فى الملوك الشيخ عبد الملك بن عبد الله بن عبــدون الحضرمى الشلبى فى كتابه المترجم بكمامــة الزهَر وصدفة الدرر، وقال : ولم يذكره بعض المؤرّخين . ١٠

ثم ملك بعــده كيقباذ بن زوّ ،وقيل فيه : ابن زاب بن تور، وسلك سبيل أبيــه فكوّر الكور، وبين حدودها، وأمر الناس بالعمارات، وأخذ العشر من الغلات لأرزاق الجند . وكانــ حريصا على العمارة، مانعا لحوزته . والمــلوكُ الكيّية[3] من نسله . وكان بينــه وبين الترك حروب كثيرة . وكانت إقامته فى الحدّ ١٥

(١) يريد بالسواد العراق . (٢) طساسيج : جمع طسوج بالتشديد، وهى الناحية .
(٣) الكيية : الذين تبتدئ أسماؤهم بلفظ (كى) وهى كلمة يراد بها التنزيه . ٢٠

الذى بين مملكة الفرس والترك بناحية بلخ . وكان ملكه مائة وعشرين سنة ثم مات .

وملك بعده كيقابوس[1] بن كينة بن كَيْقُباذ الملك . قال : ولما ملك شدّد على أعدائه ، وقتل خلقا كثيرا من عظماء البلاد وسكن بلخ ، وولد له ابن لم يُرَ مثله فى عصره جمالا وتمامَ خلقة ،وسمّاه سياوخش وضمه الى رستم الشديد بن دستان من ولد كرشاسب . وكان أصبهبذا بسجستان وما يليها من قبل كيقابوس وأمره بتربيته . فمضى به رستم الى سجستان وتخيّر له الحواضن والمراضع الى أن عَقَلَ ، فجمع له المعلمين ، ثم علّمه الفروسية حتى فاق فيها ، فقدم به على أبيه وهو كامل الصفات من العقل والأدب والفروسية ، فآمتحنه والده فوجده فوق ما يحب .

قال : وكان لكيقابوس زوجة بارعة الجمال يقال إنها بنت فراسياب ملك الترك ؛ ويقال : إنها آبنة ملك اليمن ، فهوِيت سياوخش وهَوِيها ، ويقال : إنها كانت ساحرة فسحرته ، وآل أمرهما الى أن انكشف لأبيه كيقابوس وآطّلع على ما كان من أمر آبنه وزوجته ، فأشفق سياوخش على نفسه وخشى عاقبة أبيه فتلطف فى البعد عنه ، فسأل رستم أن يُشير على أبيه لإرساله لحرب فراسياب ملك الترك ،وكان قد تجدّدت بين فراسياب وكيقابوس وَحْشةٌ ، ففعل رستم ذلك وخاطب كيقابوس فيه واستأذن له فى جند يضمهم إليه ، فأذن له وضمّ إليه جندا كثيفا وأشخص سياوخش الى بلاد الترك ، فسار حتى التقى بفراسياب فآنتظم الصلح بينهما من غير حرب ، فكتب سياوخش الى أبيه يخبره بما كان بينه و بين فراسياب من الصلح والاتفاق ، فكتب إليه كيقابوس بإنكار ذلك عليه وأمره بمناهضته ومناجزته الحرب ، فرأى سياوخش

(١) كذا فى نسختى (أ) و(ب) . وفى تاريخ الطبرى (ص ٦٠٠ من القسم الأول طبع أوربا) : « كيقاوس بن كينة » . وفى غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم : « كيكاوس و يقال له بالعربية قابوس » .

٣٣
١٣

أنه إن فعل ما أمره به والده من الحرب ونقض الهدنة من غير سبب وقع يوجب نقضها، يكون ذلك عارا عليه ومَنْقصَةً، فامتنع من إنفاذ أمر أبيه وأجمع رأيه على الهرب منه ، فكتب الى فراسياب ملك الترك يطلب منه الأمان لنفسه ، وعرّفه أنه آثر اللحاق به فأجابه الى ذلك . وكان السفير بينهما أحد عظماء الترك وأكابرهم يسمى قيران . فلما استوثق سياوخش من ملك الترك سار نحوه وآنصرف مَنْ كان ٥
معه من جند أبيه ورجعوا إليه . قال : ولما وصل سياوخش الى فراسياب ملك الترك أكرمه وعظّمه وزوجه بابنته، وهى أم كيخسرو الذى ملك الفرس . ولم يزل على إكرامه الى أن ظهر له من أدبه وحسن سياسته وجميل تلطفه ما أشفق منه وخشِيَ على مُلكه لميل الناس إليه فقتله . وكانت آبنة الملك قد اشتملت من سياوخش على حَمْلٍ، فقصد أن يُسقطه وتحيّلوا فى ذلك فلم تسقط ؛ ثم جاء قيران، وهو الذى كان ١٠
السفير فى الصلح بين الترك وسياوخش، وأنكر ما كان من فعل الملك وحذّره عاقبة الغدر والطلب بالثأر، وأشار عليه أن يدفع ابنته زوجةَ سياوخش إليه لتكونَ عنده الى أن تضع وقال : اذا أردت بعد ذلك قتل ولدها فآقتله ؛ فأجابه الملك الى ذلك وسلّم إليه آبنته ، فكانت عنده الى أن وضعت كيخسرو ؛ فلما وضعته امتنع قيران من قتله وستّر أمرَه ، فكان عند قيران حتى بلغ ، ثم احتال جدّه كيقابوس الى أن ١٥
أخرجه هو وأمّه من بلاد الترك .

قال أبو على أحمد بن محمد بن مسكويه فى كتابه المترجم بتجارب الأمم : وللفرس فى أمر كيقابوس خرافاتٌ كثيرة منها : أنهم يزعمون أن الشياطين مسخوه، وقوم منهم يزعمون أن سليمان بن داود عليهما السلام أمرهم بذلك فى خرافات كثيرة ظاهرة الإحالة : من الصعود الى السماء، وبناء مدينة كنكر بأسوار من ذهب وفضة ٢٠

وحديد ونحاس وأنهار، وأنها ما بين السماء والأرض، وأشباه ذلك مما تُحيله العقول السليمة، لأن ذلك ليس فى قدرة البشر .

قال : ولما تمّ لكيقابوس أكثرُ ما كان يقصده سار من خراسان ونزل بآبِلَ وترك ما كان يتولاه بنفسه من السياسات، وآحتجب عن الناس وتعاظم عليهم، وآثر الخلوة، فكان من عاقبة ذلك أن فسد عليه ملكه وغزته الملوك، فكان بعد ذلك يغزوهم فيظفَر بهم مرّة ويُنكَب أخرى، الى أن غزا بلاد اليمن ، والملك بها يومئذ ذوالأذعار بن أبرهة بن ذى المنار . فلما أتاه كيقابوس خرج اليه ذوالأذعار فى جموعه من حِميْر و ولد قحطان، فظَفِر به ذو الأذعار وأسره وآستباح عسكره وحبسه فى بئر وأطبق عليه طبقا، فخرج رستم الشديد من سجستان فى جموع كثيرة من الفرس، فالفرس تزعم أنه أوغل فى بلاد اليمن واستخرج كيقابوس من محبِسه، واليمن تقول غير ذلك، وأن ملكهم ذاالأذعار لما بلغه إقبالُ رستم خرج اليه فى جموعه وجنود عظيمة، وخندق كل منهما على نفسه وعسكره، وأنهما أشفقا على جندهما من البَوار، فاتفقا على أن دفع لهم ملكُ اليمن كيقابوسَ وانصرف رستم من غير حرب ورجع بكيقابوس الى بابل ، فكتب له كيقابوس كتابا بالعتْق وأقطعه سجستان . ونسخةُ الكتاب الذى كتبه : من كيقابوس بن كيقباذ الى رستم . إنى قد أعتقتك من العبودية ، وملّكتك بلاد سجستان ، وآجلس على سرير من فضة مموّه بالذهب ، والبس قلنسوة من الحرير منسوجة بالذهب متوجة . قال : ومما يدل على صحة ما نقل من أمر كيقابوس قول الحسن بن هانىء :

وقاظ قابوسُ فى سلاسلنا * سنينَ سبعا وَفَتْ لحاسبها

(١) قاظ : أقام .

ولما مات كيقابوس ملك بعده ولد ابنه كيخسرو بن سياوخش بن كيقابوس . قال : ولما ملك عقد التاج على رأسه وخطب رعيته خطبة بليغة أعلمهم فيها أنه على الطلب بدم أبيه سياوخش قِبَل فراسياب ملك الترك، وكتب إلى جوذرز بأصبهان — وكان أصبهبذا على خراسان — يأمره بالمسير إليه، وأمره أن يعرض جنده وأن ينتخب ثلاثين ألف راجل و يضمهم إلى طوس [بن نوذران](١) وكان فيمن أشخص معه برزافره [بن كيقاوس](١) عمّ كيخسرو وابن جوذرز وجماعة من إخوته ، وتقدّم كيخسرو إلى طوس، وأمره أن يقصد فراسياب وطراخنته(٢) وحذره من ناحية ببلاد الترك فيها أخ له من أبيه سياوخش يقال له فروذ، وكان قد رُزِقه من بعض نساء الأتراك، كان سياوخش قد تزوّجها لما سار إلى فراسياب فولدت له فروذ، وأقام بموضعه إلى أن شبّ. فسار طوس وكان من غلطه الذى فعله أنه لما صار بالقرب من المدينة التى فيها فروذ حار به فقُتِل فروذ فى الوقعة . فلما اتصل الخبر بكيخسرو غضب لذلك وشقّ عليه، فكتب إلى عمه برزافره ذلك كتابا غليظا يخبره بما ورد عليه من خبر طوس ومخالفته له ومحاربته لأخيه فروذ وقتله إياه، وأمره بإشخاص طوس إليه مقيدا مغلولا، وأن يتقدّم هو على العسكر ويتوجه . ففعل برزافره ذلك وتولى أمر العسكر، وسار وعبر النهر المعروف بكاشرود، وانتهى خبره إلى فراسياب فوجه للقائه وحربه جماعة من إخوته وطراختنه، فالتقوا وفيهم قيران وإخوته، فاقتتلوا قتالا شديدا، وظهر من برزافره عمّ كيخسرو فى ذلك اليوم فشلٌ لما اشتدت الحرب، فهرب وانحاز بالعلم إلى رءوس الجبال، واضطرب على ولد جوذرز الأمرُ، فقُتِل منهم فى تلك الملحمة فى وقعة

(١) الزيادة من تاريخ الطبرى .

(٢) طراخنته : الطراخنة جمع طرخان (بالفتح)، والطرخان : زعيم القوم المعفى من الضرائب (فارسى) .

واحدة سبعون رجلا، وقتل خلق كثير، وآنصرف برزافره ومن أفلت معه إلى كيخسرو، فرُئيت الكآبة فى وجهه وآمتنع عن الطعام والشراب أياما، ثم أتاه جوذرز وشكا إليه عمه برزافره وأنه كان سبب الهزيمة، ولاطفه كيخسرو وقال : إن حقك لازم لنا لخدمتك إيانا، وهذا جندنا وخزائننا مبذولة لك فاطلب تِرَتك[1] واستعدّ وتجهّز للتوجه إلى فراسياب . فنهض جوذرز وقبّل يده وقال : نحن رعيتك وعبيدك أيها الملك، فإن كانت آفة أو نازلة فلتكن بالعبيد دون الملوك، وأولادى الذين قُتلوا فداؤك، ونحن من وراء الانتقام من فراسياب والاستيفاء[2] من الترك . فكتب كيخسرو إلى وجوه عساكره وأكابر أجناده يأمرهم بموافاته فى صحراء تعرف بشاه أسطون من كورة بلخ فى وقت وَقّته لهم، فوافَوْه فى ذلك الوقت، وشخص كيخسرو بأصبهبذيته وأصحابهم وفيهم برزافره عمه وجوذرز وولده، فعرض كيخسرو الجند بنفسه حتى عرف عدّتهم وآطّلع على أحوالهم، ثم أحضر جوذرز وثلاثةَ نفر معه من القوّاد فأعلمهم أنه يريد إدخال العساكر على الترك من أربعة وجوه ليُحيطوا بهم من جميع جهاتهم، وقوّد على تلك العساكر، وجعل أعظمها إلى جوذرز، ودفع اليه يومئذ دِرَفْس[3] كابيان، ولم يكن يُدفع قبل ذلك لأحد من القوّاد، بل مع أولاد الملوك .

قال : وأمر أحدَ القوّاد بالدخول مما يلى الصين وضم اليه ثلاثين ألف رجل، وأمرهم بالدخول من ناحية الخزر من طريق بين جوذرز وبين الذى دخل من طريق الصين، ودخل جوذرز من ناحية خراسان وبدأ بقيران والتحمت بينهما

---

(١) الترة هنا : الثأر . (٢) فى تاريخ الطبرى : « والاشتفاء » .

(٣) فى تاريخ الطبرى (ص ٦٠٩ من القسم الأوّل) : « درفش كابيان » بالشين المعجمة وقال : إنه العلم الأكبر الذى كانوا يحملونه .

الحرب وآشتدّ القتال ، فقتل جوذرز أخا لقيران ، ثم قتل قيرانَ مبارزة ، ثم قصدَ فراسياب وآلتحمت عليه العساكر من كل جهة ، وآتبع كيخسرو القومَ بنفسه وقصد الوجه الذى كان فيه جوذرز ، وقد أثخن فى القتل وقتل أصبهبذَ فراسياب والمرشحَ للملك بعده ، و جماعةً كثيرة من إخوته وأولاده، وأسر برويز وهو الذى قتل سياوخش . ٥

قال : ولما جاء كيخسرو وجد جوذرز قد أحصى الأسرى والقتلى وما غنم من الكُراع(١) والأموال ، فوجد ما فى يده من الأسرى ثلاثين ألفا ، ومن القتلى خمسمائة ألف ونيفا وستين ألفا على ما تزعم الفرس ، وحاز من الكُراع والأموال مالا يحصى كثرة ، وأمر كل واحد من الوجوه الذين كانوا معه أن يجعل أسيره ورأس قتيله [عند علمه](٢) لينظر إلى ذلك كيخسرو عند موافاته . فلما وافى ١٠ كيخسرو موضعَ الملحمة تلقاه جوذرز وعرض عليه الأسرى والقتلى ، فرأى قيرانَ قتيلا ، وأُتى بقاتل أبيه(٣) الذى مثّل به بعد قتله . فقتله كيخسرو شرّ قِتْلة ؛ قطعه عضوا عضوا ثم ذبحه ، وأحسن صلة جوذرز وفوّض إليه الوزارة التى يقال لها بزر جفرمذار(٤) وجعل إليه مع ذلك أصبهان وجرجان ، وأحسن لكل من أبلَى من قوّاده ورجاله ، ثم أتته أخبار قوّاده الثلاثة الأخر أنهم قد أحاطوا بفراسياب ، ١٥ و برز فراسياب ومن بقى من ولده وعساكره وتوجه نحو كيخسرو بجيوش عظيمة ، فيقال إن كيخسرو أشفق منه وهابه حتى ظن أنه لا قبل له به ، ودام القتال بين العسكرين أربعة أيام ، فقتل شيده مقدّم عسكر فراسياب، وكانت هذه

(١) الكراع بالضم : اسم يجمع الخيل والسلاح . (٢) التكملة من تاريخ الطبرى (ص ٦١٢ من القسم الأول) والعبارة فى الأصل مضطربة . (٣) فى تاريخ الطبرى أن اسم هذا القاتل « بروا بن فشنجان » . (٤) كذا فى الطبرى وفى نسخة (أ) « بزرج فرمدار » وفى نسخة (ب) « بزرخ فرمدار » . ٢٠

٣٥/١٣

الحرب معه ، ثم أقبل فراسياب فى جمع عظيم من الأتراك وآلتقى هو وكيخسرو ونشبت بينهما حروب عظيمة يقال إنه لم يُرَ مثلها قبلها قط على وجه الأرض ، فكانت الدائرة على الترك ، وآنهزم فراسياب وكثر القتل فى أصحابه وأتبعه كيخسرو حتى أدركه بأذربيجان فظفر به وآستوثق منه بالحديد ووبّخه على ما كان منه من قتل سياوخش ، فلم يكن له حجة ، فذبحه ثم آنصرف . وقد غنم غنائم عظيمة لا تحصى وأدرك بثاره .

قال : ولما فرغ كيخسرو من أمر الترك ورجع إلى بلاده واستقر بدار ملكه زَهِد فى الملك وتنسّك ، وأعلم وجوه أهل بيته وأكابر مملكته أنه قد عزم على التخلى والآنفراد وتَرْك الملك ؛ فجزعوا من ذلك وسألوه ألا يفعل ، فأبى عليهم . فلما أيسوا منه سألوه أن ينصب فى الملك من يراه له أهلا ، فأشار بيده إلى لهراسف وأعلمهم أنه خاصته ووصيته ، فقبل لهراسف ذلك وأقبل الناس عليه . وفُقِد كيخسرو . فمنهم من يقول : إنه غاب للتنسك ، وبعضهم يقول غير ذلك ، إلا أنه لم تُعلَم جهة وفاته . قال : وكان ملكه ستين سنة . قال : وفى أيام ملكه كان سليمان بن داود عليه السلام .

ثم ملك بعده لهراسف[1] ؛ وقيل فيه بهراسف بن تنوفى بن كيمش وهو آبن أخى كيقابوس ويلقب بكى لهراسف . قال : ولما ملك اتخذ سريرا من ذهب مكللا بالجوهر للجلوس عليه ، وبنيت له بأرض خراسان مدينة ، وسماها بلخ الحسناء .

قال : وهو أوّل من دوّن الدواوين ، وقوّى ملكه بانتخاب الجنود ، وعَمَر الأرض . وكانت شوكة الأتراك اشتدّت فى زمانه ، فنزل بلخ لمقاتلتهم ، ووجه بختنصر

(١) كذا فى نسخة (ب) وفى نسخة (أ) «كهراسف» وفى تاريخ الطبرى : "كى لهراسب" وفى مروج الذهب (ج ١ ص ١٠٩ طبع بلاق) : «لهراسب» .

أصبهبذًا ما بين الأهواز إلى أرض الروم، من غربىّ الفرات . وسنذكر أخبـاره إذا انتهت أخبار لهراسف .

قال : وكان لهراسف بعيد الهمة ، طويل الفكرة ، شديد القمع للملوك المحيطة لإيران شهر . وكانت ملوك الروم والمغرب والهند يؤدّون إليـه إتاوة معلومة فى كل سـنة ، ويُقِرّون له أنه ملك الملوك هيبةً له ، واستمرّ فى الملك إلى أن كَبِرت سـنّه ٥ وأحس بالضعف فاعتزل الملك ونصب آبنه بشتاسب[1] . وكان ملكه فيما ذكر مائة وعشرين سنة .

ذكر أخبار بختنصّر

ويقال فى آسمه بالفارسية بخترشه[2] ، وكان مَرْزُبانا للهراسف ، ومعنى المرزبان أنه مَلِكٌ على ربع من أرباع المملكة . وقد قدّمنا أن الملك لهراسف كان قـد ١٠ جعـله أصبهبذا ما بين الأهواز إلى أرض الروم . قال : فسـار حتى أتى دِمَشق فصالحه أهلها، ووجه قائدا له فأتى بيتَ المقدس فصالح ملك بنى إسرائيل، وهو رجل من بنى داود النبىّ عليه السلام، وأخذ منه رهائن وانصرف . فلما بلغ طبَرية وثب بنو إسرائيل على مَلِكهم فقتلوه وقالوا له : إنك هادنت أهل الكفر وخذلتنا واستعدّوا للقتال ؛ فكان عاقبة ذلك أن قائد بختنصر — لمـا بلغه ما كان من بنى ١٥ إسرائيل — كتب إليه يخبره بقتلهم مَلِكهم ، فأجابه بختنصر أن يقيم بموضعه حتى يوافيَـه ، وأمره بضرب أعناق الرهائن الذين معه . وسار بختنصر حتى أتى بيت

(١) كذا فى تاريخ الطبرى . وفى غرر أخبار ملوك الفرس : « بشتاسف » وفى نسختى أ ، ب : « بسـتاسف » .

(٢) كذا فى تاريخ الطبرى : (ص ٦٤٥ من القسم الأوّل) وغرر أخبار الفرس وسيرهم للثعالبى ٢٠ (ص ٤٤ طبع باريس) . وفى نسخة (أ) هكذا « نخت نرسى » وفى نسخة (ب) « بخت يرسى » .

المقدس فأخذ المدينة عنوة وقتل المقاتلة وسبى الذرّية وهرب الباقون إلى مصر، فكتب بختنصر إلى ملك مصر : أن عبيدا لى هربوا منى إليك فسرّحهم إلىّ وإلا غزوتك وأوطأت خيلى بلادك ، فكتب إليه ملك مصر : إنهم ليسوا عبيدك، ولكنهم الأحرار أبناء الأحرار، وآمتنع من إنفاذهم اليه، فغزاه بختنصر وقتله وسبى أهل مصر، ثم سار فى أرض المغرب حتى بلغ أقصى نواحيها .

٣٦ / ١٣

قال صاحب كتاب تجارب الأمم : وقد حكى أهلُ التوراة وغيرهم فى أمر بختنصر أقوالا مختلفة ، فذكروا منها : أن بختنصر لما خرّب بيت المقدس أمر جنوده أن يملأ كل رجل منهم تُرسه ترابا ثم يقذفه فى بيت المقدس، فقذفوا فيه من التراب ما ملأه . قال : ولما آنصرف إلى بابل آجتمع معه سبايا بيت المقدس من بنى إسرائيل وغيرهم، فاختار منهم سبعين ألف صبىّ، فلما فرّق الغنائم على جنوده سألوه أن يقسم فيهم الصبيان، فقسمهم فى الملوك منهم، فأصاب كل رجل منهم أربعة ، وكان من أولئك الغِلْمة الذين سباهم، دانيال النبىّ وحنين ومنشايل ، وسبعة آلاف من أهل بيت داود ، وأحد عشر ألفا من سبط بشر بن يعقوب . ثم غزا بختنصر العرب، وذلك فى زمن معدّ بن عدنان .

قال : وكانت مدّة غلبة بختنصر إلى أن مات أربعين سنة، ثم قام آبن له يقال له أونمروذ[1] ثم [هلك، وملك مكانه آبن له يقال له[2]] بلتنصر، وذلك فى زمن بهمن، فلم يرض بهمن أمره فعزله وملك مكانه كيرش ، وتقدّم إليه بهمن أن يرفُق ببنى إسرائيل ويمكّنهم من النزول حيث سألوا ، أو الرجوع إلى أرضهم ، وأن يولّىَ

(١) فى تاريخ الطبرى : « أولمردوخ » .

(٢) التكملة من تاريخ الطبرى . وفى نسخة (أ) هكذا : « ثم بن بلتنصر » . وفى نسخة (ب) : « ثم ابن يقال له بلتنصر » .

عليهم من يختارونه ، فاختاروا دانيال فولاه أمرهم . فكانت مدّة خراب بيت المقدس سبعين سنة ، وقيل غير ذلك . ولنرجع إلى أخبار الفرس .

ولما آعتزل لهراسف المُلك كما ذكرناه، ملك بعده كى بشتاسف[1] بن كى لهراسف . قال : ولما ملك بنى مدينة فسا[2] ، وهو أوّل من بسط دواوين الكتّاب لا سيما ديوان الرسائل ، وكان له ديوانان أحدهما : ديوان الخراج ، والآخر ديوان النفقات ، فكل ما يَرِد فإلى ديوان الخراج ، وكل ما يصرف فمن ديوان النفقات . وكان له كاتب موكل بدار المملكة ، فإن وقع تقصير بأحد فى منزلته ، أو حُطّ من درجته رجع إلى ذلك الكاتب ليبين له حال مرتبته فيجرى على رسمه وعادته .

وفى أيامه ظهر زرادشت [بعد ثلاثين سنة من ملكه فآدّعى النبوّة[3]] فأراده على قبول دينه فامتنع من ذلك ثم صدّقه وقَبِل دعواه ، وأتاه بكتاب يكتب فى جلد آثنتى عشرة ألف بقرة حفرا فى الجلود ونقشا بالذهب ، فصير بشتاسف ذلك الكتاب بإصطخر ووكل به الهرابذة[4] ، ومنع من تعليمه العامة . وبنى ببلاد الهند بيوتا للنيران ، وتنسّك واشتغل بالعبادة ، وهادن كى خرزاسف بن كى سواسف آبن أخى[5] فراسياب ملك الترك على ضروب من الصلح ، وفى جملة شريطة الصلح ألا يكون

(١) فى تاريخ الطبرى : « كى بشتاسب بن كى لهراسب » .

(٢) فسا (بالفتح والقصر) ويقال لها بسا (بالباء) : مدينة بفارس أنزه مدينة بها فيما قيل ، بينها وبين شيراز أربع مراحل ، وهى مدينة واسعة الشوارع تقارب فى الكبر شيراز ، وهى أصح هواء منها .

(٣) التكملة من تاريخ الطبرى (ص ٦٧٦ من القسم الأوّل طبع أوربا) .

(٤) الهرابذة جمع الهربذ (بالكسر) : هم خدّام النار . وقيل : حكام المجوس الذين يصلون ٠ . (راجع المعرّب للجواليق ص ٣٥١ طبع دار الكتب المصرية) .

(٥) فى تاريخ الطبرى : « أخى » .

ببلاد خرزاسف دابة موقوفة فى منزلة الدوابّ التى تكون على أبواب الملوك ، وغير ذلك مما وقعت عليه المهادنة. فأشار زرادشت على بشتاسف بنقض الهدنة ومفاسدة ملك الترك ، فبلغ ملكَ الترك ذلك ، فغضب وكتب إليه كتابا غليظا من جملته أن يوجه إليه زرادشت ، وأقسم إن امتنع أن يغزوَه حتى يسفك دمه ودماء أهل ٥ بيته ؛ فأجابه بشتاسف بجواب أغلظ من كتابه وآذنه بالحرب وأعلمه أنه غير ممسك عنه إن أمسك هو . فسار كل منهما الى الآخر ، ومع كل واحد منهما إخوته وأهل بيته ، والتقَوْا واقتتلوا قتالا شديدا ، فكانت الدائرة على الترك ، وقتل اسفنديار بن بشتاسف بيدرفش[1] الساحر مبارزة ، وقُتِلت التركُ قتلا ذريعا ، وهرب ملكهم خرزاسف ورجع بشتاسف الى بلخ .

١٠ قال : فلما مضت لتلك الحرب سنون سعى رجل يقال فروخ[2] بإسفنديار الى بشتاسف ونسبه أنه تطاول للملك ، وزعم أنه أحقُّ به ، فأفسد بذلك قلب بشتاسف عليه ، وصدق مقالة فروخ ، فأخذ فى التدبير على إسفنديار وجعل يرسله الى حرب بعد حرب ، وهو يظفر وينجح ويرجع بالغنائم ، ثم أمر بتقييده فقُيِّد ، وصيره فى الحبس فى حصن من حصونه ، وسار بشتاسف الى جبل يقال له طميدر ١٥ لدراسة دينه والتنسك هناك ، وخلّف أباه لهراسف فى مدينة بلخ ، وقد كبرت سنه وهرم وعجز .

٣٧/١٣

قال : فاتصل هذا الخبر بخرزاسف ملك الترك ، فجمع من الجنود مالا يحصى كثرة ، وشخص من بلاده نحو بلخ حتى [إذا][3] انتهى الى تخوم ملك فارس قدم أمامه

---

(١) كذا فى تاريخ الطبرى . وفى الأصول : « بندرفش » بالنون .

٢٠ (٢) فى تاريخ الطبرى : « قرزم » .

(٣) زيادة يقتضيها السياق .

جوهرمز[1] أخيه، وكان مرشحا للملك، فى جماعة كثيرة من المقاتلة، وأمرهم أن يُغِذُّوا السير حتى يتوسطوا المملكة، ثم يوقعوا بأهلها و يشُنوا الغارة على المدن والقرى. ففعل جوهرمز ذلك وسفك الدماء وآستباح الحرم، وسبى ما لا يحصى، وأتبعه خرزاسف ملك الترك حتى انتهى الى مدينة بلخ، فأحرق الدواوين وقتل لهراسف والهرابذة، وهدم بيوت النيران، واستولى على الأموال والكنوز، وسبى آبنتين لبشتاسف وأخذ دِرَفْس كابيان، وسار فى طلب بشتاسف فتحصن منه فى جبل طميدر؛ فعند ذلك ندم بشتاسف على ما كان منه فى حق آبنه إسفنديار؛ فيقال: إنه وجه من استخرجه من محبسه، وجاءه به؛ فلما دخل عليه اعتذر منه ووعده عقْدَ التاج على رأسه، وأن يفعل معه كما فعل لهراسف به. وقلده أمر عساكره وندبه لحرب ملك الترك. فطابت نفس إسفنديار بكلام أبيه له، وتأهب لوقته، وسار بالجنود صبيحة النهار نحو الترك. فلما قَرُب منهم تبادروا لحربه؛ فكان ممن خرج اليه منهم جوهرمز واندرمان، فالتقَوْا والتحمت بينهم الحرب، فانقضّ إسفنديار على عساكر الترك بنفسه واختلط بهم، وقاتل حتى ثلم فيهم ثُلمة عظيمة، وفشا فى الترك أن إسفنديار قد أُطلق من محَبِسه، وأنه هو الذى يقاتلهم، فانهزموا لا يلوون على شىء. واسترجع إسفنديار من الترك الدِّرَفْس وعاد الى أبيه، فاستبشر وأمره باتّباع القوم وقتال خرزاسف وقتله — إن ظَفِر به — بجدّه لهراسف، وقتْل جوهرمز واندرمان بمن قُتل من ولده، وأن يهدم حصون الترك ويحرِّق مدنهم و يقتل أهلها بمن قتلوا من أهل بلاده، و يستنقذ من سَبَوْه من بناته. فدخل إسفنديار بلاد الترك و رام ما لم يرُمْه أحد قبله، واعترض العنقاء و رماها على ما يزعم الفرس، ودخل مدينة الصفر عنوة، وقتل ملكها وأخوته ومقاتِلته، واستباح

---

(١) كذا فى نسخة (أ) وتاريخ الطبرى. وفى نسخة (ب) «جوهرمن» بالنون.

أمواله وسبي ذراريه ونسـاءه واستنقذ أختيه، وكتب بالفتح الى أبيه . ولم يستقل إسفنديار هذا بالملك .

والذى ملك الفـرس بعد بشـتاسف أردشـير بهمن[1] بن إسفنديار بن بشتاسف . وتفسير بهمن بالعربية : الحَسَن النيّة .

قال : ولمـا ملك أردشير انبسطت يده وتناول الممـالك حتى ملك الأقاليم . وكانت ملوك الأرض تحمل اليه الإتاوة، وآبتنى بالسواد مدينة وهى المعروفة بهمينيا[2]، وهو أبو دارا الأكبر، وأبو ساسان . قال : وكان بهمن كريما متواضعا . وكانت تخرج كتبه : من أردشير بهمن عبد الله وخادم الله والسائس لأمركم . ويقال : إنه غزا روميـة الداخلة فى ألف ألف مقاتل . ومن المؤرّخين من ذهب الى أن بهمن هـذا هو الذى جهّز بختنصّر لغزو العرب وغيرهم . وكانت مدّة ملك أردشير [مائة[3] و] آثنتى عشرة سنة .

ولمـا مات ملكت بعده آبنته جماز هرازاد، وهى جمانى[4] أمّ آبنه دارا . قال : وكانت قد حملت منه بدارا الأكبر وسألته أن يعقـد التاج للذى فى بطنها ويؤثره بالملك، ففعل أردشير ذلك . وكان آبنـه ساسان يتصنع للملك ولا يشكّ أنه يكون هو الملك بعد أبيه . فلما رأى ما فعل أبوه شقّ ذلك عليه، فلحق بإصطخر وتزهّد، وخرج عن حلية الملوك، وآتخذ غُنَيْمَة وكان يتولّاها بنفسه، فاستشنع[5] الناس ذلك

(١) كذا فى نسخة (ب) وتاريخ الطبرى . وفى نسخة (أ) « أزدشير » بالزاى المعجمة .

(٢) همينيا ويقال لها همانية : قرية كبيرة كالبلدة بين بغـداد والنعمانية فى وسط البرية ليس بقربها شىء من العمارات وهى فى ضفة دجلة .

(٣) التكملة من تاريخ الطبرى .

(٤) كذا فى نسخة (ب) وفى نسخة (أ) « حمانى » بالحاء المهملة . وفى تاريخ الطبرى (ص ٦٨٨ من القسم الأول) : « خمانى » بالخاء المعجمة .

(٥) استشنع الناس ذلك : استقبحوه واستهجنوه .

من فعله وقالوا : صار ساسان راعيا، ولم تزل جمانى قائمة بأمر الملك، ضابطة له، وأغزت الروم جيشا [بعـد جيش][1] وأوتيت ظَفَرا، فقمعت الأعداءَ وشغلتهم عن التطرّق الى شيء من بلادها، ونال رعيّتَها بتدبيرها رفاهية وأمنٌ الى أن كبر آبنها .

فملك دارا بن أردشير بهمن . قال : ولمـا كبر حُوِّل التاجُ الى رأسه ونزل بابل . وكان ضابطا لملكه، قاهرا لمن حوله من الملوك، يؤدون اليـه الخراج . وآبتنى بفارس مدينة وسماها دارا بَجْرد . ورتّب دوابّ البريد . وكانت مدّة ملكه آثنتى عشرة سنة .

وملك بعده آبنه دارا بن دارا بن أردشير؛ وكان دارا هـذا حقودا جبارا، فملّه قومه . وغزاه الإسكندر بن فيلبس اليونانى، والتقَوا واقتتلوا قتالا شـديدا، فقتل دارا بن دارا . وسنذكر خبر مقتله فى أخبار الإسكندر .

فهؤلاء ملوك الفرس الأول . ثم تبدّد ملك الفرس وآنتثر لقتل دارا بن دارا، واستقل الإسكندر بالملك . وملك بعده مَنْ نذكره من ملوك اليونان، وتفرّق مُلك الفرس أربعمائة سنة الى أن عاد الى بنى ساسان . وهأنا ذاكر خبر ملوك الطوائف ما بين دارا بن دارا وأردشير بن بابك .

ذكر أخبار ملوك الطوائف

وملوك الطـوائف هم الذين ملكوا بلاد فارس ما بين دارا بن دارا وأردشـير ابن بابك الذى جمع مُلك الفرس بعد تبدّده، ونَظَمه بعد انتثاره . وكان من خبرهم أن الإسكندر لمـا قتل دارا بن دارا وغلب على بلاد الفرس همّ بقتـل أكابرهم، فكتب الى معلّمه أرسطاطاليس يستشيره فى ذلك، فنهاه عن قتلهم وقال : هـذا

(١) الزيادة من تاريخ الطبرى .

منَ الفساد فى الأرض ، و إذا قتلتَهم أنبتت أرضُ بابل امثالهم ؛ وأشار عليه أن يفرّق المملكة بين أولاد الملوك ، فإنهم يتنافسون المُلكَ فلا يجتمعون على مَلِكٍ واحد منهم ، فمتى خالفك واحد كانت مؤنته عليك خفيفة ؛ ففعل ذلك ، وفرّق المُلك حتى أمكنه أن يتجاوز أرض فارس الى بلاد الهند والصين . فكانت ملوك الطوائف فى إقليم بابل لا يدِين بعضهم الى بعض .

فكان من ملوكهم الذين ملكهم الإسكندر : أشك بن دارا الأكبر ؛ فقَوِى أشك هذا وعظّمته الملوك وقدّموه على أنفسهم ، و بدأوا به فى كتبهم اليه إجلالا له ، و بدأ فى كتبه اليهم بنفسه ، وسمّوه ملكا ، وأهْدَوْا اليه من غير أن يُطيعوه أو يستعمل أحدا منهم أو يَعزِله ، وكثرت جموعه وسار الى أنطيخس ، وكان مقيما بسواد العراق من قبل الروم ، وتقدّم أنطيخس اليه وآلتقيا ببلاد الموصل وآقتتلا فقُتِل انطيخس ، وغلب أشك على السواد ، وصار فى يده من الموصل الى الرىّ وأصفهان ، ولذلك عظّمته ملوك الطوائف .

ثم ملك جوذرز بن أشكان . وهو الذى غزا بنى إسرائيل المرة الثانية ؛ وذلك بعد قتلهم يحيى بن زكرياء عليهما السلام ، فسلطه الله تعالى عليهم فأكثر فيهم القتل فلم يَعُدْ لهم جماعة بعد ذلك ، ورفع الله عنهم النبوة وأنزل بهم الذل .

وكان من سُنّة الفرس بعد الإسكندر أن يخضعوا لمن ملك بلاد الجبل ، وهم الأشغانية ؛ فأوّلهم أشك بن أشكان ، ثم سابور بن أشكان ، وفى أيامه ظهر المسيح عيسى بن مريم عليه السلام بأرض فِلَسطين . ثم ملك جوذرز بن أشغانان الأكبر . ثم ملك بيزن الأشغانى . ثم ملك جوذرز الأشغانى . ثم نرسى الأشغانى . ثم هرمز . ثم أردوان الأشغانى . ثم كسرى الأشغانى ، ثم بلاش الأشغانى ، ثم أردوان الأصغر

الأشغانى . ثم اردشير بن بابك . فكانت مدة هؤلاء ، الى أن وثب أردشير بن بابك على الأردوان فقتله ، مائتين وستا وستين سنة .

وفى أيام ملوك الطوائف اصطُلِمت(١) طسم وجديس . وسنذكر إن شاء الله خبرهم .

ذكر أخبار الملوك الساسانية

وهم الفرس الأخر . وأول من ملك منهم أردشير بن بابك بن ساسان الأصغر . وكان من أعظم ملوك الطوائف وملوك الأشغانية ، فوثب بالأردوان وقتله واستولى على الممالك وقاد الملوك الى طاعته رغبةً ورهبةً . وكتب الى ملوك الطوائف يدعوهم الى الآجتماع اليه : بسم الله ولىّ الرحمة . من أردشير المستأثَرِ دونه بحقه ، المغلوبِ على تراث آبائه ، الداعى الى قوام دين الله وسنته ، المستنصرِ بالله ، الذى وعد المحقّين الفَلَح(٢) ، وجعل لهم العواقب ؛ الى مَنْ بلغه كتابى هذا من ملوك الطوائف . سلام عليكم بقدر ما تستوجبون بمعرفة الحق ، و إنكار الباطل والجَوْر . ودعاهم الى الطاعة : فمنهم من أقر له بالطاعة ، ومنهم من تربّص حتى قَدِم عليه ، ومنهم من عصاه فكانت عاقبة أمره الى القتل والهلاك ؛ حتى استوثق له الأمر . فكانت طائفة الأشكانية ممن آمتنعت من طاعة أردشير ، فأقسم أنه لا يُبقى منهم — إن قدر عليهم — رجلا ولا آمرأة . فلما غَلَب عليهم ما نجا منهم إلا من أخفَى آسمه ونسبه . وقد كان أخذ فى جملة من أخذ منهم ابنةُ ملكهم ، وكانت بارعة الجمال ، وافرة العقل . فلما رآها قال لها : أنت من بنات ملوكهم؟ قالت : بل من خدمهم . فاصطفاها لنفسه ، فحملت منه . فلما علمت بالحمل شهرت نفسها وقالت : أنا آبنة ملكهم .

(١) اصطلمت : أبيدت .

(٢) الفلح (محركة) : الفوز بما يغتبط به وفيه صلاح الحال .

فعند ذلك أمر شيخا من رجاله الذين يثق بهم يقال له هرجند[1] [بن سام] بأن يودعها فى بطن الأرض إشارة الى قتلها . فقالت : أيها الشيخ ، إنى قد حملت من الملك فلا تُبطل زرعَه . فعمِل لها سَرَبًا تحت الأرض وجعلها فيه ، ثم عَمَد الى مذاكيره فجبّها ووضعها فى حُقّ وختم عليه ورجع الى الملك وقال : قد أودعتها بطن الأرض ؛ ودفع له الْحُقّ وقال : إن فيه وديعةً وأحب أن يكون عند الملك الى أن أحتاج اليه ، فاستودعه الملكَ ؛ وأقامت الجارية فى السَّرَب حتى كملت مدّة حملها ، فوضعت غلاما فسماه الشيخ : شاه بور ، أى ولد الملك ؛ فسماه الناس سابور . وبقى أردشير هذا دهرا لا يُولَد له ، فرآه الشيخ فى بعض الأيام وقد ظهر عليه الحزن ، وكان خاصا به ، فقال له : ما هذا الحزن سرّك[2] الله أيها الملك وعَمّرك . فقال : من أجل أنه ليس لى ولد يرث ملكى . فقال له الشيخ : إن لك عندى ولدا طيبا فآدع بالحقّ . وأمر أردشير بإحضاره فأحضر ، ففضّ ختمه فإذا فيه مذاكيرُ الشيخ وكتاب فيه : إنه لما أمرنى الملك بقتل المرأة الأشكانية التى عَلِقَتْ من ملك الملوك أردشير لم أر أن أبطل زرع الملك الطيب فأودعتها بطن الأرض كما أمرنى ، وتبرأت اليه من نفسى لئلا يجد عائب الى عيبها سبيلا ؛ فسرّ أردشير بذلك ، وأمر الشيخَ أن يجعل الغلام بين مائة غلام من أشباهه فى الهيئة وأقرانه فى السن ، ثم يُدخلَهم عليه ، ففعل ذلك ، فعرفه أردشير من بينهم وقبلته نفسه ، ثم أمرهم أن يلعبوا فى حجرة الإيوان بالصّوالج ، فدخلت الأكرة الإيوان ، فأحجم الغلمان عن دخولهم وأقدم سابور ، فأمر أردشير عند ذلك بعقد التاج له .

---

(١) كذا فى تاريخ الطبرى (ص ٨٢٣ من القسم الأول طبع أوربا) . وفى نسخة أ : « جندنان » . وفى نسخة ب : « جند » . والتكملة منه

(٢) كذا فى الطبرى ، وفى نسخة (ب) « بشرك » ، وفى نسخة (أ) « يسرك » .

وكان أردشير من أهل العقل والمعرفة وحسن التدبير، وله وصايا ومكاتبات صدرت عنه تدل على حكمة ورجاحة عقل . وقد تقدّم إيرادها فى الباب الرابع[(١)] من القسم الخامس من الفنّ الثانى فى وصايا الملوك . وكانت مدّة ملكه أربع عشرة سنة وستة أشهر .

ثم ملك بعده ابنه سابور بن أردشير، والعرب تسميه سابور الجنود. وسابور هذا هو الذى حصر الضَّيْزَن[(٢)]، وملك حِصْن الحَضْر، وهو من مبانى العرب المشهورة . وقد تقدّم ذكره فى الباب[(٣)] الثالث من القسم الخامس من الفنّ الأوّل، وهو فى السفر الأوّل . فلا حاجة الى إعادة ذكره .

وفى أيامه ظهر مانى الزِّنديق تلميذ قاردون وقال بالاثنين، فرجع سابور الى مذهب مانى والقول بالنور والبراءة من الظلمة، ثم عاد الى دين المجوسية وترك المانَوِيَّة، وهو المسمى عندهم بدين الثَّنْوِيّة . وكانت مدّة ملكه ثلاثين سنة . وقيل إحدى وثلاثين سنة ونصف سنة وثمانية عشر يوما .

ثم ملك بعده ابنه هرمز بن سابور، وهو الذى يدعى هرمز البطل، ويلقّب أيضا بالجرىء . وبنى مدينة رامهرمز بين كُوَرِ الأهواز . وكانت مدة ملكه سنة وعشرة أشهر .

ثم ملك بعده ابنه بهرام بن هرمز . قال : ولما ملك جاءه مانى الزنديق فعرض عليه مذاهب الثنوية فأجابه الى ذلك احتيالا منه عليه، الى أن أحضر له دعاته المتفرقين فى البلاد الذين يدعون الناس الى مذاهب الثنوية . فلما أحضرهم اليه قتلهم وقتل مانى وسلخه .

(١) فى الأصل « الباب الثالث » وما أثبتناه هو ما ورد فى (ج ٦ ص ١٦ من هذه الطبعة) .
(٢) هو الضيزن بن معاوية بن العبيد من قبيلة قضاعة ويلقب بالساطرون .
(٣) راجع (ج ١ ص ٣٨١ من هذه الطبعة) .

وفى أيام مانى هذا ظهر اسم الزنادقة الذين أضيفت اليهم الزندقة . وذلك أن الفرس كان لهم كتاب يسمونه السنا ، وكان له شرح يسمى الزند . فكان من أتاهم بزيادة على ما فى كتابهم يسمونه زنديا . فلما جاءت العرب أخذت هـذا المعنى من الفرس فعربته وقالت زنديق . فالثنوية هم الزنادقة ، فألحق هذا الاسم بسائر من اعتقد القِدَمَ وأبى حدوث العالم وأنكر البعث .

والذى أتى الفرسَ بهذا الكتاب زرادشت فى زمن الفرس الأوّل . وقد قدّمنا ذكره فى أخبار بشتاسف . وهـذا زرادشت هو الذى تزعم المجوس أنه نبيُّها الذى أرسل اليها . وكان زرادشت خادم شعيا فدعا شعيا عليـه فَبَرِصَ . وكان صاحب نِيرَجات[1] وسحر . وكان يحزُِرُ[2] بعض الكوائن قبل أن تقع مما كان قد سمعه من شعيا وقت خدمته له ، وآدّعى النبوّة فى المجوس وعمـل لهم الكتاب الذى قدّمنا ذكره ، وزعم أنّه أُنزِل عليـه من السماء ، وجعل كلامه فيه يدور على نيِّف وسبعين حرفا ، فلم يقدر أحد منهم على قراءته فآختصره لهم وسمى مختصره الزند .

فلما قام مانى بدين الثنوية سمته المجوس "زندين" وسموا أصحابه الزنادنة لأنه زاد فى شرعهم الذى شرعه لهم زرادشت ، فقتل بهرام هـذا مانياً وصلبه على باب[3] من أبواب مدينة من مدنه بالعراق ، فيُدعى ذلك الباب الى آخر وقت بابَ مانى . وكانت مدة ملك بهرام ثلاثاً[4] وثلاثين سنة وثلاثة أشهر .

ثم ملك بعده آبنه بهرام بن بهرام . قال : ولـما ملك أقبل فى أوّل ملكه على اللهو والصيد والنُّزَه ، وترك ملكه لا يفكر فيه ولا فى رعيته ، فخربت البلاد وتقصت

(١) النيرجات : جمع نيرج . والنيرج : أخذ كالسحر وليس بسحر ، إنمـا هو تشبيه وتلبيس .
(٢) حزر الشىء : قدّره بالحدس . (٣) فى تاريخ الطبرى (ص ٨٣٤ من القسم الأول طبع أوربا) : « فأمر بقتله وسلخ جلده وحشوه تبنا وتعليقه على باب من أبواب جنديسابور يدعى باب المانى » . (٤) فى تاريخ الطبرى : « ثلاث سنين » .

بيوت الأموال . فلمـا كان فى بعض الأحيان ركب الى بعض متنزهاته وصيـده بجنّه الليل وهو يسير نحو المدائن، وكانت ليلة قمراء. فدعا بالمُوبَذ لأمر خطر بباله ، والموبذ عنـد المجوس كالقسيس عنـد النصارى ، فجعل يحادثه فتوسطا فى مسيرهم بين خرابات كانت من أمهات الضياع فخربت فى ملكه، وإذا بُومٌ يصيح وآخر يجاوبه ، فقال الملك : أَتُرى أحدًا من النـاس أُعطِىَ فَهْمَ ما يقول هـذا الطائر؟ ٥

فقال الموبذ : أنا أيهـا الملك ممن خصه الله تعالى بذلك . قال : فمـا يقول هـذا الطائر، وما يقول الآخر؟ فقال الموبذ : هذا بوم ذكر يخاطب بومة أنثى ويقول : متّعينى من نفسك حتى يخرج من بيننا أولاد يسبحون الله تعالى . فأجابته البومة : إن الذى دعوتنى اليه هو الحظ الأكبر، والنصيب الأوفر، إلا أنى أشترط عليك شرائطَ . فقال : وما هى؟ فقالت : أن تُقطِعَنى من خرابات أمهات الديار عشرين قرية مما خَرِبت فى أيام هذا الملِك السعيد . فقال له المَلك : فما الذى قال الذكر؟ قال الموبذ: كان من قوله لها : إن دامت أيام هذا الملك السعيد أقطعتُكِ منها ألف قرية ، فما تصنعين بها؟ قالت : فى اجتماعنا ظهور النسل وكثرة الولد ، فنُقطِع كل واحد من الأولاد ضَيْعة . فقال الذكر : هذا سهل ما حَيِىَ الملك . ١٠

٤١/١٣

فلمـا سمع الملك هذا الكلام من الموبذ عَمِل فى نفسه وفكر فيما خوطب به ، فنزل من ساعته وخلا بالموبذ وقال له : ما هذا الكلام الذى خاطبتنى به؟ فقد حركت منى ما كان ساكنا . فقال : صادفت من الملك وقتَ سعدٍ بالعباد والبلاد، فجعلت الكلام مثلا وموقظا على لسان الطائر عنـد سؤال الملك إياى . فقـال له الملك : أيهـا الناصح للملك ، [المنبه على][1] ما أغفله من أمور ملكه، وأضاعه من أمور بلاده ورعيته، اكشف لى عن هذا الغرض ما المراد منه. فقال له : أيها الملك ! ان المُلك ١٥ ٢٠

(١) التكلة من مروج الذهب للسعودى (ج ١ ص ١٢١ طبع بلاق) .

لا يتمّ إلا بالشريعة والقيام لله بطاعته، ولا قِوام للشريعة إلا بالمِلك، ولا عزّ للملك إلا بالرجال، ولا قيام للرجال إلا بالمال، ولا سبيل للمال إلا بالعمارة، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل، والعدل هو الميزان المنصوب بين البرية، نصبه الربّ وجعل له قيّما وهو المَلِك .

٥ قال : أما ما وصفت فحق، فأَبِنْ لى عما اليه تقصد، وأوضح لى فى البيان .

قال : نعم أيها الملك! عمدتَ الى الضياع فأقطعتها الخدمَ وأهل البطالة فعمدوا الى ما تعجل من غلاتها فاستعجلوا المنفعة وتركوا العمارة والنظر فى العواقب وما يُصلح الضياع، وسومحوا فى الخراج لقربهم من الملك، ووقع الحيف على الرعية وعُمّار الضياع فانجلوا عن ضياعهم، وقلّت الأموال، وهلكت الجند والرعية، وطمع

١٠ فى ملك فارس من طمع فيه من الملوك والأمم، لعلمهم بانقطاع المواد التى بها تستقيم دعائم الملك . فلما سمع الملك ذلك أقام فى موضعه ثلاثة أيام، وأحضر الوزراء والكتاب وأرباب الدواوين، فانتُزِعت الضياع من أيدى الخاصة والحاشية ورُدّت إلى أربابها، وحُمِلوا على رسومهم السالفة، وأُخذوا بالعمارة، وقَوِىَ من ضعف منهم، وعَمَرت البلاد، وكثرت الأموال، وقويت الجند، وانتظم ملكه حتى كانت

١٥ أيامه تدعى بالأعياد، لما عمّ الناسَ من الخصب، وشملهم من العدل . وكان ملكه سبع عشرة سنة .

ثم ملك ابنه بهرام بن بهرام بن بهرام البطل، وكان يدعى شكان شاه، وهو الذى يقال له شاهنشاه[1] . فكان ملكه أربعين[2] سنة وأربعة أشهر .

ثم ملك بعده أخوه نرسى بن بهرام الثانى فكان ملكه تسع سنين . وقيل

٢٠ سبع سنين وخمسة أشهر .

(١) شاهنشاه : معناه ملك الملوك . (٢) فى تاريخ الطبرى : « أربع سنين » .

ثم ملك بعده آبنه هرمز بن نرسى . قال : وكان فظا إلا أنه كان يرفُق بالرعية، وكان حسن السيرة فيهم . وكان ملكه سبع سنين وخمسة أشهر .

ثم ملك بعده آبنه سابور بن هرمز ؛ وهو الملقب بذى الأكتاف . وكان هرمز قد تركه حملا فى بطن أمه ، فعقدوا التاج على بطنها ، وقام الوزراء بتدبير الأمر مدّة حملها ، وفى مدّة رضاع سابور وطفولته وصغره حتى كبر ؛ فكتب إليه ٥ الناس الكتب من الآفاق وأجابهم، ووجه البريد إلى الافاق والأطراف، ورتّب الوزراء والكتّاب وقرّر العمال .

قال : وكان قد شاع فى الممالك أن ملك الفرس صغيرُ السنّ ، وأنه يتدبّر برأى وزرائه ، ولا يدرى ما يراد منه ، ولا ما يكون من الأمر ، فطمع فى مملكة الفرس الترك والروم والعرب . وكانت أدنى بلاد الأعداء إلى الفرس بلادُ ١٠ العرب . وكانت العرب من أحوج الأمم إلى تناول شىء من المعاش لسوء حالهم وشظف عيشهم ، فانبسطت أيديهم فى البلاد وغلبوا أهلها عليها وآتسعت حالهم وكثرت مواشيهم، وأفسدوا فى بلاد فارس، ومكثوا كذلك حينا، وقد أمنوا جانب الفرس وآطمأنّوا من قتالهم لقلة هيبتهم . وكان الذى غلب على سواد العراق من العرب جمرةُ العرب ولدُ إياد بن نزار . وكان يقال لها طبق لإطباقها على البلاد، ١٥ ومَلِكُها يومئذ الحارث بن الأغر الإيادى . قال : ولما ترعرع سابور جعل ٤٢/١٣ الوزراء يعرضون عليه أمر الجنود الذين فى الثغور، وأن الأخبار وردت عليهم أن أكثرهم قد أخلّ، وعظّموا عليه الأمر وهوّلوه، فقال لهم : لايَهُولَنَّكم ذلك، فالخطب فيه غيرُ جسيم، والحيلة فى ذلك يسيرة . وأمر الكتّاب أن يكتبوا الى أولئك الجنود أنه قد انتهى إلىّ طولُ مكثكم فى النواحى التى أنتم فيها ، وعِظَمُ عنائكم وذبُّكم عن ٢٠ إخوانكم وأوليائكم، فمن أحب منكم الانصراف الى أهله فلينصرف مأذونا له فى ذلك،

ومن أحبّ أن يستكمل الفضل بالصبر فى موضعه عرفنا له ذلك ؛ وتقدّم الى من اختار الانصراف منهم بلزوم أهله وبلاده الى وقت الحاجة إليه . فلما سمع الوزراء قوله ورأيه استحسنوه وقالوا : لو كان هذا قد أطال تجربة الأمور وسياسة الجنود مازاد على ماسمعناه . ثم تتابعت آراؤه فى تقويم أصحابه وقمع أعدائه ،حتى إذا تمت له ستُّ عشرة سنة جمع أساوِرَته وأمرهم بالاستعداد لقتال العرب . وكانت إياد تَصيف بالجزيرة وتَشْتو بالعراق . وكان فى جيش سابور رجل منهم يقال له لَقيط[1]، فكتب الى إياد شعرا ينذرهم وهو :

سلامٌ فى الصحيفة من لَقيطٍ ... الى مَنْ بالجزيرة من إياد

بأن الليث آتيكم دَلِيفا[2] ... فلا يحبسْكُمُ سَوْقُ النِّقاد

أتاكم منهمُ سبعون ألفا[3] ... يُزَجُّون الكتائب كالجراد

(١) هو لقيط بن بكر، شاعر جاهلىّ قديم مقل، كما ورد فى كتاب الأغانى (ج٢٠ ص٢٣ طبع بلاق). وفى المؤتلف والمختلف فى أسماء الشعراء وكناهم للآمدى (ص ١٧٥ طبع مصر) وكتاب الاشتقاق لابن دريد (ص ١٠٤ طبع أوربا) : « لقيط بن معبد الإيادى» . وفى كتاب « منتهى الطلب من أشعار العرب » لمحمد بن المبارك المحفوظ منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٣ أدب ش خمس ورقات (من ص ٣٥٠ — ٣٥٩) كتب فى أولها : « ديوان شعر لقيط بن يعمر الإيادى » ، وتشتمل هذه الورقات على الأبيات المذكورة هنا وقصيدته العينية المشهورة التى مطلعها :

يادار عمـرة من محتلها الجرعا ... هاجت لى الهمّ والأحزان والوجعا

(٢) كذا فى شرح القاموس مادة «دلف» والمؤتلف والمختلف . وفى الأصول : «يأتيكم دلافا» وهو تحريف . وورد هذا البيت فى الأغانى ومنتهى الطلب هكذا :

بأن الليث كسرى قد أتاكم ... فلا يشغلكم سوق النقاد

وقوله : «آتيكم دليفا» يريد : يمشى مشى المقيد . والنقاد : الغنم .

(٣) فى المؤتلف والمختلف ومنتهى الطلب :

* أتاكم منهم ستون ألفا *

فلم يعبثوا بكتابه ، وسراياهم تكرّ نحـو العراق وتُغير على السواد . فلما تجهّـز القوم نحوهم ظَفر بهم سابور فعمّهم بالقتل، وما أُفلت منهم إلا نفر لحقوا بأرض وَبارِ (١) ، وخلع سابور أكتاف كثير منهم ، فلذلك سُمّى ذا الأكتاف . وكان سابور فى مسيره أتى البحرين وفيها بنو تميم فهربوا ، وشيخُها يومئـذ عمرو بن تميم بن مرة وعمره ثلثمائة سنة، وكان يُعلّق فى عمود البيت فى قُفّة، فأرادوا حمله فأبى عليهم إلا أن يتركوه فى ديارهم وقال لهم : أنا هالك اليوم أو غدا فتركوه . فلما صبحت خيـل سابور الديار لقوها خالية ، فلما سمع عمرو صهيل الخيـل جعل يصيح بصوت ضعيف، فحمل إلى سابور ، فلما نظر إلى دلائل الهَرَم ومرور الأيام عليه قال له : من أنت أيها الفانى ؟ قال : أنا عمرو بن تميم بن مرة، قد بلغت من الكِبَر ما ترى ، وقـد هرب الناس منك لإسرافك فى القتل ،فآثرت الفناء على يديك ليبقى من بقى من قومى، ولعل الله يُجرى على يديك فرَجهم، وأنا سائلك عن أمر إن أذنت فيه؛ فقال سابور: قُلْ نَسمعْ؛ فقال : ما الذى حملك على قتل رعيتك من رجال العرب؟ فقال سابور : أقتلهم لمـا ارتكبوا فى بلادى وأهل مملكتى؛ فقال عمرو : فعلوا ذلك ولستَ بقيِّم عليهم؛ فلما ملكت وقفوا عما كانوا عليه من الفساد هيبة لك؛ قال سابور : وأقتلهم لأنا نجد فى مخزون علمنا وما سلف من أنباء أوائلنا أن العرب ستُدَال علينا . فقال عمرو : هـذا أمر تظنه أم تحققه ؟ قال : بل أتحققه ولا بدّ أن يكون ؛ فقـال عمرو : فلِمَ تسئُ إليها؟ والله لئن تُبق عليها وتُحسن إليها ليكافئون قومك عند إدالة الدول إليهم بإحسانك، وإن أنت طالت بك المدّة كافئوك عند مصير الأمر إليهم إن كان حقـا ، وإن كان باطلا فلِمَ تتعجل الإثم وتَسفِك دماء رعيتـك ؟ فقال

---

(١) فى مروج الذهب للسعودى (ج ١ ص ١٢٢) «بأرض الروم» ، و «وبار» على وزن قطام وحذام : أرض واقعة ما بين الشحر الى تخوم صنعاء . (انظر معجم البلدان لياقوت) .

سابور : الأمر صحيح والحقّ ما قلت ، ولقد صدقتَ فى القول ونصحت . فنادى منادى سابور بأمان النـاس ورَفْعِ السيف . و يقال : إن عمرا بقِىَ بعد هذا الوقت ثمانين سنة .

ثم سار سابور إلى أرض الروم ففتح المدن وقتل خلائق من الروم وقال لمن معه : إنى أريد أن أدخل بلاد الروم متنكرا لأتعرّفَ أحوالهم وسيرهم ومسالك[1] بلادهم ، فإذا بلغتُ من ذلك حاجتى انصرفت الى بلدى فسرت إليهم بالجنود ؛ فحذّروه التغرير بنفسه فلم يقبل قولهم . وسار متنكرا الى أرض القسطنطينية فصادف وليمة لِقَيْصَرَ اجتمع فيهـا الخاص والعـامّ ، فدخل فى جملتهـم وجلس على بعض موائدهم ، وقد كان قيصرُ أمر مصوّرا أتى عسـكر سابور فصوّره وجاء الى قيصَر بالصـورة ، فأمر بهـا فصوِّرت على آنيـة الشراب من الذهب والفضة ، وأُتى بعضُ من كان على المـائدة التى عليها سابور بكأس ، فنظر بعض الخدم الى الصورة التى على الكأس ، وسابور مقابل له ، فانطبعت مثـالا لصورة سابور ، فقام الى الملك فأخبره ، فَمَثَـل بين يدى الملك ، فسأله عن خبره فقال : أنا من أسـاورة سابور وهربت منه لأمر خِفْته منه[2] . فلم يقبل ذلك منه ، وقُدِّم إلى السيف فأقرّ بنفسه ، فجُعِل فى جلد بقرة ، وسار قيصر فى جنود حتى توسـط العراق ، فافتتح المدن ، وشنّ الغارات ، وعقر النخل ، وانتهى الى مدينة نيسابور ، وقد تحصن بها وجوه فارس ، فنزل عليهـا وحضر عيدا للنصارى فأغفل الموكَّلون بسابور أمرَه ، وأخذ منهم الشراب ، وكان بالقرب من سابور أُسارى من الفرس ، فراطنهم بالفارسية أن يَحُلّ بعضهم بعضا ، وأمرهم أن يصبّوا عليـه زِقَاق[3] الزيت ففعلوا ، فَلَانَ عليه

(١) كذا فى كتاب المعارف لابن قتيبة (ص ٣٢٤ طبع أوربا) . وفى الأصل : « ممالك » .
(٢) كذا فى مروج الذهب للمسعودى (ج ١ ص ١٢٤ طبع بلاق) . وفى الأصل : « إليه » .
(٣) الزقاق : جمع زق (بالكسر) ، والزق جلد يجز ولا ينتف يستعمل للشراب وغيره .

الجلد وتخلص، وأتى المدينة فراطنهم فرفعوه بالحبال ، ففتح خزائن السلاح وخرج على الروم فكبس جيشهم عند ضرب النواقيس ، فانهزم الروم، وأُتِىَ بقيصر أسيرا ، فأبقى عليه وضمّ إليه من أُسِرَ من أصحابه ، وأخذهم بغرس الزيتون بالعراق بدلا من النخل التى عقروها ، ولم يكن الزيتون بالعراق قبل ذلك . وفى فعل سابور ودخوله الى أرض الروم يقول بعض شعراء الفرس :

وكان سابورُ صفوا فى أُرومته * اختير منها فأضحى خيرَ مختار

إذ كان بالروم جاسوسا يجول بها * حوم المنيّة[1] من ذى كيد مكّار

فاستأسروه ، وكانت كبوة عجبا * وزلّة سبقت من غير عثّار

وأصبح الملِكُ الرومىُّ مغتربا * أرضَ العراق على هول وأخطار

فراطن الفرسَ بالأبواب فافترقوا * كما تجاوَبُ أُسْدُ الغاب[2] بالغار

فجذّ بالسيف أصلَ الروم فامتُحقوا * لله دَرُّكَ من طلّاب أوتار

إذ يغرِسون من الزيتون ما عَضَدُوا * من النخيل وما حَفُّوا بمنشار

وسابور هذا هو الذى بنى الإيوان المعروف بإيوان كسرى ، وبنى السّوس[3] والكرج[4] ونيسابور[5] . قال صاحب كتاب تجارب الأمم : وبنى بالسواد مدينة نرجس سابور ، وبنى الأنبار[6] . قال : وبنى مدائن أُخر بالسند وسجستان ، ونقل

(١) كذا فى مروج الذهب . وفى الأصل : «جزل البرية» . (٢) كذا فى مروج الذهب . وفى الأصل : «الغار» . (٣) السوس : مدينة قديمة بخوزستان فيها قبر دانيال النبيّ ولها بساتين وورد فى معجم البلدان لياقوت أن أوّل من بنى كور السوس وحفر أنهرها ردشير بن نهجن . (٤) الكرج : وتسمى قديما ايبريا ، وهى بين جبال القبج من الشمال وأرمينية وأرّان من الجنوب ؛ وأشهر مدنها : تفليس وباكو . واسم الكرج مشتق من نهر الكر الذى يجرى هناك ؛ وهى إقليم القوقاز الآن . (٥) نيسابور : حاضرة خراسان ، واسمها أيضا « نشاور » وكانت قاعدة الدولة الظاهرية (٢٠٥ — ٢٥٩ هـ) .

(٦) الأنبار : هى « فيروز سابور » مدينة بالعراق بينها وبين بغداد ١٠ فراسخ على نهر الفرات قرب مخرج نهر عيسى . واختلف المؤرّخون فيمن بناها ، فقيل هو سابور بن هرمز (ذو الأكتاف) كما أورده المؤلف هنا . وقال ابن الأثير : بنيت الحيرة والأنبار أيام بختنصر . وفتحت هذه المدينة فى خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه سنة ١٢ من الهجرة على يد خالد بن الوليد رضى الله عنه .

٤٤ / ١٣

طبيبا من الهند وأسكنه السوس، فورِث طِبَّه أهلُ السوس . وهلك سابور بعد آثنتين وسبعين سنة من ملكه .

ثم ملك بعده أردشير بن هرمز وهو أخو سابور بن هرمز هذا . قال : ولما ملك ظهر منه شرّ كثير وقتل من العظماء وذوى الرياسة خلقا كثيرا، فاجتمع الناس على خلعه فخلعوه بعد أن ملك أربع سنين .

ثم ملّكوا عليهم بعده سابور بن سابور . قال : ولما ملك استبشرت الرعية برجوع ملك أبيه إليه، فأحسن السيرة ورَفق بالرعيّة . وكانت له حروب كثيرة مع إياد بن نزار وغيرها [من العرب][1]، وفيه يقول شاعر إيادىّ :

على رغم سابور بن سابور أصبحت * قِبابُ إياد حولها الخيل والنَّعَمْ

وكان ملكه خمس سنين وأربعة أشهر، وسقط عليه فُسطاط كان ضرب عليه فمات .

وملك بعده أخوه بهرام بن سابور ذى الأكتاف، وهو الملقب كِرْمان شاه؛ لأن سابور كان ولّاه كِرْمان . قال : وكان حسن السيرة، جميل السياسة، محمود الأثر، محبّبا للرعية . وكان ملكه عشر سنين . وقيل إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر وثمانية عشر يوما .

وملك بعده آبنه يزدجرد بن بهرام المعروف بالأثيم . قال : وكان فظّا غليظا، ذا عيوب كثيرة، وكان من أشدّ عيوبه وضعُه ما آتاه الله من ذكاء ذهن وحسن أدب فى غير موضعهما؛ وذلك أنه كان كثير الرَّوِيّة فى المضارّ من الأمور، واستعمل الذى أوتيه فى الدهاء والحِيَل، واستخف بكل علم كان عند الناس، وآحتقر آدابهم، وتعاظم عليهم واستطال بما عنده . وكان مُعْجَبًا بنفسه سيىء الخلق، حتى بلغ من شدته وحدّته أنه كان يستعظم صغار الزلات، ولا يرضى فى عقوبتها إلا بما لا يُستطاع .

(١) الزيادة من مروج الذهب .

وكان لا يقدر أحد من بطانته — وإن كان لطيف المنزلة منه — أن يشفع عنده لمن ٱبْتُلِيَ به وإن كان ذنب المُبتلَى به يسيرا، ولم يكن يأتمن أحدا على شيء ألبتّة، ولا يكافئ على حسن البلاء . وكان يعتدّ بالخسيس من المعروف اذا أولاه ويستجزل ذلك ، فإن جَسَرَ على كلامه أحد فى أمر قال له : ما قدر جُعَالتك فى هذا الأمر الذى كلمتنا فيه ، وما الذى بُذِل لك بسببه ؟ وما أشبه ذلك . فلما اشتدت بليّة الناس به ، وكثرت إهانته للعظماء، وأكثر من سفك الدماء ، واستعمل الضعفاء فى الأعمال الشاقة، وحمّلهم مالا طاقة لهم به، تضرّعوا الى الله عز وجل وسألوه أن يُنقِذهم منه . فزعم الفرس أنه كان ذات يوم مطلعا من قصره إذ رأى فرسا عائرا لم يُرَ مثله قط فى الخيل من حسن الصورة وتمام الخلقة حتى وقف على بابه، فتعجب الناس من ذلك، فأمر يزدجرد أن يُسرج ويُلجم ويُدخل عليه به، فحاول السوّاس وأصحاب المراكيب أن يُلجموه أو يُسرجوه فعجزوا عن ذلك، ولا مكّنهم الفرس من نفسه، فخرج يزدجرد بنفسه الى الفرس وتقدم اليه وأسرجه وألجمه ولبّبه وهو لم يتحرك، فلما استدار ورفع ذنبه لِيُثْفِره[1] رمحه الفَرَسُ على فؤاده رَمْحَةً فهلك منها لساعته، ثم لم يُعاين الفرس بعد ذلك؛ فأكثرت الفُرس فى حديثه فظنّوا الظنون . وكان أحسنهم مذهبا وأمثلهم طريقة مَنْ قال : إنما استجاب الله عز وجل دعاءنا . فكان ملكه الى أن هلك إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر وثمانية عشر يوما . وقيل اثنتين وعشرين سنة غير شهرين .

قال : وكان ٱبنه بهرام جور فى حِجْرِ النعمان بن المنذر بن ماء السماء أسلمه أبوه اليه ليُرَبِّيَه بالحيرة لصحة هوائها . وقد تقدّم خبره فى ذكر بناء الخورنق والسدير[2] .

---

(١) أثفره : وضع الثفر تحت ذنبه . والثفر (بالتحريك ويسكن) السير الذى يوضع فى مؤخر الرحل وتحت ذنب الدابة .

(٢) راجع (ج ١ ص ٣٨٥ من هذه الطبعة) .

فعدل الفرس عنه لسوء أثر يزدجرد فيهم وملّكوا عليهم كسرى، وهو رجل من عِترة ساسان، فاستعان بهرام جور بالعرب وأرسل الى الفُرس وأعلمهم إنكارَه سيرة أبيه، ووعدهم بإصلاح مافسد، وأنه إن مضى لملكه سنة ولم يَفِ لهم بما بذل تبرّأ من المُلك طائعا، فمال اليه قوم و بقيت طائفة مع كسرى، فتراضوا أن يوضع تاج الملك
٥ بين أسدين مُشْبِلَيْن فمن تناوله فهو الملك . وكان بهرام جور شجاعا بطلا، فلما وقف هو وكسرى الى جانب الأسدين هابهما كسرى، فوثب بهرام جور فإذا هو على ظهر الأسد وعصر جنبيه بفخذيه، فلما تمكّن منه قبض على أذنيه، ولم يزل يضرب رأس الأسد برأس الآخر حتى قتلهما . فكان كسرى أوّل من هتف به وأذعن له .

٤٥/١٣ فملك بهرام جور بن يزدجرد، فأحسن السيرةَ، وجلس سبعة أيام متوالية
١٠ للجند والرعيّة، يَعِدُهم الخير من نفسه و يحضّهم على تقوى الله وطاعته . وكان جلوسه على سرير الملك وهو ابن عشرين سنة، فغَبَر زمانا وهو يحسن السيرة، ويُعْمِر البلاد، و يدرّ الأرزاق، ثم آثر اللهو على ذلك وكثرت خلواته بأصحاب الملاهي حتى كثُرت عليه الملامة من أرباب دولته، وطمِع مَنْ حوله من الملوك فى استباحة بلاده والغلبة على مُلْكه . وكان أوّل من سبق الى مغالبته ومكاثرته خاقانُ ملك الترك، وغزاه
١٥ فى مائتى ألف وخمسين ألفا من الأتراك، فبلغ الفُرْس إقبالُ الترك فى هذه الجموع العظيمة فهالهم ذلك، ودخل على بهرام جور جماعة من عظماء الفرس وأهل الرأى والنجدة وقالوا : أيها الملك، قد أرهقك من بائقة(1) عدوّك ما يشغَلك عما أنت فيه من اللهو والتلذذ، فتأهّب له لئلا يلحقك منه أمر يلزمك فيه مسبّة وعار . وكان بهرام لثقته بنفسه ورأيه يجيب القوم بأن يقول : الله ربنا قوىّ ونحن أولياؤه . ثم يقبل
٢٠ على ما هو عليه من اللهو والصيد .

(1) البائقة : الداهية .

قال: ثم أظهر بهرام جور التجهز الى أذربيجان ليتنسّك فى بيت نارها، ويتوجه منها الى أرمينية ويتصيّد فى آجامها ، وسار فى سبعة رَهْطٍ من عظماء الفرس وأهل البيوتات، وثلثمائة رجل من رابطته ذوى بأس وشدّة ونجدة، واستخلف أخا له يقال له نرسى على ملكه ، فما شك الناس — لما بلغهم ذلك — أنه هرب من خاقان، فتآمر الفرس فى مراسلة خاقان والانقياد الى طاعته والإقرار له بالخراج ؛ مخافة منه أن يستبيح بلادهم، فاتصل هذا الخبر بخاقان فاطمأنّ وترك التحفظ والاستعداد وآثر المسالمة . وتعرّف بهرام خبرَ خاقان وحال جنده وماهم عليه من الطمأنينة والفتور وعدم الاستعداد ، فسار بمن معه وبيَّت خاقان وقتله بيده . فلما علم الأتراك أن ملكهم خاقان قد قتل انهزموا لا يَلْوُون على شىء وخلّفوا أثقالهم وأموالهم . فأكثر بهرام فيهم القتل وأمعن فى طلبهم، وحاز غنائم لم يسمع بمثلها، وسبى من ذرّيتهم كثيرا. وكان مما غَنِمه تاجُ خاقان وإكليلُه ، وغلب على بلاد الترك وانصرف بالظفر والغنائم، وكتب الى أهل مملكته يعلمهم بما حصل له من الظفر بخاقان وجموعه بمن كان معه من أولئك القوم الذين استصحبهم معه .

وكان بهرام يتكلّم بلغات كثيرة، منها اللغة العربية . ومما حُفِظَ من شعره يوم ظَفَره بخاقان :

أقول له لما فَضَضْتُ جموعَه * : كأنك لم تسمع بصولات بهرام

وأَنِّىَ حامى مُلْكَ فارسَ كلِّها * وما خيرُ مُلْكٍ لا يكون له حامى

ومن شعره أيضا :

لقد علم الأنامُ بكل أرض * بأنهمُ قد آضحَوْا لى عبيدا

ملكتُ ملوكَهم وقهرتُ منهم * عزيزَهم المُسوَّدَ والمَسُودا

فتــلك أسودهم تبـــغى حِذَارى[1] * وترهب من مخـافتىَ الوُرودا
وكنتُ إذا تشـاوس[2] مَلْكُ أرض * عَبـأْتُ له الكتائبَ والجنـــودا
فيعطيـــنى المقـادةَ أو أوافى * به يشـكو السـلاسلَ والقيـودا

قال : ولمـا قُتِل خاقان بعث بهرام جور أحدَ قوّاده إلى ما وراء النهر فغزاهم وأقرّوا لبهرام بالعبودية وأداء الجزية . قال : وأسقط بهرام جور عن رعيتـه إثر هـذا الظفَرِ خراج ثلاث سنين ، وترك ما كان قد بقى من الخراج ولم يُستخرج من قسط تلك السـنة ، وكان سبعين ألف ألف درهم ، وقسم فى الفقـراء مالا عظيما وفى أهل البيوتات والأحسـاب عشرين ألف ألف درهم ؛ ونَحَـل بيت النـار بأذر بيجـان جميعَ ما غنمه من الترك من اليواقيت والجواهر والتـاج والإكليل .

٤٦
١٣

ويقال إن بهرام دخل إلى أرض الهنـد متنكرا فمكث حينا لا يُعرف حتى بلغه أن فيلا قد هاج وقطع السُّبُل وأهلك الناس ، فسألهم أن يَدُلوه عليه ، فرُفِع أمره إلى الملك فأرسل معه رسولا ، فلما انتهى إليه أوفى[3] الرسول على شجرة لينظر ما يصنع بهرام مع الفيل ، فصرخ بالفيل فخرج اليه ، فجعل يرميه و يثبّت النُّشّاب بين عينيه ، ثم دنا وأخذ بِمشْفره وجذبه جذبة خرّ منها الفيل ، ثم آحتز رأسه وأقبل به إلى الملك فحباه وأحسن اليه .

ثم إن ملـكا من أعداء ذلك الملك أقبـل لغزوه فَجَـزِع ذلك الملك من كثرة جنـود الملك الذى أتى نحـوه ، فقال له بهـرام : لا يهولنّك أيهـا الملك أمره ؛ فركب بهرام وقال لأساورة الهند : احموا ظهرى ، وانظروا إلى عملى ، وكانوا لا يُحسِنون الرمى ، وأكثرهم رَجّالة ، فحمل عليهم حملة هدّهم بها ، ثم جعل يضرب الرجل فيقطعه

(١) فى مروج الذهب للسعودى « تقعى » ، والإقعاء : أن يلصق أليتيه بالأرض . ينصب ساقيه ويضع يديه على الأرض . (٢) تشاوس اليه ، نظر اليه بمؤخر العين تكبرا .
(٣) أوفى : أشرف عليها .

نصفين ، و يأتى الفيل فيضرب بمشفره و يكبّه و يأخذ مَنْ عليه فيقتله ، و يأخذ الفارس فيذبحه على قَرَبوس سرجه ، و يتناول الرجلين فيضرب أحدهما بالآخر فيموتان جميعا ، و يرمى فلا تقع له نُشابة إلا فى رَجُل ، فولَّوْا أمامه منهزمين ، وحمل الذين كانوا يحرُسون ظهره عليهم فأكثروا القتل فيهم ، فزوّجه ملك الهند بنته ونَحَلَه الدَّيْبُل(١) ومُكران وما يليهما من أرض السند وأشهد له بذلك ، وآنصرف بهرام جور إلى مملكته وضمّ ذلك إلى بلاده وحمل خراجها إليه ، ثم أغزى بهرام جور أخاه نرسى إلى بلاد الروم فى أربعين ألفا فدخل القسطنطينية وهادن ملك الروم على إتاوة يحملها إلى أخيه . ثم مضى بهرام جور إلى أرض السودان على طريق اليمن فأوقع بهم وعاد إلى مملكته وهلك بعد ذلك فى ماء . وذلك أنه توجه إلى الصيد فشدّ على عَيْر وأمعن فى طلبه ، فارتطم فى ماء فى سبخة فغرق فيه ، فسارت أمه إلى ذلك الموضع بمال عظيم ونزلت بالقرب منه ، وأمرت بإنفاق تلك الأموال على من يخرجه ، فنقلوا طينا عظيما وحمأة كثيرة حتى صار من ذلك آكاما عظاما ولم يقدروا على [استنقاذ(٢)] جثته . وكان ملكه ثلاثا وعشرين سنة .

وحُكى عنه فى صغره ما يدلّ على نباهته ، وجوْدة فكرته وجميل رأيه . فمن ذلك أنه قال للنعمان بن المنذر لما بلغ عمره خمس سنين : أحضر لى مؤدّبين ليعلّمونى الكتابة والفقه والرمى والفروسية . فقال له المنذر : إنك بعدُ صغير السنّ ، ولم يَأْنِ لك ذلك بعدُ . فقال له بهرام : أَمَا تعلم أيها الرجل أنى من ولد الملوك ، وأن المُلك

(١) الديبل (بفتح الدال المشدّدة وسكون الياء التحتية وضم الباء الموحدة) : بلد صغير شديد الحر على شط ماء السند ، وهى من أكبر فرضه وأشهرها ، و بها سمسم كثير ، و يجلب إليها التمر من البصرة ، و يجلب منها المتاع الديبلى . ومكران (بضم الميم وسكون الكاف) : بلدة من بلاد كرمان ؛ وهى ناحية واسعة عريضة ، والغالب عليها المفاوز والقحط والضيق اهـ ملخصا من كتاب تقويم البلدان لأبى الفداء ، طبع باريس .

(٢) الزيادة عن كتاب غرر ملوك الفرس وسيرهم للثعالبى (ص ٥٦٨ طبع أوربا) .

صائر إلىّ ، وأولى ما كُلّف به الملوك وطلبوه صالحُ العلم؛ لأنه زَيْنٌ لهم وركن، وبه يُعرفون . أما تعلم أن كل ما يُتقدّم فى طلبه ، ينالُ فى وقته ، وما لم يُتقدّم فيه ويُطلب فى وقته، يُنال فى غير وقته ، وما يُفرّط فيه وفى طلبه يفوت ولا يُنال ؟ عجِّل علىّ بما سألتك . فبعث المنذر من ساعته إلى باب الملك من أتاه برهط من المعلمين الفقهاء والرماة، وجمع له حكماء الروم وفارس وغيرهم، وألزمهم إياه، ووقّت أوقاتا لكل منهم؛ فتعلّم بهرام من كل عِلْمٍ أحسنه ، وسمع الحكمة ووعى ما سمع منها، وثقُف كلَّ ما علم بأيسر شىء، وبلغ أربعَ عشرة سنة ، وقد فاق معلّميه، وحفظ للنعمان حقّ التربية، فملّكه على العرب لمّا صار الملك إليه .

ولما هلك بهرام جور ملك بعده ابنه يزدجرد بن بهرام جور؛ فسار بسيرة أبيه ، ولم يزل قامعا لعدوه، كثير الرفق برعيته . وكان له ابنان أحدهما يسمّى هرمز، والآخر فيروز . ودام ملك يزدجرد تسعَ عشرة سنة ، وقيل ثمانى عشرة سنة وأربعة أشهر وثمانية عشر يوما ثم هلك .

فتغلّب على الملك بعده ابنه هرمز بن يزدجرد . ولما ملك هرمز هرب منه فيروز ولحق ببلاد الهياطلة [1] ، وأخبر ملكها بقصته وقصة أخيه هرمز ، وذكر أنه أحقُّ منه بالملك، وسأله أن يمدّه بجيش يقاتل به أخاه، فأبى عليه ملك الهياطلة وقال: سأعلم خبره ثم آمرك بعد ذلك بما تفعل . وكشف ملك الهياطلة عن خبر هرمز وتعرّف أحواله فبلغه أنه غَشوم ظَلوم ؛ فقال عند ذلك : إن الجور لا يرضاه الله تعالى ، ولا يصلح عليه الملك، ولا تقوم به سياسته؛ وأمدّ فيروز بالعساكر ودفع له الطالقان [2] ؛ فأقبل فيروز من عنده بجيش طخارستان وطوائف خراسان، فظفر بأخيه فحبسه .

(١) الهياطلة : الصغد، وهم بين بخارى وسمرقند .

(٢) طالقان : بلدة بخراسان بين مرو الروذ وبلخ بينها وبين مرو الروذ ثلاث مراحل وهى أكبر مدينة بطخارستان . عن (معجم البلدان لياقوت) .

وملك فيروز بن يزدجرد . ولما ملك أظهر العدل وحسن السيرة ، وكان يتديّن إلا أنه كان مشئوما على رعيته ، فقحِطَ الناسُ فى زمانه سبع سنين ، فأحسن فيها الى الناس ، وقسم ما فى بيوت الأموال . ويقال : إن الأنهار غارت فى مدّة القحط ، وكذلك القُنى والعيون ، وقِحلت الأشجار والغياض ، وهلكت الوحوش والطير ، وجاعت الدوابّ حتى كادت لا تطيق الحُمولة ، وعمّ أهلَ البلاد الجهدُ والمجاعةُ ، فبلغ من حسن سياسة فيروز لهذا الأمر أن كتب الى جميع الرعية : أنه لا خراج عليكم ولا جزية ولا سخرة ، وأنه قد ملّكهم أنفسهم ، وأمرهم بالسعى فيما يَقُوتهم ويُصلحهم ، وكتب بإخراج ما فى المطامير من الأطعمة وقسمها فى الناس ، وترك الاستئثار عنهم وتساوَى بهم ، وأخبر أهل الغنى والشرف ، بكل مدينة وقرية ، أنه إن بلغه أن إنسانا مات جوعا عاقب أهل تلك المدينة أو الجهة التى يموت بها ، ويُنَكِّل بهم أشدّ النكال . فقيل إنه لم يَهْلِك فى هذا القحط والمجاعة من رعيته إلا رجل واحد من رُستاق[1] .

قال : ثم أغاثه الله فأمطرت السماء ، وجرت الأنهار ونبعت العيون ، وصَلُحت الأشجار ، وسمِنت المواشى ، فاستوثق له الملك ، وأخذ فى غزو أعدائه وقهرهم . وبنى مدنا إحداها بين جرجان [وباب صول][2] وأخرى بناحية آذربيجان . ثم سار بجنوده نحو خراسان لقصد حرب أخشنوار[3] ملك الهياطلة لأشياء كانت فى نفسه ، ولأن الهياطلة كانوا يأتون الذُّكران ويركبون الفواحش فسار اليهم ؛ فلما

---

(١) رستاق (بضم الراء) : مدينة بفارس من ناحية كرمان .

(٢) التكملة من الطبرى (ص ٨٧٤ من القسم الأوّل) .

(٣) كذا فى تاريخ الطبرى وكتاب المعارف لابن قتيبة (ص ٣٢٧) . وفى الأصل «اخنشوار» .

بلغ أخشنوار ملكُ الهياطلة خبره خافه وآشتدّ رعبه منه، وعلم أنه لا طاقة له به، وأن جيشه يضعف عن مقابلة الجيوش التى أقبل بها فيروز لخار فى أمره ؛ فتقدّم اليه رجل كبير السنّ من أهل بلاده وقال : أنا أفدى الملك وأهل مملكته بنفسى، فليأمر الملك بقطع يدىّ ورجلىّ ويؤثر فى جسدى آثار العقوبة بضرب السياط، ويُلْقِنى فى الطريق التى يمرّ فيروز بها، ويُحسن إلى ولدى وعيالى الذين أخلفهم ؛ ففعل به ذلك وأمر بإلقائه فى الطريق . فلما مرّ به فيروز أنكر حاله، فأخبره أن أخشنوار فعل به ذلك؛لأنه أشار عليه بالانقياد إلى طاعة فيروز والإقرار بعبوديته، وأن يحمل إليه من الأموال والتحف ما يُرضيه ؛ فرقّ له الملك فيروز ورَحِمَه وأمر بحمله معه، فنهاه أكابر قومه عن تقريبه فلم يرجع إليهم ، ثم قال له ذلك الأقطع كالمتنصّح[1] له : أنا أدُلّ الملك على طريق مختصر تدخل منه فى مفازة إلى بلاد أخشنوار، فتصادف غِرّته؛ وسأله أن يشتفىَ له منه . فاغترّ فيروز بذلك ، وأخذ الأقطعُ بفيروز ومن معه وعدل بهم عن الطريق الجادّة وشرع يقطع بهم مفازة بعد مفازة . فلما شَكَوْا العطشَ منّاهم بقرب الماء وقطع المفازة . ولم يزل يتقدّم بهم حتى بلغ بهم موضعا علم أنهم لا يقدرون فيه على التقدّم ولا الرجوع ، فتبين لهم أمره ، فعندها سُقِطَ فى أيدى القوم وقالوا لفيروز : ألم نَنْهَك عن هذا الرجل فلم تنته؟ فهلك أكثر أصحابه من العطش، ومضى على وجهه بمن نجا معه؛ فوافى أخشنوار وقومَه؛ وهو ومن نجا معه على أسوإ حال، وقد أجهدهم العطش، فدعَوْا أخشنوار إلى الصلح على أن يُخَلِّىَ سبيلهم وينصرفوا إلى بلادهم ، وعاهدوه على ألا يغزوَهم أبدا، فرضى أخشنوار بذلك وحصل آتفاقهما على أن يجعلا بينهما حدّا لا يتجاوزه واحدٌ منهما ، ووُضِعَ عند الحدّ حجر، وحلّفه أخشنوار أنه لا يتجاوز ذلك الحجر،

(١) المتنصح : الذى يتشبه بالنصحاء .

لخلف له وأخذ عليــه العهود والمواثيق وأطلقــه أخشــنوار ، فعــاد فيروز إلى بلاده .

فلما سار إلى مملكته داخلته الحمية وحملته الأنفة على محاربة أخشنوار والغدر به ، فنهاه أهل مملكته عن ذلك وقبحوا عليه نقض العهود والمواثيق ، فلم يرجع الى أقوالهم وأبى إلا غزوه . وسار بجيوشه حتى أتى الحد الذى بينهما والحجر الذى حلف أنه لا يتجاوزه الى بلاد الهياطلة ، فأمر فيروز بالحجر أن يصمد فيه خمسون فيلا وثلثمائة رجل ، يجــره أمامه وأمر العسكر ألا يتجاوز ذلك الحجر ولا يتقدم الفيلة ، وزعم أنه يكون قد وفى بيمينه ولم يتجاوز ما عاهد عليه . فلمــا بلغ أخشنوار ذلك أرسل اليه يقول : إن الله عز وجل لا يخادع ولا يماكر ، ونهاه عن الغدر وقبحه عليه ، وهو لا يكترث بقوله ، وأحجم أخشنوار عن محاربة فيروز وكرهها ، ثم أعمل الفكرة وأخذ يفكر فى وجوه المكايد والمكر والخداع ، لحفر حــول عسكره خندقا عرضه عشرة أذرع ، وعمقه عشرون ذراعا ، وغطاه بخشب ضعيف وألقى عليه التراب ، ثم ارتحل بمن معه ومضى غير بعيد ، فبلغ فيروز رحيل أخشنوار بجنده من معسكره ، فما شك أنه انهزم منه ، فركب فى طلبه وأغذ السير بجنوده — وكان مسلكهم على الخندق — فلما مروا عليــه تردى فيروز وعامة جنوده فيــه فهلكوا عن آخرهم وعطف عليهم أخشنوار واحتوى على كل شىء كان فى معسكر فيروز ، وأسر موبذان موبذ وجماعة من نســاء فيروز منهن دخت ابنة فيروز ، فكان هذا عاقبة مكره . وكان ملكه سبعا وعشرين سنة .

ولمــا هلك تنازع الملك بعده ابناه قباذ و بلاش ؛ فملك بلاش بن فيروز ابن يزدجرد . وكان حسن السيرة حريصا على العمارة ؛ و بلغ من حسن نظره أنه كان لا يبلغه أن بيتا خرب وجلا عنــه أهله إلا عاقب صاحب القرية التى فيها ذلك

البيت على تركهم إنعاش أهله وسد فاقتهم حتى لا يضطرون إلى الجلاء عن أوطانهم . ثم هلك بعد أربع سنين .

وملك بعده أخوه قُباذ بن فيروز . قال : وكان قباذ لما ملك أخوه بلاش سار الى خاقان يستنصره على أخيه ويذكر أنه أحقّ منه بالملك ؛ فمطَله بذلك أربع سنين ثم جهزه بجيش، فلما عاد وبلغ نيسابور بلغه وفاة أخيه بلاش . وكان قباذ فى مسيره إلى خاقان مرّ على نيسابور متنكرا وتزوّج بها بآبنة رجل من الأساورة وواقعها، فحملت منه بأنوشِروان وتركها بنيسابور، فلما عاد فى هذا الوقت سأل عن الجارية فأُتِى بها وآبنه منها أنوشروان، فتبرّك بهما وفرح بابنه، ثم عاد إلى بلاد فارس وبنى مدينة أرّجان وحُلوان وعدّة مدن أخر .

قال : وكان لقباذ خال يقال له سوخرا[(١)] وقيل فيه : ساخورا، وكان يخلُف فيروز والد قباذ على مدينة الملك بالمدائن، فجمع جموعا كثيرة من الفرس وقصد أخشنوار ملكَ الهياطلة وحاربه وآنتقم منه وآستنقذ جميع من كان أسره من الفرس ومن سباه من نساء فيروز، وأكثر ما كان قد آحتوى عليه أخشنوار من خزائن فيروز؛ فعظُم قدره عند الفرس ، وحَسُنَ فيهم أثره ، وكبُرت منزلته عند بلاش وقباذ إلى أن لم يبق بينه وبين الملك إلا مرتبةٌ واحدة، وتولى سياسة الأمر بحُنْكة وتجربة؛ ومال إليه الناس وأطاعوه ، وآستخفوا بقباذ ولم يعبأوا بأمره، وهان عندهم فما حملت نفسه هذه الإهانةَ والذُّلّ؛ فأخذ فى التدبير على ساخورا وكتب إلى سابور الرازى، وهو الذى يقال له اللبيب، وهو أصبهبذُ البلاد، فى القدوم عليه بمن قِبَله من الجند، فقدم بهم سابور فخاطبه قباذ فى أمر خاله ، فوافقه سابور عليه ، فأمره

(١) كذا فى نسخة أ وتاريخ الطبرى . وفى نسخة ب « سوجرا وقيل فيه ساجورا » بالجيم المعجمة .

قبـاذ بالتلطف فى هذا الأمر وكتمانه ، و إعمال الحيلة وحسن التدبير فيه ، فغدا سابور على قبـاذ فوجد خاله ساخورا عنده ، فتقدّم سابور إليه وهو آمن ، فألقى وَهَقـا [(١)] فى عنقه وآجتـذبه وأوثقه بالحديد ثم أودعه السجن ، وقتله قبـاذ وخافته الفرس بعده .

وفى أيام قباذ ظهر مَزدق — ويقال فيه : مَزْدَك ، وتفسيره : حديد الملك ؛ و إليه تضاف المزدقية ، ويقال لهم العدلية — وقال : إن الله تعالى إنما جعل الأرزاق فى الأرض مبسوطة ليقسّمها عبادُه بينهم بالسوية ، ولكن الناس يظلِمون ، واستأثر بعضهم على بعض ، فانضم اليه جماعة وقالوا : نحن نقسِم بين الناس بالسويّة ونردّ على الفقراء حقوقهم من الأغنياء ، ومَنْ عنـده فضلٌ من المـال والقوت والنساء والمتاع وغيرِ ذلك فليس هو له ولا أولى به من غيره ؛ فافترص السِّفْلة ذلك واغتنموه وآتبـعوا مَزْدَكَ وأصحـابه ، فقوِىَ أمرهم حتى كانوا يدخلون على الرجل فى داره فيغلِبونه على ما فيها من ماله ونسائه ولا يستطيع أن يردّهم عنه ولا يدافعهم . ورأى الملك قباذُ رأى مزدك وأصحابه وتابعهم فازداد قوة ، فلم يلبث الناس إلا قليلا حتى صار الأب لا يعرف ولده ، ولا الولد يعرف والده ، ولا يملِك أحد شيئا ، وصيّرت العدليـةُ قباذَ فى مكان لا يصل اليه غيرُهم ، فاجتمعت الفرس على خلـع قباذ من الملك ففعلوا ذلك .

وملّكوا عليهم عند ذلك جاماسف بن فيروز . وهو أخو قباذ . وقيل : إن المزدكية هم الذين أجلسوه . قال : ولـمـا ملك جاماسف قبض على أخيه قباذ وحبسه فاحتالت أخت قباذ فى خلاصـه . وذلك أنها أتت الى الحبس الذى هو

(١) الوهق (بتحريك الهـاء وتسكينها) : الحبل فى طرفيـه أنشوطة يطرح فى عنق الدابة والإنسان حتى تؤخذ .

فيه وحاولت الدخول الى أخيها ، فمنعها الموكَّلُ به من الدخول اليه، وطمِع أنه يَفضحها، وأعلمها أنه لا يمكّنها من العبور إليه إلا إن وافقته على قصده، فأطمعته فى نفسها وقالت : إنى لا أخالفك فى شيء ممـا تهواه منى، فمكّنها من الدخول الى السجن والاجتماع بأخيها قباذ، فدخلت اليه وأقامت عنده أياما، ثم لفته فى بساط ٥ أمرت بعض الغلمان أن يحمله فحمله على عاتقه ، فلما مر الغلام بالموكَّل بالحبس سأله عن حمـله فاضطرب الغـلام فلحقته وقالت : إنه فِراشٌ كنت أفرشه تحتى وعَرَكْت فيه[1]، وأنها خرجت لتتطهرَ وتعودَ، فصدّقها ولم يَمَسّ البساط ولم يَدْنُ منه استقذارا له على مذهبهم فى ذلك، فمضى الغلام به وخرجت أخته فى أثَرِه، وهرب قباذ فلحق بأرض الهياطلة يستمد ملكها ليمده بجيش يحارب من خالفه، ويقال : ١٠ إن زواجه بأم كسرى أنو شروان كان فى هـذه السفرة لا فى تلك ، وأنه تزوّجها بأَبْرشَهر[2]، وهى ابنـة رجل من عظمائها ، وأنه رجع به وبأمه عنـد عوده من بلاد الهياطلة . قال : وسار قباذ الى ملك الهياطلة فأقام عنده عدّة سـنين ، ثم عاد الى بلاده بأمداده ، فغلب على أخيه ونزعه من الملك بعد أن ملك ستَّ سنين .

ثم عاد قباذ الى الملك ثانيـا ، ولـما عاد الى الملك وجد آبن ساخورا قد وثب ١٥ فى جماعة من أصحابه على مَزْدَك فقتله ، فسُـعِىَ به الى قباذ فقتله بمزدك . قال : ثم غزا الروم وافتتح آمد، ثم أدبر ملكه لسوء عقيدته . وهلك قباذ إثر ذلك .

وكان سبب هلاكه أن الحارث بن عمرو الكندى قتل النعمان بن المنذر ٥٠/١٣ ابن آمرئ القيس ، وملَك العـربَ وما كان ملَكه النعمان ، فبعث قباذ بن فيروز

---

(١) عركت المرأة : حاضت .

٢٠ (٢) كذا فى تاريخ الطبرى ومعجم البلدان لياقوت وذكر أن شهر بالفارسية هو البلد، وأبر : الغيم، وما أراهم أرادوا إلا خصبه . وأبرشهر هى نيسابور . وفى الأصل : « بأرشهر » .

الى الحارث بن عمرو يقول : إنه كان بيننا و بين الملك الذى كان قبلك عَهْدٌ، و إنى أحبّ لقاءك ؛ وخرج للقائه فى عَدَد وعُدّة، وجاءه الحارث والتقيا بمكان، فأمر قباذ بطبق من تمر فنُزِع نواه وبطبق آخر على حالته، فوُضعا بين أيديهما، وجُعل المنزوع بين يدى قباذ ، والذى هو بنواه بين يدى الحارث ، فجعل الحارث يأكل التمر ويُلقِى النوى، وقباذ يأكل التمر ولا يحتاج الى إلقاء شىء . فقال للحارث : مالك لا تأكل كما آكل؟ فقال الحارث : إنما يأكل النوى إبلُنا وغنمنا، وعلم أن قباذ يهزأ به . ثم آفترقا على الصلح على ألا يجاوز الحارث وأصحابه الفرات، إلا أن الحارث استضعف قباذ وطمع فيه، فأمر أصحابه أن يعبروا الفرات و يغيروا على قرى السواد ففعلوا ذلك، فجاء الصريخ الى قباذ وهو بالمدائن، فكتب الى الحارث بن عمرو أن لصوصا من العرب قد أغاروا على السواد، وأنه يحب لقاءه فلقيه ، فقال قباذ كالعاتب له : قد صنعتَ صنيعا ما صنعه أحدٌ قبلك ، فطمع الحارث فيه من لين كلامه وقال : ما علمتُ بذلك ولا شعُرت به، و إنى لا أستطيع ضبط لصوص العرب ، وما كل العرب تحت طاعتى ، ولا أتمكن منهم إلا بالمال والجنود . فقال له قباذ : فما الذى تريد ؟ قال : أريد أن تعطينى من السواد ما أتخذ به سلاحا ، فأمر له بما يلى جانب العرب من أسفل الفرات ؛ وهو ستة طساسيج؛ فعند ذلك زاد طمع العرب فيه ، وأرسل الحارث بن عمرو الى تُبّع وهو باليمن : إنى قد طمعت فى ملك الأعاجم ، وقد أخذت منه ستة طساسيج ، فآجمع الجنود وأقبل فإنه ليس دون ملكهم شىء؛ لأن الملك عليهم لا يأكل اللحم ولا يستحل هراقة الدماء ، وله دين يمنعه من ضبط الملك؛ فبادر إليه بجندك وعدّتك، وأطمعه فى الفرس . فجمع تُبّع جنوده وسار حتى نزل الحيرة، وقرب من الفرات ، فآذاه البقّ، فأمر الحارث بن عمرو أن يُشق له نهر الحيرة فنزل عليه ، ووجه آبن أخته

شِمِـرًّا ذا الجنـاح إلى قُباذ فقاتله فهـزمه شمر حتى لحـق بالرىّ ، ثم أدركه بهـا فقتــله .

وملك بعده آبنه كسرى أنو شروان بن قباذ بن فيروز . ولمـا ملك استقبل الأمر بجِدّ وسياسة وحزم . وكان جيّد الرأى، كثير النظر، صائب التدبير، طويل الفكر، فجدّد سيرة أردشير وعمِل بها، ونظر فى عهده وأخذ نفسه به، وأدّب رعيته و بطانته، وبحث عن سياسات الأمم فاستصلح لنفسه منها ما رضيه، ونظر فى تدابير أسلافه المستحسنة فاقتدى بها . وكان أوّل ما بدأ به أن أبطل مِلّة زرادشت الثانى الذى كان من أهل فَسَا، وأبطل ملة المزدكية وقتل على ذلك خلقا كثيرا ، وسـفك من الدماء بسبب إبطال هذين المذهبين مالا يحصى كثرةً، وقتل قوما من المانَوِيّة، وثبّت مـلة المجوسية القـديمة ، وكتب فى ذلك كتبا بليغـة الى أصحاب الولايات والأصبهبذين، وقوّى مُلك الفرس بعد ضعفه بإدامة النظر وهَجْرِ الملاذّ وترك اللهو، وقوّى جنوده بالأسلحة والأمتعة والكُراع [1] ، وعمّر البـلاد وحفظ الأموال وثمّرها، وسدّ الثغور وآستعاد كثيرا من الأطراف التى غلب عليها الأمم .

قال : وأما تدبيره فى أمر المـزدكية وإبطال ما فعـلوه فإنه ضرب أعنـاق رؤسائهم، وقسّم أموالهم فى أهل الحاجة ، وقتل جماعة كثيرة ممن عَرَف من الذين كانوا يدخلون على النـاس فى بيوتهم ، ويشاركونهم فى أموالهم وأهاليهـم ، وردّ الأموال الى أربابهـا . وأمر بكل مولود آختُلِف فيه أن يُلحق بمن هو فى سيمائه، وأمر بكل آمرأة غُلِب عليها أن يؤخذ الغالب عليها حتى يَغرَم لها مهر مثلها، ثم تُخيَّر المرأة بين الإقامة عنده وبين تزويج غيره؛ إلا أن يكون لها زوج أوّل فتُرَدّ اليه . وأمر بكل من أضرّ برجل فى ماله أو ظلمه أن يؤخذ منـه الحق، ويعاقب الظالم

٥١/١٣

(١) الكراع (بالضم) : اسم يجمع الخيل والسلاح .

بعد ذلك بقدر جرمه . وأمر بعيال ذوى الأحساب الذين مات قيّمهم فكُتِبوا له فأنكح بناتهم للأكفاء وجعل جهازهم من بيت المال ، وأنكح بنيهم من بيوتات الأشراف وأغنيائهم . وأمرهم بملازمة بابه ليستعين بهم فى أعماله ، وخيّر نساء والده أن يقمن مع نسائه فيواسَيْن ويصيّرن فى الأحرار، و يبتغى لهنّ الأكفاء من البعول، ثم أمر بكَرْى الأنهار وحفر القُنَى . وأمر بإعادة كل جسر قطع، أو قنطرة خَرِبت أن تردّ الى أحسن ما كانت عليه ، وتخيّر الحكام والعمال وأمرهم أن يسيروا بسيرة أردشير ووصاياه .

فلما انتظمت له هذه الأمور واستوثق له الملك ووَثِق بجنده سار نحو أنطاكية فافتتحها، وأمر أن تصور له المدينة على هيئتها وذَرْعها وطرقها وعدّة منازلها، وأن تُبنى له مدينة على صفتها الى جانب المدائن، فبنيت المدينة المعروفة بالرومية، ثم نقل أهل أنطاكية اليها . فلما دخلوا باب المدينة مضى كل أهل بيت الى ما يشبه منازلهم التى كانوا فيها بأنطاكية . وفتح مدينة هرقل ثم الإسكندرية، ثم أخذ نحو الخَزَر، ثم الى الهياطلة فقتل ملكهم بفيروز، وصاهر خاقانَ ملك الترك، وتجاوز بلخ وأنزل جنوده فَرْغانة، و بنى بابَ الأبواب . وقد ذكرناه فى المبانى القديمة (١) .

ولما بنى هذا السورَ هابته الملوك وراسلته وهادنته ؛ فورد عليه رسول ملك الروم بهدايا فنظر الى إيوانه فرأى فى ميزانه اعوجاجا ، فقال : ما هذا الاعوجاج؟ فقيل له : إن عجوزا لها منزل فى جانب هذا الاعوجاج فأرادها الملك على بيعه وأرغبها فى الثمن فأبت، فلم يُكْرِهْها و بقى الاعوجاج على ما ترى . فقال الرومىّ : هذا الاعوجاج أحسن من هذا الاستواء . وكتب إليه ملك الصين : من نقفور (٢) ملك

(١) راجع (ج ١ ص ٣٧٩ من هذه الطبعة) .

(٢) كذا فى الأصل : وفى مروج الذهب (ج ١ ص ١٢٨ طبع بلاق) : « يعبور » .

الصين ، صاحبِ قصر الدرّ والجوهر ، الذى يخرج من قصره نهران يسقيان العود والكافور ، والذى توجد رائحتــه على فرسخين ، والذى يخدِمُه بنات ألف ملك ، والذى فى مَرْبِطه ألف فيل أبيض ، الى أخيه كسرى أنوشروان . وأهــدى إليه هدايا عظيمة . وكتب إليه ملك الهنــد : من ملك الهنــد وعظيم ملوك الشرق ، وصاحب قصر الذهب ، وأبواب الياقوت والدرّ ، الى أخيه كسرى أنوشروان ملكِ فارس ، صاحبِ التــاج والراية . وأهدى إليه هدايا ؛ منهــا ألف مَنٍّ (١) من العود يذوب على النار كالشمْع ، ويختم عليه كما يختم على الشمع . وجامٌ من الياقوت الأحمر فتحته شبر مملوء درّا ، وعشرة أمنانٍ كافور كالفستق ، وجاريةٌ طولها ســبعة أذرع تضرِب أشــفارُ عينيها خدّيها ، وكأن بين أجفانها لمعان البرق مع إتقان شــكلها ، مقرونةُ الحاجبين ، لهــا ضفائر تجرها ؛ وفراشٌ من جلود الحيّات ألين من الحرير وأحسن من الوَشْيِ .وكان كتابه فى لِحَا الشجر المعروف بالكاذى (٢) مكتوبا بالذهب . وكتب إليه ملك التُّبَّتِ : من ملك التبت ومشارقِ الأرض المتاخمة للصين والهند ، الى أخيه كسرى المحمودِ السيرة والقدر ، ملكِ المملكة المتوسطة فى الأقاليم السبعة ، أنوشروان . وأهدى إليه أنواعا مما عُمِلَ من عجائب أرض تبت ، منها مائةُ جوشن ومائة ترس تُبَّتِيَّةٍ مذهبــة ، وأربعة آلاف مَنٍّ من المســك من نوافِجَ غزلانية . وآستغاث به آبن ذى يَزَنٍ يستصرخه على الحبشة فبعث معه قائدا من قواده . وسنورد ذلك إن شاء الله فى خبر سيف بن ذى يزن .

(١) المَنّ : لغة فى المنا الذى يوزن به وهو رطلان . وجمعهما أمنان ، وأمناء .

(٢) اللحاء : ما على العصا من قشرها ، يمد و يقصر . والكاذى : نوع من النبات عجيب ، لحاؤه أرق من الورق الصينى تتكاتب فيه ملوك الصين والهند . وهذا الشجر يكون بأرض الهند والصين . (راجع مروج الذهب للسعودى (ج ١ ص ١٢٨ طبع بلاق) .

ولما استتبّ له الأمر ووظّف الوظائف على الترك والخزر والهند والروم وغيرهم، نظر فى الخراج وأبواب المال. وكانت رسوم الناس جارية على الثلث من البقاع، ومن بعضها الربع والخمس والسدس على حسب العمارة. وكان قباذ أبوه قد مسح الأرض وهلَك قبل أن يستحكم له أمر تلك المساحة؛ فجمع أنوشروان أهل الرأى فاتفقوا على أن جعلوا على كل جَريب من الحنطة والشعير درهما، وعلى الجريب من الكرم ثمانية دراهم، وعلى الرِّطَاب تسعة دراهم، وعلى كل أربع نَخَلات فارسية درهما، وعلى كل ستّ نَخَلاتِ دَقَلٍ(1) مثل ذلك، وعلى كل ستة أصول زيتون مثل ذلك، ولم يضعوا إلا على نخل فى حديقة، أو مجتمع غير شاذّ، وتركوا فيما سوى ذلك من الغلّات السبع، وألزموا الناس الجزية ما خلا أهل البيوتات والعظماء والمقاتِلَة والهرابذة والكتّاب، ومن كان فى خدمة الملك، وصيروها على طبقات: اثنى عشر درهما، وثمانية دراهم، وستة دراهم، وأربعة دراهم، على قدر إكثار الرجل وإقلاله، ولم يُلزِموا الجزيةَ من كان أتى له من السنين دون العشرين أو فوق الخمسين، ورفعوا هذه الوضائعَ الى كسرى فرضيَها وأمر بإمضائها وجباية مبلغها فى ثلاثة أنجم فى كل سنة، وسماها ابراسيار. ومعنى ذلك الأمر المُتراضَى به.

وكان أنوشروان — لما أراد أن يضع هذه الوضائع — أمر بإتمام المساحة التى بدأ بها قباذ، وأحصى النخل والزيتون وغير ذلك، والجماجم؛ ثم أمر الكتّاب فأخرجوا جُمَلَ ذلك غير تفصيله، وأذِنَ للناس إذنا عامّا، وأمر كاتب خراجه أن يقرأ عليهم الجمل المستخرجة من أصناف الغلّات وعدد النخل والزيتون والجماجم، فقرأ ذلك عليهم. ثم قال كسرى: إنا قد رأينا أن نضع على ما أُحْصِىَ من جِرْبان(2)

(1) نخلات دقل: الدقل (بالتحريك) أردأ التمر.

(2) جربان: جمع جريب، والجريب ثلاثة آلاف وستمائة ذراع. وقيل: عشرة آلاف ذراع.

هذه المساحة وضائعَ ، ونأمرَ بإنجامها فى السنة ثلاثة أنجم ، ونجمعَ فى بيوت أموالنا من الأموال ما لو أتانا عن ثغر من الثغور أو طَرَف من الأطراف فتقٌ[1] أو ما نكرهه وآحتجنا الى تداركه أو حسمه بذلنا الأموال التى عندنا ولم نحتج الى استئناف جبايتها ، فما الذى ترون فيما رأيناه من ذلك وأجمعنا عليه ؟ فلم يُشِرْ عليه أحد منهم بمشورة ، ولا نطق بكلمة . فكرر كسرى عليهم القول ثلاثا ، فقام رجل من عُرْضهم وقال : أتضع أيها الملك — عمرك الله — خالدا من هذا على الفانى ؟ من كرم يموت ، وزرع يَهيج ، ونهر يَغيض ، وعين أو قناة ينقطع ماؤها . فقال له كسرى : ياذا الكُلْفَة المشئوم ، من أىّ طبقات الناس أنت ؟ فقال : من الكُتّاب . فقال كسرى : اضربوه بالدُّوِىّ حتى يموت ، فضربه الكتّاب خاصة تبرؤًا منهم الى كسرى من رأيه ، وما صدر من مقالته حتى قتلوه . وقال الناس : نحن راضون بما ألزمتنا أيها الملك به من خراج . ثم اجتمعت الآراء على وضع ما ذكرناه من الوضائع ، فاستقرت على ذلك إلى أن جاء الإسلام ، وبها أخذ عمر رضى الله عنه لما فتحت بلاد فارس .

ذكر قطعة من سِيَر كسرى أنو شروان وسياسته

قال الشيخ أبو على أحمد بن محمد بن مسكويه فى كتابه المترجم بتجارب الأمم : إنه قرأ فيما كتبه أنوشروان من سيرة نفسه فى كتاب عَمِلَه فى سيرته وما ساس به مملكته : قال كسرى : كنت يوما جالسا بالدَّسْكرة وأنا سائر الى همذان لنَصيف هناك ، وقد أُعدّ الطعام للرسل الذين بالباب من قِبَل خاقان والهياطلة والصين وقيصر ونقفور ، ودخل رجل من الأساورة مخترطا سيفَه حتى وصل الى السِّتر فى ثلاثة أماكن ، وأراد الدخولَ حيث نحن والوثوبَ علينا ، فأشار علىّ بعض خدمى

(١) فتق بين القوم : شق عصاهم فرجعت الحرب بينهم .

أن أخرجَ إليه بسيفى ، فعلمت أنه إن كان إنما هو رجل واحد فسوف يحال بيننا وبينه ، وإن كانوا جماعة فإنّ سيفى لا يغنى شيئا ؛ فلم أَخَف ولم أتحرك من مكانى ؛ وأخذه بعض الحرس فإذا هو رجل رازىٌّ من حشمنا وخاصّتنا ، فلم يَشكّوا أنّ على رأيه كثيرا من النـاس ، فسألونى ألّا أجلسَ ولا أحضُر للشرب حتى يستبين الأمر ، فلم أُجبهم الى ذلك لئـلّا ترى الرسـل منّى جُبْنًا ، فخرجت لِشَرْبِى[1] ، فلما فرغنا هدّدت الرازىَّ بالعقوبة وقطع اليمين ، وسألتـه أن يَصْدُقنى عن الذى حمله على ذلك ، وأنه إن صَدقَنى لم تنله عقوبة بعد ذلك ؛ فذكر أنّ قوما وضعوا من قِبَل أنفسهم كتبا وكلاما ، وذكروا أنه من عند الله ، أشاروا عليه بذلك وأخبروه أنى إن قتلته وإن قتلنى أدخل الجنة . فلما فحصت عن ذلك وجدته حقّا ؛ فأمرت بتخلية الرازىّ وبردّ ما أخذ منه ، وتقدّمت بضرب رقاب أولئك الذين أشاروا عليه حتى لم أدع منهم أحدا .

وقال أنوشروان : إنى لمـا أحضرت القوم الذين اختلفوا فى الدين وجمعتهم للنظر فيما يقولونه ، بلغ من جرأتهم وخبثهم وقوّة شياطينهم أنْ لم يبالوا بالقتل والموت فى إظهار دينهم الخبيث ، حتى إنى سألت أفضلَهم رجلا على رءوس النـاس عن استحلاله قتلى ، فقال : نعم ، استحلّ قتلك وقتل من لا يطاوعنا على ديننا ! فلم آمر بقتله حتى إذا حضر وقت الغـداء أمرت أن يُحْبس الغداء وأرسلت اليـه بطُرف الطعام ، وأمرت الرسول أن يبلّغه عنّى أنّ بقائى له أنفعُ مما ذكر ؛ فأجاب الرسولَ إنّ ذلك حقٌّ ، ولكن سألنى الملك أن أَصْـدُقَه عن ذات نفسى ولا أكتمه شيئا مما أدين به ، وإنمـا أدين بما أخذته من مؤدّبى .

---

(١) الشرب (بفتح الشين المشدّدة) هنا : الجماعة يشربون الخمر .

قال أنوشروان: لمّا غدر بى قيصر وغزوته فذلّ وطلب الصلح وأنفذ إلىّ بمال وأقرّ بالخراج والفدية، تصدّقت على مساكين الروم وضعفائهم وضعفاء مزارعيهم مما بعث به قيصر بعشرة آلاف دينار، وذلك فيما وطِئتُه من أرض الروم دون غيرها.

وقال: لمّا أمرت بتصفح أمر الرعية بنفسى ورفع البلاء والظلم عنهم، وما ينوبهم من ثِقل الخراج؛ فإنّ فيه مع الأجر تزيين [أهل][1] المملكة وغناهم وقدرة الوالى على أن يستخرج منهم إنْ هو آحتاج الى ذلك — وقد كان فى آبائنا من يرى أنّ وضع الخراج عنهم السنة والسنتين والتخفيف أحيانا مما يقوّيهم على عمارة أرضيهم — جمعت العمّال ومن يؤدّى الخراج فرأيت من تخليطهم ما لم أرله حيلة إلا التعديلَ والمقاطعةَ على بلدة بلدة، وكورة كورة، ورُستاق رُستاق، وقرية قرية، ورجل رجل؛ فاستعملت عليهم أهل الثقة والأمانة فى نفسى، وجعلت فى كل بلد مع كل عامل أمناء يحفظون عليه، ووليت قاضىَ القضاة بكل كورة النظرَ فى أهل كورته، وأمرت أهل الخراج أن يرفعوا مايحتاجون الى رفعه إلينا الى القاضى الذى وليته أمرَ كُوَرِهم حتى لا يقدِرَ العامل أن يزيد شيئا، وأن يؤدّوا الخراج بمشهد من القاضى، وأن تعطى به البراءة، وأن يرفع خراج من هلك منهم، ولا يزاد الخراج ممن لم يُدْرِكْ من الأحداث، وأن يرفع القاضى وكاتبُ الكورة وكاتبُ أهل الكورة وكاتب أهل البلد والعامل محاسبتهم الى ديواننا وقت الكَتْب بذلك.

وقال: رفع الينا مُوبَذان مُوبَذ أنّ قوما سمّاهم من أهل الشرف، بعضهم بالباب كان شاهدا وبعضهم ببلاد أخر، دينهم مخالف لما رويناه عن نبينا وعلمائنا، وأنهم يتكلمون بدينهم سرًّا ويَدعون اليه الناس، وأن ذلك مَفْسدةٌ للملك، وحيث

(١) زيادة يقتضيها السياق.

لا تقوم الرعيّة [إلا](١) على هوًى واحد، فيحرّمون جميعا ما يحرّم الملك، ويستحلّون مايستحلّ الملك فى دينه؛ فإنّ ذلك إذا اجتمع للملك قَوِىَ بجنده لأجل الموافقة بينهم وبين الملك، فآستظهر على قتال الأعداء؛ فأحضرتُ أولئك المختلفين فى الأهواء، وأمرتُ أن يخاصَموا حتى يقفوا على الحقّ ويُقرّوا به، وأمرت أن يُقْصَوْا عن مدينتى وعن بلادى ومملكتى، ويُتتبع كل من هو على هواهم فيُفعل به ذلك . ٥

وقال : إن الترك الذين فى ناحية الشمال كتبوا إلينا بما أصابهم من الحاجة، وأنهم لايجدون بدّا — إن لم نعطهم شيئا — من أن يغزونا، وسألوا خصالا إحداها أن نتخذهم فى جندنا، ونُجرِىَ عليهم ما يعيشون به، وأن نُعطيَهم من أرض الكَرَج(٢) وبَلَنجَر(٣) وتلك الناحية ما يعيشون به، فرأيت أن أسير فى ذلك الطريق الى باب صُول(٤)، وأحببت أن يَعرِف مَنْ قبلنا من الملوك هناك نشاطنا للأسفار وقوتنا عليها متى هممنا، وأن يَرَوْا ما رأوْا من هيبة الملوك وكثرة الجنود وتمام العُدّة وكمال السلاح مايقوَوْن به على أعدائهم، ويعرفون به قوة مَنْ خلفهم إن هم آحتاجوا اليه، وأحببنا بمسيرنا أن نُجرِىَ لهم على أيدينا الجوائز والحُمْلان(٥)، والقربَ من المجلس واللطفَ فى الكلام ليزيدَهم ذلك مودّة لنا ورغبةً فينا، وحرصا على قتال أعدائنا، وأحببت أيضا التعهدَ لحصونهم، وأن أسأل أهل الخراج عن أمرهم فى مسيرنا . ١٥

فسرت فى طريق همذان وأذربيجان، فلما بلغت الى باب الصول ومدينة فيروز خسرو يمّمت تلك المدائنَ العتيقة، وتلك الحدود، وأمرت ببناء حصون أُخَر . فلما بلغ

(١) زيادة يقتضيها السياق . (٢) الكرج : مدينة بين همذان وأصبهان فى نصف الطريق والى همذان أقرب . (٣) بلنجر : وراء مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب، فتحها عبد الرحمن بن ربيعة وقال البلاذرى : سلمان بن ربيعة الباهلى . ٢٠

(٤) صول : مدينة فى بلاد الخزر فى نواحى باب الأبواب وهو الدربند .

(٥) الحملان (بالضم) : ما يحمل عليه من الدواب فى الهبة خاصة .

خاقانَ الخزَر نزولَنا هناك تخوّف أن نغزوَه، فكتب أنه لم يزل — منذ ملكتُ — يحب موادَعتى، وأنه يرى الدخول فى طاعتى؛ ورأى بعضُ قوّاده — لمّا شاهد حاله — تركَه وأتانا فى ألفين من أصحابه؛ فقبلناه وأنزلناه فى تلك الناحية، وأجريت عليه وعلى أصحابه الرزق، وأمرت لهم بحصن هناك، وأمرت بمصلّى لأهل ديننا، وجعلت فيه مُوبَذًا وقوما نسّاكا، وأمرتهم أن يُعلِموا من دخل من الترك فى طاعتنا ما فى طاعة الولاة من المنفعة العاجلة فى الدنيا، والثواب الآجل فى الأخرى، وأن يَحثُّوهم على المودّة والصحبة[1] والعدل والنصيحة ومجاهدة العدو، وأن يُعلّموا أحداثهم رأينا ومذهبنا، وأقمت لهم فى تلك التخوم الأسواقَ، وأصلحت طرقهم[2] وقوّمت السكك. ونظرنا فيما اجتمع لنا هناك من الخيل والرجال فإذا هو بحيث لو كان بوسط فارس لكان منزلنا بها فاضلا.

وقال: فلما أتى لملكنا ثمانٍ وعشرون سنة جدّدتُ النظرَ فى أمر المملكة والعدلَ على الرعية، والنظرَ فى أمرهم، وإحصاءَ مظالمهم، وإنصافَهم. وأمرتُ مُوبَذَ كل ثغر ومدينة وبلد وجُنْد بإنهاء ذلك الىّ. وأمرتُ بعرض الجند، من كان منهم بالباب بمشهدٍ منّى، ومَن غاب فى الثغور والأطراف بمشهدٍ من القائد وبادوستان[3] والقاضى وأمينٍ من قِبَلنا. وأمرت بجمع أهل كُوَرِ الخراج فى كل ناحية من مملكتى الى مصرها مع القائد وقاضى البلد[4] والكاتب والأمين. وسرّحتُ من

(١) فى الأصل: «الصحة» والسياق يقتضى ما أثبتناه.

(٢) فى الأصل: «طروسهم» وهو تحريف، والسياق يقتضى ما أثبتناه.

(٣) كذا فى الأصول. ولعلها «باداستان» وهى كلمة فارسية مركبة من كلمتين پاد (بالباء الفارسية) ومعناها الكورة وتخفف بحذف الألف، يريد حاكم الجهة (راجع القاموس الفارسى الانجليزى لاستنجاس ومقدّمة قاموس الأمكنة والبقاع لرخوم على بهجت بك).

(٤) كذا فى الأصول.

قِبَلى مَنْ عرفتُ صحبتَه وأمانته ونُسُكَه وعلمه، ومن جرّبت ذلك منه الى كل مصر ومدينة حيث أولئك العمالُ والغلمانُ وأهلُ الأرض ليجمعوا بينهم وبين أهل أراضيهم وبين وضيعهم وشريفهم، وأن يرْفع الأمرُ كلُّه على حقّه وصدقه ، فما نفذ لهم فيه أمر أو صحّ فيه القضاءُ فرضىَ به أهلُه فرَغوا منه هنالك ، وما أَشكل عليهم رفعوه الىّ .

وبلغ اهتمامى بتفقّد ذلك مالولا الذى أُدارِى من الأعداء والثغور لباشرت أمرَ الخراج والرعية بنفسى قرية قريةً حتى أتعهدَها وأكلّم رجلا رجلا من أهل مملكتى ؛ غير أنى تخوّفت أن يضيع بذلك السببِ أمرٌ هو أعظم منه ، الأمر الذى لا يُغنى فيه أحدٌ غنائى ولا يقدِر على إحكامه غيرى ، ولا يكفينيه كافٍ، مع الذى فى الشخوص الى قريةٍ قريةٍ من المئونة على الرعية من جندنا ، ومَن لا نجد بدّا من إخراجه معنا . وكرهنا أيضا إشخاصَهم إلينا مع تخوّفنا أن يشتغل أهل الخراج عن عِمارة أراضيهم ، أو يكونَ فيهم من يدخُل عليه من ذلك مئونة فى تكلّف السير الى بابنا، وقد ضيّع قُرَاه وأنهاره وما لا يجد بدّا من تعهده فى السنة كلها فى أوقات العمارة، ففعلنا ذلك بهم ووكّلنا مُوبَذان مُوبَذ[1] بذلك ، وكتبنا به الكتب وسرّحنا مَنْ وَثِقنا به ، ورجونا أن يجرى مجرانا وأشخصناه وقلّدناه ذلك .

قال : ولما أمّن الله جميعَ أهل مملكتنا من الأعداء فلم يبق منهم إلا نحو ألفى رجل من الديلم الذين عَسُر افتتاحُ حصونهم لصعوبة الجبال عليها ، لم نجد شيئا أنفع لمملكتنا من أن نفحص عن الرعية، وأولئك الأمناءِ الذين وصّيناهم بإنصاف أهل الخراج . وكان بلغنا أن أولئك الأمناءَ لم يبالغوا على قدر رأينا فى ذلك،

(١) موبذان موبذ : قاضى القضاه فى دولة الفرس قبل الإسلام . وقدبقيت وظيفة الموبذ (القاضى) الى أواخر الدولة العباسية ، للقيام بأمور المجوس الذين دخلوا فى الذمة .

فأمرت بالكتب الى قاضى كورةٍ كورةٍ أن يجمع أهلَ الكورة بغير علم عاملهم وأُولى أمرِهم فيسألَهم عن مظالمهم وما استُخرِج منهـم ، ويفحصَ عن ذلك بمجهود رأيه ويبالغَ فيه ، ويكتبَ حالَ رجلٍ رجلٍ منهم ويختمَ عليه بخاتمه وخاتم الرضا من أهل تلك الكورة ، ويبعثَ به الىّ ويسرّحَ ممن يجتمع رأى أهـل الكورة عليـه بالرضا نفرا ، وإن أحبّوا أن يكون فيمن يُشْخَصُ بعضُ سِفلتهم أيضا فعل ذلك .

فلما حضروا جلست للناس وأذنت لهم بمشهد من عظماء أرضنا وملوكهم وقضاتهم وأحرارهم وأشرافهم ، ونظرت فى تلك الكتب والمظالم ، فأيّة مظلمة كانت من العمال ومن وكلائنا ، أو من وكلاء أولادنا ونسائنا وأهل بيتنا حططناها عنهم بغير بينة ؛ لعلمنا بضعف أهل الخراج منهم ، وظلم أهل القوّة من السلطان لهم ، وأيّةُ مظلمة كانت لبعضهم من بعض ووَضَحت لنا ، أمرت بإنصافهم قبل البَرَاح ، وما أشكل وأوجب الفحصُ عنه شهودَ البلد وقاضيها سرّحت معه أمينا من الكتّاب ، وأمينا من فقهاء ديننا وأمينا ممن وثقنا به من خدمنا وحاشيتنا ، فأحكمت ذلك إحكاما وثيقا . ولم يجعل الله لذوى قرابتنا و رحمنا وخدمنا وحاشيتنا منزلة عندنا دون الحقّ والعدل ؛ فإن من شأن قرابة الملك وحاشيته أن يستطيلوا بعزّته وقوّته ، فإذا أهمل السلطان أمرَهم هَلَكَ من جاوره إلّا أن يكون فيهم متأدّب بأدب مَلِكه ، محافظ على دينه ، شفيق على رعيّته ، وأولئك قليل ؛ فدعانا الذى اطلعنا عليـه من ظلم أولئك ألا نطلبَ البيِّنةَ عليهم فيما ادُّعِىَ قِبَلهم . ولم نزل نردّ المظالم ، ولم نرِد أيضا ظلم أحد ممن كان عزيزا بنا ، منيعا بمكانه ومنزلته عندنا ، فإن الحقّ واسع للضعفاء والأقوياء والفقراء والأغنياء ؛ ولكنا لمـا أشكلت الأمور فى ذلك علينا كان الحَمْلُ على خواصّنا وخدمنا أحبَّ الينا من أن نحمل على ضعفاء الناس ومساكينهم ، وأهل الفاقة والحاجة منهم . وعلمنا أن أولئك الضعفاء لايقدرون على ظلم مَنْ حولنـا . وعلمنا مع ذلك

أن الذين أَعْدَينا[١] عليهم من خاصّتنا يرجعون من نعمتنا وكرامتنا الى ما لا يرجع اليه أولئك . ولعمرى إن خواصّنا الينا، وآثر خَدَمِنَا فى أنفسنا الذين يحفظون سيرتنا فى الرعية، و يرحمون أهل الفاقة والمسكنة و ينصفونهم؛ فإنه قد ظلمنا مَنْ ظلمهم، وجار علينا مَنْ جار عليهم، وأراد تعطيل ذمتنا التى هى حرزُهم وملجاهم .

قال : ثم كَتَب الينا على رأس سبع وثلاثين سنة من ملكنا، أربعةُ أصناف من الترك من ناحية الخزر، ولكل صِنْف منهم ملك، يذكرون مادخل عليهم من الحاجة، وما لهم من الحظ فى عبوديتنا ، وسألوا أن نأذن لهم فى القدوم بأصحابهم لخدمتنا، والعمل لما نأمرهم به، وألا نحقِد عليهم ما سلف منهم قبل مُلكنا ، وأن نُنزلهم منزلة سائر عبيدنا، فإنا سنرى فى كل ما نأمرهم به من قتال وغيره كأفضل ما نرى من أهل نصيحتنا، فرأيت فى قبولى إياهم عدة منافع، منها : جَلَدُهم و بأسُهم، ومنها : أنى تخوفت أن تحملهم الحاجة على إتيان قيصر أو بعضِ الملوك فيقوَوْا بهم علينا، وقد كان فيما سلف يستأجر منهم قيصر لقتال ملوك ناحيتنا بأغلى الأجرة . وكان لهم فى ذلك القتال بعضُ الشوكة بسبب أولئك الأتراك ؛ لأن الترك ليس عندهم لذةٌ للحياة، فهو الذى يجرئهم مع شقاء معايشهم على الموت؛ فكتبت اليهم إنّا نقبل من دخل فى طاعتنا ، ولا نبخل على أحد بما عندنا، وكتبت الى مَرْزُبان[٢] الباب آمره بأن يُدخِلهم أولا أولا ، فكتب إلىّ إنه قد أتاه منهم خمسون ألفا بنسائهم وأولادهم وعيالهم . ولما بلغنى ذلك أحببت أن أقربهم الىّ ليعرفوا إحسانى إليهم، وأعظّمَهم ليطمئنّوا الى قوّادنا، حتى إذا أردنا تسريحهم مع بعض قوّادنا كان كل واحد بصاحبه واثقا، فشخصنا الى أذربيجان، فلما نزلتها أذنت

(١) أعدينا عليهم : ظلمناهم .

(٢) المرزبان : الرئيس من الفرس .

لهم فى القدوم، وأتانى عنـد ذلك طرائف من هدايا قيصر، وأتانى رسول خاقان الأكبر، ورسول صاحب الروم، ورسول صاحب خوارزم، ورسول ملك الهند، والداور[1]، وكابل شاه[2]، وصاحب سَرَنْديب[3]، وصاحب كله[4]، وكثير من الرسل، وتسعة وعشرون ملكا فى يوم واحد، وانتهيت الى أولئـك الأتراك الثلاثة والخمسـين ألفا فأمرت أن يُصَفُّوا هناك وركبت لذلك، فكان يومئـذ من أصحابى وممن قدم علىّ ومن دخل فى طاعتى وعبوديّتى مَنْ لم يسعهم مَرْجٌ كان طوله عشرة فراسخ، فحَمِدت الله كثيرا وأمرت أن يُصَفّ أولئك الأتراك فى أهل بيوتاتهم على سبع مراتبَ، ورأست عليهم منهـم، وأقطعتهم وكسوت أصحابهـم، وأجريت عليهم الأرزاق، وأمرت لهم بالميـاه والأَرضين، وأسكنت بعضهم مع قائد لى باللان[5]، وقسمتهم فى كل ما احتجنا اليه من الثغور، وضممتهم الى المرزُبان، فلم أزل أرى من مناصحتهم واجتهادهم فيما نوجههم له ما يسرنا فى جميع البلدان والثغور وغيرها .

---

(١) الداور : وأهل تلك الناحية يسمونها زمنداور، ومعناه أرض الداور، وهى ولاية واسعة ذات بلدان وقرى مجاورة لولاية رخج وبست والغور . قال الاصطخرى : الداور : اسم إقليم خصيب، وهو ثغر الغور من ناحية سجستان . ومدينة الداور، تل، ودرغور، وهما على نهر هندمند (راجع معجم البلدان لياقوت).

(٢) كابل وملكها يقال له الشاه : ولاية ذات مروج كبيرة بين هند وغزنة، وقيل : هى من ثغور طخارستان . ولها من المدن : واذان، وخواش، وخشك، وخبر، وبها العود والنارجيل والزعفران والأهليلج لأنها متاخمة للهند (راجع معجم البلدان لياقوت وتقويم البلدان لأبى الفدا) .

(٣) سرنديب : هى جزيرة سيلان الآن .

(٤) كله : فرضة بالهند وهى فى منتصف الطريق بين عمان والصين، يسكنها المسلمون والهند والفرس، وبها معادن للرصاص ومنابت الخيزران وشجر الكافور (راجع تقويم البلدان لأبى الفدا ومعجم البلدان لياقوت).

(٥) اللان : بلاد واسـعة فى طرف أرمينية قرب باب الأبواب مجاورون للخزر، والعامة يغلطون فيهم فيقولون علان، وهم نصارى تجلب منهم عبيد أجلاد . (راجع معجم البلدان لياقوت) .

٥٦
١٣

قال : وكتب الىّ خاقان الأكبر يعتذر الىّ من بعض غَدَراته و يسأل المراجعة والتجاوزَ ، وذكر فى كتابه و رسالته أن الذى حمله على عداوتى وغزو أرضى مَنْ لم يُنظَر له ، وناشدنى الله أن أتجاوز عنه ، وتوثّق لى بما أطمئنّ اليه . وذكر أن قيصر قد أرسل اليه وزعم أنه يستأذننى فى قبول رسله ، وأنه لا يعمل فى قبول رسل أحد إلا بما آمره ، ولا يجاوز أمرى ، ولا يرغب فى الأموال ولا فى المودّات لأحد إلا برضائى ، وكان دَسيسٌ(١) لى فى الترك يكاتبنى بندم خاقان وندم أصحابه على غدره وعداوته إياى ، فأجبته : إنى لعَمْرى ما أبالى إن طبيعة نفسك وغريزتك غدرت بنا أم أطعتَ غيرك فى ذلك ، وما ذنبك فى طاعة مَنْ أطعتَ فى ذلك إلا كِذْبتك فيما فعلتَه برأى نفسك ، وإنى قد استحققتُ أشد العقوبة . وكتبتُ أنى لا أظن شيئا من الوثيقة تفى لكم إلا وقد كنتَ ضيعتَه ، ولا أظن شيئا وثقت لنا به من قبل اليوم ثم غدرتم ، فكيف نطمئنّ اليك ونثق بقولك ؟ ولسنا نأمنك على مثل ما فعلت من الغدر ونقض العهد والكذب فى اليمين . وذكرتَ أن رسل قيصر عندك ، ووقفنا على استئذانك إيانا فيهم ؛ وإنى لست أنهاك عن مودّة أحد . وكرهت أن يرى أنى أتخوف مصادقته وأهاب ذلك منه . وأحببت أن أعلمه أنى لا أبالى بشىء مما جرى بينهما . ثم سرحت لمرمة المدائن والحصون التى بخراسان وجمع الأطعمة والأعلاف اليها ما يحتاج اليه الجند ، وأمرت أن يكونوا على استعداد وحذر ، ولا يكون من غفلتهم ما كان فى المرة الأولى وهم على حال الصلح .

قال : وكان شكرى لله تعالى لما وهب لى وأعطانى متصلا بنعمه الأول التي وهبها لى فى أوّل خلقه إياى ؛ فإنما الشكر والنِّعم عِدْلا كِفّتَى الميزان أيهما رجح بصاحبه احتاج الأخفّ الى أن يُزاد فيه حتى يعادلَ صاحبه ، فإذا كانت النعم

(١) الدسيس : من تدسه ليأتيك بالأخبار (الجاسوس) .

كثيرة والشكر قليلا انقطع الحِمْل وهلك ظهرُ الحامل ، وإذا كان ذلك مستويا استمرّ الحامل . وكثيرُ النعم يحتاج صاحبها الى كثير الشكر ، وكثيرُ الشكر يجلب كثير النعم . ولما وجدت الشكر بعضه بالقول ، وبعضه بالعمل ، ونظرت فى أحبّ الأعمال الى الله وجدته الشيءَ الذى أقام به السموات والأرضَ ، وأرسى به الجبال ، وأجرى به الأنهار وبرأ به البريّة . وذلك الحقُّ والعدلُ فلزمتهما . ورأيت ثمرة الحقّ والعدل عمارة البلدان التى بها معايش الناس والدوابّ والطير وسكان الأرض .

ولما نظرت فى ذلك وجدت المقاتِلة أُجَراء أهل العمارة ، ووجدت أهل العمارة أجراء المقاتلة ، فإنهم يطلبون أجورهم من أهل الخراج وسكان البلدان لمدافعتهم عنهم ، ومجاهدتهم من ورائهم ، فَحَقٌّ على أهل العمارة أن يوفُّوهم أجورهم ، فإن عمارتهم تتمّ بهم ، وإن أبطأوا عليهم بذلك أو هنوهم فقوى عدوّهم ، فرأيت من الحق على أهل الخراج ألا يكون لهم من عمارتهم إلا ما أقام معايشهم ، وعمروا به بلدانهم ، ورأيت ألا أجتاحهم وأستفرغَ ذات أيديهم للخزائن والمقاتلة ، فإنى إذا فعلت ذلك ظلمت المقاتلة مع ظلم أهل الخراج ، وذلك أنه إذا فسد[1] العامر فسد المعمور ، وكذلك أهل الأرض والأرض ، فإنه إذا لم يكن لأهل الخراج مايعيشهم ويعمرون به بلادهم هلكت المقاتلة الذين قوتهم بعمارة الأرض ، فلا عمارة للأرض إلا بفضل ما فى يد أهل الخراج ، فمن الإحسان الى المقاتلة والإكرام لهم أن أرفُق بأهل الخراج وأعمر بلادهم ، وأدع لهم فضلا فى معايشهم ، فأهل الأرض وذوو الخراج أيدى المقاتلة والجند وقوتُهم ، والمقاتلة أيضا أيدى أهل الخراج وقوتُهم .

ولقد ميزت ذلك بجهدى وطاقتى ، وفكرت فيه فما رأيت أن أَفضّل هؤلاء على هؤلاء إذ وجدتهما كاليدين المتعاونتين والرجلين المترادفتين .

(١) فى الأصل : قصد ، والسياق يقتضى ما أثبتناه .

ولعمرى ماأعفى أهلَ الخراج من الظلم من أضرّ بالمقاتلة ، ولا كفّ الظلمُ عن المقاتلة مَنْ تعدّى على أهل الخراج . ولولا سفهاء الأساورة لأبقوا على أهل الخراج والبلاد إبقاء الرجل على ضيعته التي منها معيشته وحياته وقوته ، ولولا جهّال أهل الخراج لكفّوا عن أنفسهم بعض ما يحتاجون إليه من المعايش إيثارا للمقاتلة على أنفسهم .

٥٧/١٣ قال : ولما فرغنا من إصلاح العامة والخاصة بهذين الركنين من أهل الخراج والمقاتلة ٥ كان ذلك ثمرةَ العدل والحقّ الذى دبّر الله العظيمُ خلائقَه به ، وشكرت الله على نعمته والمقاتلةَ فى أداء حقه على مواهبه ، وأحكمنا أمر المقاتلة وأهلِ الخراج ببسط العدل ، وأقبلنا بعد ذلك على السِّيَر والسُّنَن ، ثم بدأنا بالأعظم فالأعظم من أمورنا ، والأكبر فالأكبر عائدا على جندنا و رعيتنا ، ونظرنا فى سِيَر آبائنا من لَدُنْ بستاسف الى مُلْكِ قُباذ أقربِ آبائنا . ثم لم نترك إصلاحا فى شىء من ذلك إلا أخذناه ، ولا فسادا ١٠ إلا أعرضنا عنه ، ولم يَدْعُنا حبّ الآباء إلى قبول ما لا خير فيه من السنن ، ولكنّا آثرنا حبَّ الله وشكره وطاعته .

ولما فرغنا من النظر فى سير آبائنا وبدأنا بهم ، وكانوا أحقّ بذلك ، فلم نَدَع حقا إلا آثرناه ، ووجدنا الحق أقرب القرابة . نظرنا فى سير أهل الروم والهند فاصطفينا محمودها ، وجعلنا عيار(1) ذلك عقولنا ، وميزانه بأحلامنا ، فأخذنا من جميع ١٥ ذلك ما زيّن سلطاننا ، وجعلناه سنة وعادة ، ولم تنازعنا أنفسنا الى ما تميل به أهواؤنا ، وأعلمناهم ذلك وأخبرناهم به ، وكتبنا إليهم بما كرهنا لهم من السير ونهيناهم عنه وتقدّمنا إليهم فيه ؛ غير أنا لم نُكرِه أحدا على غير دينه وملّته ، ولم نحسُدهم ما قِبَلنا ، ولا منع ذلك انقباضٌ بعلم ما عندهم ، فإن الإقرار بمعرفة الحقّ

(١) عيار : العيار والمعيار ما جعل نظاما للشىء يقاس به ويسوى . ٢٠

والعلم والاتباع له من أعظم ما تزيّنت به الملوك . ومن أعظم المضرة على الملوك الأنَفةُ من العلم والحميّة من طلبه ، ولا يكون عالما من لا يتعلّم .

ولما استقصيت ما عند هاتين الأمتين من حكمة التدبير والسياسة ، ووصلت بين مكارم أسلافى ، وما أحدثتُه بالرأى ، وأخذت به نفسى ، وقبلته عن الملوك الذين لم يكونوا منا ، وثبت على الأمر الذى نلت به الظفر والخير ، ورفضت سائر الأمم لأنى لم أجد عندهم رأيا ولا عقولا ولا أحلاما ، ووجدتهم أصحاب بَغْى وحَسَد وكَلَب وحرص وشحّ وسوء تدبير وجهالة ولؤم عهد وقلة مكافأة . وهذه أمور لا تصلح عليها ولاية ، ولا تتم لها نعمة .

قال ابن مسكويه : وقرأت مع هذه السير فى آخر هذا الكتاب الذى كتبه أنو شروان فى سيرة نفسه أن أنو شروان لما فرغ من أمور المملكة وهذبها جمع إليه الأساورة مع القوّاد والعظماء والمرازبة والنساك والموابذة وأماثل الناس معهم فخطبهم فقال :

ذكر خطبة أنو شروان

قال : أيها الناس ، أَحْضِرونى فهمَكم ، وأَرعُونى أسماعَكم ، وناصحونى أنفسكم ، فإنى لم أزل واضعا سيفى على عنقى منذ وَلِيتُ عليكم غرضا للسيوف والأسنة ، وكل ذلك للمدافعة عنكم ، والإبقاء عليكم ، وإصلاح بلادكم مرة بأقصى الشرق ، وتارة فى آخر المغرب ، وأخرى فى نهاية الجنوب ، ومثلها فى جانب الشمال ، ونقلت الذين اتهمتهم إلى غير بلادهم ، ووضعت الوضائع فى بلدان الترك ، وأقمت بيوت النيران بقسطنطنية ، ولم أزل أصعد جبلا شامخا وأنزل عنه ، وأطأ حزونه بعد سهوله ، وأصبر على المخمصة[1] والمخافة ، وأكابد البرد والحر ، وأركب هول البحر وخطر المفازة ،

(١) المخمصة : خلاء البطن جوعا .

إرادةَ هذا الأمر الذى قد أتمه الله لكم : من الإثخان فى الأعداء، والتمكن فى البلاد، والسعَة فى المعاش ، ودَرْك العز ، وبلوغ ما نلتم ؛ فقد أصبحتم بحمد الله ونعمته على الشرف الأعلى من النعمة ، والفضـل الأكبر من الكرامة والأمن ، وقد هزم الله أعداءكم وقتّلهم؛ فهم بين مقتول هالك، وحىّ مطيع لكم سامع؛ وقد بقى لكم عدوّ عددهم قليل، وبأسهم شديد، وشوكتهم عظيمة؛ وهؤلاء الذين بقَوْا أخوف عندى عليكم ، وأحرى أن يهزِموكم ويغلِبوكم من الذين غلبتموهم من أعدائكم ، وأصحاب السيوف والرماح والخيول ؛ وإن أنتم أيها الناس غلبتم عدوّكم هـذا الباقى، غَلَبتكم لعدوّكم الذين قاتلتم وحاصرتم، فقد تمّ الظّفَر والنصر، وتمّت فيكم القوّة، وتمّ بكم العزّ ، وتمّت عليكم النعمة، وتمّ لكم الفضل، وتمّ لكم الاجتماع والألفـة والصحة والسلامة؛ وإن أنتم قصّرتم ووهنتم ، وظفِرَ هـذا العدو بكم فأين الظّفَر الذى كان منكم، فاطلبوا أن تقتلوا من هذا العدو الباقى مثل ما قتلتم من ذلك العدو الماضى؛ وليكن جدّكم فى هذا واجتهادكم واحتشادكم أكبرَ وأجلّ وأحزم وأعزم وأصح وأشدّ، فإن أحقَ الأعداء بالاستعداد له أعظمُهم مكيدة، وأشدهم شوكة، وليس الذى كنتم تخافون من عدوّكم الذى قاتلتم بقريب من هؤلاء الذين آمركم بقتالهم الآن؛ فاطلبوه وصلوا ظفرا بظفر، ونصرا بنصر، وقوّة بقوّة، وتأييدا بتأييد، وعزما بحزم وعزم، وجهادا بجهاد؛ فإن بذلك اجتماعَ إصلاحكم، وتمامَ النعمة عليكم، والزيادة فى الكرامة من الله لكم ، والفوزَ برضوانه فى الآخرة .

ثم اعلموا أن عدوّكم من الترك والروم والهند وسائر الأمم لم يكونوا ليبلغوا منكم — إن ظهروا عليكم وغلبوكم — مثل الذى يبلغ هذا العـدوّ منكم إن غلبكم وظهر عليكم؛ فإن بأسَ هذا العدوّ أشدُّ ، وكيدَه أكبرُ، وأمرَه أخوف من ذلك العدوّ .

يأيها الناس، إنى قد نَصِبْتُ(١) لكم كما رأيتم، ولقيتُ ما قد علمتم بالسيف والرُّمح والمفاوز والبحار والسهولة والجبال؛ أقارع عدوّا عدوّا، وأكالب جندا جندا، وأكابد ملِكًا ملكا، لم أتضرّع إليكم هذا التضرّعَ فى قتال أولئك الجنود والملوك، ولم أسألكم هذه المسألةَ فى طلب الجدّ منكم، والاجتهادِ والاحتفالِ والاحتشادِ، وإنما فعلت هذا لعِظَم خطره، وشدّة شوكته، ومخافةِ صولتِه بكم. وإن أنا أيها الناس لم أَغلِبْ هذا العدوّ وأنْفِه عنكم، فقد أبقيت فيكم أكبر الأعداء، ونفيت عنكم أضعفها، فأعينونى على نفى هذا العدوّ المَخُوف عليكم، القريبِ الدار منكم؛ فأُنشِدكم اللهَ أيها الناس لَمّا أعنتمونى عليه حتى أنفيَه عنكم، وأخرجَه من بين أظهركم فيتمّ بلائى عندكم، وبلاءُ الله فيكم عندى، وتتمَّ النعمةُ علىّ وعليكم، والكرامةُ من الله لى ولكم، ويتمّ هذا العز والنصر، وهذا الشرفُ والتمكين، وهذه الثروة والمنزلة .

يأيها الناس، إنى تفكرت بعد فراغى من كتابى هذا، وما وصفتُ من نعمة الله علينا فى الأمر الذى لمّا غلب دارا الملوكَ والأممَ وقهرها، واستولى على بلادها، ولمّا تحكّم أمر هذا العدوّ، هلك وهلكت جنوده بعد السلامة والظّفَر والنصر والغلبة؛ وذلك أنه لم يرض بالأمر الذى تمّ له به المُلك، واشتدّ به السلطان، وقوى به على الأعداء، وتمّت عليه به النعمةُ، وفاضت عليه من وجوه الدنيا كلّها الكرامةُ، حتى احتال له بوجوه النميمة والبغى؛ فدعا البغى الحسدَ(٢) فتقوّى به وتمكّن، ودعا الحسدُ بغضَ أهل الفقر لأهل الغنى، وأهل الخمول لأهل الشرف؛ ثم أتاهم الإسكندر وهم على ذلك من تفرّق الأهواء، واختلاف الأمور، وظهور البغضاء

(١) نصبت: يقال نصب الرجل (بكسر الصاد) نصبا بفتحها: أعيا وتعب.

(٢) فى الأصول: فدعا البغى والحسد، ولعل هذه الواو مقحمة من الناسخ.

وقوة العداوة فيما بينهم والفساد منهم . ثم آرتفع ذلك إلى أن قتله صاحب حرسه وأمينه على دمه، للذى شمل قلوب العامة من الشر والضغينة، ونبت فيها من العداوة والفُرقة ، وكفى الإسكندر مؤنة نفسه؛ وقد اتعظتُ بذلك اليوم وذكرتُه .

يأيها النـاس، فلا أسمعنّ فى هـذه النعمة تفرقا ولا بغيا ولا حسدا ظاهرا ، ولا وشاية ولا سعاية، فإن الله قد طهّر من ذلك أخلاقنا ومُلْكنا، وأكرم عنه ولايتنا، وما نلت ما نِلت بنعمة ربنا وحمـده بشىء من الأمور الخبيثة التى نفتها العلمـاء ، وعافتها الحكماء ؛ ولكن نلت هذه الرتبة بالصحة والسلامة، والحب للرعية، والوفاء والعدل والاستقامة والتؤدة . وإنما تركنا أن نأخذ عن هذه الأمم التى سميناها ، أعنى من الترك والبربر والزنج والجبـال وغيرهم، مثل ما أخذنا عن الهند والروم لظهور هـذه الأخلاق فيهم وغلبتها عليهم . ولا تصلح أمة قط وملكها على ظهور هـذه الأخلاق التى هى أعدى أعدائكم .

يأيها النـاس، إن فيما بسط الله علينا بالسلامة والعافيـة والاستصلاح غِنًى لنا عمـا نطلب بهـذه الأخلاق الرديئة المشئومة؛ فاكفونى فى ذلك أنفسكم، فإنّ قهرْ هذه الأعداء أحبُّ إلىّ وخير لكم من قهر أعدائكم من الترك والروم . فأما أنا أيها الناس فقد طِبتُ نفسا بترك هذه الأمور ومحقها وقمعها ونفيها عنكم .

يأيها الناس، إنى قد أحببت أن أنفىَ عدوّكم الظاهر والباطن ؛ فأما الظاهر منهما فإنّا بحمد الله ونعمته قد نفيناه وأعاننا الله عليه وحصد لنا شوكته ، وأحسنتم فيه وأجملتم وآسيتم وأجهدتم ، فآفعلوا فى هذا العدوّ كما فعلتم فى ذلك العدوّ، وآعمَلوا فيه كالذى عَمِلتم فى ذلك، وآحفظوا عنّى ما أوصيكم به فإنى شفيق عليكم ناصح لكم .

أيهـا الناس، من أحيا هذه الأمورَ فينا فقد أفسد بلاءه عندنا بقتاله مَنْ كان يقاتلنا من أعدائنا، فإن هذه أكثر مضرةً، وأشدّ شوكةً، وأعظم بليةً، وأضر تَبِعةً .

وآعلموا أن خيركم يأيها الناس من جمع إلى بلائه السالف عندنا المعونةَ لنا على نفسه فى هذا الغابر . وآعلموا أن من غلبه هذا غلبه ذاك ، ومن غلب هذا فقد قهر ذاك ؛ وذلك أن بالسلامة والألفة والمودّة والاجتماع والتناصح منكم يكون العزّ والقدرة والسلطان ، ومع التحاسد والبَغْى والنميمة والسبِّ يكون ذهاب العز ، وآنقطاع القوة وهلاك الدنيا والآخرة ؛ فعليكم بما أمرناكم به ، وآحذروا ما نهيناكم عنه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . عليكم بمواساة أهل الفاقة ، وضيافة السابلة[1] ، وأكرموا جوار من جاوركم ، وأحسنوا صحبة من دخل فيكم من الأمم ، فإنهم فى ذمّتى ، ولا تَجْبَهوهم ولا تظلموهم ، ولا تَسَلَّطوا عليهم ، ولا تُحرجوهم ، فإن الإحراج يدعو إلى المعصية ، ولكن اصبِروا لهم على بعض الأذى ، واحفظوا أمانتكم وعهدكم ، واحفظوا ما عَهِدت إليكم من هذه الأخلاق ، فلا تَصلُحوا إلا معها ، وبالله تعالى ثقتنا فى الأمور كلها . ثم هلك أنو شروان بعد ثمان وأربعين سنة من ملكه .

* * *

ثم ملك بعده آبنــه هرمز بن كسرى أنو شروان . وأمه قاقم بنة خاقان ملك الترك . وقيــل : بل ابنــة ملك من ملوك الخــزر . قال : وكان كثيرَ الأدب ، حسن السياسة ، جميل النية ، وافر الإحسان إلى الضعفاء والمساكين .

وكان من سيرته المرتضاة أنه يُجرى الخير والعدل على الرعية ، ويشدّد على العظماء المتسلطين على الضعفاء . وبلغ من عدله أنه كان يسير إلى المياه ليَصيفَ هناك ، فأمر فنودِى فى مســيره أن يُحامى مواضعُ الحروث ، ولا يسيرُ فيها الراكب لئــلا يضروا بأحد ، ووكّل بتعهد ما يجرى فى عسكره ، ومعاقبةِ من تعدّى أمره وتغريمه لصاحب

(١) السابلة هنا : المارون على الطريق المسلوك .

الحرث عوضا عمـا أفسده له . وكان آبنـه كسرى أبرويز فى عسكره فغار مركَبٌ من مراكبه ووقع فى حرث كان على الطريق، فأفسد ما مرّ عليه ، فأُخذ ودفع إلى الرجل الموكل من جهة هرمز بمعاقبة من أفسد هو أو دوابُّه شيئا من الحرث، فلم يجسر الرجل الموكل من جهة هرمز أن ينفِّـذ أمر هرمز فى آبنه أبرويز ، فرفع الأمر إلى هرمز فأمره أن يجـدع أذنيه ، ويبتُرَ ذنَبَـه ، ويغرّم كسرى أبرويز لصاحب الحرث ؛ فخرج الرجل لإنفاذ الأمر، فـدس له كسرى رهطا من العظماء يسألونه التثبت فى الأمر ، فكلّموه فلم يُجب إلى ذلك ، فسألوه تأخير إنفاذ الأمر فى المركَبِ حتى يكلموا هرمز ، ففعل ، ولقى أولئك الرهطُ هرمزا وأعلمـوه أن ذلك المركب الذى غار إنمـا غار زَعارةً(١)، وأنه أُخِذَ لوقته، وسألوه أن يأمر بالكف عن جدعه وبتره ، لمـا فى ذلك من سـوء الطِّيَرَةِ فلم يجبهم إلى ما سألوه ، وأمر بالمركب فجدعت أذناه وبتر ذنبه، وغَرِم كسرى كما يغرّم غيره من الجند ثم ارتحل .

قال : وركب ذات يوم فى أوان إيناع الكَرْم يريد ساباط المدائن(٢)، وكان ممُرّه على بساتين وكروم ، فنظر بعض الأَساوِرَة إلى كرم فرأى حِصْرِما ، فأصاب منه عناقيدَ ودفعها إلى غلامه وقال : اذهب بها إلى المنزلة وآطبخها بلحم وآصـنع منها مرقة فإنها نافعة فى هـذا الإبّان ، فأتاه حافظ ذلك الكرم فلزمه وصاح به ، فبلغ إشفاق الأُسوار من عقوبة هرمز أن دفع إلى حافظ الكرم مِنْطَقــة محلّاةً بالذهب كانت فى وسـطه ، وسأله أن يأخذها عوضا عمـا أخذه من الحِصْرِم ، ولا يرفـع الأمر إلى الملك .

---

(١) زعارة : شراسة وسوء خلق .

(٢) ساباط المدائن : مدينة فى جانب دجلة الغربى (راجع تقويم البلدان لأبى الفداء) .

فهذه كانت سيرته فى العدل، وهذا كان خوف جنده وأساورته منه . وكان مظفّرا منصورا، وكان أديبا داهيا، إلا أنه كان مُقْصِياً للأشراف وأهل البيوتات والعلماء . وقيل : إنه قتل ثلاثة عشر ألف رجل وستمائة رجل منهم، ولم يكن له رأى إلا فى تألف السِّفْلة وأسقاط النـاس واستصلاحهم . وحبس خلقا كثيرا من العظماء، وحطّ مراتب جمـاعة كبيرة، وقصّر بالأساورة ففسدت عليـه نيات أكابر جنده وعظماء مملكته ، فكان عاقبة سوء هذا التدبير أن خرج عليه جماعة من الملوك منهم شابه [شـاه](1) ملك الترك فى ثلثمائة ألف مقاتل، وسار إلى باذَغِيس(2)، وذلك بعـد مضىّ إحدى عشرة سنة من ملكه، وخرج عليه ملك الروم فى ثمـانين ألف مقاتل، وخرج عليه ملك الخزر حتى سار إلى باب الأبواب، وخرج عليه من العرب خلق كثير، فنزلوا فى شاطئ الفرات وشـنّوا الغارات على أهل السواد ، فاجترأ عليه أعداؤه وغزوا بلاده .

فأما شابه [شاه](1) ملك الترك فإنه أرسـل إلى هرمز وإلى عظماء مُلـكه من الفرس يؤذنهم بإقباله فى جيوشـه زُمَرًا زُمَرًا ، وأعلمهم أنه يريد غزو الروم ، ويسلك إليهـم من بلادهم ، وأمرهم أن يعقدوا له قناطر على كل نهر يمرّ عليـه فى بلادهم من الأنهار التى لا قناطر عليها، وكذلك فى الأودية، وأن يسهِّلوا له الطرق والمسالك وقال : فإننى قد أجمعت على المسير إلى بلاد الروم من بلادكم، فاستفظع هرمز ما ورد عليه من ذلك، وجمع أكابر مملكته وعرض ذلك عليهم، وشاورهم فيما يفعله ، فاجتمعت الآراء على قصـد ملك الترك وحربه ، فندب إليه رجلا من أهل الرأى والنجدة يقال له بهرام جُوبين ، فاختار بهرام من العسكر اثنى عشر ألفا

(1) التكلة من غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم للثعالبى (ص ٦٤٢) .

(2) باذغيس : ناحية تشتمل على قرى من أعمـال هراة ومرو الروذ .

من الكهول دون الشباب، وسار بهم حتى انتهى إلى هراة[1] و باذغيس، ولم يشعر شابه [شاه][2] ملك الترك ببهرام حتى وافاه ونزل بالقرب من معسكره، فكانت بينهما حروب كثيرة آخرها أن بهرام جوبين قتل شابه برمية رماه [بها][3] فاستباح عسكره، وأقام بهرام موضعه، فوافاه برموذة[4] بن شابه وكان يعدل بأبيه، فحاربه فهزمه بهرام جوبين وحصره فى بعض الحصون، ثم ألحّ عليه حتى استسلم له، فوجهه أسيرا إلى هرمز، وغنِم كنوزا عظيمة، فيقال إنه حمل إلى هرمز من الأموال والجواهر والأوانى وسائر الأمتعة وقر مائتى ألف وخمسين ألف بعير فى مدّة تلك الأيام، فشكره هرمز على ذلك، وأمره أن يتقدّم بمن معه إلى بلاد الترك فلم يره بهرام صوابا، ثم خاف سطوة هرمز .

وحُكِىَ له أن الملك يستقلّ ما حمله إليه من الغنائم فى جنب ما وصل إليه منها، وأنه يقول فى مجالسه قد ترفّه بهرام واستطاب الدّعة، و بلغ ذلك الجند فخافوا مثل خوفه . فيقال إن بهرام جمع ذات يوم وجوه عسكره وأجلسهم على مراتبهم ثم خرج عليهم فى زِىّ النساء و بيده مِغزلٌ وقطن حتى جلس فى موضعه؛ وحمل إلى كل واحد من أولئك القوم مِغزل وقطن ووضع بين أيديهم ، فامتعضوا من ذلك وأنكروه وقالوا : ما هذا الزىّ ! فقال بهرام : إن كتاب الملك ورد علىّ بذلك ولا بدّ من امتثال أمره إن كنتم طائعين له ، فأظهروا أنفة وحميّة وأجمعوا كلهم على خلع

(١) هراة : مدينة عظيمة مشهورة بخراسان خربها التتر، وكانت فتحت فى أيام عثمان رضى الله عنه. (راجع تقويم البلدان لأبى الفداء) .

(٢) التكملة من غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم للثعالبى (ص ٦٤٢) .

(٣) زيادة يقتضيها السياق .

(٤) كذا فى تاريخ الطبرى (ص ٩٩٣ من القسم الأول طبعة أوربا) . وفى تاريخ ابن الأثير (ج ١ ص ٣٤٢ طبعة أوربا) : « برموده بن شابه » وفى الأصول : « ربوزة » .

هرمز ، فخلعـوه وأظهروا أن ابنه كسرى أبرويز أصلح للملك منه، وساعدهم على ذلك خلق كثير ممن كان بحضرة هرمز .

ولمـا اتصـل ذلك بهرمز أنفـذ جيشا كثيفا مع بعض قواده لمحـاربة بهرام جوبين، فأشـفق أبرويز من الحـديث وخاف سطوة أبيـه ببهرام ، فهـرب إلى أذربيجان، فاجتمع إليه هناك عدّة من المرازبة ومن الأصبهبذين ، فأعطوه بيعتهم ولم يُظهـر أبرويز شيئا، وأقام بمكانه إلى أن بلغـه قتل القائد الذى كان قد بعثـه هرمز لمحاربة بهرام جوبين ، وهو أذبيحشيش ، وهزيمة الجيش الذى كان معـه واضطراب أمر هرمز أبيه ، وكتبت أخت أذبيحشيش إلى كسرى أبرويز تخبره بضعف أبيه هرمز، وأعلمته أن العظماء والوجوه قد أجمعوا على خلعه، وأن بهرام جوبين إن سبقه إلى المدائن احتوى على الملك . قال : ولم يلبث العظماء أن وثبت على هرمز وفيهم بِندويه[1] وبسطام خالا أبرويز وخلعوه وسملوا عينيه، وتركوه تحرّجا من قتله . فكان ملكه إلى أن خُلِع وسُمِل اثنتى عشرة سنة .

* * *

ثم ملك بعده ابنه كسرى أبرويز بن هرمز بن كسرى أنوشروان . قال :

ولمـا ملك بادر بمن معه إلى المدائن وسبق إليها بهرام جوبين وتتوج وجمع إليـه الوجوه والأشراف، وجلس على السرير ومنّاهم، وأمرهم بالسمع والطاعة، فاستبشر الناس به ودعَوْا له وأجابوه ودخلوا تحت طاعته . فلما كان فى اليوم الثانى أتى إلى أبيه فسجد له ، واعتذر وقال : إنك تعلم أيها الملك إننى برىء مما جناه إليك هؤلاء القـوم الذين فعلوا بك ما فعلوا ، وإنمـا هربتُ خوفا منك وإشفاقا على نفسى ، فصدّقه هرمز وقال : يا بنىّ ! إن لى إليك حاجتين فأسعفنى بهما ، إحداهما : أن

---

(١) فى تاريخ الطبرى (ص ٢١٦٩ من القسم الأوّل طبعة أوربا) فى كلامه على السقاطية بكسكر: « ابنا خال كسرى بندويه و بترويه ابنا بسطام » .

تنتقم لى ممن عاون على خلعى وسَمَل عينىّ ولا تأخذك بهم رأفة ، والأخرى تُؤْنسنى كل يوم بثلاثة نفر ممن لهم أصالة رأى ، وتأذن لهم بالدخول إلىّ ؛ فتواضع له أبرويز وقال : عمرك اللهَ أيها الملك ، إن المارِق بهرام قد أطلّنا (١) ومعه أهل الشجاعة والنجدة ، ولسنا نقدِر أن نمدّ يدا إلى من أتى إليك ما أتى ؛ فإنهم وجوه أصحابك ؛ ولكن إن أمكننى الله من المنافق فأنا خليفتك وطوع أمرك . ٥

قال : وأما بهرام جوبين فإنه ورد إلى النهروان ، فخرج كسرى أبرويز إليه وواقفه بها وجعل النهر بينه وبينه ، ودار بينهما كلام كثير . كل ذلك فى استصلاح بهرام ورجوعه إلى الطاعة ، وهو لا يُجيب إلى ذلك ولا يردّ إلا ما يسوء أبرويز حتى يئس منه وأجمع على حربه والتقَوْا واقتتلوا . وكان بينهما أخبار كثيرة وأحاديث طويلة آخرها أن أبرويز ضَعُفَ عنه بعد أن قتل بيده ثلاثة نفر من الأتراك ، ١٠ وكانوا من أشدهم وأعظمهم شجاعة ووَسامة ، وكانوا قد التزموا لبهرام بقتل أبرويز ، وضمن لهم بهرام على ذلك أموالا عظيمة .

قال : ثم رأى أبرويز من أصحابه فتورا فسار الى أبيه وشاوره فرأى المسير الى الروم ، وأحرز نساءه وشخَص فى عدّة يسيرة فيهم بِنْدَوَيْه وبسطام وكُرْدى أخو بهرام ؛ لأنه كان معاديا لأخيه ، شديد الطاعة والنصيحة لأبرويز . فلما خرجوا ١٥ من المدائن خاف القوم من بهرام ، وأشفقوا أن يردّ هرمز الى الملك ، ويكاتب ملك الروم عن هرمز فى ردّهم فيتلفوا ؛ فذكروا ذلك لأبرويز واستأذنوه فى إتلاف هرمز فلم يُحِرْ جوابا ، فانصرف بِنْدَوَيْه وبسطام وطائفة معهما الى هرمز فخنقوه ثم رجعوا الى كسرى فقالوا : سر على خير طالع ، وأيمن طائر ؛ فحثّوا دوابّهم وساروا الى الفُرات فقطعوه ، وأخذوا طريق المفازة بدلالة رجل يقال له : خُرْشِيذان ٢٠

(١) أطلنا : أشرف علينا .

وساروا الى بعض الديارات التى فى أطراف العمارة ، فلما أوطنوه للراحة لحقتهم خيل بهرام جو بين ، فلما نَذِروا بهم أَنْبَهَ بندويه أبرويزَ من نومه وقال له : احتل لنفسك فإن القوم قد طلبوك[1] . فقال كسرى : ما عندى حيلة . فقال بندويه : إنى سأحتال لك بأن أبذل نفسى دونك؛ قال : وكيف ذلك؟ قال : تدفع لى ثوبك وزينتك لأعلوَ الدير وتنجو أنت ومن معك من وراء الدير ، فإن القوم إذا وصلوا ورأوا هيئتك علىّ اشتغلوا بى عن غيرى ، وطاولتهم حتى تفوتهم ، ففعل ذلك ، وخرج أبرويز ومن معه ، ثم وافت خيل بهرام الدير وعليهم قائد لهم يقال له بهرام ابن سِياوش فاطلع عليهم بندويه من فوق الدير وعليه زينة أبرويز وثيابه ، وأوهمهم أنه هو ، وسأله أن يُنظِره الى غد ليصير فى يده سلما ويسير به الى بهرام جو بين ، فأمسك عنه وحفظ الدير ليلة كاملة بالحرس . فلما أصبح اطلع عليه فى بزّته وحليته وقال : إن علىّ وعلى أصحابى بقيةَ شغل من استعداد وصلوات وعبادات فأمهلنا . ولم يزل يدافعه حتى مضى عامة النهار وأمعن أبرويز ، وعلم بندويه أنه قد فاتهم ، ففتح الباب حينئذ وأعلم بهرام سياوش بأمره ، فانصرف به الى بهرام جو بين فحبسه .

وأما بهرام جو بين فإنه دخل المدائن وجلس على سرير الملك ، وجمع العظماء فخطبهم وذمّ أبرويز ودار بينهم كلام ، فكان كلهم منصرفا عنه إلا أن بهرام تتوج وانقاد له الناس خوفا ، ثم إن بهرام بن سياوش واطأ بندويه على الفتك ببهرام جو بين ، فظهر بهرام على ذلك ، فقتل سياوش وأفلت بندويه ولحق بأذربيجان ، وسار أبرويز حتى أتى أنطاكية فكاتب ملك الروم منها ، وراسله بجميع من كان معه وسأله نصرته ، فأجابه الى ذلك وزوّجه ابنته مريم وحملها إليه ، وأمدّه بثياذوس أخيه ومعه ستون ألفا من المقاتلة ، عليهم رجل يقال له سرجس ، يتولى تدبير

(١) فى تاريخ الطبرى (ص ٩٩٨ من القسم الأوّل طبع أوربا) : « أطلوك » .

أمرهم، ورجل آخر من أبطال الروم، كان يعدّ بينهم بألف رجل، وسأله ترك الأتاوة التى كان أبوه ومَنْ قبله من ملوك الفرس يستأدونها من ملوك الروم إذا هو مَلَك، فأجابه الى ذلك، وفرح بالجيش الذى أمدّه به ملك الروم، واغتبط بهم وأراجهم خمسة أيام، ثم عرضهم وعرّف عليهم العرفاء وسار بهم حتى نزل من أذربيجان فى صحراء تدعى الدنق[1] فوافاه هناك بندويه ورجل من أصبهبذى الناحية يقال له موسيل فى أربعين ألف مقاتل، فانضمّوا إليه، ووافاه الناس بالخيل من أصبهان وفارس، وانتهى الى بهرام جوبين مكانه بصحراء الدنق، فشخص نحوه من المدائن، فجرت بينهما حروب شديدة قتل فيها الكمىّ الرومىّ بضربة ضربه بها بعض الفرس على رأسه فقدّ رأسه وبدنه، وعاد فرسُه بنصف بدنه الباقى الى المعركة.

فلما رآه أبرويز استضحك، فعظم ذلك على الروم وعاتبوا أبرويز وقالوا له: هذا جزاؤنا منك! يقتل كميُّنا وواحد عصره فى طاعتك وبين يديك ونصحك ونصرتك وأنت تضحك لقتله! فاعتذر بأن قال: إنى والله ماضحكت لما تكرهون. ولقد شقّ علىّ أن فَقَدتُ مثله أكثر مما شقّ عليكم، ولكنى رأيتكم تستصغرون شأن جوبين وتُنكرون هربى منه، فذكرت ذلك من قولكم الآن وعلمت أنكم برؤيتكم هذه الضربة تعذِروننى وتعلمون يقينا أن هربى إنما كان من أمثال هؤلاء القوم الذين هذا مبلغ نكايتهم فى الأبطال. ويقال إن أبرويز حارب بهرام منفردا عن العسكر بأربعة عشر رجلا منهم كردى أخو جوبين وبندويه وبسطام حربا شديدا وصل فيها بعضهم الى بعض، وآخر الأمر أن أبرويز استظهر استظهارا يئس منه بهرام جوبين، وعلم

---

(١) كذا فى تاريخ الطبرى (ص ١٠٠٠ من القسم الأول طبع أروبا) وفى الأصل وردت هكذا «الرق» باهمال الحرف الذى قبل القاف. ونبه مصحح الطبرى بالهامش بأنها وردت فى بعض النسخ هكذا: «الرق، الريق، الدق، الرتق».

أنه لا حيلة له فيه ولا قدرة عليــه ، فانحاز عنــه نحو خراسان، ثم سار الى الترك، وسار أبرويز الى المدائن بعد أن فرق فى الجنود من الروم أموالا عظيمة وصرفهم الى ملك الروم .

قال : ولبث بهرام جوبين فى الترك مكرما عند الملك حتى احتال عليه كسرى أبرويز بتوجيهه رجلا يقال له هرمز الى الترك بجوهر نفيس وغيره من الهدايا الى آمرأة ملك الترك حتى دسّت لبهرام من قتله ؛ فاغتمّ خاقان لموته وأرسل إلى أخته كردية وآمرأته يعلمهما بلوغ الحوادث ببهرام، وسأل كردية أخت بهرام أن يتزوّجها وفارق آمرأته خاتون بهذا السبب ، فأجابته كردية جوابا لينا، ثم ضمت إليهــا مَنْ كان مع أخيها بهرام من المقاتلة، وخرجت بهــم من بلاد الترك إلى حدود مملكة فارس، فأتبعها ملك الترك أخاه نطــرا[1] فى آثنى عشر ألف فارس . فيقال إن كردية قاتلت وقتلت نطرا بيــدها ، ومضت لوجهها حــتى بلغت حدود أرض فارس ، وكتبت إلى أخيها كردى فأخذ لهــا أمانا من أبرويز، فلما قدِمت عليه اغتبط بها وتزوّج بها أبرويز.

قال : ولم يزل أبرويز يلاطف ملك الروم الذى نصره وأمدّه ويهاديه إلى أن وثبت الروم عليه فى شىء أنكروه منه فقتلوه وملّكوا غيره، فبلغ ذلك أبرويز فتألم له وأوى إلى أبرويز ابن الملك المقتول، فتوجه أبرويز وملكه على الروم، ووجه معه جنودا كثيفة مع شهرياز فدوّخ بهم البلاد . وملك صاحب كسرى بيت المقدس وأخذ خشبة الصلب وبعث بها إلى كسرى ، وذلك فى أربع وعشرين ســنة من ملكه ، ثم احتــوى على مصر والاسكندرية وبلاد النــوبة، وبعث مفاتيح ثغــر الإسكندرية إلى كسرى فى سنة ثمان وعشرين من ملكه ، وقصد قسطنطينية فأناخ

(١) كذا فى تاريخ الطبرى . وفى الأصل : « بطرا » .

على ضفة الخليج الذى هو بالقرب منها وخيم هنالك، فأمره كسرى بخرب بلاد
الروم غضبا على أهلها لما انتهكوا من ملكهم وانتقاما له، ومع ذلك لم يخضعوا
لأبن ملكهم المقتول ولا منحوه الطاعة، ولا مال اليه واحد منهم ؛ غير أنهم قتلوا
الملك الذى ملّكوه عليهم بعد أبيه المسمى قوقا لما ظهرلهم من فجوره وسوءتدبيره؛
وملّكوا عليهم رجلا يقال له هرقل . فلما رأى هرقل عظم ما فيه أهل بلاد الروم ٥
من تخريب جنود فارس بلادهم، وقتلهم مقاتلتهم، وسبيهم ذراريهم، واستباحتهم
أموالهم تضرّع إلى الله وأكثر الدعاء وابتهل . فيقال إنه رأى فى منامه رجلا ضخم
الجثة رفيع المجلس قد دخل عليه، فدخل عليهما داخل فألقى ذلك الرجل عن مجلسه
وقال لهرقل : إنى قد أسلمته فى يدك، فلم يقصص رؤياه تلك فى يقظته على أحد
حتى توالت عليه أمثالها، فرأى فى بعض لياليه كأن رجلا دخل عليهما وبيده ١٠
سلسلة طويلة فالقاها فى عنق صاحبه، أعنى صاحب المجلس الرفيع ، ثم دفعه إليه
وقال له : ها قد دفعت اليك كسرى برقبته .

فلما تتابعت هذه الأحلام قصّها على عظماء الروم وذوى العلم منهم، فأشاروا
عليه أن يغزوه ، فآستعدّ هرقل وآستخلف آبنه على مدينة قسطنطينية، وأخذ عن
الطريق الذى فيه شهرياز[1] صاحب كسرى وعدل الى غيرها، وسار حتى أوغل فى بلاد ١٥
أرمينية ونزل نصيبين سنة ، وكان صاحب ذلك الثغر من قبل كسرى استُدعِىَ
لمَوْجِدة كانت من كسرى عليه . وأما شهرياز فقد كانت كتُبُ كسرى ترد عليه
فى الجثوم على الموضع الذى هو به وترك البراح، ثم بلغه أن هرقل قد أقام بجنوده

---

(١) فى تاريخ الطبرى (ص ١٠٠٢ من القسم الأول) : « شهربراز » وأشار مصححه بالهامش
الى أنه ورد فى بعض المراجع : « شرسريران » و « شرير يار » . ٢٠

بنصيبين، فوجه كسرى لمحاربة هرقل رجلا من قواده يقال له : راهزار[1] فى آثنى عشر ألف رجل من الأنجاد، وأمره أن يقيم بنينوى — وهى الموصل — على شاطئ دجلة ويمنع الروم أن يجوزوها . وكان كسرى بلغه خبرُ هرقل ، وهو يومذاك بدَسْكَرة[2] المُلْك، فنفذ الجيش لمنعه من جواز دجلة، فعسكروا حيث أمرهم كسرى، فقطع هرقل دجلة من موضع آخر الى الناحية التى فيها جنود فارس، فأذكى راهزار العيون عليه، فأخبروه أن هرقل فى سبعين ألف مقاتل، فأيقن راهزار ومن معه من الجند أنهم عاجزون عن مناهضته ، فكتب إلى كسرى غير مرة أن هرقل قد دهمه بما لا طاقة له به ولا قبل من الجنود الكثيرة . كل ذلك يجيبه كسرى بأنه إن عَجَزَ عن الروم فلن يعجِزَ عن استقبالهم ، وبَذْلِ دماء الفرس فى طاعته .

فلما تتابعت على راهزار أجوبة كسرى بذلك عبّأ جنده وناهض الروم بهم ؛ فقتلت الروم راهزار وستة آلاف رجل من الفرس ، وانهزم بقيتهم وهربوا على وجوههم لا يلوون على شيء، وبلغ كسرى ذلك فانحاز من دسكرة المُلْك الى المدائن، وتحصّن بها لعجزه عن محاربة هرقل ، وسار هرقل بجيوش الروم حتى كان قريبا من المدائن، فاستعدّ كسرى لقتاله، فلما بلغه ذلك آنصرف الى أرض الروم، وكتب كسرى الى قواد الجند الذين انهزموا يأمرهم أن يَدُلّوه على كل رجل انهزم منهم، ومن فَشِل فى تلك الحرب، ولم يرابط مركَزه، وأمر بعقوبتهم بحسب ما استوجبوا، فأحوجهم بهذا الكتاب الى الخلاف عليه، وطلب الحِيَل لنجاة أنفسهم منه، وكتب الى شهرياز يأمره بالقدوم عليه ويستعجله فى ذلك ويصف ما نال هرقل منه ومن بلاده .

---

(١) كذا فى تاريخ الطبرى، وكتب مصححه بهامشه : «راهزاذ» ، وفى الأصل : «زاهزاد».

(٢) الدسكرة : بناء شبه قصر حوله بيوت يكون للملك (المعرّب للجواليق) .

وقد حكى أن كسرى عرِّف أن له آمرأة فى فارس لا تلد إلا الملوك والأبطال فدعاها وقال : إنّى أريد أن أبعث الى الروم جيشا وأستعمل عليهم رَجُلا من بَنِيك فأشيرِى علىّ أيِّهم أستعمل، فوصفتْ له أولادُها فقالت : هـذا فَرُّخان أنفذ من سِنان، وهذا شَهْرَياز[1] أَحْكَم من كذا، وهذا فلان أَرْوَغُ من كذا، فآستعمل شَهْرياز، فسار الى الروم فظهر عليهم وهزمهم وخرّب مدائنهم . ٥

فلمّا ظهرتْ فارس على الروم جلس فى بعض الأيام فَرُّخان يشرب ، فقال فَرُّخان لأصحابه : لقـد رأيتُ أنّى جالس على سرير كِسْرى ، فبلغتْ كلمتُه كِسْرى ، فكتب إلى شَهْرَياز : اذا أتاك كتابى هذا فآبعث إلىّ برأس فَرُّخان ، فكتب اليه : أيها الملك ، إنك لن تجد مثـل فرّخان ، وإن له نكايةً فى العدوّ وصيتا فلا تفعل ، فكتب اليـه : إنّ فى رجال فارس خَلَفا منه ، فعجِّل إلىّ برأسه ، فراجعه فغضب كسرى ولم يُجبـه ، وبعث بَرِيدا الى أهل فارس : إنّى قـد نزعتُ عنكم شهرياز وآسـتعملتُ فَرُّخان، فآنقاد له شهرياز وقال : سمعا وطـاعةً ، ونزل عن سريره وجلس عليـه فَرُّخان ، ثم دفع البريد صحيفةً صـغيرةً الى فرّخان كان كسرى قـد أعطاها له وقال له : اذا آنقاد شهرياز الى طـاعة فَرُّخان فآعط فَرُّخان هـذه الصحيفة ، فلمـا قرأها فرّخان قال : علىّ بشهرياز ! فأُتى به فقُدِّم ليضرب عنقه فقال : لا تعجِّل علىّ حتى أكتب وصيّتى، ثم دعا بسَفَط وأخرج منه ثلاث صحائف، وهى التى كان كِسْرى أمر شَهْرَياز فيها بقتل فَرُّخان وقال له : كلّ هـذه راجعت كسرى فيها عنك، وأنت تريد أن تقتلنى بكتاب واحد؟ فردّ المُلْك[2] إلى أخيه وآعتذر

٦٤/١٣ ١٠ ١٥

(١) فى تاريخ الطبرى (ص ١٠٠٧ من القسم الأوّل طبع أوربا) : « شهربراز » وقد ورد فيه هذا الخبر . ٢٠

(٢) كذا فى تاريخ الطبرى . وفى الأصل : « على » .

منه ، فكتب شهرياز الى هِرَقْل ملك الروم : إنّ لى إليك حاجة لا تحملها البُرُد ، ولا تُبَلِّغها الصُّحُف ، فالْقِنِي ولا تأتِنى إلّا فى خمسين روميّا ، فإنّى أيضا ألقاك فى خمسين فارسيّا ، فأقبل هِرَقْل فى خمسمائة [ألف][1] رومىّ ، وجعل يضع العيون بين يديه فى الطريق ، وخاف أن يكون قد مَكَر به ، فأتته عيونه أنه ليس مع شَهْرياز إلا خمسين رجلا .

قال : ثم ٱلتقيا وقد بُسِط لهما فى قُبّة من الدِّيباج ضُربت لهما ، فٱجتمعا ومع كلّ واحدٍ منهما سِكِّين ، ودَعَوْا تُرْجُمانا يترجم لكلٍّ منهما عن قول الآخر ، فقال شهرياز لهرقل : إنّ الذين خرَّبوا مدينتك وبلغوا منك ومن جُنْدك ما بلغوا أنا وأخى بشجاعتنا وكَيْدنا ، وإنّ كِسْرى حَسَدَنا وأراد قَتْلَ أخى وكتب إلىّ بقتله فأبيتُ ، ثم أمر أخى أن يقتلنى وقد خلعناه جميعا ونحن نقاتله معك . قال : قد أصبتما ووفِّقتما ، ثم أشار أحدهما الى صاحبه : إنّ السرّ إنما يكون بين ٱثنين فإذا جاوز ٱثنين فشا ، قال الآخر : نعم ، فقاما جميعا الى الترجمان بسكِّينَيْهما فقتلاه ، وٱتفقا على قتال كسرى أبرويز .

ومما ٱتفق فى أيامه من الحوادث يوم ذى قار ، وسنذكره - إن شاء الله تعالى - فى أيام العرب ووقائعها ، ولم نذكر فى هذا الموضع يوم ذى قار على سبيل الإيراد له بل على سبيل التنبيه عليه .

ذكر حيلة لأبرويز على ملك الروم

قال : كان أبرويز وجّه رجلا من جِلّة[2] أصحابه فى جيش جرّار الى بلاد الروم ، فنكأ[3] فيهم ، وبلغ منهم ، وفتح الشام ، وبلغ الدرب فى آثار الروم ، فعظُم أمرُه حتى خافه

(١) التكملة من تاريخ الطبرى .

(٢) الجلة (بالكسر) : العظام السادة ذوو الأخطار .

(٣) نكأ فى العدو : قتل فيهم وجرح وأثخن .

أبرويز، فكاتبه بكتابين ، يأمره فى أحدهما أن يستخلف على جيشه مَنْ يثق به ، و يُقبل إليه ، ويأمره فى الكتاب الآخر أن يُقيم بمكانه ، وأنه لمـّا تدبّر أمره ، وأجال الرأى لم ير مَنْ يسُدّ مَسَدّه ، ولم يأمن الخلل إن غاب عن موضعه ، وأرسل بالكتابين رسولا من ثِقاته وقال له : أعطِه الكتاب الأوّل بالأمر بالقدوم ، فإن أجاب الى ذلك فهو ما أردت ، وإن كَرِه وتثاقل عن الطاعة فآسكُت عليه أياما وأعلمه أن الكتاب الثانى ورد عليك وأوصله اليــه ليقيم بموضـعه . فخرج رسول كسرى حتّى أتى صاحب الجيش ببلاد الشام فأوصل اليه الكتاب ، فلمّا قرأه قال : إمّا أن يكون كسرى قد تغيّر لى وكَرِه موضعى ، أو يكون قــد آختلط عقلُه بصرف مثلى وأنا فى نَحْر العدوّ ؛ فدعا أصحــابه وقرأ عليهم الكتاب فأنكروه . فلما كان بعــد ثلاثة أيام أوصل اليــه الكتاب الثانى بالمقام وأوهمه أنّ رسولا ورد به . فلمّا قرأه قال : هذا تخليط ولم يقع منه موقعا ، ودسّ الى ملك الروم من باطنه فى إيقاع الصلح بينهما على أن يُخلِي الطريق لملك الروم حتى يدخل الى بلاد العراق على غِرّة من كِسْرى ، وعلى أنّ لملك الروم ما يغلب عليه من دون العراق ، وللفارسىّ ماوراءَ ذلك من بلاد فارس ، فأجابه ملك الروم الى ذلك وتنحّى الفارسىّ عنه فى ناحية من الجزيرة ، وأخذ أفواه الطريق ، فــلم يعلم كسرى حتى ورد خبر ملك الروم من ناحيــة قرقيسيا[1] ، وكسرى على غير آستعداد ، وجُنده متفرّقون فى أعماله . فلما أتاه الخبر وثب عن سريره وقال : هذا وقت حيلة ومكيدة ، لا وقت شدّة ، وجعل ينكُت الأرض مليّا ، ثم دعا برَقّ فكتب فيــه كتابا صغيرا بخطّ دقيق الى صاحبه بالجزيرة يقول فيه : قــد علمتَ ما كنتَ أمرتُك به من مواصــلة صاحب الروم وأطماعهم فى نفسك ، وتخليَــة الطريق حتى اذا تُوِلج بلادنا أخذته من أمامه ، وأخذته ومَن ندبناه معك من خَلْفه فيكون فى ذلك

(١) قرقيسيا : مدينة بالجزيرة مصب نهر الخابور بالفرات .

بواره، وقد تمّ فى هذا الوقت مادبّرناه ، وميعادك فى الإيقاع به يوم كذا وكذا، ثم دعا راهبا فى دَيْر بجوار مدينته وقال له : أىّ جارٍ كنتُ لك، قال : أفضل جار، فقال : قد بدتْ لنا اليك حاجة، فقال الراهب : الملك أجلّ من أن يكون له إلىّ حاجة ، ولكن عندى بذل نفسى ، فما الذى يأمر به الملك ؟ قال كسرى : تحمل لى كتابا الى فلان صاحبى، قال نعم ، قال كسرى : ستمرّ بأصحابك النصارى فأخفه ، فلما ولّى عنه الراهب قال له كسرى : أعلمتَ ما فى الكتاب ؟ قال لا ، قال : فلا تحمله حتى تعلم ما فيه . فلما قرأه أدخله فى جيبه ثم مضى . فلما صار فى عسكر الروم ونظر إلى الصُّلبان والقِسّيسين وضَجِيجهم بالتقديس والصلوات آحترق قلب الراهب وأشفق عليهم وقال فى نفسه : أنا شرّ الناس إنْ حملتُ بيدى حَتْفَ النصرانية، وهلاك هؤلاء الخلق ؛ فصاح الراهب : أنا لم يُحملنى الملك كسرى رسالة ولا معى كتاب، فأخذوه فوجدوا الكتاب معه، وقد كان كسرى أيضا وجّه رسولا قبل ذلك وأمره أن يمرّ بعسكر الروم كأنه رسولٌ الى كسرى من صاحبه الذى وافق ملك الروم ومعه كتابٌ فيه : إنّ الملك كان قد أمرنى بمقاربة ملك الروم، وأن أخدعه وأُخلى له الطريق ، فيأخذه الملك من أمامه وآخذه أنا من خَلْفه ، وقد فعلتُ ذلك ، فرأى الملك فى إعلامى وقت خروجه اليه . فأخذ ملك الروم الرسول وقرأ الكتاب وقال : قد عجبت من أن يكون هذا الفارسىّ معى على كسرى، ووافاه كسرى أبرويز فيمن أمكنه من جُنده، فوجد ملك الروم قد ولّى هاربا فآتبعه يقتل ويأسر مَن أدرك، وبلغ صاحب كسرى هزيمة الروم فأحبّ أن يُخلِىَ نفسه ويستر ذنبه . فلمّا فاته ما دبر خرج خلف ملك الروم يقتل فيهم ويأسر، فلم يسلم منهم إلّا القليل .

ذكر سبب هلاك أبرويز وقتله

قال : وكان سبب ذلك تجبّره وآحتقاره للعلماء وعُتُوّه ، وذلك أنه آستخفّ بما لا يستخفّ به الملك الحازم ، وكان قد جمع من المال ما لم يجمعه أحدٌ من الملوك ، وبلغتْ خيله الى قسطنطينية وأفريقية ، وكانت له آثنتا عشرة ألف آمرأة وجارية ، وألف فيل إلّا فيل واحد ، وخمسون ألف دابّة ، ومن الجواهر والأوانى والآلات مايليق بذلك ، وأمر أن يُحصى ماجُبِيَ من بلاده وسائر أبواب المال سنة ثمانى عشرة من مُلْكه ، فرُفع إليه أنّ الذى جُبِيَ فى تلك السنة من الخراج وسائر الأبواب كان ستمائة ألف ألف درهم ، وأمر أن يُحوَّل إلى بيت مالٍ بُنِيَ بمدينة طَيْسَفون(١) من ضَرْب فَيْروز بن يَزْدَجِرْد وقُباذ بن فَيْروز آثنتى عشرة ألف بَدْرة من أنواع الجواهر وغير ذلك .

قال : فعتا وتجبّر وآستهان بالناس والأحرار ، وبلغ من جُرأته أنه رأى رجلا كان على حَرَس باب الخاصّة ، يقال له : زاذان فَرُّوخ ، فأمره أن يقتل كل مقيّد فى سجنٍ من سجونه ، فأحصَوْا مَن بالسجون من المقيّدين فبلغوا ستّة وثلاثين ألفا ، فلم يقدر زاذان فَرُّوخ على قتلهم ، وتوقّف عن إمضاء أمر كِسْرى وأعدّ عِللا له فيما أمره به فيهم ، فكان هذا أحد الأسباب التى كسب بها كسرى عداوة أهل مملكته مع وجود آحتقاره إيّاهم ، وآستخفافه بهم ، وآطّراحه لعظمائهم . ومن ذلك أنه سلّط عِلْجا ، يقال له : فَرُّخان زاذ ، على الخراج فاستخرج بقاياهم منهم بعُنْف وعذاب . ومن ذلك أنه أجمع على قتل الفَلّ(٢) الذين آنصرفوا إليه من

(١) كذا فى معجم البلدان لياقوت . وهى مدينة كسرى التى فيها الإيوان ، بينها وبين بغداد ثلاثة فراسخ . وفى الأصل : « بطيسون » وتاريخ الطبرى : « طيسبون » .

(٢) الفل (بالفتح) : الجماعة .

قِبَل هِرَقْل ، فأكّدت هذه الأسباب بغضه ، وآستطال الناس مدّته ، فكان نتيجة ذلك أنّ قوما من العظماء آنصرفوا الى عَقَرِ بابِل[١] ، وفيه شِيَرى[٢] بن أَبَرْوِيز مع إخوته ، وقد كان كسرى أَبَرْويز وكَّل بهم مؤدّبين وأساورة ، يُحولون بينهم وبين من يجتمع بهم من الناس ، ويمنعونهم من البراح ، فأخذه العظماء وأقبلوا به إلى مدينة بَهُرَسِير[٣] ودخلوها ليلا ، فخلّى عمّن كان فى سجونها وأخرجهم ، وآجتمع إليه الفلّ الذين كانوا غلبوا وفرّوا من هِرَقْل وأمر كسرى بقتلهم ، فنادوا : قُبَاذ شاهَنْشَاه ، وصاروا كلّهم عندَ الصباح إلى رَحَبة كِسْرى ، فهرَب الحرس ، وآنحاز كسرى بنفسه إلى باغٍ[٤] له بالقُرْب من قصره ، يعرف بباغ الهِنْدُوَان[٥] ، فارًّا مرعوبا ، فأُخذ وحُبِس بمكانٍ غيرِ دار المملكة ، فى دار رجل يقال له : مارا سْفَنْد ، إلى أن قُتل بعد حديث طويل ومراسلات كانت بينه وبين آبنه شِيَرى بمواطأة العظماء ، بعد تقريع عظيم ، وتوبيخ كثير ، على ما كان منه ، ومن سوء تدبيره ، وقُبْح فعاله ، وهو يجيبهم بأجوبة إقناعيّة ، وله مراسلاتٌ ووصايا كتبها إلى آبنه من السجن ، قد ذكرنا بعضها فيما سلَف من هذا الكتاب . وكان هلاكه بعدَ ثمانٍ وثلاثين سنةً من مُلْكه . وبمضيّ آثنتين وثلاثين سنة وخمسةَ أشهر وخمسةَ عشرَ يوما من مُلْكه ، كانت هجرة سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة .

---

(١) عقربابل : موضع قرب كربلاء من الكوفة .

(٢) هكذا يسميه العرب فى كتبهم ، والفرس يسمونه : « شيرويه » .

(٣) بهرسير : من نواحى سواد بغداد قرب المدائن . وقيل : هى إحدى المدائن السبع التى سميت بها المدائن .

(٤) ورد فى هامش نسخة ب حاشية نصها : « الباغ : البستان » .

(٥) كذا فى تاريخ الطبرى . وفى الأصل : « باغ المندوان » .

قال : ولمّا قُبِض على كِسْرى خلّف فى بيت المال من الوَرِق[1] أربعمائة ألف بَدْرة سِوَى الكنوز والذخائر والجواهر والآلات .

وكان وزيرُه والقائمُ بتدبير دولتـه بُزُرْجِمْهر الحكيم . ولبُزُرْجِمْهر هذا قضايا وحِكَم ومواعظ فى أيدى الناس . ويقال : إنّ بُزُرْجِمْهر هذا إنما كان وزيرا لكسرى أنو شِرْوان ، وهو الذى قتلـه . وذلك أنّ بُزُرْجِمْهر ترك المجوسيّة ورجع الى دين عيسى بن مريم عليـه السلام ودان به ، فقتله كسرى لذلك . ويقال : إنه وُجِد فى مِنْطَقَتِه لمـا قُتِل كتابٌ فيه : إذا كان القَـدَرُ حقًّا فالحِرْصُ باطلٌ ، وإذا كان الغَدْرُ فى الناس طباعا فالثِّقةُ بكلّ أحدٍ عَجْزٌ ، وإذا كان الموتُ نازلا فالطُّمأْنِينةُ إلى الدنيا حُمْقٌ .

قالوا : ولمّـا بلـغ بُزُرْجِمْهر من العُمْر خمسَ عشرةَ سـنةً دخل على كسرى ، وقـد جلستْ الوزراء على كَرَاسيها والمَـرَازبة[2] فى مجالسها ، فوقف وحيّا الملِك بتحية الملوك ثم قال : الحمدُ لله المأمونِ نِعَمُه ، المَرْهوبِ نِقَمُه ، الدالّ عليـه ، بالرغبة اليه ، المؤيِّد المُلْك ، بسعوده فى الفُلْك ، حتّى رفَع شأنَه ، وعَظُم سلطانُه ، وأنار به البـلاد ، وأنعش به العباد ، وقسّم به فى التقدير ، وجوه التدبير ، فرعى رعيته بفضل نعمته ، وحَمـاها المويِلات، وأوردها المُعْشِبات[3] ، وذاد عنها الأكالين ، وألّفها بالرِّفْق واللين ، إنعاما من الله عليه ، وتثبيتا لمـا فى يديه . وأساله أن يبارك له فيما آتاه ، ويخيِّر له فيما آسترعاه ، ويرفع قدرَه فى السماء ، ويسـير ذكره على وجه المـاء ، حتى لا يبقى له بينهما مناوى ، ولا يُوجَد له مساوى . وأستوهب الله له

(١) الورق : الدراهم المضروبة من الفضة .

(٢) المرازبة : رؤساء الفرس .

(٣) الأصل : « ودادها » والسياق يقتضى ما أثبتناه .

حياةً لا يتنغّص فيها ، وقُدرة لا يَحيد أحدٌ عنها ، ومُلْكا لا بُؤْس فيـه ، وعافيةً تُدِيم له البقاء، وتُكثِر له النَّمـاء، وعزّا يؤمّنه من آنقلاب رعيّته، أو هجوم بليّته ، فإنه مُؤتِي الخير، ودافعُ الشرّ .

فلمّا سمعه كسرى أمر فحُشِيَ فمُه بنفيس الجواهر ، ولم تمنعه حداثةُ سنّه أن آستوزَره ، وقلّده خيرَه وشرَّه ؛ فكان أوّلَ داخل ، وآخرَ خارج . وكان أبوه خاملَ القَدْر ، وَضِيعَ الحال ، سَفِيهَ المنطق ، آسمه البَخْتكان .

قال : ولمـا قُبِض على أَبرويز ملك بعده ابنه : قُبَاذ بن أبرويز ويُعـرَف قُبَاذ بشيرويه . وقُبَاذ هـذا هو القابضُ على أبيه والقاتلُ له ، وقتل سبعةَ عشرَ أخًا له ، وقيل ثمانيةَ عشرَ ، ذوى آدابٍ وشجاعة ؛ فكان عاقبةُ ذلك أنّ الله عز وجلّ آبتلاه بالأسقام ، فآنتقض عليه بدنه ، ولم يلتذ بشئ من ملاذّ الدنيا ، وجَزَع بعد قتل إخوته جَزعا شديدا ، وكان يبكى حتى يرمىَ التاج عن رأسه ، وعاش ما عاش مهموما حزينا مُدنَفا . وفى أيامه فشا الطاعون فأهلك أكثر الفُرْس . وكان مُلْكه ثمـانيةَ أشهر ، وقيل أكثر من ذلك .

وملك بعد وفاته آبنـه أَرْدَشِير بن شِيرَوَيْه وهو آبن سبع سنين ولم يوجد من بيت الملك غيره .

قال : ولمـا ملّكته الفُرْس عليها حضنه رجلٌ يقال له : مِهآذَرْجُشنس[1] ، فأحسن سياسـة المُلْك . وكان شَهْرَبراز[2] المقيم بثغر الروم فى جُنْدٍ ضمّهم اليه كِسْرى أبرويز

(١) كذا فى تاريخ الطبرى ، وفى الأصول : «مهادر حشيس» بالميم ، وفى موضع آخر : «بهادر حشيس» بالباء .

(٢) كذا فى تاريخ الطبرى ، وهو ماه إسفندار . وفى الأصل : «شهريران» .

وآبنه شِيرَوَيْه ، وكانا يكتبان اليه ويستشيرانه فى الأمر الذى يهمهما ويعملان برأيه . فلمّا مات شِيرَوَيْه وملّكتْ الفُرْس عليها آبنه أردشير — مع حداثة سنه — لم يشاوره عظماء الفرس فى ذلك ، فعظُم عليه آنفرادهم عنه ، وجعل ذلك ذنبا لهم ، وبسط يده وطمع فى المُلْك ، وآستهان بعظماء الفرس ، ودعا الناس لنفسه ، وأقبل بجُنده نحو المدائن ، فعمد مِهآذَرْ جُشْنَس الى مدينة طَيْسَبُون ، فحصّنها وحوّل أردشير ومَنْ بَقِىَ من نَسْل الملوك ونسائهم والأموال والخزائن والكُرَاع(١) وغير ذلك إليها ؛ فورد شَهْرَبَراز الى مدينة طَيْسَبُون وحاصرها ونصَب عليها المجانيق ، فعجَز عنها لحصانتها ، فأخذ فى أعمال المكايد والحِيَل ، فلم يزل يتلّطف برجل يقال له : نِيوخسرو ويراسله هو وغيره ، حتى فتحوا له باب المدينة فدخلها ، وقتل جماعة من الرؤساء وآستصفى أموالهم وقتل أردشير بن شيرويه . وكان مُلْكه سنة ونصفا ، وقيل : إنما ملك نصف سنة ، وقيل : خمسة أشهر .

وملك بعده شَهْرَبَراز ، وقيل فيه : شَهْرِيار ، ولم يكن من أهل بيت المملكة .

قال : ولمّا جلس على سرير المُلْك ضرب عليه بطنُه ، وبلغ من شدّة ذلك عليه أنه لم يقدر على إتيان الخلاء ، فدعا بالطست ، فوُضع أمام ذلك السرير ، ومدّ أمامه ما يستتر به ، وبقى يتبرّز فى ذلك الطست .

قال : ثم آمتعض رجلٌ يقال له : فُسْفَرّوخ(٢) [بن ماخُرْشيذان](٣) وأخَوَان له من قتل شَهْرَبَراز أردشيرَ بن شِيرَويه وغلبته على المُلْك ، فتحالفوا على قتله . وكان من السنّة إذا ركب الملك أن يقف له حرسه سِمَاطين عليهم الدروع والبيض ،

(١) الكراع (بالضم) : يطلق على الخيل والبغال والحمير .

(٢) كذا فى تاريخ الطبرى . وفى الأصل : « اسفروج » .

(٣) التكملة من تاريخ الطبرى .

وبأيديهم السيوف والتِّراس[1] والرِّماح، فإذا حاذاهم الملك وضع كلّ واحد منهم تُرْسه على قَرَبُوس سَرْجه، ثم يضع جبهته عليه كهيئة السجود .

قال : وآتفق ركوب شَهْربَراز فى بعض الأيام فوقف فُسْفَرُّوخ وأخواه وهم بالقُرب من بعضهم بعضا، فلمّا حازاهم شهربراز طعنه فُسْفَرُّوخ، ثم طعنه أخواه فسقط عن دابّته، فشدّوا رجله بحبل وجرّوه إقبالا وإدبارا ساعةً، وساعدهم العظماء[2] على ذلك، وقتلوا جماعةً ممن كان قد ساعد شَهْربَراز على قتل أردشير . فكان مُلْكه أربعين يوما، وقيل عشرين يوما .

وملكتْ بعده بُوران بنت كسرى أبرويز ويقال لها : بوران دخت .

قال : فأحسنتِ السِّيرة وبسطتِ العدل، وأمرت بِرَمّ القناطر والجسور، وإعادة ما تشعّث من العمارات، ووضعتْ بقايا الخَرَاج، وكتبت الى الناس عامة كتبا تعلمهم ما هى عليه من الإحسان، وأنها ترجو أن يريَهم الله من الرفاهية والآستقامة بمكانها، ومن العدل وحفظ الثغور ما يعلمون أنه ليس ببطش الرجال تُدوَّخ البلاد، ولا ببأسهم تُستبَاح العساكر، ولا بمكائدهم ينال الظفَر وتُطفأ النوائر، ولكنّ ذلك بالله عزّ وجلّ، وحُسْن النيّة وآستقامة التدبير. وأمرتْ بالمُناصحة وحُسْن الطاعة، وردّت خشبة الصليب على مَلِك الروم . وكان مُلْكها سنةً وأربعةَ أشهر .

ثم ملك رجلٌ يقال له : جُشْنَسْدِه وهو آبن عمّ أبرويز، وكان مُلْكه أقلّ من شهر، وقيل : إن الذى ملك يَزْدَجِرْد بن كسرى وهو طفل .

(١) التراس (بالكسر) : جمع ترس، وهو صفحة من الفولاذ مستديرة تحمل للوقاية من السيف ونحوه .

(٢) فى تاريخ الطبرى (ص ١٠٦٣ من القسم الأول طبع أوربا) : « وساعدهم على قتله رجل من العظماء يقال له : زاذان فرّوخ بن شهرداران، ورجل يقال : له ماهياى، كان مؤدّب الأساورة، وكثير من العظماء ... الخ » .

ثم ملكتْ بعده آزَرْمِيدُخت بنت كسرى أبرويز، وكانت من أجمل نساء دهرها، وكان عظيم فارس يومئذ فَرُّخ هُرْمُز أصْبهْبذ خراسان؛ فأرسل إليها يسألها أن تزوّجه نفسها، فأرسلت اليه : التزويج للملكة غير جائز، وقد علمتُ أن أُرِيك فيما ذهبتَ اليه قضاء حاجتك منّى؛ فصِرْ الىّ ليلة كذا وكذا، ففعل ورِكب اليها فى تلك الليلة، وتقدّمت الى صاحب حرسها أن يرصده فى الليلة التى تواعدا للالتقاء فيها، فإذا رآه يقتله، فرصده صاحبُ الحرس؛ فلمّا جاء قتله وجرّ برجله وطرحه فى رحبة دار المُلْك.

فلمّا أصبح الناس ورأَوْه علموا أنه لم يُقتَل إلّا لأمر عظيم، ثم أمرتْ بتغييب جثّته فغُيِّبت. وكان رُسْتَم بن فَرّخ هُرْمُز هذا — وهو رُسْتَم صاحب القادسيّة — عظيم البأس، قويّاً فى نفسه، فلمّا بلغه ما صُنع بأبيه أقبل فى جُنْد عظيم حتى نزل المدائن؛ فقبض على آزَرْمِيدُخْت وسَمَل عينيها وقتلها بعد ذلك. فكانت مدّة مُلْكها ستةَ أشهر.

واختُلف فيمَن ملك بعد آزَرْمِيدُخْت، فقيل رجل من عَقِب أردشير بن بابك كان ينزل الأهواز يقال له : كِسْرَى [بن] مِهْرجُشْنَس[1]، فلبس التاج وقتل بعد أيام. ويقال : بل كان رجل يسكن مَيْسان يقال له فَيْروز، فملّكوه كُرْها. وكان ضخم الرأس، فلمّا تُوِّج قال : ما أضيقَ هذا التاج ! فتطيّر العلماء من افتتاح الأمر بالضيق وقتلوه. ثم أُتِىَ برجُل من أولاد كِسْرى كان قد لجأ الى موضع من الغرب بالقرب من نَصيبين، يقال له : «حصن الحجارة» حين قَتَل شِيرَوَيْه بن كِسرى أبرويز إخوتَه، وهو فَرُّخ زاباذ[2] خُسْرَوْ بن كِسْرى أبرويز، فانقاد الناس له طَوْعا زمانا

(١) كذا فى تاريخ الطبرى. وفى الأصول : «كسرى بهرحشيش».
(٢) كذا فى تاريخ الطبرى وغرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم للثعالبى (ص ٧٣٧ طبع أوروبا). وفى الأصول : «فرخ باذ».

يسيرا ثم آستعصَوْا عليه وخالفوه . وكان مُلْكه ستةَ أشهر . وكان أهل اصطخر قد ظفروا بيَزْدَجِرْد بن شَهْريار بن أبرويز بآصطخر، وكان قـد هرب إليها حين قَتَل شِـيرَويه إخوته . فلمّا بلغ عظماء أهـل اصطخر أنّ مَن بالمدائن خالفوا الملك فَـرُّخ زاذ خُسْرَوْ أتَوا يَزْدَجِرْد ببيت نار أردشـير، فتوّجوه هناك وملّكوه ، وكان حَدَثا، ثم أقبلوا به الى المدائن وقتلوا فَرُّخ زاذ خُسْرَوْ بحيل احتالوها عليه . ٥

ومَلَك يَزْدَجِرْد بن شَهْريار بن كسرى أبرويز بن هُرمُز بن كِسْرى أنوشِرْان بن بَهْرام بن يزدجرد بن سابور بن هرمز بن سابور بن أردشير بن بابك ؛ فملك وكان العظماء والوزراء يدبّرون المُلْك لحداثة سنّه، وهو آخرُ الملوك الساسانيّة وعليه آنقرضتْ دولتهم، فلم تقُم لهم قائمة،وتردّد الى بلاد خراسان والى بلاد الترك، وعاد فقُتِل بمَـرْو من بلاد خراسان فى سنة إحدى وثلاثين من الهجرة لسبع سنين خلت من خلافة عثمان بن عفّان رضى الله عنه . ١٠

وكانت مدّة مُلْك يَزْدَجِرْد منذ ملك و إلى أن قُتِل عشرين سنةً ، إلّا أنّ فيها مدّة لا يعدّ فيها مع الملوك ؛ لأنه كان مشرّدا طريدا على ما نذكر أخباره مفصّلة، وكيف فُتحتْ بلاده ومُدُنه بلدا بلدا ، ومدينةً مدينةً فى خلافة عمـر بن الخطاب وعثمان بن عفّان رضى الله عنهما . ١٥

٦٨ / ١٣

فعِـدّة ملوك الفرس الأُوَل والساسانيّة على هـذا المساق الذى ذكرناه آثنـان وخمسون ملِكا منهـم ثلاث نسوة . فالفرس الأُوَل عشرون مَلِكا منهـم آمرأة واحدة . والملوك الساسانيّة آثنـان وثلاثون ملكا فيهـم آمرأتان . وذكر بعض المؤرّخين أنّ ملوك الفرس سـتّون ملكا ، وأنّ مدّة مُلْكهم أربعـة آلاف سنة وسبعون سنة وشهورا . والله أعلم . ٢٠

ذكر أخبار ملوك اليونان وأنسابهم

قد تنازع الناس فى اليونانيّين، فذهبت طائفة منهم أنهم ينتمون الى الروم ويضافون الى ولد إسحاق، وقالت طائفة : إنّ يونان هو ابن يافث بن نوح . وقال آخرون : إنه يافث بن الأصغر . وذهب قوم الى أنهم من ولد أوراش بن[1] ماذان ابن سام بن نوح . وذهب آخرون الى أنهم من قبيل متقدّم فى الزمن الأوّل .

وقال المسعودىّ : وقد ذكر أنّ يونان أخو قحطان ، وأنه من ولد عابر بن شالخ،وأن أمره فى الانفصال عن دار أخيه[2] كان سبب الشكّ فى الشركة فى النسب، وأنه خرج من أرض اليمن . وكان يونان جبّارا عظيما ، وسيما جسيما . وكان جزل الرأى ، كبير الهمّة ، عظيم القدر . وهكذا ذكر يعقوب بن إسحاق الكندىّ فى نسب يونان أنه أخٌ لقحطان ، وردّ عليه أبو العباس [عبد الله بن محمد][3] الناشى فى قصيدته حيث قال :

أبا يوسفَ إنّى نظرتُ فلم أجد ... على الفحص رأيا صحّ منك ولا عقدا
وصرتَ حكيما عند قوم إذا آمرؤٌ ... بلاهم جميعا لم يجد عندهم عهدا
أتقرِنُ إلحادًا بدين محمد ... لقد جئت شيئا يا أخا كندةَ إدّا
وتخلط قحطانا بيُونان ضِلّةً ... لعَمْرِى لقد باعدتَ بينهما جِدّا

قيل : ولمّا كثُر ولد يونان خرج يطلب موضعا يسكنه، فأتى الى موضع من الغرب، فأقام به هو ومَن معه من ولده ، وكثُر نسلُه إلى أن أدركه الموت ، فجعل

(١) فى مروج الذهب للسعودى (ج ١ ص ١٣٧ طبع بلاق) : « أوراس بن باوران » .

(٢) هذه عبارة المسعودى فى مروج الذهب (ج ١ ص ١٣٧ طبع بلاق) وعبارة الأصل : « وأن أمره كان فى الانفصال عن ديار أخيه قحطان وأنه ...الخ » .

(٣) التكملة من السعودى .

وصيّته إلى الأكبر من ولده وآسمه جريبوش ، وأوصاه بأولاده ونَسْله ، ومات وبقى آبنــه على مكانه ، وكثُر نسلُهم فغلَبوا على بلاد الغرب من الفِرنجــة والنُّوكَبَرْد والصقالبة وغيرهم .

وذكر بطليمــوس فى كتابه : أن أوّل ملِكٍ ملَك من ملوك اليــونانين فِيلبُّس وتفسيره محبّ الفرس ، وقيل آسمه نفليص ، وقيل فيلفوس . وكانت مدّة ملكه سبع سنين .

ثم ملك بعده آبنه الإسكندر ذو القرنين وليس هو صاحب الخِضْر رضى الله عنه . والإسكندر هذا هو الذى قتل دارَا بن دارَا ملك الفُرْس ، ونثر عِقْد مملكة فارس ، وقــرّر ملوك الطوائف فيما ذكرناه .

وكان سبب قتله لدارا أن ســائر الملوك كانت تؤدّى الإتاوة الى ملوك الفرس منذُ دوّخ بُخْتنصّر البلاد ، وذلّل لهم الملوك على ما ذكرناه آنفا فى أخبار الفرس ، ولا حاجة الى إعادته .

قالوا : وكان فِيلبُّس أبو الإسكندر قد صالح دارَا على إتاوة يؤدّيها اليه فى كل سنة . فلمّا ولىَ الإسكندر وظهر أمره ، وكان بعيد الهمّة ، فآمتنع أن يؤدّىَ الى دارا الخراج الذى كان يحمله أبوه اليه ، فآسخط دارا ذلك ، فكتب اليه يؤنّبه بسوء صنيعه بتركه حمل ما كان أبوه يحمله من الخراج وقال فى كتابه : إنما دعاك الى حبس ذلك الصِّبا والجهل ، وبعث اليه بصَوْلجان وكُرَة وبقَفِيز من السمسم . يُعلمه بذلك أنه إنمــا ينبغى لك أن تلعب مع الصبيان بالصولجان ولا تتقلّد الملك ولا تلبث به ، ويُعلمه أنه إن لم يقتصر على ما أمره به وتعاطى الملك بعد أن أمره بآعتزاله بعث اليه بمَن يأتيه به فى وثاق . وأنّ عِدّة جنوده الذين يبعث بهم اليه كعِدّة حبّ السمسم الذى بعث به إليه .

فكتب إليه الإسكندر فى جواب ذلك : أنه قد فهم ما كتب به، ونظر الى ما أرسله إليه من الصَّوْلجان والكُرَة وتيمّن به لإلقاء الملقِى الكُرَة الى الصَّوْلجان وإحرازه إيّاها، وأنه شبّه الأرض بالكرة، وتفاءل بملكه إياها وآحتوائه عليها، وأنه يجترّ مُلْك دارا الى مُلْكه، وبلاده الى حيِّزه؛ وأنه نظر الى السمسم الذى بعث به كنظره الى الصولجان والكرة لدسَمه، وبُعْده عن المرارة والحَرَافة[1]، وبعث الى دارا مع كتابه بصُرّة من خَرْدل، وأعلمه فى الجواب أنّ مابعث به إليه قليل، غير أن ذلك مثل الذى بعث به فى القوة والحَرَافة والمرارة، وأنّ جنوده فيما وصف به منه .

فلمّا وصل الى دارا جواب كتاب الإسكندر، جمع جُنْده وتأهّب لحربه وسار نحو بلاده، وتأهّب الإسكندر أيضا للقائه وسار نحو دارا، فآلتقيا جميعا بأرض الجزيرة[2] وآقتتلا سنة، وقد كان دارا مَلَّه قومُه وأحبّوا الراحة منه، فلحق كثير من وجوه الفرس بالإسكندر وأطلعوه على عَوْرة دارا وقوَّوْه عليه، ثم وثَب على دارا حاجباه فقتلاه وتقرّبا برأسه إلى الإسكندر، فلما أتَوْه بها أمر بقتلهما وقال: هذا جزاء مَن تجرّأ على مَلِكه .

وقد ذُكر أنه سِيق اليه أسيرٌ غَدَر به صاحبُ شُرْطته، فقال له الإسكندر : بما آجترأ عليك صاحبُ شُرْطتك ؟ قال : بتركى ترهيبَه وقتَ إساءته، وإعطائى إيّاه وقتَ الإحسان باليسير من فعله نهايةَ رغبته، فقال الإسكندر : نعم العَوْنُ على إصلاح القلوب الموغَرة الترغيبُ بالأموال، وأصلحُ منه الترهيبُ وقتَ الحاجة، ثم أمر الإسكندر بقتله .

---

(١) الحرافة : طعم يحرق اللسان والفم .

(٢) المراد بأرض الجزيرة : بلاد الجزيرة الحالية التى عاصمتها بغداد . وقد سميت الوقعة التى آلتحم فيها الجيشان (سنة ٣٣١ ق . م) وقعة إربل لقرب ميدان الحرب من تلك المدينة (راجع تاريخ اليونان للرحوم محمود فهمى ص ٢٤٣ طبع مصر) .

وقد قيل : إنه لمّا هزمه الإسكندر فرّ جريحا فخرج فى طلبه فى ستّة آلاف حتى أدركه ، ثم لم يلبث دارا أن هلك ، فأظهر الإسكندر عليه الحزن ودفنه فى مقابر الملوك[1] .

وقيل : إنّ الإسكندر كان قد نادى ألّا يُقتَل دارًا وأن يُؤسَر . فلمّا علم الإسكندر بما تمّ على دارًا سار حتى وقف عنده [فرآه يجود بنفسه] فنزل [الإسكندر][2] عن دابته وجلس عند رأسه، وأخبره أنه ما أمر بقتله، وأنّ الذى أصابه لم يكن عن رأيه . وقال : سَلْنى ما بدا لك فإنّى أسعفك به، فقال له دارا : لى اليك حاجتان : إحداهما أن تنتقم لى من الرجلَيْن اللذَيْن قتلانى وسمّاهما له ، والأخرى أن تتزوج آبنتى روشنك، فأجابه الى ذلك، وأمر بصلب الرجلَيْن اللذَيْن فتكا بدارا . ويقال : إنّ الرجلَين اللذَيْن قتلاه إنما فعلا ذلك عن رأى الإسكندر، وأنه كان شرط لهما شرطا على قتله ،فلما طعناه دفع اليهما ما كان شرطه لهما ثم قال : قد وفّيتُ لكما بالشرط ولم تكونا شرطتما لأنفسكما وأنا قاتلُكما لا محالة ، فإنه ليس ينبغى لقَتَلَة المَلِك أن يُستبقوا إلّا بذمّة لا تُخفَر ، فقتلهما وصلبهما .

---

(١) المعروف فى كتب التاريخ أنه بعد انتصار الاسكندر واحتلاله مدينة بابل قرر الاسكندر متابعة الزحف جهة الشمال للقبض على دارا والقضاء على دولته ، فخرج دارا من قلب مملكته طريدا شريدا هائما على وجهه طالبا النجاة بنفسه والاسكندر لم يغمض عينا ولم يهدأ بالا مادام لم يقبض عليه . ذلك لعلمه بأنه قادر على المقاومة إما فى الشمال من هضبة إيران، وإما فيما وراء جبال بار باميساذس فى سهول التركستان الفسيحة لأن سكان تلك الأقاليم الواقعة بين بحر قزوين و بحيرة آرال و بين نهرى سيحون وجيحون يعترفون لملك الفرس بالسيادة عليهم .

وبينما الاسكندر يقتفى أثره، ويتتبع خطاه اذ علم بأن المرزبان فسوس قبض عليه وقتله بالقرب من هيكا تميل فحزن لذلك حزنا شديدا، واحتفل بتشييع جنازته احتفالا مهيبا، وتتبع القاتل حتى أدركه فيما بين النهرين وسلمه الى آل دارا فقتلوه شرقتلة . (راجع تاريخ اليونان ص ٢٤٤ — ٢٤٥) .

(٢) التكلة من تاريخ الطبرى (ص ٦٩٦ من القسم الأول طبع أوربا) .

ويقال : إن الإسكندر فى الأيّام التى نازل فيها دارا كان يسير اليه بنفسه على أنه رسولٌ فيتوسّط العسكر ويعرف كثيرا مما يحتاج اليه ، فكان دارا يستحسن سَمْته، ويُحسن صِلَته ومجازاته، ثم آتّهمه، وأحسّ الإسكندر بذلك فما عاد اليه بعدها.

ذكر شىء من مكايد الإسكندر وحِيَله فى حروبه

من ذلك أنه لمّا آلتقى بدارا يوم الحرب أمر مناديه فنادى : يامعشر الفرس، قد علمتم ما كتبنا لكم من الأمانات ، فمن كان منكم على الوفاء فليعتزل عن العسكر وله منّا الوفاء بما ضمنّاه، فآتّهمت الفرس بعضها بعضا ، وكان ذلك أوّل آضطراب حدث فيهم .

ومن ذلك أنه لمّا شَخَص عن فارس الى أرض الهند تلقاه ملكها قور (1) فى جمع عظيم من الهنود ومعه ألف فيل عليها المقاتلة بالسلاح وفى خراطيمها السيوف والعمد ، فلم تقف لها دوابّ الإسكندر وفرّت فكانت الهزيمة عليه ، فلمّا بلغ الإسكندر مأمنه أمر بآتّخاذ فِيَلة من نحاس (2) مجوفة وربط خيله بين تلك التماثيل حتى ألفتها، ثم أمر فمُلِئت نِفْطا وكبريتا، وألبسها الدروع وجرت على العَجَل، وعاود حرب الهند، وجعل بين كلّ تمثالين جماعة من أصحابه. فلمّا نشبت الحرب أمر بإشعال النيران فى أجواف تلك التماثيل وآنكشف أصحابه عنها وغشيتها فيلة الهند، فخرجت

---

(1) كذا ورد فى هذا الكتاب (ج ١٤ ص ٣٢١ من هذه الطبعة) ومروج الذهب للسعودى (ج ١ ص ٣٩ طبع بلاق) . وورد فى هذا الموضع فى نسخة (ا) باسم : « ذر » . وفى نسخة (ب) باسم : « فوز » . وفى غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم للثعالبى (ص ٤١٦ طبع باريس سنة ١٩٠٠) : « فور » .

(2) فى غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم : « فتقدّم بصنعة تماثيل مجوّفة من النحاس والحديد تحكى صور الرجال » .

النيران من خراطيم التماثيل فولّت الفِيَلَة مُدْبِرة ورجعت على أصحابها، فكانت الدائرة على الهند وقتل ملكهم فور .

ومما يُحكى عنه أنه نزل على مدينة حصينة فتحصّن فيها أهلها ، فتعرّف خبرها فقيل له : إن فيها من المِيرة مايكفيهم زمنا طويلا ، وإنّ بها من العيون والأنهار ما لايقدر على قطعه، فارتحل عنها ودسّ جماعة من التّجار متنكّرين، فدخلوها وأمدّهم بالأموال الكثيرة، وأمرهم أن يبتاعوا الأقوات و يغالوا فى أثمانها، ففعلوا ذلك حتى حازوا أكثر مافيها. فلما علم الإسكندر بذلك كتب اليهم يأمرهم بإحراق ماحصلوه من الأقوات وأن يهربوا ، ففعلوا كما أمرهم ، وعاد الى المدينة وحاصرها وزحف عليها فأعطوه الطاعة وملك المدينة . وكان إذا أراد أن يحاصر مدينة شرّد مَن حولها من أهل القرى وتهدّدهم بالسبي فيلجأوا الى المدينة و يعتصموا بها ، فلا يزال كذلك حتى يعلم أنه قد دخلها أضعاف أهلها وأسرعوا فى المِيرة فيحاصرهم حينئذ فيفتح المدينة .

ومما يُحكى عنه أنه كتب الى معلّمه أرسطاليس(1)، وكان الإسكندر يشاوره فى كثير من أموره، و يقتدى بآرائه ، ويعمل بما يشير به عليه ولا يعدل عنه . وأرسطاليس هذا هو تلميذ أفلاطون، وأفلاطون صاحب الفِرَاسة تلميذ سقراط .

---

(١) هو أعظم الحكماء الأقدمين و رأس الفلاسفة المعروفين بالمشائين لأنه كان من عادته إلقاء الدروس على تلاميذه فى بستان وهو يمشى ، ومن هنا سمى مشاء ، وسمى أتباعه بالمشائين . و يعرف بالمعلم الأوّل لأنه أول من وضع التعاليم المنطقية ، وقد آختاره فيلبس أستاذا لآبنه الاسكندر وأرسل اليه خطابا يقول فيه : « إنى لا أهنىء نفسى بولادة آبنى بمقدار ما أهنئها بولادته فى أيامك » . وكان الاسكندر فى السنة الثالثة عشرة من عمره . فعلمه وهذبه . وكان له منزلة ونفوذ عند فيلبس وآبنه وأقام على ذلك سنين عديدة (راجع تاريخ اليونان للرحوم محمود فهمى) .

ويُحكَى عن أفلاطون أنه كان يصوّر له صورة إنسان لم يره قطّ ولا عرفه فيقول: صاحب هـذه الصورة من أخلاقه كذا ، ومن هيئتـه كذا ، فيكون الرجل كما أخبر عنه ، فيقال: إنه صوّر له صورة نفسه ، فلمّا عاينها قال: هذا رجل محبّ فى الزنا فقيـل له : إنها صورتك، فقال : نعم أنا كذلك، ولولا أنى أملك نفسى لفعلت وإنى لمحبّ فيه . ٥

***

نرجع إلى أخبار الإسكندر فيما كتب به الى أرسطاطاليس وما أجابه به قالوا: إنه كتب اليه يخبره أنّ فى عسكره من الروم جماعة من خاصّته لا يأمنهم على نفسه لمـا يرى من بُعْد هَمِمهم فى شجاعتهم وكثرة آلتهم ، وأنه لا يرى لهم عقولا تفى بتلك الفضائل التى تمنعهم من الإقدام والجُرأة عليـه ، وأنه يكره الإقدام عليهم بالقتل بمجرّد الظِّنّة مع وجوب الحُـزْمة . ١٠

فكتب إليه أرسطاطاليس : قـد فهمتُ كتابك ، وما وصفتَ به أصحابك . أمّا ما ذكرتَ من بُعْد هِمَمهم فإنّ الوفاء من بُعْد الهمّة . وأمّا ما ذكرتَ من شجاعتهم ونَقْص عقولهم عنها ، فمن كانت هـذه حالُهُ فرفِّهه فى معيشتـه وآخصُصْه بحِسَان النساء ، فإنّ رفاهيَـة العيش تُوهِن العَزْم ، وتحبب السـلامةَ، وتباعد من ركوب الخطَر والغَـرر[1] ، وليكن خُلُقك حسنا تخلص اليك النيّات ، ولا تتنـاول من لذيذ العيش ما لا يمكن أوساط إخوتك مثلَه، فليس ينبغى مع الآستئثار محبّـة ، ولا مع المواساة بغضة . وآعلم أنّ المملوك إذا آشتُرى لم يسأل عن مال مولاه ، وإنما يسأل عن خُلُقه . ١٥

(١) الغرر (محركة) : التعريض للهلكة . ٢٠

وكتب اليه الإسكندر يُعلمه أنه شاهد بإيران شهر[(١)] رجالا ذوى أصالة فى الرأى، وجمال فى الوجوه، ولهم مع ذلك صَرامةٌ وشجاعةٌ، وأنه رأى لهم هيئات وخِلَقا لو كان عرف حقيقتها لما غزاهم، وأنه إنما ملكهم بحُسْن الاتفاق والبخت، وأنه لا يأمن إذا ظعن عنهم وُثُوبَهم ولا تسكُن نفسُه إلّا ببوارهم.

٥ فكتب إليه أرسطاطاليس: فهمتُ كتابك فى رجال فارس؛ فأما قتلهم فهو من الفساد فى الأرض، ولو قتلتهم لأنبتَتْ أرضُ فارسَ أمثالَهم، لأنّ إقليم بابل يُولد أمثال هؤلاء الرجال من أهل العقل، والسداد فى الرأى، والاعتدال فى التركيب؛ فصاروا أعداءك وأعداء عَقِبك بالطبع، لأنك تكون قد وترتَ القوم وكثّرت الأحقاد على أرض الروم منهم وممّن بعدَهم، وإخراجك إيّاهم فى عسكرك ١٠ مخاطرة بنفسك وأصحابك، ولكنّى أشير عليك برأى هو أبلغ لك فى كل ماتريد من القتل وغيره، وهو أن تستدعىَ أولاد الملوك منهم وممّن يُستصلَح للمُلْك ويُترشَّح له، فتقلِّدهم البلدانَ وتولِّيهم الولايات ليصير كلّ واحدٍ منهم ملكا برأسه، فتتفرق كلمتهم، ويجتمعوا على الطاعة لك، ولا يؤدِّى بعضُهم إلى بعض طاعةً، ولا يتفقوا على أمرٍ واحدٍ، ولا تجتمع كلمتُهم. ففعل الإسكندر ذلك، فتمّ أمرُه وأمكنه أن ١٥ يتجاوز أرضَ فارس إلى أرض الهند حتى قتل ملكَها مبارزةً بعد حروب عظيمة. ثم صار إلى أرض الصِّين وطاف ممّا يلى القُطْبَ الشمالىّ ورجع إلى العراق فمات فى طريقه بشَهْرُزُور[(٢)]، ويقال: بل فى قرية من قُرَى بابل. وكان عمره ستّا وثلاثين

(١) إيران شهر: هى بلاد العراق وفارس والجبال وخراسان يجمعها كلها هذا الاسم (راجع معجم البلدان لياقوت).

٢٠ (٢) شهر زور: بلدة بين الموصل وبين همذان، بناها زور بن الضحاك فقيل شهر زور، ومعناه مدينة الضحاك (تقويم البلدان لأبى الفدا).

سنة . وفى بعض النسخ ثلاثا وثلاثين سنة . وكان ملكه ثلاث عشرة سنة وشهورا، وقيل : سبعة عشر سنة . وقتل دارا فى السنة الثالثة من مُلكه .

قال : وبنى الإسكندر اثنتى عشرة مدينة وسمّاها كلّها الإسكندرية منها : مدينة جىّ (١) بأصبهان ، وثلاث مُدُن بخراسان وهى : هَراة (٢) ومَرْو (٣) وسَمَرْقَنْد . وبنى بأرض بابل مدينة لروشنك (٤) . وبنى بأرض يونان سبعَ مُدُن .

ومن عجيب ما قيل فى نسب الإسكندر : أنه من ولد دارا الأكبر ، وأنه أخو دارا الأصغر، وذلك أن دارا الأكبر بن أردشير تزوّج ببنت ملك الزّنج هَلَاى ، فلمّا حملت (٥) منه استخبث رِيحها، فأمر أن تحتال لذلك، فكانت تغتسل بماء السندروس (٦) فأذهبَ ذلك كثيرا من دفـرها (٧) ، ثم عافَها وردّها [إلى أهلهـا] (٨) وقد علِقت منـه بالإسكندر فقيل له الإسكندروس . هذا ما نقله عبد الملك بن عبدون فى كتابه المترجم

---

(١) جىّ (بالفتح ثم التشديد) : اسم مدينة ناحية أصبهان القديم ، وهى الآن كالخراب منفردة ، وتسمى الآن عند العجم : شهرستان وعند المحدثين المدينة . وفيها مشهد الراشد بن المسترشد معروف يزار، وهى على شاطىء نهـر زندرود (راجع معجم البلدان لياقوت) وورد فى تاريخ الطبرى (ص ٧٠٢ من القسم الأول طبع أوربا) أنها بنيت على مثال الجنة .

(٢) هراة : كانت مدينـة عظيمة مشهورة بخراسان خربها التـتر، فتحت فى زمان عثمان رضى الله عنه . (راجع تقويم البلدان لأبى الفدا) .

(٣) هى مرو الشاهجان ، ومعناه روح الملك . وهى مدينة عظيمة مشهورة بالفواكه . وبينها وبين كل واحد من نيسابور، وهراة، وبلخ وبخارا ، مسيرة اثنى عشر يوما (راجع تقويم البلدان) .

(٤) هى روشنك بنت دارا .

(٥) فى شرح قصيدة ابن عبدون (ص ١٥ طبع أوربا) : «حملت اليه » .

(٦) السندروس : صمغ أصفر يشبه الكهرباء فى قوته إلا أنه أرخى منه وفيـه شىء من مرارة، وله عدة فوائد شرحها ابن البيطار فى مفرداته (راجع ج ٣ ص ٣٨) .

(٧) الدفر (بسكون الفاء وفتحها) : خبث الرائحة .

(٨) التكملة من شرح قصيدة ابن عبدون .

بكمامة الزهر وصدفة الدرّ[1]، قال : وآختلف فى مدّته فذكر الخوارزمىّ فى تاريخه أنه [كان][2] قبل الهجرة بتسعمائة سنة ، وثلاث وثلاثين سنة . وذكر أبو محمد ابن قتيبة فى كتاب المعارف : أن بينه وبين الهجرة أربعمائة سنة[3] . والله أعلم بالصواب .

٥

ذكر شىء من أخبار الإسكندر

وما آتفق له مع ملكى الهند والصين

فأما خبره مع ملك الهند قال عبد الملك بن عبدون : إن الإسكندر لمّا دوّخ البلاد وقهر الملوك سار نحو الهند وقتل ملكها الأعظم فُورًا صاحب مدينة المانكير[4] . فلما دانت له ملوك الهند بلغه أنّ بأقاصى ديارها مَلِكا من ملوكها ذا حكمة وسياسة وإنصاف لرعيّته ، وأنه ليس فى بلاد الهند من فلاسفتهم وحكمائهم مثله يقال له

١٠

(١) ويسمى هذا الكتاب أيضا : « كمامة الزهر وفريدة الدهر » ويسمى أيضا : « شرح البسامة بأطواق الحمامة » وهو شرح للعلامة أبى مروان عبد الملك بن عبد الله بن بدرون الحضرمى السبتى من أدباء النصف الثانى من القرن السادس الهجرى ، على القصيدة الرائيّة المسماة بالبسامة بأطواق الحمامة المنسوبة للوزير أبى محمد عبد المجيد بن عبدون الفهرى ، وزير بنى مسلمة ، المعروفين ببنى الأفطس بالأندلس ، المتوفى سنة ٥٢٠ هـ التى رثى بها ملوك بنى الأفطس ، وذكر فيها من أباده الحدثان من ملوك كل زمان ، وضمنها حكما ومواعظ وأخلاقا أدبية . وأوّل القصيدة :

١٥

الدهر يفجع بعد العين بالأثر　　فما البكاء على الأشباح والصور

وقد طبع هذا الكتاب بمدنية ليدن سنة ١٨٤٦ م وعنى بتصحيحه المسيو رينحرت دوزى . ويعرف بشرح قصيدة آبن عبدون .

(٢) التكملة من شرح قصيدة آبن عبدون .

٢٠

(٣) فى كتاب المعارف لآبن قتيبة (ص ٢٨ طبع أوربا) مانصه : « وكان بين الاسكندروس وبين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم نحو من تسعمائة سنة » وهو يخالف ماذكره المؤلف .

(٤) هذه المدينة يقال لها بلهر باسم ملك من ملوك الهند يقال له بلهر وكان يقيم فيها (راجع معجم البلدان لياقوت ج ٣ ص ٤٤٤ طبع أوربا) .

كند كان، وأنه قاهر لنفسه مانع [لها](1) من الشهوة الغضبية، فكتب إليه الإسكندر كتابا يقول فيه : أما بعد ، فإذا أتاك كتابى هذا فإن كنت قائما فلا تقعد ، وإن كنت ماشيا فلا تلتفت حتى تدخل فى طاعتى، وإلّا مزّقتُ مُلْكَك وألحقتُك بمن مضى من ملوك الهند من قبلك .

٥ فلمّا ورد عليه الكتاب أجاب بأحسن جواب، وخاطبه بملك الملوك، وأعلمه أنه قد آجتمع عنده أشياء لم تجتمع عند غيره مثلها : فمن ذلك آبنةٌ له لم تطلع الشمس على أحسن منها ؛ وفيلسوفٌ يخبرك بمرادك قبل أن تسأله لِحدّة مزاجه وحسن قريحته ، وآعتداله فى بِنْيته ، وآتساعه فى علمه؛ وطبيبٌ لايُخشَى عليه معه داء ولا شيءٌ من العوارض إلا ما يطرأ من الفناء والدثور الواقع بهذه البِنْية ، وحلّ ١٠ العقدة التى عقدها المبدع لها المخترع لهذا الجسم الحسّى ، وإذا كانت بِنْية الإنسان وهيكلُه قد نُصِبَا فى هذا العالَم غرضا للآفات والحتوف والبلايا، وقدحٌ اذا ملأته شرب منه عسكرك بجمعه ولا ينقُص منه شيء ، وإنّى منفذ جميع ذلك الى الملك وصائر اليه .

فلمّا قرأ الإسكندر كتابه قال : كون هذه الأشياء عندى ونجاة هذا الحكيم من ١٥ صَوْلتى أحبّ الىّ من ألا تكون عندى ويهلك . فأنفذ اليه الإسكندر جماعة من الحكماء اليونانيين والروم فى عدّة من الرجال وتقدّم اليهم أنه إن كان قد صدق فيما كتب به إلىّ فآحملوا ذلك الى عندى وآتركوه فى موضعه، وإن تبيّنتم الأمر على خلاف ذلك، وأنه أخبر عن الشيء على خلاف ماهو به فقد خرج عن حدّ الحكمة فأشخصوه الىّ . فلمّا انتهَوْا الى مملكة الملك خرج اليهم وتلقّاهم بأحسن لقاء، وأنزلهم بأحسن ٢٠ منزل . فلما كان فى اليوم الثالث جلس لهم مجلسا خاصّا للحكماء دون من كان معهم من المقاتلة . فقال بعضهم لبعض : إن صَدَقَنا فى الأوّل صَدَقَنا فيما بعد ذلك مما ذكر .

(1) التكملة من شرح قصيدة آبن عبدون .

فلمّا أخذت الحكماء مراتبها وٱستقرت بها مجالسها أقبل عليهم مباحثا فى أصول العلوم الفلسفية وفروعها، وعلى كم فنّ يحتوى العلم الفلسفىّ فى أصوله، والى كم يتفرع.

قال عبد الملك بن عبد الله بن عَبْدون — رحمه الله — : وقد ذكر أن العلم الفلسفىّ ينقسم على أربعة أنواع : أحدها الرياضيّات، والثانى المنطقيّات، والثالث الطبيعيّات، والرابع الإلٰهيّات . قال :

فأما الرياضيّات فأربعة أنواع : الواحد علم الحساب، والثانى علم الهندسة، والأصل فيه النقطة، وهى فيه كالواحد فى علم الحساب، والثالث علم النجوم، والرابع علم الموسيقى، وهو علم تأليف الألحان .

وأما العلوم المنطقيّات فخمسة أنواع : الواحد معرفة صناعة الشعر، وأنواع البديع كالتكافؤ والتفريع والحَشْو والتتبيع والتسميط والترصيع والالتفاتة والإشارة والمقابلة والٱستعارة والتبليغ والتلويح والتصدير والتوشيح والتجنيس والتضادّ والترديد والٱستطراد والتقسيم والتسهيم والإحالة والتتميم . والثانى معرفة صناعة الخطابة . والثالث صناعة الجَدَل . والرابع صناعة البرهان . والخامس صناعة المغالطين فى المناظرة والجَدَل .

وأما العلوم الطبيعيّات فسبعة أنواع : الواحد علم المبادى الجسمانيّة، وهى خمسة أشياء : الهَيُولَى والصورة والزمان والمكان والحركة . والثانى علم السماء والأرض، وهو معرفة ماهية جواهر الأفلاك والكواكب وكيفيتها وكيفية تركيبها وعلّة دورانها، وهل تقبل الكَوْن والفساد كما تقبل الأركان الأربعة التى دون فلك القمر أو لا، وما علّة حركات الكواكب وٱختلافها فى السرعة والإبطاء، وما علّة سكون الأرض فى وَسَط الفلك فى المركز، وهل خارج العالم جسم آخر أم لا . وهل

فى الكَوْن والفساد موضع فارغٌ لا شىء فيه، وما شاكل هذه المباحث . والثالث علم الكون والفساد وهو علم معرفة جواهر الأركان [الأربعة[1]] التى هى النـار والهواء والماء والأرض . والرابع علم حدوث الجواهر بتغيّرات الهواء وتأثيرات الكواكب بحركاتها ومطارح شعاعاتها على الأركان الأربعة وآنفعالاتها بعضها ببعض بقدرة الله تعـالى . والخامس علم المعادن التى تنعقـد من البخارات المختنقة فى بطن الأرض والعصارات المتحلّلة من الهواء . والسادس علم النبات على آختلاف أنواعه فى هيآته وأشكاله وآختلاف صموغه وطعومه وخواصّه وروائحه ومنـافعه ومضارّه . السابع علم الحيوان، وهو معرفة كلّ جسم يغتـذى ويحسّ ويعيش ويتحرّك على آختلاف أنواعه ، وما شاكل ذلك ممـا ينسب الى علم الطبيعيّات كعـلم الطبّ والبيطرة وسياسة الدوابّ والسباع والطيور والحـرث والنسـل وعلم الصنائع أجمع داخل فى علم الطبيعيات .

وأما العـلوم الإلٰهيّات فخمسة أنواع ؛ أوّلهـا : معرفة البارى سبحانه وتعالى بجميع صفاته، وأنه أوّل كلّ شىء وآخر كلّ شىء، والخالق لكلّ شىء، والعالم بكلّ شىء، وأنه ليس كمثله شىء . والثانى علم الروحانيّات من الجواهر البسيطة العقليّة، وهى الصورة المجرّدة من الهيولى المستعملة للاَجسام المطهّرة، ومعرفة آرتباط أبعضها ببعض ، وقبض بعضهـا عن بعض ، وهى أفـلاك روحانيّة تحيط بأفلاك جسمانيّة . والثـالث علم النفوس والأرواح السارية فى الأجسام الفلكيّة والطبيعيّة من لَدُن الفلك المحيط الى منتهى مركز الأرض . والرابع علم السياسة وهى خمسة انواع ؛ أولها : السياسة النبويّة ، والسياسة الملوكيّة ، والسياسة العامّية والسياسة الخاصّية والسياسة الذاتيّة . فأما السياسة النبويّة فالله تبارك وتعالى يختصّ بها من يشاء من

(١) التكملة من شرح قصيدة ابن عبدون (ص ١٨ طبع أوربا) .

عباده و يهدى لأتباعهم مَن يشاء لا معقِّب لحكمه، لا يسأل عمّا يفعل وهم يسألون . وأما السياسة الملوكية فهى حفظ الشريعة على الأمة و إحياء السنّة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وأما السياسة العامّيّة فهى الرياسات على الجماعات كرياسة الأمراء على البُلدان وقادة الجيوش وترتيب أحوالهم على ما يجب و ينبغى من الأمور وإتقان التدبير . وأما السياسة الخاصّيّة فهى معرفة كلّ إنسان بنفسه ، وتدبيره أمر غلمانه وأولاده ، ومَنْ يليهم من أتباعه وقضاء حقوق الإخوان . وأما السياسة الذاتية فهى أن يتفقّد الإنسان أفعالَه وأحوالَه وأخلاقَه وشهوتَه فيزمّها بزمام عقله ، وغضبَه فيردعه وما شاكل ذلك . والخامس من العلوم الإلٰهيات علم المعاد وكيفية آنبعاث الأرواح وقيام الأجساد وحشرها للحساب يومَ الدين ، ومعرفة حقيقة جزاء المحسنين وعقاب المسيئين .

* * *

نرجع إلى خبر الملك الهندىّ مع أصحاب الإسكندر، قال : ولمّا تكلّم مع الحكماء اليونانيين فى العلوم الفلسفية وطال الخطب فى مناظرتهم أخرج الجارية اليهم ، فلمّا ظهرت لأبصارهم لم يقع طَرْف كلّ واحد منهم على عضو من أعضائها فتعدّى ببصره إلى غير ذلك العضو اشتغالا بحسنه عمّا سواه حتى خاف القوم على عقولهم ، ثم رجعوا إلى أنفسهم وقهروا سلطان هواهم ، ثم أراهم بعد ذلك ما تقدّم الوعد به وصرفهم ، و بعث بالفيلسوف والطبيب والجارية والقدح [معهم][1] .

فلمّا وردوا على الإسكندر أمر بإنزال الفيلسوف والطبيب ، ونظر إلى الجارية فحار عند مشاهدتها ، فأمر قيِّمة الجوارى بالقيام عليها ، ثم صرف همّته إلى الفيلسوف والطبيب و إلى علم ما عندهما ، وقصّ عليه الحكماء ما جرى لهم مع الملك الهندىّ من

(١) التكملة من شرح قصيدة آبن عبدون (ص ٢٠) .

المباحث فى العلوم الفلسفيّة ، فأعجبه ذلك وتأمّل أغراض القوم ومقاصدَهم ، وأقبل ينظر فى مطاردة الهند يعلّلها فى معلولاتها ، وما يصفه اليونانيون أيضا من عِلَلها فى معلولاتها على حَسَب ما قدّمتُ من أوضاعها ، ثم أراد مِحْنة الفيلسوف على حسب ما خُبِّر عنه ، فأجال فكره فيما يختبره به ، فدعا بقَدَح فملأه سمنا ولم يجعل للزيادة عليه موضعا ، ودفعه لرسولٍ وقال : احمل هذا إلى الفيلسوف ولا تكلّمه بشىء ، فلمّا دفعه اليه دعا الفيلسوف بألف إبرة فغرزها فى السمن وصرفه اليه ، فأمر الإسكندر بضَرْب تلك الإبر كُرَةً متساويةَ الأجزاء وردّها اليه ، فأمر الفيلسوف ببسطها وجلائها حتى صارت جسما تردّ صورة مقابليها لصفائها وردّها إلى الإسكندر ، فدعا بطست وجعل تلك المرآة فيه وصبّ عليها الماء حتى غمرها وردّها اليه ، فأخذها الفيلسوف وعَمِل منها طَرْجهارة(1) طافية على الماء وصرفها اليه ، فملأها الإسكندر ترابا وردّها اليه ، فلمّا نظر الفيلسوف إلى التراب تغيّر لونه وبكى ثم ردّها إلى الإسكندر ولم يضع فيها شيئا .

فلمّا كان فى اليوم الثانى جلس الإسكندر جلوسا خاصّا ودعا بالفيلسوف ، ولم يكن رآه قبل ذلك اليوم ، فلمّا أقبل نظر الإسكندر [من الفيلسوف](2) إلى رجلٍ طويلِ الجسم رَحْبِ الجبين معتدلِ البِنْية فقال فى نفسه : هذه بِنْيةٌ تضادّ الحكمة ، فإذا اجتمع له حُسْن الصورة والفهم كان أوحد زمانه ، فأدار الفيلسوف إصبعه حول وجهه ثم وضعه على أرنبة أنفه وأسرع نحو الإسكندر وحيّاه بتحية الملك ، فأشار اليه بالجلوس وقال : لِمَ أدرتَ إصبعك حولَ وجهك ووضعتها على أرنبة

---

(1) طرجهارة ويقال لها : طنجهارة من كلمة تركهار الفارسية : نوع من الصفحات أو الصحون يقطع عليها اللبن المتجمد (راجع قاموس دوزى) .

(2) التكلة من شرح قصيدة ابن عبدون (ص ٢١) .

أنفك؟ قال : علمتُ أنك تقول فى نفسك، إذا نظرت إلى حُسْن صورتى و إتقان بِنْيتى قلّما تجتمع هذه الخِلْقة مع الحكمة، و إذا كان على هـذا كان صاحبها أوحدَ زمانه، فأريتُـك مصداقا لِمَـا سَنح لك أنه كما ليس لك فى الوجه إلا أنف واحدٌ فكذلك ليس فى ديار الهند على هذه الصفة أحدٌ غيرى .

٧٤
――
١٣

فقال الإسكندر : حَسَنٌ ما أتيتَ به ! فما بالك حين بعثتُ اليك بالقدح السمن غرزتَ فيه الإبر ورددّتَه؟ قال الفيلسوف : علمتُ أنك تقول إنّ قلبى قـد آمتلأ علما فليس لأحد فيـه مستزاد، فأعلمتُك أنّ علمى سيزيد فيـه كما زادتْ هذه الإبر فى هذا السمن . قال : فما بالك حين عَمِلتُ لك الإبر كُرَة صنعتَ منها مرآةً صقيلةً وصرفتَها إلىّ؟ قال الفيلسوف : علمتُ أنك تقول إنّ قلبى قد قسا من سَفْك الدماء وآشتغل بهذا العالَم فلايقبل العلم ولا يرغب فيه ، فأخبرتك أنى سأعمل الحيلةَ فى ذلك، كما جعلتُ من الكُرَة مرآةً مُورِيةً للأجسام . قال : فمـا بالك حين جعلتها لك فى الطست وصببتُ عليها المـاء جعلتها طَرْجهارةً طافيةً على المـاء؟ قال الفيلسوف : علمتُ أنك تقول إنّ الأيام قـد قَصُرت والأجل قريب ، ولا يُدرَك العلم الكثير فى المهل القليـل، فأخبرتُك أنى سأعمل الحيلَة فيـه فى غير مدّة طويلة، كما جعلتُ هذه المرآة الراسبة طافيةً فى أسرع وقت . قال : فما بالك حين ملأتُ ذلك الإناء ترابا رددّته إلىّ ولم تُحدث فيه شيئا؟ . قال : علمتُ أنك تقول: ثم الموت، وأنه لابدّ منـه ، فأخبرتك أن لا حِيلَةَ فى ذلك . قال الإسكندر : قـد أجبتَنى على مُرادى فى جميـع ذلك ولأُحسنَنّ إلى الهنـد من أجلك ، وأمر له بجوائز كثيرة . فقال له الفيلسـوف : لـو أحببتُ المـال لَمَـا كنتُ عالمـا ، ولستُ أُدخِل على علمى مايضادّه، فإن القنية تُوجب الخدمة، وقد ملكتَ أيها الملك الرحيم بسيفك أجسام رعيّتك فأملك قلوبهم بإحسانك فهو خِزَانة سلطانك، وآحذر العامّة فإنها إذا قَدَرت

أن تقول قَدَرْتُ أن تفعل فآحترزْ من أن تقول تأمنْ أن تفعل، فالملكُ السعيدُ من مَلَكَ الرعيّة بالرغبة والرهبة، وأشبهُ الأشياء من أفعال الناس بأفعال بارئهم الإحسان، فخيّره الإسكندرُ فى المُقام معه، أوالآنصراف إلى بلاده، فاختار الرجوع إلى موضعه.

وأمّا القدحُ فملأهُ ماءً ثم أورد عليه الناسَ فلم ينقُص شربهم منه شيئا، فيقال إنه كان معمولا من خواصّ الهند الروحانيّة مما تدّعيه الهند، ويقال إنه كان لآدم أبى البشر عليه السلام، مبارَكٌ له فيه حين كان بأرض سَرَنْدِيبَ، فوُرِثَ عنه إلى أن آنتهى إلى هذا الملك الهندىّ.

وأما الطبيبُ فإنه كان له معه منظراتٌ دلّت على ثبوت قدمه فى علمه، وأنه كما وَصَف صاحبُه أو كاد. هذا خبره مع ملك الهند.

***

وأما خبره مع ملك الصين، قال أبو على أحمد بن محمد بن مسكويه فى كتابه المترجم بتجارب الأمم: وفى الرواية الصحيحة أن الإسكندر لمّا آنتهى الى بلاد الصين أتاه حاجبُه وقد مَضَى من الليل شَطْرُه فقال: هذا رسولُ ملِكِ الصين بالباب يستأذنُ فى الدخول عليك، قال: أدخلْه، فأدخلَه فوقف بين يدى الإسكندر وسلَّم ثم قال: إن رأى الملك أن يَستخلينى فعل، فأمر الإسكندر مَن بحضرته أنْ ينصرفوا، فانصرفوا كلّهم عنه وبقى حاجبُه فقال: إنّ الذى جئتُ له لا يحتمل أن يسمعه غيرُك، فأمر الإسكندر أن يُفتَّش ففتّش، فلم يجد معه سلاحا، فوضع بين يديه سيفا مسلولا وقال له: قِفْ مكانك وقُلْ ما شِئتَ، وأخرج الحاجبَ ومَن كان قد بَقِىَ عنده، فلمّا خلا المجلس قال له: أنا ملكُ الصين لا رسولُه، جئتُ لأسألك عما تريد، فإن كان ممّا يمكن عَمَلُه ولو على أصعب الوجوه عَمِلْتُه

وأغنيتُك عن الحرب ، فقال له الإسكندر : وما الذى آمنَك منّى ؟ قال : علمى بأنك عاقلٌ حكيمٌ ، ولم تك بيننا عداوةٌ ولا مطالبةٌ بذَحْل[1] ، وأنك تعلم أنك إن قتلتنى لم يكن ذلك سببا لتسليم أهل الصين إليك مُلْكَهم، ولم يمنعهم قتلى من أن ينصبوا لأنفسهم مَلِكا غيرى ثم تنسب [أنت][2] إلى غير الجميل وضدّ الحزم. فأطرق الإسكندر وعلم أنه رجلٌ عاقلٌ ، ثم قال له : إن الذى أريد منك ارتفاع[3] مملكتك لثلاث سنين عاجلا ونصف آرتفاع مملكتك لكلّ سنة . قال : هل غير هذا ؟ قال لا ، قال : قد أجبتُك، ولكن سَلْنى كيف تكون حالُك، قال : كيف تكون؟ قال : أكون أوّلَ قتيلِ مُحارب ، وأوّلَ أَكِيلة مُفترس . قال : فإن قنعتُ منك بآرتفاع سنتين . قال : أكون أصلحَ قليلا وأفسحَ مدّة. قال : فإن قنعتُ بآرتفاع سنة . قال: يكون فى ذلك بقاءُ مُلْكى، وذهابٌ لجميع لذّتى . قال : فإن قنعتُ منك بثلث الآرتفاع كيف تكون حالك ؟ قال : يكون السدس للفقراء ومصالح العباد، ويكون الباقى بالجيش[4] ولسائر أسباب الملك . قال الإسكندر : قد آقتصرتُ منك على هذا، فشكره وآنصرف .

فلمّا طلعت الشمس أقبل جيش الصين وقد طبّق الأرض وأحاط بجيش الإسكندر حتى خافوا الهلاك ، وتواثبَ أصحابه فركبوا الخيل وآستعدّوا للحرب بعد

(١) الذحل : الثأر . (٢) التكملة عن كتاب غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم (ص ٤٣٧).

(٣) عبارة كتاب غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم (ص ٤٣٧ — ٤٣٨) « إن الذى أريد منك ارتفاع مملكتك فى خمس سنين فقال : هل تريد شيئا غير ذلك ؟ قال : لا ؛ قال : قد أجبتك إليه ؛ قال : فكيف تكون حالك حينئذ؟ قال أكون قتيل أول محارب ، وأكيل أوّل مفترس ؛ قال : فإن قنعت منك بارتفاع ثلاث سنين كيف تكون حالك ؟ قال : تكون أصلح من ذلك وأفسح ؛ قال : فإن قنعت منك بارتفاع سنة واحدة ؛ قال : يكون ذلك سدادا لأمر ملكى ، ومذهبا لجميع لذاتى ... الخ » .

(٤) فى كتاب غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم : « لحاشيتى » .

الأمن والطمأنينة إلى السِّلْم. فبينما هم كذلك إذ طلع ملك الصين وهو راكبٌ وعليه التاج، فلمّا تراءى الجمعان نظر الإسكندر إلى مَلِك الصين فظنّ أنه حضر للحرب، فصاح به: أغدرتَ؟ فترجّل ملك الصين وقال: لا والله، قال: فآدْنُ منّى فدنا منه، فقال له الإسكندر: ما هذا الجيش الكثير؟ فقال: إنّى أردتُ أن أُرِيك أنّى لم أطعك من قِلّة وضَعْف، ولكنّى رأيتُ العالَمَ العُلْوِيّ مقبلا عليك ممكِّنًا لك ممن هو أقوى منك وأكثر عددا، ومَن حاربَ العالم العُلْوِيّ غُلِب، فأردتُ طاعته بطاعتك، والتذلّل له بالتذلّل لك، فقال الإسكندر له: ليس مثلك مَن يُسَام الذّل، ولا مَن يؤدّى الجزية، فما رأيتُ بينى وبين الملوك مَن يستحقّ التفضيل والوصف بالعقل غيرك، وقد أعفيتك من جميع ما أردته منك وأنا منصرفٌ عنك. فقال ملك الصين: ولستَ تخسر [إذا][1] ثم آنصرف عنه الإسكندر. فبعث إليه ملك الصين بضعف[2] ما قرر معه وآنصرف عن الصين.

كلام الحكماء عند وفاة الإسكندر

قال: لمّا تُوُفّى الإسكندر جُعِل فى تابوت من الذهب، وآجتمع الحكماء فتقدّم الأوّل[3] فقال: قد كان الإسكندر يخبأ الذهب، وقد أصبح الآن يخبؤه الذهب. وتقدّم الثانى[4] اليه والناس يبكون و يجزعون فقال: حرّكنا بسكونه. وتقدّم

(١) التكلة من كتاب غرر أخبار ملوك الفرس وغيرهم (ص ٤٣٩).

(٢) ورد فى غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم (ص ٤٣٩) الأشياء التى بعث بها ملك الصين الى الإسكندر وهى: «ألف حريرة وألف فرند وألف ديباجة وألف من فضة ومن كل من جلود السمور والفنك والفاقم والسنجاب والخزّ ألف جلدة وألف مثقال عنبرا وألف نافجة مسكا وألف رطل عودا وألف طاس ذهبا وفضة ومائة سيف هندية محلاة بالذهب والجوهر ومائة سرج ومائة لجام صينية مذهبة ومائة درع سابغة والتزم الضريبة كل سنة فأخذها الإسكندر كلها وارتحل بها».

(٣) هو ديوجانس الفيلسوف. (٤) هو أفلاطون الفيلسوف.

الثالث اليه فقال[1] : قد كان يَعظنا فى حياته ، وهو اليومَ أوعظُ منه أمس . وتقدّم اليه الرابع فقال : قـد جاب الأَرَضِين وسلكها ، ثم حصل منها فى أربعة قوائم . ووقف عليه الخامس[2] فقال : انظروا إلى حُلْم النائم كيف آنقضَى ، و إلى ظِلّ الغمام كيف آنجلَى . ووقف عليه السادس فقال : قد أمات هذا الميِّت كثيرا من الناس لئلّا يموتَ ، وقد مات الآن . ووقف عليه السابع[3] فقال : مالك لا تقلّ عضوا من أعضائك ، وقد كنتَ تستقلّ بمُلْك العباد . وقال الثامن[4] : مالك لاترغبُ بنفسك عن المكان الضيِّق ، وقد كنتَ ترغب بها عن رَحْب البلاد . وقال التاسع : كان لا يُقدَر عنـده على الكلام، واليوم لا يُقدَر عنـده على الصَّمْت . وقال العاشر : قد كان غالبا فصار مغلوبا ، وآكلا فصار مأكولا . وقال الحادى عشر[5] : ما كان أقبحَ إفراطَك فى التجبُّر أمس مع شـدّة خضوعك اليوم ! . وقالت بنت دارا : ما كنتُ أحسَـبُ أنّ غالبَ أبى يُغلَبُ . وقال رئيس الطبّاخين : قـد نضّدتُ النضائد ، وألقيتُ الوسائد ، ونَصَبتُ الموائد، ولستُ أرى عميدَ القوم .

قال : ولمـا مات الإسكندر عُرِض المُـلْك على آبنـه من بعده فأباه وآختار العبادة والنُّسك .

فملك بعد الإسكندر على اليونانيين بطليموس، وهذه التسمية لكلّ من ملك اليونان ككِسْرى للأكاسرة من الفُرْس ، وقَيْصر للروم ، وخاقان للترك ، وطَرْخان للخزَر، والنجاشىّ للحبشة .

قال : وكان بطليموسُ هذا شابّا مدبّرا حكيما عالمـا . وكان مُلْكه أربعين سنة، وقيل عشرين سنة، وقيل إنه أوّل من آقتنى البُزَاة وضرّاها ولعب بها .

---

(١) هو سقراط الحكيم . (٢) هو بطليموس الفيلسوف . (٣) هو بليناس الفيلسوف .
(٤) هو ديمقراطيس الفيلسوف . (٥) هو طوبيقا الفيلسوف .

٧٦
١٣

ثم ملك بعده بطليموس الثانى، وهو الذى يقال له : محبّ الأخ ، وآسمه هيقلوس، وكان مُلْكه ستّا وعشرين سنة .

ثم ملك بعده بطليموس محبّ الأب، وكانت مدّةُ ملكه سبعَ عشرةَ سنة .

ثم ملك بعده بطليموس، وهو صاحبُ علم الفلك والنجوم وكتاب المجسطى. فكان ملكه أربعا وعشرين سنة . ٥

ثم ملك بعده بطليموس محبّ الأم . فكان ملكه خمسا وثلاثين سنة .

ثم ملك بعده بطليموس الصائغ . فكان مُلْكه سبعا وعشرين سنة .

ثم ملك بعده بطليموس الإسكندرانىّ . فكان ملكه اثنتى عشرةَ سنة .

ثم ملك بعده بطليموس الحديدىّ . فكانت مدّة مُلْكه ثمانين سنة .

ثم ملك بعده بطليموس الجوّال . فكان ملكه أيضا ثمانين سنة ، وقيل أقلّ من ذلك . ١٠

ثم ملك بعده بطليموس الحرب . فكانت مدّة ملكه ثلاثين سنة .

ثم ملكت بعده آبنته قُلُوبَطْرة، وكانت حكيمة متفلسفة معظّمة للحكماء ، ولها كتب مصنّفة فى الطبّ والزينة وغير ذلك ، مترجمة بآسمها ومنسوبة إليها ، وكان زوجها بطليموس ويسمّى أنطونيوس مشاركا لها فى مُلْك مقدونية وهى مصر . ٥

فلمّا أراد الله تعالى ذهاب ملك اليونانيين أيّد عليهم مَلِك رومية وهو أغسطس، فسار إليها، وكان له مع الملكة قلوبطرة وزوجها حروبٌ كثيرة، فقُتل زوج قلوبطرة، فأراد ملك الروم أن يتزوجها لعلمه بحكمتها وليتعلّم منها، فراسلها فعلمتْ مرادَه منها، فطلبت حيّــة تكون بالحجاز ومصر والشام ، وهى نوع من الحيّات تراعى الإنسان حتى إذا نظرت الى عضو من أعضائه قَفَزت أذرُعا نحوه فلم تخطئ ذلك العضو بعينه

حتى تنفُل عليه سمّاً فيموت لوقته ولا يُعلَم ماخبره ، فيتوهّم الناس أنه مات بجأة
حَتْفَ أنفه . فآحتُمِلَتْ لها . فلمّا كان فى اليوم الذى علمت فيه أن أغسطس يدخل
فى قصرها أمرتْ بأنواع الرياحين والزهور أن تُبسَط فى مجلسها وأمامَ سريرها ،
وجلست على سرير مُلْكها والتاجُ على رأسها وفرّقتْ حشَمَها وقربت يدها من الإناء
٥ الذى فيه تلك الحيّة فضربتها فماتت لوقتها، وآنسابتْ الحيّة فى تلك الرياحين ودخل
أغسطس حتى آنتهى الى المجلس، فنظر إليها جالسةً وهو يظنّ أنها باقية، فدنا منها
فتبيّن له أنها قد ماتت، فنظر الى تلك الرياحين فقفَزت عليه تلك الحيّة فرمتْه بسمّها
وقد خفّ، فبطل شقّه الذى ضربته من جهته، ولولا أنّ سمّها كان قد نَقُصَ لمات،
فعجب من قتلها لنفسها وما كادته به من إلقاء الحيّة . وكانت قلوبطرة هذه آخر
١٠ مَنْ مَلَك من اليونانيين . والله أعلم .

ذكر أخبار ملوك السُّريان

قال أبو الحسن علىّ بن عبد الله المسعودىّ فى كتابه المترجم بمروج الذهب[(1)] :
ذكر ذوو العناية بأخبار ملوك العالَم أنّ أوّل الملوك بعد الطوفان ملوك اليونان، قال:
وقد تُنُوزِع فيهم وفى النبَط، فمن الناس مَن رأى أنّ السريانيين هم النَّبَط، ومنهم
١٥ من رأى أنهم إخوةٌ لولد ماس بن نَبِيط[(2)]، ومنهم مَن رأى غير ذلك على حسب تبايُن
الناس فى الأجيال الماضية والقرون الخالية .

قال : فكان أوّلَ مَن ملك منهم رجلٌ يقال له سُوشان، وهو أوّل من وضع
التاج على رأسه فى تاريخ السريانيّين . قال : وآنقاد له ملوك الأرض ، فكان
ملكه ستّ عشرةَ سنة باغيا فى الأرض، ومفسدا فى البلاد، وسفّاكا للدماء .

٢٠ (١) راجع (ج ١ ص ١٠٠ طبع بلاق) .
(٢) كذا فى مروج الذهب للمسعودى . وفى الأصول : « لوذمانين » وهو تحريف .

ثم ملك بعده يريز[1]، وكان ملكه إلى أن هلك عشرين سنة .

ثم ملك بعده سماسير بن أبو با . فكان ملكه تسعَ سنين .

ثم ملك بعده أهريمون نخطّ الخطط، وكوّر الكُوَر ، وجدّ فى أمره ، وأتقن مُلْكه ، وعمر أرضه . فلما آستقامت له الأحوال وآنتظم ملكه بلغ بعض ملوك الهند وهو رُتبيل ، وهو آسم لمن يملك هذه الجهة من الهند ، ما القومُ عليه من القوة ، وما بلادُهم عليه من العمارة ، وأنهم يحاولون الممالك ، وقد كان هذا الملك الهندىّ غَلَب على مَن حوله من ممالك الهند وآنقادتْ إلى أحكامه ، وذلك أنّ ملكه كان مما يلى بلاد الهند والسِّند ، فسار نحو بلاد بُسْت[2] وغَزْنين[3] ونَغر[4] وبلاد الداور[5] على النهر المعروف بالهِنْدمِنْد ، وهو نهر ببلاد سِجِسْتان ويُعرَف بنهر بُسْت تجرى فيه السفن منها إلى سِجِسْتان .

قال : وكان بين ملك الهند وملك السريانيين حروبٌ كثيرةٌ نحواً من سنة ثم أجلتْ الحرب عن قتل السريانىّ وآحتوى الهندىّ على الصُّقع وملَكه ، فكان مُلْك أهريمون عشر سنين .

(١) فى مروج الذهب للسعودى : « يرندس » .

(٢) كذا فى معجم البلدان لياقوت . وهى مدينة بين سجستان وغزنين وهراة ، وهى من البلاد الحارّة المزاج ، وهى كبيرة ، ويقال لناحيتها اليوم كرم سير ، معناه النواحى الحارّة المزاج ، وهى كثيرة الأنهار والبساتين . وفى نسخة أ « قسط » . وفى نسخة ب « بسط » وهما محرفتان .

(٣) كذا فى معجم البلدان لياقوت . وهى مدينة عظيمة وولاية واسعة فى طرف خراسان ، وهى الحدّ بين خراسان والهند . وفى نسخة أ « غربين » . وفى نسخة ب « غرنين » وهما محرفتان .

(٤) كذا فى معجم البلدان لياقوت . وهى مدينة ببلاد السند ، بينها وبين غزنين ستة أيام ، تعدّ فى أعمال السند . وفى الأصول « نغنين » وهو تحريف .

(٥) بلاد الداور : هى ولاية واسعة ذات بلدان وقرى مجاورة لولاية رُخّج وبست والغور . وأهل تلك الناحية يسمونها زمنداور ، ومعناه أرض الداور .

قال : وبقى ذلك الصُّقع بيد الملك الهندىّ حتى سار إلى بعض الملوك فأتى عليه وملك العراق وردّ السريانيين .

فملّكوا عليهم تسنوا[1] بن سماسير . فكان مُلْكه إلى أن هلك ثمانى سنين .

ثم ملك بعده أهريمون . فكانت مدّة مُلْكه آثنتى عشرة سنة .

٥ ثم ملك بعده آبنه هوريا فزاد فى العمارة وأحسن للرعايا وغَرَس الأشجار . فكان ملكه اثنتين وعشرين سنة .

ثم ملك بعده ماروت[2] وآستولى على المُلْك . فكان مُلْكه خمسَ عشرةَ سنة . وقيل أكثر من ذلك .

ثم ملك بعده أزور وسلحاس[3]، ويقال إنهما كانا أخوين . قال : فأحسنا ١٠ السيرة، وتعاضدَا على تدبير المُلْك . ويقال : إنّ أحد هذين الملِكَين كان جالسًا ذاتَ يوم فى أعلا قصره فنظر إلى طائر قد فرّخ هنالك ، وهو يصيح ويضرب بجناحه ، فنظر إلى حيّة تنساب إلى الوَكْر لتأكل الفراخ التى للطائر، فدعا بقَوْس وسهم ورمى الحيّة فقتلها ، وسلمت الفراخ ، وغاب الطائر وعاد إلى الملك بعد هُنَيهة وفى منقاره حبّة وفى مخالبيه حبّتان ، وطار حتى وازَى الملك ، وألقى الحبّ ١٥ بين يديه فتناوله الملك وقال : ما ألقى هذا الطائر هذا الحبّ إلا لأمر قصد به مكافأتنا على ما فعلناه من خلاص فراخه، ولم يعرف ما هو ذلك الحبّ، وآستدعى الحكماء وأراهم فما عرَفوه ، فقال له حكيم : ينبغى أن يُزرَع هذا الحبّ ببطن الأرض ليُنظَرَ ما يكون منه ، فأحضر الأَكَرَة وأمرهم بزرعه فزرَعوه ، والملك

(١) كذا فى الأصول . وفى مروج الذهب للسعودى (ج ١ ص ١٠٢ طبع بلاق) : «سير» .

٢٠ (٢) كذا فى نسخة ا وفى نسخة ب «ماروب» بالباء الموحدة . وفى مروج الذهب : «مارث» .

(٣) كذا فى نسخة ا وفى نسخة ب «حلحاس» وفى مروج الذهب «خلنجاس» .

يراعيه حتى طلع وأزهر وحصرم وأعنب ، وهم لا يقربونه خشية أن يكون متلفا ، فأمر الملك أن يعصر ماؤه و يودع الآنيـة وأخرج الحبّ منـه وترك بعضـه على حاله . فلمّا صار فى الآنية غلا وقذف بالزبد وفاحت له روائح عبقة ، فقال الملك : علىّ بشيخ كبير ، فأتى به ، فسقاه من هـذا العصير . فلمّا شرب منه ثلاثا صال وتكلّم وصفّق بيديه وحرّك رأسـه ووقع برجليه على الأرض ، فظهر عليه الطّرب والفرح و تغنّى . فقال الملك : هـذا شرابٌ مذهبٌ للعقل ، وأخلق به أن يكون قتّالا ، ألا ترون إلى هذا الشيخ كيف عاد الى حال الصّبا وقوّة الشباب ، ثم أمر الملك بالشيخ فرقد ، فسكن ونام . فقال الملك : هلك ، ثم أفاق الشـيخ وطلب الزيادة من الشراب وقال: لقد شربته فكشف عنّى الهموم والغموم، وأزال عنّى الأحزان . فقال الملك : هذا أشرف شراب الرجل ، فأكثر من غرس الكروم ، واختصّ به دون غيره من الناس ، واسـتعمله بقيّة أيامه ، ثم نمـا بعد ذلك وكثر فى أيدى الناس . وهذا آخر ما أورده المسعودىّ من أخبار السّريان .

ذكر أخبار الملوك الكلوانيّين

وهم ملوك النّبط ملوك بابل

قال المسعودىّ (١) ، ذهب جماعةٌ (٢) من أهـل البحث والعناية بأخبار ملوك العالم أنهم ملوك العالم الذين مهّدوا الأرض بالعمارة، وأنّ الفرس الأول إنما أخذوا المُلْك من هؤلاء كأخذ الروم المُلْك من اليونان .

فكان أوّل من ملك منهم نُمْروذ الجبّار . فكان مُلْكه نحوا من ستين سنة . وقد قدّمنا أخبار نُمْروذ (٣) فى قصّة إبراهيم عليه السلام .

(١) راجع مروج الذهب (ج ١ ص ١٠٣ طبع بلاق) . (٢) فى مروج الذهب: «ذكر» .
(٣) راجع (ج ١٣ ص ٩٦ — ١٠٠ و ١١٣ — ١١٤ من هذه الطبعة) .

قال : ونمروذ هذا هو الذى احتفر أنهارا بالعراق آخذةً من الفُرات، فيقال : إنّ من ذلك نهر كُوثى[1] على طريق الكوفة ، وهو بين قصر ابن هُبَيرة[2] و بغداد .

٧٨ / ١٣

ثم ملك بعده أبولس، وكان عظيم البطش جبّارا فى الأرض . وكان مُلْكه نحوا من سبعين سنة .

٥ ثم ملك بعده فيزمنوس . وكان باغيا فى الأرض، ملك نحوا من مائة سنة .

ثم ملك بعده سوسوس . فكان مُلْكه نحوا من تسعين سنة .

ثم ملك بعده كورس . فكان ملكه نحوا من خمسين سنة .

ثم ملك بعده أذفرنجوا[3] . فكان ملكه نحوا من عشر سنين .

ثم ملك بعده سيهزم . فكان ملكه نحوا من أربعين سنة ، وقيل أكثر .

١٠ ثم ملك بعده قوسيس . فكان ملكه نحوا من سبعين سنة .

ثم ملك بعده أنبوش[4] . فكان ملكه نحوا من ثلاثين سنة .

ثم ملك بعده إيلاوس . فكان ملكه نحوا من خمس عشرة سنة .

ثم ملك بعده الجلوس . وكان مُلْكه نحوا من أربعين سنة .

---

(١) نهر كوثى : هو أوّل نهر أخرج بالعراق من الفرات ، وسمى بكوثى من بنى أرفخشد بن سام ١٥ ابن نوح عليه السلام ، وهو الذى كراه فنسب اليه ، وهو جدّ إبراهيم عليه السلام أبو أمه بونا بنت كربنا (راجع معجم البلدان لياقوت) .

(٢) قصر ابن هبيرة : ينسب الى يزيد بن عمر بن هبيرة ، بناه بالقرب من جسر سورا لما ولى العراق من قبل مروان بن محمد . فلما ملك السفاح نزله واستتم تسقيف مقاصير فيه وزاد فى بنائه وسماه الهاشمية وكان الناس لا يقولون إلا قصر ابن هبيرة على العادة الأولى (راجع معجم البلدان لياقوت) .

٢٠ (٣) فى مروج الذهب : « أتمر » .

(٤) كذا فى نسخة أ وفى نسخة ب « أنبوس » . وفى مروج الذهب : « أينوس » .

ثم ملك بعده أونوبس[1] . فكان ملكه نحوا من ثلاثين سنة .

ثم ملك بعده بعنكلوس . فكان ملكه نحوا من ثلاثين شهرا .

ثم ملك بعده سفرين[2] . فكان ملكه نحوا من أربعين سنة، وقيل أقلّ .

ثم ملك بعده مارنوس . فكان ملكه نحوا من ثلاثين سنة .

ثم ملك بعده رسطاليم[3] . فكان ملكه نحوا من أربعين سنة .

ثم ملك بعده أسطوس . فكان ملكه نحوا من خمسين سنة .

ثم ملك بعده تاولوس . فكان ملكه نحوا من خمسين سنة .

ثم ملك بعده العداس . فكان ملكه نحوا من ثلاثين سنة .

ثم ملك بعده أطيروس . فكان ملكه نحوا من ستين سنة .

ثم ملك بعده ساوساس . فكان ملكه نحوا من عشرين سنة .

ثم ملك بعده فارينوس . فكان ملكه نحوا من خمسين سنة، وقيل خمسا وأربعين سنة .

ثم ملك بعده أدرموس . فكان ملكه نحوا من أربعين سنة . وغزاه ملك من ملوك فارس فى عُقْر داره .

ثم ملك بعده مسروس . فكان ملكه نحوا من خمسين سنة .

ثم ملك بعده أفروس . فكان ملكه نحوا من أربعين سنة .

ثم ملك بعده طاطاوس . فكان مُلْكه نحوا من أربعين سنة .

---

(١) كذا فى نسخة أ وفى نسخة ب « أوموبس » وفى مروج الذهب : « أومونوس » .

(٢) كذا فى نسخة أ وفى نسخة ب « سفرمن » . وفى مروج الذهب : « سفروس » .

(٣) فى مروج الذهب : « رسطالين » . وقد ورد فيه أيضا خلاف فى بعض أسماء الملوك الذين ذكروا هنا فا كتفينا بما ورد فى الأصول عوضا عن التنبيه فى كل اسم .

ثم ملك بعده لاوسيس . فكان ملكه نحـوا من خمسين سنة ، وقيل خمسا وأربعين سنة .

ثم ملك بعده قريطوس . فكان ملكه نحوا من ثلاثين سنة .

ثم ملك بعده قروطاوس . فكان ملكه نحوا من عشرين سنة .

٥ ثم ملك بعده قراقريس . فكان ملكه نحوا من خمسين سنة ، وقيل آثنتين وأربعين سنة .

ثم ملك بعده بوليس قنطروس . فكان ملكه نحوا من عشرين سنة .

ثم ملك بعده قولا قسيا . [فكان ملكه][1] نحوا من ستين سنة .

ثم ملك بعده هيقلس . فكان ملكه خمسا وثلاثين سنة ، وقيل خمسين سنة . وكانت له حروب مع ملوك الصقالبة .

١٠ ثم ملك بعده سموجد . فكان ملكه نحوا من ثلاثين سنة .

ثم ملك بعده مردوج . فكان ملكه نحوا من أربعين سنة ، وقيل أقلّ من ذلك .

ثم ملك بعده سنحاريب . فكان ملكه نحو من ثلاثين سنة ، وهو الذى آبتنى بيت المقدس .

ثم ملك بعده منوشا . فكان ملكه نحوا من ثلاثين سنة ، وقيل أقلّ من ذلك .

١٥ ثم ملك بعده بُخْتَنَصَّر الجبّار . فكان ملكه خمسا وأربعين سنة ، وقد تقدّم أن بختنصر[2] لم يكن ملكا وإنما كان مَرْزُبانا لملوك الفُرْس الأُوَل ، إلا أن يكون هذا غير ذاك . والله أعلم .

ثم ملك بعده بيطسقر . فكانت مدّة ملكه نحوا من ستّين سنة ، وقيل أقلّ من ذلك .

٢٠ (١) زيادة يقتضيها السياق مراعاة لما ورد قبله وجاء بعده .

(٢) راجع (ج ١٤ ص ١٥٣ من هذه الطبعة) .

ثم ملك بعده دارنوس . فكان مُلْكه إحدى وثلاثين سنة، وقيل أكثر من ذلك .

ثم ملك بعده كشرخوش [فكان ملكه] عشرين سنة .

ثم ملك بعده قرطياسة تسعة أشهر .

ثم ملك بعده فيجسمنه . فكان ملكه إحدى وأربعين سنة .

ثم ملك بعده أجرست . فكان ملكه ثلاثا وستين سنة . ٥

ثم ملك بعده شعيا . فكان ملكه ثلاثين سنة (١) ، وقيل تسعة أشهر .

ثم ملك بعده داريوس . فكان ملكه عشرين سنة، وقيل تسع عشرة سنة .

ثم بعده أنطجست . فكان ملكه تسعا وعشرين سنة .

ثم ملك بعده اليسع . فكان ملكه خمس عشرة سنة، وقيل عشرين سنة .

١٠ قال المسعودىّ : فهؤلاء الملوك الذين أتينا على أسمائهم، وذكرنا مدّة ملكهم، هم الذين شيّدوا البنيان، ومدّنوا المدن، وكوّروا الكُوَر، وحفروا الأنهار، وغرسوا الأشجار، وآستنبطوا المياه، وأثاروا الأرض، وآستخرجوا المعاذن من الحديد والنحاس والرصاص وغير ذلك، وطبعوا السيوف، واتّخذوا عدّة الحرب، ونصبوا قوانين الحروب، ورتّبوا الميمنة والميسرة والأجنحة، وجعلوا ذلك مثالا لأجزاء أعضاء الإنسان، ورتّبوا الأعلام؛ فجعلوا أعلام القلب على صورة الفيلة والنسور وما عظُم من أجناس الحيوان؛ وجعلوا أعلام الميمنة والميسرة على صورة السباع؛ وجعلوا فى الأجنحة أمثال مالطف منها كالنمر والذئب؛ وجعلوا فى الطلائع كصُوَر الحيّات وما خَفِىَ فعله من هوامّ الأرض؛ وتغلغل القوم فى هذه المعانى .

٧٩/١٣ ١٥

قال : والذى ذكرناه من أخبارهم هو المشهور . والله تعالى أعلم .

٢٠

(١) فى مروج الذهب : «ستة وقيل تسعة أشهر» ولعلّ كلمة ثلاثين مقحمة من الناسخ .

ذكر أخبار ملوك الروم وأنسابهم

قال المسعودىّ[1] : قد تنازع الناس فى الروم ولأىّ علة سُمّوا بهذا الآسم، فقيل لإضافتهم لمدينة رُومِيَة وآسمها بالرومية روماس، فعُرّب هذا الآسم فسُمّى مَن كان بها روما، والروم لا يسمّون أنفسهم فى لغتهم إلّا رومس[2] . ومنهم مَن رأى أن هذا الآسم آسم الأب الأوّل، وهو روم بن شماخلين بن هُوبان بن علفا بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام . ومنهم مَن رأى أنهم سُمّوا بآسم جدّهم رومس آبن لبطى بن نويفل بن رومىّ بن الأصغر بن النفر بن العيص، وقيل غير ذلك . وقد ذكرنا فى الأنساب شيئا من ذلك .

قال المسعودىّ : وغلبت الروم على ملك اليونانيين، فكان أوّل مَن ملك منهم طوخاس وهو جانيوس الأصغر بن روم بن شماخلين ، فكان مُلْكه آثنتين وعشرين سنة .

وقيل إنّ أوّل مَن ملك من ملوك الروم قَيْصَر، واسمه غالوس أوليوس . فكان مُلْكه ثمانى عشرة سنة .

وقيل أوّل مَن ملك منهم بعد ملوك اليونانيين برومية بوليس . فكان مُلْكه سبع سنين ونصفا . قال : ورومية بنيت قبل الروم بأربعمائة سنة .

ثم ملك بعده آبنه أغسطس قَيْصَر . وكان مُلْكه ستّا وخمسين سنة، وهو أوّل مَن تَسمّى بقَيْصَر، وإنما سُمّى بذلك لأنّ أمّه ماتت وهى حامل به فشُقّ بطنُها عنه، ومعنى قَيْصَر بقر، وكان يفتخر بأنّ النساء لم تلده، وحقيقة هذه اللفظة بالعجميّة

(١) راجع مروج الذهب (ج ١ ص ١٤٨ طبع بولاق) .

(٢) فى مروج الذهب : « رميس » .

جَيْشَر، قيل إنما سمى جيشر لأنه ولد بشعر يبلُغ عينيه، وآسم الشعر بالعجميّة حساريه وقيل جشايره، فعرِّب فقيل قَيْصَر، وهو صاحب قُلُوبَطْرَة ملكة اليونان على ما ذكرناه . وآحتوى هذا الملك على مَقْدُونية وهى مصر والإسكندرية، وحاز ما فيهما من الخزائن، وكانت له حروبٌ كثيرةٌ، وكان يعبد الأوثان . وبنى بأرض الروم مُدُنا تنسب إليه، وكوّر كُوراَ . فمن مُدُنه قَيْسارية . ولآثنتين وأربعين ٥ سنة خلت من مُلْكه ولد المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام، وعاش هذا الملك بقيّة عمره وقد بطل شقّه لما ثقُلت عليه الحيّة على ماقدّمناه فى أخبار قُلُوبَطْرَة .

ثم ملك بعده طياريس . فكان مُلْكه آثنتين وعشرين سنة . قال : ولثلاث سنين بقيتْ من ملكه رُفِع المسيح عليه السلام . قال : ولمّا هلك هذا الملك بُرومِيَة اختلفت الروم وتحزّبت وأقاموا على آختلاف الكلمة والتنازُع مائتَىْ سنة ١٠ وثمانيا وأربعين سنة لا نظام لهم ولا ملك يجمعهم .

ثم ملّكوا عليهم طباريس عابس بمدينة رُومِيَة . فكانت مُدّة ملكه أربع سنين .

ثم ملك بعده قلورس برومية . فكان ملكه أربع عشرة سنة، وهو أوّل مَلِكٍ من ملوك الروم شرع فى قتل النصارى وآتباع المسيح عليه السلام، فقتل منهم خلقا كثيرا، وكانت الروم تعبد التماثيل . ١٥

ولما هلك هذا الملك ملك بعده نيرون . قال : وآستقام مُلْكه ورغب فى عبادة التماثيل والأصنام، وكان ملكه أربع عشرة سنة وشهورا .

ثم ملك بعده ططس واسبابوس مشتركَيْن فى المُلْك . فكان ملكهما ثلاث عشرة سنة، ولسنة من ملكهما سارا الى الشام، فكانت لهما حروب عظيمة مع بنى إسرائيل قتل فيها من بنى إسرائيل ثلثمائة ألف وخرّبا بيت المقدس وأزالا ٢٠ رسمه، وكان يعبدان الأصنام .

قال المسعودىّ : وذكر فى بعض التواريخ أنّ الله تعالى عاقب الروم من ذلك اليوم الذى خرّبوا فيه بيت المقدس أن يُسبى منهم فى كلّ يوم سَبْىٌ فلا يومٌ إلّا والسّبْىُ واقعٌ فيهم قلّ ذلك أو كَثُر .

ثم ملك بعدهما ذو مطيانس . فكانت مدّة ملكه خمس عشرة سنة .

٥ ثم ملك بعده تبرنوس . فكانت مدّة ملكه سنة واحدة .

ثم ملك من بعده طومانوس . فكانت مدّة ملكه تسع عشرة سنة .

ثم ملك بعده أذربالس . فكانت مدّة ملكه إحدى عشرة سنة، وخرَّب سائر ما بَقِىَ بالشام لبنى إسرائيل .

ثم ملك بعده أبطونيس . فكان ملكه ثلاثا وعشرين سنة . قال : وبنى بيت
١٠ المقدس وسمّاه إيلياء .

ثم ملك بعده قرمودس . فكانت مدّة ملكه ثلاث عشرة سنة .

ثم ملك بعده سيريرس . فكانت مدّة ملكه ثمانى عشرة سنة .

ثم ملك بعده ولده أنطويس . فكانت مدّة ملكه تسع سنين .

ثم ملك بعده أنطويس الثانى . فكانت مدّة ملكه أربع سنين، وفى آخر ملكه
١٥ مات جالينوس الطبيب .

ثم ملك بعده الإسكندر ماماس، وتفسير ماماس العاجز . فكانت مدّة ملكه ثلاث عشرة سنة .

ثم ملك بعده عردياس . فكانت مدّة ملكه ستّ سنين .

ثم ملك بعده ديقيوس وقيل فيه دقيوس . فكانت مدّة ملكه ستين سنة .
٢٠ قال : فأمعن فى قتل النصارى، ومن هذا الملك هرب أصحاب الكهف .

ذكر خبر أصحاب الكهف

قال الشيخ عبد الوهّاب بن المبارك بن أحمد بن الحسين الأنماطىّ فى كتاب المبتدإ يرفعه الى وَهْب بن مُنَبِّه : إنّ أصحاب الكهف كانوا فِتْية من الروم ، وهم الذين ذكرهم الله تعالى فى كتابه العزيز فقال : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ [1] الآيات التى فى سورة الكهف . قال : وكان فى إيمانهم عِبْرةٌ وتفكُّر منهم فى عِظَم الله وجلالِه ومُلْكه وسلطانِه وأصنافِ خَلْقه ، لم يأتهم بذلك وَحْى ولم يقرءوا كتابا ، ولم يُدْرِكوا زمانَ نبوّة ، وكانوا فى زمن فترة قبل أن يبعث الله عزّ وجلّ عيسى بن مريم عليه السلام ، وهذا القول مخالفٌ لما ذكرناه آنفا ، فإنّ المساق الذى قدّمناه من أخبار ملوك الروم يقتضى أن بين رفع عيسى عليه السلام و بين مُلْك دقيوس ما يزيد على مائتى سنة . والله عزّ وجلّ أعلم .

قال : وكانوا شبّانا متقاربين فى السنّ قلّما يتفاوتون ، وكانوا من فَصيلة واحدة يجمعهم النسَب ، وكانوا فى حَسَبٍ عظيم من أحساب الروم ، من ولد عظمائهم وملوكهم وأشرافهم ، وكان للروم فيهم هوًى وصبابةٌ شديدةٌ ، وكان مُلْك الروم الأوّل فى آباء أولئك الفِتْية ويُنَقّل فى فَصيلتهم التى كانوا منها أكثر من أربعمائة عام حتى انقرضتْ تلك الفصيلة و زال الملك عنهم . فكان أولئك الفِتْيةُ عَقِبَ أولئك الملوك و بقيّتَهم ، وكان الروم يتمنَّوْنَ مُلْكهم ويمدّون اليهم أعناقهم لما قد بلغهم ما كان الناس فيه فى زمن أسلافهم من الخَفْض والدعة والعافية والبَسْط والأمن والسَّعة ، فكانوا يؤمّلونهم و يرجونهم ، وكانت ملوك الروم قد جَفَوْهم وحرموهم وأقصوهم وأضرّوا بهم مخافةً منهم على مُلْكهم لما يعلمون من رأى الروم فيهم ، وكانوا مع

(١) سورة الكهف آية ١٣ وما بعدها .

ذلك يكفّون عنهم أذاهم، و يعرفون أنهم مَفْزَعُ الروم إن آختلفوا ومُعَوّلهم عليهم، فلم تزل تلك حالهم فيما بينهم و بين ملوكهم وقومِهم حتى أراد الله تعالى بهم ما أراد من هُدَاهم والإيمانِ الذى نوّره الله فى قلوبهم.

٨١/١٣

قال قائلٌ منهم : إنى قد رأيتُ رأيا وقع فى قلبى وأمرًا ثبت فيه، فلستُ أبصرُ غيرَه، وليس يُخرِجُه من قلبى شىء، اسمعوا أَعرِضْ عليكم، إنّى فكّرتُ فى خلق السمواتِ والأرضِ، وآختلافِ الليل والنهارِ، والشمسِ والقمرِ، والنجومِ والسحابِ والمطرِ، والأحياءِ والأمواتِ، والنباتِ، والصّغار والكِبَار، والبقاءِ والفناءِ، والشدّةِ والرخاءِ، وتقلُّبِ الدنيا بأهلها، والأطباقِ التى تنصرف عليها الخلق طَبَقا بعد طَبَق، وقوما عن قوم : من مَوْتٍ وحياةٍ، ونَقْصٍ وزيادة، وخَفْضٍ ورَفع، وغِنًى وفقرٍ، وطُولِ عُمْر ونَقْصِ آخر، ومَوْتِ صغيرٍ وهَرَم كبيرٍ، وأشباهٍ لذلك كثيرة، وهى أكثر من أن تُعَدّ وتُوصَف أو تحصى؛ فلمّا نَظَرتُ فيها وأعملتُ الرأى والنظرَ أجمع رأيى على أنّ لها خالقا بديعا آبتدعها؛ وربًّا يملكها ويُدَبِّرها، ويخلقها ويرزقها، ويُغْنِيها ويُفْقِرها، ويَرْفعها ويَخْفِضُها، ويُحْيِيها ويُميتها ويُفْنيها، تتقلّب فى قَبْضته وتعيش برزقه؛ فلمّا تمّ لى الرأى نظرتُ فى عظمة هذا الربّ الذى آبتدع هذا الخلقَ وضَبَطَه، ودبّره وأحكم أمرَه، فإذا قُدْرتُه تأتى من وراء ذلك كلِّه، ليس من هذا الخلق شىءٌ يفُوتها ولا يخرج منها، وإذا هى محيطةٌ بكلّ شىء ومن وراء كلّ شىء، ثم نظرتُ فى عظمة الربّ هل أصفها كما وصفتها القُدرة، وهل أعلم كُنْهَهَا ؟ فتحيّرتُ فيها، وعجز عنها الحلم والعلم، وحَسَر عنها العقل والنظر، وما بَقِىَ مما لم أذكره لكم معرفةَ القلب ولا نَصِفُه إلّا أنه قد أُلْهِم بمعرفته وأُسِرّ بها أكثر وأعظَم وأعجب ممـا وصفتُ وشرحتُ لكم، فماذا تقولون، وماذا تعرفون، وماذا تفعلون ؟

قالوا : قد قُلتَ قولا عظيما ووصفتَ أمرا عجيبا ، وما نحسَبك إلّا قد أصبتَ فيه الرأىَ والنظرَ ، وقد صدّقناك وتابعناك ورأينا رأيك وواقعٌ قلوبَنا منه ومن معرفته مثلَ الذى عرَفتَ وواقعٌ قلبَك ، وإن كنّا لنرى مثلَ الذى رأيتَ من أعاجيبَ هذا الخَلْق وعظمة هذا الخالق ، وإن كان ليكثُر أن يخطُر على قلوبنا منه مثلُ ما خطَر على قلبك ، ولكنّا لم نشرح منه ما شرحتَ ولم نصف منه ما وصفتَ ، ولم نعمل الرأىَ والنظرَ فى معرفته مثلَ ما أعملتَ وعَرفتَ ، ولكنّ اللهَ أراد هُداك وتفضيلَك وإكرامَك بما سبقتَ إليه من هذا القول وهذا العلم وهذه المعرفة ، ولكن حدِّثنا عمّا نسألك عنه ، وإنما نظرنا فيه بعدَ ما سمعنا قولَك ؛ هل ينبغى لهذا الربّ الذى وَصَفتَه بما وَصفتَه من العظمة أن يكون له شريكٌ فى مُلْكه ، أو حاجةٌ إلى شيء من خَلْقه ، أو هل يَغْلبه شيءٌ يستعين عليه بغيره ؟

قال لهم : لو كان له شريكٌ فى شيء من أمره لضَبَط ما ضَبَط ، ولو كانت به حاجةٌ إلى أحدٍ من خَلْقه لكان مثلَهم ، ولو كان يستعين على شيء يغلبه بغيره إذًا ما بَلَغتْ قُدْرتُه ما بلغتْ ، ولا أحاطتْ بما أحاطتْ به ، ولا وَسِعَ ما اتّسع له من أمر خَلْقه ، وتدبير ما خَلَقَ ورَزَق وأماتَ وأحيا .

قالوا له : صدقتَ وعرَفنا ما تقول وثَبَتَ فى قلوبنا ، ولكن حدّثنا ما بالُ خلقه يشركون به وهم يعرفونه حقّ معرفته . قال : لأنه خلقَ فيهم الأهواء وطبعَ فيهم الشهوات ، وجَبَلَهم على الضعف ، وثَبّتَ معهم الشيطان ، فمن قِبَلَ هذا عَدَلوا به وهم يعرفون أنّ الذين يدعون من دونه لا يُحيُونهم ولا يُميتونهم ، ولا يَخلقونهم ولا يرزقونهم ، ولا يضرّونهم ولا ينفعونهم ، إذا مسّهم الضُّرّ فإيّاه يَدْعون وإليه يَجْأرون ؛ فعند ذلك اجتمع رأيهم على أن يأوُوا إلى الكهف ، وأن يعتزلوا قومهم

وما يعبدون من دون الله، فعندها قالوا : ﴿ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَٰهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ إلى قوله : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ قال : فلما اعتزلوهم وما يعبُدون من دون الله آووْا إلى الكهف رجاءَ أن ينشُر لهم ربهم من رحمته ويهيئ لهم من أمرهم مِرْفقا . قال : وأرادوا أن يكونوا فى عُزْلة من قومهم وشِرْكهم حتى يفرق لهم رأيُهم ، فألقى الله عليهم السُّبَات .

قال : وهم من مدينة من مدائن الروم يقال لها أُفْسُوس[1] ، وملِك الروم يومئذ دقيوس ، ويقال — والله أعلم — إنّ عدّتهم سبعة ، كان عبد الله بن عباس يسمّيهم بأسمائهم ويقول : ما يعلمهم إلا قليل وأنا من أولئك القليل ، منهم مرطالوس ، ونونوس ، وذانيوس ، وسراقيون ، واسطاطالوس ، ومكسلميس ، وتمليخا ، وهو الذى بعثوه بِوَرِقهم إلى المدينة ليرتادَ لهم . هذا قول ابن عباس ، قال : وكانوا قوما يطلبون الصَّيد لِمَا مسَّهم من الضُّر والحاجة ليس لهم كبيرُ معيشةٍ غيرَه ، فقالوا قولهم هذا ونظروا ما نظروا ، وهم يومئذ فى الجبل الذى فيه كَهْفهُم يطلبون الصيد ومعهم كلابهم وبُزاتُهم وقِسِيُّهم ونَبْلُهم . فلمّا أجمع رأيُهم أن يأوُوا إلى الكَهْف ليأتمروا فيه ، هل يُقيمون مع قومهم على شِرْكهم ، أم يفارقونهم فينتجعون ناحيةً من الأرض يحِلُّون فيها ويوحّدون فيها ربَّهم . فبينا هُمْ على ذلك ألقَى الله عليهم السُّباتَ وأخفَى على جميع خَلْقه مكانهم ، وصَرف عنهم الأبصار والعقول ، فليس يُبصرهم أحدٌ ولا يَفْطِن بمكانهم ، فلبِثوا فى كَهْفهم ثلثمائةٍ سنينَ وازدادوا تِسْعا ، حتى انقرَضَتِ الأمّةُ التى كانوا فيها والمَلِك الذى كان عليهم ، وظهر المسيح عيسى بن مريم عليه السلام وآمنَ به الناس واتّبعوا ملّته ورفعه الله اليه ، وذهب زمانُه وزمانُ أهل ملّته وهم فى كهفهم .

(١) أفسوس : مدينة فى جزيرة باسمها فى البحر الأبيض على مقربة من ساحل آسيا الصغرى .

قال : وقد كان عيسى بن مريم عليه السلام قبل أن يرفعه الله يحدّث عنهم وعن إيمانهم وبصيرتهم ، وكيف تفكّروا فى عظمة إلههم ، وكيف ألقى الله عليهم الثّبات فى كهفهم ، وكيف أخفى مكانهم عن الناس ، ولا ينبغى لأحد أن يهتدى إليهم ولا يعرف مكانهم ، وكان يخبر أنّ الله سيردّ إليهم أرواحهم ويدلّ على كهفهم ليكونوا عِبْرة لمن خَلْفهم إن أراد أن يعتبر بهم . ٥

قال : فردّ الله اليهم أرواحهم بعد أن لبثوا فى كهفهم العِدّة التى ذكرها الله عزّ وجلّ فى القرآن ولزِمهم كلبُهم ، فلبِثَ سِنِيهم كلّها ، كما أخبر الله تعالى : ﴿ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ . والوصيد : فناء الكَهْف الذى فيه موضع الباب ، وكان الكلب من كلاب صَيْدهم ولم يطعم ولم يشرب ليجعله الله آية من آياتهم .

قال : فلمّا ردّ الله عليهم أرواحهم ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ وهم حينئذ يظنّون أنّ قومهم أحياء ، وأنهم على ما يعهدون من حالهم وشركهم وعُتُوّ ملِكهم ، فانطلق رجل منهم يقال له تمليخا ، وكان أشدّهم وأنجدهم ، فتوجّه حتى إذا خالط رَبَض المدينة أنكره وأنكر ما وجد به من الناس والدوابّ والبُنيان وغير ذلك ، ووجد الناس على حال لم يكن يعهدها وسُنّةٍ لم يكن يعرفها ، ووجدهم يتباعون بورِقٍ لا يُشْبِه الورِق الذى معه ، فتحيّر وأنكر وأقبلَ وأدبر ، وأبطأ على أصحابه حتى خافوا عليه ، وظنّوا أنه فُطِن به وقُدِر عليه . فلمّا طال عليه ذلك دخل المدينةَ من ناحيةٍ أخرى من نواحيها خفيّةً فوجد حالَ أهل المدينة على حال أهل الرَّبَض فى كلّ شىء ، فلمّا شكّ وارتاب والتبس عليه رأيُه عَمِد إلى مشيخةٍ من أهل المدينة توسّم فيه الخير ليتجسّس ويسمعَ قولهم ، فوجد معهم الإنجيل يقرءونه ، فسمع ما فيه من توحيد الله وعظمته وعذابه وسُنّته وشرائعه وحلالِه وحرامِه ، فعرف ذلك وأذعنَ اليه وأنصتَ يسمع حتى إذا

١٠ ١٥ ٢٠

فرغوا من قراءتهم سألهم عن كتابهم فقالوا : هذا كتاب الله الإنجيل الذى أُنزل على عيسى بن مريم عليه السلام نبيّه . قال : وأين عيسى؟ قالوا : قد رفعه الله تعالى اليه . قال : وكم لبث فيكم؟ قالوا : ثلاثا وثلاثين سنة . قال : وهل رأيتموه وأتيتموه وأدركتم زمانه؟ قالوا : لا، كان قبل أن نُولَد، ووجدنا كتابه فى أيدى آبائنا . قال : أفكلّ هذه المدينة تؤمن بهذا النبيّ و بهذا الكتاب وتعمل بما فيه مما أسمع من حلاله وحرامه ؟ قالوا : نعم، إلّا مستحقًّا بذنب أو ظالما لنفسه . قال : فهل سمعتم بالملك الذى يقال له دقيوس ؟ قالوا : نعم . قال : فكم له منذ هلك ؟ قالوا : أكثر من ثلثمائة عام . قال : فهل بَقِيَ له عَقِبٌ، أو لأحدٍ من أهل مملكته يعمل بعمله ؟ قالوا : لا . قال : فلو أراد أحد أن يعمل بمثل عمله ما كنتم تفعلون به ؟ قالوا : نقتله أو نخرجه من بين أظهرنا .

فلمّا آمنهم وآطمأنّ إليهم ورأى سَمْتَ الإسلام وهَدْيَه عليهم وفّقه الله وهداه لمسألة سألهم عنها . قال : أخبرونى، هل كان نبيّكم عيسى عليه السلام يخبركم عن سبعة رَهْط خرجوا من هذه المدينة فى زمن دقيوس وقومه، وهربوا إلى الله بأنفسهم ودينهم فراراً من دقيوس وقومه ، وما كانوا يعبُدون من دون الله حتى آووْا الى الكهف فى هذه الجبال فآستخفُوا فيها . فلمّا قال لهم هذا أوجسوا فى أنفسهم أنه منهم، قالوا : نعم، قد كان يخبرنا عنهم فلعلك منهم فإنّا ننكر حالك كلّه . قال : فهل كان عيسى عليه السلام فيما بلّغكم سَمّى أصحاب الكهف ؟ قالوا : نعم؛ قال : فسمّوهم لى بأسمائهم، فسمّوهم حتى إذا ذكروا آسمه تمليخا قال : فأنا تمليخا وأنا أحدهم، فخرُّوا له سجّدا كما صنع إخوة يوسف بيوسف يوم دخلوا عليه؛ وكانت تحيّتهم فيما بينهم السجودَ يومئذ ، ثم أدخلوه مسجدهم وعظّموه ووقّروه وأكرموه ورفعوه وجمعوا له أهلَ مدينتهم وقرّاءهم وفقهاءهم ، فتبرّكوا به ، وجعلوا له عيدا

عظيما، وأقام أياما بين أظهرهم ثم قال لهم : إنّ أصحابى الذين يحدّثكم عنهم عيسى عليه السلام لا أراهم إلّا وقد خافوا علىّ وساء ظنّهم وهم يظنّون أنّ دقيوس حىّ، وأنّ الزمان زمانُه، وأنّ الدين دينُه، فانطلقوا بنا نُعلمهم كيف أهلكه الله وقومَه وطهّر الأرض منهم، وكيف آستبدل الله به وبأهل ملّته أمّة يوحّدونه ويعرفونه ويهدون بالحقّ وبه يَعدِلون . فآنطلقوا معه حتى آنتهَوْا الى الكهف فوجدوا كلبَهم باسطا ذراعَيْه بالوصيد فقالوا حين رأَوْه : وهذا الكلبُ أيضا من علاماتكم التى كان يحدّثنا عنها عيسى عليه السلام، وقد كان يحدّث أنّ أصحاب الكهف لا ينظر إليهم أحدٌ من خلق الله من يوم يدخلون الكهف إلى أن ينزل عيسى بن مريم عليه السلام إلا رجلٌ واحدٌ منهم، وهو الذى يدلّ عليهم وعلى مكانهم، وأنت هو؛ فدخل على أصحابه فأخبرهم بما رأى وما لَقِىَ، ثم كان آخر العهد بهم . قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ٱبْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾ . قال : فبنوه حول الكهف وجعلوا الكهف فى وسطه وكتبوا القصّة على حيطانه .

قال وهب : فبلغنى — والله أعلم — أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : إنّ نزول أخى عيسى بن مريم عليه السلام عِلْمٌ للساعة، وإنّ الله يبشّرهم عند نزول عيسى بن مريم عليه السلام، وإنه يحجّ فى سبعين ألفا فيهم أصحابُ الكهف لأنهم لم يموتوا، ثم تُقبِل ريحٌ صفراءُ يمانيّة، ألين من الحرير، وريحُها رِيحُ المسك فتقبِض روح عيسى عليه السلام وأرواحَ مَنْ معه . انتهى خبر أصحاب الكهف، فلنرجع إلى ما كنّا فيه من أخبار ملوك الروم .

قال : ثم ملك بعد دقيوس جالش . فكانت مدّة ملكه ثلاث سنين . ثم ملك بعده قليطانس . فكانت مدّة ملكه عشرَ سنين، ثم كانت بعده ملوك الروم المتنصّرة .

ذكر أخبار ملوك الروم المتنصّرة

وهم ملوك القسطنطينية

قال المسعودىّ[(1)] : لمّا هلك قليطانس ملك بعده قسطنطين بُرومِيَة ، وهو أوّل من آنتقل من ملوك الروم عن رومية إلى بِيزَنْطِيَا ، وهى القسطنطينية ، فبناها هذا الملك وسمّاها بهذا الآسم . قال : وكان خروجه من رومية ودخوله فى دين النصرانية لستّ خلتْ من مُلكه ، وذلك أنّ أمّه هـلانا[(2)] خرجتْ إلى أرض الشام وبنت الكنائس وسارت إلى بيت المقدس وطلبت الخشبة التى تزعُم النصارى أنّ عيسى عليه السلام صُلِبَ عليها ، فلمّا ظفِرتْ بها حلّتها بالذهب والفضة وآتّخذت يومَ وجودها عيدا ، وهو عيدُ الصليب ، لأربع عشرة ليلة خلت من أيلول . وهى التى آبتنت كنيسة حِمص على أربعة أركان ، وآستخرجت الدفائن بمصر والشام ، وصرفت ذلك فى بناء الكنائس وتشييد دين النصرانية ، فكلّ كنيسة بالشام ومصر من بناء هذه الملكة هلانا .

قال : ولسبع عشرة سنة خَلَتْ من مُلْك قُسْطَنطين آجتمع ثلثمائة وثمانية عشر أسقُفا بمدينة نِيقِيَة[(3)] بأرض الروم فأقاموا دين النصرانية . وهذا الآجتماع أوّل

(1) (راجع ج ١ ص ١٥٢ طبع بلاق) .

(2) كذا فى مروج الذهب للسعودى (ج ١ ص ١٥٢ طبع بلاق) ، وفى نسختى أ و ب «فلاى» وهو تحريف .

(3) قال آبن الهروىّ : مدينة نيقية من أعمال آصطنبول على البر الشرقى وهى المدينة التى آجتمع بها آباء الملة المسيحية ، وكانوا ثلثمائة وثمانية عشر أبا يزعمون أن المسيح عليه السلام كان معهم فى هذا المجمع ، وهو أوّل المجامع لهذه الملة و به أظهروا الأمانة التى هى أصل دينهم وصورهم وصورة كراسيهم بهذه المدينة فى بيعتها ولهم فيها اعتقاد عظيم ، وفى الطريق من هذه المدينة إلى بلاد الروم الشمالية قبر أبى محمد البطال على رأس تلّ عال فى حدّ تخوم البلاد (راجع معجم البلدان لياقوت فى كلامه على نيقية) .

الاجتماعات الستة التى تذكرها الروم فى كلامهم وتسمّيها القوانين ، ومعنى هذه الاجتماعات السُّنودسات واحدها سونودس . فالأوّل بنيقيَة وكان الاجتماع فيه على أرنوس ، وهذا آتفاق من سائر أهل دين النصرانية . والسُّنودس الثانى بقسطنطينية على مقدونس ، وعِدّة المجتمعين فيه من الأساقفة مائة وخمسون رجلا . والثالث بأفسيس وعِدّة مَن آجتمع فيه من الأساقفة مائة رجل . والرابع بخلقدونية[1] وعددهم ستمائة وستون رجلا . والخامس بقسطنطينية وعددهم مائة وستة وأربعون رجلا . والسادس كان فى [ملكة[2]] المدن ، وعِدّتهم مائتان وثمانون رجلا .

قال : وكان السبب فى دخول قسطنطين فى دين النصرانية أنه خرج فى بعض حروب أبرجان أو غيرهم من الأمم ، فكانت الحرب بينهم سجالا نحوا من سنة ، ثم كانت عليه فى بعض الأيام فقُتل من أصحابه خلق كثير وخاف البوار فرأى[3] فى نومه كأنّ رماحا نزلت من السماء فيها عَذَب[4] وأعلامٌ على رأسها صُلبان من الذهب والفضة والحديد والنحاس وأنواع الجواهر والخشب ، وقيل له : خذ هذه الرماح وقاتل بها عدوّك تنتصر ، فجعل يحارب فى النوم فرأى عدوّه قد آنهزم ؛ فآستيقظ من نومه ودعا بالرماح وركّب عليها الصُّلبان مثل ما رأى ، ورفعها فى عسكره وزحف إلى عدوّه فكسرهم وأخذهم السيف ، فرجع إلى مدينة نيقيَة وسأل عن تلك الصُّلبان وهل يعرفون ذلك فى شىء من الآراء والنِّحَل ؟ فقيل له : إنّ بيت المقدس من أرض الشام يجمع هذا المذهب ، وأخبروه بما فعله مَنْ قبله من الملوك من قتل

---

(١) هكذا فى مروج الذهب للسعودى ، وفى نسختى ا ، ب « بخلفورية » .

(٢) التكملة من مروج الذهب للسعودى .

(٣) كذا فى مروج الذهب . وفى الأصول : « فأرى » .

(٤) عذب : جمع عذبة ، وعذبة الرمح خرقة تشدّ على رأسه .

النصارى ، فبعث إلى الشام و بيت المقــدس وحشر له ثلثمائة وثمانية عشر أسقفا فأتوه بنيقية فقص عليهم أمره فشرعوا له دين النصرانيّة ؛ فهذا هو السّنودس الأول.

وقيل : إنّ أمه كانت قد تنصّرت وأخفت ذلك عنه قبل هذه الرؤيا . وكان ملكه إلى أن هلك إحدى وثلاثين سنة ، وقيل خمسا وعشرين .

٥ ثم ملك بعده قُسْطنطين بن قُسْطنطين . فكانت مُدّة ملكه أربعا وعشرين سنة. وآبتنى كنائس كثيرة وشيّد دين النصرانية .

ثم ملك بعده آبن عمه بوليانس (١) المعـروف بالحُنَيفى ويسمّى البِرْباط . قال : ولمـا ملك رجع عن دين النصرانية وغيّر رسـومها وغزا العـراق فى ملك سابور بن أردشير فأتاه سَهْم غَرْبٍ (٢) فذبحه . ولمّـا هلك جَزَع مَن كانـ معه من المـلوك

١٠ والبطارقــة ففزعوا إلى بِطْريق كان معظَّما عندهم يقال له يونياس (٣) ، وقيل : إنه كان كاتبا للملك المـاضى ، فأبى عليهم إلّا أن يرجعوا إلى دين النصرانية ، فأجابوه إلى ذلك فملّك عليهم يونياس المذكور .

قال : ولمّـا ملَك كان له مراسلات مع سابور ومُهادنة وآجتماع ، ثم آنصرف بجيوش النصرانيّة موادعا لسابور وأخلَف عليه ما أتلَف الملك المـاضى من أرضه

١٥ بأموال حَمَلها إليه وهدايا من ألطاف الروم ، وشيّد النصرانيّة وأعاد معالمها ، ومنع من عبادة الأصنام والتماثيل ، وقتَل مَن كان على عبادتها . فكان مُلْكه سنة .

---

(١) كذا فى مروج الذهب للسعودى ، وفى نسخة أ « بقرياس » وفى نسخة ب « لقيانس » .

(٢) سهم غرب ، بالإضافة وعلى الوصف ، : أى لا يدرى راميه .

(٣) فى مروج الذهب للسعودى : « مريناس » .

ثم ملك بعده أوالس قال : ولمّا ملك كان على دين النصرانيّة ثم رجع عنه ، وهلك فى بعض حروبه ، فكان مُلْكه الى أن هلك أربع عشرة سنة . وقيل : إن فى أيامه آستيقظ أهل الكهف .

ثم ملك بعده غراطيانس[(1)] . فكانت مدّة مُلْكه خمس عشرة سنة ، ولسنة من مُلْكه كان آجتماع النصرانيّة ، وهو آخر الاجتماعات ، فأتمّوا القول فى روح القدس ، وهو السُّنودس الثانى .

ثم ملك بعده بدرسيس الأكبر ، وتفسير هذا الآسم عطيّة الله . قال : ولما ملك قام بدين النصرانيـة وعظّم أمرها وآبتنى الكنائس ، ولم يكن من أهل بيت المقدس ولا من الروم ، بل كان أصله من الأشبان ، وهم بعض الأمم السالفة . قال : وقد كانت ممن ملكت الشام ومصر والمغرب والأندلس . وقد تنازع النـاس فيهم ، فذكر الواقدىّ فى كتاب فتوح الأمصار أنّ بدءهم من أهل أصبهان ، وأنهم ناقلة من هنالك ، وهذا يُوجِب أنهم من قِبَل ملوك فارس .

قال : وذكر عُبَيد الله بن خُرّدَاذْبَه نحو ذلك ، وساعدهما على ذلك جماعة من أهل السِّيَر والأخبار .

قال المسعودىّ : والأشهر من أمرهم أنهـم من ولد يافث بن نوح ، وهم اللذارقة ملوك الأندلس واحدهم لَذْرِيق ، وقد تُنُوزِع فى دياناتهم ، فمنهم من رأى انهم على دين المجوس ، ومنهم من رأى أنهم على مذهب الصابئة وغيرهم من عَبَدَة الأصنام . قال : وكان مُلْك بدرسيس الى أن هلك تسعَ عشرةَ سنة .

ثم ملك بعده أوقاديس[(2)] . فكان مُلْكه أربعَ عشرةَ سنة [وكان][(3)] على دين النصرانية .

(١) فى مروج الذهب : (ج ١ ص ٥ ١ ٥ طبع بلاق) : « غراطمفامس » .
(٢) فى مروج الذهب : (أوباديس) . (٣) التكلة من مروج الذهب .

ثم ملك بعده بدرسيس الأصغر، وذلك بمدينة أفسس، وجمع مائتى أسقف وهو الاجتماع الثالث من الأسنودسات، ولعن فيه نسطورس البطرك، وإليه تنسب النسطوريّة من النصارى . وكان مُلْك هذا الملك الى أن هلك اثنتين وأربعين سنة .

٥ ثم ملك بعده مرقياقس [(١)] وزوجته بلجاريا . فكانت ملكة معه . وكان مُلْكهما سبع سنين، وفى أيامهما كان خبر اليعاقبة ووقوع الخلاف بينهم فى الثالوث . قال: وأكثر اليعاقبة من النصارى بالعراق وتكريت والموصل والجزيرة ومصر وأقباطها إلا اليسير فإنهم مَلَكيّة ، والنوبة والأرمن يعاقبة ؛ ومطران اليعاقبة بين الموصل وبغداد وتكريت، وكان لهم بالقرب من رأس عين [(٢)] واحد فمات، وانتقل مطرانها ١٠ الى بلاد حلب وقِنَّسْرين والعواصم .

قال المسعودىّ : وكرسى اليعاقبة [رسمه [(٣)]] أن يكون بمدينة أنطاكية، وكذلك لهم كرسى بمصر .

ثم ملكا بعدهما ليون الأصغر بن ليون . فكان ملكه ستَّ عشرةَ سنة، وفى أيامه أحرم مسبعدة [(٤)] اليعقوبىّ بطرك الإسكندرية ، واجتمع له من الأسقافة ستمائة وثلاثون ١٥ أسقفا . وفى تاريخ الروم أنّ عدّة المجتمعة ستمائة وستون رجلا، وذلك بخلقدونية، وهذا الاجتماع هو السُّنودس الرابع عند الملكية . واليعاقبة لا تعتدّ بهذا السنودس .

---

(١) فى مروج الذهب : (مرقيانوس) .

(٢) رأس عين : مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ودنيسر، وبينها وبين نصيبين خمسة عشر فرسخا ، وقريب من ذلك بينها وبين حران وهى إلى دنيسر أقرب بينهما نحو عشرة فراسخ ٢٠ (راجع معجم البلدان لياقوت) .

(٣) التكملة من مروج الذهب للسعودى .

(٤) كذا فى مروج الذهب، وفى الأصول (أخرج لسفره ...) وهو تحريف .

قال : واليعاقبة أضيفتْ الى يعقوب البرذعىّ وبه عُرِفت، وكان من أهل أنطاكية، وكان يعمل البراذع بها .

ثم ملك بعده ابنٌ له على دين الملكية . فكانت مدّة مُلْكه الى أن هلك سنة .

ثم ملك بعده بير وهو من بلاد الأَرْمِينان، وكان ملكه سبعَ عشرةَ سنة، وكان يَميــل الى رأى اليعاقبة، وكان له حروبٌ مع خَوارجَ خرجوا عليــه فى دار مُلْكه فظفِر بهم .

ثم ملك بعده نسطاس، وكان يذهب الى مذهب اليعاقبة، وهو الذى بنى مدينة عَمُّورِيّة، وأصاب كنوزا ودفائن عظيمة . وكان ملكه تسعا وعشرين سنة .

ثم ملك بعده نوسطيانس تسع سنين .

ثم ملك بعده سطيانس . فكان ملكه تسعا وثلاثين سنة، وبنى كنائس كثيرة، وشــيّد دين النصرانيّة وأظهر مذاهب الملكية، وبنى كنيسة الرُّها، وهى إحدى عجائب مبانى العالَم .

قال : وقدكان فى هــذه الكنيسة مِنْديل يعظّمه أهل دين النصرانية، وهو أن اليسوع الناصرىّ حين أُخرج من ماء المعموديّة نُشِّف به، فلم يزل هذا المنْديل يُتَداوَل الى أن قرّ على كنيسة الرُّها، فلمّا آشــتدّ أمر الروم على المسلمين وحاصروا الرُّها فى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة أعطى هذا المنديل للروم فوقعت الهدنة عليه، وفرح الروم به فرحا عظيما .

ولـمـا هلك هذا الملك ملك بعده قوسطيس وهو آبن أخيه، وكان ملكه الى أن هلك ثلاث عشرةَ سنة .

ثم ملك بعده طباريس . فكان ملكه أربع سنين، وأظهر فى مدّة ملكه أنواعا من اللباس والآلات وآنية الذهب والفضة وغير ذلك من آلات الملوك .

ثم ملك بعده مورقيس، وقيل فيه موريقس . فكانت مدّة ملكه عشرين سنة، وهو الذى نصر كسرى أبرويز على بهرام جوبين على ما قدمناه ، ثم قتل وآنتصر أبرويز لولده وبعث بجيوش الفرس، وكانت له حروب ذكرناها .

ثم ملك بعده قرقاس[1] . فكان ملكه الى أن قتل أيضا ثمانى سنين .

ثم ملك بعده هِرَقْلُ وكان بطريقا فى بعض الجزائر قبل ذلك . قال : ولمّا ملك عمّر بيت المقدس وذلك بعد آنكشاف الفرس عن الشام، وبنى الكنائس . ولسبع سنين خلت من ملكه كانت هجرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ذكر ملوك الروم بعد ظهور الإسلام

قال المسعودىّ : وجدتُ فى كتب التواريخ تنازُعا فى مولد النبىّ صلى الله عليه وسلم وفى عصر مَن كان من ملوك الروم، فمنهم من ذهب الى ما قدّمناه ، ومنهم من رأى أنّ مولده صلى الله عليه وسلم كان فى مُلْك نوسطينوس . وكان ملكه سبعا وعشرين سنة .

ثم ملك بعده نوسطينوس الثانى، وكان ملكه عشرين سنة .

ثم ملك بعده هِرَقْلُ بن نوسطينوس ، وهو الذى ضرب الدنانير والدراهم الهِرَقْلِيّة . وكان ملكه خمس عشرة سنة .

ثم ملك بعده آبنه مورق بن هِرَقْل ، وهو الذى كتب الزِّيجات فى النجوم، وعليه يَعمَل أهل الحساب . وفى تواريخ ملوك الروم فيمن سلف وخلف أنّ المَلِك

(١) فى مروج الذهب : (قرماس) بالميم .

للروم كان فى وقت ظهور الإسلام وخلافة أبى بكر وعمر هِرَقْلُ . وليس هذا الترتيب فيما عداها من كتب تواريخ أهل السِّيَر . وفى تواريخ أصحاب السِّيَر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم هاجر وملك الروم قيصر بن فوق .

ثم ملك بعده قيصر بن قيصر ، وذلك فى أيام أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه .

ثم ملك بعده هرقل بن قيصر فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وهو الذى حاربه أمراء الإسلام الذين فتحوا الشام على ما نذكره إن شاء الله تعالى فى خلافة عمر رضى الله عنه .

ثم ملك بعده مورق بن هِرَقْل فى خلافة عثمان بن عفّان رضى الله عنه .

ثم ملك بعده فوق بن مورق فى خلافة علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وأيام معاوية بن أبى سفيان .

ثم ملك بعده فلقط(١) بن مورق بقيّة أيام معاوية بن أبى سفيان ، وكانت بينهما مراسلات ومُهادنات ، وكان مُلْكه فى آخر أيام معاوية وأيام يزيد آبنه ومعاوية آبن يزيد ومَرْوان بن الحكم وصَدْرا من أيام آبنه عبد الملك بن مَرْوان .

ثم ملك بعده لاوِى(٢) بن فلقط فى بقيّة أيام عبد الملك بن مروان .

ثم ملك بعده جيرون بن لاوِى فى أيام الوليد بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك أخيه وعمر بن عبد العزيز ، ثم آضطرب مُلْك الروم لما كان من أمر مَسْلَمة بن عبد الملك بن مروان وغَزْو المسلمين لهم فى البرّ والبحر ، فملّكوا عليهم رجلا من غير

---

(١) فى مروج الذهب : (قلفط) بالقاف .
(٢) فى مروج الذهب : (لاون) .

أهل بيت المُلْك من أهل مَرْعَش[1] يقال له جرجس[2]. فكان مُلْكه تسع عشرة سنة. ولم يزل مُلْك الروم فى آضطراب الى أن مَلَك عليهم قسطنطين بن اليون، وذلك فى خلافة أبى العباس السفّاح وأبى جعفر المنصور.

ثم ملك بعده اليُون بن قُسطنطين، وكانت أمّه أرسى مالكةً معه ومشاركةً له فى المُلْك لصغر سنّه. وملك فى أيام المهدى والهـادى.

ثم ملك بعده قسطنطين بن اليون بن قسطنطين، وكانت أمّه مشاركة له وسملت عيناها بعد موته.

ثم ملك بعده نقفور بن استبراق، وكان لهـذا الملك مراسلاتٌ وحروبٌ مع الرشيد، وغزاه الرشـيد فأعطى القَـوَد من نفسـه من بعد بَغْى كان منـه فى بعض مراسلاته، فآنصرف الرشيد عنه ثم غدر ونَقَض ما كان أعطاه من الآنقياد، فكتم الرشيد أمره لعارض عِلّة كان وَجَدَها بالرَّقّة[3]، ثم تجهّز وغزاه فنزل على هِرَقْلَة[4]، وذلك فى سنة سبعين ومائة، فحاصرهما سبعةَ عشرَ يوما فأصيبَ خلقٌ من المسلمين وفَنِيتْ الأزواد والعلوفات، ثم فتحها عَنْوة. وقيل: إنهم بادروا لـمّـا فَتَحها بطلب الأمان فأُمِّنوا. والأشهر أنه فتحها عَنْوة.

ثم ملك بعـده استبراق بن نقفور بن استبراق. وكان مُلْكه فى أيام الأمين، ولم يزل ملكا حـتى غَلَب على المُـلْك قسطنطين بن فلقط، وكان مُلْكه فى خلافة المأمون.

---

(١) مرعش: بلدة من الشام. (٢) فى مروج الذهب: «جرجيس».

(٣) الرقة: مدينة على الفرات من ديار مضر، ويقال لها: «الرافقة».

(٤) هرقلة: هى فى شرقى نهر ينزل من جبل العلايا الى آخر سنوبة، وهى عليـه فى قرب البحر، وفى شرقيها جبل الكهف عند الروم.

ثم ملك بعـده توقيل وذلك فى خلافة المعتصم، وهو الذى فتح زِبطرة[1] وغزاه المعتصم بعد فتح عَمُّورِيّة .

ثم ملك بعده ميخائيل بن توقيل، وذلك فى خلافة الواثق والمتوكّل والمنتصر والمستعين ، ثم كان بين الروم تنازُعٌ فى الملك ، فملّكوا عليهم توقيل بن ميخائيل ابن توقيل .

ثم غلب على الملك بسيل الصقلبىّ[2] ولم يكن من أهل بيت الملك . وكان مُلْكه فى أيام المعتزّ والمهتدى و بعضِ أيام المعتمد .

ثم ملك بعده اليون بن بسيل . فكان مُلْكه بقيّة أيام المعتمد وصَدْرا من أيام المعتضد الى أن هَلَك .

ثم ملك بعده الإسكندروس فلم تَحمد الروم أمره فخلعوه .

وملّكوا عليهم أخاه لاوى بن اليون بن بسيل الصقلبىّ . فكان ملكه بقيّة أيام المعتضد وأيام المكتفى وصَدْرا من أيام المقتدر .

---

(١) زبطرة : ضبطها ياقوت بكسر الزاى ، وضبطها صاحب تقويم البلدان بفتحها وفتح الباء وسكون الطاء . قال ابن حوقل : وأما زبطرة فإنهـا حصن من أقرب الثغور الى بلد الروم ، خربهـا الروم . وقال صاحب تقويم البلدان : وزبطرة اليـوم خراب خالية من الزرع والسكان ولم يبق منهـا غير رسم سورها وليس بالكثير ، وهى فى أرض مستوية والجبال تحيط بها والشعرة من جميع جهاتها على القرب منهـا وهى فى الجنوب عن ملطية على نحو مرحلتين ، وهى فى جهة الغرب عن حصن منصور على مرحلتين أيضـا و بينها و بين حصن منصور الجبل والدربند ، ولقد اجتزت بها فى عام فتحنا ملطية فى المحرم سنة خمس عشرة وسبعمائة وكان فى شهـر نيسان واصطدنا من أرض زبطرة بين شجـر البلـوط صيودا كثيرة وهى أرانب كبار الى الغاية لا يوجد فى الشام أرانب تقاربهن فى القدر . (راجع تقويم البلدان ص ٢٣٤ طبع أوربا) .

(٢) كذا فى الطبرى (ص١٨٥٨، ١٨٥٩ من القسم الثالث طبع أوربا) ومروج الذهب للمسعودى . وفى الأصول : « الصقلى » .

ثم هلك وخلّف ولدا صغيرا يقال له قسطنطين فملك وغلب على مشاركته فى الملك أرمنوس بطريق البحر صاحب حربه . قال : فزوّج قسطنطين الصبىّ بآبنته ، وذلك فى بقيّة أيام المقتدر وأيام القاهر والراضى والمتقى ، وذلك فى سنة آثنين وثلاثين وثلثمائة .

٥ قال المسعودىّ : فملوك الروم فى هذا الوقت ثلاثة ، فالأكبر منهم والمدبّر للأمور أرمنوس المتغلّب على المُلْك ، ثم قسطنطين بن لاوى بن اليون بن بسيل ، والثالث آبنٌ لأرمنوس يُخاطَب بالمَلِك آسمه اسطفانس وجعل أرمنوس آبنا له آخر صاحب الكرسىّ بالقسطنطينية ، وهو البطريك الأكبر الذى يأخذون عنه دينهم ، وقد كان خصاه قبل ذلك أبوه وقرّبه الى الكنيسة . وهذا آخر من ذكره المسعودىّ ١٠ من ملوك الروم ولم نجد من ضبط أمرهم بعده على آتساق فنذكره .

قال : فعدّة ملوك الروم المتنصّرة من قسطنطين بن هلاى الذى أظهر دين النصرانيّة بالروم الى هذا الوقت أحد وأربعون ملكا ، ولم يعدّ [ابن](١) أرمنوس . وسنيهم خمسمائة سنة وسبع سنين .

وقال فى ملوك رُومِيَة : والذى وجدت فى أكثر كتب التواريخ مما آتفقوا ١٥ عليه أن عدّة ملوك الروم الذين ملكوا مدينة رُومِيَة ، وهم الذين ذكرهم فى كتابه وذكرناهم نحن فى كتابنا هذا ، تسعة(٢) وأربعون ملكا ، وجميع عدد سنى مُلْكهم ، من أول مَن مَلَكهم على حسب ما ذكرناه من الخلاف فى صدر هذا الفصل إلى قسطنطين ابن هلاى ، أربعمائة سنة وثلاثون سنة وسبعة أشهر وستة أيام . والله أعلم .

---

(١) التكملة من المسعودى .

٢ (٢) فى المسعودى : (اثنان وأربعون) .

ذكر أخبار ملوك الصَّقَالِبَة والنُّوكَبَرْد

قال المسعودىّ : الصقالبة من ولد ماراى بن يافث بن نوح ، وإليـه يرجع سائر أجناس الصقالبـة وبه يُلْحَقُون فى أنسابهم . ومنهم من ينقاد إلى دين النصرانيّة اليعاقبة ، ومنهم من لا كتابَ له ولا ينقاد إلى شريعة . وهم أجناس : فنهم جنس كان المُلْك فيهم قديما فى صَدْر الزمان ، وكان مَلِكهم يُدعَى ماجك ، وهذا الجنس يدعى لبنانا[1] ، وكان يتلو هذا الجنس قديما فى صَدْر الزمان سائر أجناس الصقالبة وهم اصطبرانة ، ومَلِكُهم يُدعَى بصقلابح . وجنسٌ يقال له ناجين ، ومَلِكُهم يدعى عرابة[2] ، وهذ الجنس أشجعُ الصقالبة ، وجنس يدعى مناى[3] ، وملكهم رتبيل ، ثم جنْس يقال له سِرْتين ، وهو جنْسٌ مَهيبٌ عنـدهم ، ثم جِنْسٌ يقال له مراوة ، ثم جروانيق وصاصِين وخشانين وزانجابين .

قال : والجنْس الذى يُدعَى سِرتين يحرقون أنفسهـم بالنار ، وإذا مات لهم ملك أو رئيس يحرقونه ويحرقون دوابّه ، ولهم أفعالٌ كأفعال الهند .

قال : ومن الصقالبة جِنْسٌ ٱلتحق بالخَزَر والروس . قال : والأوّل من ملوك الصقالبة ملك الدير ، وله مُدُن واسـعة وعمائر كثيرة ، وهو يحارب الروم والفرنج والنوكبرد وغيرهم من الأمم ، والحـرب بينهم سِجَال : ثم يلى هـذا الملك من بلاد الصقالبة ملوك الترك . قال : والصقالبة أجناس كثيرة ، ثم اختلفت الكلمة بين أجناسهم فزال نظامهم وملّك كلّ جِنْس منهم عليهم ملكا .

هذا ما أورده المسعودى من أخبار الصقالبة . والله أعلم .

(١) فى المسعود : (ج ٣ ص ٦٢ طبع أوربا) « ولينانا » .

(٢) فى المسعودى طبع أوربا : «عزنة» .

(٣) فى المسعودى : « منابن » .

* * *

وأما النُّوكَبَرْد فقال المسعودىّ فيهم : إنهم أيضا من ولد يافث و بلادهم متّصلة ببلاد المغرب ، ولهم جزائر كثيرةٌ فيها أممٌ من الناس . وهم ذو بأس شديد ومَنَعَة، ولهم مُدُنٌ كثيرةٌ ويجمعهم بلدٌ واحدٌ .

قال : وأسماء ملوكهم فى سائر الأعصار أريكس ، والمدينة العُظْمَى من مُدُنهم ودار مملكتهم تُبّت[(1)] وهى مدينــةٌ عظيمةٌ يخترقها نهر عظيم من أعظم الأنهار آسمــه سابيط والمدينة على جانبيه .

٨٨
١٣

قال : ومن مُدُنهم التى كان المسلمون ببلاد الأندلس قد غلبوهم عليها وسلبوها منهــم وسكنوها ثم آستعادها النُّوكَبَرْد بعد ذلك من المسلمين مدينــة تارة ومدينة ظارينو ومدينة ســيرنية ، ولم يذكُر من أمرهم خلافَ ذلك فنذكره .

ذكر خبر ملوك الإفرنجة والجلالقه

قال المسعودىّ[(2)] : لاخلافَ أنّ الإفرِنْجةَ والجلالِقَة والصقاليةَ والنُّوكَبَرْد والأسبان والترك والخــزَر و بُرْجان واللان و يأجوج ومأجوج وغيرَ مَن ذكرنا ممن سكن بلاد الشمال من ولد يافث بن نوح .

قال : والإفرنجةُ أشــدّ هؤلاء الأجنــاس بأسا ، وأمنعُهــم وأكثرُهم عُدّة ، وأوسعُهم مُلْكا ، وأحسنُهم نظاما ، وأنقيادا لملوكهم ، وأكثرُهم طاعةً .

قال : والجلالقةُ أشــدُّ من الإفرنجة وأعظمُ منهم نِكايةً . والرجلُ الواحدُ من الجلالقة يقاوم عِدّة من الإفرِنْجة . ثم قال : وكلمة الإفرنجة متّفقةٌ على مَلِك واحد

(١) كذا فى المسعودى (ج ١ ص ١٩٧ طبع بلاق) ووردت فى الأصول هكذا : «ينبت» .
(٢) راجع (ج ١ ص ١٩٦ طبع بلاق) .

لا تنازع بينهم فى ذلك ، ومُدُنهم تزيد على مائة وخمسين مدينة غير الكُور . وكانت أوائل بلادهم قبل ظهور الإسلام فى البحر فى جزيرة رودس وجزيرة إقريطش ، ثم ملكوا بلاد الغرب وآستولوا عليها .

قال : وأوّل ملوك الإفرنجة قلويا (١) وكان مجوسيًا فنصّرته آمرأته عرضلة .

ثم ملك بعده آبنه لذريق .

ثم ملك بعده آبنه دفسوت (٢) .

ثم ملك بعده آبنه قادله .

ثم ملك بعده آبنه ببيق .

ثم ملك بعده قادله . وكانت ولايته ستّا وعشرين سنة ، وذلك فى أيّام الحَكَم صاحب الأندلس ، وتدافع أولادُه بعده ووقع الآختلاف بينهم حتى تفانت الإفرنجة بسببهم .

وسار لذريق بن قادله فملك ثمانيا وعشرين سنة وستة أشهر ، وهو الذى أقبل إلى طرطوشة فحاصرها .

ثم ملك بعده قادله بن لذريق تسعا وثلاثين سنة وستّة أشهر .

ثم ملك بعده آبنه لذريق ستّة أعوام ، ثم خرج عليه قائدٌ للإفرنجة يسمّى يُوسَة فملك الإفرنجة وأقام فى الملك ثمانى سنين . وهو الذى صالح المجوس على بلده سبع سنين بستمائة رطل ذهبا وستمائة رطل فضّة يؤدّيها صاحب الإفرنجة إليهم .

(١) فى المسعودى طبع أوربا : « قلودية » .

(٢) فى المسعودى طبع أوربا : « دقشرت » .

قال : وليستْ هذه بَرْبَرَا هي التي تُنسَب إليها البرابرة الذين بالمغرب من أرض إفريقية . قال : ولباسُ هؤلاء الزَّنْج جلود النمورة ، وهي جلودٌ كبيرةٌ تُحمَل من أرضهم الى بلاد الإسلام . قال : وأقاصى بلاد الزنج بلاد سفالة وأقاصيه بلاد الواق واق ، وهي أرض كثيرةُ الذهب كثيرةُ العجائب والخصب ، حارّة . وآتّخذ بها الزنج دار مملكة وملّكوا عليهم مَلِكا آسمه « وَقْلِيمى » وهي نسبةٌ لسائر ملوكهم في سائر الأعصار . ٥

٨٩/١٣ قال : ويركب وَقْلِيمى وهو ملك من ملوك الزنج في ثلثمائة ألف راكب ، ودوابّهم البقر ، وليس في أرضهم خيلٌ ولا بغالٌ ولا إبلٌ ولا يعرفونها ، وإنما يركبون البقر بالسروج والُّلجُم ، ويقاتلون عليها وهي تعدو بهم كالخيل .

قال المسعودىّ : رأيتُ بالرىّ نوعا من هذه البقر تبرك كما يبرك الجملُ وتحمِل وتثُور بأحمالها ، وتحمل عليها الميتة من الخيل والإبل وغيرها فتنهض بحملها . والغالبُ على هذا النوع من البقر حُمْرة الحدَق وسائر البقر تنفر منها . قال : ولا يقع البرْدُ في بلاد الزَّنْج . قال : ومنهم ناسٌ مُحدَّدو الأسنان يأكل بعضُهم بعضا . قال : ومساكن الزَّنْج من حدّ الخليج المشعَّب من أعلى النيل الى بلاد سفالة والواق واق ، ومقدار مسافة مساكنهم وآتصالها في الطول والعرض سبعمائة فرسخ : برٌّ وأوديةٌ وجبالٌ ورمالٌ . ١٠

قال المسعودىّ : ومعنى تسمية ملك الزنج « وقْلِيمى » أى آبن الربّ الكبير ؛ لأنه آختارهم لملكهم والعدل فيهم ، فمتى جار الملك عليهم في حُكمه أو حادَ عن الحقّ قتلوه وحرّموا عَقِبَه المُلْك . وزعموا أنه إذا فعل ذلك فقد بَطَل أن يكون آبن الربّ الذى هو ملك السماء والأرض ، ويسمّون الخالق عزّ وجلّ (مكليجو) وتفسيره الربّ الكبير . ٢٠

قال : والزَّنج أولو فصاحةٍ فى ألسنتهم وفيهم خطباءُ بلغتهم؛ يقف الرجلُ الزاهدُ منهم فيخطب على الخلق الكثير منهم يرغّبهم فى القُرْب من ربّهم ويبعثهم على طاعته، ويُرهبهم من عقابه، ويذكّرهم مَن سَلَف من ملوكهم وأسلافهم، وليس لهم شريعةٌ يرجعون اليها بل رسومٌ لملوكهم، وأنواعٌ من السياسات يرجعون اليها ويَسُوسُون بها رعيّتهم ، وأكثرُ أكلهم المَوْز ، وهو كثيرٌ ببلدهم ، وغالبُ أقواتهم الذُّرَة ونَبْتٌ يقال له الكلارى (١) يُقتلَع من الأرض كالكَمْأة والراسن، ويأكلون العسَل واللحم .

قال : ومَن هَوَى منهم شيئا من نباتٍ أو حيوانٍ أو جمادٍ عَبَده . وجزائرُهم لا تُحصَى كثرةً وفيها النارْجِيل .

وأمّا النُّوبة وما قيل فيها فٱفترقَتْ فرقتين فى شرقىّ النيل وغربيّه. وأناخت على شطّيه وٱتّصلتْ ديارُها بديار مصر، وٱتّسعتْ مساكنُها على شاطئ النيل مُصعدةً . ومدينتهم دُنْقُله . والفريق الآخر من النوبة يقال له عَلْوة وينزل مدينة الملك وٱسمها سُرْنة .

وأمّا البُجَة وما قيل فيها فإنّها نزلتْ بينَ بحر القُلْزُم ونيلِ مصر وتشعّبوا فِرَقا وملّكوا عليهم ملوكا، وفى أرضهم معادن الذهب . قال : وٱنضافَ إلى البُجَة طائفةٌ من العرب من ربيعة بن نزار بن معدّ بن عَدْنان وتزوّجوا من البُجَة .

وأمّا الحَبَشَة وما قيل فيها فإنّ دارَ مُلْكهم كَعْبَر، وهى مدينة عظيمة، وهى دارُ مملكة النجاشىّ . وللحَبَشة مُدُنٌ كثيرةٌ وعمائرُ واسعةٌ، ويتّصل مُلْك النجاشىّ بالبحر الحَبَشىّ، وله ساحلٌ فيه مدينــةٌ كبيرةٌ، وهو مقابلٌ لبلاد اليمن . فمن مُدُن الحبشة

(١) فى المسعودى : « ويشبه هذا الكلارى القلقاس الذى يكون بالشام ومصر » .

على الساحل : الزَّيْلَع والدَّهْلَك وناصِع ، وفى هذه المُدُن جماعةٌ من المسلمين إلّا أنهم فى ذمّة الحبشة .

قال : وبين ساحل الحبشة ومدينـة غَلافقة ، وهى ساحل زبيد من أرض اليمن ، ثلاثة أيام عرض البحر . قال : ومنه عَبَرت الحبشـة الى اليمن حين ملكته فى أيام ذى نُوَاس ، وهذا الموضع هو أقلّ هذا البحر عرضا . ٥

قال : وهنالك جزائر بين الساحلين منها : جزيرة العقل فيها ماء يُشرب فيفعَل فى القـرائح والذكاء فعلا جميلا ، وبها جزيرة أسقطرة . وأما غير هؤلاء من الحبشة فنهم من أمعن فى المغرب مثل : الزَّغاوَة والكَوْكَوْ والقراقر ومديدة ومريس والمبرس والملانة والقوماطين ودُوَيْلة والقرمة . قال : ولكل طائفة من هـؤلاء الطوائف وغيرهم ملكٌ يرجعون اليه . ١٠

البـاب الرابـع

من القسم الرابع من الفنّ الخامس

فى أخبار ملوك العرب و يتّصل بهذا الباب خبر سَيْل العَرِم

٩٠
――
١٣

ذكر أخبـار ملوك قَحْطان

قال المؤرّخون : لم يكن للعرب مُلْك حقيقىّ ، و إنما كان من مَلَك حِمْير فى بلاد اليمن سُمِّى مَلِكا ، وقـد كانوا فى بعض الأوقات يخرجون من بلادهم و يَسِيحون فى الأرض حتّى بلغوا أقصى المغرب ، وبلغوا من حدود المشرق سَمَرْقَند ، و بلغوا باب الأبواب ، ودخلوا بلادَ الهند ولم يستقرّوا فى غير بلادهم ، فلا يُعدّ ذلك مُلْكا ، و إنما هو غارة .

فأوّلُ ملوك قَحْطانَ عبدُ شمس ، وهو سـبأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان ابن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح ، و إنما سُمِّى سبأ لأنه أوّل مَن أدخل بلاد اليمن السَّبْى . قال عبد الملك بن عَبْدون فى كتابه المترجم بكمامة الزهر(١) وصدفة الدرّ : إنّ عبـد شمس هـذا ملك أربعمائة سنة وأربعا وثمانين سـنة . قال : وقد اختلف فى أوّل مَن ملك منهـم ، فقيل يَعْرُب بن قَحْطان . قال : وهو أوّل من نطق بالعربيـة ، وأوّل مَن حيّاه ولده بتحية الملكَ : أَبَيْتَ اللَّعن ، وأَنْعِم صباحا . والأشهر أنّ عبد شمس سبأ هو أوّل ملوكهم. والله أعلم .

ثم ملك بعده آبنه حِمْير بن سبأ ، قال : وكان أشجعَ الناس فى وقته ، وأفرسُهم وأجملهم . وقيل : إنه إنما سُمِّى حِمْير لكثرة لباسه الأحمر من الثياب ، وكان يلقَّب

(١) راجع (ص ٧٧ طبع أوربا) .

بالعَرَنْجج ، وهو أوّل مَن وضع تاجَ الذهب على رأسه من ملوك اليمن . وكان مُلْكه خمسين سنة ، وذلك فى عصر قَيْذار بن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

ثم ملك بعده أخوه كَهْلان بن سبأ . فكان مُلْكه إلى أن هلك ثلثمائة سنة .

وآختلف فيمن مَلَك بعده ، فقيل : ملك بعده أبو مالك بن عسكر بن سبأ . فكان ملكه ثلثمائة سنة . وقيل ملك بعد كَهْلانَ الرائشُ وهو الحارث بن شدّاد [(1)] ، وكان الحارث أوّلَ مَن غزا منهم ، وأصاب الغنائم ، وأدخلها اليمن ، و بينه و بين حِمْير خمسة عشر أباً ، وسُمّى الرائشَ لأنه لمّا أدخل الغنائمَ والأموالَ والسَّبْى بلادَ اليمن فراش الناسَ [فى أيامه] [(2)] . وفى عصره مات لقمانُ النسور . قال : وذكر الرائشُ هذا نبيّنا صلى الله عليه وسلم فى شعره ، فقال من قصيدته :

ويملك بعدَهم رجلٌ عظيمٌ ... نبيّ لا يُرخِّص فى الحرام
يسمّى أحمدًا يا ليتَ أنّى ... أعمَّر بعد مخرجه بعام

قال : وكان مُلْكه مائةً وخمسا وعشرين سنة . هكذا نقل عبد الملك بن عبدون وذكر الخلاف فى أبى مالك والرائش على ما ذكرناه . وأمّا غيرُه فإنه لم يذكر كَهْلان ابن سبأ ولا أبا مالك ، بل قال : إنّ حِمْير عهد إلى آبن آبنه المِلْطاط بن عمرو بن حمير . قال : وفى أيامه آنقرض مُلْك صحار وجاسم آبْنَىْ دارم و بادوا .

قالوا : ثم ملك بعده آبنه أَبْرَهَة و يقال له ذو المنار . قالوا : سُمّى بذلك لأنه أوّل من أقام المنار فى مغازيه على الطريق ، وذلك أنه أوغَلَ فى بلاد المغرب والسودان ، وآتّخذها ليهتدىَ بذلك فى قُفوله . وكان مُلْكه مائةً وثلاثين سنة ،

(١) كذا فى الأصول . وفى شرح قصيدة ابن عبدون الذى ينقل عنه المؤلف « سدر » وفى تاريخ الطبرى (ص ٤٤٠ من القسم الأوّل طبع أوربا) « آبن أبى سدد » .

(٢) التكلة من شرح قصيدة آبن عبدون .

وقيل مائة وثلاثا وثمانين سـنة . هكذا ذكر آبن قتيبة فى كتاب المعارف أن الذى ملك أبرهة . وقال المسعودى : إنّ الذى ملك بعد الرائش جبّار بن غالب بن زيد آبن كهلان وقال : إنّ مُلْكه كان مائة وعشرين سنة . والله أعلم .

ثم ملك بعـد أبرهة على ما ذكر آبن حمدون فى تذكرته آبنـه إفْرِيقِش ، وهو ذوا الأذعار . قال : سُمِّى بذلك لأنه خرج نحو بلاد المغرب وأوقع بقوم لهم خَلْقٌ منكرةٌ فذُعِر الناس منهم وفرّقوا . قال آبن عبدون : وغزا إفريقش بلاد المغرب حتى أتى طَنْجة ونقـل البربر من أرض فلسطين ومصر والساحل إلى مساكنهـم ببلاد المغرب . وكان البربر بقيّة مَن قَتَل يوشـع بن نون . قال : وإفريقش هو الذى بنى إفريقية وبه سُمِّيت .

٩١/١٣

ثم ملك بعـده آبنه العبد ويلقّب ذا الشناتر ، وهى الأصابع فى لغـة حِمْير . قال : وخرج نحـو العراق فآحتُضِر فى طريقه . هكذا ذكر آبن حمـدون . وقال عبد الملك : إنّ الذى ملك بعـد إفريقش أخوه العبـد بن أبرهة . قال : وهو ذو الأذعار ، سُمِّى بذلك لأنه كان فيما ذكر أهلُ الأخبار غزا بلاد النسناس فقتل منهم مقتـلةً عظيمةً ، ورجع إلى اليمن من سَبْيهم بقـوم وجوههم فى صـدورهم فذُعِر الناسُ منهم فسُمِّى بذى الأذعار . وكان مُلْكه خمسا وعشرين سـنة . وقد قدّمنا أنّ ذا الأذعار هو إفريقش . والله أعلم .

ثم ملك بعده الهدهاد بن عمـرو بن شُرَحْبِيل . هكذا قال آبن حمـدون والمسعودى ، إلّا أنّ المسعودى لم يذكر عمرا وقال الهدهاد بن شُرَحْبِيل . وسمّاه ابن قتيبة هدّاد بن شرحبيل بن عمرو بن الرائش ، وهو أبو بلقيس صاحبة سـليمان عليه السلام . وكانت مُدّة ملكه عشرين سنة ، وقيل سبعة ، وقيل ستة . وقد قدّمنا

خبر بلقيس وأنها ٱبنة ذى أَشْرَح ، وأنّ والدها لم يكن ملكا وإنما كان وزيرا لملك حمير وهو شراحى الحِمْيَرِىّ . والله تعالى أعلم .

وٱختُلِفَ فيمن ملك بعد الهدهاد، قال المسعودىّ : تُبّع الأوّل . وكان مُلْكه أربعمائة سنة . وقال ٱبن قتيبة أقلّ من ذلك، وقال: ملك بعد الهدهاد ٱبنته بلقيس وهى صاحبة سليمان بن داود عليهما السلام . وكان مُلْكُها مائةً وعشرين سنة . وقد أتينا على أخبارها فيما سلف من هذا الكتاب[1] فى قصّة سليمان عليه السلام .

ثم ملك بعدها ياسر بن عمرو بن شرحبيل وهو ناشِر النِّعم، قالوا : سُمِّى بذلك لإنعامه على العرب ، وكان شديد السلطان، وسار غازيا وأوغَل فى بلاد المغرب حتى بلغ وادى الرمل ولم يبلغه أحدٌ قبلَه ، وهو رَمْلٌ جارٍ، ولم يجد وراء ذلك مجازا لكثرة الرمل وجَرَيانه، فبينما هو مُقيم إذ ٱنكشف الرمل فأمرَ بعضَ أهلِ بيته أن يعبُرَ هو وأصحابُه فعبروا فلم يعودوا إليه وهلكوا عن آخرهم ، فأمر بصنم من نحاس فنُصِبَ على صخْرة عظيمة على شفير الوادى وكتَب على صدره بقلم المسنَد[2] : هذا الصنمُ لناشِر النِّعَم الحِمْيَرىّ ليس وراءه مذهبٌ ولا يتكلّفَنّ أحدٌ ذلك فيعطَب ، ورجع من هناك . وكان مُلْكه خمسا وثمانين سنة على رواية ٱبن قتيبة . وقال المسعودىّ : خمسا وثلاثين .

ثم ملك بعده أبوكرب شَمِر بن إفريقش ، ويسمَّى يرعش لٱرتعاشٍ كان به . قال : وخرج نحو العراق فى زمن بستاسف أحد ملوك الفرس فأعطاه بستاسف الطاعة ، وسار نحو الصين حتى نزل فى طريقه ببلاد الصغد ، فٱجتمع أهل تلك

(١) راجع (ج ١٤ ص ١١١ — ١٢٤) من هذه الطبعة .

(٢) المراد بالمسند : الخط الحميرى .

الأرض بمدينة سَمَرْقَنْد فأحاط بهم شَمِر وآفتتحها عَنْوة وأسرف فى القتل وخرّب المدينة وهدَمها فسمِّيت شَمِرْكَنْد، وعُرِّبت بعد ذلك فقالوا : سَمَرْقَنْد . ومعنى شمركند ، أى خرّبها شَمِر . وفيه يقول دِعْبِل بن علىّ يفتخر باليمن من قصيدة :

همُوا كتبوا الكتّاب بباب مَرْوٍ ... وبابِ الشاش(١) كانوا كاتبينا

٥ وهم سَمُّــوا بشَمْرٍ سَمَرْقَنْــدًا ... وهم غَرَسُــوا هنـاك التُّبَّتِينـا

قال : ولمـا فرغ من بلاد الصُّغْد سار نحو الصــين فأيقن مَلِكُهَا بالبَــوَار ، فآحتال وزيرٌ له بأن جَدَع أنفه وأتى الى شَمِر، وهو بمفازة بينها و بين الصين عشر مراحل ، ومتّ إليه بأن ملك الصين فعــل به ذلك لأنه نصحه ألّا يحارب شمر وخالف رأيه ، فسأله شمر عن الطريق والمــاء، فقال له : بينك و بين المــاء ثلاث ١٠ مراحل، فتزود لثلاثة أيام، فلمّا قطعها أعوزه المــاء وكشف له الرجل أمره فمات هو وأصحابه عطشا .

قال آبن قتيبة : وكانت مدّة مُلْكه مائةً وسبعا وثلاثين سنة . وقال المسعودىّ : ثلاثا وخمسين سنة .

ثم ملك بعده آبنه أبو مالك بن شمر ، قال : وتأهّب للأخذ بثأر أبيه فبلغه أنّ ١٥ بالمغرب واديا من الزبرجد، فحمله الشَّرَه على طلبه وترك ما عَزَم عليه فمات فى طريقه.

ثم ملك بعده آبنُــه تُبَّع الأقرن بن أبى مالك بن شمر . قال : وطلب ثأر جدّه وأتى سمرقند فعمَّرها وجدّد بناءها ، ثم أتى الصين وأخرب مدينتهــا وآبتنى هناك

(١) الشاش : مدينــة جليلة من عمل سمرقند ، وهى فى أرض سهلة وعامة دورها يجرى فيها المـاء ، وهى من أنزه بلاد ماوراء النهر . وفى معجم البلدان لياقوت أثناء كلامه على سمرقند روى البيتين هكذا :

٢٠ همــوا كتبوا الكتّاب بباب مرو ... وباب الصــين كانوا الكاتبينا

وهــم خربوا سمرقنــدا بشمــر ... وهــم غرســوا هنا التبتينا

مدينة أسكن فيها ثلاثين ألف رجل . قال الحمدونىّ فى كتابه المترجم بالتذكرة :
٩٢/١٣ هم إلى اليوم هناك فى زىّ العرب، ولهم بأس وشدّة — يعنى يوم صنّف كتابه
وهو فى سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة أو نحو ذلك — قال : وفى أوانه كان بَوَار
طَسْم وجَدِيس على ما نذكره فى وقائع العرب .

٥ قال : وفى أوانه أيضا كان سَيْلُ العَرِم وتفرّقُ سبأ . وسيأتى ذكر ذلك فى موضعه
إن شاء الله تعالى .

قال ٱبنُ قُتَيبة : وكان مُلْك تُبَّع الأَقْرَن ثلاثا وخمسين سنة . قال المسعودىّ : إنّ
مُلْكه كان مائةً وثلاثا وستّين سنة . ولم يذكرا المَلِك الذى كان قبله ، ونسبا هذا
المِلك أنه ٱبن شَمِر .

١٠ ثم ملك بعده على مارواه ٱبن حَمْدون — وهو إن شاء الله أشبه بالصواب — أسعد
ابن عمرو . قال : وملك والمُلْك متشتّت فٱستفزّ قومه فنهضوا معه فى ملوك اليمن
حتى قتلهم مَلِكا مَلِكا، وٱنتظم له مُلْك اليمن، فوجّه بٱبن عمّ له يقال له القَيْطون
إلى الحجاز فبغى وظلم فقتله اليهود . ولمّا بلغ أسعد ذلك غضب وحلف ليقتلنّ كلّ
يهودىّ فى الأرض، وتجهّز فى مائة ألف حتّى وَرَد يَثْرِبَ، فٱجتمعَ الأَوْسُ والخَزْرَجُ
١٥ وأخبروه بقصّة ٱبن عمّه وجَوْره وظُلْمه فعفا عن اليهود وقال: لستُ أرضَى بالظلم
ولو علمتُ ذلك منه لقتلتُه ، وأتاه بنو هُذَيل بن مدركة فرغّبوه فى الكعبة وما فيها
من الذهب والجَوْهر، فقدِمَ مكّة لذلك ، فٱجتمع إليه أحبارُ اليهود وقالوا : إنّ هذا
البيتَ العتيقَ الذى ليس لله عزّ وجلّ بيتٌ فى الأرض غيرُه وقد رامَ إفسادَه كثيرٌ
من الملوك فأبادهم الله . وفى هذه البلدة يكون مَوْلدُ نبىّ آخرِ الزمان ٱسمُه محمدٌ وأحمدُ
٢٠ من ولد إبراهيم الخليل عليه السلام ، وهو خاتَم الرسُل ، و إنّما أراد مَن دلّك على

ذلك هلاكَك ، فضرب أعناقَ الهُـذَليِّين وأقام بمكة ستّة شهور ينْحَـر فى كلّ يوم ألفَ ناقة ، وكسا البيت وعلَّق عليه بابا من الذهب .

ولمّـا هَلَك مَلَك بعـده ٱبنُ عمّه مَرْثد بنِ عَبْدِ كَلَال بن تُبَّع الأَقْرَن المعروف بذى الأعواد . قال : وكان مُلْكه أربعين سـنة . ولمّـا هَلَك مَلَك بعـده أولاده وكانوا أربعةً مشتركين فى المُلْك على كلّ واحد منهم تاجٌ . قال : وخرجوا إلى مكة ليقلعوا الحجرَ الأسـودَ ويبتنوا بيتا بصنعاء يكون حجّ الناس إليـه ، فاجتمعتْ كِنَانةُ وقلّدوا أمرهم فِهْرَ بنِ مالك وٱلتقَوْا فقُتِل ثلاثةٌ من الملوك وأُسِرَ الرابع .

ولمّـا أُسِر هؤلاء ملكتْ بعدهم أختهم أبضعةُ ٱبنةُ ذى الأعواد . قال : وكانت فاجرة فقتلها قومُها .

ثم ملك بعد أولاد ذى الأعواد مَلْيكيكَرِب بن عمرو بن سعد بن عمرو، وكانت مُدّة مُلْكه عشرين سنة ، وتحرَّج عن سَفْكَ الدماء فلم يَغْزُ ولم يخرُج من اليمن .

ثم ملك بعده تُبَّع أسعد بن ملكيكرب . قال : ولمّـا ملك غزا بنى معدّ بتهامة فى ثلثمائة ألفِ طالبا لدماء الملوك الأربعة ، وٱجتمع بنو معدّ وعَقَدوا الرِّياسة لأمية ابن عَوْف الكِنانىّ المعروف بالعنسىّ، ثم نَفَسَتْ ربيعةُ أن تكون الرِّياسة فى مُضَر فقعَدَت عنهم، فضَعُفَتْ مُضَر عن تُبّع وسألوه الصلح على أن يؤدّوا إليه عقلَ الملوك الأربعة ، عن كلّ ملكٍ ألفَ ناقة . وكذلك كانت دِيَة الملوك فى الجاهليّة . ودِيَاتُ مَن قُتِل معهم من الجنود لكلّ رجُلٍ مائة ناقة ، فقبِلَ تُبّع ما بذلوه وٱنصرف إلى أرضه ووقع الشرّ بين الحيّين : ربيعة ومُضَر، فأرسلَتْ ربيعةُ إلى تُبّع رُسُلا فعقَد بينهم حِلْفا وعَقْدًا، وهو الحِلْف الباقى بين ربيعةَ واليمن إلى أن جاء الإسلام . وأقام تُبّع هذا بأرض الشام ما شاء الله، ثم سار إلى الهند فى البحر و باشرَ الحربَ بنفسه فبرزَ

اليه مَلِك الهند ، وهو آبنُ فَوْز الذى قتل الإسكندر أباه فقتله تُبّع بيده، وتحصّنت اليهود بمدينتهم وحاصرَهم تُبّع شهرا حتى سألوه الأمان فآمنهم وقَفَل إلى بلاده .

ثم ملك بعده آبنُه حسّان بن تُبّع . قال : فغـزا العراق فى ثلثمائة ألف وأتى فى طريقه مكة ، وقد عادت إليها خُزَاعة عند وفاة فِهْرِ بنِ مالك ، فأعطاه بنو نِزَار الطاعة . ورُوِىَ عنه شعر يخبر فيه ببعثة نبيّنا صلى الله عليه وسلم : ٥

٩٣ / ١٣

شَهِـــدْتُ على أحمـــدَ أنّه رســـولٌ من الله بارِى النَّسَمْ

فلو مُدّ عُمْــرِى إلى عُمْـــرِه لكنتُ وزيرًا له وآبنَ عَمّ

قال : ولمّـا وَرَد العراق وَجَد الفُرْس وسلطانَهم واهٍ وقد مات هُرْمُز وولدت آمرأته غلاما ، وهو سابور ذو الأكتاف ، ومُرَبِّيــه أحدُ عظماء الفُرْس ، فلم يقُم بضبط المُلك ، فآستقبلوه بالطاعة وأقرّوا له بالخراج ، فأقام بالعراق حَوْلا وعزم على غَزْو الصين فساء ذلك حِمْير وقالوا : نَغيب عن أولادنا وعيالنا ولا ندرى ما يحدُث بهم ، فمَشَوْا إلى عمرو أخى حسّان الملك وبعثوه على قتل أخيه على أن يملِّكوه عليهم ويعود بهم الى بلادهم ، وأعطوه العهود والمواثيق إلّا رجلٌ يقال له ذو رُعَين ، فقال لهم : إنكم إن قتلتم مَلِكَكم ظلما خرج الأمرُ منكم فلم يحفِلوا به ، فأقبل بصحيفة مختومة وقال لعمرو بن تُبّع : لتكن هذه الصحيفةُ وديعةً لى عندك الى وقت حاجتى إليها ، وأقبل عمرو ليلا الى أخيه حسّان وهو نائمٌ فى فراشه فقتله وآنصرفتْ حِمْير الى بلادها . هكذا نقل آبن حمدون فى تذكرته . ١٠ ١٥

وقال أبوعلىّ أحمد بن محمد بن مِسْكويه فى كتابه المترجم بتجارب الأمم فى أخبار الفرس : إنّ ملك الفُرْس يومَ ذاك هو قُبَاذ بن فَيْروز وهو أبو كِسْرَى أنو شروان ، وإنّ الملك الذى غزاه من ملوك حمــير هو تُبّع والد حسّان ، وكان معه لمـا غزا ٢٠

الفُرْسَ ٱبنُه حسّان وٱبنُ أخيه شَمِـر . قال : فسار تُبّع حتى نزل الحِيرَة ووجّه ٱبنَ أخيه شَمِرا ذا الجناح الى قُبَاذ فقاتله فهزمه شَمِر حتى لحق بالرىّ، ثم أدركه بها فقتله .

قال : ثم إنّ تُبّعا أمضى شَمِرا ذا الجناح وٱبنَه حسّان إلى الصُّغْد وقال : أيّكما سبق إلى الصين فهو عليهـا . وكان كلّ واحد منهمـا فى جيش عظيم يقال إنهما ستمائة ألف وأربعون ألفا، وبعث ٱبن أخيه — وٱسمه يَعْفُر — إلى الروم .

قال : فأمّا يَعْفُـر فإنه سار حتى أتى القسطنطينية ، فأعطَوْه الطاعةَ والأتاوَة ومضى إلى رُومِيَة لحاصرها ، ثم أصابهم جوعٌ ووقع فيهم الطاعون فتفرّقوا ، وعلم الروم بذلك فوثبوا عليهم فلم يُفْلِت منهم أحدٌ .

وأمّا شَمِرٌ ذو الجناح فإنه سار حتى ٱنتهى إلى سَمَرْقَنْد لحاصرها فلم يَظْفَر منها بشئ، فلمّـا رأى ذلك طاف بالحَرَس حتى أخذ رجلا من أهلها فٱستمالَ قلبَه ثم سأله عن المدينـة ومَلِكها فقال : أمّا مَلِكُها فأحمقُ الناس ليس له همّ إلّا الأكل والشرب والجماع، ولكن له بنتٌ هى التى تقضى أمر الناس، فمنّاه ووعده حتى طابتْ نفسُه، ثم بعث معه هديّة إليها وقال : أخبرها أنى إنما جئتُ من أرض العرب للذى بلغنى من عقلها لتنكحنى نفسَها ، فأصيب منها غلاما يملك العرب والعجم ، وإنّى لم أجئ ألتمسُ مالا ، وإنّ معى من المـال أربعـةَ آلاف تابوت ذهبا وفضّة هاهنا ، وأنا أدفعها إليها وأمضى إلى الصين ، فإن كانت لى الأرض كانت ٱمرأتى ، وإن هلكتُ كان المـال لها . فلمّا ٱنتهت رسالته إليها قالت : قد أجبته فليبعث بالمـال ، فأرسـل إليها بأربعة آلاف تابوت، فى كلّ تابوت رجلان، وكان بسَمَرْقَنْد أربعةُ أبواب على كلّ باب منها أربعـةُ آلاف رجل . قال : وجعـل شَمِـرٌ العلامةَ بينه وبينهم أن يضرب لهم بالجُلْجُل، وتقدّم بذلك الى رُسُله الذين وجّههم، فلمّا صاروا

بالمدينة ضرب لهم بالجُلْجُل فخرجوا وأخذوا بالأبواب، ونَهِد[1] شَمِرٌ فى الناس فدخل المدينة وقتل أهلها، وآحتوى على ما فيها . ثم سار إلى الصين فلقِىَ الترك فهزمهم، وآنتهى إلى حسّان بن تُبّع بالصين فوجده قد سبقه إليها بثلاث سنين .

قال : وفى بعض الروايات وهى المجتمع عليها : إنّ حسّان وشَمِرًا آنصرفا فى الطريق الذى كانا أخذا فيه حتى قَدِما على تُبّع بما حازا من الأموال بالصين وصنوف الجوهر والطِّيب والسَّبْى، ثم آنصرفوا جميعا إلى بلادهم ، فكانت وفاة تُبّع باليمن . وكان مُلْكه مائة سنة و إحدى وعشرين سنة .

قال : وأمّا فى الرواية الأخرى فإنّ تُبّعا أقام وواطأ آبنه حسّان وآبنَ أخيه شمر أن يملكا الصين ويحملا إليه الغنائم ، ونَصَب بينه وبينهم المنار ، فكان إذا حَدَثَ حَدَثٌ أوقدوا النار، فأتى الخبر فى ليلة .

قال : وقد ذكر بعضُ الرُّواة أنّ الذى سار فى المشرق من التبابعة تُبّع الأخير، وهو تُبّع تبّان أسعد أبوكَرِب بن مليك بن زَيد بن عمرو بن ذى الأذعار ، وهو أبو حسّان . آنتهى ما أورده ابنُ مِسكويه من أخبارهم ، فلنرجع إلى مساق ما قدّمناه مما نقله آبن حمدون .

قال : ثم ملك بعده حسّانَ بن تُبّع أخوه ، فقتله عمرو بن تُبّع . قال : وآنصرفَ بالقوم إلى بلادهم فسلّط الله عليه السَّهَر فكان لا ينام ، فجمع الكَهَنة والقِيَاف والعرّافين فسألهم عن ذلك فلم يعرفوه، فقال له رجلٌ منهم : إنه يقال مَن قتل أخاه ظلما سلّط الله عليه السهر وحُرِمَ النومَ ، فأحال بالذنب على حِمْير وجعل يقتل مَن أشار عليه بقتل أخيه واحدًا بعدَ واحد، ثم أرسلَ إلى ذى رُعَين لِيُلْحِقَه بمَن قُتِل من

(١) نهد : نهض ومضى .

أصحابه، فقال : أيها الملك إنى خالفتُ القوم فيما زيّنوا لك من قتل أخيك . قال : ومَن يعلم ذلك؟ قال : الصحيفةُ التى أودعتُها عندك، فأخرجها فقرأها فإذا فيها :

ألَا مَنْ يَشْتَرِى سَهَرًا بنَوْمٍ ... خَلِىٌّ مَنْ يَبِيتُ قَرِيرَ عَيْنِ
فإنْ تَكُ حِمْيَرٌ غَدَرَتْ وخانَتْ ... فمعذرةُ الإلٰه لِذِى رُعَيْنِ

قال : فخلّى عمرو سبيلَه .

قال : ولمّا قَتَل عمرو أشرافَ قومه وصناديدَهم تضعضع أمرُ حِمْيَر ووَهَى مُلْكُها، فطَمِعَ فيه بنو كَهْلان بن سبأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان، فوثبَ ربيعةُ ابنُ نصر بن الحارث بن عمرو بن عدىّ بن مُرّة بن زَيْد بن مَذْحِج بن كَهْلان فى قومه وجمعهم من أقطار الأرض، وجمع له عمرو بن تُبّع والتقَوْا فقُتِلَ عمرو بنُ تُبّع .

وملك بعده ربيعةُ بن نصر المقدّم ذكره قال : وكان قد رأى رؤيا أزعجتْه وعُبِّرت له أنّ الحبشةَ تملك بلادَه، فوجّه ٱبنَ أخيه جَذِيمَةَ بن عمرو بن نصر ومعه ٱبنُه عدىُّ بنُ ربيعة وهو صبىّ ، ووجّه معهما حَرَمَه وخزائنه، وكتب لهم الى سابور ذى الأكتاف، فأسكنهم سابورُ الحِيرَة وملّكهم ما حَوْلها .

قال : ولمّا بلغ عَدِىُّ بنُ ربيعة الحُلُم زوّجه جَذِيمةُ أختَه رَقَاش فولدت له عمرو بنَ عدىّ . وهؤلاء ملوك الحِيرَة على مانذكره فى أخبارهم .

قال : ولمّا مات ربيعةُ بنُ نصر تجمّعت حِمْيَر فآذنتْ كَهْلانَ بحربٍ أو إعادة المُلْك فيهم، ودخل بينهم السفراءُ فسلّموا المُلْك الى حِمْيَر فملّكتْ حِمْيَرُ عليها أبرهة ابن الصّبّاح بن لَهِيعة[1] بن شَيْبَةَ الحَمْد بن مَرْثَد بن الحَيْر بن سيف بن مصلح

(١) فى تاريخ أبى الفداء (ص ١١٨ طبع أوربا) ومروج الذهب للسعودى (ص ٢١٦ طبع بلاق) « وكيعة » ، وفى مروج الذهب (ج ٣ ص ١٥٥ طبع أوربا) « وليعة » باللام .

ابن عمرو بن مالك بن زَيْد بن سعد بن عَوْف بن عدىّ بن مالك بن زيد بن سعد ابن زُرعة بن ذى المنار .

قال : فملك عليهم ومكث طولَ أيّام سابور ذى الأكتاف ثم مات .

فملك بعده ابن عمه صُهْبان بن محرّث . قال : فبعث عمّاله على أرض العرب، وآستعمل على ولد سعد بن عدنان آبنَ خاله الحارثَ بن عمرو بن معاوية بن كِنْدة ابن عَدىّ بن مُرّة بن زَيْد بن مَذْحِج بن كَهْلان، وكان الحارث يلقَّب بآكل المرار، وهو جدّ آمرئ القيس الشاعر بن حُجْر بن الحارث ، وهو جدّ الأشعث بن قيس ابن مَعْدِيكرب بن جَبَلَة بن عَدىّ بن الحارث المذكور ؛ فقسّم الحارث مملكته بين ولده، وكانوا ثلاثة : فملّك آبنَه حُجْرا على أَسَدٍ وكِنَانة، وملّك شُرَحْبيل على قَيْس وتميم ، وملّك [سَلَمة][1] على ربيعة ، فمكثوا كذلك حينا حتى مات أبوهم الحارث فوثبتْ بنو أَسَد على حُجْر فقتلوه ، ووثبتْ قيس وتميم على شُرَحْبيل فطردوه ، فغضب صُهْبان وتجهّز للسير الى مُضَر ، فآستغاثت مُضَر بربيعة وجاءت وفودهم إليهم وآستنصروهم ، ورئيسهم كُلَيب بن ربيعة بن الحارث بن زُهَير بن جُشَم ابن بكر بن حَبيب بن عمرو بن غَنْم بن تغلب بن وائل ، وآجتمعتْ ربيعة ومُضَر والرياسة على الحيّين لكُلَيب ؛ فقاتلوا صُهْبان وعظماءَ قومه ، وهو اليومُ المشهور فى العرب ، فقُتِل صُهْبان . وفى هذا اليوم يقول عمرو بن كُلْثوم :

ونحنُ غداةَ أُوقِد فى خَزَازٍ[2] رَفَدْنا فوقَ رِفْدِ الرافِدينَا

فكُنّا الأَيْمَنِينَ إذا آلتقَيْنَا وكان الأيسرين بنُوا أَبِينا

---

(١) التكملة عن النقائض (ص ١٠٧٣ طبع أوربا) .

(٢) خزاز (بفتح أوله) : جبل لغنىّ أحمر وله هضبات حمر ، وفى أصله ماء لغنىّ يقال له (خزازة) وهو فى ناحية منعج دون أمرة وفوق عاقل على يسار طريق البصرة الى المدينة (راجع معجم ما استعجم) .

فآبُوا بالنِّهاب و بالسَّبايا وأُبْنَا بالملوك مُصَفَّدينَا

قال : ولمّا قُتل صُهْبان بن مُحَرِّث ملك بعده الصَّبَّاح بن أبرهة بن الصَّبّاح . قال : وكان نَجْدًا جَلْدًا ، فسار الى مَعَدّ فى مئتَىْ ألف يطلب ثأر صُهْبان . قال : وتجمّعت مَعَدّ ورئيسهم كُلَيب أيضا ، وكانت الحرب بينهم بموضع يسمَّى الكُلَاب ، فانهزمت اليمن . وهذان اليومان من مفاخر نِزَار على اليمن ، وآمتنعتْ معدّ بعد ذلك على اليمن حتى قتل كُلَيب بن ربيعة .

٩٥ / ١٣

قال : ولمّا مات الصَّبّاح ملك بعده آبنُ عمٍ له فاسقٌ ، وقيل : إن الذى ملك لَخْنِيعة ذو شناتر، قال : ولم يكن من أهل بيت المُلْك ، فأُغْرِىَ بحبّ الأحداث من أبناء الملوك ، فكان يطالبهم بما يُطالَب به النسوان ، وكان لايسمع بأحد من فتيان العرب وأولادِ الملوك حَسَن الصورة إلّا آستدعاه وطالبه بهذا الفعل القبيح ، ولم يزل على هذه الطريقة المذمومة حتّى نشأ غلامٌ من أبناء ملوك حِمْير آسمُه زُرْعة ابن كعب و يُدعَى ذا نواس ، سُمِّى بذلك لأنه كان له ذؤابتان تَنُوسان على عاتقه ، وكان وضيئا ، فآستدعاه لمثل ما كان يدعو اليه غيرَه ، فجعل تحتَ إخْمِصه سِكّينا ، فلمّا خلا به الملك واثبَه ذونُوَاس فقتله ثم حَزَّ رأسَه ، وكان له كُوَّة يُشرِف منها على عَبِيده إذا قَضَى حاجتَه من الغلام الذى يكون عنده و يضع مِسْواكا فى فِيه ، فلمّا قتَله ذو نواس جعل السواك فى فِيه ، وجعل رأسه فى تلك الكُوّة التى كان يُشْرِف منها على عَبيده ، ثم خرج على العبيد فقالوا [له] (١) : ذو نُوَاس ، أَرَطْبٌ أم يبَاس ؟ . فقال لهم : سل نخماس ، استرطبان ذو نواس . استرطبان لاباس (٢) . وتفسير ذلك :

(١) زيادة من السيرة لابن هشام (ص ٢٠ طبع أوربا) .

(٢) وردت هذه العبارة فى السيرة لابن هشام بألفاظ فيها تقديم وتأخير .

سلوا الرأس التى فى الكُوّة تخبركم وآتركوا ذا نواس ، قال : فأجمعت حِمْير عليه أمرها وقالوا : ينبغى أن نملّكه لأنه أراحنا من هذا الفاسق .

فملك عليهم ذو نُوَاس زُرْعة هذا . قال : ولمّا ملك وآستتبّ له الأمرُ فارق عبادةَ الأوثان ودخل فى دين اليهوديّة وقتل مَنْ كان فى بلاد اليمن على دين عيسى ابن مريم عليه السلام ممن آمتنع من موافقته ، ثم قصد نَجْران وبها عبد الله بن الثامر وأصحابُه وهم على دين عيسى عليه السلام ، فسألهم الدخولَ فى اليهوديّة فآمتنعوا ، فقتَلَ عبدَالله بن الثامر بالسيف وأضرمَ للباقين نارا عظيمةً فألقاهم فيها ، وهم أصحابُ الأُخدود الذين ذكرهم الله تعالى فى كتابه العزيز فقال : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ ٱلْأُخْدُودِ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ . إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ . وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ . وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾(1). قال : ولم ينجُ منهم إلا نفرٌ قليلٌ .

وكان سببُ تهوُّده أنّ حِمْير كان لها بيتُ نارٍ فيه أصنامهم ، وكان يخرج من تلك النار عنقٌ يُمَدّ مقدار فرسخين ، فحضر عنده قومٌ من اليهود وقالوا : أيها الملك إنّ هذا العنقَ من النار شيطانٌ ، فطلب منهم تبيان ذلك ، فنشروا التوراةَ وقرءوها فتراجع ذلك العُنُق وطُفِئت تلك النار ، فأعظم ذو نُوَاس ذلك ودخل فى دين اليهوديّة .

قالوا : ثم إنّ أحدَ الناجين من نَجْرانَ — ويُعرف بدوس بن ذى ثعلبان(2) — قصد قَيْصَرَ ملك الروم مُستنجدا به ، ومُعظِّما عنده ماجَرَى على قومه وهم على دينه ، فاعتذر اليه ببُعد دياره وقال : سأكتب لك الى ملكٍ على دينك قريبٍ من ديارك ، فكتب الى النجاشيّ ملك الحبشة ، فلمّا عَرَض عليه الكتاب وحدّثه بما جرى على أهل ملّته غضِب وحَمِيَ لأهل دينه ، وندَب من جنوده سبعين ألف رجل مع

(1) سورة البروج آيات ٤ — ٨

(2) فى السيرة لابن هشام (ص ٢٥ طبع أوربا) « دوس ذو ثعلبان » .

ابن عمّه أرياط(١) ، وتقدّم إليـه بأن يقتل كلّ مَن باليمن على دين اليهوديّة ، فركب أرياط فى البحر حتى انتهى الى عَدَن فأحرق السفنَ وقال : يامعشرَ الحبشة، العدوّ أمامكم ، والبحرُ وراءكم ، ولا مَنْجَى لكم إلّا الصبر حـتى تظفَروا أو تموتوا كراما . قال : والتقَوْا واقتتلوا فانهزمتْ حِمْير بعد حربٍ عظيمةٍ وقَتَل منهـم خلقا كثيرا .

٥ قال : واقتحـم ذو نُوَاس البحر بفرسـه وقال : واللهِ الغَرَقُ أفضلُ من أَسر السُّودان ، فغَرِق . وكان مُلْكه مائتى سنة وستين سنة ، وهو آخر مَن ملك اليمن من قَحْطان . فجميع ماملكوا من السنين ثلاثةُ آلاف سنة واثنتان وثمانون سنة .

واستولتْ الحبشة على مُلك اليمن ففرّق أرياط الأموالَ على أشراف الحبشة وحَرَم الضعفاء ، فجمع أَبْرَهَةُ أحدُ قوّاد الحبشة جمعا منهم وخرج على أرياط وحاربه ١٠ فقتله أبرهةُ بيده واستولَى أبرهة على مُلْك اليمن .

٩٦/١٣

ولـمّا بلغ خبرهما النجاشىّ غضب لقتل أرياط وحَلَف لَأطأنّ أرضَ أبرهة سَهْلَها وجَبَلَها برجلى، ولَأَجُزّنّ(٢) ناصيتَه بيدى ، ولَأُهْرِقَنّ دمَه بكفّى ، وتجهّز للسير الى أرض اليمن ، فبلغ ذلك أبرهة فملأ جِرَابَيْن من تراب السَّهْل والجَبَـل ، وعمد الى ناصيته فجزّها ووضعها فى حُقّ ، واحتجم وجعل دمَه فى قارورة وختَم عليه وعلى الحقّ الذى ١٥ فيه ناصيته بالمسك ، وبعث بذلك الى النجاشىّ وكتب إليه يعتذر ممـا فعله أرياط وأنه خالف سيرتك فى العدل ، وقد بلغنى ما حلفت ، وقد بعثتُ إليك بجرابَيْن من تراب السهل والجبـل ، فطأْها هنالك برِجلك ، وجُزّ ناصيتى بيدك ، وأهرِقْ دَمِى بكفّك، و برّ فى يمينك ، ولطِّف غضبك عنّى فإنمـا أنا عبدٌ من عبيدك، وعاملٌ من

(١) فى الأصـول : « أرباط » بالباء الموحدة ، وهو تحريف. وما أثبتناه نقلا عن المسعودى ٢٠ فى مروج الذهب (ج ٣ ص ١٥٧ طبع أوربا) وسيرة ابن هشام (ص ٢٥ طبع أوربا) .
(٢) كذا فى المسعودى وسيرة ابن هشام . وفى الأصول : « لأحزن » بالحاء وهو تحريف .

عمّالك . فأعجبَ النجاشىّ عقل أبرهة وأقرّه على مكانه ورضى عنه ، فبقى الى زمان كِسْرَى أنو شِرْوانَ وهو صاحبُ الفيل .

وكانت قصّته أنه نظر الى أهل اليمن يتأهّبون للحجّ ، فسأل عن أمرهم ، فأخبر أنهم يخرجون حجّاجا الى مكة فقال : أنا أكفيهم تجشّم هذا السفر البعيد ببيعةٍ أبنيها بصنعاء فيكون حجُّ اليمن إليها ، وأمر ببنائها فبُنيتْ . وقد تقدّم وصفها فى الفنّ الأوّل فى المبانى ، ونصب عند المذبح دُرّة عظيمةً تُضىء فى الليلة الظلماء كما يُضىء السِّراج ، ثم نادى فى أهل مملكته بالحجّ إليها ، فغضب العرب لذلك ، فآنطلق رجُلانِ من خَثْعَم فأحدثا فى البيت الذى بناه ولطّخاه بالعَذِرة .[1]

وقيل : إنّ الذى فعل ذلك رجلٌ من كِنَانة ، فآتّهم أَبْرَهَةُ قريشا بذلك ، وكان حينئذ بصنعاء تجّارٌ من قريش فيهم هشامُ بنُ المغيرة ، فأحضرهم وسألهم عمّن أحدَث فى بيعته ، فأنكروا أن يكونوا علِمُوا بشىء من ذلك ، فقال أبرهة : ظننتُ أنكم فعلتم ذلك غضبا لبيتكم الذى يحجّ إليه العرب ، فقال هشام بن المغيرة : إنّ بيتنا حِرْزٌ تجتمع فيه السِّباع مع الوُحُوش ، وجوارحُ الطير مع البُغَاث ، ولا يعرض منها شىءٌ لصاحبه ، وإنما ينبغى أن يحجّ الى بيعتك هذه من كان على دينك ، فأمّا من كان على دين العرب فلا يؤثر على ذلك شيئا . فأقسم أبرهةُ ليسيرنّ الى البيت فيهدِمَهُ حَجَرًا حَجَرًا . فقال له هشام بن المغيرة : إنه قد رامَ ذلك غيرُ واحدٍ من الملوك فما وصَلوا إليه لأنّ له ربّا يمنعُه . فخرج أَبْرَهَةُ فى أربعين ألفا وسار بالفيل ، فغضبت لفعله هَمْدان وجمعتْ إليها قبائل من اليمن — وكان ملكهم رجلا من أشراف اليمن يقال له ذو نفر — فآستقبلوه فحاربوه فهزمهم وظفر بذى نفر ملك هَمْدان ونُفَيل بن

(١) راجع الجزء الأوّل (ص ٣٨٢ من هذه الطبعة) .

حبيب سيِّد خَثْعَم أسيرين فأمر بضرب عنقهما . فقالا : أيها الملك ، استبقنا لندُلّك على الطريق فإنّا من أدلّ العرب ، ففعل ذلك . فلمّا صاروا فى مَفْرَق الطريقَيْن : مكة والطائف ، قال ذو نفر لابن حبيب : كفى بنا عارا أن ننطلق بهذا الأسود الى بيت الله تعالى فيهدِمَه ! قال ابن حبيب : هلّم بنا لنأخذ به طريق الطائف فيشتغل بثَقِيف ولعلّه يرى ما يسوءه ، فلم يشعُر أهلُ الطائف صباحا إلّا والجيوشُ قد وَرَدَت عليهم ، فخرج أبو مسعود الثقفيّ فى نَفَر منهم ، فأعلم أبرهة أنها ليست طريقَهُ ، وسار أبرهةُ حتى أتى مكة واستاق السوائم ونزل على حدّ الحَرَم ، فكان فيما ساق مائتا ناقةٍ لعبد المطّلب بن هاشم ، فركب عبدُ المطّلب فرسَــه وقصد العسكر ودخل على أبرهة فأعجبَه جماله وأكرمه ونزل عن سرير كان عليه وجلس دُونه حتى لا يرفع عبد المطلب إليه ، ثم قال له : ما حاجتك؟ قال : حاجتى أن يَرُدّ علىّ الملك مائتى بعير أصابها لى . فلمّـا قال له ذلك ، قال له أبرهة : قـد كان بلغنى شرفك فى العرب وفضلك فأحببتك ، ثم دخلتَ علىّ فرأيتُ من جمالك ووسامتك ما زادنى حبّا ، فنقصتَ عندى فى سؤالك إياى مائتى ناقة وتركتَ أن تسألنى فى الرجوع عمّا هممتُ به من هَدْم هذا البيت الذى هو شرفُك وعزُّك ! قال عبد المطلب : أيها الملك ، إنّ لهذا البيتِ ربّا سيمنعه منك وأنا ربّ إبِلي ، وقد رامَ هَدْمَه مَن لا يُحصَى من الملوك فرجعوا بين أسيرٍ وقتِيل ، فردّ إبلَه ، واجتمع الى عبد المطّلب أشرافُ قومه فقالوا : اجعل له مالًا نجمعه له ليرجع عما همّ به من هَدْم هذا البيت . قال لهم عبد المطلب : وما عسى أن نجعل له من المـال مع عِظَم ما هو فيه من المُلْك والسلطان ! اطمئنُّوا ، الله أمددكم[1] ، فوالله لا يصل إليه أبدا . ثم أنشد عبد المطلب يقول :

يارَبِّ إنّ المــرءَ يمـ * ـنعُ جارَه فامْنَــعْ حِلالَكْ

(١) كذا فى نسخة ا . وفى نسخة ب « لله أبوكم » .

لا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهم * بَغْيًا وما جمعوا مِحالَكْ
إن كنتَ تاركهم وقِبْـ * ـلَتَنا فأمْرٌ ما بَدَالَكْ (١)

ثم عَلَا جبلَ أبى قُبَيس هو وحَكِيمُ بنُ حِزَام ونفرٌ من سادات قُرَيش، وهَرَب الناس فلحقوا برءوس الجبال، وأَمَّ أَبْرَهَةُ البيتَ وقـدّم أمامه الفيل، وكان أكبرَ فيل رآه الناس كالجبل العظيم، وآسمه بلسان الحَبَشة محمود؛ فلمّا آنتهى الفيلُ إلى طَرَف الحَرَم بَرَك، فكانوا يَنخسونه، فإذا أخذوا به يمينا وشمالا هَرْوَل، وإذا أَقْحَموه بَرَك. فلم يزل كذلك بقيّة يومهم. فلمّا قاربَ المساء نظروا إلى طَيْرٍ قد أقبلتْ من نحو البحر لا تُحْصَى كثرةً أصغرُ من الحمام، فعجِبُوا من كثرتها ولم يعرفوها ولا رَأَوْا على خِلقتها طيورا، وكان مع كلّ طَيْر ثلاثةُ أحجار: حَجَران فى رجلَيه، وحجرٌ فى مِنْقاره، على مقدار الحمص، فرفرفت على رءوسهم وأظلّت عسكرَهم، ثم قذفت بالحجارة عليهم، وهبّتْ ريحٌ شديدةٌ فزادتِ الحجارة صعوبةً وقوّة، فكان الحجر منها إذا وقع على رأس الرجل منهم نَفَذ حتى يخرُج من دُبُره، فإذا سقط على بطنه خرج من ناحيـة ظهره؛ فكان ما أخبر الله عزّ وجلّ عنهم فى سورة الفِيل: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ (٢). وخرج عبدُ المطّلب وأصحابُه فملأوا أيديَهم من المـال، وأرسل

(١) هذه الأبيات الثلاثة وردت هكذا فى الأصول، وورد البيتان الأوّل والثانى منهما فى غير الأصول باختلاف فى بعض الألفاظ؛ إذ ورد البيت الأوّل فى اللسان «مادّة حلل» وسيرة ابن هشام (ص ٣٥ طبع أوربا) هكذا:

لاهُمَّ إنّ العبد يمـ * ـنع رحله فامنع حلالك

وورد البيت الثانى فى اللسان (مادة محل) وسيرة ابن هشام هكذا:

لا يغلبن صليبهم * ومحالهم عدوا محالك

والحلال (بالكسر): القوم المقيمون المتجاورون؛ يريد بهم هنا سكان الحرم. والمحال (بالكسر) هنا: الكيد والقوّة.

(٢) سورة الفيل آية ٥

إلى قريش بجاءوه من الجبال وغَنِموا ما شاءوا ، فعظُمَت قريش فى أعينُ العرب وسمّوْهم آلَ الله ، وآزدادَ عبدُ المطّلب وأصحابُه شرفا . ووُلِد رسـول الله صلى الله عليه وسلم بعد قدومهم بخمس وخمسين ليلةً . وكان ذلك بعد عشرين سنة من مُلْك أنو شِرْوَان .

٥ وملك اليمن بعد أبرهةَ آبنُه يَكْسُوم .

ثم ملك بعده مسروق بن أبرهة، وهو الذى زال مُلْكُه على يد سَيْف بنِ ذى يَزَن على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ذكرُ خبرِ سَيْفِ بنِ ذى يَزَنٍ
وعَوْدُ المُلْك إلى حِمْيَر

١٠ وذلك أنّ حِمْيَر لـمّـا رأتْ مُلْك الحَبَشة قد دام عليهم وتوارَثُوه فيهم ، اجتمع ساداتُهم إلى سَيْف بن ذى يَزَن — وهو من أولاد ذى نُوَاس الذى غَلَب الحبشةَ على اليمن فى أيام مُلْكه — وبذلوا له أن يجمعوا له نفقةً تُقيمه ليسـير إلى بعض الملوك فيستنجدَه ففعل ذلك، وسار حتى وافَى القُسْطَنْطينية إلى قَيْصر ملك الروم، فآستنجدَه فقال له قَيْصر : إنّ الجيش على دِينى ، وما كنتُ لأُعِينَك عليهم ، وأمرَ له بعشرة

١٥ ألفِ درهم ، فأبَى أن يقبلهـا وقال : إذا لم تنصُرْنى فـلا حاجةَ لى إلى مالك . وآنصرف إلى كِسْرَى وآستنجدَه، فقال له كِسْرَى : بَعُدَت بلادُك عن بلادنا مع قِلّة خيرها ، إنـمـا فيها الشاءُ والبعيرُ وما لا حاجةَ لى فيه . فقال له سَيْف : لا تزهَدَنّ أيها الملك فى بلادى فإنها فُرْضَـة العرب، وأرضُ التبابعة الذين مَلَكوا أقطار أقاليم الأرض، ودانَ لهم أهلُ الشرق والغرب . قال كِسْرَى : ما كنتُ لأغرِّرَ بجُنْدى

فيما لا ينفعنى وأمر له بعشرة آلاف درهم. فلمّا ٱنتهى إلى باب القصر نثرها فى الناس حتى أتى عليها، فبلغ ذلك كسرى فغضب وقال له : ما الذى حملك على ٱستخفافك بصلتى حتى نثرتها فى الناس ؟ قال : ما أصنعُ بالمـال وترابُ أرضى ذهبٌ وفضّة! ثم خنقته العَـبْرة ، فرقّ له كسرى ووعده بالانتصار له ، فأشار عليه بعضُ وزرائه فقال : إنّ فى سجونك بشرًا كثيرًا ممن ٱستوجبَ القتْل ، فمُن بإطلاقهم، وقوّهم بالمال والكُرَاع[1] والسِّلاح، ووجِّههم مع هذا العربى ، فإن ظَفِروا كان ذلك زيادةً فى مُلْكك، وإن قُتِلوا كان ذلك جزاءً عن جرائمهم . فأعجبَ كِسْرى هذا الرأى وعَمِل به وقدّم عليهم وَهْرِز بنَ كامخان ، وكان من فُرسان العَجَم وأهلِ البيوتات، وقد أناف على المـائة من السنين، وكانت عِدّتهم ثلاثةَ آلاف وستمائة رجُل، فركبوا البحر فى سبع سُفُن ، وأرسـل سَيْفٌ إلى اليمن ومَخَاليفها ، فأتوه من أقاصى اليمن وأدانيها حتى صاروا فى عشرين ألفـا ، وتجهّز إليهم مَسْروقٌ، فلمّا ٱلتقيا قال وَهْرِز لسيف : أَرِنى مَلِكهم ، فأراه إيّاه، وهو على فيلٍ وعلى رأسه التاجُ وفيه ياقوتةٌ حمراءُ مدلاةٌ على جبينه ، فلبِثَ ساعةً ثم تحوّل إلى فرس ثم تحوّل إلى بَغْلة، فقال وَهْرِز : ذلّ الأسـودُ وباد مُلْكه ، وأنا أرميه فتأمّل الرَّمْية ، فإن رأيتَ أصحابه تصـدّعوا عنه وحاصُوا[2] يمينا وشمالا فٱعلم أنّى قتلته ، وإن لم يتحرّكوا من منازلهم فلم أصنع شيئا ؛ ورماه ، ففلَقَ السهمُ الياقوتةَ نصفَيْن وخرج من مؤخّر رأس مسروق ، وٱضطربت الحَبَشة وماجُوا، وحمـلَ عليهم وَهْرِز ومَن معه والعربُ فولّوا منهزمين ، ودخلوا صَنْعاء وقتلوا كلّ أسود يُوجَد فى اليمن . وكتب وَهْرِز إلى كسرى بالفتح، فكتب

(١) الكراع : الخيل .

(٢) حاصوا ، حاض عنه : قال وعدل .

إليه كسرى أن يسأل عن سَيْف بن ذى يَزَن (١) ، فإن كان من أبناء الملوك فأقِرّه على مُلْكه وآنصرِف عنه ، وإن لم يكن من أبنائهم فآضْرِبَ عنقه وأقم فى الأرض متوليًّا لهم .

قال : فسلّم وَهْرِز إليه مُلْكه وخلف من كان معه من العجم بصنعاء وآنصرف إلى كسرى ، وملك سَيْفٌ اليمن لكسرى ، وتداولتها الوُلاة بعده من قبل كسرى .

وكان مُلْك الحبشة على اليمن آثنتين وسبعين سنة ثم آنتزع عنهم .

ذكر أخبار ملوك الشام من ملوك قحطان

قال عبد الملك بن عَبْدُون فى كتابه المترجم بكِمَامة الزهر وصَـدَفَة الدرّ (٢) : ومن أهل اليمن مَن خرج منها فملك الشام ، وهم آل جَفْنَة وأوّلهم : الحارث بن عمرو بن عامر ابن حارثة [بن آمرئ القيس بن مازن بن الأَزْد بن الغَوْث بن نَبْت بن مالك] (٣) بن زَيْد ابن كَهْلان بن سبأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطان ، ويكنى الحارث بأبى شَمِر .

ثم تداولهـا منهم سـبعٌ وثلاثون ملكا . ومُدّة ما ملكوا من السنين ستمائة سـنة وست عشرة سنة إلى أن كان آخرهم جَبَلَة بن الأَيْهم ، وهو الذى تنصّر فى أيام عمر ابن الخطاب رضى الله عنه بعد أن كان قد أقبل إلى عمر وأسلم .

---

(١) كذا وردت هذه القصة فى الأصول وكتب التاريخ والطبرى فى إحدى روايتيه منسوبة إلى سيف ابن ذى يزن . وفى مروج الذهب والرواية الأخرى فى تاريخ الطبرى أنها منسوبة إلى معد يكرب بن سيف ابن ذى يزن .

راجـع تاريخ الطبرى (ص ٩٤٩ — ٩٥٨ من القسم الأوّل طبـع أوربا) ومروج الذهب (ص ١٠٤ — ١٧٦ ج ٣ طبع أوربا) .

(٢) راجع هذا الكتاب (ص ٨٧ طبع أوربا) .

(٣) الزيادة من كمامة الزهر .

ثم إنه كان فى الطواف فداس رجلٌ طَرْفَ ردائه فلطمه جَبَلَةُ ، فأتى الرجلُ عمرَ رضى الله عنه فطلب جَبَلَةَ ليقيدَه منه فتنصّر جبلةُ ولحق بهِرَقْل صاحب القسطنطينية ، فأقطعه هِرَقْل الأموال والضياع والرباع ، ثم نَدِم جبلة على ما كان منه وقال :

تَنَصَّرتِ الأشرافُ من أجل لَطْمةٍ * وما كان فيها لو صَبَرْتُ لهـا ضَرَرْ ٥

تكنّفنى منهـا لَجَاجٌ ونَخْـوةٌ * فبِعتُ لها العينَ الصحيحةَ بالعَوَرْ

فيـاليتَ أمّى لم تـلدنى وليتنى * رجعتُ إلى القول الذى قاله عُمَرْ

وياليتنى أرعَى المخاضَ بقفـرةٍ * وكنتُ أسيرا فى ربيعة أو مُضَرْ

وياليتَ لى بالشام أدنَى معيشـةٍ * أجالسُ قومى ذاهبَ السّمع والبَصَرْ

وحُكى أنّ عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعث إلى هِرَقْل رسـولا يدعوه ١٠ إلى الإسلام أو الى الجِزْية فأجاب إلى الجزية ، فلمّا أراد الرسول الانصراف قال له هرقل : ألقِيتَ ٱبنَ عمّك هذا الذى عندنا — يعنى جَبَلَة — الذى أتانا راغبا فى ديننا ؟ فقال : ما لَقِيتُه . قال ألْقِه ، قال الرسـول : فذهبتُ إلى باب جَبَلَة فإذا عليه من القهارمة والحجّاب والبهجة وكَثْرةِ الجمع مثل ما على باب هرقل . قال : فتلطّفت فى الدخول عليـه حتى أذِنَ لى ، فدخلتُ فرأيتُـه أصْهَبَ اللحية ، وكان ١٥ عهدى به أسـودَ اللحية والرأس ، فأنكرتُه وإذا هو قد ذرّ سُحالةَ[1] الذهب على لحيته حتى صار أصْهَبَ ، وهو قاعدٌ على سرير من قوارير، قوائمُـه أربعةُ أسـود من الذهب . قال : فلمّا عَرَفنى رفعنى معه على السرير . قال : وجعـل يسألنى عن المسلمين وعن عُمَر رضى الله عنـه ، فذكرتُ خيرا وعرّفته أنّ المسلمين كَثُروا .

(١) السحالة (بالضم) : ما سقط من برادة الذهب . ٢٠

ثم آنحدرتُ عن السرير فقال لى : لِمَ تأبى الكرامــة التى أكرمناك بها ؛ قلتُ : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نَهَى عن هــذا . قال : نعم ! صلى الله عليه وسلم ، ولكن نَقِّ قلبك من الدنَس ولا تُبالِ على ما قعــدتَ . فلمّا سمِعتُه يصــلّى على النبىّ صلى الله عليه وسلم طمعتُ فيه فقلتُ له : ويْحَك يا جبَلة ! ألا تُسْلِمُ وقد عرفتَ الإسلامَ وفضلَه ؟ قال : أبعدَ ما كان منِّى ؟ قلتُ : نعم . قال : إن كنتَ تضمن لى أن يزوِّجنى عمرُ آبنتَه ويُولّيني الإمْرةَ بعدَه رجَعْتُ إلى الإسلام . قال الرسول : فضَمَنْتُ له التزويج ولم أضْمَن له الإمْرة . قال : ثم أومأ إلى خادم كان على رأسه فذهب مُسْرِعا فإذا خدّامٌ قد جاءوا يحملون الصناديق فيها الطعام ، فوُضِعَتْ ونُصِبَتْ موائدُ الذهب وصِحَاف الفضّــة ، وقال لى : كُلْ . فقبضتُ يدى وقلتُ : إنّ رسول الله صلى الله عليه وســلم نَهَى عن الأكل فى آنية الذهب والفضّــة . قال : نعم ! صــلى الله عليه وســلم ، ولكن نَقِّ قلبَــك وكُلْ فيما أحببتَ . قال : فأكل فى الذهب وأكلت فى الخَلَنْج[1] ، ثم جىء بطسات الذهب وأباريق الفضّــة فغَسَل يده فيها وغَسَلْتُ فى الصُّفْر[2] ، ثم أومأ إلى خادم فمَرّ مُسْرِعا فإذا خَدَمٌ معهم كراسىّ الذهب مُرَصَّعةٌ بالجواهر ، فوُضِعَت عشرةٌ عن يمينه وعشرةٌ عن شماله ، ثم جاءت الجوارى عليهنّ تِيجانُ الذهب مُرَصَّعةٌ بالجواهر ، فقعَدْنَ عن يمينه وعن شماله على تلك الكراسى ، ثم جاءت جاريةٌ كأنهــا الشمس حُسْنا على رأسها تاج ، على ذلك التاج طائرٌ وفى يدها اليمنى جامةٌ فيها مِسْك فَتيت ، وفى يدها اليسرى جامةٌ فيها ماء ورد ؛ فأومأتِ الجاريةُ أو صَفَّرت بالطائر الذى على تاجها فوقــع فى جام ماءِ الوردِ

---

(١) الخلنج (فارسى معرب) : شجر بين صفرة وحمرة يكون بأطراف الهنــد والصين ورقه كالطرفاء، وزهره أحمر وأصفر وأبيض . وأصل معناه المتنوع الألوان تتخذ من خشبه الأوانى .

(٢) الصفر (بالضم) : النحاس الأصفر .

فاضطرب فيه ، ثم أومأت إليه أو صفّرت فوقع في جام المسك فتمرّغ فيه ، ثم أومأت فطار حتى نزل على تاج جَبَلة ، فلم يزل يُرفرف حتى نفض ما عليه في رأسه ، فضحك جَبَلة سرورا به ، ثم التفت الى الجوارى اللواتى عن يمينه وقال لهنّ : بالله أضحكننا ، فاندفعن يغنّين بخفق عيدانهنّ ويقلن :

لله درّ عصابة نادمتهم * يوماً بجِلّق(١) في الزمان الأوّل
يَسقون من ورَد البَريص(٢) عليهم * بَردى(٣) يُصفّق بالرحيق السلسل
يُغشَون حتى ما تهرّ كلابهم * لا يَسألون عن السواد المُقبل
بيض الوجوه كريمة أحسابهم * شُمّ الأنوف من الطراز الأوّل
أولاد جَفنة عند قبر أبيهم * قبر ابن مارية(٤) الكريم المُفضِل

قال : فضحك حتى بدت نواجذه ثم قال : أتدرى من يقول هذا ؟ قلت : لا ، قال : حسّان بن ثابت ، ثم أشار الى الجوارى اللواتى عن يساره فقال لهنّ : بالله أبكيننا ، فاندفعن يغنّين بخفق عيدانهنّ ويقلن :

لمن الدار أقفرت بمَعان(٥) * بين أعلى اليرموك(٦) فالخَمّان(٧)
ذاك مغنىً لآل جفنة في الدهـ * ـر وحقٌّ تعاقبُ الأزمان

(١) جلق (بكسرتين وتشديد اللام) : هو اسم لكورة الغوطة كلها ، وقيل : بل هى دمشق نفسها ، وقيل : موضع من قرى دمشق . (٢) البريص : اسم غوطة دمشق .
(٣) بردى : نهر دمشق . (٤) ابن مارية : هو الحارث بن أبي شمر الغسانى ، وكان أثيرا عندهم .
(٥) معان (بضم أوّله) : حصن كبير من أرض فلسطين على خمسة أيام من دمشق فى طريق مكة .
(٦) اليرموك : واد بناحية الشام ، وكانت فيه الواقعة المشهورة التى عرفت بيوم اليرموك فى زمن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، وكان من أعظم فتوح المسلمين .
(٧) الخمان (بفتح أوّله وتشديد ثانيه) : موضع بالشام .

قــد أرانى هنــاك دهراً مَكِينــا * عنــدَ ذى التاج مَقْعَدِى ومكانى (١)

قال : فبكى حتى سالت دموعه على لحيته، ثم قال : أتدرى مَن يقول هذا ؟ قلت : لا ، قال : حسّان ، ثم أنشــد : تنصّرت الأشراف الأبيات ثم سألنى عن حسّان أحَىٌّ هو؟ قلت : نعم، فأمر له بكسوة ولى بمثلها ، وأمر بمالٍ لحسّان ونُوقٍ
٥ مُوقَرَة بُرًّا ثم قال : إنْ وجدتَه حياً فآدفَعْ الهديّة إليه ، وإنْ وجدتَه ميتاً فآدفعها إلى أهله وآنحرِ النُّوق على قبره .

قال : فلمّا أخبرتُ عُمَرَ بخبره وما آشترط علىّ وما ضَمِنْتُ له قال : فهلّا ضَمِنْتَ له الأمر فإذا أفاء الله به قَضَى الله علينــا بحكمه ! ثم جهَّزنى عُمَــرُ إلى القسطنطينية إلى هِرَقْل ثانيةً وأمرنى أن أضمن له ما آشترط ، فلمّا دخلتُ القسطنطينية وجدتُ
١٠ الناس قد آنصرفوا من جنازته ، فعلمتُ أنّ الشقاء غَلَبَ عليه فى أمّ الكتاب .

ذكر أخبار ملوك الحيرة
وهم من آل قحطان

وأوّلهم مالكُ بن فَهْم بن غَنْم بن دَوْس بن الأَزْد بن الغَوْث بن نَبْت بن مالك ابن زَيْد بن كَهْلان بن سَبَأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطان (٢) . وكان قد خرج من
١٥ اليمن مع عمــرو بن عامر حين أحسّوا بسَــيْل العَرِم ، وقــد ذكرنا أنّ الملك ربيعةَ ابن نصر كان قد بعثهم إلى سابور فأسكنهم الحيرة ومَلَكُوا ما حَوْلها . والله أعلم . قال : وكان مُلْك مالك على الحيرة عشرين سنة .

(١) رواية الديوان (ص ٥٥ طبع أوربا) :

قــد أرانى هنــاك حــق مكين * عنــد ذى التــاج مجلسى ومكانى

٢٠ ورواية الأغانى (ج ١٤ ص ٦ طبع بلاق) :

قــد أرانى هنــاك حقــا مكينــا * عنــد ذى التــاج مقعدى ومكانى

(٢) ورد هذا النسب فى تاريخ أبى الفدا (ص ١٢٠ طبع أوربا) ببعض تغيير بالزيادة والنقصان .

ثم ملك بعــده ٱبنُه جَذِيمــةُ[(١)] وهو الوضّاح . قال : وكان يقال له ذلك لبَرَص كان به، ويقال أيضا فيه الأبرش ، وكان ينزِل الأنبار، وكان لا يُنادِم أحدًا من الناس ذهابا بنفسه على النــدماء ، وكان ينادِم الفَرْقَدَيْن فإذا شَرِبَ قــدحا صَبّ [في الأرض][(٢)] لهذا قدحا ولهذا قدحا . ويقال : إنه أوّل مَن عَمِلَ المِنْجَنِيق من الملوك، وأوّل من حُذِيتْ له النِّعال . وأوّل مَن وُقِدَ بين يديه الشمع، وهو الذى قتلته الزَّبّاء بحيلة .

ثم ملك بعده ٱبنُ أخته عمرو بن عَدِيّ بن ربيعة . قالوا : وعمرو هذا هو الذى استهوتْه الجنّ دهرا طويلا ثم رَجَع؛ فبينما مالك وعَقِيل ٱبنا فارح وقيل - قالح - يَقْصدان جَذِيمَةَ المِلك بهديّة إذ نزلا على ماء ومعهما قَيْنة يقال لهــا : أمّ عمــرو ، فتعرّض لها عمرو، وقد طالت أظفارُه وشعرُه وساءتْ حالتُه وهيئتُه ، فجلس إليهما - وكانا يأكلان - فمــدّ إليهما يَدَه مُسْتطعِما فناولتْه تلك الجاريةُ طعاما فأكله، ثم مدّ يده ثانية فقالت : إنْ يُعْطَ العبدُ كُرَاعًا يَتْبَع ذراعا ! ثم ناولتْ صاحبيها من شرابها وأوكأت[(٣)] سقاءها، فقال عمرو :

صَـدَدْتِ الكأسَ عنّا أُمّ عَمْرو * وكان الكأسُ مَجْـرَاها اليمينا
وما شَــرُّ الثــلاثةِ أمّ عَمْــرو * بصاحِبِــك الذى لا تَصْبَحِينا[(٤)]

---

(١) فى تاريخ أبى الفــداء (ص ١٢٠ طبع أوربا) أن الذى ملك بعــد مالك بن فهم أخوه عمرو ابن فهم، ثم ملك بعده جذيمة بن مالك .

(٢) التكلة من عيون الأخبار (ج ٣ ص ٢٧٤ طبعة دار الكتب المصرية) .

(٣) أوكأت سقاءها : شدّت فمه بسير أو خيط، أى ربطته .

(٤) هذان البيتان من معلقة عمرو بن كلثوم المشهورة . وبعضهم يروى هذين البيتين لعمرو بن أخت جذيمة الأبرش كما ورد هنا والأغانى (ج ١٤ ص ٧٣ طبع بلاق) .

فقالوا له : مَنْ أنت ؟ فآنتسب لهما، ففرِحا به وأقبلا على خاله — وقد كان جعل الجعائل لمن يأتيه به — فلمّا أتياه به قال جَذِيمة لهما : لكما حُكْمكما . فقالا : مُنادمتك . فكانا كما آختارا، وسار بهما المثل . ويقال : إنهما نادَماه أربعين سنة، فما أعادا عليه حديثا مما حدّثاه به مرّة أخرى ، بل كانا يحدّثانه بحديث جديد لم يسمعه منهما قَبْلُ .

وعَمْرٌو هذا هو الذى أخذ بثأر خاله جَذِيمة من الزَّبّاء وقتلها . وذلك أنّ قَصِيرَ ابنَ سعد كان من غِلْمان جَذِيمة قال لعمرو : اضرِبْ ظهرى وآقطَعْ أرنبةَ أنفى وآتركنى والزّبّاء، فإنّى سأحتال لك عليها ، ففعل به ذلك، ففرّ قَصيرٌ إلى الزّبّاء وصار فى جملة رجالها وأراها النصح والآجتهاد فى حوائجها ، وأنه غاشٌّ لعمرو ابن عَدِىّ ؛ وجعل يتّجر لها ويذهب لعمرو فى السرّ فيُعطيه الأموال فيأتيها بها، كأنّ ذلك من آجتهاده وحِذْقِه فى التجارة حتى آطمأنّتْ له ؛ فذهب إلى عمرو وأخذه وأخذ معه ألفَىْ رَجُلٍ وجعلهم فى جَوَالق على ألف جمل ، ومعهم دروعُهم وسيوفُهم وجاء بهم على طريق يقال له الغُوَيْر[1]، ولم يكن يسلكه قبل ذلك، فلمّا قَرُبَ من حصنها تقدّم إليها وأعلمها أنه قد أتاها بمالٍ صامتٍ، فأشرفتْ من أعلى قصرها تنظر إلى الجمال ، فرأتْها وكأنّها تَنْزِع أرْجُلَها من أوحالٍ لِثِقَل ما عليها، فقالت : « عَسَى الغُوَيْرُ أَبْؤُسًا » . فذهبتْ مثلا . ثم قالت :

ما لِلْمَطَايَا مَشْيُها وَئِيدَا * أَجَنْدَلًا يَحْمِلْنَ أمْ حَدِيدَا
أم صَرَفانًا[2] بارِدًا شَدِيدَا * أمِ الرِّجالَ جُثَّمًا قُعُودَا

(١) الغوير : موضع على الفرات .

(٢) صرفانا باردا : قال فى شرح القاموس (مادة صرف) : «الصرفان (محركة) : الموت عن آبن الأعرابى ، وقال آبن عباد : هو النحاس ، وفى اللسان : الرصاص القلعىّ ، وبهما فسر قول الزباء : ==

وقد كان قَصِيرٌ قال لها قبل ذلك كالناصح : ما ينبغى لمثلك (١) إلا أن يكون له موضع ليوم، فإنه لا يَدْرى ما تُحْدِثه الأيام؛ فأرته سِرْباً فى ناحية قَصْرِها قد نفذت فيه إلى حصن أختها — وكانا على ضَفَّتى الفُرات — قال : فلما دخلتْ الإبل على البوّاب ضجر لكثرتها، حتى إذا كان آخرها طَعَن فى جوالق بعُود كان فى يده، فقابلتْ الطعنة خاصرةَ الرجُل الذى كان فى الجوالق فحنق فقال البوّاب : لشنا لشنا (٢)؛ أى شىء فى الجوالق، فثارت الرجال من الجوالق بأيديهم السيوف، فهربت الزّبّاء إلى ذلك السِّرْب فإذا هى بقَصِير عند النفق ومعه عمرو بنُ عدىّ، والسيف فى يده، فمصّتْ خاتمًا كان فى يدها فيه سمّ ساعة وقالت : « بِيَدِى لا بِيَدِ عمرو ». وفى ذلك يقول المُتَلَمِّس :

وفى طَلَبِ الأوتارِ ما حَزَّ أنفَهُ * قَصِيرٌ ورَامَ الموتَ بالسيف بَيْهَسُ

= « ما للجمال مشيها وئيدا ... » وذكر البيتين ، متابعا فى ذلك ما جاء فى اللسان (مادة صرف) مع بعض تغيير فى اللفظ . ثم قال بعد ذلك : « وقيل الصرفان هنا : تمر رزين مثل البرنى لأنه صلب المضاغ علك ، والناس يدّخرونه » .

ولعل تفسير البيتين بالتمر أنسب ؛ فإن شارح القاموس قال بعد ذلك : قال أبو عبيد : ولم يكن يهدى للزباء شىء أحب إليها من التمر الصرفان وأنشد :

ولما أتتها العير قالت أبارد من التمر أم هذا حديد وجندل

وقد ذكر صاحب اللسان قول أبى عبيد والبيت الذى أنشده . وقال الجوهرىّ فى الصحاح (مادة صرف) : والصرفان : الرصاص ، والصرفان أيضا : جنس من التمر قالت الزباء :

* ما للجمال مشيها وئيدا ... الخ *

(١) كذا فى شرح قصيدة ابن عبدون (ص ٩٣ طبع ليدن) وفى الأصول : « الملك » .

(٢) كذا فى الأصول ، وفى مروج الذهب (ج١ ص ٢٢٥ طبع بلاق) . « فقال البوّاب : بشنا بشنا بالنبطية ، أى فى الجوالق شرّ » . وفيه (ج ٣ ص ١٩٧ طبع أوربا) : « فقال البوّاب : بشقا لشقا ، أى شرّ فى الجوالق » .

وعمرو هـذا هو الذى يقال فيه : «شَبَّ عمرو عن الطَّوق» . وكانت مـدّة مُلْكه مائة سنة .

ثم ملك بعده ٱبنُه ٱمرؤ القيس . فكان مُلْكه ستين سنة .

ثم ملك بعـده ٱبنُه عمرو بنُ ٱمرئ القيس وهـو مُحَرِّق العرب[1] . وكان مُلْكه خمسا وعشرين سنة ، وكانت أمّه مَارِيَة التى يُضرب المثل بقُرْطَيْها .

١٠١
١٣

ثم ملك بعـده النعمان بن المنذر[2] فارس حليمة[3]، وهو الذى بنى الخَوَرْنَق[4] وكَرْدَس[5] الكراديس . وكان أعور[6] ، ويقـال : إنه أشرف فى بعض الأيّام على ما حـول الخَوَرْنَق فقال : أكلّ ما أرى إلى نَفَاد؟ قيل : نعـم . قال : فأىُّ خير فى مُلْك يكون آخره إلى نَفَاد ! ثم ٱنخلع من مُلْكه ولبس المُسُوح وسار فى الأرض . وقـد ذكره عدىّ بن زَيْد فقال :

وتفكَّرْ ربُّ الخَـوَرْنَقِ إذ أَشْـ * ـرَفَ يـومًا ولِلْهُـدَى تَفْكِيرُ
سَرَّه حالُه وكَثْرةُ ما يَمْـ * ـلك والبحرُ مُعْـرِضًا[7] والسَّدِيرُ

(١) فى الأصـل : «الحرب» . وما أثبتناه عن مروج الذهب . وفيـه وفى تاريخ أبى الفدا ص ١٢٢ طبع أوربا أن الذى يسمى محرّقا هو ٱمرؤ القيس بن عمرو بن ٱمرئ القيس ، وإنما سمى محرّقا لأنه أوّل من عاقب بالنار .

(٢) كذا فى الأصل ، وفى مروج الذهب : أن الذى ملك بعده النعمان بن ٱمرئ القيس ، ثم المنذر ابن النعمان بن ٱمرئ القيس ، ثم النعمان بن المنذر .

(٣) كذا فى مروج الذهب وشرح قصيدة ٱبن عبدون ، وفى الأصل : «حمله» .

(٤) الخورنق : قصر بناه سنمار على ثلاثة أميال من الحيرة .

(٥) كردس القائد خيله : أى جعلها كتيبة كتيبة . والكراديس : كتائب الخيل ، واحدها كردوس .

(٦) فى تاريخ أبى الفداء : أن الذى كان أعور هو النعمان بن ٱمرئ القيس بن عمرو .

(٧) معرضا : معرض بمعنى متسع ، ومنه أعرض الثوب ، أى اتسع وعرض .

فَٱرْعَوَى قلبُه وقال : فما غِبْ * طَةُ حَىٍّ إلى المَمَاتِ يَصِيرُ ؟

وكان مُلْكه خمسا وثلاثين سنة .

ثم ملك الأسودُ بنُ النعمان . فكان ملكه عشرين سنة . ويقال : إنّ الأسودَ هذا هو الذى ٱنتصر على غَسّانَ وأَسَر عِدّةً من ملوكهم ، وأراد أن يَعْفُوَ عنهم ، وكان للأسود ٱبنُ عمٍّ يقال له : أبو أُذَيْنة ، قد قَتَلَ آلُ غَسّانَ له أخًا فى بعض الوقائع ، فقال قصيدته المشهورة يُغْرِى بهم الأَسْوَدَ بن النعمان :

ما كلُّ يوم ينال المرءُ ما طَلَبَا * ولا يُسَوِّغه المِقْدارُ[1] ما وَهَبَا

وأحزَمُ النَّاسِ مَنْ إن فُرْصةٌ عَرَضَتْ * لم يجعل السببَ المَوْصُولَ مُقْتضبَا

وأنصفُ الناسِ فى كلّ المواطن مَنْ * سَقَى المُعَادِين بالكأس الذى شَرِبَا

وليس يَظْلِمُهم مَنْ رَاحَ يَضْرِبُهم * بحدِّ سَيْفٍ به مَنْ قَبْلَهم ضُرِبَا

والعفوُ إلّا عن الأكفاءِ مَكْرُمَةٌ * مَنْ قال غيرَ الذى قد قُلْتُه كَذَبَا

قتلتَ عمرًا وتَسْتَبْقِى يَزِيدَ لقد * رأيتَ رأيا يجرّ الوَيْلَ والحَرَبَا

لا تَقْطَعَنْ ذَنَبَ الأَفْعَى وتُرْسِلَها * إن كنتَ شَهْمًا فأَتْبِعْ رأسَها الذَّنَبَا

هُمُ جَرَّدُوا السيفَ فٱجعلهُم له جَزَرًا[2] * وأَوْقَدُوا النارَ فٱجْعَلْهم لها حَطَبَا

إن تَعْفُ عنهم تقول الناسُ كلُّهُمُ * لم يَعْفُ حِلْمًا ولكن عَفْوُهُ رَهَبَا[3]

وكان أحسنَ مِنْ ذا العفو لو هربوا * لكنّهم أَنِفُوا مِنْ مِثْلِكَ الهَرَبَا

هُمُو أُهَيْلَةُ غَسّانَ ومجدُهُمُ * عال فإن حالوا مُلْكًا فلا عَجَبَا

وعَرَضُوا بِفِداءٍ واصِفِين لنا * خَيْلًا وإبلًا يَرُوقُ العُجْمَ والعَرَبَا

(١) المقدار هنا : القدر (بالتحريك) .

(٢) جزرا : قطعا . (٣) رهبا : خوفا .

أيحلبون دمًا منّا ونحلبهم * رِسْلًا[1] لقد شرّفونا فى الورَى حلبا
علامَ تقبل منهم فِدْيَةً وهُمُو * لا فِضّةً قبلوا منّا ولا ذَهَبا

فلمّا أنشده هذه القصيدة رجع عن رأيه فى العفو عنهم وقبولِ الفِداء منهم وقتلهم . والله أعلم .

ثم ملك بعده المنذرُ بنُ الأسود[2] ؛ وكانت أمّه ماء السماء[3] . وكانت مدّة مُلْكه أربعا وثلاثين سنة .

ثم ملك بعده عمرو بنُ المنذر . فكان مُلْكه أربعا وعشرين سنة .

ثم ملك بعده المنذرُ بنُ عمرو بن المنذر . وكان مُلْكه ستّين سنة .

ثم ملك بعده قابوسُ بنُ المنذر . فكانت مدّة ملكه ثلاثين سنة .

ثم ملك بعده أخوه المنذرُ بنُ المنذرِ بنِ ماء السماء .

ثم ملك بعده النعمانُ بنُ المنذر ؛ وهو الذى قيل له : « أبيتَ اللّعْنَ » وهو آخِرُ مَنْ ملك من آلهم . وكان مُلْكه آثنتين وعشرين سنة . وها نحن نذكر ما قيل فى سبب مُلْكه وزواله .

قالوا : وكان عدىّ بنُ زَيْد العِبَادىّ وآبنُه زيد بن عدىّ سبَبَ ولايته وسبَبَ هلاكه . وذلك أنّ عديّا وأخَوَيْه ، وهما عمّار وعمرو ، كانوا فى خدمة الأكاسرة ولهم من جهتهم قطائع ، وكان قابوسُ الأكبر عمّ النعمان بعث إلى كسرى أبرويز بعدىّ بن زَيْد وأخَوَيْه ليكونوا فى كتّابه يترجمون له ، فلمّا مات

(١) الرسل (بالكسر) : اللبن . والحلب (بالتحريك) : استخراج ما فى الضرع من اللبن .
(٢) ذكر أبو الفدا فى تاريخه (ص ١٢٦ طبع أوربا) ما يخالف ذلك فانظره .
(٣) اسمها ماوية بنت عوف بن جشم ، وإنما لقبت ماء السماء لحسنها وجمالها . (راجع تاريخ أبى الفداء ص ١٢٦ طبع أوربا وشرح قصيدة ابن عبدون ص ٩٦ طبع لندن) .

المنذر ترك من الأولاد آثنى عشر رجلا ، وهم الأشاهب[1] ، سُمّوا بذلك لجمالهم ، وفيهم يقول الأعشى :

وبنو المنذر الأشاهبُ بالحِـ * ـيرة يمشون غدوةً كالسيوف[2]

١٠٤
١٣

فجعل المنذرُ آبنه النعمان فى حجر عدىّ بن زيد هذا ، وجعل آبنه الأسود فى حجر رجل يقال له : عدىّ بن أوس بن مَرِينا ، و بنو مَرِينا[3] قومٌ لهم شَرَف ، وهم من لَخْم ، وترك المنذر بقيّةَ بنيه ، وهم عشرة ، يستقلّ كلّ واحد منهم بنفسه ، وجعل المنذر على أمره كلّه إياس بن قَبِيصة الطائىّ ، فلمّا مات قابوس طلب كسرى مَنْ يملّكه على العرب ، فدعا عدىّ بن زيد فقال له : مَنْ بَقِىَ من بنى المنذر ، وماهم ؟ وهل فيهم خيرٌ ؟ فقال : بقيّتهم فى ولد هذا الميّت ، يعنى المنذر ، وهم رجالٌ نجباء ، فكتب إليهم بالقدوم عليه ، فقَدِموا فأنزلهم ، على عدىّ بن زيد ، وكان عدىّ يرى موضع النعمان لأنه فى حِجْره ويختاره على بقيّة إخوته فى الباطن ، وهو يُظهر لهم خلاف ذلك ويفضّلهم عليه فى الظاهر ، ويكرم نُزُلَهم ويخلو بهم ويريهم أنه لا يرجو النعمان ، كلّ ذلك ، ليطمئنّوا إليه ويرجعوا إلى رأيه ، ثم خلا بكلّ منهم على آنفراده وقال لهم : إنْ سألكم المَلِك : أتكفونى العرب فقولوا : نكفيهم إلّا النعمان ، وقال للنعمان : إن سألك الملك عن إخوتك فقُل له : إنْ عجزتُ عنهم فإنّى عن غيرهم أعجز .

---

(١) الشهبة فى الأصل : بياض يخالطه سواد ، وقيل : البياض الذى يغلب على السواد ، وقد يقال على مطلق البياض كما قالوا : سنة شهباء : أى بيضاء لكثرة الثلج وعدم النبات . وفى القاموس : «والأشاهب بنو المنذر لجمالهم » قال شارحه السيد مرتضى : « سموا بذلك لبياض وجوههم » .

(٢) كذا فى شعر الأعشيين (ص ٢١٢ طبع أوربا) وفى الأصول : « بالسيوف » .

(٣) بنو مرينا : قوم من أهل الحيرة من قبائل العباد ، وهم الذين ذكرهم آمرؤ القيس فى قوله :

فلو فى يوم معركة أصيبوا * ولكن فى ديار بنى مرينا

وليس مرينا بكلمة عربية (انظر تاج العروس واللسان مادة مرن) .

قال : وكان عدىُّ بن أوْس بن مَرِينا داهيــةً أريبا ، وكان يُوصِى الأســود آبن المنذر ويقول : قد عرفتُ أنّى لك راجٍ ، وأنّ طُلْبتى اليك ورغبتى أن تخالف عدىّ بنُ زيد فيما يشير به عليك ، فإنه والله لا ينصح لك أبدا ، فلم يلتفت الأسودُ الى قوله . فلمّا أمر كسرى عدىّ بن زَيْد أن يُدْخلهم عليــه قدّمهم رجلا رجلا ، وكسرى يرى رجالا قلّما رأى مثلهم ، فإذا سألهم هل تكفونى العرب قالوا : تكفيك العرب كلّها إلّا النعمان . فلمّا دخل النعمان عليه رأى رجلا دميما قصيرا أحمرَ الشعر فكلّمه وقال : هــل تستطيع أن تكفينى العــرب ؟ قال نعم ، قال : فكيف تصنع بإخوتك ؟ قال : أيها الملك إن عجزتُ عنهم فإنّى عن غيرهم أعجز ، فملكه وكساه وألبسه تاجا قيمته ستّون ألف درهم . فلمّا خرج وملك على العرب قال عدىّ آبن أوْس بن مَرِينا للأسود بن المنذر : دونك فإنك خالفتَ الرأى .

قال : ثم إنّ عدىّ بن زيد صنع طعاما فى بِيْعة وأرسل الى ابن أوْس أن آئتنى مع مَن أحببتَ فإن لى حاجةً ، فأتاه فى أناس فتغدّوْا فى البِيْعة ، فقال عدىّ بن زَيْد لعدىّ بن أوْس : ياعدىّ إنّ أحق مَن عَرَف الحق ثم لم يَلُم عليه مَن كان مثلك ، إنّى عرفتُ أنّ صاحبك الأســودَ كان أحبّ إليك أن يُمَلَّكَ من صاحبى النعمان ، فلا تَلُمنى على شىء كنتَ على مثــله ، وأنا أحبّ ألّا تَحْقِد علىّ شيئا لو قَدَرْتَ عليه ركبتَــه ، وأحبّ أن تعطيَنى من نفسك ما أعطيك من نفسى ، فإنّ نصيبى من هذا الأمر ليس بأوفر من نصيبك . فقام عدىّ بن زَيْد الى البيعــة وحلف ألّا يهجُوَه ولا يبغيه غائلةً أبدا ، ولا يَرْوِى عنه خيرا ، وحلف عدىّ بن أوس على مثل يمينه ألّا يزال يهجوه أبدا ويبغيه الغوائل ما بَقِىَ . وخرج النعمان حتى أتى منزله بالحيرة ، وآفترق العديّان على وحشة ، فقال عدىّ بن أوس للأسود : إن لم تظفَر أفلا تعجَز أن تطلب بثأرك من هــذا المعدّىّ الذى عَمِل بك ما عَمِل ؟ فقــد كنتُ أخبرتك

أن معدًّا لاتنام عن مكرها، وأمرتُك أن تخالفه فعصيتني . قال : فما تريد؟ قال : ألّا تأتيك فائدة من مُلْكك ولا أرضك إلّا عرضتها علىّ، ففعل . وكان عدىُّ بنُ أوْس كثير المال، فلم يمرّ به يومٌ إلّا بعث فيه الى النعمان هديّة أو تُحْفة . فلمّا توالَى ذلك وكثُرت هداياه عند النعمان صار من أكرم الناس عليه، وصار لا يقضى فى مُلْكه شيئا إلّا برأى عدىّ بن أوس . فلمّا رأى مَن يطيف بالنعمان منزلة ٱبن أوس عنده تابعوه ولَزِمُوه، فكان يقول لمن يثق به من أصحاب النعمان : إذا رأيتمونى أذكر عدىَّ بنَ زيد عند الملك بخير فقولوا : إنه لكما يقول ولكنّه لا يُسَلِّم عليه أحد، وإنه يقول : إن الملك — يعنى النعمان — إنما هو عاملُه ، وإنه هو الذى ولّاه ما ولّاه .

فلم يزالوا بهذا وأشباهه حتى أضغنوا النعمان عليه. ثم إنهم كتبوا كتابا عن عدىّ الى قَهْرمان[1] كان له ، ودسّوا مَنْ أخذ الكتاب وأتى به النعمان فقرأه فغضِب، وأرسل إلى عدىّ بن زيد يقول : عزمتُ عليك إلّا زرتَنى فإنى قد اشتقتُ إليك، وكان عند كسرى، فٱستأذنه فى زيارة النعمان فأذِنَ له ، فلمّا أتاه لم ينظر إليه حتى حبسه، فجعل يقول الشعر ويستعطفه به ، فكان مما قاله :

أَبْلِغِ النُّعمانَ عنّى مَأْلُكًا[2] * إنه قد طالَ حَبْسِى وٱنْتِظَارِى

لو بغيرِ الماءِ حَلْقِى شَرِقٌ * كنتُ كالغصّان بالماء ٱعْتِصَارِى[3]

(١) القهرمان : الوكيل، أو أمين الدخل والخرج .

(٢) مألكا : المألك (بفتح اللام وضمها) : الرسالة ، لأنها تؤلك فى الفم (تلاك) ، قال ابن برّى : وقد يقال مألُكَة، وروى عن محمد بن يزيد أنه قال : مألك جمع مألكة . (انظر اللسان مادة ألك) . وقال البغدادىّ فى خزانة الأدب (ج ٣ ص ٥٩٧) : والمألك (بسكون الهمزة وضم اللام) : الرسالة ، وقال الزجاج : مألك جمع مألكة .

(٣) اعتصارى : قال الجوهرى : الاعتصار : أن يَغَصّ الإنسان بالطعام فيعتصر بالماء، وهو أن يشربه قليلا قليلا ليُسيغه ، وأنشد هذا البيت . وقال البغدادىّ فى الخزانة (ج ٣ ص ٥٩٦) : =

وقال أشعارا كثيرة كانت تبلُغ النعمان فندِمَ على حبسه وعَلِمَ أنه كِيدَ فيه ، فكان يُرسِل إليه ويَعِدُه ويُمَنّيه ، فلمّا طال سجنُه وأعياه التضرُّع إلى النعمان كتب الى أخيه أُبَيّ — وهو عمّار — وهو مع كِسْرى يخبره بحاله ، ويبعثه على السعى فى خلاصه ، فدخل أُبَيّ على كسرى وكلَّمه ، فكتب إلى النعمان فى أمره وبعث رسولا بكتابه ، فقال له أُبَيّ : إبدأ بعدىّ وآنظُره قبل أن تجتمع بالنعمان ، ورشاه على ذلك ، ففعل الرسولُ ذلك ودخل الى الحبس وآجتمع بعدىّ وقال له : ما تحبّ أن أصنع؟ قال : أُحِبّ ألّا تخرُج من عندى ، وأعطِني كتاب كسرى لأُرسله من قِبَلِي . قال : لا أستطيع ذلك . قال : فإنك إن خرجتَ من عندى قُتِلتَ . فقال : لا بدّ أن آتِيَ النعمانَ وأُوصِّله الكتابَ من يدى ، فآنطلَق إلى النعمان وأوصله الكتابَ فقبَّله وقال : سمعاً وطاعةً ، ووَصَلَه بأربعة آلافِ مثقال [ذهبا](١) وجارية [حسناء](١) وقال : إذا كان من غدٍ فآدخُل عليه وأخرِجْه بنفسك . وكان أعداء عَدِىّ أتَوْا النعمان وأخبروه أنّ رسول كسرى دخل إلى عدىّ وأنه إن خرج من الحبس لم يَسْتبقِ منّا أحدًا ، ولم تنجُ أنتَ ولا غيرُك ، فأمرَهم النعمانُ بقتله ، فدخلوا عليه لمّا خرج الرسولُ من عنده وغَمُّوه(٢) حتى مات ، فلمّا أصبح الرسولُ دخل السجن فقال له الحَرَس : إنّ عديّاً قد مات منذ أيام ، ولم نجرؤ أن نُخبر النعمان فَرَقاً منه لعلمنا بكراهيته لذلك ، فرجع الرسولُ إلى النعمان فقال :

= وتحقيقه أن الاعتصار الالتجاء ، كما قال أبو القاسم على بن حمزة البصرىّ فيما كتبه على النبات لأبى حنيفة الدينورىّ . وساق البغدادىّ كلام أبى القاسم هذا بنصه ، ثم قال : وقد صار هذا البيت مثلا للتأذى ممن يرجى إحسانه . وقد أورد الميدانىّ فى مجمع الأمثال المثل : « لو بغير الماء غصصت » وقال : إنه يضرب لمن يوثق به ثم يؤتى الواثق من قِبَله واستشهد بهذا البيت . وفى الأصول : « انتصارى » وهو تحريف .

(١) التكملة من الأغانى (ج ٢ ص ١٢١ طبع دار الكتب المصرية) .

(٢) يريد أنهم غطوا وجهه بشىء حتى اختنق .

إنّى كنتُ بدأتُ به فدخلتُ عليه وهو حىٌّ . فقال له النعمان : يبعثك الملك إلى فتدخُلَ إليه قبلى ، كذبتَ ! ولكنّك آرتشيْتَ وتهدّده ، ثم آستدعاه بعد ذلك وزاده جائزةً وكسوةً وآستوثق منه[1] وصرفه الى كِسْرى . فلمّا رجع إليه قال له : قد مات قبل مقدَمِى على النعمان .

قال : ثم نَدِم النعمان على قَتْل عدىّ ندما شديدا وآجترأ أعداءُ عدىّ على النعمان وهابهم ، ثم ركب النعمانُ فى بعض أيّامه للصَّيد فلقِىَ آبنًا لعدىّ بنِ زيد ، فكلّمه فإذا هو غلامٌ ظريفٌ ففرِح به النعمان وقرّبه ووصَلَه وآعتذر إليه ، ثم جهّزه[2] الى كسرى وكتبَ إليه : إنّ عدِيًّا كان ممن أُعِينَ به الملك فى نصيحته ورأيه ، فآنقضت مُدّته وآنقطع أجله ، ولم يُصَبْ به أحدٌ أشدّ من مصيبتى ، و إنّ المَلِك لم يكن ليَفقِدَ رجلا من عبيده إلّا جعل الله له منه خَلَفا ، وقد أدرك له آبنٌ ليس هو دُونه ، وقد سرَّحته إلى المَلِك فإن رأى أن يجعله مكانَ أبيه و يصرِفَ عمَّه إلى عَمَلٍ آخر فعَل . فأجابه كسرى إلى ذلك ورتَّبه فى وظيفة أبيه ، وسأله عن النعمان فأحسن الثناء عليه ، فمكث سنوات على منزلة أبيه وأُعجِبَ به كسرى . وكان لصاحب هذه الرُّتْبة على العرب وظيفةٌ فى كلّ سنةٍ من الأفراس والمهارة[3] والكَمْأَة والأَقِطِ والأُدْمِ وغيرِ ذلك ، وهو يلى ما يُكتَب عن كسرى إلى العرب .

قال : ثم تمكّن زَيْدُ بنُ عدىّ بن زَيْد عند كسرى حتّى كان يجتمع به فى أوقات خَلَواته ، فدخل عليه فى بعض الأيّام فكلّمه فيما دخل بسببه ، ثم جرى ذكر النساء ، وكانت عند الأكاسرة صفاتُ آمرأة ، ومن رَسْمهم أن يطلبوا للملك مَنْ هى متّصفةٌ

---

(١) عبارة الأغانى : « وتوثّق منه ألّا يخبر كسرى إلّا أنه قد مات قبل أن يقدَم عليه » .

(٢) جهزه : أعدّ له معدّات السفر .

(٣) المهارة : جمع المهر ، والمهر أوّل ما ينتج من الخيل والحمر الأهلية وغيرها .

بتلك الصفات . وكانت الصفةُ أنّ المنذرَ الأكبرَ أهدى إلى أنُوشِروانَ جارية كان أصابها لمّا أغار على الحارث الأكبر الغسّانىّ، فكتب إلى أنُوشِروانَ بصفة الجارية فقال : هى معتدلةُ الخلْق، نقيّةُ اللّون والثّغر، بيضاءُ قمراءُ وَطْفاءُ[1] دَعْجاءُ[2] حَوْراءُ عيناءُ [قنواءُ][3] شمّاءُ[4] [بَرْجاءُ][5] زَجّاءُ[6] أَسِيلةُ الخدّ، [شهيّةُ المقبَّل][7] جَثْلةُ[8] الشَّعْر، عظيمةُ الهامة، بعيدةُ مَهْوَى القُرْط عَيْطاءُ[9]، عريضةُ الصدر، كاعبُ الثدى، ضخمةُ مُشَاش[10] المَنْكِب والعضد، حسنةُ المِعْصَم، لطيفةُ الكفّ، سَبْطَةُ البَنَان، لطيفةُ طىِّ البطن، خَميصةُ الخَصْر، غَرْثَى الوِشاح[11]، رَدَاحُ الأقبال[12]، رابيةُ الكَفَل، مُفْعَمَةُ الساق[13]، لَفّاءُ الفَخِذين، رَيّا الروادف، ضخمةُ المأْكَمَتَيْن[14]، عظيمةُ الركبة، مُشْبَعَةُ الخَلْخال[15]، لطيفة

(١) الوطفاء : غزيرة الأهداب وشعر الحاجبين .

(٢) الدعج : شدّة سواد العين وشدّة بياض بياضها .

(٣) زيادة من الأغانى (ج ٢ ص ١٢٣ طبعة دار الكتب المصرية)، والقنواء : وصف من القنا وهو ارتفاع فى أعلى الأنف وأحديداب فى وسطه وسبوغ فى طرفه .

(٤) الشمم فى الأنف : ارتفاع القصبة وحسنها .

(٥) زيادة من الأغانى . والبرجاء : الجميلة الحسنة الوجه .

(٦) الزجاء : دقيقة الحاجبين فى طول . (٧) زيادة من الأغانى .

(٨) الجثلة : كثيفة الشعر سوداؤه . (٩) العيطاء : الطويلة العنق .

(١٠) المشاش : رءوس العظام مثل المنكبين والركبتين والمرفقين .

(١١) غرثى الوشاح : دقيقة الخصر .

(١٢) الرداح : العجزاء الثقيلة الأوراك التامة الخلق . والأقبال (بالفتح) : ما استقبلك من مشرف والواحد قبل (بالتحريك) .

(١٣) مفعمة الساق : ممتلئتها .

(١٤) المأكمتان : اللحمتان اللتان على رءوس الوركين، الواحدة مأكمة .

(١٥) مشبعة الخلخال : كناية عن السمن، وفى اللسان : امرأة شبعى الخلخال : ملأى سمنا .

الكعب [والقدم، قَطُوف المشى](١)، مِكْسَالُ الضُّحَى(٢)، بَضَّةُ المتجرَّد(٣)، سَمُوعٌ للسيّد، ليست بخَنْسَاءَ(٤) ولا سَفْعَاءَ(٥)، رقيقةُ الأنف، عزيزةُ النفس، لم تُغَذَّ فى بؤس، حَيِيَّةٌ رَزِينَةٌ، حليمةٌ رَكِينَةٌ(٦)، كريمةُ الخال، تقتصر بنسب أبيها، وبفصيلتها دون جِمَاع(٧) قبيلتها، قد أحكمتها التجاربُ فى الأدب(٨)، رأيها رأىُ أهل الشرف، وعملُها عملُ أهل الحاجة، قَطِيعةُ(٩) اللسان، رَهْوَةُ(١٠) الصوت [ساكنته](١١)، صَنَاعُ الكفَّين(١٢)، تَزِينُ البيتَ وتَشِينُ العدوَّ إن أردتَها اشتهتْ، وإن تركتَها انتهتْ، تُحَمْلِقُ(١٣) عيناها، وتحمَرُّ وجنتاها، وتَذَبْذَبُ شفتاها، وتبادِرُكَ الوثبةُ [إذا قمتَ، ولا تجلسُ إلا بأمرك إذا جلستَ](١٤). فقبِلَها أنُوشِرْوَانُ وأمر بإثبات هذه الصفة فى ديوانه(١٥)، فكانت تتوارثُ

(١) زيادة من الأغانى . والقطوف : وصف من القطاف وهو تقارب الخطو .

(٢) المكسال : المرأة التى لا تكاد تبرح مجلسها ، وهو مدح لها مثل نؤوم الضحى .

(٣) البضة : الناعمة ، يقال : امرأة بضة المتجرّد (بالفتح) أى بضة عند التجرّد ، فالمتجرّد على هذا مصدر . ومن قال : بضة المتجرِّد (بالكسر) أراد الجسم .

(٤) الخنساء من الخنس (بالتحريك) وهو تأخر الأنف الى الرأس وارتفاعه عن الشفة وليس بطويل ولا مشرف ، وقيل هو قريب من الفطس وهو لصوق القصبة بالوجنة وضخم الأرنبة .

(٥) السفعاء من السفع (بالتحريك) وهو السواد والشحوب . وفى الحديث : « أنا وسفعاء الخدّين الحانية على ولدها يوم القيامة كهاتين » وضم أصابعه ، أراد بسفعاء الخدّين أنها بذلت نفسها وتركت الزينة والترفه حتى شحب لونها واسودّ ، إقامة على ولدها بعد وفاة زوجها .

(٦) ركينة : ساكنة وقورة . (٧) عبارة الأغانى هنا : « تقتصر على نسب أبيها دون فصيلتها ، وتستغنى بفصيلتها دون جماع قبيلتها » . (٨) فى الأغانى : « الأمور » .

(٩) كذا فى الأصول بهاء التأنيث ، وفى القاموس واللسان : « وامرأة قطيع الكلام بغير هاء إذا لم تكن سليطة » . (١٠) رهوة الصوت : رقيقته سهلته .

(١١) التكلة من الأغانى . (١٢) فى الأغانى « الولى » .

(١٣) فى اللسان : والمحملق من الأعين : ما حول مقلتيها بياض لم يخالطه سواد .

(١٤) التكلة من الأغانى . (١٥) فى الأغانى : « دواوينه » .

حتى انتهى المُلْك الى كِسْرى أَبْرَوِيز بن هُرْمُز. فلمّا قُرِئت هذه الصفة عليه قال له زَيْد بن عدىّ : أيها الملك، أنا أخبر بآل المنذر، وعند عبدك النعمان من بناته وبنات عمّه وأهله أكثرُ من عشرين امرأة على هذه الصفة . فقال له كسرى : اكتب فيهنّ إليه . فقال : أيها الملك، إنّ شرّ شىء فى العرب وفى النعمان [خاصّةً] (١) أنهم يتكرّمون — [زعموا] (٢) فى أنفسهم — عن (٣) العجم، فابعثنى اليه وابعث معى رجلا [من ثِقاتك] (٤)

٥ يفقه العربية . فبعث معه رجلا جَلْدا [فَهِماً] (٥)، فخرج به زيد حتى أتى الحيرة ودخل على النعمان؛ فلما دخل عليه عظّم الرسول أمر كسرى وقال له : إنه قد احتاج إلى نساء لأهله وولده فأراد كرامتكَ [بصهره] (٦) وبعث إليك فيهنّ . فقال النعمان : وما صفةُ هؤلاء النِّسوة؟ قال : هذه صفتُهنّ قد جئناك بها، وقرأها على زَيْد بن عدىّ، فشقّ

١٠ ذلك على النعمان وقال لزيد وللرسول : أمَا فى مَهَا السَّواد وعِين فارسَ ما تبلُغون به حاجتَكم؟ فقال الرسولُ لزيد : ما المَهَا والعِينُ؟ قال : البقر. فقال زيد للنعمان : إنما أراد المِلكُ كرامتَكَ، ولو عَلِمَ أنّ ذلك يشُقُّ عليكَ لمَا كَتَبَ إليكَ، فأنزلها [يومين عنده] (٧) ثم كتب الى كسرى . إنّ الذى طلب الملكُ ليس عنـدى . ثم قال لزيد : أعذِرْنِى عنده . فلمّا رجعا الى كِسْرَى قال لزيد : أين ما كنتَ أخبرتَنى به؟ قال :

١٥ قد كنتُ أخبرتكَ بِضِنَّتِهم بنسائهم على غيرهم، وإنّ ذلك من شقائهم، فسَلْ هذا الرســول عن مقالة النعمان فإنى أكره أن أواجه الملك بمـا قاله، فقال للرســولَ : وما قال؟ قال إنه قال : أمَا فى بقرِ السواد [وفارِس] (٨) ما يكفى الملك حتى يطلبَ

(١) زيادة من الأغانى . (٢) زيادة من الأغانى .

(٣) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : « على » . (٤) زيادة من الأغانى .

(٥) زيادة من الأغانى . (٦) زيادة من الأغانى . (٧) زيادة من الأغانى .

(٨) زيادة من الأغانى .

ما عندنا! فعُرِفَ الغضبُ فى وجه كسرى ثم قال : رُبَّ عبدٍ قد قال هذا فصار أمره الى التَّبَاب (١) ، فبلغ كلامُه النعمانَ (٢) . وسكتَ كسرى على ذلك أشهرًا ، وهو يستعدّ ويتوقّعُ حتى أتاه كتابُ كسرى يستدعيه ، فانطلق النعمانُ حتى أتى جبال طَيِّئٍ وهو متزوّج منهم (٣) ، فأرادهم أن يمنعوه فأَبَوْا ذلك وقالوا : لولا صِهْرُكَ لقتلناكَ ، فإنه لاحاجة لنا فى مُعَاداة كسرى ، فأقبل يَعرِض نفسه على العرب فلا يقبلوه ، حتى نزل بذى قَارٍ (٤) ببَنِي شَيْبانَ سِرًّا فلقِيَ هانئَ بن قَبِيصة [بن هانئ] (٥) بن مسعود فأودعه سلاحه وتوجه إلى كسرى فلقِيَ زَيْد بن عدىّ على قنطرة سَابَاطَ (٦) ، فقال له : انْجُ نُعَيمُ! فقال : أنت يازيدُ فعلتَ هذا! أمَا والله لئن أُفلت لأَسقينَّك بكأس أبيك! فقال له زَيْد : امضِ نُعيم ، فقد والله وضعتُ لك عنده أَخِيَّةً (٧) لا يقطَعها المُهرُ الأرِنُ (٨) . قال : فلما بلغ كسرى أنه بالباب أمر به فقُيِّد وأبعده الى خَانِقِين (٩) ، فلم يزل بالسجن حتى مات بالطاعون .

---

(١) التباب : الهلاك والخسران . (٢) يريد النعمان .

(٣) كان عنده منهم فرعة بنت سعد بن حارثة بن لأم ، وزينب بنت أوس بن حارثة كما فى الأغانى .

(٤) ذو قار : ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط ، وفيه كانت الوقعة المشهورة بين بكر بن وائل والفرس .

(٥) زيادة من النقائض (ص ٦٣٩ طبع أوربا) وهنا فى الأغانى (ج ٢ ص ١٢٦ طبع دار الكتب المصرية) حديث دار بين النعمان وبين قبيصة بن هانئ توجه على أثره النعمان لمقابلة كسرى ، فانظره .

(٦) ساباط : موضع بالمدائن لكسرى أبرويز .

(٧) الأخية (بتشديد الياء) كأبية ، ويقال أخية بتخفيف الياء وآخية بالمد والتشديد : عود يعرض فى الحائط ويدفن طرفاه فيه ويصير وسطه كالعروة تشدّ اليه الدابة . وقال ابن السكيت : الأخية : أن يدفن طرفا قطعة من الحبل فى الأرض وفيها عصية أو حجير ويظهر منه مثل عروة تشدّ إليها الدابة ، وإنما تؤخى الأخية فى مهواة الأرضين لأنها أرفق بالخيل من الأوتاد الناشزة عن الأرض .

(٨) الأرن : النشيط .

(٩) خانقين : بلدة من نواحى السواد فى طريق همذان من بغداد ، بينها وبين قصر شيرين ستة فراسخ لمن يريد الجبال ، وبها عين للنفط عظيمة كثيرة الدخل .

قال ابن مِسْكَوَيْه فى كتاب تجارب الأمم : والناس يظنون أنه مات بسَاباط لبيت قاله الأعشى(١) . والصحيح ما قلناه .

وقال ابن عَبْدون : إنّ النعمان لمّا أقبل الى المدائن(٢) صفّ له كِسْرَى ثمانية آلاف جارية عليهنّ المصبّغات وجعلهنّ صَفّين ، فلمّا صار النعمان بينهنّ قُلْنَ له : أمَا فينا للملك غِنًى عن بقر السَّواد ؟ وأنّ كِسْرَى أمر بالنعمان فحُبِسَ بساباط المدائن(٣) ، ثم أمر به فرمِي بين أرجلِ الفِيلة فوطئته حتى مات . وفى ذلك يقول سَلَامة بن جَنْدَل(٤) وذكر [قَتْلَ(٥)] كِسْرَى أبرويز [للنّعمان(٥)] فقال :

هو المُدْخِل النُّعمانَ بَيْتًا سَمَاؤُه * نُحُورُ الفُيولِ بعْدَ بَيْتٍ مُسَرْدَقِ(٦)

ثم ملك بعده إياسُ بنُ قَبِيصة وأتى الله تعالى بالإسلام . فهؤلاء ملوك العرب باليمن والشام والحِيرَة .

(١) البيت هو :

فذاك وما أنجى من الموت ربه * بساباط حتى مات وهو مُحُزْرَقُ

والمحزرق : المضيق عليه فى حبسه . ويروى : «محرزق» بتقديم الراء على الزاى . قال فى اللسان : « روى ابن جنى عن التوزىّ قال : قلت لأبى زيد الأنصارى : أنتم تنشدون قول الأعشى « ...... حتى مات وهو محزرق » وأبو عمرو الشيبانى ينشده بتقديم الراء على الزاى فقال : إنها نبطية ، وأم أبى عمرو نبطية فهو أعلم بها منا » .

(٢) راجع شرح قصيدة ابن عبدون (ص ١٣١ طبع أوربا) .

(٣) المدائن : الموضع الذى كان مسكن الملوك من الأكاسرة ، فكان كل واحد منهم إذا ملك بنى لنفسه مدينة إلى جنب التى قبلها وسماها باسم فسميت المدائن بذلك . وكان فتحها فى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه على يد سعد بن أبى وقاص فى صفر سنة ١٦ هـ .

(٤) هو من بنى عامر بن عبيد بن الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم جاهلىّ قديم ، وهو من فرسان تميم المعدودين (راجع الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٤٧ طبع أوربا) .

(٥) التكملة من لسان العرب مادة « سردق » .

(٦) فى اللسان مادة « سردق » ورد هذا البيت وفيه « صدور الفيول » بدل «نحور» . والبيت المسردق : هو الذى يكون أعلاه وأسفله مشدودا كله .

ذكر خبر سَدّ مَأرب وسَيْل العَرِم[(١)]

قد ذكر الله عزّ وجلّ ذلك فى كتابه العزيز فقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسَاكِنِهِمْ[(٢)] آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ العَرِمِ ﴾ الآية[(٣)]. رُوِىَ عن فَرْوة بن مُسَيك[(٤)] عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لمّا أنزل فى سبأ ما أنزل قال رجل : يارسول الله، وما سبأ؟ أرضٌ أو آمرأة؟ فقال : "ليس بأرضٍ ولا آمرأةٍ، ولكنّه رجلٌ وَلَدَ عشرة من العرب فتيامَنَ منهم ستّة وتَشاءم منهم أربعة ، فأمّا الذين تشاءموا فلَخْم وجُذام وغَسّان وعامِلَة ،وأمّا الذين تيامَنُوا فالأَزْد والأشعرون[(٥)] وحِمْير وكِنْدة ومَذْحِج وأنمار" فقال رجلٌ : يارسول الله، وما أنمار؟ قال : "الذين منهم خَثْعم وبَجِيلة" . أخرجه أبو داود فى سننه والترمذىّ فى جامعه .

وكانت أرض مأرِبَ من بلاد اليمن متّصلةَ العِمارةِ مسيرةَ ستّة أشهر، وقيل أزيد من شهرين للراكب المجدّ، وكانوا يَقتَبِسون النار بعضهم من بعض مسيرةَ ستّة أشهر؛

---

(١) السدّ (بالفتح والضم) : الجبل والحاجز وبهما قرئ قوله تعالى : «حتى اذا بلغ بين السدين» .

(٢) «فى مساكنهم» قراءة نافع، وقراءة حفص : «فى مسكنهم» .

(٣) الآيتان ١٥ و ١٦ من سورة سبأ .

(٤) كذا فى تهذيب التهذيب (ج ٧ ص ٢٦٥ طبع الهند) وتفسير القرطبي (ج ١٤ ص ٢٨٢ طبع دار الكتب المصرية) . وهو فروة بن مسيك بن الحارث بن سلمة بن الحارث بن كريت، ويقال بدل كريت ذوئب بن مالك بن منبه بن عطيف المرادى ثم الغطيفى . له صحبة ، أسلم سنة تسع وسكن الكوفة ، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم، واليه وعنه روى أبو سيرة النخعى وهانىء بن عرة المرادى وعامر الشعبي وسعيد بن أبيض بن جمال وغيرهم . وفى الأصول : «عروة» وهو تحريف .

(٥) الأشعرون : نسبة الى الأشعر، وهو أبو قبيلة من اليمن، وهو أشعر بن سبأ بن يشجب بن يعرب ابن قحطان، وتقول العرب : جاءتك الأشعرون، بحذف ياءى النسب (راجع لسان العرب مادة شعر) . وفى تفسير القرطبي (ج ١٤ ص ٢٨٣ طبع دار الكتب) : «الأشعريون» بإثبات ياءى النسب .

فكانت المرأة إذا أرادت أن تجتنِىَ من ثمارها [شيئا][1] وَضَعتِ المِكْتَل[2] على رأسها وخرجت تمشِى بين الأشجار وهى تغزِل وتعمَل ماشاءت ، فلا ترجِع إلّا وقد آمتلأ مِكْتَلُها مما يتساقط فيه من الثمار .

واختُلِف فى مأرِب ، فقيل : إنه آسمُ مَلِك تلك الأرض فسُمِّيت به ، قال الشاعر[3] :

مِنْ سبأَ[4] الحاضِرين مأرِبَ إذ * يَبْنُون مِن دُونِ سَيْلِهِ العَرِما

وقيل : هو آسمٌ لقصر الملك ، وفيه يقول أبو الطَّمَحان :

ألم ترَوْا مارِبًا ما كان أَحْصَنَهُ * وما حَوَالَيْهِ من سُورٍ وبُنيانِ

قال : وكان أوّل مَنْ خرج من اليمن بسبب سَيْل العَرِم عمرو بن عامر مُزَيْقِيَا ، وقد ذكرناه فى الأنساب[5] ، وإنّ سببَ تسميته مُزَيْقِيَا أنه كان يلبس فى كلّ يومٍ حُلّة وقيل حُلّتين ، وهو الأشهر ، ثم يمزِّقهما عشيّةَ نهاره لئلّا يلبسهما غيره ، فكان هذا دأبه فى كلّ يوم .

---

(١) التكملة من شرح قصيدة آبن عبدون .

(٢) المكتل . زنبيل يعمل من الخوص يحمل فيه التمر وغيره .

(٣) هو النابغة الجعدىّ : وهو أبو ليلى قيس بن عبد الله بن عدس بن ربيعة بن جعدة بن كعب آبن ربيعة بن عامر بن صعصعة . شاعر إسلامى ، وكان أوصف الناس للتخيل .

(٤) سبأ (بفتح الهمزة) على أنه ممنوع من الصرف لأنه آسم قبيلة ، وبهذه الرواية قرأ أبو عمرو وآبن كثير . وفى طبقات الشعراء لابن سلام (ص ٢٧ طبع أوربا) : «أخبرنا ابن سلام قال : قلت ليونس : كيف تقرأ : (وجئتك من سبأ بنبإ يقين) ؟ فقال : قال الجعدىّ وهو أفصح العرب :

من سبأ الحاضرين مأرب إذ * يبنون من دون سيله العرما

وهو على قراءة «أبى عمرو ويونس» . والعرم (بالكسر) : هو هنا الأحباس تبنى فى أوساط الأودية وهو جمع واحده عرمة . وهذا البيت من قصيدة للجعدىّ ذكرها ابن قتيبة فى كتابه «الشعر والشعراء» (ص ١٦٣ طبع أوربا) .

(٥) راجع (ج ٢ ص ٣١٤ من هذه الطبعة) .

وكان سببُ خروجه من اليمن وآطّلاعه على خبر سَيْلِ العَرِم قبلَ حدوثه دُونَ غيره من الناس أنه كان له آمرأةٌ كاهنةٌ يقال لها : طُرَيفة الخير، وكانت قد رأتْ فى منامها انّ سحابةً غَشِيتْ أرضَهم فأرعَدَتْ وأبرقَتْ ثم أصعقَتْ فأحرقَتْ كلّ ما وقَعَتْ عليه، ففَزِعَتْ طُرَيفةُ الخيرِ لذلك فَزَعًا شديدًا وأتتْ إلى زوجها عمرو بن عامر وقالت : ما رأيتُ اليومَ أزال عنى النوم . فقال لها : مارأيتِ ؟ قالت : رأيتُ غَيْما أرعدَ وأبرقَ طويلا ثم أصعَقَ فما وقع على شىء إلّا آحترق . قال : فلمّا رأى ما داخَلَها من الرَّوْع والفَزَع سكّنها .

ثم إنّ عَمرًا بعد ذلك دخل حديقةً له ومعه جاريةٌ من بعض جواريه، فبلغ ذلك آمرأتَه طُرَيفةَ فخرجتْ إليه ومعها وَصِيفٌ لها آسمه سنان[1] ، فلمّا برزت من بيتها عَرَض لها ثلاثَ مناجد منتصباتٍ على أرجلها ، واضعاتٍ أيديها على أعينها . قال : والمناجد : دوابّ تشبه اليرابيع[2] . فلمّا نظرت طُريفة إليها قعدت الى الأرض ووضعت يديها على عينيها وقالت لغلامها : إذا ذهبت هذه المناجد فأخبرنى، فلمّا ذهبت أعلمها فآنطلقتْ مسرعة، فلمّا عارضها خليج الحديقة التى فيها عمرو وثبت سُلَحفاةٌ من الماء فوقعتْ فى الطريق على ظهرها وجعلتْ تَرُوم الآنقلاب ولا تستطيع، وتَسْتعفِر بيديها وتحثُو التراب على بطنها من جَنَباته وتَقذِف بالبَوْل . فلمّا رأتْها طُرَيفة الخير جلست إلى الأرض . فلمّا عادتِ السُّلَحفاةُ إلى الماء مَضَتْ طُرَيفة حتى دخَلتِ الحديقة على عمرو حين آنتصَفَ النهار فى ساعةٍ شديدةِ الحَرّ فإذا الشجرُ يتكافأ من غير ريح، فلمّا رآها عمرو آستحيي منها وأمر الجارية بالتنحّى

(١) كذا فى شرح قصيدة ابن عبدون (ص ٩٩ طبع أوربا) وفى الأصل : « سنا ».

(٢) ورد فى اللسان (مادة خلد) : « الخلد والخلد : ضرب من الفأرة أو هو الفأرة العمياء، وجمعها مناجد على غير لفظ الواحد، كما أن واحدة المخاض من الإبل خلفة ».

ثم قال لها : ما أتى بكِ يا طُرَيفة ؟ فكهنَتْ وقالت : والنورُ والظلماء، والأرضُ والسماء، إنّ الشجرَ لهالك، وليعودنّ المـاء كما كان فى الزمن السالك . قال لها عمرو: ومَن خبّرَكِ بهذا؟ قالت : أخبرنى المناجيدُ بسنين شدائد، يقطع فيها الولدُ الوالد . قال : فما تقولين ؟ قالت : أقول قولَ النَّدمان لَهْفا، لقد رأيتُ سُلَحفاةً تَجرِف التراب جَرْفا، وتقـذِفُ بالبَوْل قَذْفا، فدخلَتِ الحـديقة فإذا الشجرُ من غير ريح يتكافأ . قال عمرو: وما تَرَيْنِ فى ذلك؟ قالت : هى داهيةٌ دهياءُ من أمورٍ جسيمة، ومصائبَ عظيمة . قال : وماهو وَيْلك ؟ قالت : أجل، إنّ فيه الويل ، ومالك فيه من نيل ، وإنّ الويل فيما يجىء به السيل . فألقى عمرو نفسه على فراشه وقال : ما هذا يا طُرَيفة ؟ قالت : هو خَطْبٌ جليـل، وحزْنٌ طويل، وخَلَفٌ قليـل، والقليلُ خيرٌ من تركه . قال : وما علامةُ ما تذكُرِينَ ؟ قالت : اذهبْ الى السدّ فإن رأيتَ جُرَذًا يكثر يديه فى السدّ الحَفْر، ويَقلِب برجليه مَرَاجِلَ الصَّخْر، فاعلم أن الغُمر(١) غمر، وإن [قد](٢) وقع الأمر . قال : وما هذا الذى تذكُرِينَ؟ قالت : وَعْدٌ من الله نَزَل، وباطلٌ بطَل، ونكالٌ بنا نكَل . قال : فانطلق عمرو الى السدّ يحرسه فإذا الجُرَذ يَقلِب برجليه صخرةً ما يَقلِبها خمسون رجلا، فرجع إليها وهو يقول :

أبصرتُ أمرًا عادنى منـه أَلَمْ * وهاجَ لى من هوله برحُ السَّـقَمْ
من جُرَذٍ كفَحْل خنزير الأجَمْ * أو كَبْش صَرم من أفاويق الغَنَمْ
يَقلِب صَخْرًا من جلاميد العَرِمْ * له مخـاليبٌ وأنيـابٌ قُـضُمْ
* مافاته صَخْـرٌ من الصخر قَصَمْ *

(١) الغمر : المـاء الكثير. وفى الأصول : «الغفر غفر» وهو تحريف . وما أثبتناه عن شرح قصيدة ابن عبدون (ص ١٠٠ طبع أوربا) . وفى التعليق على هـذه الكلمة بأسفل الصفحة إشارة إلى اختلاف الروايات فيها فيما بين : الغفر غفر والحفر عقر والعفر غفر .

(٢) زيادة من شرح قصيدة ابن عبدون .

فقالت طُرَيفة : وإنّ من علامة ماذكرتُ لك أن تجلس فتأمر بزجاجة بين يديك ، فإنّ الريح تملأُها بتراب البَطْحاء من سهل الوادى ورَمْله ، وقد علمتُ أنّ الجنانَ مُظَلّلةٌ ما يدخلها شمسٌ ولا ريحٌ . فأمر عمرو بزُجاجةٍ فوُضِعَتْ بين يديه فلم تمكُث إلّا قليلا حتى آمتلأتْ من تراب البطحاء . فقال لها عمرو : متى يكون هلاكُ السدّ؟ فقالت : فيما بينك وبين سبع سنين . فقال : ففى أيّها يكون؟ فقالت : لا يعلم ذلك إلّا اللهُ ، ولو علمه أحدٌ لعلمتُه ، ولا تأتى علىّ ليلةٌ فيما بينى وبين السبع سنين إلّا ظننتُ أنّ هلاكَنا فى غَدِهَا أو مَسائها .

ثم رأى عمرو بعد ذلك فى منامه سَيل العَرِم وقيل له : آيةُ ذلك أن ترى الحَصْباء[1] قد ظَهَرت فى سَعَف النخل وكَرَبِه[2] ، فنظر إليها فوجد الحَصْباءَ قد ظَهَرتْ فيها فعَلِم أنّ ذلك واقعٌ ، وأنّ بلادَهم ستُخْرَب لا محالةَ ؛ فكتم ذلك وأخفاه وأجمع على بيع كلّ شىء له بأرض مَأْرِب ويخرج منها هو وولَدُه ، ثم خَشِىَ أن ينكر الناسُ حاله فصنع وليمة جمع الناس لها وقرّر مع أحد أولاده أنه يأمره بأمر فى ملأ القوم فيخالفه فإذا لطَمَه عمرو فيلطِمَه الآخر ، ففعل ذلك . فلمّا لطمه آبنُه — وكان اسمه مالكا — صاح عمرو : واذُلّاه ! يومَ فَخْرِ عمرو يهينُه صبىّ ويَضرِبُ وجهه ! وحلف ليقتلنّه ، فسأله القوم ألّا يفعل ، فحلف ألّا يقيم بموضع صُنِع به فيه هذا ، وليبيعَنّ أموالَه حتى لا يُورَث بعدَه . فقال الناس بعضُهم لبعض : اغتنموا غَضْبةَ عمرو وآشتروا منه قبل أن يرضَى ، فابتاع الناسُ منه جميعَ ما هو له بأرض مأرِبَ ، وفشا بعضُ حديثه فباع أُناس من الأزْد ، فلما كثُر البَيْع آستنكر الناسُ ذلك فأمسكوا عن الشراء ، فلمّا آجتمعت لعمرو أموالَه أخبر الناسَ بشأن سَيْل العَرِم وخرج من اليمن ، وخرج

(١) المراد بالحصباء هنا أشبه بالبثور التى تخرج بالبدن وتظهر فى الجلد .

(٢) الكرب (محركة) : أصول السعف الغلاظ العراض التى تقطع معها .

لخروجه منهـا خَلْقٌ كثيرٌ فنزلوا أرضَ عَكّ حتى مات عمرو بن عامر وتفرّقوا بعده فى البلاد؛ فمنهم مَن صار الى الشام، وهم أولادُ جَفْنة بن عمرو بن عامر، ومنهم من صار الى يَثْرِبَ، وهم أبناء قبيلة الأَوْس والخَزْرَج، وأبوهما حارثةُ بنُ ثعلبة بن عمرو ابن عامر، وصارت أَزْدُ الشَّرَاة الى أرض الشَّراة، وأزْدُ عُمَان الى عُمَان، ومالك بن فهم الى العراق .

ثم خرجتْ بعـد عمرو بيسير من أرض اليمن طيِّء فنزلت بجبلَىْ طيِّء : أجَا وسَلْمَى ، ونزل ربيعةُ بنُ حارثة بن عمرو بن عامر تهامة، وسُمُّوا خُزَاعة لانخزاعهم [من أخواتهم] (1) ، وتمزّقوا فى البـلاد كما أخبر الله تعـالى عنهم فقال : ﴿ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ ثم أرسل الله عزّ وجلّ السيلَ على السدّ فهدمه .

واختُلِفَ فى العَرِم ماهو ؟ فقيل : السدّ واحدتُه عَرِمَة ، وقيل : هو الجُرَذ . وكان السدّ فيما يُذكَر قد بناه لُقْمانُ الأكبرُ بن عاد، وكان صفّه لحجارة السدّ بالرّصاص فرسخا فى فرسخ . ويقال : إنّ الذى بناه كان من ملوك حِمْير . وقد ذكر ذلك ميمون ابن قيس الأعشى فقال :

وفى ذلك للمُؤتسِى أُسـوةٌ * ومأرِبُ عفَّى عليها العَرِمْ

رُخامٌ بَنَتْـه لهـم حِمْـيرٌ * إذا جاء مَـوّاره لم يُـرِمْ

فصـاروا أيادِى ما يقـدرو * ن منه على شُرْب طِفْلٍ فُطِمْ

فأروَى الزروعَ وأعنـابَهـا * على سعةٍ ماؤهـا إذ قُسِـمْ

(1) زيادة من شرح قصيدة ابن عبدون .

الباب الخامس

من القسم الرابع من الفنّ الخامس

فى أيام العرب ووقائعها فى الجاهليّة ، وأنها لمن مآثرها السنيّة ، وإذا تأمّلها المتأمِّل دلّته على مكارم أخلاقهم وكَرَم نجارهم ، وحقَّقتْ عنده أنهم ما أحجموا عن طلب أوتارهم ، وعلم مكافأتهم للأقران ، وسماحتهم بالنفوس والأبدان ، وإقدامهم على الموت ، ومبادرتهم عند الإمكان خشيةَ الفَوْت .

وقيل لبعض الصحابة رضى الله عنهم : ما كنتم تتحدّثون به إذا خَلَوتم فى مجالسكم؟ فقال : نتناشد الشعر ونتحدث بأخبار جاهليّتنا .

وقال بعضهم : وددت أنّ لنا مع إسلامنا كَرَم أخلاق آبائنا فى الجاهليّة . ألا ترى أنّ عنترةَ الفوارس جاهلىّ لا دينَ له ، والحسَن بنَ هانئ إسلامىّ ، فمنع عنترة كرمه ما لم يمنع ابن هانئ دينه ، فإنّ عنترة يقول :

وأغُضّ طَرْفِى إنْ بَدَتْ لى جارتى * حتى يُوارِى جارتى مأواها

وقال أبو نُوَاس الحسن بن هانئ :

كانَ الشباب مَطيّةَ الجهل * ومُحَسِّنَ الضَّحكَاتِ والهَزْلِ
والباعِثِى والناسُ قد هَجَعُوا (١) * حتى أبيتَ خليفةَ البَعْلِ

وسأذكر من وقائعهم ما يُقوِّى الجَنَان ، ويبعث الجبان .

---

(١) فى ديوانه : « رقدوا » بدل هجعوا .

ذكر وقعة طَسْم وجَدِيس

وطَسْمُ بْنُ لَاوَذ بنِ إرَمَ بنِ سامِ بن نُوحٍ عليه السلامُ، وجَدِيسُ بْنُ عابِر بنِ إرَمَ ابنِ سام بنِ نُوحٍ عليه السلام، وهم العربُ العاربة، على ما ذكر بعض المؤرّخين. وكان منزلها اليمامة[١]، وآسمُها فى وقتهم جَوّ؛ وكان الملك عليهما رجلا من طَسْم يقال له: عِمْلِيق، وكان غَشوما ظَلوما. وكان سبب فنائهما أنّ عِمْليقا أتتـه ذاتَ يوم آمرأةٌ آسمُها هُزَيْلة بنت مازِن مع زوج لها آسمه ماش[٢]، وكان قد طلّقها وأراد أخذ ولده منها، فترافعا إليه ليحكم بينهما، فقالت هُزَيْلة: «أيها الملك، هذا آبنى حملته تسعا، ووضعته دَفْعًا، وأرضعته شَفْعًا، ولم أنل منه نفعا، حتى إذا تمّت أوصالُه، وآستوتْ خِصالُه[٣]، أراد أن يأخذه منّى قَهْرًا[٤] ويَسْلُبنيه سرّا، ويترك يدى منه صِفْرا». فقال الزوج: «قد أخذتِ المَهْرَ كاملا، ولم أنَلْ منكِ طائلا، إلّا ولدا جاهلا[٥]، فآفعلْ ما كنتَ فاعلا». فأمر الملك أن يجعل الولد فى غلمانه، فقالت هُزَيْلة:

أتينـا أخا طَسْمٍ لِيَحْكُمَ بيننـا * فأبرمَ حُـكْمًا فى هُزَيْلةَ ظالمـا
لَعَمْرِى لقـد حُكِّمْتَ[٦] لا مُتَوَرِّعًا * ولا فَهِمًا عنـدَ الحكومةِ عالمـا
نَدِمْتُ فـلم أقدِر على مُتَزَحْزَحٍ * وأصبح زَوْجِى عاثِرَ الرأى نادما

---

(١) اليمامة: مدينة بالبادية من بلاد العوالى، وبها قد تنبي مسيلمة الكذاب، وهى بلاد بنى حنيفة، وهى عن البصرة ست عشرة مرحلة، وعن الكوفة مثل ذلك. (راجع تقويم البلدان لأبى الفدا).

(٢) فى الأغانى (ج ١١ ص ١٦٤ طبع دار الكتب المصرية): «قرقس».

(٣) فى الأغانى: «ودنا فصاله». (٤) فى الأغانى: «كرها، ويتركنى من بعده ورها».

(٥) فى الأغانى: «إلا وليدا خاملا».

(٦) فى الصبح المنير (ص ٧٥ طبع أوربا): «حكمت» بفتح التاء على الخطاب. ورواية الشطر الثانى فيه هكذا: * ولا كنت ممن يبرم الحكم عالما *
ورواية الأغانى هكذا: * ولا كنت فيما تبرم الحكم عالما *

فلمّا بلغ عِمْليقًا ذلك غَضِبَ وأقسم أنه لا تُهْدَى عَرُوسٌ فى جَدِيس لبعلها حتى يكون هو الذى يبدأ بها قبل زَوْجها . فلم يزل على ذلك دهرا حتى أُهْدِيت عُفَيرة[1] بنت عَفَار[2] الجَدِيسيّة أخت الأسْوَد بن عَفَار[2] سيّد جَدِيس إلى بعلها ، ويقال : إنّ اسمها الشَّمُوس ، فحُمِلَتْ إلى عِمْليقٍ ، فلمّا ٱفترعها وخلّى سبيلَها خرجتْ على قومها فى دمائها شاقّة جيبها عن قُبُلِها ودُبُرِها وهى تقول :

لا أحدٌ أذَلّ من جَدِيسِ * هكذا يُفْعَلُ بالعَرُوسِ

يرضَى بهذا يالَقَومِى حُرٌّ * أَهْدَى وقد أعطَى وسِيقَ المَهْرُ

لأخذةُ الموتِ كذا لنفسه * خيرٌ مِنَ ٱنْ يُفْعَلَ ذا بِعِرْسِهِ

ثم قالت تحرِّض جَدِيسًا على طَسْم :

أيَصْلُحُ ما يُؤْتَى إلى فَتَيَاتِكم * وأنتم رجالٌ فيكُمُ عَدَدُ الرَّمْلِ[3]

أيَصْلُحُ تَمْشِى فى الدِّماء فتياتُكم * صَبِيحةَ زُفَّتْ فى النساء إلى البعل

فإن كنتمو لا تغضَبُوا عند هذه * فكونوا نساءً لا تَفِيق من الكُحْل

ودونكُم طِيبُ العروس فإنما * خُلِقتم لأثواب العرائس وللغِسْل

فلو أننا كُنّا رجالًا وكنتم * نساءً لَكُنّا لا نُقِرّ على الذُّلّ

فقُبْحًا وسُحْقًا للذى ليس دافعًا * ويختال يَمْشِى بيننا مِشْيَةَ الفَحْل

فموتُوا كِرامًا وٱصبِرُوا لعدوّكم * لحربٍ تلظَّى بالضِّرام منَ الجَزْل

ولا تجزَعُوا فى الحرب ياقومُ إنها * تقوم بأقوامٍ كرامٍ على رِجْل

(١) ورد فى الأغانى (ج ١١ ص ١٦٥ طبع دار الكتب المصرية) : « عفيرة » مضبوطا بالقلم (بفتح العين وكسر الفاء) وصوابه كما ورد فى لسان العرب والقاموس وشرحه مادة عفر (ضم العين وفتح الفاء بصيغة التصغير (كَجُهَيْنَة) وهو ما أثبتناه هنا . (٢) كذا فى الأصول والصبح المنير وشرح قصيدة ٱبن عبدون والكامل لابن الأثير (ج ١ ص ١٥٤ طبع أوروبا) . وفى الأغانى (ج ١١ ص ١٦٨ طبع دار الكتب المصرية) : « عباد » . (٣) كذا فى الأصول ، وفى الأغانى والصبح المنير وشرح قصيدة ٱبن عبدون : « النمل » .

فآجتمعتْ جَدِيسُ فقال لهم الأسود بن عفَار، وكان مُطاعا فيهم : لتُطِيعُنّى [فيما آمركم به][1] أو لأتّكِئَنّ على سيفى حتى يخْرُج من ظهرى . قالوا : فإنّا نُطِيعك . قال : إنّ طَسْما ليسوا بأعزّ منكم، ولكن مُلْك صاحبهم هو الذى يُذْعِننَا إليهم بالطاعة، ولو آمتنعتم منهم لكان لكم النَّصَف[2] . قالوا : إنّ القوم أكثرُ منّا عَدَدا وعُدَدا . قال : إنّى صانعٌ طعامًا فأدعوهم إليه، فإذا جاءوكم متفضّلين فى الحُلَل نهضنا إليهم بأسيافنا . فقالت عَفِيرة لأخيها : لا تفعل ! فإنّ الغَدْر ذِلّة وعارٌ، ولكن كاثروا القومَ فى ديارهم فتظفَروا أو تموتوا كِراما . قال : بل نمكُر بهم فنكون أمكنَ منهم . ثم صنع الأسودُ طعاما وأمر قومه أن يخترطُوا سيوفَهم ثم يدفنوها فى الرمل . ودعا عِمْليقا وقومه، فلمّا أتوْا آستثارتْ جَدِيسُ السيوفَ وشدُّوا عليهم فما أفلت منهم إلّا رِياح بن مُرّة، ففرّ إلى حسّان بن تُبّع فآستغاث به وأخبره بما صنعتْه جَدِيس بطَسْم فوعده النصرة، ثم نادى حسّان فى حِمْير بالمسير وأخبرهم بما صَنَعَتْ جَدِيسُ بطَسْم ؛ فقالوا : وما جَدِيسُ وطَسْم ؟ قال : هما أخَوان . قالوا : فما لنا فى هذا من أَرَب . قال حسّان : أرأيتم لو كان هذا فيكم أكان حَسَنا لمِلِككُم أن يُهْدِر[3] دماءكم . وما علينا فى الحُكْم إلّا أن نُنْصِف بعضَهم من بعض . فقالوا : الأمرُ أمرُك أيّها الملك فمُرْنا بما أحْبَبْتَ . فأمَرَهم بالمسير، فساروا حتى إذا كانوا من اليمامة على ثلاثِ ليالٍ قال رِيَاح بن مرّة لحسّان بن تُبّع : أبيتَ اللعن ! إنّ لى أختا متزوّجةً فى جَدِيس تنظُر الراكب على مسيرة ثلاثِ ليالٍ وأخاف أن تُنذِر قومَها، فأمَرْ كلَّ إنسان أن يقتلع شجرةً من الأرض ويجعلَها أمامَه، فأمرَهم حسّان بذلك . ثم ساروا، فنظرتْ أختُ رِيَاح فقالت : ياجَدِيس ! لقد سارتْ إليكم الشَّجَر . فقالوا لها :

(١) التكملة من شرح قصيدة آبن عبدون . (٢) النصف (بالتحريك) : إعطاء الحق .
(٣) كذا فى شرح قصيدة آبن عبدون . وفى الأصل : « يضيع » .

وما ذاك ؟ قالت : أرَى شَجَرًا ، من ورائه بَشَرًا ، وإنّى لا أرَى رجُلا من وراء شجرة يَنْهَشُ كَتِفًا أو يَخْصِفُ نَعْلا ، فكذّبوها وغَفِلُوا عن أَخْذِ أُهْبَةِ الحرب حتى صبّحتهم حِمْير . ففى ذلك تقول زَرْقاءُ اليمامة :

خُذُوا لهم حِذْرَكُمْ ياقَوْمُ يَنْفعكُمْ * فليسَ ما قـد أراه اليومَ يُحتقَرُ

إنّى أرَى شَجَـرًا من خَلْفه بَشَرٌ * فكيفَ تَجْتَمِـعُ الأشجـارُ والبَشَرُ

صُفُّوا الطوائفَ منكم قبلَ داهيةٍ * من الأمـور التى يُخْشَى وتُنْتَظَرُ

إنّى أرَى رَجُلًا فى كَفِّـهِ كَتِفٌ * أو يَخْصِفُ النَّعْلَ خَصْفًا ليس يعتذرُ(١)

ثُورُوا بأَجْمَعِكُمْ فى وَجْهِ أوّلِهِمْ * فإنّ ذلك منكم - فآعْلَمُوا - ظَفَرُ

وغَوِّرُوا كلَّ ماءٍ دُونَ مَنْزِلِهِمْ * فليسَ من دونه(٢) نَحْسٌ ولا ضَرَرُ

أو عاجِلُوا القومَ عندَ الليل إن رَقَدُوا * ولا تَخافُوا لهـا(٣) حَرْبًا وإن كَثُرُوا

فلمّا كان حسّانٌ على مسيرة ليلةٍ عبّأَ جيشه ثم صبّحهم فآستباح اليمامةَ قَتْلًا وسَبْيًا ، وهرب الأَسْوَدُ حتى نزل بطيّء فأجاروه مِن كلّ مَنْ يطلبه وهم لا يعرفونه . وقبيلتُه فى طيّء مذكورة . ثم إنّ حسانا أمر باليمامة فنزع عينَيْها فإذا فى داخلها عروقٌ سُودٌ ، فسألهـا عن ذلك فقالت : حَجَـرٌ أسْوَدُ كنتُ أكتحل به يقال له الإثْمِد فثبّت لى بصرى . وقيل : إنها أوّل مَن آكتحَلَ بالإثْمِد ، فأمر بها فصُلِبَتْ على باب جَوّ . وقيـل : سُمّى جَوّ باليمامة من ذلك الوقت . وفى ذلك يقـول رِيَاح بن مُرّة لمـّا أخذ بثأره :

---

(١) يعتذر : تريد أنه لا عذر له فى خصفها . وفى شرح قصيدة آبن عبدون : « يعتسر » وأشير فى الهـامش الى رواية « يعتـذر » . وفى الصبح المنير (ص ٨٢ طبع أوربا) : « يقتدر » وأشير فى الهامش الى رواية « يعتسر » .

(٢) كذا فى الصبح المنير وشرح قصيدة آبن عبدون . وفى الأصول : « دونهم » .

(٣) كذا فى الأصول وشرح قصيدة آبن عبدون . وفى الصبح المنير : « لهم » .

غَدَرَ الحَىُّ من جَدِيسٍ بطَسْمٍ * آلَ طَسْـم كما تُـدانى تُدِينِي
قـد أتيناهم بيـوم كـيوم * تُرِكُـوا فيـه مِثْلَ ما تَرَكُونِى
ليتَ طَسْـمًا على منازلها تَعْـ * لَمُ أَنِّى قَضَيْتُ عَـنِّى دُيُونِى

وقد كثرت الشعراء قصّة هـذه المرأة وجَوّ . فمـن ذلك قول الأعشى على

٥ رواية ٱبن قُتَيبة :

قالتْ أرى رجُلًا فى كفِّه كَتِفٌ * أو يَخْصِفُ النَّعْلَ لَهْفِى آيةً صَنَعَا (١)
فـكذّبوها بما قالتْ فَصَبَّحَهُمْ * ذُو آلِ حَسّانَ يُزْجِى السمّ والسَّلَعَا (٢)
فٱسْتَنْزَلُوا آلَ جَوٍّ من مساكنهم * وهدَّمُوا رافِعَ البُنْيَـانِ فٱتَّضَعَا (٣)

وروى ٱبن إسحاق :

١٠ كُونى كمثل التى إنْ غاب واحدُها (٤) * أهدتْ له من بعيدٍ نظرةً جَزَعَا

ثم أتى بالأبيات التى ذكرها ٱبن قتيبة . وقال المُسَيَّبُ بنُ عَلَس :

١١١ / ١٣

لقد نَظَرَتْ عينٌ الى الجِزْع نَظْرَةً * إلى مثـل مَوْج المُفْعَـم المتلاطِمِ
إلى حِمْـيَر إذ وُجِّهوا من بلادهم * تَضيقُ بهـم لأيًا فروجُ المَخارِمِ (٥)

---

(١) كذا فى الصبح المنير ، تريد أنها تلهفت حين لم تستبنه أىّ الفعلين فعل . وفى الأصول وشرح
١٥ قصيدة ٱبن عبدون : « لهفا آية » .

(٢) السلع (بالتحريك) : شجـر مرّ وله ثمر مثل عناقيد العنب صغار ، فإذا أينـع ٱسود فتأكله
القرود ولا تأكله الناس ولا السائمة ، وفى الصبح المنير : « ... ... يزجى الموت والشرعا » . والشرع
(بالكسر) : الأوتار ، واحده شرعة .

(٣) فى الأصـول وشرح قصيدة ٱبن عبـدون : « فاتسعا » وما أثبتناه عن الصبح المنير ، وفيه :
٢٠ « شاخص » بدل « رافع » . وفى شرح قصيدة ٱبن عبدون : « يافع » .

(٤) فى الصبح المنير : « إذ غاب وافدها » .

(٥) المخارم : واحدها مخرم (بكسر الراء) وهو منقطع أنف الجبل .

وفيها يقول النَّمِرُ بن تَوْلَب :

وفتاتُهم عَنزُ غَداةَ تبيَّنتْ * من بعد مَرْأًى فى الفضاء ومَسْمَع
قالتْ أرَى رَجُلا يُقَلِّبُ نَعْلَهُ * تقليبَ ذى وَصْلٍ لـه ومُشَسَّع
ورأتْ مقدّمة الخَميس ودُونها * رَكْضَ الجياد إلى الصَّباح يَتْبَع

ذكر حروب قيس فى الجاهلية

يومُ مَنْعِجٍ لِغَنِىّ على عَبْس

يومُ مَنْعِج [1] هو يوم الرَّدْهَة [2] وفيه قُتِلَ شأس بن زُهَير بن جَذِيمة بن رَوَاحة العَبْسىّ؛ قتله رِيَاح بن الأَشَلّ [3] الغَنَوىّ . وذلك أنّ شأسا أقبلَ من عند النعمان بن المنذر وقد أجزل حِبَاءَه . وكان من حِبَائه قَطيفةٌ حمراءُ ذاتُ هُدْبٍ [4] وطِيبٌ؛ فورد مَنْعِجًا — وهو ماء لغنىّ — فأناخ راحلتَه إلى جانب الرَّدْهة وعليها خباء لرياح بن الأشلّ، وجعل يغتسل وآمرأةُ رِيَاح تنظُر إليه، وهو كالثَّوْر الأبيض، فآنتزعه رِيَاح بسهم فقتله، وضمّ متاعه ونحر ناقتَه وأكلها وغَيَّب أثره . وفُقِدَ شأس بن زُهَير، حتى وجدوا القطيفةَ الحمراءَ بسوق عُكَاظ قد باعتها آمرأةُ رِياح، فعلمُوا أنّ رِياحا صاحبَ ثأرهم، فغزَتْ بنو عَبْس غَنِيًّا قبل أن يطلبوا قَوَدًا أو دِيَةً، مع الحُصَين بن زُهَير ابن جَذِيمة والحُصَين بن أُسَيد بن جَذِيمة . فلمّا بلغ ذلك غَنِيًّا قالوا لرِيَاح : آنْجُ، لعلّنا

(١) منعج (بفتح فسكون فكسر) : واد يأخذ بين حفر أبى موسى والنباج و يدفع فى بطن فلج .

(٢) الردهة : (بسكون الدال المهملة) : النقرة فى الجبل أو فى الصخرة يستنقع فيها الماء .

(٣) فى الكامل لابن الأثير (ج ١ ص ٤١١ طبع أوربا) : « رباح » بالباء الموحدة؛ وفى الأغانى (ج ١١ ص ٧٦ طبع دار الكتب المصرية) . « رياح من الأسك » .

(٤) (الهدب بسكون الدال المهملة وضمها) : أطراف الثوب مما يلى طرته .

نُصالحِ القومَ على شىء [أو نرضيهم بدية](1) . فخرج رياح رَدِيفا(2) لرجل من بنى كِلَاب ، وهما يظنّان أنهما قد خالفا وجهةَ القوم ، فمّر صُرَدٌ(3) على رءوسهما فصَرْصَرَ ، فما راعهما إلّا خيلُ بنى عَبْس ، فقال الكِلَابىّ لرِيَاح : انحدْر من خَلْفى وٱلتمس نَفَقًا فى الأرض فإنى شاغلٌ القومَ عنك ، فٱنحــدر رِيَاح من عَجُز الجمل حتى أتى ضَفَّةً(4) فٱحتفر تحتها مثل مكان الأرنب ووَلَج فيه ، ومضى صاحبُه ، فسألوه فقال : هذه غَنِيٌّ جامعة ،

...م ، فصدّقوه وخلّوا سبيله ، فلما ولّى رأوا مركب(5) الرجل خلفه

كان خلفك؟ فقال : لا كَذِبَ ! رياح بن الأشلّ ، وهو فى أولئك

لحُصَيْنان لمن معهما : قد مكّننا الله من ثأرنا ولا نريد أن يَشْرَكَنا

عنهما ، ومضَيا فجعلا يُريغان رياحا بين الصُّعُدات ، فقال لها : هذا

نه ، فٱبتدراه فرمى أحدَهما بسهم فأَقْصَدَه(6) ، فطعنه الآخر فأخطأه ،

... ، فٱستدبره رِيَاحُ بسهم فقتــله ثم أتى قومه . ففى ذلك يقول

...سدىّ ، وكانت له أُمّان من غَنِىٍّ :

...ىٍّ والداىَ كلاهمـا * لأُمَّيْنِ منهم فى الفُروع وفى الأَصْل

...ب الأغانى (ج ١١ ص ٧٩ طبع دار الكتب المصرية) .

...لراكب خلف الراكب .

...ائر أبقع ضخم الرأس يكون فى الشجر ، نصفه أبيض ونصفه أسود ؛ وهو من سباع
البرثن ، كانت العرب تتطير من صوته .

...ثانى . والضفة : جانب النهر أو الوادى . وفى الأصل : « صعدة » .

... : « ... فى الأول من السمرات » .

الإقصاد : أن تضرب الشىء أو ترميه فيموت مكانه ، ويقال : أقصدت الرجل
...هم فلم تخطئ مقاتله فهو مقصد « بالبناء للمجهول » .

هم آستودعوا زهرا نسيب بن سالم (١) * وهم عدلوا بين الحُصَينين بالنَّبل

وهم قتلوا شأس الملوك ورغَّموا * أباه زُهَيراً بالمَذَلَّة والثَّكل

يوم النَّفْرَاوات (٢)

لبنى عامر على بنى عبس

فيه قُتل زُهَير بنُ جَذِيمة بن رَوَاحة العَبْسيّ . وكانت هوازنُ تُؤَدِّى إليه إتاوة، فأتته عجوزٌ رَهيش (٣) من بنى نَصْر بن معاوية بِسَمْن فى نِحْي (٤)، وشكت سنين تتابعت على الناس، فذاقه فلم يَرْضَ طَعْمَه، فدعَّها (٥) بقوس فى يده عُطُل (٦) فى صدرها، فآستلقت على قفاها مُنْكشفةً (٧)، فتألَّى (٨) خالدُ بن جعفر وقال: والله لأجعلنّ ذراعى فى عُنُقه حتى يُقْتَل أو أُقْتَل . وكان زُهَير مقداماً فتفرّد من قومه ببنيه وبنى أخويه أسيد وزنباع يُرِيغ (٩) الغيثَ فى عُشَراوات (١٠) له وشَوْل، فأتاه الحارث [بن عمرو] (١١)

(١) كذا فى الأصول والعقد الفريد (ج ٣ ص ٦١ طبع بلاق) وفى الجزء الثانى من العقد الفريد المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٤١٣ أدب ورقة ٦٨ ورد هذا الشطر هكذا: «هم استودعوا زهرا بسيب بن سالم» وفى الأغانى: «هم استودعوا هوى شبيب بن سالم».

(٢) كذا فى معجم ما استعجم، وقد ذكره فى رسم «ركبة» وأشار الى قتل زهير بن جذيمة. قال: نفرى (بفتح أوّله وإسكان ثانيه بعده راء مهملة مقصور على وزن فعلى، ويمدّ): موضع فى بلاد غطفان. وكذلك فى العقد الفريد المخطوط. وفى الأصول والعقد الفريد المطبوع: «النقروات» (بالقاف). وفى الأغانى (ج ١١ ص ٨٤، ٨٥ طبع دار الكتب المصرية): «النفرات». وكلاهما محرّف. (٣) رهيش: ضعيفة أو مهزولة. (٤) النحى: الزق الذى يجعل فيه السمن.

(٥) دعها: دفعها بعنف. (٦) قوس عطل: لا وتر فيها.

(٧) يريد انكشفت عورتها. (٨) تألى: حلف. (٩) يريغ: يطلب.

(١٠) العشراء من النوق: التى مضى لحملها عشرة أشهر ثم لا يزال يطلق عليها هذا الاسم الى ما بعد الوضع، فهى بعد الوضع عشراء أيضا. قال ابن الأثير: قد اتسع فى هذا حتى قيل لكل حامل عشراء. والشول: جمع شائلة، على غير قياس، وهى الناقة التى أتى عليها من يوم نتاجها سبعة أشهر فخف لبنها وآرتفع ضرعها. (١١) زيادة من الأغانى.

آبن الشَّرِيد، وكانت تُماضِرُ بنْتُ [عمرو بن] الشَّرِيد تحتَ زُهَير، فلمّا عَرَف الحارث مكانه أنذر عليه بنى عامر بن صعصعة رَهْط خالد بن جعفر ، فركب منهم ستّةُ فوارسَ فيهم خالدُ بنُ جعفر وصَخْر بن الشَّرِيد وحُنْدُجُ بنُ البَكّاء ومعاويةُ بنُ عُبَادة آبن عُقَيْل فارس الهَرّار . ويقال لمعاوية : الأَخْيَل، وهو جدّ ليلى الأخيلية . فقال أَسِيدٌ لزُهَير : أَعْلَمَتْنى راعيةُ غَنَمى أنها رأتْ على رأس الثنيّة أشباحا ولا أحسبها إلّا خيلَ بنى عامر ، فألحقْ بنا بقومنا . فقال له زُهَير : "كُلُّ أَزَبَّ[1] نَفُورٌ" وكان أشعر القفا ، فذهبتْ مثلا ، فتحمّل أَسِيد بمن معه وبقى زُهَير وآبناه ورقاءُ والحارثُ . وصبّحتهم الفوارس فآرمدّتْ[2] بزهير فرسُه القَعْساءُ ولحقه خالد ومعاوية الأَخْيَل، فطعَن معاويةُ القعساءَ فقلبت زهيرا ، وخرّ خالدٌ فرفع المِغْفَرَ عن رأس زهير وقال : يالَعامرٍ اقتلونا جميعا ! وأقبل معاويةُ فضرب زُهَيرا على مَفْرِق رأسه ضربةً بلغتْ الدِّماغ ، وأقبل ورقاءُ بنُ زهير فضرب خالدا وعليه درْعَان فلم تُغْنِ شيئا ، وأجهض[3] آبنا زهير القوم عن زهير وآحتملاه وقد أثخنتْه الضربةُ فمنعوه الماء فقال : اسقُونى وإن كانت نفسى فيه، فسَقَوْه فمات بعد ثالثة من الأيام ، فقال فى ذلك ورقاءُ بن زُهَيْر :

رأيتُ زُهَيْرًا تحتَ كَلْكَلِ خالدٍ * فأقبلتُ أسعَى كالعَجُولِ[4] أُبادِرُ
فشَلَّتْ يَمِينى يومَ أضرِبُ خالدًا * ويمنعه منِّى الحديدُ المُظَاهرُ

(١) الزبب : كثرة الشعر وطوله . والبعير الأزب، وهو الذى يكثر شعر حاجبيه ، ينفر اذا ضربت الريح شعرات حاجبيه .

(٢) ارمدّت : عدت عدو الرمد ، أى النعام .

(٣) أى نحياهم عنه ، وغلباهم عليه .

(٤) العجول من النساء والإبل : الواله التى فقدت ولدها الثكلى لعجلتها فى جيئتها وذهابها جزعا .

فياليتَ أنى قبــلَ أيام خالدٍ * ويــومِ زُهَــيْرٍ لم تَلِدنى تُماضِرُ (١)
لَعَمْرِى لقد بُشِّرتِ بى إذ وَلَدْتِنى * فماذا الذى رَدَّتْ عليكِ البشائرُ

وقال خالد بن جعفر فى قتله زهيرا :

بل كيف تكفُرنى هوازنُ بعدما * أعتقتُهــم فتَــوَالدُوا أحرارا
وقتلتُ رَبَّهُــمُ زهــيراً بعدما * جَدَعَ الأُنوفَ وأكثر الأوتارا ٥
وجعلتُ مَهْــرَ بناتهم ودياتهــم * عَقْــلَ الملوكِ هجائنًا وبــكارا (٢)

يــومُ بطنِ عاقــل

لذُبْيانَ على بنى عامر

فيه قُتِل خالدُ بنُ جعفر ببطنِ عاقل (٣) . وذلك أنه قدِمَ على الأسـود بنِ المُنذر (٤)
أخى النعمان ومعه عُرْوةُ الرَّحال بن عتبةَ بن جعفر، فآلتقَى خالدُ بنُ جعفر والحارثُ ١٠
آبن ظالم بن غيط بن مُرّة بن سـعد بن ذُبْيان عند الأسود بنِ المنذر، فجعل خالد
يقول للحارث بن ظالم : ياحارِ، أما تشكر يدى عندك أَنْ قتلتُ عنك سـيّد قومك
زهيرا وتركتُك سـيِّدَهم ؟ فقال : سأُجزيك شكرَ ذلك . فلمّا خرج الحـارثُ قال
الأسودُ لخالد : مادعاك إلى أن تتحرّش بهذا الكلبِ وأنتَ ضيفى ؟ فقال : إنمـا
هو عبدٌ من عبيدى ، ولو وَجَدَنى نائمًا ما أيقظنى . وآنصرف خالد إلى قُبّته فلامه ١٥

(١) هى تماضر بنت عمرو بن الشريد بن رياح .
(٢) فى الأغانى : « أبكارا » .
(٣) بطن عاقل : موضع على طريق حاج البصرة بين رامتين وإمرة .
(٤) كذا فى الأصول والعقد الفريد المخطوط ، وهو موافق لما جاء فى الكامل لابن الأثير فى إحدى
روايتيه ، وفى الرواية الأخرى أن الملك الذى اجتمع عنده خالد بن جعفر والحارث بن ظالم ثم قتل الحارث ٢٠
خالدا فى جواره ثم قتل آبنــه بعد ذلك فأخذ يطارد الحارث لقتله آبنه ومن آستجار به ، هــو النعمان
ابن آمرئ القيس ملك الحيرة .

عُرْوةُ الرِّحالَ، ثم ناما وأشْرَجَت عليهما القُبّةُ[(١)]، وكان مع الحارث تَبِيع له من بنى مُحارِب يقال له خِرَاش، فلمّا هدأت العيونُ أخرج الحارث ناقته وقال لخراش: كن لى بمكان كذا، فإن طلع كوكبُ الصبح ولم آتك فآنظر أحبَّ البلادِ اليك فآعْمِد لها؛ ثم آنطلق الحارثُ حتى أتى قُبّةَ خالدٍ فهتكَ شرجَها ثم وَلجها وقتله، فنادى عُرْوةُ عند ذلك: واجوارَ الملك! فأقبل إليه الناسُ، وسمع الأسود الهُتافَ وعنده آمرأةٌ من بنى عامرٍ يقال لها: المُتَجَرِّدة، فشقّتْ جَيْبَها. ففى ذلك يقول عبد الله آبنُ جَعْــدَةَ:

شَقتْ عَلَيْكَ العامِريّةُ[(٢)] جَيْبَها * أَسَفًا وما تبْكى عليك ضَلالَا

ياحارِ لو نَبَّهتــه لَوَجَــدْتَهُ * لا طائشًا رَعِشًا[(٣)] ولا مِعْزالَا[(٤)]

وآغْرَوْرَقَتْ عيناىَ لمّا أُخبِرَتْ * بالجَعْفَــرِىّ وأسْبلت إسْبالَا

فلنقتُلَنَّ بخالدٍ سَرَوَاتِكم * ولنَجْعَلَنْ للظالمين نَكَالَا

فإذا رأيتُمْ عارضًا متهلّلًا * منّا فإنّا لا نُحاوِلُ مالَا

يــومُ رَحْرَحان

لعامر على تميـــم

ولمّا هَرَب الحارثُ بنُ ظالم ونَبَتْ به البلادُ لجأ الى مَعْبَد بنِ زُرَارة فأجاره، فقالت بنوتميم لمعبد: مالك أوَيْتَ هـذا المشئومَ الأنكد وأغْرَيْتَ بنا الأسْوَد؟ وخذلوه غيربنى ماوِيّة و بنى عبدالله بن دارِم. و بلغ الأحوصَ بنَ جعفر بن كلاب مكان الحارث بن ظالم، وأنه عند مَعْبد بنِ زُرَارة، فغزا مَعْبَدا فآلتقوْا برَحْرَحان[(٥)] فآنهزمت

(١) أشرجت: جمعت.
(٢) فى الكامل لأبن الأثير: «الجعفرية».
(٣) الرعش (ككتف): الجبان.
(٤) المعزال: من لا رمح له.
(٥) رحرحان: اسم جبل قريب من عكاظ خلف عرفات.

بنو تميم وأُسِرَ مَعْبَدُ بنُ زُرارة، أسره عامر والطُّفَيل ابنا مالك بن جعفر بن كلاب، فوفد لَقيط بن زُرارة عليهما فى فدائه فقال لهما: لكما عندى مائتا بعير، فقالا: أبا نَهْشَل، أنتَ سيِّد الناس، وأخوك مَعْبَدٌ سيِّدُ مُضَر فلا تقبل فيه إلا دِيَةَ ملك، فأبى أن يزيدهم وقال: إنّ أبانا أوصانا ألا نزيد أحدا فى ديتنا على مائتى بعير، وقال: لا توكلوا العرب أنفسكم ولا تزيدوا بفدائكم على فداء رجل منكم، ورحل لقيط عن القوم. ٥

قال: فمنعوا معبدًا المـاءَ وضَارُوه حتى مات هُزَالًا. وقيل: بل أبَى معبدٌ أنْ يُطْعَمَ شيئا أو يُشْرَبَ حتى مات هُزَالًا. ففى ذلك يقول عامرُ بنُ الطفيل:

قَضَيْنَا الجَوْنَ عَنْ عَبْسٍ وكانتْ * مَنِيّـــةُ مَعْبَـدٍ فينَـا هُــزَالَا

وقال جرير:

وليـلَةَ وادِى رَحْرَحانَ رَفَعْـتُمُ(١) * فِـرارًا ولم تَلْوُوا رَفِيقَ النَّعـائِمِ ١٠

تَرَكْتُمْ أبا القَعْقَاعِ فى الغُلِّ مَعْبَدًا * وأىَّ أخٍ لم تُسْـلِموا للأَداهِمِ

وقال أيضـا:

وبِرَحْرَحَانَ غَدَاةَ كُبِّـلَ مَعْبَـدٌ * نُكِحَتْ فَتَاتُـكُمُ بِغَـيْرِ مُهُـورِ

يومُ شِـعْبِ جَبَـلَةَ

لعـامرٍ وعَبْسٍ على ذُبْيـان وتميم ١٥

قال أبو عُبَيدة مَعْمَرُ بنُ المُثَنَّى: يومُ جَبَلَة(٢) أعظمُ أيام العرب(٣)، وذلك أنه لمـّا انقضتْ وَقْعـة رَحْرَحان جمع لَقِيطُ بنُ زُرارةَ لبنى عامر وألّب عليهم. وبينَ يوم

(١) كذا فى النقائض (ص ٢٢٩ طبع أوربا). وفى الأصل: «فررتم».

(٢) جبلة: هضبة حمـراء بنجد بين الشريف والشرف. والشريف: ماء لبنى نمير. والشرف: ماء لبنى كلاب. (٣) عظام أيام العرب ثلاثة: يوم كلاب ربيعة، ويوم جبلة هذا، ويوم ذى قار. وكانت هذه الأيام كذلك لكثرة من كان فيها من المقاتلين. ٢٠

رَحْرَحان ويومِ جَبَلة سنة . ويومُ جَبَلة قبل الإسلام بأربعين سنة[1] ، وهو عامُ مَوْلِد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكانت بنو عَبْس يومئذ فى بنى عامر حُلَفاءَ لهم ، فآستعدَى لَقِيطٌ بنى ذُبْيان لعَدَاوتهم لبنى عَبْس من أجل حَرْب داحِس ، فأجابته غَطَفانُ كلّها غيرَ بنى بدر، وتجمّعت لهم تميمٌ كلُّها غيرَ بنى سعد ، وخرجت معه بنو أَسَد لِحلف كان بينهم وبين غَطَفان ، ثم أتى لَقيطٌ الجَوْنَ[2] الكِنْدِىّ وهو ملك هَجَر[3] [وكان يُحَيِّى مَن بها من العرب][4] فقال له : هل لك فى قومٍ عادِين قد ملأوا الأرض نَعَماً[5] وشاءً، فأرسل معى آبْنَيْك فما أصبنا من مالٍ وسَبْيٍ فلهما ، وما أصبنا من دَمٍ فلى ، فأجابه الجَوْن الى ذلك وجعل له موعدا رأسَ الحَوْل ، ثم أتى لَقِيطٌ النعمانَ آبنَ المُنْذِر فآستنجده وأطمعه فى الغنائم ، وكان لَقيطٌ وجيها عند الملوك ، فلمّا كان على قَرْن الحَوْل من يوم رَحْرَحان أقبلتْ الجيوش الى لَقيط ، وأقبل سِنَان بن أبى حارثة المُرّىّ فى غَطَفان وجاءت بنو أَسَد ، وأرسل الجَوْنُ آبنيه معاوية وعَمْرًا ، وأرسل النعمانُ أخاه لأمّه حسّانَ بن وَبْرة الكَلْبىّ . فلمّا توافَوْا خرجوا إلى بنى عامر وقد أنذروا بهم وتأهّبوا لهم ، فقال الأحوصُ بنُ جعفر ، وهو يومئذ رَحَى هَوَازِنَ لقيس بن زُهَير : ما ترى ؟ فإنك تزعُم أنه لم يُعرَض لك أمران إلّا وجدتَ فى أحدهما المَخْرَج ! فقال قيس بن زُهَير : الرأى أن نَرْحَل بالعِيال والأموال حتى

---

(١) فى الأغانى (ج ١١ ص ١٦٠ طبع دار الكتب المصرية) : « بتسع وخمسين سنة » . وفى النقائض (ص ٦٧٦ أوربا) « بسبع وخمسين سنة » .

(٢) الجون : هو معاوية بن آكل المرار الكندى سمى بذلك لشدة سواده . وفى الأصل : « الجون الكلبى » .

(٣) هجر : مدينة بالبحرين .

(٤) التكملة من العقد الفريد لابن عبد ربه (ج ٣ ص ٦٣ طبع بلاق) .

(٥) النعم (بفتحتين) : الإبل خاصة .

تدخُل شِعْبَ جَبَلة فتقاتل القوم [دونها](١) من وجه واحد ، فإنهم داخلون عليك الشِّعْب ، وإنّ لَقيطا رجلٌ فيه طَيْش فسيقتحم عليك الجبل ، فأرى أن تأمر بالإبل فلا ترعَى ولا تُسْقَى وتُعْقَل ، ثم تجعل الذرارى وراءَ ظهورنا وتأمر بالرَّجّالة فتأخذ بأذناب الإبل ، فإذا دخلوا علينا الشِّعْب حلّت الرجّالةُ عُقُلَ الإبل ثم لَزِمت أذنابها فإنها تنحدر عليهم وتَحِنّ الى مراعيها ووِرْدها ، ولا يرُدّ وجوهها شىء ، ويخرج الفُرْسان فى أثر الرجّالة الذين خلْف الإبل فإنها تُحَطِّم ما لَقِيَتْ وتُقبِل عليهم الخيل وقد حُطِّموا من عَلٍ . فقال الأحوص : نِعْمَ ما رأيتَ وأخذ برأيه ، وكان مع بنى عامرٍ يومئذ بنو عَبْس ، وغَنِىٌّ فى بنى كلاب ، وباهلةُ فى بنى صَعْب ، والأبناء أبناء صَعْصَعة . وكان رَهْط المُعَقِّر البارقىّ يومئذ فى بنى نُمَير بن عامر ، وكانت قبائل بَجيلة كلّها فيهم غير قيس .

قال أبو عُبَيدة : وأقبل لَقيطٌ والملوكُ ومَن معهم فوجدوا بنى عامرٍ قد دخلوا شِعْبَ جَبَلَة فنزلوا على فَمِه ، فقال لهم رجلٌ من بنى أَسَد : خذوا عليهم فَمَ الشِّعْب حتى يَعْطَشُوا ويجوعوا ، فأتَوْا حتى دخلوا عليهم الشِّعْب ، وكانوا قد عقَلوا الإبل [وعطّشوها](٢) ثلاثة أخماس ، وذلك اثنتا عشرة ليلة لم تُطعَم شيئا ، فلمّا دنَوْا حَلّوا عُقُلَها فأقبلتْ تَهوِى ، فظنّ القوم عند ذلك أنّ الشِّعْب قد هُدّ عليهم ، والرجّالة فى آثارها آخذين بأذنابها فدقّت كلّما لَقيت ، فانهزموا لا يَلْوُون على أحد ، وقُتِلَ لَقيطٌ وأُسِر حاجِبُ بنُ زُرارة ، أسره ذُو الرُّقَيْبة ، وأُسِر سِنَان بن أبى حارثة المُرّىّ أسره عُرْوة الرَّحّال ، بجزّ ناصيتَه وأطلقه ، وأُسِر عمرو بنُ أبى عمرو بن عُدُس ، أسره قيس بن المُنْتَفِق ، بجزّ ناصيتَه وخلّاه طمعا فى المكافأة فلم يفعل ، وقُتِل معاويةُ بنُ

(١) التكملة من العقد الفريد لابن عبد ربه (ج ٣ ص ٦٣ طبع بلاق) .

(٢) التكملة من العقد الفريد (ج ٣ ص ٦٤ طبع بلاق) .

الجَوْن ومُنقذ بن طُرَيف الأَسَدىّ، ومالك بن رِبْعِىّ بن جَنْدَل بن نَهْشَل ، فقال جرير فى ذلك :

كأنكَ لم تَشْهَد لَقيطًا وحاجبًا * وعمرَو بنَ عمرٍو إذ دَعَوْا يالَ دارمِ

ويَوْمَ الصفا كنتم عَبِيدًا لعامرٍ * وبالحَزْن أصبحتم عَبِيدَ اللهازمِ

٥ يعنى بالحَزْن يوم الوَقيط . وقال أيضا فى بنى دارم :

ويَوْمَ الشِّعْب قد تَرَكوا لَقيطًا * كأنَّ عليه حُلَّةَ أُرْجُوَان

وكُبِّل حاجبٌ بِشَمَامِ حَوْلًا * فَحَكَّمَ ذا الرُّقَيْبَة وهْوَ عانِى

وقالت دَخْتَنوس أختُ لَقيطٍ ترثى لَقيطًا :

فَرَّتْ بنو أَسَدٍ فرَا * رَ الطَّيْرِ عن أربابها

١٠ عن خَيْر خِنْدِف كلها * من كَهْلِها وشبابها

وأَتَمِّها حَسَبًا إذا * ضُمَّتْ الى أحسابها (١)

يوم الحُرَيْبة

وفيه قُتِل الحارث بن ظالم

قال أبو عبيدة : لما قَتَل الحارثُ بنُ ظالم خالدَ بنَ جعفر الكلابىّ أتى صديقا

١٥ له من كِنْدَة . فالتفّ عليه وطلبَه الملك فخفىَ ذِكْرُه ، ثم شخص من عند الكِنْدىّ وأَضمرَتْه (٢) البلادُ حتى استجار بزياد أحدِ بنى عِجْل بن لُجَيم ، فقام بنو ذُهْل بن ثعلبة وبنو عمرو بن شَيْبان فقالوا لمعجل: أخرجوا هذا الرجلَ من بين أظهركم فإنه لا طاقة

(١) هذه رواية الأصل والعقد الفريد (ج ٣ ص ٦٤ طبع بلاق) ورواية النقائض (ص ٦٦٦ طبع أوربا) والأغانى (ج ١١ ص ١٤٦ طبع دار الكتب المصرية) هكذا :

٢٠ بكر النعى بخير خنـ * ـدف كهلها وشبابها

وبخيرها نسبا إذا * عدّت الى أنسابها

(٢) أضمرت الأرض الرجل: غيبته إما بسفر أو بموت .

لنا بالشّهباء ودَوْسَر، وهما كَتيبتان للأسود بن المنذر. فأبتْ عِجْلٌ ذلك عليهم، فلمّا رأى الحارثُ بنُ ظالم ذلك كَرِهَ أن تقع الفتنةُ بينهما بسببه، فارتحل من بني عِجْل الى جبلَيْ طيّئ فأجاروه، فقال فى ذلك:

لَعَمْرِى لقد حلّتْ بِىَ اليومَ ناقتى * الى ناصرٍ من طيّئٍ غيرِ خاذلِ
فأصبحتُ جارًا للمَجَرّةِ فيهمُ * على باذخٍ يعلُو يدَ المُتَطاوِلِ
اذا أَجَأٌ لَفّتْ علىّ شِعَابَها * وسَلْمَى فأنّى أنتمُ مِنْ تَنَاوُلِى[1]

فمكث عندهم حينا. ثم إن الأسود بن المنذر لمّا أعجزه أمرُه أرسل الى جاراتٍ كُنّ للحارث بن ظالم استاقهنّ وأموالهنّ، فبلغ ذلك الحارث، فخرج من الجبلين فآندسّ فى الناس[2] حتّى عَلِمَ مكانَ جاراته ومَرْعَى إبلِهنّ فأتاهنّ وآستنقذهنّ وآستاق إبلَهنّ فألحقهنّ بقومهنّ. وآندسّ فى بلاد غَطَفَان حتّى أتى سِنَان بن أبى حارثة المُرّىّ وهو أبو هَرِم بن سِنَان ممدوح زُهَير. وكان الأسود بن المنذر قد آسترضع آبنَه شُرَحْبِيلَ عند سَلْمَى آمرأة سِنَان، وهى من بنى غَنْم بن دُودان بن أَسَد، فكانت لا تأمن على آبن الملك أحدا، فاستعار الحارث بن ظالم سَرْجَ سِنَان، وهو فى ناحية الشَّرَبّة، فأتى به سَلْمَى آمرأة سِنَان وقال لها: يقول لك بَعْلُك: ابعثى آبنَك مع الحارث فإنى أريد أن أستأمنَ له الملك، وهذا سَرْجُه لك آيةٌ. قال: فزيّنته ودفعتْه اليه، فأتى به ناحيةً من الشَّرَبّة فقتله وهرب من فوره، وهرب سِنَان بن أبى حارثة. فلمّا بلغ الأسودَ قَتْلُ آبنه شُرَحْبِيل غزا بنى ذُبْيان فقتل وسَبَى، وأخذ الأموال، وأغار على بنى دُودان رهط سَلْمَى، فقتلهم وسباهم، ثم وجد بعد ذلك نعلَىْ شُرَحْبِيل فى جانب الشَّرَبّة عند بنى مُحَارِب بن خَصَفة، فغزاهم وأسرهم وأحمى لهم الصَّفا وقال: إنى أحذيكم نِعَالا، فأمشاهم عليها، فسقطت أقدامهم. ثم إن سَيّار بن عمرو بن جابر

(١) أجأ وسلمى: جبلان لطيء.
(٢) عبارة الأغانى (ج ١١ ص ١٠٧ طبع دار الكتب المصرية): «فانساب فى غمار الناس».

الفَزارِىّ احتمل للأسود دِيَةَ ابنه ألف بعير ورهَنه بها قوسه، فوفاه بها وقال فى ذلك:

ونحن رَهَنَّا القَوْسَ ثُمَّتَ فُودِيَتْ * بألْفٍ على ظَهْـرِ الفَزَارِىِّ أَقْـرَعَا

بعَشْرِ مِئِـينٍ للـملوكِ وَفَى بهـا[1] * ليُحْمَـدَ سَيَّارُ بْنُ عمـرٍو فأَسْرَعَا

قال : ثم هرب الحارث فلحق بمعبد بن زُرارة فاستجار به فأجاره، وكان من سببه وقعة رَحْرَحان التى تقدّم ذكرها . ثم هرب حتى لحق بمكة وقريش لأنه يقال : إنّ مُرّة بن عَوْف بن سعد بن ذُبْيان إنمـا هو مُرّة بن عوف بن لؤىّ بن غالب ، فتوسّل إليهم بهذه القرابة وقال فى ذلك :

اذا فارَقْتُ ثعلبةَ بنَ سَعْدٍ * وإخْوَتَهُمْ نُسِبْتُ الى لُؤَىّ

الى نَسَبٍ كريمٍ غيرِ وَغْلٍ * وحَىٍّ من أكارمِ كلِّ حَىّ

فإنْ يَكُ منهم أصـلى فمنهم * قوانينُ الإلٰهِ بنو قُصَىّ

فقالوا له : هذا نَسَب رَحِم كرِشاء[2] اذا استغنيتم عنها أدبرتم . قال : فشَخَص [الحارث][3] عنهم غَضْبانَ وقال فى ذلك :

أَلَا لستمُ منّا ولا نحنُ منكمُ * بَرِئْنا إليكم من لُؤَىّ بنِ غالبِ

غَدَوْنا[4] عـلى نَشْزِ[5] الحِجاز وأنتمُ * بمُنْشَعَبِ[6] البَطْحاء بين الأخاشِبِ[7]

وتوجّه الى الشـام فلَحِق بيزيد بن عمـرو الغسّانىّ فأجاره وأكرمه . وكانت ليزيد ناقةٌ مُحْمَاة، فى عُنُقها مُدْيَةٌ وزِنَاد وصُرّة مِلْح، يمتَحِن بها رعيّته لينظر مَن يجترئ عليه،

(١) فى الأغانى (ج ١١ ص ١١١ طبع دار الكتب المصرية) وخزانة الأدب (ج ٣ ص ٣٠٤) « سعى بها ... ليوفى » وقد صححها المرحوم الشنقيطى : « سعى لها » . (٢) الرشاء : الحبل . (٣) زيادة من العقد الفريد (ج ٣ ص ٦٧ طبع بلاق) . (٤) كذا فى العقد الفريد . والنشز : المتن المرتفـع من الأرض ، أو ما ارتفع عن الوادى الى الأرض وليس بالغليظ . (٥) انشعب الطريق : تفرّق . (٦) البطحاء : كل موضع متسع . (٧) الأخاشب : جبال مكة .

فوجمت امرأةُ الحارث فاشتهت شحمًا فانطلق الى الناقة فانحرها وأتاها بشحمها وفُقدَتْ الناقة فأرسل الى الخِمْس التغلبيّ، وكان كاهنا، فسأله عنها، فأخبره أنّ الحارث صاحبها، فهمّ به الملك ثم تذمّم من ذلك[1]، فأوجس الحارثُ فى نفسه شرًّا فأتى الخِمْس التغلبيّ فقتله، فلمّا فعل ذلك دعا به الملك فأمر بقتله، فقال: إنك قد أجرتنى فلا تغدُرنى، قال الملك: لا ضَيْرَ إن غدرتُ بك مرّة فقد غدرتَ بى مرارًا، وأمر ابنَ الخِمْس به فقتله، وأخذ ابنُ الخِمْس[2] سيفَ الحارث، فأتى به سُوقَ عُكاظ فى الأشهر الحُرُم[3]، فأراه قيسَ بنَ زهير العبسيّ فضربه به قيسٌ فقتله.

ذكر حربِ داحِسٍ والغَبْراء

وهى من حروب قيس

قال أبو عُبَيدة: حربُ داحِسٍ والغَبْراء بين عَبْس وذُبيان ابنَىْ بَغيض ابن رَيْث بن غَطَفان. وكان السبب الذى هاجها أنّ قيسَ بنَ زُهَير وحَمَل ابن بدر تراهنا على داحسٍ والغبراء أيّهما يكون له السَّبْق. وكان داحسٌ فحلا لقيس بن زهير. والغَبْراء حِجْر[4] لحَمَل بن بدر، فتواضعا الرِّهان على مائة بعير، وجعلا

(١) تذمم: استنكف. (٢) اسمه «مالك» كما فى الأغانى (ج ١١ ص ١١٩ طبع دار الكتب المصرية).

(٣) وردت هذه العبارة فى الأغانى (ج ١١ ص ١١٩ طبع دار الكتب المصرية) هكذا: «فأتى به سوق عكاظ فى الحرم ...» وضبط لفظ «الحرم» بالقلم بفتح الحاء والراء المهملتين. وبهذا الضبط يتبادر إلى ذهن القارئ أنه قتله بالحرم (أى الكعبة) ويؤيد هذا تكرار هذه الكلمة بهذا الضبط فى السطر التالى لها، وهذا خطأ، والصواب أنه قتله فى الأشهر الحرم (بضم الحاء والراء المهملتين) بسوق عكاظ، وهى سوق بصحراء بين نخلة والطائف، كانت تقوم هلال ذى القعدة وتستمر عشرين يوما، تجتمع قبائل العرب فيتعا كظون، أى يتفاخرون ويتناشدون.

(٤) الحِجر: الفرس الأنثى لم يدخلوا فيه الهاء لأنه اسم لا يشركها فيه المذكر. وأحجار الخيل: ما يتخذ منها للنسل لا يفرد لها واحد.

مُنْتهى الغاية مائة غَلْوة، والمضمار أربعين ليلةً، ثم قاداهما إلى رأس المَيْدان بعد أن ضَمَّراهما أربعين ليلةً . وكان فى طَرَف الغاية شِعَاب كثيرةٌ، فأكمن حَمَلُ بْنُ بدر فى تلك الشِّعَاب فِتْيانا على طريق الفَرَسَيْن وأمرهم إن جاء داحسٌ سابقا أن يردّوه عن الغاية ، ثم أرسلوهما ، فلما أُحضِرا خرجت الأنثى عن الفحل فقال حَمَل بن بدر : سبقتُك ياقيس ، فقال قيس : رُوَيْدًا يَعْدُوانِ الجَدَدَ إلى الوَعْث وترشَح أعطاف الفَحْل ، فلمّا أوْغَلا عن الجَدَد وخرجا إلى الوَعْث بَرَزَ داحِسٌ عن الغبراء فقال قيس : « جَرْىُ المَذَكِّيات(١) غِلَاب(٢) » فذهبتْ مثلا . فلمّا شارف داحِسٌ الغايةَ ودنا من الفِتْية وثبوا فى وجه داحِس فردّوه عن الغاية ، ففى ذلك يقول قيسُ بْنُ زُهَير :

وما لاقَيتُ من حَمَلِ بن بَدْرٍ * وإخوتِه على ذاتِ الإصَادِ(٣)

هُمو فَخَروا علىّ بغير فَخْرٍ * وردّوا دُون غايتِه جَوَادِى

وثارت الحرب بين عبس وذُبْيان آبْنَىْ بغيض ، فركدت أربعين سنة لم تُنْتَج ناقةٌ ولا فرسٌ فيها لآشتغالهم بالحرب . فبعث حُذَيفةُ بْنُ بدر آبنَه مالكا إلى قيس بن زهير يطلب منه حقّ السَّبْق ، فقال قيس : كلّا لامطلتك به ، ثم أخذ الرمح فطعنه فدقّ صُلْبه ، ورجعت فرسُه غائرة ، وآجتمع الناس فحملوا دِيَة مالك مائة ناقة عُشَراء(٤) وزعموا أنّ الرَّبيع بن زِيَاد العبسىّ حملها وحدَه فقبضها حُذَيفة وسَكَن الناس .

---

(١) المذكية من الخيل : التى قد أتى عليها بعد قروحها سنة أو سنتان .

(٢) الغلاب : المغالبة ، أى إن المذكى يغالب مجاريه فيغلبه لقوّته .

(٣) ذات الإصاد : موضع ببلاد بنى فزارة .

(٤) العشراء : التى أتى على حملها عشرة أشهر من ملقحها .

ثم إن مالك بن زهير نزل اللقاطة[1] من أرض الشَّرَبّة[2] فأخبر حُذيفةُ بمكانه، فعدا عليه فقتله، ففى ذلك يقول عنترة :

فللهِ عَيْنَا مَنْ رأى مثلَ مالكٍ * عَقِيرةَ قومٍ أن جَرَى فَرَسانِ

فليتهما لم يَجْرِيَا قِيدَ غَلْوَةٍ * وليتهما لم يُرْسَلا لِرِهَانِ

٥ فقالت بنو عبس : مالك بن زُهير بمالك بن حُذَيفة ورُدّوا علينا مالنا، فأبى حُذَيفةُ أن يردّ شيئا، وكان الربيع بن زياد مجاورًا لبنى فَزارة .

قال : فلمّا قُتِل مالك بن زهير جعل بنو فَزارة يتساءلون ويقولون : ما فعل حِمارُكم ؟ قالوا : صِدْناه، فقال لهم الربيع : ماهذا الوحى ؟ قالوا : قتلنا مالك ابن زُهَير، قال : بئس ما فعلتم بقومكم ! قَبِلتم الدِّية ورَضِيتم بها ثم غدرتم! فقالوا :

١٠ لولا أنك جارُنا لقتلناك، وكانت خَفَرة الجار ثلاثا، فقالوا له : بعدَ ثلاث ليال أُخرج عنّا، فخرج واتّبعوه فلم يلحقوه حتى لحق بقومه، وأتاه قيس بن زهير فعاقده. ثم نهضت بنو عبس وحلفاؤهم بنو عبد الله بن غَطَفان إلى بنى فزَارة وذُبْيان ورئيسهم الربيع بن زياد، ورئيس بنى فزارة حذيفة بن بدر .

١١٦ / ١٣

يوم المُرَيْقِب

١٥ لبنى عَبْس على بنى ذُبْيان

فالتقَوْا بذى المُرَيْقِب[3] من أرض الشَّرَبّة فاقتتلوا، فكانت الشوكة فى بنى فَزارة قُتل منهم عوفُ بن بدر بن عمرو بن أبى الحصين، أحد بنى عدىّ بن فزارة وجماعةٌ كثيرة . وفى هذه الوقعة يقول عَنْترة الفوارس :

ولقد علِمْتَ إذ التقتْ فُرسانُها * يومَ المُرَيْقِبِ أنّ ظنَّك أحمقُ

٢٠
(١) اللقاطة : موضع قريب من الحاجر من منازل بنى فزارة .
(٢) الشربة : موضع بين السليلة والربذة، وقيل : إذا جاوزت النقرة وماوان تريد مكة وقفت فى الشربة .
(٣) المريقب : تصغير مَرْقَب : موضع من الشربة .

يوم ذى حُسًى
لذبيان على عبْس

ثم إن ذُبيان تجمّعت لِمَا أصابتْ بنوعبس منهم يوم المُرَيْقِب فَزارة بن ذُبيان ومرّة بن عوف بن سعد بن ذبيان وأحلافهم، فنزلوا فتوافَوْا بذى حُسًى (١)، وهو وادى الصَفا من أرض الشَّرَبَّة ، فهُزِمت بنو عبس وخافت ألّا تقوم بجماعة بنى ذبيان واتّبعوهم حتى لحقوهم ، فقالوا : التفانى أو تُقِيدونا ، فأشار قيسُ بنُ زهير على الربيع بن زياد ألّا يناجزهم، وأن يُعطوهم رهائنَ من أبنائهم حتى ينظروا فى أمرهم، فتراضَوْا أن يكون رهنهم عند سُبَيع بن عمرو أحد بنى ثعلبة بن سعد بن ذُبْيان ، فدفعوا إليه ثمانية من الصِّبْيان ، فآنصرفوا وتكافأ الناس ، فمكث رهنهم عند سُبَيع حتى حضرته الوفاة ، فقال لآبنه مالكِ بنِ سُبَيع : إنّ عندك مكْرُمةً لا تَبِيد (٢) إن أنت احتفظتَ بهؤلاء الأغَيْلمة ، وكأنى بك لو مُتُّ قد أتاك خالُك حُذَيفة بن بدر فعصرَ لك عينيه وقال : هلك سيّدُنا ثم خدعك عنهم حتى تدفعهم إليه فيقتلهم، فلا تَشْرُفُ بعدها أبدا ، فإن خِفْتَ ذلك فآذهب بهم إلى قومهم . فلما هلك سُبَيع أطاف حُذَيفة بآبنه مالك وخدعه حتى دفعهم إليه، فأتى بهم اليَعْمَرِيَّة (٣)، فجعل يُبْرِز كلّ يوم غلاما فينصبه غَرَضا ويقول له : نادِ أباك ، فينادى أباه حتى يقتله .

(١) ذو حسى : موضع بالعالية فى أرض غطفان .

(٢) لا تبيد : لا تنقطع ولا تذهب . وفى الأصل « لا ضير » .

(٣) اليعمرية : ماء بواد من بطن نخل من الشربة لبنى ثعلبة .

يوم اليَعْمَرِيَّة

لعبس على ذبيان

قال : فلما بلغ ذلك من فعله بنى عبس أتوهم باليَعْمَرِيّة فلقوهم بحَرّتها فقتلوا منهم اثنى عشر رجلا ، منهم مالكُ بن سبيع الذى نبذ بالغلمة إلى حذيفة، وأخوه يزيد بن سبيع ، وعامر بن لوذان ، والحارث بن زيد ، وهرم بن ضمضم أخو حُصَين . ويقال ليوم اليعمريّة : يوم ذى نفر لأنهما متجاوران .

يوم الهَباءة

لعبس على ذبيان

قال : ثم اجتمعوا فالتقَوْا فى يوم قائظ إلى جنب جَفر الهباءة[1] واقتتلوا من أول النهار إلى أن انتصف ، وحجز الحرُّ بينهم ، وكان حُذَيفة بن بدر يحرق فخذيه الركضُ، فقال قيس بن زهير : يا بنى عبس، إن حُذَيفة غدًا إذا احتدمت الوديقة[2] مُستنقِعٌ فى جَفْر الهباءة فعليكم بها ، فخرجوا حتى وقعوا على أثر صارِف : فرس حذيفة ، والحيفاء: فرس حَمَل بن بدر ، فقفَوْا أثرهما حتى توافَوْا مع الظهيرة على الهباءة، فبصُربهم حَمَلُ بن بدر فقال : هذا قيسُ بنُ زهير قد أتاكم، فوقف قيس وأصحابُه على جَفْر الهباءة وهو يقول : لَبّيكم لَبّيكم ! يعنى إجابةَ الصِّبْيَةِ الذين كانوا ينادونهم إذ يُقتَلون! وفى الجَفْرحُذَيفةُ وحَمَل و بدر ومالك بنو بدر، وورقاء بن بِلال[3]

(١) الهباءة : أرض ببلاد غطفان . وجفر الهباءة : مستنقع فى هذه الأرض .

(٢) الوديقة : شدّة الحرّ .

(٣) كذا فى كتاب النقائض (ص ٩٥ طبع أوربا) والأغانى (ج ١٦ ص ٣١ طبع بلاق) . وفى الأصول والعقد الفريد : « هلال » .

من بنى ثعلبة بن سعد . وحنش بنُ عمرو[1] ، فوقف عليهم شدّاد بن معاوية العبسى ، فحالَ بينهم وبين خيلهم ، ثم توافَتْ فُرسانُ بنى عَبْس فقال حَمَل : ناشدتك بالرحِم يا قيسُ، فقال : لَبّيكم لَبّيكم! فعرف حذيفةُ أنه لن يدعَهم فانتهر حَمَلا فقال : إيّاك والمأثورَ من الكلام ، فذهبتْ مثلا ، وقال لقيس : لئن قتلتنى لا تصلُح غَطَفان بعدها أبدا ! فقال : أبعدَها الله ولا أصلحها ، وجاءه قرواشٌ بِمِعبلةٍ[2] فقصَم صُلْبه ، وقتل الربيعُ بنُ زياد حَمَلَ بن بدر ، فقال قيس بن زهير يرثيه :

١١٧ / ١٣

تَعلَّمْ أنّ خيرَ الناسِ مَيْتٌ * على جَفْرِ الهَباءةِ ما يَرِيمُ[3]

ولولا ظُلْمُه ما زِلْتُ أَبكى * عليه الدهرَ ما بَدَتِ النجومُ

ولكنّ الفتَى حَمَلَ بنَ بَدْرٍ * بَغَى والبَغْىُ مَرْتَعُه وَخِيمُ

أَظُنُّ الحِلْمَ دَلَّ علىَّ قومى * وقد يُسْتَجْهَل الرَّجلُ الحَلِيمُ

ومارَسْتُ الرجالَ ومارَسُونِى * فمُعْوَجٌّ وآخَرُ مُستقِيمُ

ومثّلوا بحذيفة بن بدر كما مثّل بالغلْمة ، فقطعوا مذاكيره وجعلوها فى فِيه وجعلوا لسانه فى آسته ، ففى ذلك يقول قائلهم :

فإنّ قتيلًا بالهباءة فى آستِهِ * صَحِيفَتُه إنْ عاد للظُّلْمِ ظالمُ

متى تقرأوها تَهْدِكم من ضَلالكم * وتُعْرَف إذا ما فُضَّ عنها الخواتمُ

---

(١) كذا فى كتاب النقائض والأغانى . وفى الأصول : «وهب» وفى العقد الفريد : «حسن بن وهب» وهو تحريف .

(٢) المعبلة : نصل عريض طويل .

(٣) ما يريم : أى ما يبرح .

وقال عمرو بن الأسلع :

إنّ السماءَ و إنّ الأرضَ شاهدةٌ[(١)] * واللهُ يَشْهَدُ والإنسانُ والبَـلَدُ

أنّي جَزَيْتُ بني بدرٍ بسَـعْيِهِمُ * على الهباءة قتلًا ما له قَـوَدُ

لمّـا ٱلتَقَيْنا على أرجاء جَمّتِهـا * والمَشْرَفيّةُ في أيمـاننا تَقِـدُ

عَلَوْتُهُ بحُسَـامٍ ثم قلتُ له : * خُذْها حُذَيْفُ فأنت السيّدُ الصَّمَدُ ٥

فلمّا أصيب أهلُ الهباءة وٱستعظمت غَطَفانُ قَتْلَ حُذَيفةَ، تجمّعوا، وعرفت بنو عبس أن ليس لهم مُقَام بأرض غطفان، فخرجوا الى اليمامة فنزلوا بأخوالهم من بني حنيفة ، ثم رحلوا عنهم فنزلوا ببني سعد بن زَيْد مَنَاة .

يوم الفَـــرُوق

لبني عبس ١٠

ثم إنّ بني عبس غدروا بجوارهم فأتَوْا معاويةَ بنَ الجَوْن فٱستجاشوا عليهم وأرادوا أكلهم، فبلغ ذلك بني عبس ففرّوا ليلا، وقدّموا ظُعُنَهم، ووقفت فُرْسانهم بموضع يقال له الفَرُوق، وأغارت بنو سعد ومن معهم من جنود الملك على محلّتهم فلم يجدوا إلّا مواقد النيران فٱتبعوهم حتى أتوا الفَرُوق ، فإذا بالخيل والفُرْسان وقد تواترت الظُّعُن عنهم، فانصرفوا عنهم، ومضى بنـو عبس فنزلوا ببني ضَبّة فأقاموا ١٥ فيهم . وكان بنو حذيفـة من بني عبس يسمّون بني رواحة ، وبنـو بدر من فَزَارة يسمّون بني سودة، ثم رجعوا إلى قومهم وصالحوهم، فكان أوّل مَنْ سَعَى في الحمالة حَرْملة بن الأشعر بن صرمة بن مرّة، فمـات، فسعى فيها ٱبنُـه هاشمُ بن حرملة ، وإليه أشار الشاعر :

أحْيَـا أباه هاشمُ بنُ حرملَهْ * يومَ الهباءتَيْنِ ويومَ اليَعْمَـلَهْ ٢٠

ترى المـلوكَ حولَهُ مُرَغْبَلَهْ * يَقْتُلُ ذا الذنبِ ومَن لا ذنبَ لهْ !

(١) في الأصول : « الريح » .

يوم قَطَن

فلمّا توافَوْا للصلح وقفتْ بنوعبس بقَطَن[1] وأقبل حُصَينُ بنُ ضَمْضَم فلقى تيحان أحد بنى مخزوم بن مالك فقتله بأبيه ضمضم . وكان عنترة بن شــدّاد العبسىّ قتــله بذى المُرَيْقب ، فأشارت بنــو عبس وحُلفاؤهم بنو عبــد الله بن غَطَفان وقالوا : لا نصالحكم ما بلّ البحر صُوفةً وقد غدرتم بنا غير مرّة ، وتناهض الناس : عبسٌ وذبيــان ، فالتقَوْا بقَطَن ، فقَتَل يومئذ عمرُو بنُ الأسلع عُتبةَ ، ثم سفرت السفراء بينهم ، وأتى خارجةُ بنُ سنان أبا تيحان بابنه فدفعــه اليه وقال : فى هــذا وفاءٌ من آبنــك ! فأخذه فكان عنــده أياما ، ثم حمل خارجةُ لأبى تيحان مائةَ بعــير فأدّاها اليه وآصطلحوا وتعاقدوا .

يومُ غَدِير قَلْبَى

قال أبوعبيدة : فاصطلح الحيّان إلّا بنى ثعلبة بن ســعد بن ذُبيان ، فإنهم أبَوْا ذلك وقالوا : لا نرضى حتى يُودُوا قتلانا أو يُهدَرَ دمُ مَن قتلها ، فخرجوا من قَطَن حتى وَرَدُوا غَدِير قَلْبَى ، فسبقتهم بنــو عبس الى المــاء فمنعوهــم حتى كادوا يموتون عَطَشا ، فأصلح بينهم عَوْفٌ ومَعقِل آبنا سُبَيع من بنى ثعلبة و إياهما يعنى زُهير بقوله :

تَدَارَكْتُمَا عَبْسًاوذُبْيَانَ بَعْــدَمَا * تَفَانَوْا وَدَقُّوا بينهم عِطْرَ مَنْشِمِ[2]

فوردوا حربا وخرجوا عنه سلما . تمّ خبر داحس والغبراء .

---

(١) قطن : جبل لبنى أسد .

(٢) منشم : اختلف فيها ، فقيل : إنها آمرأة عطارة من خزاعة ، فتحالف قوم فأدخلوا أيديهم فى عطرها على أن يقاتلوا حتى يموتوا ، فصار هؤلاء مثل أولئك فى شدّة الأمر وقال أبو عمرو الشيبانى : هى آمرأة من خزاعة كانت تبيع عطرا ، فإذا حاربوا اشــتروا منها كافورا لموتاهــم ، فتشاءموا بها ، وكانت تسكن مكة . وقال ابن الكلبى : هى آمرأة من جرهم . وقال أبو عمرو بن العلاء : منشم ، إنما هو من التنشيم فى الشرّ . ومنــه قولهم : لمـا نشم الناس فى عثمان . (أى طعنوا فيــه ونالوا منه) راجع شرح ديوان زهير للإمام ثعلب ص ١٥ طبع دار الكتب المصرية .

يومُ الرقَم

لغَطَفان على بنى عامر

غزتْ بنو عامر فأغاروا على بلاد غَطَفان بالرَّقَم(١) — وهو ماء لبنى مُرّة — وعلى بنى عامر : عامرُ بنُ الطُّفَيل — ويقال يزيد بن الصَّعِق — فركب عُتبة بن حُصَين فى بنى فَزَارة، ويزيد بن سِنَان فى بنى مُرّة — ويقال الحارث بن عَوْف — فانهزمت بنو عامر ، فزعمتْ غَطَفان أنهم أصابوا من بنى عامر يومئذ أربعة وثمانين رجلا، فدفعوهم إلى أهل بيت من أَشْجَع ، كانت بنو عامر قد أصابوا فيهم، فقتلوهم أجمعين.

١١٨ / ١٣

وٱنهزم الحَكَم بن الطُّفَيل فى نَفَرٍ من أصحابه، فيهم خوّات بن كعب حتى ٱنتهَوْا إلى ماء يقال له : المرورات ، فقطع العطش أعناقهم فماتوا ، وخَنَق الحكم ابن الطفيل نفسَه مخافةَ المُثْلة ، فقال فى ذلك عُرْوَة بن الوَرْد :

عَجِبتُ لهم إذ يَخْنُقُون نُفُوسَهم * ومَقْتَلُهُمْ تحتَ الوَغَى كان أَعْذَرا(٢)

يوم النَّتاءة(٣)

لعبس على بن عامر

يقال : خرجت بنو عامر تريد أن تُدرِك بثأرها يومَ الرَّقَم، فهجموا على عبس بالنَّتاءة وقد أُنذِروا بهم ، فالتقَوْا، وكان على بنى عامر : عامرُ بنُ الطُّفَيل، وعلى بنى عبس : الربيع بن زِياد، فٱقتتلوا قتالا شديدا، فٱنهزمتْ بنو عامر، وقُتِل منهم هزار بن مُرّة، قتله الأحنف بن مالك، ونهشل بن عُبَيدة بن جعفر، قتله أبو زغبة ٱبن حارث وعبد الله بن أنس بن خالد، وهُزِمت بنو عامر هزيمة قبيحة .

(١) فى معجم ما استعجم للبكرى : « الرقم بفتح أوله وثانيه : موضع بالحجاز قريب من وادى القرى » . (٢) أى كان أعذر لهم من خنقهم أنفسهم (راجع شرح ديوان عروة ص ١٣٥ طبع أوربا) . (٣) النتاءة : نخيلات لبنى عطارد .

يومُ شُوَاحِط (١)

لبنى مُحارب على بنى عامر

غَزَتْ سَرِيَّةٌ من بنى عامر بن صَعْصَعَة بلادَ غسّان ، فأغاروا على إبل لبنى مُحَارب بن خَصَفَة ، فأدركهم الطلبُ ، فقتلوا من كلاب تسعة نفر (٢) وآرتدّوا إبلَهم فلما رجعوا وثَبَتْ بنو كلاب على جَسْر — وهم من بنى مُحَارِب ، وكانوا حاربوا إخوتهم ، فخرجوا من عندهم فحالفوا بنى عامر بن صَعْصَعَة — فقالوا : نَقْتُلُهم بقَتْل بنى مُحَارِب مَنْ قَتَلُوا مِنّا ، فقام خِدَاشُ بنُ زُهَيْر دُونهم حتى منعهم من ذلك وقال :

أَيَا راكِبًا إمّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ * عقيلا وأبلِغْ إنْ لَقِيتَ أبا بَكْر
فيا أَخَوَيْنَا مِنْ أبِينَا وأُمِّنا * إليكم إليكم لا سبيلَ الى جَسْر
دَعُوا جانِبِي إنّى ساترك جانبا * لكم واسعا بين اليمامة والقَهر (٣)
أنا فارسُ الضحياءِ عمرُو بنُ عامرٍ * أبَى الذمَّ وآختار الوفاء على الغَدْرِ

يوم حَوْزَة الأوّل (٤)

لسُلَيم على غَطَفان

قال أبو عُبَيدة . كان بين معاوية بن عمرو بن الشريد وبين هاشم بن حَرْمَلة أحد بنى مُرّة : — مُرّة غطفان — كلام بعكاظ ، فقال معاوية : والله لَوَدِدْتُ أنى قد سمعتُ بظعائن يَنْدُبْنَك ، فقال هاشم : والله لَوَدِدْتُ أنى قد بَرَيْتُ الرطبة — وهى جُمّة

---

(١) شواحط : جبل مشهور بين مكة والمدينة .
(٢) فى معجم ما استعجم للبكرى فى كلامه على شواحِط : « سبعة نفر » .
(٣) القهر : موضع باليمامة . (٤) حوزة : واد بالحجاز .

معاوية ، وكانت الدهرَ تنطف ماءً ودُهْنا وإن لم تُدهَن — فلمّا كان بعد [حينٍ](١) تهيّأ معاوية ليغزو هاشما ، فنهاه أخوه صخر ، فأبى وغزاهم يومَ حَوْزة، فرآه هاشم ابن حَرْملةَ قبل أن يراه معاوية، وكان هاشم ناقها من مرض أصابه ، فقال لأخيه دُرَيد بن حَرْملة : إنّ هذا إن رآني لم آمَنْ أن يشُدّ عليّ،وأنا حديثُ عهد بشكيّة ، فاستطرِدْ له [دوني](٢) حتى تجعلَه بيني و بينك، ففعل، فحمل عليه معاويةُ وأَرْدفه(٣) هاشم ، فاختلفا طعنتين فأردى(٤) معاويةُ هاشما عن فرسه الشمّاء ، وأنفذها هاشم سنانَه عن عانة معاوية، وكرّ عليه دُرَيد وظنّه قد أرْدَى هاشما،فضرب معاوية بالسيف فقتله ، وشدّ خُفاف بن عمرو على مالك بن حِمَار الفَزَاريّ [فقتله](٥) .

قال : وغارت الشمّاء فرس هاشم حتى دخلت في جيش بني سُلَيم فأخذوها وظنوا أنها فرس الفزاريّ الذي قتله خُفاف، و رجع الجيش، فلما دنَوْا من صخر أخي معاوية قال لهم : ما صنع معاوية ؟ قالوا قتل ! قال : فما هذه الفرس ؟ قالوا : قتلنا صاحبها ! قال : إذاً قد أدركتم ثأركم ، هذه فرس هاشم بن حرملة .

قال : فلما دخل رجبٌ ركب صخرُ بنُ عمرو الشمّاء صبيحة يومِ حَرَام ، فأتى بني مُرّة ، فلمّا رأَوْه قال لهم هاشم : هذا صخر فحيّوه وقولوا له خيرا، وهاشم مريضٌ من الطعنة التي طعَنه معاويةُ ، فقال : مَن قتل أخي ؟ فسكتوا ، فقال : لمن هذه الفرسُ التي تحتي ؟ فسكتوا ، فقال هاشم : هلمّ أبا حسّان إلى مَنْ يُخبرك ! قال : مَن قتل أخي ؟ فقال [هاشم](٥) : إذا أصبتني أو دُريدًا فقد أصبتَ ثأرك! فقال : هل كفّنتموه ؟ قال : نعم ، في بُردين : أحدهما بخمس وعشرين بكرة

(١) التكملة من العقد الفريد . (٢) التكملة من العقد الفريد .
(٣) أردفه : تبعه . (٤) أرداه : أسقطه .
(٥) التكملة من العقد الفريد .

وأَروه قبره ، فلمّا رأى القبر جزع عنده ثم قال : كأنكم أنكرتم ما رأيتم من جزعى ، فوالله ما بتّ منذ عقلت إلّا واترا أو موتورا ، وطالبا أو مطلوبا حتى قُتِل معاوية ، فما ذقتُ طعمَ نوم بعده .

يوم حَوْزة الثانى

٥ قال : ثم غزاهم [صخر] فلما دنا منهم مضى على الشمّاء ، وكانت غرّاء مُحَجّلَةً ، فسوّد غُرّتها وتحجيلها ، فلما رأته بنتٌ لهاشم قالت لعمّها دُرَيد : أين الشمّاء؟ قال : هى فى بنى سُلَيم . قالت : ما أشبَهها بهذه الفرس! فقال : هذه بِهِيم(١) والشمّاءُ غرّاء مُحَجّلة ، ثم اضْطَجَع فلم يشعُر حتى طعنه صخْر، قال : فثاروا وتناذَرُوا ، وولّى صَخْرٌ وطلبته غَطَفان عامّةَ يومها ، وعارض دُونه أبو شجرة بن عبد العُزّى ، وكانت أمّه خنساء

١٠ أخت صخر ، وصخرٌ خاله ، فردّ الخيلَ عنه حتى أراح فرسَه ونجا إلى قومه ، فقال خُفاف بن نُدْبة لمّا قتل معاوية : قتلنى الله إن برحت من مكانى حتى أثأر به ! فشدّ على مالك سيّد بنى شَمْخ فقتله ، وقال صَخْرٌ فى قتله دُرَيدا :

ولقد دفعتُ إلى دُرَيدٍ طَعْنَةً * نَجْلاءَ تُزْغِلُ(٢) مثل غَطّ المِنْخَرِ

ولقد قتلتكم ثُناءَ ومَوْحدًا * وتركتُ مُرّةَ مِثلَ أَمْسِ الدَّابِرِ

١٥ قال أبو عبيدة : وأما هاشم بن حرملة فإنه خرج منتجعا فلقيه عمرو بن قيس الجُشَمىّ ، فتبعه وقال : هذا قاتل معاوية ، لا وَأَلَتْ نفس إن وَأَلَ(٣) ، فلما دنا منه أرسل عليه مِعبَلَةً فَفَلَقَ قحْفه فقتله .

---

(١) البهيم : الأسود ، وما لاشية فيه من الخيل للذكر والأنثى .

(٢) تزغل : تخرج الدم قطعا قطعا .

٢٠ (٣) وأل : نجا .

يومُ ذات الأثْلِ

قال أبو عبيدة : ثم غزا صَخْرُ بنُ عمرو بن الشَّرِيد بنى أسد بن خُزَيمة فاكتسح إبلَهم ، فأتى الصريخُ بنى أسد ، فركبوا حتى تلاحقوا بذات الأَثْل ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، فطعن ربيعة الأسدىّ صخرا فى جنبه وفات القومُ بالغنيمة ، ومرض صخر من الطَّعْنة قريبا من الحَوْل حتّى ملَّه أهلُه ، فسمع آمرأة من جاراته تسألُ سَلْمى آمرأته : كيف بَعْلُك ؟ قالت : لاحىٌّ فيُرْجَى ، ولا ميّتٌ فيُنْسَى ، لقد لَقِينا منه الأَمَرَّين ! وكانت أمّه إذا سئلت عنه تقول : أرجو له العافية إن شاء الله !

فقال فى ذلك :

أرى أُمَّ صَخْرٍ لا تَمَلُّ عِيادَتِى * ومَلَّتْ سُلَيْمَى مَضْجَعى ومكانى

فأىُّ آمرئٍ ساوَى بأمٍّ حليلةً * فلا عاشَ إلّا فى أذًى وهَوانِ

وما كنتُ أخشَى أن أكونَ جِنازةً (١) * عليكِ ومَنْ يَغْتَرُّ بالحَدَثانِ

لَعَمْرِى لقد نبَّهتُ مَنْ كان نائما * وأسمعتُ مَن كانت له أُذُنانِ

أَهُمُّ بأمْرِ الحَزْمِ لو أستطيعه * وقد حِيلَ بين العَيْرِ والنَّزَوانِ

قال : فلمّا طال عليه البلاء — وقد نتأتْ قطعةٌ من جنبه مثلَ اليد فى موضع الطعنة — قالوا له : لو قطعتَها لرجَوْنا أن تبرأ ، فقال شأنكم ! فقطعوها فمات ، فقالت أخته الخنساء ترثيه :

وقائلةٍ والنعشُ قد فات خَطْوُها * لِتُدْرِكَهُ يالهفَ نفسى على صخرِ!

ألَا ثَكِلَتْ أمُّ الذين غَدَوْا به * إلى القبر ماذا يحملُون إلى القبر!

---

(١) اذا ثقل المريض على قومه وآغتموا به فهو جنازة عليهم ، هكذا ورد فى لسان العرب مادة (جنز) واستشهد بهذا البيت على ذلك .

يومُ اللِّوَى (١)

لغَطَفان على هَوَازِن

قال أبو عُبَيدَة : غزا عبد الله بن الصِّمَّة — وآسمُ الصِّمَّة : معاويةُ الأصغر — من بنى غَزِيَّة بن جُشَم بن معاوية بن بكر بن هَوَازن — وكان لعبد الله ثلاثةُ أسماء وثلاث كُنًى ، فآسمُه : عبدُ الله ، وخالد ، ومعبد ، وكنيته أبو فرعان ، وأبو دُفافة ، وأبو وفاء ، وهو أخو دُرَيد بن الصِّمَّة لأبويه — فأغار على غَطَفان فأصاب منهم إبلا عظيمة فاطّردها ، فقال له أخوه دُرَيد : النجاء فقد ظَفِرْتَ ، فأبى عليه وقال : لا أبرحُ حتى أنتقع نقيعتى — والنقيعة : ناقةٌ ينحرها من وَسَط الإبل فيصنع منها طعاما لأصحابه ، ويقسم ما أصاب عليهم — فأقام وعصى أخاه ، فتبعتْه فَزارة فقاتلوه وهو بمكان يقال له اللِّوَى ، فقُتل عبد الله ، وآرتُثَّ (٢) دريد فبقى فى القتلى ، فلما كان فى بعض الليل أتاه فارسان ، فقال أحدُهما لصاحبه : إنى أرى عينية تبصّ ، فآنزل فآنظُر إلى سُبَّتِه (٣) ، فنزل فكشف ثوبه فإذا هى ترمَزُّ (٤) ، فطعنه ، فخرج دمٌ قد آحتُقِنَ .

قال دريد : فأفقتُ عندها ، فلمّا جاوزُوا نهضتُ ، فما شعرتُ إلّا وأنا بين عرقوبَىْ جَمَل آمرأةٍ من هَوَازن ، فقالت : مَن أنتَ؟ أعوذ بالله من شرّك ! قلتُ : لا ، بل مَنْ أنتِ؟ ويلك ! قالت : آمرأةٌ من هَوَازِنَ سيّارةٌ . قلتُ : وأنا من هَوَازِنَ ، أنا دُرَيْدُ بن الصِّمَّة . قال : وكانت فى قوم مختارين لا يشعرون بالوَقْعة ، فضمّته وعالجتْه حتى أفاق .

---

(١) اللوى : واد من أودية بنى سليم .

(٢) المرتث : من حمل من المعركة جريحا وبه رمق .

(٣) السبة : الآست . (٤) ترمز : تضطرب .

يوم الظعينة
بين دُرَيد بن الصِّمَّة وربيعة بن مُكَدَّم

قال أبو حاتم عن أبى عبيدة قال : خرج دُرَيدُ بنُ الصِّمَّة فى فوارسَ من بنى جُشَم حتى إذا كانوا فى وادٍ يقال له : الأخْرَم ، وهم يريدون الغارة على بنى كنانة ، إذ رُفع له رجلٌ فى ناحية الوادى ومعه ظَعينة ، فلمّا نظر اليه قال لفارس من أصحابه : صِحْ به : خَلِّ الظَّعينة وٱنْجُ بنفسك ، فٱنتهى اليه الفارسُ ، فصاح به وألحّ عليه ، فألقَى زِمامَ الراحلة وقال للظعينة :

١٢٠ / ١٣

سِيرى على رِسْلِكِ سَيْرَ الآمِنِ * سَيْرَ رَدَاحٍ ذاتِ جَأْشٍ ساكِنِ
إنّ ٱنْثنائى دُونَ قِرْنِى شائِنِى * أبلِى بَلائِى وٱخْبُرِى وَعَايِنِى

ثم حمل عليه فصرعه وأخذ فرسه وأعطاه للظَّعينة ، فبعث دُرَيد فارسا آخر لينظُرَ ما صنع صاحبُه ، فلمّا ٱنتهى اليه ورآه صَريعا صاح به فتصامّ عنه ، فظنّ أنه لم يسمع ، فغَشِيَه ، فألقَى زِمام الراحلة إلى الظَّعينة ورجع وهو يقول :

خَلِّ سبيلَ الحرّة المَنِيعهْ * إنّكَ لاقٍ دونَها رَبيعهْ
فى كَفِّه خَطِّيَّةٌ مُطيعهْ * أوْ لَا فخُذْها طَعْنةً سَريعهْ
* والطَّعْنُ مِنِّى فى الوَغَى شَريعهْ *

ثم حمل عليه فصرعه ، فلمّا أبطأ على دُرَيد بعث فارسا [ثالثا](1) لينظُرَ ما صنعا ، فلما ٱنتهى إليهما رآهما صَريعَيْن ونظر إليه يقودُ ظَعينته ويجُرّ رُمْحَه ، فقال له : خَلِّ سبيلَ الظَّعينة ، فقال للظعينة : اقصِدى قَصْدَ البيوت ، ثم أقبل عليه فقال:

ماذا تُريدُ من شَتيمٍ عابِسِ * ألم تَرَ الفارسَ بعدَ الفارِسِ
* أرْداهما عاملُ رُمْحٍ يابِسِ *

(1) التكملة من أمالى القالى (ج ٢ ص ٢٧١ طبع دار الكتب المصرية) .

ثم حَمَل عليه فصرَعه وآنكسر رمحُه ، وآرتاب دُرَيدٌ وظنّ أنهم قد أخذوا الظّعينة وقتلوا الرجل ، فلَحِقَ ربيعةَ وقد دنا من الحيّ ، فوجد أصحابَه قد قُتلوا ، فقال : أيها الفارس ، إنّ مثلَك لا يُقتَل ، ولا أَرَى معك رُمْحا والخيلُ ثائرةٌ بأصحابها ، فدُونَك هذا الرُّمْحَ فإنّي منصرفٌ إلى أصحابي فمثبِّطُهم عنك ، فآنصرف دُرَيدٌ وقال لأصحابه : إنّ فارسَ الظّعينة قد حماها وقتَل فُرْسانَكم وآنتزعَ رُمْحِي ، ولا مَطْمعَ لكم فيه فآنصرِفُوا ، فانْصَرَفَ القوم ، فقال دُرَيد :

ما إنْ رأيتُ ولا سمعتُ بمثله * حامِي الظّعينةِ فارسًا لم يُقتَلِ

أَرْدَى فَوارسَ لم يكُونُوا نُهْزَةً * ثم آستمَرّ كأنه لم يَفْعَلِ

مُتَهَلِّلًا تَبْدُو أَسِرَّةَ وَجْهِه * مثلَ الحُسام جَلَتْه كَفُّ الصَّيْقَلِ

يُزْجِي ظَعِينَتَه ويَسْحَبُ رُمْحَه * مُتَوجِّهًا يُمْناهُ نَحْوَ المَنْزِلِ

وتَرَى الفَوارِسَ من مَخافة رُمْحِه * مِثْلَ البُغاثِ(1) خَشِينَ وَقْعَ الأَجْدَلِ

يا ليتَ شِعْرِي مَنْ أبوه وأُمُّه * يا صاحِ مَنْ يَكُ مِثْلَه لا يُجْهَلِ

وقال ربيعةُ بنُ مُكَدَّم :

إن كان يَنْفَعُكِ اليقينُ فسائِلي * عَنّي الظعينةَ يومَ وادِي الأَخْرَمِ

إذْ هِي لأَوّلِ من أتاها نُهْبَةٌ * لولا طِعَانُ رَبيعةَ بنِ مُكَدَّمِ

إذْ قالَ لي أَدْنَى الفوارِسِ مِيتةً * خَلِّ الظّعينةَ طائعا لا تَنْدَمِ

فصرَفْتُ راحلةَ الظّعينةِ نحوَه * عَمْدًا ليَعْلَمَ بعضَ ما لم يَعْلَمِ

وهتَكْتُ بالرُّمْحِ الطويلِ إهابَه * فهَوَى صَرِيعًا لليَدَيْنِ وللفَمِ

---

(1) قال أبو عليّ القالي : البغاث (بضم الباء الموحدة وكسرها) والضم أكثر وأشهر (راجع الأمالي ج ٢ ص ٢٧٢ طبع دار الكتب المصرية) .

ومَنَحْتُ آخَر بعــده جَيّاشَــةً * نَجْلاءَ فاغِرةً كَشِدْقِ الأَضْجَمِ
ولقــد شَــفَعْتُهما بآخَرَ ثالِثٍ * وأَبَى الفِرارَ لىَ الغَداةَ تَكَرُّمِى

ثم لم تلبث بنو كِنانة(١) أن أغارتْ على بنى جُشَم(٢)، فقتلوا وأسروا دُرَيْدَ بنَ الصِّمَّة فأخفَى نفسه ، فبينما هــو عندهم محبوسٌ إذ جاءه نسوةٌ تَهادَيْن إليــه ، فصرخَتْ إحداهنّ وقالت : هلكتُم وأهلكتُم ! ماذا جرّ علينا قومُنا ! هذا والله الذى أعطَى ربيعةَ رُمحَه يومَ الظَّعِينة ! ثم ألقتْ عليه ثوبَهــا وقالت : يا آل فِراس ، أنا جارةٌ له منكم ، هذا صاحبُنا يوم الوادى ! فسألوه : مَنْ هو ؟ فقال : أنا دُرَيدُ بن الصِّمَّة فمَنْ صاحبى ؟ قالوا : ربيعةُ بنُ مُكَدَّم ، قال : فمــا فعل؟ قالوا : قتلتْه بنو سُلَيم ! قال : فما فَعلتِ الظَّعِينة؟ قالتِ المرأة : أنا هِيَهْ ، وأنا امرأته ، فحبسه القوم وآمَرُوا أنفسهم ، فقال بعضهم : لا ينبغى لدُرَيد أن تُكفَر نعمتُه على صاحبنا ! وقال آخرون : والله لا يخرج من أيدينا إلّا برضا المُخارِق الذى أسره ، فانبعثتِ المرأةُ فى الليل ، وهى رَيْطة بنتُ جِذْلِ الطِّعَان ، تقول :

سَنَجزِى دُرَيدًا عن ربيعــةَ نِعْمَةً * وكلُّ امرئٍ يُجْزَى بمــا كان قدَّما
فإن كان خيرا كان خيرا جَزاؤُه * وإن كان شَرًّا كان شَرًّا مُذَمَّمَــا
سَنَجْزِيه نُعْمَى لم تكن بصَــغِيرةٍ * بإعطائه الرُّمْحَ الطــويلَ المُقَــوَّمَا
[فقــد أدركتْ كفّاه فينــا جَزاءَه * وأهلٌ بأن يُجْزَى الذى كان أنعما](٣)
فلا تَكْفُروه حــقَّ نُعْــماه فيكمُ * ولا تَرْكَبُوا تلكَ التى تَمْــلأُ الفَمَا
فلو كانَ حَيًّا لم يَضِق بثوابه * ذِرَاعا غَنِيًّا كان أو كان مُعْــدِما

(١) بنو كنانة : رهط ربيعة بن مكدّم .
(٢) بنو جشم : رهط دريد .
(٣) الزيادة من أمالى القالى .

[فَفُكُّوا دُرَيْدا من إسَارِ مُخَارِقٍ * ولا تَجْعَلُوا البُؤْسَى إلى الشَّرِّ سُلَّماً][1]

فلما أصبحوا أطلقوه ، فكَسَتْه وجهّزته ولحِق بقومه، فلم يزل كافًّا عن غَزْو بنى فِرَاسٍ حتى هَلَك .

يومُ الصَّلْعاء

لهَوَازِن على غَطَفان

قال : فلمّا كان فى العام المقبل غزاهم دُرَيد بن الصِّمَّة بالصَّلْعاء[2] ، فخرجت إليه غَطَفان فقال دريد لصاحبه : ما ترى ؟ قال : أرى خيلا عليها رجال كأنهم الصبيان ، أسنّتها عند آذان خيلها . قال : هذه فَزَارة ، ثم قال : أُنظر ما ترى ؟ قال : أرى قوما كأنّ عليهم ثيابا غُمِست فى لِجَاب المِعْزَى ، قال : هذه أشجع ، ثم قال : أنظر ما ترى ؟ قال : أرى قوما يجرّون رماحهم سودا، يخدّون الأرض بأقدامهم ، قال : هذه عَبْس ، أتاكم الموت الزؤام فاثبتوا ، فالتقَوْا بالصلعاء فاقتتلوا، فكان الظفر لهوزان على غطفان، وقَتَل دُرَيدٌ ذُؤابَ بنَ زيد بن قارب .

ذكر حرب قيس وكنانة

يومُ الكَدِيد[3] لسُلَيمَ على كِنانة

فيه قُتِل ربيعةُ بنُ مُكَدَّم فارسُ بنى كِنانة، وهو من بنى فِرَاسِ بنِ غَنْم بن مالك ابن كِنانة، وهم أنجدُ العرب ، كان الرجل منهم يَعْدِل بعشرة من غيرهم ، وكان

(١) الزيادة من أمالى القالى . (ج ٢ ص ٢٧٣ طبع دار الكتب المصرية) .

(٢) الصلعاء (بفتح أوّله و إسكان ثانيه بعده عين مهملة ممدود) : أرض لبنى عبد الله بن غطفان ولبنى فزارة بين النقرة والحاجر تطؤها طريق الحاج الجادة الى مكة .

(٣) الكديد (بفتح أوّله وكسر ثانيه بعده دال مهملة أيضا) : موضع بين مكة والمدينة بين منزلتى أمج وعسفان وهو ماء عين جارية عليها نخل كثير .

ربيعةُ بن مكدَّم يُعْقَر على قبره فى الجاهليّة ، ولم يُعقَر على قبر أحدٍ غيره ؛ وقتلته بنو سُلَيم يوم الكَديد ، ولم يحضر يوم الكَديد أحدٌ من بنى الشَّريد .

يومُ فَزَارة
لكنانة على سُلَيم

قال أبو عبيدة : لمّا قتلت بنو سُلَيْم ربيعةَ بنَ مُكَدَّم فارسَ كنانة ورجعوا، أقاموا ما شاء الله ، ثم إنّ ذا التاج مالكَ بنَ خالد بن صخر بن الشَّريد — وآسم الشَّريد عمرو، وكانت بنو سُلَيْم قد توّجوا مالكا وأمّروه عليهم — فغزا بنى كِنَانة، فأغار على بنى فِرَاس ببُرْزة[1] ، ورئيسُ بنى فِرَاس عبد الله بن جِذْل، فدعا عبد الله إلى البراز ، فبرز إليه هِندُ بن خالد بن صَخْر بن الشَّريد ، فقال له عبد الله : مَن أنت ؟ قال : أنا هِندُ بنُ خالد ، قال عبد الله ؛ أخوك أسنّ منك ، يريد مالك آبن خالد ، فرجع فأخبر أخاه ، فبرز له ، فشدّ عبد الله على مالك بن خالد فقتله ، فبرز إليه أخوه كُرْزُ بنُ خالد بن صخر ، فشدّ عليه عبد الله أيضا فقتله ، فشدّ عليه أخوهما عمرو بن خالد بن صخر ، فتجالدا طَعْنتين ، فجرح كلُّ واحدٍ منهما صاحِبَه وتحاجزا .

يومُ الفيفاء[2]
لسُلَيْم على كِنَانة

قال أبو عبيدة : ثم إنّ بنى الشَّريد حرّموا على أنفسهم النساءَ والدُّهْن أو يُدْرِكوا ثأرَهم من كنانة ، فغزا عمرو بن خالد بن صخر بن الشَّريد بقومه حتى أغار على

(١) كذا فى معجم ما استعجم للبكرى . وبرزة (بضم أوله وإسكان ثانيه بعده راء): موضع فى ديار بنى كنانة . وفى الأصول والعقد الفريد « برزة » بتقديم الراء على الزاى وهو تحريف .

(٢) أصل الفيفاء : المفازة لا ماء فيها وأطلقت على موضع .

بنى فِرَاس، فقتل منهم نفرا؛ منهم : عاصم بن المُعَلَّى ، ونَضْلة ، والمعارك، وعمرو ابن مالك ، وحِصْن ، وشُرَيح ؛ وسبى سبيا فيهم آبنة مُكَدَّم أخت ربيعة ، فقال عباسُ بنُ مِرداس فى ذلك :

ألا أبلغنْ عنّى آبنَ جِذْل ورَهْطَه * فكيف طلبناكم بكُرْزٍ ومالكِ
غداةَ فجعناكم بحِصْن وبآبنه * وبآبنِ المعلّى عاصمٍ والمعاركِ
ثمانيـة منهـم ثأرناهم به * جميعا وما كانوا بَواءً[1] بمالك
نُذيقكم ـ والموتُ يَبْنى سُرَادقًا * عليكم ـ شَبَاحدِّ السيوف البواتك
تلوح بأيدينا كما لاحَ بارقٌ * تلألأ فى داجٍ من الليل حالكِ

ذكر حرب قيس وتميم

يومُ السُّؤْبان[2] لبنى عامر على بنى تميم

قال أبو عبيدة : أغارت بنو عامر على بنى تميم وضبّة فاقتتلوا، ورئيسُ ضبّة حسّان بن وَبْرة ، وهو أخو النعمان بن المنذر لأمّه ، فأسره يزيد بن الصَّعِق ، وآنهزمت تميم؛ فلمّا رأى ذلك عامرُ بنُ مالك بن جعفر حسده، فشدّ على ضِرار بن

(١) البواء : الكفء .

(٢) كذا فى كتاب النقائض (ص ٣٨٦ طبع أوربا) ومعجم ما آستعجم للبكرى (ص ٧٥٩ طبع أوربا) وورد فيه : « السؤبان بضم أوّله وإسكان ثانيه بعده باء معجمة بواحدة على وزن فعلان : واد فى ديار بنى تميم ... ويوم من أيام حروب بنى عامر وبنى تميم يسمى يوم السؤبان ، وفى ذلك سمى عامر ابن مالك ملاعب الأسنة ، وفيه فرّ طفيل ، قال أوس من حجر :

فـودّ أبو ليـلى طفيل بن مالك * بمنعرج السوبان لو يتقصـع
يلاعب أطراف الأسنة عامر * وصار له حظ الكتيب أجمـع

ثم قال :

كأنهم بين الشميط وصارة * وجرثم والسوبان خشب مصرع

عمرو الضبيّ[١] ، وهو الرُّدَيْم[٢] ، فقال لابنه : إذا همّ أغنِه عنّي ، فشدّ عليه فطعنه ، فتحوّل عن سَرْجه إلى جَنْب أبدانه ، ثم لحقه ، فقال لأحد بنيه : أغنِه عنّي ، ففعل مثلَ ذلك ، ثم لحقه ، فقال لابنٍ له آخر ، ففعل مثلَ ذلك ، فقال : ما هذا إلّا مُلاعِبُ الأسنّة ! [فسُمِّيَ عامر من يومئذ مُلاعِبَ الأسنّة[٣]] فلما دنا منه قال له ضِرار : إني لأعلم ما تريد ، أتريد اللَّبَب[٤] ؟ قال نعم ! قال : إنك لن تَصِلَ إليّ ومن هؤلاء عين تَطرِف ، كلهم بنو عامر ، قال له عامر : فأحلني على غيرك ، فدلّه على حُبَيْش بن الدُّلَف وقال : عليك بذلك الفارس ، فشدّ عليه فأسره ، فلما رأى سوادَه وقِصَرَه ، جعل يتفكّر ، وخاف ابن الدُّلَف أن يقتله ،

= قوله : يتقصع ، أى يدخل القاصعاء » اهـ .

وفى معجم البلدان لياقوت : « السلان : بضم أوله وتشديد ثانيه ، وهو فعلان من السل والنون زائدة : موضع بين البصرة واليمامة ... قال أبو أحمد العسكرى : يوم السلان السين مضمومة : يوم بين بنى ضبة و بنى عامر صعصعة طعن فيه ضرار بن عمرو الضبي وأسر جيش بن دلف فعل ذلك بهما عامر مالك ، وفى هذا اليوم سمى ملاعب الأسنة » اهـ .

وورد فى العقد الفريد (ج ٣ ص ٧٩ طبع بلاق) : «السريان » وورد هكذا أيضا فى العقد الفريد (ج ٦ ص ٤١ طبع مطبعة الأستقامة بالقاهرة) بتحقيق الأستاذ محمد سعيد العريان وكتب بهامشه : « كذا بالأصل ، ولا نعرفه » وورد فى نسخة أ « السيوبات » وفى نسخة ب هكذا « السوبات » بإهمال بعض الحروف ، وقد تبين مما وضحناه أن كلاهما محرّف ، والصواب ماذكرناه .

(١) كذا فى كتاب النقائض (ص ١٨٨ طبع أوربا) . وفى الأصول : « القيسى» وهو خطأ .

(٢) كذا فى كتاب النقائض . وسمى « رديما » لأنه كان يحمل على بعيرين يقرن بينهما لثقله . وفى الأصول : « الرويم » وهو تحريف .

(٣) التكملة من العقد الفريد (ج ٣ ص ٧٩ طبع بلاق) . وكتاب النقائض (ص ٣٨٦ طبع أوربا) ومعجم ما أستعجم للبكرى (ص ٧٥٩ طبع أوربا) .

(٤) اللبب : موضع المنحر من كل شيء .

فقال : ألستَ تريد اللَّبَب ؟ قال بلى، قال : فأنَّى لك به . وفادى حسّانُ بنُ وَبْرة نفسه من يزيد بن الصَّعِق بألف بعير[1]، [فداءَ الملوك[2]] فكثر مال يزيد ونبه .

قال أبو عبيدة : ثم أغار بعد ذلك يزيد بن الصَّعق على عصافير النعمان بذى لُبَان ، وذو لبان : عن يمين العرنيين .

يوم أقرن

لبنى عَبْس على بنى دارم

قال : غزا عمرو بنُ عُدُس من بنى دارِم ، وهو فارسُ بنى مالك بن حنظلة ، فأغار على بنى عَبْس ، فأخذ إبلا ونساءً[3] ثم أقبل ، حتى إذا كان أسفل من ثَنِيَّة أَقْرُن نزل فآبتنى بجارية من السَّبْى ، ولحِقَه الطلب فآقتتلوا ، فقتل أَنَسُ الفوارسُ بن زِيَاد العَبْسىّ عمرًا : وآنهزمتْ بنو مالك بن حنظلة ، وقتلتْ بنو عبس أيضا حَنْظلةَ بن عمرو — وقال بعضهم : قُتِل فى غير هذا اليوم — وآرتدّوا ما كان فى أيدى بنى مالك .

يومُ المَرُّوت[4]

لبنى العَنْبَر على بنى قُشَير

أغار بَحِيرُ[5] بنُ سَلَمة بن قُشَيرعلى بنى العَنْبَر بن عمرو بن تميم ، فأتى الصريخُ بنى عمرو بن تميم حتى لحقوه وقد نزل المَرُّوت ، وهو يَقْسم المِرْبَاع ويُعطِى مَن معه ،

(١) كذا فى العقد الفريد . وفى الأصول : « بمائة » .

(٢) التكملة من العقد الفريد .

(٣) كذا فى معجم ما آستعجم (ص ١١٧ طبع أوربا) وفى الأصول « شاء » .

(٤) المروت (بفتح أوّله وتشديد ثانيه) : واد بالعالية بين ديار بنى قشير وديار بنى تميم .

(٥) كذا فى كتاب النقائض (ص ٧٠ طبع أوربا) ومعجم ما استعجم للبكرى (ص ٥٢٤ طبع أوربا) وفى الأصول والعقد الفريد : « بجير » بالجيم المعجمة وهو تحريف .

فتلاحق القـوم واقتتلوا ، فطعن قَعْنَبُ بنُ عتّاب المثلَّمَ بنَ عامر القُشيْرى فصرعه فأسره ، وحمل الكَدّام، وهو يزيد بن أزْيهر المازنى على بجير بن سَلَمَة فطعنه فأرداه عن فرسه ، ثم أسره ، فأبصره قَعْنَبُ بنُ عتَّاب ، فحمل عليه بالسيف فضربه فقتله ، وانهزم بنو عامر .

يومُ دارَةَ مَأْسَل

لتميم على قيْس

غزا عُتْبَةُ بنُ شُتَيْر بن خالد الكِلَابىّ بنى ضَبَّة ، فاستاق نَعَمَهم ، وقتل حُصَينَ بنَ ضِرَار الضبىّ زيدَ الفوارس، فجمع أبوه ضِرَار قومَه وخرج ثائرا بابنه حُصَينَ، وزيدُ الفوارس يومئذ حَدَثٌ لم يُدْرِك، فأغار على بنى عمرو بن كِلاب، وأفلت منه عُتبة بن شُتَير وأسر أباه شتير [بن خالد](١) وكان شيخا كبيرا، فأتى به قومَه فقال : ياشُتَير، اخترْ واحدةً من ثلاث، قال : اعْرِضها علىّ ، قال : إمّا أن تَرُدّ ابنى حُصَينًا ! قال : إنّى لا أنشُر الموتَى ! قال : وإمّا أن تدفع إلىّ ابنَك عُتْبة أقتله به ! قال : لا يَرْضَى بذلك بنو عامر، قال : وإمّا أن أقتلك . قال : أما هذه فنعم ! فأمر ضِرَارٌ ابنَه أدْهَمَ أن يقتله ، فلمّا قدّمه ليضرب عنقه نادى شُتَير : يا آلَ عامر، صَبْرًا بصبىّ ! كأنه أنِفَ أن يُقتَل بصبىّ، فقال فى ذلك شمعلة :

وخيَّرنا شُتَيراً منْ ثلاثٍ * وما كان الثلاثُ له خِيارَا

جَعَلْتُ السيفَ بين اللِّيتِ(٢) منه * وبين قُصَاصِ لِمَّتِهِ عِذَارَا

(١) التكملة من العقد الفريد .

(٢) الليت (بالكسر) : صفح العنق .

أيامُ تميم على بكر

يومُ الوَقِيط (١)

قال فِرَاس بن خِنْدِف : تجمّعت اللّهازِم لتغِير على تميم وهم غارُّون (٢) ، فرأى ذلك ناشِبُ بنُ بَشَامة العَنبرىّ الأَعْوَر ، وهو أسيرٌ فى بنى سعد بن مالك من بنى ثعلبة ، فقال لهم : أعطونى رسولا أُرسِله إلى بنى العنبر أوصيهم بصاحبكم خيرا ليُولوه ما تُولونى من البِرّ . وكان حَنْظَلة بن طُفَيل المَرْثَدىّ أسيراً فى بنى العَنْبَر ، فقالوا : على أن تُوصِيَه ونحن حضُور ، قال نعم ، فأتوْه بغلام (٣) ، فقال : أتيتمونى بأَحْمق ، وما أراه مُبَلِّغا عنّى ! قال الغلام : لا والله ما أنا بأحمق ، وقُلْ ما شئتَ فإنّى مُبلِّغه ، فملأ الأَعْور كفّه من الرمل فقال : كم فى كفّى منه؟ قال : شيء لا يُحْصَى كثرةً ، ثم أومأ الى الشمس فقال : ما تلك ؟ قال : هى الشمس . قال : فآذهبْ الى أهلى فأبلغهم عنّى التحيّة وقُل لهم : ليُحْسِنوا الى أسيرهم [و يكرموه] (٤) فإنى عند قوم مُحسنين إلىّ [مكرمين لى] (٤) وقُلْ لهم ليُعْرُوا جَمَلى الأحمر : و يركبوا ناقتى العَيْساء (٥) ، ويرعُوا حاجتى فى بنى مالك ، وأخبرهم أن العَوْسَج (٦) قد أَوْرَق ، وقد آشتكت النساء ، وليَعْصُوا همّام بن بَشَامة فإنه مشئوم مَحْدُود (٧) . ويُطيعوا آبنَ الأخنَس فإنه حازمٌ مَيْمونٌ .

(١) الوقيط : المكان الصلب الذى يستنقع فيه الماء ، أطلق على موضع .

(٢) الغار : الغافل .

(٣) فى أمالى القالى (ج ١ ص ٦ طبع دار الكتب المصرية) « بفتى بعيد أسود » و بعض عباراته تختلف عما هنا فراجعه .

(٤) التكملة من كتاب النقائض (ص ٣٠٦ طبع أوربا) والعقد الفريد (ج ٣ ص ٨١ طبع بلاق) .

(٥) العيساء : الناقة يخالط بياضها شقرة .

(٦) العوسج : شوك .

(٧) المحدود : المجدود : الممنوع .

قال : فأتاهم الرسول فأبلغهم ، فقال بنو عمرو بن تميم : ما نعرفُ هذا الكلام ، ولقد جُنَّ الأعور ، والله ما نعرف له ناقةً عَيْساءَ ، ولا جَمَلا أحمر ! فشخص الرسول ، ثم ناداهم هُذَيل : يا بنى العنبر ، قد بيَّن لكم صاحبكم ، أمّا الرملُ الذى قبض عليه فإنه يُخبركم أنه أتاكم عددٌ لا يُحْصَى ، وأمّا الشمسُ التى أومأ إليها فإنه يقول : إن ذلك أوضح من الشمس ، وأمّا جملُه الأحمرُ فهو الصَّمَّان[1] : يأمركم أن تعروه[2] ، وأما ناقته العَيْساء فهى الدَّهْنَاء[3] ، يأمركم أن تحترزوا فيها ، وأما أبناء مالك فإنه يأمركم أن تُنذروا بنى مالك بن زَيْد مَنَاة ، وأن تمسكوا الحِلْف بينكم وبينهم ، وأما العَوْسَج الذى أورق ، فيخبركم أنّ القومَ قد لبسوا السلاح ، وأمّا تشكِّى النساء فيخبركم أنهنّ قد عَمِلْنَ حِجلا يغزون به .

قال : فتحرَّزت عمرو فركبت الدَّهناء وأنذَرُوا بنى مالك فقالوا : ما ندرى ما تقول بنو عمرو ، ولسنا مُتَحوِّلين لما قال صاحبهم . قال : فصبَّحت اللَّهازِم بنى حنظلة فوجدوا عمرا قد جَلَتْ ، وكان على الجيش أبجر بن جابر العِجْلىّ ، وشهدها ناسٌ من بنى تَيْم اللات ، وشهدها الفِرز بن الأسود بن شريك فى بنى شيبان ، فاقتتلوا ، فأَسِر ضِرَار بن القعقاع بن زُرَارة ، وتنازع فى أَسْره بِشْر بن العَوْراء من تيم اللات ، والفِرْز بن الأسود فجزّوا ناصيته وخلوا أسره من تحت الليل ، وأسر عمرو بن قيس من بنى ربيعة بن عِجْل عَثْجَل بن المأموم بن شيبان بن عَلْقَمة من بنى زُرَارة ، ثم منّ عليه ، وأُسِرتْ غَمامةُ بنت الطَّوْد بن عُبَيد بن زُرارة ، وآشترك فى أسْرها الحطيم بن هِلال ، وظَربان بن زياد ، وقَيْس بن خُلَيد ، فردّوها إلى أهلها ، وأُسر

(١) الصمان : جبل أحمر فى أرض بنى تميم .

(٢) تعروه : يعنى ترتحلوا عنه .

(٣) الدهناء : سبعة أجبل من الرمل ، وهى ديار لعامة تميم .

حنظلة بن المأموم بن شَيْبان بن عَلْقمة ، أَسره طلبةُ بن زياد أحدُ بنى ربيعة بن عِجْل ، وأُسِرَ حَوْثرة بن بدر من بنى عبد الله بن دارم ، فلم يزل فى الوثاق حتى قال أبياتا يمدح فيها بنى عجل فأطلقوه ، وأُسِرَ نُعَيْمُ بن القعقاع بن مَعْبَد بن زُرارة ، وعمرو بن ناشب ، وأُسِرَ سِنَان بن عمرو أحد بنى سلامة من بنى دارم ، وأُسِرَ حاضر بن ضَمْرة ، وأُسر الهيثم بن صعصعة ، وهرب عوف بن القعقاع عن إخوته ، وقُتِلَ حَكِيم النَهشلىّ ، وكان يقاتل ويرتجز :

كلُّ ٱمرىءٍ مُصَبَّحٌ فى أهْلِهِ * والموتُ أَدْنَى من شِرَاكِ نَعْلِهِ

وفيه يقول عنترة :

وغادَرْنا حَكِيمًا فى مَجَالٍ * صَرِيعًا قد سَلَبْناهُ الإزَارَا

يوم النِّباج وثَيْتَل (١)

لبكر على تميم

قال أبو عُبَيدة مَعْمَر بن المثنّى : غدا قيسُ بن عاصم فى مُقَاعِس وهو رئيسٌ عليها — ومُقَاعِس هم : صريم ، وربيع ، وعبيد ، بنو الحارث بن عمرو بن كعب ابن سعد بن زيد مناة بن تميم — ومعه سَلَامة بن ظَرِب بن نمر الحمانى فى الأَجارِب وهم : حمان ، وربيعة ، ومالك ، والأعرج ، بنو كعب بن سعد ابن زيد مَناة بن تميم ، فغزَوْا بكر بن وائل فوجدوا بنى ذُهْل بن ثعلبة بن عكابة ، واللهازم وهم : بنو قيس وتَيْم اللات بن ثعلبة ، وعِجْل بن لُجَيْم ، وعنزة بن أسد ابن ربيعة بالنِّباج وثَيْتل ، وبينهما روحة ، فتنازع قيسٌ بن عاصم وسلامةُ بن ظَرِب فى الإغارة ، ثم ٱتفقا على أن يُغِيرَ قيس على أهل النِّباج ، ويُغِيرَ سلامةُ على

(١) النباج : موضع قريب من ثيتل . وثيتل : ماء على عشر مراحل من البصرة .

أهل ثَيْتَل . قال : فبعث قيسُ بن عاصم الأهتم سبقةً له — والسبقةُ : الطليعة — فأتاه الخبرُ فلما أصبح قيس سقى خيله ، ثم أطلق أفواه الروايا وقال لقومه : قاتِلوا فإنّ الموتَ بين أيديكم ، والفلاةَ من ورائكم . فلما دَنَوا من القوم صُبحاً سمِعوا ساقيا يقول لصاحبه : ياقيسُ ، أورد ، فتفاءلوا به ، فأغاروا على النِّبَاج قبل الصبح ، فقاتلوهم قتالا شديدا ، ثم إنّ بكرا آنهزمت ، فأسر الأهتمُ حُمْرانَ بنَ بشر بن عمرو ابن مرثد ، وأصابوا غنائم كثيرةً ، فقال قيس لأصحابه : لا مقام دون الثيتل ، فالنجاةَ ، فأتوا ثيتل ولم يغزوا سلامةَ وأصحابه بعد ، فأغار عليهم قيسُ بن عاصم ، فقاتلوه ثم آنهزموا ، فأصاب إبلا كثيرةً ، فقال ربيعة بن طَريف :

فلا يُبْعِدَنْك الله قَيْسَ بنَ عاصمٍ * فأنتَ لنا عز عزيزٌ ومَوْئِلُ
وأنتَ الذى حَرَبْتَ[1] بكر بن وائلٍ * وقد عضَّلَتْ[2] منها النِّبَاج وثَيْتَلُ
غَدَاةَ دعَتْ يا آلَ شيبانَ إذْ رأَتْ * كَرَادِيس[3] يُزْجِيهنّ وردٌ مُحَجّلُ

وقال قُرّة بن قيس بن عاصم :

أَنَا ابنُ الذى شَقَّ المزادَ[4] وَقَدْ رَأَى * بِثَيْتَلَ أحْيَاءَ اللَّهَازِمِ حُضَّرَا
فَصَبَّحَهُمْ بالجيش قَيْسُ بنُ عَاصمٍ * فَلَمْ يَجِدُوا إِلَّا الأَسِنَّةَ مَصْدَرَا
عَلَى الجُرْدِ[5] يعْلُكْنَ الشَّكِيمَ[6] عَوابِسًا * إِذَا الماءُ مِنْ أعطَافهنَّ تَحَدَّرَا
فَلَمْ يرَهَا الرَاءُونَ إلا فُجَاءَةً * يَثِرْنَ عَجَاجًا بالسَّنَابِكِ أَكْدَرَا

(١) حربه : سلب ماله .

(٢) عضلت الأرض بأهلها : إذا ضاقت بهم لكثرتهم .

(٣) كراديس : جمع كردوس ، وهى الخيل العظيمة ، وقيل : القطعة من الخيل العظيمة .

(٤) المزاد : جمع مزادة ، وهى الرواية :

(٥) فرس أجرد : قصير الشعر ، وقيل : الأجرد : الذى رق شعره وقصر ، وهو مدح .

(٦) الشكيم فى اللجام : الحديدة المعترضة فى فم الفرس التى فيها الفأس .

سَقَاهُمْ بِهَا الذِّيفَانَ قَيْسُ بْنُ عاصم * وكَانَ إذَا مَا أَوْرَدَ الأمْرَ أَصْدَرَا

وَحُمْرَانَ أَدَّتْهُ إِلَيْنَا رِمَاحُنَا * فَنَازَعَ غُلاًّ فِى ذِرَاعَيْهِ أَسْمَرَا

وجثّامةَ الذُّهْلِيِّ قُدْنَاهُ عَنْوَةً * إلَى الحىِّ مَصْفُودَ اليَدَيْنِ مُفَكَّرَا

يوم زَرُود الثانى[1]

لبنى يربوع على بنى تغلب

٥

أغار خُزَيمةُ بنُ طارق التغلبيّ على بنى يربوع وهم بزَرُود، فاقتتلوا قتالا شديدا، ثم انهزمت بنو تغلب، وأُسِرَ خُزَيمةُ بن طارق، أسره أنيف بنُ جَبلةَ الضبّيّ — وهو فارسُ السليط، وكان يومئذ ثقيلا[2] فى بنى يربوع — وأُسَيدُ بنُ حِنّاءة السليطى، فتنازعا فيه، فحكّما بينهما الحارث بن قراد، فحكم بناصية خزيمة للأنيف، على أنّ لأسيد على أنيف مائةً من الإبل. قال: فَفَدَى خُزَيمةُ نفسه بمائتى بعير وفرس، فقال أنيف:

١٠

أَخَذْتُكَ قَسْرًا يا خُزَيْمَ بنَ طارقٍ * ولَاقَيْتَ مِنِّى المَوتَ يَومَ زَرُودِ

وعانقتُه والخيلُ تَدْمَى نُحُورُها * فأنزلتُهُ بِالقَاعِ غَيرَ حَمِيدِ

يوم ذى طُلوح[3]

١٥

لبنى يربوع على بكر

كان عَميرةُ بنُ طارق بنِ حصينةَ بنِ أريم بن عبيد بن ثعلبة، تزوج مَرِيّةَ بنت جابر، أخت أبجر بن جابر العِجْلىّ، فابتنى بها فى بنى عجل، فأتى أبجر أختَه امرأةَ

(١) زرود: رمال بطريق الحاج من الكوفة.

(٢) الثقيل: الغريب.

٢٠

(٣) ذو طلوح: موضع فى حزن بنى يربوع بين الكوفة وفيد.

عَمِيرة يَزُورُها فقال لها : إنى لأرجو أن آتيَك ببنتِ النَّطف آمرأةِ عَمِيرة التى فى قومها، فقال له عَمِيرةُ : أترضى أن تحارِبَنى وتسبينى، فندِمَ أبجرُ وقال لِعَميرةَ : ما كنتُ لِأَغْزُوَ قومَك، ثم غزا أبجر والحوْفَزان متساندين ، هذا فيمن تبعه من بنى شيبان، وهذا فيمن تبعه من اللهازم، وساروا بعميرةَ معهم قد وكل به أبجرُ أخاه حُرْقُصةَ بن جابر، فقال له عَمِيرةُ : لو رجعتُ إلى أهلى فآحتملتُهم، فقال حُرْقُصَةُ : افعل، فكَرَّ عميرةُ على ناقته، فسار يومين وليلةً حتى أتى بنى يَرْبوع، فأنذرهم الجيشُ، فآجْتَمَعُوا حتى آلتقَوْا بأسفل ذى طُلوح ، فكان أوّل فارسٍ طلع عليهم عَمِيرةُ ، فنادى : يا أبْجَرُ ، هلمَّ! فقال مَنْ أنت؟ قال: أنا عَمِيرةُ، فكَذَّبه ، فسفر عن وجهه، فعرفه، فأقبل إليه، وآلتقَتْ الخيلُ بالخيل، فأُسِرَ الجيشُ إلا أقلَّهم ، وأُسِر حنظلةُ آبنُ بشر بن عمرو بن عُدُس بن زيد بن عبدالله بن دارم — وكان فى بنى يربوع — الحَوْفزانَ بنَ شَريك ، أخذه معه أبو مُلَيل[(١)] ، وأخذ آبنُ طارق سوادةَ بنَ يحيى آبن عمّ أبجر، وأُخِذ أبو عنمةَ الضَّبِّىُّ الشاعرُ مع بنى شيبان، فآفتكّه متمّمُ بنُ نويرةَ ، وأُسر شريكُ بنُ الحوفزان ، وأسودُ وفَلْحَسُ، وهما من بنى سعد بن همّام، فقال جرير يذكر يومَ ذى طُلوح :

ولمّا لَقِينَا خيلَ أبْجَرَ تدّعِى * بِدَعْوى لُجَيمٍ قَبلَ مَيْلِ العَوَاتِقِ

صَبَرْنَا وكانَ الصَّبْرُ مِنَّا سَجِيّةً * بأسيافنا تحتَ الظِّلَالِ الخوافِقِ

فلمّا رأَوْا أنْ لا هَوادةَ عِندَنَا * دَعَوْا بعدَ كربٍ يا عَمِيرَ بنَ طارقِ

(١) كذا فى كتاب النقائض . وفى الأصول والعقد الفريد : «أبو مليك» .

يَوْمُ الحائِر وهو يومُ مَلْهَم

لبنى يربوع على بنى بكر

وذلك أنّ بنى مُلَيْل عبد الله بن الحارث بن عاصم بن عُبَيْد ، وعلقمة أخاه انطلقا يطلبان إبلًا لهما حتى وردا ملهمَ من أرض اليمامة ، فخرج عليهما نفرٌ من بنى يشكر، فقتلوا علقمةَ وأخذوا أبا مُلَيْل ، فكان عندهم ما شاء الله ثم خلّوا سبيلَه ، وأخذوا عليه عهدا وميثاقا ألا يُخْبِرَ بأمر أخيه أحدا ، فأتى قومَه فسألوه عنه فلم يخبرهمْ ، فقال وَبْرةُ بنُ حمزه : هذا قد أُخِذَ عليه عهدٌ وميثاق ، فخرجوا يقصّون الأثر و بينهم شهابُ بنُ عبدِ القيس حتى وردوا مَلْهَم ، فلما رآهم أهلُ مَلْهَم[1] تحصّنوا ، فحرّقت بنو يربوع بعضَ زرعِهم ، وعقروا بعضَ نخلِهم ، فلمّا رأى ذلك القومُ نزلوا إليهم فقاتلوهم ، فهُزِمت بنو يشكر ، وقُتِل عَمْرُو بنُ صابر صَبْرًا ، ضربوا عنقَه ، وقَتَل عيينةُ بنُ الحارث بن شهاب بن مُثَلَّم بن عُبَيْد بن عمرو رجلا آخر منهم ، وقَتَل مالكُ بنُ نُوَيرة حُمْرانَ بن عبد الله وقال :

طلبنا بيومٍ مثلَ يومِك عَلْقَمَا * لَعَمْرِى لمَنْ يَسْعَى بها كان أكرمَا

قتلنا بِجَنبِ العِرْضِ عمرَو بنَ صابر * وحُمْرانَ أقصدْنَاهما والمُثَلَّمَا

فلله عينَا مَنْ رَأى مِثْلَ خَيْلِنَا * وما أدركتْ من خَيْلِهم يومَ مَلْهَمَا

يوم القحقح وهو يوم مالة

لبنى يربوع على بكر

أغارت بنو أبى ربيعة بن ذُهْل بن شيبان على بنى يربوع ورئيسهم مجبة ابنُ ربيعة بن ذهل ، فأخذوا إبلًا لعاصم بن قرط أحد بنى حميد ، وانطلقوا ، فطلبهم

(١) ملهم : قرية باليمامة لبنى يشكر وأخلاط من بكر .

بنو يربوع، فناوشوهم، فكانت الدائرة على بنى ربيعة، وقتل المنهالُ بنُ عصمة المجبّةَ بن ربيعة، فقال فى ذلك ٱبنُ حُمْرانَ الرياحىّ :

وإذا لَقِيتَ القومَ فاطعنْ فيهم * يومَ اللّقاءِ كطَعْنَةِ المِنْهالِ
تَرَكَ المجبّةَ للضباعِ مجدّلا * والقومُ بين سوافلٍ وعوالِ

يوم رأس العين

لبنى يربوع على بكر

أغارت طوائف من بنى يربوع على بنى أبى ربيعة برأس العين فاطّردوا النَّعَم، وٱتبعهم معاوية بن فِرَاس فى بنى أبى ربيعة فأدركوهم، فقُتِل معاويةُ وفاتوا بالإبل، فقال سُحَيم فى ذلك :

أَلَيْسَ الأكرمون بنو رياح * نَمَوْنى منهم عمّى وخالى
هُمو قتلوا المجبةَ وابنَ تيمٍ * تَنُوحُ عليهما سُودُ المالَ
وهُمْ قَتَلُوا عميدَ بنى فِرَاس * بِرَأْسِ العَيْنِ فى الحِجَجِ الخَوَالِى
وذادوا يوم طخفةَ عن حِمَاهم * ذِيادَ غَرائبَ الإبِلِ النِّهالِ

يوم العظالى (١)

لبنى يربوع على بكر

قال أبو عبيدة : وهو يوم أعشاش ويوم الأُفاقة ويوم الإياد ويوم مُلَيْحَة. قال : وكانت بكر بن وائل تحت يد كسرى وفارس، فكانوا يجيرونهم ويجهزونهم، فأقبلوا من عند عامل عين التمر فى ثلثمائة فارس متساندين، يتوقعون ٱنحدارَ بنى يربوع فى الحَزْن — قال : وكانوا يشتون خفافا فإذا ٱنقطع الشتاء ٱنحدروا إلى الحزن —

(١) سمى يوم العظالى لأنه تعاظل على الرياسة بسطام وهانئ بن قبيصة ومفروق بن عمرو فى هذا اليوم.

قال : فاحتمل بنو عتيبة و بنو عبيد و بنو زبيد من بنى سليط ، أوّل الحىّ ، حتى أسهلوا ببطن مُلَيْحَة ، فطلعت بنو زبيد فى الحَزْن حتى حلّوا الحُدَيْقة بالأُفاقة ، وحلّت بنو عبيد و بنو عتيبة بروضة الثمد . قال : وأقبل الجيشُ حتى نزلوا هضبةَ الخصىّ ، ثم بعثوا رَئِيسَهم فصادفوا غلاما شابّا من بنى عبيد يقال له قرط بنُ أضبط ، فعرفه بسطام فقال له : أخبرنى ما ذاك السواد الذى أرى بالحُدَيقة ؟ قال : هم بنو زبيد . قال : أَسِيد بن حِنّاءة ؟ قال : نعم ، قال : كم هم ؟ قال خمسون بيتا ، قال : فأين بنو عتيبة و بنو أريم ؟ قال : نزلوا روضةَ الثّمـد . قال : فأين سائرُ الناس ؟ قال هم محتجزون بجفاف[1] . قال : فمن هنـاك من بنى عاصم ؟ قال : الأُحَيمِرُ وقَعْنَب ومُعْدان أبناء عصمة . قال : فمن فيهم من بنى الحارث بن عاصم ؟ قال : حصينُ آبنُ عبد الله . فقال بسطام لأصحابه : أطيعونى تقبضوا على هذا الحىّ من زبيد ، وتصبحوا سالمين غانمين . قالوا : وما يغنى عنّا بنو زبيد لا يودون رحلتنا . قال : إن السـلامةَ إحدَى الغنيمتين . فقال له مغروق : انتفخ سحرك يا أخا الصهباء ، قال له هانئ : أجبنا . قال : ويلكم إنّ أَسِيدًا لم يظلّه بيتٌ قط شاتيا ولا قائظًا ، إنمـا بيتُه القفرُ ، فإذا أحسّ بكم أحال على الشـقراء ، فركَضَ حتى يَشرف مُلَيحةَ[2] ، فينادى : ياآلَ يربوع ! فيركب فيلقاكم طعنٌ ينسيكم الغنيمة ، ولا يبصر أحدُكم مصرعَ صاحبـه ، وقد جئتمونى وأنا تابعكم ، وقـد أخبرتكم ما أنتم لاقون غدًا . فقالوا : نلتقط بنى زبيد ، ثم نلتقط بنى عبيد وبنى عتيبة كما نلتقط الكمأة ، ونبعثُ فارسين فيكونان بطريق أَسِـيد ، فيحولان بينـه وبين بنى يربوع ، ففعلوا . فلما أحسّ بهم أسـيد ركب الشقراء وخرج نحو بنى يربوع ، فآبتدره الفارسان فطعنه

(١) جفاف ، وتسمى جفاف الطير : أرض لأسد وحنظلة واسعة فيها أماكن يكون فيها الطير .

(٢) مليحة : موضع فى بلاد بنى تميم .

أحدهما فألقى نفسه فى شقّ فأخطأه ، ثم كرّ راجعا حتى أشرف مُلَيحَة ، فنادى :
١٢٦/١٣ ياصباحاه! يا آل يربوع ، غشيتم ، فتلاحقت الخيل حتى توافَوْا بالعظالى ، فٱقتتلوا ،
فكانت الدائرةُ على بكر ، قُتِل منهم مغروقٌ بن عمرو ، فدُفِن بثنيّة مغروق ، وبه
سُمِّيت ، وغيره . وأما بسطام فألحّ عليه فارس من بنى يربوع ، وكان دارعا على ذات
٥ النسوع[١] ، وكانت إذا أجدّت[٢] لم يتعلق بها شىء من خيلهم ، ففاقت الطلب حتى
أتى قومه .

يوم الغبيط

لبنى يربوع على بكر

ويقال له يومُ الثعالبِ[٣] . قال : غزا بسطامُ بنُ قيس ، ومغروق بن عمرو ،
١٠ والحارثُ بنُ شريك — وهو الحوفزان — بلادَ بنِى تميم ، وهذا اليوم قبل يوم
العظالى ، فأغاروا على بنى ثعلبة بن يربوع ، وثعلبة بن سعد بن ضبة ، وثعلبة بن عدىّ
ٱبن فَزَارة ، وثعلبة بن سعد بن ذبيان ، فلذلك قيل له يومُ الثعالب . وكان هؤلاء
جميعا متجاورين بصحراء فلج[٤] فٱقتتلوا ، فٱنهزمتْ الثعالبُ ، فأصابوا فيهم وٱستاقوا
إبلا من نعمهم ، ولم يشهد عتيبة بن الحارث بن شهاب هذه الوقعة لأنه كان نازلا
١٥ يومئذ فى بنى مالك بن حنظلة . قال : ثم ٱسروا على بنى مالك ، وهم بين صحراء فلج
وبين الغبيط ، فٱكتسحوا إبلَهُم ، فوكبت عليهم بنو مالك ، فيهم عتيبة بن الحارث
ٱبن شهاب ، ومعه فارسان من فرسان بنى يربوع ، وتأثّف[٥] اليهم الأحيمرُ بنُ عبدالله ،
وأسيدُ بنُ حنّاءة ، وأبو مرحب ، وجزء بن سعد الرياحىّ — وهو رئيس

(١) ذات النسوع : فرس بسطام . (٢) أجدّت : سلكت الطريق الوعر .
٢٠ (٣) الثعالب : أسماء قبائل اجتمعت فيه . (٤) صحراء فلج : واد لبنى العنبر بن تميم ،
يقع أوّل الدهناء . (٥) تأثف : يريد تبعهم وتحوطهم مثل تأثف الأثافى الرماد .

بنى يربوع —وربيع، والحليس، وعمارة، بنو عتيبة بن الحارث، ومَعْدان وعصمة آبنا قعنب، ومالك بن نُوَيْرة، والمنهال بن عصمة أحد بنى رياح بن يربوع، وهو الذى يقول فيه متمّ بنُ نُوَيْرة فى شعره الذى يرثى به أخاه مالكا :

لقد كفّن المنهالُ تحتَ رِدَائِه فتى غيرَ مِبْطَانِ العَشِيات أَرْوَعَا

٥ فأدركوهم بغَبِيط المَدَرَة، فقاتلوهم حتى هزموهم، وأدركوا ما كانوا آستاقوا من أموالهم، وأُسِر بسطامٌ، أَسره عتيبةُ، فلم يزل عنده حتى فادى نفسَه . قيل : إنه فدى نفسَه بأَربعمائة بعير وثلاثين فرسا، ولم يكن غيره عُكَاظىّ أعلى فداءً منه، على أن جزّ ناصيتَه وعاهده ألا يغزُو بنى شهاب أبدا .

يومُ مُخَطَّط

١٠ لبنى يربوع على بكر

قال أبو عبيدة : غزا بسطامُ بنُ قيس والحَوْفَزان الحارثُ متساندَيْن يقودان بكرَ بنَ وائل، حتى وردوا على بنى يربوع بالفِرْدَوْس، وهو بطن لإياد، وبينه وبين مخطط ليلة، وقد نَذِرت بهم بنو يربوع فآلتقَوْا بالمُخَطَّط، فآقتتلوا، فآنهزمت بكر، وهرب الحَوْفَزَان وبسطام ففاتا ركضا، وقُتِل شَريك بن الحَوْفَزان، قتله شهابُ ١٥ آبنُ الحارث أخو عتيبة، وأسر الأُحَيمر بن عبد الله بن الضريس الشَّيْبانىّ .

يوم جدود

غزا الحَوْفَزَان وهو الحارثُ بن شَريك فأغار على مَنْ بالقاعة من بنى سعد بن زيد مناة، فأخذ نَعَما كثيرا ونساء فيهنّ الزرقاء من بنى ربيع بن الحارث، فأُعجب بها وأُعجبت به، فلم يتمالك أن وقع بها، فلما آنتهى الى جدود[1] منعهم بنو يربوع

٢٠ (١) جدود : اسم موضع فى بلاد بنى تميم قريب من حزن بنى يربوع على سمت اليمامة، فيه الماء الذى يقال له الكلاب .

ٱبن حنظلة أن يَرِدُوا المـاء ، ورئيسهم عتيبةُ بنُ الحـارث بن شهاب ، فقاتلوهم ، فلم يكن لبنى بكر بهم يدٌ[(١)] ، فصالحوهم على أن يُعطوا بنى يربوع بعض غنائمهم حتى يَرِدُوا المـاء ، فقبلوا ذلك منهم وأجازوهم ، فلما أتى الصريخُ بنى سعد ، ركب قيسُ ٱبنُ عاصم فى أثر القوم حتى أدركهم بالأشيمين[(٢)] ، فألحّ قيسُ على الحَوْفَزان ، وقد حمل الزرقاء خَلفه رديفا على فرسه الزَّبِد ، وعقد شعرَها على صدره ، فأخذ قيس بن عاصم بحيث يكلّم الحوفزان ، فقال له قيس : يا أبا حمّاد ، أنا خيرٌ لك من الفلاة والعطش ، قال له : ما يشاء الزبد . فلما رأى قيس أنّ فرسَـه لا يلحقُه نادى الزرقاءَ فقال : ميلى به يا جعار ، فجزّ الحوفزان قرونَها بالسيف ودفعها بمرفقه وألقاها عن عجز فرسه فردّها قيسُ بن عاصم الى بنى ربيع .

يومُ سَفَوَان

قال أبو عبيـدة : التقت بنو مازن و بنـو شَيْبان على ماء يقال له سَـفَوَان ، فزعمت بنو شيبانَ أنه لهم ، وأرادوا أن يُحلوا تميما عنـه ، فٱقتتلوا قتالا شـديدا ، فظهرت عليهـم بنو تميم وشلوهم حتى بلغوا المحـدث ، وكانوا قبل ذلك يتوعّدون بنى مازن ، فقال فى ذلك الودّاك المـازنىّ :

رُوَيْدًا بَنى شَيْبانَ بعضَ وَعِيـدِكم * تُلاَقُوا غدًا خَيْـلِى عَلَى سَـفَوَانِ
تُلاَقُوا جِيادًا لَا تَحِيدُ عن الوَغَى * إذَا الخيْلُ جالَتْ فى القنَا المُتَدَانِي
عليهَـا الكُماةُ الغُـرُّ من آلِ مَازِنٍ * لُيوثُ طِعانٍ كلَّ يوم طِعَانِ
تُلاَقُوهُمْ فتَعْرِفُوا كيفَ صَـبْرُهُمْ * عَلَى ماجَنَتْ فيهـم يَدُ الحَـدَثانِ

(١) كذا فى العقد الفريد . وفى الأصل : « الغزى" بحربهم يد» .

(٢) الأشيمان : فى بلاد بنى سعد بالبحرين دون هجر .

مَقَادِيمُ وصَّالُونَ فى الرَّوْعِ خَطْوَهُمُ * بِكُلِّ رَقِيقِ الشَّفْرَتَيْنِ يَمَانِ
إذا ٱستُنْجِدُوا لم يَسْألُوا مَن دَعَاهُمُ * لأيَّةِ حَرْبٍ أمْ لِأىِّ مَكَانِ

١٢٧
١٣

يوم نقا الحَسَن

وهو يوم الشَّقيقة(١) لبنى ضبّة على بنى شَيْبان

فيه قتل بسطام . قال أبو عبيدة : غزا بسطام بن قيس بن مسعود بن قيس ٱبن خالد — وقيسُ بنُ مسعود هو ذو الجدَّين، وأخوه السليل بنُ قيس من بنى ضبة ابن أدّ بن طابخة — فأغار على ألف بعير لمالك بن المنتفق فيها فحلُها قد فقأ عينه، وكان فى الإبل مالك بن المنتفق، فركب فرسا له ونجا ركضًا حتى إذا دنا من قومه نادى : يا صَباحَاه، فركبت بنو ضبّة ، وتداعت بنو تميم ، فتلاحقوا بالنقا ، فقال عاصم بنُ خليفة لرجل من فرسان قومه : أيُّهم رئيسُ القوم ؟ قال : حاميتُهم صاحب الفرس الأدهم — يعنى بسطامًا — فعلا عاصمٌ عليه بالرمح فطعنه، فلم تخطئ صماخَ أُذُنه حتى خرج الرمح من الناحية الأخرى وخرَّ . فلما رأى ذلك بنو شيبان خَلَّوا سبيل النَّعَم وولَّوْا الأدبارَ ، فمن قتيل وأسير ، وأَسَر بنو ثعلبة نجادَ بن قيس أخا بسطام فى سبعين من بنى شيبان : وقال شَمْعلة بنُ الأخضر بن هُبيرة :

ويومَ شقائِقِ الحَسَنَيْنِ لاقتْ * بنُو شَيْبانَ آجالًا قِصَارَا
شَكَكْنَا بالرِّماحِ وهُنَّ زُورٌ * صِمَاخَىْ كَبْشِهِم حتى ٱسْتَدَارَا

أيام بكر على تميم

يوم الزُّوَيْرين

قال أبو عبيدة : كانت بكر بن وائل تنتجع أرضَ بنى تميم فى الجاهلية ترعى بها إذا أجدبوا ، فإذا أرادوا الرجوعَ لم يدعوا عودة يصيبونها ولا شيئا يظفرون به

(١) الشقيقة : كل جمد (بفتح الجيم المعجمة وسكون الميم) بين حبلى رمل . والجمد : غلظ وصلابة .

إلا اكتسحوه، فقال بنو تميم : امنعوا هـؤلاء القومَ من رَعْى أرضكم ، فحشـدت تميم ، وحشـدت بكر وآجتمعت ، فـلم يتخلّف عنهـم إلا الحَوفزَان بن شريك فى أناس من بنى ذُهل بن شـيبان، وكان غازياً ، فقدّمت بكر عليهـم عمرًا الأصمّ أبا مفروق — وهو عمْرو بنُ قيس بن مسعود بن عمرو بن أبى ربيعة بن ذُهل بن شيبانَ — فحسد سائرُ ربيعة الأصمَّ على الرياسـة ، فأتَوه فقالوا : يا أبا مفروق، إنّا قد زحفنا لتميم وزحفوا لنا أكثر ما كنّا وكانوا قط . قال : فما تريدون ؟ قالوا : نريد أن نجعل كلّ حىّ على حياله ، ونجعل عليهم رجلا منهم، فنعرف غناء كل قبيلة، فإنه أشـدّ لآجتهاد النـاس . قال : والله إنى لأبغض الخـلاف عليكم ، ولكن يأتى مفروق فينظـر فيما قلتم . فلمـا جاء مفروق شاوره أبوه ، فقال له مفـروق : ليس هذا أرادوا، وإنمـا أرادوا أن يخدعوك عن رأيك وحسدوك على رياستك، والله لئن لقيتَ القوم فظفرت لا يزال لنا الفضلُ بذلك أبدا، ولئن ظُفر بك لا تزال لنا رياسة نُعرف بها، فقال الأصمُّ : ياقوم، قد آستشرتُ مفروقاً فرأيتُه مخالفا لكم، ولستُ مخالفا رأيَه وما أشار به . فأقبلت تميم بجملين مجلّلين مقرونين مقيّدين وقالوا: لا نولّى حتى يولى هذان الجملان، وهما الزَّوْيَران، فأخبرت بكر بقولهم الأصمّ فقال: وأنا زُوَيْرُكم إن خشُّوهما فخشونى ، وإن عقروهما فآعقرونى ، قال : وآلتقى القوم فآقتتلوا قتالا شـديدا . فأسرت بنُو تميم حرابَ بن مالك أخا بنى مرّة بن همـام، فركض به رجلٌ منهم وقد أردفه، فآتبعه آبنـه قتادة بن حراث حتى لحق الفارس الذى أسر أباه، فطعنه فأرداه عن فرسـه ، وآستنقذ أباه ، ثم آنهزمت بنُو تميم . وقال رجلٌ من بنى سدوس :

يا سَـلْمُ إنْ تسألى عنّا فلا كَشُفٌ * عِنْـدَ اللّقَـاءِ وَلَسْنَا بالمَقَارِيفِ

نحنُ الذين هَزَمْنا يَوْمَ صَبَّحْنَا * جيشَ الزُّوَرَيْنِ فى جَمْعِ الأحاليف
ظلُّوا وظلنا نَكُرُّ الخَيْلَ وَسْطَهُمُ * بالشِّيبِ مِنّا و بالمُرْدِ الغطارِيفِ

يوم الشَّيِّطَيْن

لبكر على تميم

قال أبو عبيدة : لمّا ظهر الإسلامُ — قبل أن يسلم أهلُ نجد والعراق — سارت بكر بنُ وائل الى السواد وقالت : نُغِير على بنى تميم بالشَّيِّطَيْن[1] ، فإنّ فى دِين آبن عبد المطلب أنه مَنْ قتل نفسا قُتِل بها ، فنُغِير هذه الغارة ثم نُسْلِم عليها .

فآرتحلُوا من لَعْلَع بالذّرارىّ والأموال، فأتوا الشيِّطَيْن فى أربع، وبينهما مسيرةُ ثمانية أميال فسبقوا الخبر فصبّحوهم وهم لا يَشْعُرون ، ورئيسهم يومئذ بِشْرُ بنُ مسعود بن قَيْس بن خالد ذى الجدّين ، فقتلوا بنى تميم قتلا ذريعا وأخذوا أموالهم . قال : قُتِل من بنى تميم يوم الشَّيِّطَيْن ولَعْلَع ستمائة رجل ، قال : فوفد وفدٌ من بنى تميم الى النبىّ صلى عليه وسلم فقالوا : أُدْعُ الله على بكر بن وائل ! فأبى صلى الله عليه وسلم .

يومُ صَعفوق

لبكر على تميم

أغارت بنو ربيعة على بنى سليط بن يربوع يومَ صَعفوق، فأصابوا منهم أسرى، فأتى طَريفُ بن تميم العنبرىّ فروةَ بن مسعود، وهو يومئذ سيّدُ بنى ربيعة، ففدى منهم أسرى بنى سليط ورهَنَهم آبنَه، فأبطأ عليهم فقتلوا آبنه .

(١) الشيطان : واديان .

يومُ مُبَايِض
لبكر على تميم

قال أبو عبيدة : كانت الفُرسان إذا كانت أيام عُكَاظ فى الشهر الحرام، وأمِنَ بعضُهم بعضا، تقنّعوا كى لا يُعرفوا، فكان طَرِيف بن تميم لا يتقنّع ، فوافى عُكَاظ وقد كشفت بكر بن وائل، وكان طَريف قد قَتل شَرَاحِيل الشيبانىّ أحد بنى عمرو بن ربيعة، فقال خميصة : أرونى طَريفا ، فأروه إيّاه ، فتأمّله ونظر إليه ، ففَطن له طريف فقال : مالك تنظر ؟ فقال : أتوسّمك لأعرفك، فلله علىّ إن لقيتُك أن أقتُلَك أو تقتُلَنى .

قال : فمضى لذلك ما شاء الله، ثم إن بنى عائذة حُلَفاء بنى ربيعة بن ذُهْل ، خرج منهم رجلان يصيدان ، فعرض لهما رجلٌ من بنى شيبان، فذعر عليهما صيدَهما ، فوثبا عليه فقتلاه ، فثارت بنو مُرّة بن ذُهْل بن شيبان يريدون قتلَهما ، فأبت بنو ربيعة ذلك عليهم ، فقال هانئ بن مسعود : يا بنى ربيعة، إنّ إخوتكم قد أرادوا ظُلْمَكم فآنمازوا عنهم[1]، ففارقوهم، وساروا حتى نزلوا بمبايض: — ماء لهم — فأبَقَ عبدٌ لرجل من بنى ربيعة ، وسار الى بلاد تميم ، فأخبرهم أن حيّا جديدا ، أى منشقّ من قومه ، من بكر بن وائل نُزولٌ على مُبَايِض وهم بنو ربيعة ، فقال طَريف العنبرىّ : هؤلاء فأرى يا آل تميم ، وأقبل معه أبو الجدعاء أخو بنى طُهَيّة، وجاءه فَدَكِىّ بن أَعْبَدَ المِنْقَرِىّ فى جمع من بنى سعد بن زَيْد مَنَاة، فأنذرت بهم بنو ربيعة ، فآنحاز بهم هانئ بن مسعود ، وهو رئيسهم ، الى عَلَم مُبَايِض، وأقام عليه وشرّفوا بالأموال والسرح[2]، وصبّحتهم تميم ، فقال لهم

(١) انمازوا : انفصلوا .
(٢) السرح : المال الراعى .

طريف : أطيعونى وافرغوا من هـؤلاء الأكلُب يَصْفُ لكم ما وراءهم ، فقال لهم أبو الجدعاء — رئيس حنظلة — وفَدَكِىّ — رئيس بنى سعد بن زيد مناة : أنقاتِل أكلُبا أحْرَزُوا أنفسَهم ونترك أموالهم ؟ ماهـذا برأى ! وأبَوْا عليه . وقال هانئ لأصحابه : لا يقاتل رجلٌ منـكم ، ولحقت تميم بالنَّعم والبغالِ فأغاروا عليها، فلمّـا ملأوا أيديَهـم من الغنيمة قال هانئ بنُ مسعود لأصحابه : احمـلوا عليهم ، فهزموهم . وقُتِل طَريف العنبرىّ ، قتله خميصة الشيبانىّ .

يومُ فَيْحان

لبكرٍ على تميم

قال أبو عبيدة : لمّـا فدى نفسَه بسطامُ بنُ قيس من عتيبـة بنِ الحارث إذ أسره يومَ الغبيط بأربعمائة بعـير فقال : لأدركنّ عقرَ ابلى ، فأغار بفَيْحان ، فأخذ الربيعَ بنَ عتيبة وآستاقَ مالَه ، فلمّا سار يومين شُـغلوا عن الربيع بالشراب، فبال على قيده حتى لَانَ؛ ثم خَلعَه وآنحلَّ منه ، ثم أجال فى متن ذات النسوع — فرس بسطام — وهرب ، فركبوا فى أثره، فلمّا يَئسُوا منه ناداه بسطامُ : يا ربيعُ، هَلُمَّ طليقا ، فأبى ، وأتوه فى نادى قومه يحدّثهم ، فجعل يقول فى أثناء حديثه : إيهـا يا ربيع ! انج يا ربيع ! وأقبل ربيع حتى آنتهى إلى أدنى بنى يربوع فإذا هو براع فآستسقاه وضربت الفرس برأسها فماتت، فسُمِّى ذلك المكانُ هبير الفرس ، فقال له أبوه عتيبة : أما إذ نجوتَ بنفسك فإنى مخلفٌ لك مالَكَ .

يومُ ذى قار الأوّل

لبكرٍ على تميم

قال : فخرج عتيبةُ فى نحو من خمسة عشر فارسا من بنى يربوع ، فكمن فى جنبى ذى قار حتى مرّت بهـم إبلُ بنى الحُصَـين ، وهى بالعـدوانة : اسم ماء لهم ،

فصاحوا بمن فيها من الحامية والرعاية ، ثمّ آستاقوها ، فأخلف للربيع ما ذهب له وقال :

أَلَمْ تَرَنِي أفأْتُ على رَبِيعٍ * جِلَادًا فى مَبَارِكِهَا وَخُورَا

وأنّى قد تركتُ بَنِى حُصَينٍ * بـذى قار يَرُمُّون الأُمُورَا

يَوْمُ الحاجز

لبكرٍ على تميم

قال أبو عبيدة : خرج وائلُ بنُ صُرَيم اليشكرىّ من اليمامة، فلقيه بنو أُسَيْد ابن عمرو بن تميم، فأسروه وجعلوا يغمسونه فى الماء فى الركيّة ويقولون :

* يأيها المائحُ دَلْوِى دُونَكَا *

حتى قتلوه ، فغزاهم أخوه باعث بن صُرَيم يوم حاجز، فأخذ ثمامة بن باعث ابن صُرَيم رجلا من بنى أُسَيد وجيها فيهم فقتله ، وقتل على الظِّنة مائةً منهم .

يومُ الشقيق

لبكر على تميم

قال أبو عبيدة : أغار أبجرُ بنُ جابرالعِجْلىّ على بنى مالك بن حنظلة ، فسبى سليمى بنت محصن ، فولدت له أبجر ، ففى ذلك يقول أبوالنجم :

ولقد كَرَرْتُ على طُهَيّةَ كَرّةً * حتّى طَرَقْتُ نِسَاءَهَا بِمساءِ

ذكر حرب البسوس

وهى حرب بكر وتغلب آبنى وائل

قال أبو المنذر هشامُ بنُ محمد بنِ السائب : لم تجتمع مَعَدّ كلُّها إلّا على ثلاثة من رؤساء العرب، وهم : عامرُ بنُ الظَّرِب بن عمرو بن بكر بن يشكُر بن الحارث،

١٢٩ / ١٣

وعامر هو قائد معدّ يوم البيداء حين تمذحجت مَذحج وسارت الى تهامة، وهى أوّل واقعة كانت بين تهامة واليمن .

والثانى : ربيعةُ بنُ الحارث بن مرّة بن زُهَير بن جُشَم بن بكر بن حبيب بن كلب وهو قائد معدّ يومَ السُّلّان، وهو يوم كان بين أهل تهامة واليمن .

٥ والثالث: كليبُ بنُ ربيعة، وهو الذى يقال فيه : أعزّ من كُلَيب وائل، وقاد معدّا كلّها يوم خَزَاز، ففضّ جُموعَ اليمن وهزمهم، واجتمعت عليه معدّ كلُّها وجعلوا له قَسْم الملك وتاجه وتحيته وطاعته، فغبر(١) بذلك حيناً من الدهر، ثم دخله زَهوٌ شديدٌ وبَغى على قومه حتى بلغ من بَغْيه أنه كان يحمى مواقعَ السحاب فلا يُرعَى حِماه ويقول: وَحْشُ أرض كذا فى جوارى فلا يُهاج، ولا تُورَدُ إبلُ أحد مع إبله،
١٠ ولا تُوقَد نارٌ مع ناره .

وكانت بنو جُشَم وبنو شَيْبان فى دار واحدة بتهامة، وكان كُلَيبٌ قد تزوّجَ جليلةَ بنةَ مرّة بن ذُهْل بن شيبان أخت جسّاس بن مُرّة، وكانت لها ناقةٌ يقال لها : السرابُ، وبها يُضْرب المثَلُ فى التشاؤم، فيقال : « أشأمُ من السراب » و « أشأم من البسوس » وهى معقولة بفناء بيتها فى جوار جسّاس بن مُرّة، فمرّت
١٥ بها إبلٌ لكليب، فلما رأت السرابُ الإبلَ نازعت عِقالَها حتى قطعته، وتبعت الإبلَ واختلطت بها حتى انتهت الى كُلَيب، وهو على الحوض، ومعه قوسٌ وكنانةٌ، فلمّا رآها أنكرها، فانتزعها بسهم نخرم ضَرْعَها، فنفرت وهى تَرغُو، فلما رأتها البَسُوس قَذَفَتْ خمارها عن رأسها وصاحت : واذُلّاه ! واجاراه .

(١) غبر : مكث وبقى .

ذكر مقتل كليب وائل

قال : فأحمشت جسّاسا، فركب فرسا له مغرورا به ، وتبعه عمرُو بنُ الحارث ابنِ ذُهل بن شيبان على فرسه، ومعه رمحُه، حتى دخلا على كليب الحِمَى، فطعنه جسّاس فقصم صُلْبَه، وطعنه عمرو بن الحارث من خلفه فقطع قَطَنَه، فوقع كُلَيب وهو يفحص برجله وقال لجسّاس : أغثْنى بشَرْبةٍ من ماء ، فقال له : تجاوزتَ شُبيثا[1] والأَحَصّ[2] ، ففى ذلك يقول عمرُو بنُ الأهتم :

وإنّ كُلَيبا كان يَظْلِمُ قومَه * فأَدركَه مثلُ الذى تَرَيانِ
فلمّا حَشاهُ الرمْحَ كفُّ ٱبن عمِّه * تذكّر ظُلْمَ الأهل أىَّ أوانِ
وَقالَ لجسّاسٍ أغثني بشَرْبَةٍ * وَإلّا فخَبِّرْ مَنْ رَأَيْتَ مكانِى
فقال تجاوَزتَ الأحَصَّ وماءَه * وبطْنَ شُبَيثٍ وهو غيرُ دُوانِ

وقال نابغةُ بنى جعد :

أبلغْ عقالًا أنَّ خُطّةَ داحسٍ * بكَفَّيك فٱستأخرْ لها أو تقدّمِ
كُلَيبٌ لعَمْرى كانَ أكثرَ ناصرًا * وأيسرَ ذَنْبًا منك ضُرِّج بالدمِ
رمَى ضَرعَ نابٍ فٱستمَرّ بطعنةٍ * كحاشيةِ البُرْد اليَمانى المُسَهَّمِ
وقال لجسّاسٍ أغثْنى بشَرْبةٍ * تَدارَكْ بها مَنًّا علَىَّ وأنعِمِ
فقال تجاوزْتَ الأحَصَّ وماءَه * وبَطْنَ شُبَيثٍ وهو ذُو مُتَوسَّمِ

قال : فلما قُتل كُلَيبٌ ٱرتحلت بنو شيبانَ حتى نزلوا بماء يقال له النِّهْى ، وتشمّر المهلهلُ أخو كليب — وٱسمه عَدِىُّ بنُ ربيعة ، وإنما قيل له المهلهل لأنه

(١) شبيث : ماء معروف لبنى تغلب .
(٢) الأحصّ : واد لبنى تغلب .

أوّل من هَلْهَل الشعر ، أى أرقّه — فآستعدّ المهلهلُ لحرب بكر ، وترك النساءَ والغزلَ ، وحرّم القمارَ والشرابَ ، و جمع اليه قومَه ، فأرسل رجالا منهم الى بنى شيبان يعذر اليهم فيما وقع من الأمر ، فأتوا مرّةَ بنَ ذهل بنِ شيبان وهو فى نادى قومه ، فقـالوا له : إنكم أتيـتم عظيما بقتلكم كُلَيبًا بنـابٍ من الإبل ، فقطعـتم الرَّحِم ،
٥ وآنتهكتم الحُرْمَـة ، و إنّا كرهنا العَجَلة عَليكم دون الإعـذارِ إليكم ، ونحن نَعـرِض عليكم خِلالًا أربعًا ، لكم فيهـا مخرجٌ ولنا مقنعٌ ، قال مرّةُ : ما هى ؟ قالوا : تُحْيِي لنا كُلَيبا أو تدفع لنا جسّاسا قاتله فنقتله به ، أو همّاما فإنه كفءٌ له ، أو تمكّننا من نفسك فإنّ فيك وفاءً من دمـه ، فقال : أمّا إحيائى كُلَيبا فهذا ما لا يكون . وأمّا جسّاسٌ فإنه غلام طعن طعنةً على عَجَل ثم ركب فرسه فلا أدرى أىّ البلاد آحتوت
١٠ عليه . وأمّا همّام فإنه أبو عَشَرة وأخو عَشَرة وعمّ عَشَرة ، كلّهم فرسانُ قومهم فلن يُسلِّموه لى فأدفعَه اليكم يُقتَل بجريرة غيره . وأمّا أنا فما هو إلّا أن تجولَ الخيلُ جَوْلةً غدًا فأكونَ أوّل قتيلٍ بينهما ، فما أتعجّلُ من الموت ، ولكن لكم عندى خصلتان : أما إحداهمـا فهؤلاء بنىّ الباقون فعلّقوا فى عُنُق أيّهـم شئتم نسـعةً فآنطلقوا به الى رجالكم فآذبحوه ذبحَ الجزور و إلّا فألفُ ناقةٍ سـوداء المُقَل أقيم لكم بها كفيلا من
١٥ بكر بن وائل ، فغضب القوم وقالوا : لقد أسأتَ ، تبذُل لنا صغار ولدك وتسُومنا اللبن من دم كليب .

١٣٠/١٣ ووقعت الحرب بينهم ، ولحقتْ جليلةُ زوجة كُلَيب بأبيها وقومها ، وآعتزلت قبائل بكر بن وائل ، وكرِهوا مُجامعـةَ بنى شيبان ومساعدتَهم على قتال إخوتهـم ، وأعظموا قتل جسّاس كُلَيبا بنابٍ من الإبل ، فظعنت لُجَيم عنهم ، وكفّت يشكُر
٢٠ عن نصرتهـم ، وآنقبض الحارث بنُ عُبَاد فى أهل بيته ، وهو أبو بُجَيـر وفارس النعامة . وقال المهلهلُ يرثى كليبًا من أبيات :

بَاتَ لَيْلِي بِالأنعمين[1] طَويلَا * أرقُبُ النَّجْمَ ساهرًا أنْ يزولَا
كيفَ أهدَى ولا يزالُ قتيلٌ * مِنْ بَنِي وائل يُنَسّى قتيلَا

فى قصيدة طويلة .

وقال أيضا يرثيه من أخرى :

نَعَى النعاةُ كُلَيبًا لِي فقلتُ لَهُمْ * مَالَتْ بنَا الأرضُ أو زَالَتْ رَوَاسِيهَا ٥
القائدُ الخَيلَ تَرْدى فى أعنّتِها * زَهْوًا إذا الخيلُ لَجَّتْ فى تعاديها
مِنْ خَيْلِ تغلبَ ما تُلْقَى أسِنّتها * إلّا وقد خَضَّبُوها من أعاديها
يُهَزْهِزُون من الخطِّيِّ مُدْمَجَةً * كُمْتًا أنابيبُهَا زُرْقًا عَوَالِيهَا
تُرَى الرِّمَاحَ بأيدينا فتُورِدُهَا * بيضًا ونُصْدِرُها حُمْرًا أعاليها
لا أصلَحَ اللهُ يومًا مَنْ يُصَالِحُكُمْ * ما لاحَتِ الشَّمْسُ فى أعْلَى مجَارِيها ١٠

يومُ النِّهْى

فالتقَوْا بماء يقال له : النِّهْى[2]، كانت بنو شيبان نازلةً عليه، ورئيسُ تغلب المهلهلُ، ورئيسُ شَيْبان الحارثُ بنُ مُرَّةَ ، فكانت الدائرةُ لبنى تغلب ، ولم يُقتل فى ذلك اليوم أحدٌ من بنى مرّة .

يومُ الذنائب ١٥

ثم ٱلتقَوا بالذنائب، وهى أعظم وقعة كانت لَهم، فظفرت بنو تغلب وقُتل من بكر مقتلة عظيمة، وفيه قُتل شَراحيل بن مرة بن همّام بن مرّة بن شيبان، وهو جدّ الحَوْفَزان ، قتله عتّاب بن سعد بن زهير بن جشم ، وقُتل من بنى ذُهْل بن

(١) الأنعمان (بالعين المهملة تثنية أنعم) : موضع بناحية نعمان ، وهو وادى التنعيم .

(٢) النهى (بالكسر فى لغة أهل نجد ، وغيرهم يقوله) بالفتح : الغدير ، وهو أيضا الموضع الذى له حاجز ينهى الماء أن يفيض منه . ٢٠

ثعلبة عمرو بنُ سدوس بن شيبان، وقُتل من بنى قيس بن ثعلبة سعدُ بنُ ضبيعة بن قيس وتيم بن قيس بن ثعلبة ، وهو أحد الحرقيّين[1] ، وكان شيخا كبيرا ، فحمل فى هَوْدج، فلحقه عمرو بن مالك بن الفدوكس بن جشم فقتله .

يومُ واردات

٥ ثم ٱلتقَوْا يومَ واردات وعليهم رُؤساؤُهم الذين تقدّم ذكْرهم ، فظفرت بنو تغلب، وٱستحرّ[2] القتلُ فى بنى بكر، فيومئذ قُتِلَ الشعثمان: شعثم وعبدُ شمس آبنا معاوية بن عامر بن ذُهْل بن ثعلبة وسيّار بن الحارث بن سيّار ، وفيه قتل همّام ابنُ مرّة أخو جسّاس لأبويه، فمرّ به مهلهل مقتولا فقال: والله ما قُتِل بعد كُليبٍ قتيلٌ أعزّ علىّ فقدًا منك يومَ عُنَيزة .

يوم عُنَيزة

١٠ ثم ٱلتقَوْا بعُنَيزة، فظفرت بنو تغلب ، ثم كانت بينهم معاودة ووقائع كثيرة كل ذلك كانت الدائرة فيها لبنى تغلب على بنى بكر ، فمنها يوم الحِنْو ، ويوم عويرضات، ويوم أنين، ويوم ضرية، ويوم القُصيبيات، كلها لتغلب على بكر، أصيبت فيها بكر حتى ظنوا أن لن يستقبلوا أمرهم .

١٥ وقال المهلهل يصف هذه الأيام وينعاها على بكر فى قصيدة طويلة أوّلها :

أَلَيْلَتَنَا بذِى حُسُمٍ[3] أَنِيرِى * إذَا أنتِ ٱنقَضَيْتِ فَلَا تَحُورِى[4]

فإنْ يَكُ بالذنائبِ[5] طال لَيْلِى * فَقَدْ أبكى مِنَ اللَّيْلِ القَصِيرِ

(١) الحارقة : عصبة متصلة بالورك . (٢) استحرّ : اشتدّ .

(٣) ذو حسم : موضع . (٤) تحورى : ترجعى .

٢٠ (٥) الذنائب : عن يسار فالجة مصعدا الى مكة . ومقتل كليب بالذنائب، وبها قبره .

فَلَوْ نُبِش المقَابِرُ عن كُلَيب * لَأُخْبِرَ بالذنائب أَىّ زِير
وإنّى قَدْ تركت بوارِدَاتٍ (١) * بُجَيْرًا فى دَمٍ مِثْلِ العَبِيرِ (٢)
هَتكتُ بِهِ بيوتَ بنى عُبَادٍ * وبَعْضُ القَتْل أشْفَى للصدُور
عَلَى أنْ لَيْسَ عَدْلًا مِنْ كُلَيب * إذَا بَرَزَتْ مُخبَّأةُ الخُدورِ

وقال المهلهل أيضا وقد أسرف فى الدماء : ٥

أكثرتُ قَتْلَ بنى بَكر بِرَبِّهِمُ * حتّى بكيتُ وما يَبْكى لَهم أحدُ
آليتُ بالله لاأرضَى بقَتْلهمُ * حتّى أُبَهْرِجَ بكرًا أيْنَما وُجِدُوا
أُبَهرجُ : أى أدعهم بهرجًا ، لايُقْتَل بهم قتيلٌ، ولا تُؤخَذُ بِهم ديةٌ .

وقال أيضا :

قَتَلُوا كُلَيبا ثمّ قالُوا أربِعُوا * كَذَبُوا ورَبِّ الحِلِّ والإِحْرَامِ ١٠
حتى تَبِيدَ قَبِيلةٌ وقَبِيلةٌ * ويَعَضَّ كُلٌّ مُثَقّف بالهَامِ
ويُقِمْنَ ربّاتُ الخُدور حَوَاسِرًا * يَمْسَحْنَ عَرْضَ ذَوائبِ الأيتامِ
حتى يَعَضّ الشيخُ بعدَ حَمِيمِهِ * مِمّا يَرَى نَدَما على الإبهامِ

يومُ قِضَة

قال : ثم إنّ المهلهل أسرف فى القتل ولم يُبَالِ بأىّ قبيلة من قبائل بكر وقع، ١٥ وكانت أكثر بكر قَعَدتْ عن نصرة بنى شَيْبان لقتلهم كُلَيبا ، وكان الحارث بنُ عُبَاد قد آعتزل تلك الحروبَ ، حتى قُتِل آبنُه بُجَيرُبن الحارث بن عُبَاد ، فلمّا بلغه قتله قال : نعم القتيلُ قتيلٌ أصلح بين آبنَىْ وائل، وظنّ أنّ المهلهل قد أدرك به ثأر

(١) واردات : موضع عن يسار طريق مكة .
(٢) العبير : الزعفران . ٢٠

كُلَيب وجعله كفؤًا له ، فقيل له : إنما قتله بِشِسْع نَعْل كُلَيب . وكان المهلهل قال لمّا قَتَل بُجَير بن الحارث : بُؤْ بشِسْع نَعْل كُلَيب ، فلمّا سمع الحارث ذلك غضب ، وكان له فرس يقال له النعامة ، فركبها وتولّى قتال تغلب بنفسه ، فكانت الدائرة فيه على تغلب ، فتفرقت قبائل تغلب وهرب المهلهلُ . وقال الحارث بن عُبَاد :

٥ قَرِّبَا مَربَطَ النعامَةِ مِنِّى * لَقِحَتْ حَرْبُ وَائِلٍ عن حِيَالِى

قَرِّبَا مَرْبِطَ النعامَةِ مِنِّى * شابَ رَأْسى وأنكَرَتْنى رِجَالى

لم أكنْ من جُنَاتِها عَلِم اللّٰـ * ـهُ وإِنِى بِحَرِّها اليومَ صَالِ

فى قصيدة طويلة نحو المائة بيت كرّر فيها :

* قرّبا مربط النعامة منّى *

١٠ فى خمسين بيتا .

وكان أوّل يوم شهده الحارثُ يومَ قِضَة ، وهو يومَ تَحْلاق اللِّمَم ، وفيه يقول طَرَفة :

سَائِلُوا عنّا الّذى يَعْرِفُنَا * بِقُوَانا يومَ تَحْلاقِ اللِّمَمْ

يومَ تُبْدِى البِيضُ عنْ أَسْؤُقِهَا (١) * وَتَلُفُّ (٢) الخيلُ أعراجَ (٣) النَّعَمْ (٤)

١٥ (١) أسؤق : جمع لساق ، همزت الواو فيه لتحمل الضمة ، أى يوم تكشف النساء البيض عن سيقانها من الفزع .

(٢) تلف : تجمع .

(٣) كذا فى الأغانى (ج ٥ ص ٤٤ طبع دار الكتب المصرية) وأعراج : جمع عرج (بالفتح و يكسر) وهو القطيع من الإبل نحو الثمانين أو منها إلى تسعين ، أو هو مائة وخمسون وفويقها ، أو من ٢٠ خمسمائة الى ألف . وفى الأصول : « أفراخ » .

(٤) النعم (بالتحريك وقد تسكن عينه) : الإبل .

يوم تحلاق اللمم

ويوم تحلاق اللمّ، إنما سُمّى بذلك لأن الحارثَ بن عُبَاد لمّا تولّى الحربَ قال لقومه : احملوا معكم نساءكم يكُنّ من ورائكم ، فإذا وَجَدْنَ جريحا منهم قتلوه، وإذا وجدْنَ جريحا منّا سَقَيْنَه وأطْعَمْنَه ، فقالوا : ومن أين يتميّز لهنّ ؟ فقال : احلقوا رءوسكم لتمتازوا بذلك، ففعلوا، فسُمّى به، فقال جَحْدَر بن ضُبَيْعة — وكان من شجعانهم — : اتركوا لِمّتى وأقتل لكم أوّل فارس يقدمهم، فتركوه ، وهو الذى قتل عمرًا وعامرًا التغلبيّان، طعن أحدهما بسنان(١) رمحه ، والآخر بزجه(٢) ، ثم صرع بعد ذلك ، فلمّا رأته نساء بكر دون حلق ظنّوه من تغلب فأجهزوا عليه .

وفى هذا اليوم أَسَر الحارثُ بنُ عُبَاد المهلهلَ عَدىّ بنَ ربيعة وهو لا يعرفه فقال له : دُلّنى على عَدىّ وأُخْلِى عنك، فقال له عَدىّ : عليك العهدُ بذلك إن دللتك عليه ، قال نعم ، قال فأنا عَدِىٌّ ، فجزّ ناصيته وتركه وقال فيه :

لَهْفَ نَفْسِى عَلى عدىّ ولم أعـ * ـرِفْ عَدِيًّا إذ أَمْكَنَتْنِى اليَدَانِ

وكان الحارث آلى ألّا يصالحَ تغلبًا حتى تكلّمه الأرض ، فلمّا كثُرَت وقائعه فى تغلب ورأت تغلب أنها ما تقوم له حفروا سربا تحت الأرض وأدخلوا فيه رجلا وقالوا له : اذا مرّ بك الحارثُ فغنّ بهذا البيت :

أَبَا مُنْذِرٍ أفنَيْتَ فَٱسْتَبْقِ بعضَنا * حَنَانَيْك بعضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ منْ بعض

فلمّا مرّ الحارثُ ٱندفع الرجلُ وغنّى بالبيت ، فقيل للحارث قد برّ بقسمك فَٱبقِ بقيّة قومك ، فأمسك، فٱصطلحت بكر وتغلب .

---

(١) عالية الرمح : سنانه .

(٢) زجّ الرمح : حديدة فى أسفله .

ثم إنّ المهلهلَ فرّ بنفسه فنزل بمَذْحِج فى بنى جَنْب[1] ، فخطبوا اليه ٱبنته ، وقيل أخته، فمنعهم، فأجبروه على تزويجها وساقوا اليه جُلودًا من أَدَم ، فقال فى ذلك :

أعْـزِزْ على تَغْلِب بمـا لَقِيَتْ * أختُ بَنِى الأكْرَمِينَ مِنْ جُشَمِ

أنكحها فَقْـدُها الأراقِـمَ[2] فى * جَنْب وكانَ الحِبَـاءُ من أدَمِ

لَـوْ بأبانَيْنِ[3] جَاء يخطُبُهَـا * ضُرِّجَ ما أنفُ خاطِبٍ بِـدَمِ

لَيسُوا بأكْفائِنا الكرام ولاَ * يُغنُونَ فى ذلّةٍ ولاَعَـــدَمِ

ثم ٱشـترى المهلهل عبـدَيْن يغزوان معـه، فغزا بهما حتى طال عليهما ذلك، فٱختارا الراحةَ منه، فأجمعا على قتله بموضع قفرٍ، فلمّا شعر بمـا همّا به ولم يرلنفسه ملجأ قال لهما : أبلغا عنِّى هذه المراسلة، فقالا هات، فقال :

مَنْ مبلغٌ عنِّى بأنَّ مهَلْهِـلًا * لله درّكُمَا ودرّ أبيكُمَا

فلمّا قتلاه وٱنصرفا نحو بيته فقالا : ماتَ بأرض كذا وذكرا وصيّته، فلم يدر أحد ما أراد، فقالت ٱبنته : والله ما كان أبى رديَّ الشعر، ولا سَفْسَاف الكلام، وإنما أراد أن يخبركم أنّ العبدين قتلاه، وإنما معنى البيت :

مَنْ مُبْلِـغٍ عنِّى بأنّ مُهَلْهِلًا * أضْحَى قتيلًا بالفَلَا مُجَـدَّلَا

لله درّكما ودرُّ أبيكُمَا * لا يبرح العبدان حتّى يقتَلَا

فقتل العبدان بعد أن أقرّا بذلك . وقيل : إنه أصبح قتيلا بين رجلى جمـل هاج . والله تعالى أعلم بالصواب .

---

(١) جنب : حىّ من مذحج ، وهم سـتة رجال : منبه والحارث والعلى وسيحان وشمـران وهفان يقال لهم جنب لأنهم جانبوا أخاهم صداء (راجع معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٧٧ طبع أوربا) .

(٢) الأراقم : حىّ من تغلب . (٣) أبانين : جبلان، قيـل : يقال لأحدهما : أبان الأبيض، وللآخر : أبان الأسود .

الكلابُ الأوّل

قال أبو عُبيدةَ : لمّا تسافهت بكر بنُ وائل وغلبها سفهاؤُها ، وتقاطعت أرحامُها ، ارتأى رؤساؤهم فقالوا : إنّ سفهاءنا قد غلبوا على أمرنا ، فأكل القويُّ الضعيفَ ، فنرى أن نملِّكَ علينا مَلِكا نُعطيه الشاةَ والبعيرَ ، فيأخذ للضعيف من القوىّ ، ويردّ على المظلوم من الظالم ، ولا يمكن أن يكونَ من بعض قبائلنا فيأباه الآخرون ، فيفسد ذات بَيْننا ، ولكنّنا نأتى تُبَّعا فنملِّكه علينا ، فأتَوْه [فذكروا له أمرهم] (١) فملّك عليهم الحارثَ بن عمرو آكلَ المرار الكِنْدىّ ، فقدم فنزل بطنَ عاقِل (٢) .

ثم غزا ببكر بن وائل حتى آنتزع عامّة ما فى أيدى ملوك الحيرة اللخميِّين ، وملوك الشام الغسانيّين ، وردّهم الى أقاصى أعمالهم ، ثم طُعِن فى نيطة فمات فدُفن ببطن عاقل . وآختلف آبناه شُرَحبيل وسلَمَة فى المُلْك ، فتواعدا الكُلاب (٣) ، فأقبل شُرَحبيل فى ضَبّة والرِّباب كلّها ، وبنى يربوع ، وبكر بن وائل . وأقبل سَلَمة فى تَغْلِب والنَّمِر وبَهْراء ومَن تبعه من بنى مالك بن حنظلة ، وعليهم سُفيان بنُ مُجاشع ، وعلى تغلب السفّاحُ ، وإنما قيل له السفّاحُ لأنه سفح أوعية قومه وقال لهم : اندروا الى ماء الكُلَاب ، فسبقوا ونزلوا عليه ، وإنما خرجت بكر مع شُرَحبيل لعداوتها لبنى تغلب ، فآلتقَوا على الكُلَاب ، وآستحرّ القتل فى بنى يربوع ، وشدّ أبو حَنَش على شُرَحْبيل فقتله ، وكان شُرَحبيل قد قتل آبنَه حَنَشًا ، فأراد أبو حنش أن يأتىَ برأسه الى سلمة ، فخافه فبعثه مع عسيف له ، فلما رآه سَلَمة دمعت عيناه وقال له :

(١) التكملة من العقد الفريد . (٢) عاقل : واد بنجد .

(٣) الكلاب : اسم ماء بين الكوفة والبصرة . وقيل : ماء بين جبلة وشمام على سبع ليال من اليمامة .

أنت قتلته ؟ قال لا، ولكن قتله أَبو حَنَش، إنما أدفع الثواب الى قاتله، فهرب أبو حَنش منه، فقال سلمة فى ذلك :

ألا أبلغ أبَا حَنَشٍ رَسُولًا * فمالك لا تجيءُ الى الثَّوابِ
تعلَّم أنَّ خيرَ الناسِ طرًّا * قَتِيلٌ بينَ أحجار الكُلَاب

يومُ الصَّفْقة

وهو يومُ الكُلاب الثانى

قال أبو عبيدة : كان يومُ الكُلاب متّصلا بيوم الصَّفقة[1] . وكان من حديث الصفقة أنّ كسرى كان قد أوقع ببنى تميم ، فأخذ الأموال وسبي الذرارىّ بمدينة هَجَر[2]، وذلك أنهم أغاروا على لطيمةٍ له فيها مسك وعنبر وجوهر كثير، فسمِّيت تلك الوقعة يوم الصَّفْقة ، ثم إنّ بنى تميم أداروا أمرهم ، وقال ذو الحجى منهم : إنكم قد أغضبتم الملك، وقد أوقع بكم حتى وهنتم، وتسامعت بما لقيتم القبائل، ولا تأمنون دَوَرانَ العرب .

فجمعوا سبعةً من رؤسائهم وشاوروهم فى أمرهم ، وهم : أكثم بنُ صيفىّ الأسدىّ، والأُحَيمر بنُ يزيد بن مرّة المازنىّ، وقيسُ بنُ عاصم المِنْقرِىّ، وأُبير بن عصمة التيمىّ، والنعمان بن جسّاس التيمىّ، وأُبين بن عمرو السعدىّ، والزبرقان بن بدر السعدىّ فقالوا لهم : ماذا ترَوْن؟ فقال أكثم بن صيفىّ، وكان يكنى أبا حنش : إنّ الناس قد بلغهم مالقينا، ونخاف أن يطمعوا فينا وإنى قد نيّفت على التسعين، وقد نحل قلبى كما نحل جسمى ، وأخاف ألّا يدرك ذهنى الرأىَ لكم، فليعرض علىّ

(١) سمى الصفقة ، لأن كسرى أنو شروان أصفق الباب على بنى تميم فى حصن المشقر، ويسمى أيضا : يوم المشقر، والمشقر : حصن بالبحرين .   (٢) هجر : اسم الأرض بالبحرين .

كلُّ رجل منكم رأيَه وما يُحضره فإنى متى أسمع الحزمَ أعرفه، فقال كلٌّ منهم ما عنده، وأكثم [ساكتٌ] لا يتكلّم، حتى قام النعمانُ بن الجسّاس فقال: ياقومُ، أنظروا ماءً يجمعكم ولا يعلم الناس بأىّ ماء أنتم حتى تنفرجَ الحلقةُ عنكم، وقد صلُحت أحوالكم، وٱنجبرَ كسيرُكم، وقوِىَ ضعيفُكم، ولا أعلم ماءً يجمعكم إلّا قِدّة، فقال أكثم: هذا [هو][1] الرأى، فٱرتحلوا حتى نزلوا الكُلابَ، وبين أدناه وأقصاه مسيرة يوم، وأعلاه مما يلى اليمن، وأسفله مما يلى العراق. فنزلت سعد والرِّباب بأعلى الوادى، ونزلت حنظلة بأسفله.

قال: وكانوا لا يخافون أن يَغْزوا فى القيْظ، لبُعْد تلك الصحارى وشدّة الحرّ بها وقلة المياه، فأقاموا بقيّة القيظ لا يعلم أحدٌ بمكانهم، حتى اذا تهوّر[2] القيظ بعث الله ذا العُيَيْنَتَيْن، وهو من أهل مدينة هَجَر، فمرّ بقِدّة وصحاريها، فرأى ما بها من النَّعم، فٱنطلق حتى أتى أهلَ هَجَر فقال: هل لكم فى جارية عذراء، ومُهْرة شَوْهاء[3]، وبَكْرة حمراء، ليس دونها نكبة؟ قالوا: ومن لنا بذلك؟ قال: تلكم تميم ألْقاءٌ[4] مطروحون بقِدّة. فمشى بعضُهم الى بعض وقالوا: اغْتَنِموها من بنى تميم. فأخرجوا معهم أربعةَ أملاك يقال لهم اليزيديون: يزيد بنُ هَوْبَر، ويزيد بن عبد المَدَان، ويزيد بن المأموم، ويزيد بن المخرِّم، وهم كلّهم حارثيُّون ومعهم عبد يُغوث الحارثىّ، وكان كلُّ واحد منهم على ألفَيْن، فمضَوْا حتى إذا كانوا ببلاد باهلة قال جرير بن جزء الباهلىّ لٱبنه: يا بنىّ، هل لك فى أكرومة لا يُصاب أبدًا مثلُها؟ قال: وما ذلك؟ قال: هذا الحىُّ من تميم قد لجأوا ها هنا مخافة كسرى، وقد قصصت أثر الجيش يريدونهم، فٱركبْ جملى الأَرْحَبىّ، وسِرْ سيرا رُوَيدا

(١) التكملة من العقد الفريد. (٢) تهوّر القيظ: ذهب. (٣) الشوهاء من الخيل: الطويلة الرائعة. (٤) ألقاء: جمع لقى، وهو ما طرح على الأرض.

عقبةً(١) من الليــل ، ثم حلّ عنه حبليه وأنِخْهُ وتوسّدْ ذراعه ، فإذا سمعتَه قــد أفاض بجِرّته وبال فاستنقعت ثِفناته فى بَوْله ، فشــدَّ حبليه ثم ضع السَّوْطَ عليه ، فإنك لا تسأل جملك شيئا من السير إلا أعطاكه حتى تصبِّحَ القوم . ففعل ما أمره به .

قال البــاهلىُّ : فحللتُ بالكُلاب قبــل الجيش فناديت : يا صباحاه ! فإنهــم ٥ لَيَثِبون إلىَّ ليسألونى مَن أنت ؟ إذ أقبل رجلٌ منهــم من بنى شقيق على مُهر قــد كان فى النَّعم فنادى : ياصباحاه ، قــد أُتِى على النَّعم ، ثم كرّ راجعا نحــو الجيش ، فلقيه عبــد يغوث الحارثىّ وهو أوّل الرعيل ، فطعنه فى رأس مَعِــدته فسبق اللّبنُ الدم ، فقال عبــدُ يغوث : أطيعونى وآمضوا بالنَّعم وخلُّوا العجائز من تميم ساقطــة أفواهُها ، فقالو : أما دون أن تُنْكَح بناتهُم فلا .

١٠ وقال ضَمْرة بن لبيد الحماسىّ ثم المذحجىّ الكاهن : أنظروا اذا سُقْتُم النَّعم فإن أتتكم الخيل عُصَباً [عُصَبًا] تنتظر العصبة أن تنتظم الأخرى حتى تلتحقَ بهــا فإن أَمْرَ القوم هيّنٌ ، وإن لحق بكم القومُ ولم ينتظر بعضُهم بعضا حتى يردّوا وجوهَ النَّعَم فإن أمرهم شديدٌ .

وتقدّمت ســعد والرِّبابُ فى أوائل الخيل وآلتقوْا بالقــوم فلم يلتفتوا إليهم ، ١٥ وآستقبلوا النَّعم ولم ينتظر بعضُهم بعضًا . ورئيسُ الرباب النعمانُ بن الجسّاس ، ورئيسُ بنى سعد قيسُ بنُ عاصم ، فآلتقى القومُ ، فكانَ النعمانُ أوّلَ صريع ، وآقتتل الفريقان حتى حجز بينهم الليلُ ، ثم أصبحوا على راياتهم ، فنادى قيسُ بنُ عاصم : يا آل سعد ! يريد سعدَ بن زيد ، ونادى عبدُ يغوث : يا آل سعد ! يريد سعد العشيرة ، فلمــا سمع قيس ذلك نادى : يا آلَ كعب ! يريد كعب بنَ ســعد ، ٢٠ ونادى عبد يغوث : يا آل كعب ! يريد كعب بن عمرو ، فلما رأى ذلك نادى :

١٣٣ / ١٣

(١) عقبة من الليل : أى ساعة .

يا آل مُقَاعِس ! فلما سمع وَعْلة ابن عبد الله الجَرْمى — وكان صاحبَ لواء أهل اليمن — نادى : يا آلَ مُقَاعِس، تفاءل به فطرح له اللواء، وكان أوّل من انهزمَ ، فحملت عليهم سعد والرباب فهزموهم ،ونادى قيسُ بنُ عاصم : يا آلَ تميم ، لا تقتلوا إلّا فارسا فإنّ الرجّالة لكم ، ثم جعل يرتجز ويقول :

لمّـا تولّـوا عُصَبًا شَـوَازِبَا(1) * أَقْسَمْتُ لَا أَطْعَنُ إلَّا راكِبَا

* إِنِّى وَجَدْتُ الطَّعْنَ فيهمْ صَائِبَا *

وأمر قيسُ بنُ عاصم أن يتبعوا المنهزمةَ، ويعرقبوا مَنْ لحقوه ، ولا يشـتغلوا بالقتل عن اتباعهم ، فجزُّوا دوابرهم ، وفى ذلك يقول وَعْلة :

فِدًى لكم أهْلِى وأمِى وَوَالدِى * غَداةَ كُلَاب إِذْ تُحَزُّ الدوابِرُ

وأُسِر عبد يغوث ، أسره مَصاد بن ربيعة بن الحارث وكتّفه وأردفه خلفه ، وكان مَصاد قـد أصابته طعنـة فى مابضِه، وكان عِرْقه يهمى(2) ، فنزفه الدم، فمال عن فرسـه مقلوبا . فلما رأى ذلك عبدُ يغوث قطع كتافـه وأجهز عليه وانطلق على فرسـه ، وذلك أولُ النهار ، ثم ظفر به بعـد فى آخره ، ونادى مناد : قتـل اليزيدون، وشدّ قَبِيصة بن ضِرار الضَّبِّىّ على ضَمْرَة بن لَبِيد الحِماسىّ الكاهن فطعنه فخرّ صريعا ، فقال له قَبِيصة : ألا أنباك تابعُك بمصرعك اليوم، ثم أُسر عبدُ يغوث، أسره عصمةُ بن أُبَير التيمىّ .

قال أبو عبيدة : انتهى عصمةُ بن أُبَير إلى مَصاد فوجده صريعًا ، وكان قبل ذلك رأى عبدَ يغوث أسيرًا فى يديه ، فعلم أنه الذى أجهز عليه فاقتصّ أثَره فلحقه وقال: ويحك ! إنى رجل أُحبّ اللبن ، وأنا خيرٌ لك من الفلاة والعطش . قال : ومَن أنت ؟ قال : عصمةُ بنُ أُبَير ، فانطلق به عصمة حتى جناه عند الأهتم على

---

(1) شوازبا : ضوامر . (2) يهمى : يسيل .

أن جعل له من فدائه جُعْلا ، فتركه الأهتم عند امرأته العبشمية ، فأعجبها جماله وكمالُ خلقته، وكان عصمةُ الذى أسره غلاما نحيفا، فقالت له : مَن أنت ؟ قال: أنا سيّدُ القوم ، فضحكت وقالت : قبّحك الله بسيّدُ قوم حين أسَرك مثلُ هذا ، ففى ذلك يقول عبدُ يغوث :

وتَضْحَكُ منّى شَيْخةٌ عَبْشَمِيّةٌ * كأنْ لم تَرَىْ(١) قَبْلى أسيرًا يمَانيَا

فاجتمعت الرِّبابُ الى الأهتم وقالت : ثأرنا عندك ، وقد قُتل مَصاد والنعمان فأخرجه إلينا ، فأبى الأهتم أن يُخرجه إليهم ، فكاد أن يكون بين الحيَّيْن : الرِّباب وسعد، فتنة حتى أقبل قيسُ بنُ عاصم المِنْقَرىّ فقال: أيؤتَى قطعُ حلْف الرِّباب من قِبَلنا؟ فضرب فاه بقوس فهتّمه، فسمِّى الأهتم، فقال الأهتم: إنما دفعه إلى عصمة ابن أُبير ، ولا أدفعه إلاّ لمن دفعه إلىّ ، فليجئْ فيأخذْه ، فأتوا عصمة فقالوا : ياعصمة ، قُتل سيّدُنا النعمانُ وفارسُنا مَصاد ، وثأرُنا أسيرُك ، فما كان ينبغى لك أن تستحييه ! فقال : إنى مُمْعِل وقد أصبتُ الغنى، ولا تطيب نفسى على أسيرى، فاشتراه بنو جسّاس بمائة بعير ، فدفعه إليهم ، فخشوا أن يَهْجُوَهم ، فشدّوا على لسانه نِسعة ، فقال : إنكم قاتلى لا محالة ، فدعونى أذمّ أصحابى وأنوح على نفسى ! فقالوا : إنك شاعرٌ ونخاف أن تهجُوَنا ، فعقد لهم ألاّ يفعلَ ، فأطلقوا لسانه ، فقال قصيدته التى أوّلها :

---

(١) قال أبو على القالى فى أماليه (ج ٣ ص ١٣٤ طبع دار الكتب المصرية) : « قال الأخفش : رواية أهل الكوفة : كأن لم تَرَىْ قبلى ، وهذا عندنا خطأ ، والصواب : ترى بحذف النون علامة للجزم » . وهذا مبنىّ على أن الفعل مسند لياء المخاطبة على معنى كأن لم ترى أنت ، فيكون فيه إلتفات من الغيبة الى الخطاب ولم يحكه أحد من النحاة ، بل الذى ذكره صاحب المغنى أن أبا علىّ خرج البيت على أن أصل الفعل ترأى بهمزة بعدها ألف ثم حذفت الألف للجازم ، ثم أبدلت الهمزة ألفا ، وعلل بما يطول فانظره فى مبحث « لم » .

ألَا لَا تَلُومانِى كَفَى اللَّـومَ مَا بِيَا * فَمَـا لكُمَا فِى اللَّومِ خَـيْرٌ ولَا لِيَـا

ومنهـا :

أقولُ وقـدْ شَدُّوا لسَانِى بِنِسْعَةٍ (١) * أَمَعْشَرَ تَيْـمٍ أَطْلِقُـوا لِى لِسانِيَـا

أَمَعْشَرَ تَيْمٍ قـدْ مَلَكْتُمْ فاسْجحُوا (٢) * فإنّ أسـارِى لم يكُنْ مِنْ توانِيَـا (٣)

وقد عَلِمَتْ عِرْسِى مُلَيكةُ أننِى * أنا اللَّيْثُ مَعْـدِيًا عليـه وعَادِيَا

ومنهـا :

كأنّىَ لم أركَبْ جَـوَادًا ولَمْ أقُلْ * لِخَيلِى كُرِّى (٤) قَاتِلى عن رجَالِيـا

ولم أسـبَإِ (٥) الزِّقَّ الرَّوِىَّ ولم أقُـلْ * لأيسَارِ صِدْقٍ أعظِمُوا ضَوْءَ نَارِيَا

قال : فلما ضُرِبت عنقه قالت ٱبنـةُ مَصاد : بُؤْ بمَصَاد (٦)! فقال بنو النعمان : يا لكَاع ! نحن نشـتريه بأموالنـا ونبؤ بمَصَاد ، فوقع بينهـم فى ذلك الشرّ ، ثم آصطلحوا .

---

(١) ذكر أبو على القالى فى أماليه (ج ٣ ص ١٣٣ طبع دار الكتب المصرية) ما نصه : «وقوله : وقد شدّوا لسانى بنسعة ، قال : هذا مثل ، لأن اللسان لا يشدّ بنسعة ، وإنما أراد : افعلوا بى خيرا ينطلق لسانى بشكركم ، فإن لم تفعلوا فلسانى مشدود لا يقدر على مدحكم» .

(٢) أسجحوا : أى سهلوا و يسروا فى أمرى .

(٣) رواية الأمالى :

* فإن أخاكم لم يكن من بوائيا *

قال : البواء : السواء ، يريد إن أخاكم لم يكن نظيرا لى فأكون بواء له .

(٤) كرى : نفسى .

(٥) السباء : اشتراء الخمر .

(٦) بؤ بفلان ، أى اذهب به ، يقال ذلك للقتول بمن قتل .

يومُ طِخْفَة (١)

قال : كانت الرِّفادة، وقيل الردافة، ردافة (٢) الملوك لعتّاب بن هَرْمِىّ بن رِيَاح، ثم كانت لقيس بن عتّاب ، فسأل حاجبُ بن زرارة النعمانَ أن يجعلَها للحارث بن مرط بن سفيان بن مُجاشع ، فسألها النعمانُ بنى يربوع وقال : أعقبوا إخوتَكم فى الرفادة، قالوا : إنهم لا حاجة لهم فيها، وإنما سألها حاجبٌ حسدًا لنا وأبَوْا عليه، فقال الحارث بن شهاب وهو عند النعمان : إنّ بنى يربوع لا يسلِّمون ردافَتَهم إلى غيرهم . وقال حاجب : إنْ بعث الملك إليهم جيشا لم يمنعوه ولم يمتنعوا . فبعث النعمانُ إليهم قابوسًا ٱبنَه، وحسّانَ بن المنذر، فكان قابوس على الناس، وحسّان على المقدّمة، وبعث معهم الصنائع والوضائع — فالصنائع : مَنْ كان يأتيه من العرب، والوضائع : المقيمون بالحيرة — فالتقَوْا بطِخْفَة، فٱنهزم قابوس ومَن معه، وضَرب طارقُ بنُ عميرة فرسَ قابوس فعقره، وأخذه ليجزّ ناصيتَه، فقال قابوس : إنّ الملوك لا تُجَزّ نواصيها، فجهّزه وأرسله إلى أبيه ، وأما حسّان بنُ المنذر فأسره بشْرُ ابنُ عمرو الرياحىّ، ثم منّ عليه وأرسله، ففى ذلك يقول مالك بنُ نُوَيْرة :

ونحنُ عقَرنَا مُهْرَ قابوسَ بَعْدَ مَا * رأى القومُ منه الموتَ والخيلُ تُلْحَبُ (٣)

عليه دِلَاصٌ (٤) ذاتُ نَسْجٍ وسَيْفُه * جُرَازٌ من الهندىّ أبيضُ مِقْضَبُ

---

(١) طخفة : موضع فى طريق البصرة إلى مكة .

(٢) الردافة : كانت الردافة بمنزلة الوزارة . وكان الرديف يجلس على يمين الملك إذا جلس، ويردفه وراءه إذا ركب، وإذا نزل جلس عن يمينه فتصرف إليه كأس الملك إذا شرب ، وله ربع غنيمة الملك من كل غزوة يغزو، وله إتاوة على كل من فى طاعة الملك .

(٣) تلحب : تلهث .

(٤) الدلاص من الدروع : اللينة .

يومُ فيف الريح (١)

قال أبو عبيدة : تجمعت قبائل مَذْحِج وأكثرها بنو الحارث بن كعب، وقبائل من مراد وجُعْفِيّ وزُبَيْد وخَثْعم، وعليهم أَنَس بن مُدْرك، وعلى بنى الحارث الحُصَيْن، فأغاروا على بنى عامر بن صعصعة بفَيْف الرِّيح ، وعلى بنى عامر ، عامرُ بنُ مالك مُلاعِبُ الأَسِنّة .

قال : فاقتتل القومُ ، فكسروهم ، وارفضت قبائل من بنى عامر ، وصبرت بنو نمير ، وأقبل عامرُ بنُ الطُّفَيل وخَلْفه دعِيٌّ بنى جعفر فقال : يا معشرَ الفتيان ، من ضرب ضربة أو طعن طعنة فليشهدنى [فكان (٢)] الفارس إذا ضرب ضربة أو طعن طعنةً ، قال عند [ذلك] : أبا على ، فبينما هو كذلك إذ أتاه مُسْهِر بن يزيد الحارثىّ (٣) ، فقال له من ورائه : عندك يا عامر والريح عند أذنه فوهصه — أى طعنه — ، فأصاب عينه ، فوثب عامر عن فرسه ونجا على راحلته ، وأخذ مسهر رمحَ عامر ، ففى ذلك يقول عامرُ بنُ الطفيل من أبيات :

لَعمْرى وما عَمْرى علىَّ بهَيِّنٍ * لقد شانَ حرَّ الوجْهِ طَعْنَةُ مُسْهِرِ

وقال مُسْهر — وقد زعم أنهم أخذوا امرأة عامر — :

وَهَصْتُ بخُرص (٤) الرمح مُقْلَةَ عامرٍ * فأضْحَى نحيفاً فى الفَوارِس أعْوَرَا

وغادرَ فينا رُمْحَه وسلاحَه * وأدْبرَ يدعُو فى الهَوالك جعفرَا

وكنّا إذا قَيْسِيَّةٌ ذهبَتْ بِنا * جَرَى دَمْعُهَا مِنْ عَينها فتحدَّرَا

مخافةَ ما لاقَتْ حَليلةُ عامرٍ * من الشرِّ إذ سِرْبالُها قد تعفَّرَا

(١) فيف الريح : موضع بأعلى نجد . (٢) التكلة من العقد الفريد .

(٣) فى أمالى القالى (ج ٣ ص ١٤٧ طبع دار الكتب المصرية) : « مسهر بن زيد » .

(٤) خرص الرمح : سنانه .

قال : وكانت هذه الوقعةُ وقد بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، وأدرك مُسْهِرُ بنُ يزيد الإسلام فأسلم .

يومُ زَرُود الأوّل

غزا الحَوْفَزانُ حتى آنتهى الى زَرُود[1] خلف جبل من جبالها ، فأغارُوا على نَعَم كثير لبنى عَبْس فآجتازوها ، وأتى الصريخُ[2] لبنى عبس فركبوا ، ولحق عمارةُ بن زياد العبسىّ الحَوْفَزان فعرفه — وكانت أمُّ عمارة قد أرضعت مُضَرَ بنَ شَريك ، وهو أخو الحَوْفَزان — فقال : يا بنى شَريك ، قد علمتم ما بيننا و بينكم ، قال الحوفزان — وهو الحارثُ بنُ شَريك — : صدقتَ يا عمارة ، فانظر كلّ شىء هو لك نخُذْه ، فقال عمارةُ : لقد علمتْ نساءُ بنى بكر بن وائل أنّى لن أملأ أيدىَ أزواجهنّ وأبنائهنّ شفقةً عليهنّ من الموت ، فحلّ عمارة ليعارض النَّعم ليردّه ، وحال الحَوْفَزان بينه و بين النَّعَم ، فعثرت بعمارة فرسُه فطعنه الحَوْفَزان ، وطعنه نعامةُ بنُ عبد الله بن شَريك : وأُسِر آبنا عمارة : سِنان وشدّاد ، وكان فى بنى عبس رجلان من طيء : آبنان لأوس ابن حارثة ، مجاورين لهم ، وكان لهما أخٌ أسيرٌ فى بنى يشكُر ، فلمّا فقدته بنو شيبان نادوا : ياثارات معدان ! فعند ذلك قتلوا آبنَىْ عمارة وهرب الطائيّان بأسيرهما .

فلما برئ عمارة من جراحه أتى طيئاً فقال : ادفعوا إلىَّ هذا الكلب الذى قُتلْنا به ، فقال الطائىّ لأوس : ادفع الى بنى عبس صاحبَهم ، فقال لهم : تأمرننى أن أعطِىَ بنى عبس قطرةً من دمى ، وإن آبنى أسير فى بنى يشكُر ؟ فوالله ما أرجو فكاكه

(١) زرود : رمال بطريق الحاج من الكوفة .

(٢) الصريخ : المستغيث .

إلّا بهذا . فلما قفل الحَوْفَزان من غزوه بعث الى بنى يشكُر فى آبن أوس به فبعثوا به اليه، فآفتدى به معدان، وقال نعامةُ بنُ شريك :

اسْتَنْزَلَتْ رِماحُنا سِنَانَا * وشَيْخنا بِطَخْفَةٍ عنانا
ثم أخوه قد رَأى هوَانَا * لمّا فقَدْنَا بيننا معْدانا

يومُ غَوْل الأوّل

وهو يومُ كِنْهِل

قال أبو عبيدة : أقبل آبنا هجيمة — وهما من غسّان — فى جيش فنزلا فى بنى يربوع، بجاوَرَا طارقَ بنَ عوف بن عاصم بن ثعلبة بن يربوع، فنزلا معه على ماء يقال له : كِنْهِل، فأغار عليهما أناسٌ من ثعلبة بن يربوع ، فآستاقوا نَعَمهما وأسروا من كان فى النَّعم، فركب قيسُ بنُ هُجَيْمَة بخيله حتى أدرك بنى ثعلبة ، فكرّ عليه عُتَيْبة بن الحارث، فقال له قيس : هل لك ياعُتَيْبة الى البراز؟ قال، ما كنتُ لأَسألَه وأدعه ، فبارزه ، قال عُتَيْبة : فما رأيتُ فارسا أملأ لعينى منه ، فطعننى فأصاب قربوسَ سَرْجى ، حتى وجدتُ مسّ السِّنان فى باطن فخذى ، ثم أرسل الرمْحَ وهو يرى أن قد أثبتَنِى [وآنصرف] (١) فأتبعته الفرس، فلما سمع زَجَلَها (٢) رجع جانحا على قربوس سَرْجه، و بدا لى فرج الدِّرع فطعنتُه بالرمح ، فقتلتُه وآنصرفتُ فلحقتُ النَّعَم، وأقبل الهِرْماسُ بنُ هُجَيْمة فوقف على أخيه قتيلا، ثم آتبعنى فقال : هل لك فى البراز ؟ فقلت : لعلّ الرجعة خيرٌ لك ، قال : أبعدَ قيس ؟ ثم شدّ علىّ وضربنى على البيضة، فخلص السيف الى رأسى، فضربتُه فقتلتُه، فقال جرير :

وساقَ آبنَىْ هُجَيْمَةَ يومَ غَوْلٍ * الى أسْيافِنا قَدَرُ الحِمَامِ

(١) التكملة من العقد الفريد .

(٢) الزجل : الصوت .

يومُ الحُبابات (١)

قال أبو عبيدة : خرج بنو ثعلبةَ بن يربوع فمرُّوا بناس من طوائف بكر بن وائل بالحُبابات ، خرجوا سُفّارا ، فنزلوا وسرَّحوا إبلهم ترعى ، وفيها نفرٌ منهم يرعونها ، منهم : سَوَادةُ بنُ يزيد بن بُجَير العِجْلىّ ، ورجلٌ من بنى شَيْبان ، وكان محموما ، فمرّت بنو ثعلبة بن يربوع بالإبل فاطّرَدوها وأخذوا الرجلَين من بنى شيبان ، فسألوهما : مَنْ معكما؟ قالا : معنا شيخٌ من يزيد بن بُجَير العِجْلىّ فى عِصابةٍ من بكر بن وائل خرجوا سُفّارا يريدون البحرين ، فقال الربيعُ ودَعموص ابنا عُتَيْبة بن الحارث بن شهاب : أنذهب بهذين الرجلين وهذه الإبل ولم يعلموا مَنْ أخذها ، ارجعوا بنا حتى يَعلموا من أخذ إبلهم وصاحبيهم لنُعنيهم بذلك ، فقال عَميرة لهما : ما وراءكما إلا شيخ ابن يزيد قد أخذتما أخاه وأطردتما إبلَه ، دعاه ، فأبيَا ورجعا إليه وأخبراهم وتسمَّيا لهم ، فركب شيخ ابنُ يزيد فاتّبعهما وقد ولَّيا ، فلحق دَعْموصًا فأسره ، ومضى ربيعٌ حتى أتى عَميرةَ فأخبره أن أخاه قــد قُتِل ، فرجع على فرس له يقال لها الخنساء حتى لحقَ القــومَ ، فافتكّ منهم دَعْموصًا على أن يردَّ عليهم أخاهم و إبلَهم ، فردّها إليهم ، فكفَر بنُو عُتَيبة ولم يشكروا عَميرةَ ، فقال عَميرةُ فى ذلك :

أَلم تَرَ دَعْموصًا يَصُــدّ بوجهــهِ * إذا ما رآنى مُقْبِــلًا لم يُسَــلِّمِ
أَلَمْ تَعْلَمَا يا ٱبْنَىْ عُتَيْبةَ مَقْــدَمى * عَلَى ساقطٍ بيْنَ الأَسِــنَّةِ مُسْــلِمِ
فعارضْتُ فيه القومَ حتّى ٱنتزعتُهُ * جِهَــارًا ولم أَنظُــرْ له بالتّــلَوُّمِ

يوم الشِّعْب

غزا قيسُ بنُ شرقاء التغلبىّ ، فأغار على بَنِى يربوعٍ بالشِّعْب ، فاقتتلوا ، فانهزمت بنُو يربوع ، فأُسِر سُحَيْمُ بنُ وَثِيل الرِّياحىّ ، فقال سُحَيْم فى ذلك :

(١) الحبابات : موضع بين ديار بكر والبحرين .

أقــولُ لهم بالشِّعْبِ إذ يأسِرونَنِي * ألم تَعْلَمُوا أنّى ٱبنُ فارِسِ زَهْدَمِ

ففدى نفسَه،وأُسِر أيضا مُتَمِّمُ بنُ نُوَيْرة ، فوفد مالك بنُ نُوَيْرة على قيسِ بن شرقاء فى فدائه فقال :

هَلْ أنتَ يا قَيْسُ بنُ شرقاء مُنْعِمٌ * أو الجهْـدَ إنْ أعطيتهُ أنتَ قَابِلُهْ

فلما رأى وسامَتَه قال : بل مُنْعِم ، فأطلقَه له .

يومُ غَوْلِ الثانى

فيه قَتَل طَرِيفٌ شَراحيلَ وعمرَو بنَ مَرْثَد المُحَلِّمىّ

غزا طَرِيفُ بنُ هشيم فى بنِى العنـبر بن تميم ، فأغار على بكر بن وائل بغَـوْل ، فٱقتتلوا ، ثم إنّ بكرا ٱنهزمت ، فقتَــل طَرِيفٌ شَراحيلَ أحد بنى ربيعة ، وقتَــل أيضا عمرو بنَ مَرْثَد، وقتل المُجَشِّر .

يومُ الخَنْدَمة (١)

كان رجلٌ من مُشْرِكى قُرَيش يُحِدّ حربةً يومَ فَتْحِ مكة ، فقالت له ٱمرأتُه : ما تصنع بهــذه ؟ قال : أعددتُها لمحمد وأصحابه ! [فقالت له : ما أرى أنه يقوم لمحمد وأصحابه شىء] (٢) فقال : والله إنى لأرجو أن أُخدِمَك بعضَ نِسائِهــم ، وأنشأ يقــول :

إنْ يُقْبِلُوا اليَوْمَ فما لِى عِلَّةْ * هَــذا سِــلَاحٌ كاملٌ وَألَّهْ

* وذو غِرارَيْنِ سَرِيعُ السَّلَّهْ *

---

(١) الخندمة : اسم جبل بمكة .

(٢) التكملة من العقد الفريد ومعجم ما استعجم للبكرى فى كلامه على الخندمة .

فلما لقيهم خالد [بن الوليد][1] يوم الخندمة انهزم الرجلُ لا يلوِى على شىء ، فلامته امرأتُه فى ذلك ، فقال :

إنّكِ لو شهدتِ يومَ الخندمَهْ * إذ فرَّ صَفْوانُ وفرَّ عكرِمَهْ
ولقيتَنا بالسُّيوفِ المُسْلِمَهْ * يَفْلِقْنَ كُلَّ ساعِدٍ وجُمْجُمَهْ
ضَرْبًا فلا تُسْمَعُ إلّا غمْغمَهْ * لَمْ تنطِقى فى اللَّوْمِ أدْنَى كَلِمَهْ

وهذه القصّة نذكرها — إن شاء الله — فى أثناء السيرة النبويّة فى يوم فتح مكة .

يَوْمُ اللُّهَيْماءَ[2]

قال أبو عبيدة : كان سببُ الحربِ التى كانتِ بين [عمرو بنِ الحارث بن تميم ابن سعد بن هُذيل ، وبين عمرو][3] بن عدىّ بن الدُّئل بن بكر بن عبد مَناة ، أنّ قيسَ بنَ عامر بن غريب أخَا بنى عمرو بنِ عدىّ وأخاه سالما ، خرجا يريدان بنى عمرو بنِ الحارث ، على فرسَيْن ، يقال لأحدهما : اللُّعاب ، والآخر : عَفْزَر ، فباتا عند رجل من بنى نُفَاثة ، فقال النُّفَاثىّ لقيس وأخيه : أطيعانى وارجعا ، لأعرفنّ رماحَكما تُكسر فى قتاد نَعمان ، فقالا : إنَّ رِمَاحَنا لا تُكْسَر إلّا فى صدور الرجال ! قال : لا يضرّكما ، وستحمدان أمرى ، فأصبحا غاديين . فلما شارفا متْن اللُّهَيْماء من نَعمان ، وبنو عمرو بن الحارث فُوَيق ذلك بموضع يقال له أدَيمة ، وأغارا على غنم لجندب بن أبى أعيبس ، وفيها جندب ، فتقدّم إليه قيسٌ ، فرماه جندب على حلمة ثديه وبعجه قيسٌ بالسيف فأصابت ضبّةُ السيف وجهَ جندب ، وجرّ قيس

(١) التكملة من العقد الفريد .
(٢) التكملة من العقد الفريد .
(٣) كذا فى معجم ما استعجم للبكرى على لفظ التصغير ممدودا . وفى الأصول ورد مقصورا

ونفرت الغنمُ نحوَ الدارَ فتبعها وحملَ سالم على جندب بفرسه عفزر، فضرب جندب خطم الفرس بالسيف فقطعه، وضربه سالم بالسيف فقطع إحدى ثدييه، فخرّ جندب ووقف عليه سالم، وأدرك العشي سالمًا، فخرج وترك سيفَه فى المعركة وثوبه بحقويه، ولم ينج إلا بجفن سيفه ومئزره فقال حذيفةُ بنُ أنيس فى ذلك من أبيات :

كَشَفْتَ غِطَاءَ الحرب لَمَّا رَأَيْتَهَا * تَمِيلُ عَلَى صَفْوٍ من اللَّيْلِ أعسَرَا

أَخُو الحرب إنْ عضّت به الحربُ عَضَّهَا * وَإِنْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا الحربُ شَمَّرَا

وَيَمْشِى إِذَا مَا المَوْتُ كَانَ أَمَامَهُ * كَذَا الشِّبْلُ يَحْمِى الأَنْفَ أَنْ يَتَأَخَّرَا

نَجَا سَالِمٌ والنفسُ مِنْهُ بِشَرْقَةٍ * وَلَمْ يَنْجُ إِلَّا جَفْنَ سَيْفٍ وَمِئْزَرَا

وَطَابَ عَنِ اللَّعَّابِ نَفْسًا وَرِمَّةً * وَغَادَرَ قَيْسًا فِى المَكَرِّ وَعَفْزَرَا

يومُ خَزَاز

قال أبو عُبيدة: تنازع عامرٌ ومسمعٌ ابنا عبد الملك، وخالدُ بنُ جَبَلة، وإبراهيم بنُ محمد بن نوح العطاردى، وغسّان بن عبد الحميد، وعبد الله بن سالم الباهلىّ، ونفرٌ من وجوه أهل البصرة كانوا يتجالسون يومَ الجمعة ويتفاخرون ويتنازعون فى الرياسة يومُ خَزَاز. فقال خالدُ بنُ جَبَلة: كان الأحوصُ ابنُ جعفر الرئيس. وقال عامرٌ ومسمعٌ: كان الرئيس كليبُ وائل. وقال ابنُ نوح: كان الرئيس زرارة بن عدس، وهذا فى مجلس أبى عمرو بن العلاء، فتحاكموا إليه فقال: ما شهدها عامرُ بن صعصعة، ولا دارمُ بنُ مالك، ولا جشم بن بكر، اليوم أقدم من ذلك، غير أن أهلَ اليمن كان الرجلُ منهم يجئُ ومعه كاتبٌ وطنفسة يقعدُ عليها، فيأخذ من أموالِ نزارٍ ما شاء، كعمّال صدقاتهم اليوم،

وكان أوّلَ يوم آمتنعتْ مَعَدٌّ عن [الملوك(١)] : ملوكِ حِمْيَر، وكانت نِزارُ لم تكثر بعد، فأوقدُوا نارا على خَزَاز ثلاثَ ليال، ودخَّنوا ثلاثة أيام، فقيل له : وماخَزَاز؟ قال: هو جبلٌ [قريبٌ من أَمَرة على يسار الطريق(١)] خلفه صحراء مَنْعِج(٢)، ففى ذلك اليوم آمتنعت نزار من أهلِ اليمن، قال عمرُو بنُ كلثوم :

٥ ونحنُ غَـدَاةَ أوْقَـدَ فى خَزَازٍ * رَفَـدْنا فَـوْقَ رِفْد الرَّافِـدينَا
فَكُنَّا الأَيْمَنِينَ إذا آلتقَيْنَـا * وكانَ الأيسَرين بنُو أَبينَا
فصالُوا صَـوْلةً فيمنْ يَليهِـمْ * وصُلْنَـا صَـوْلةً فيمَنْ يلينَـا
فـآبُوا بالنِّهـابِ وَبالسبـايَا * وأُبْنَـا بالمـلُوكِ مُصَفَّدِينَـا

قال أبو عمرو بن العلاء : ولو كان جدّه كليبُ وَائل قائدهم ورئيسهم ما آدّعى ١٠ الرفادة وترك الرياسة .

يومُ النِّسار

قال أبو عبيدة : تحالفت أَسَـدٌ وطيئٌ وغَطَفان ، ولحقت بهم ضَبّةُ وعَدِىٌّ، فغزوا بنى عامر فقتلوهم قتلًا شديدًا، فغضبت بنوتميم لمقتل بنى عامر، فتجمّعوا حتى لحقوا طيئًا وغطفان وحلفاءَهم من ضبّة وعَدِىّ يومَ الفِجار، فقتلت تميم [طيئًا(١)] أشدّ ١٥ ممـا قُتِلَتْ عامرٌ يوم النِّسار ، فقال بشرُ بنُ أبى خازم :

غَضِبَتْ تميمٌ أنْ تقتَّـل عَامرٌ * يومَ النِّسَـارِ فأعْقِبُوا بالصَّيْلَمِ

١٣٧/١٣

يومُ ذات الشقُوق

قال : لحلف ضَمْرةُ بنُ ضَمْرَةَ النهشَلِىّ وقال : الخمرُ علىّ حرامٌ حتى يكونَ لنا يومٌ يكافئه ، فأغار عليهم يومَ ذاتِ الشقوق فقتلَهم وقال فى ذلك :

٢٠ (١) التكملة من العقد الفريد . (٢) منعج : على مقربة من حمى ضرية .

الْآنَ سَاغَ لِى الشَّرابُ ولَمْ أَكُنْ * آتى الفِجَارَ ولَا أشُدُّ تَكلمى
حَتَّى صَبَحْتُ علَى الشُّقُوق بغَارَةٍ * كالتَّمْرِ تُنْثَرُ فى جَرِينِ الجُرَّمِ (١)
وأفأْتُ يومًا بالجفَارِ بِمثْلِه * وأجزتُ نصْفًا مِنْ حَدِيثِ المَوْسِمِ
ومَشَتْ نِسَاءٌ كالنسَاءِ عَواطِلاً * مِنْ بَيْنِ عَارِفَةِ النِّسَاءِ وأَيِّمِ
ذَهَبَ الرِّماحُ بِزَوجِهَا فتركْنَهُ * فِى صَدْرِ مُعْتَدِلِ القَنَاةِ مُقَوَّمِ

يوم خَوّ

قال أبو عبيدة : أغارت بنو أَسَد على بنى يربوع فا كتسَحُوا إبلَهُم، فأتى الصريخُ الحىَّ فلم يتلَاحَقُوا إلّا مساءً بموضع يقال له خَوٌّ (٢)، وكان ذُؤاب بنُ ربيعةَ الأَسَدِىّ على فرس أنثى، وكان عُتَيبةُ بنُ الحارث بن شهاب على حصان يستنشى ريحَ الأنثى فى سواد الليل ويتبعُها، فلم يعلم عُتَيبة إلّا وقد أقحم فرسه على ذُؤاب ابنِ ربيعة، وعُتَيبةُ غافلٌ لا يبصر ما بين يديه، فرآه ذؤاب فطعنه فى نحره فقتله، ولحق الربيعُ بنُ عُتَيبة فشدّ على ذُؤاب فأسره وهو لا يعلم أنه قاتلُ أبيه، فلم يزل عنده أسيرا حتى فاداه أبوه ربيعة بإبلٍ قاطعه عليها، وتواعدا بسوق عُكَاظ فى الأشهُرِ الحُرُم أن يأتىَ هذا بالإبلِ وهذا بالأسير، فأقبل أبو ذؤاب بالإبل، وشُغل الربيع بن عُتَيبة فلم يحضر سوقَ عكاظ، فظنّ ربيعة أبو ذؤاب أنّ ذؤابا قُتِلَ بعتيبة، فقال يرثيه :

أَبلغْ قبَائلَ جعفرٍ مخصُوصَةً * مَا إنْ أُحَاوِلُ جَعْفَرَ بنَ كِلَابِ
إنّ المَوَدَّةَ والهَوَادَةَ بيننَا * خَلَقٌ كسَحْقِ الرَّيْطَةِ المُنْجابِ
ولقد عَلِمْتُ علَى التجلّد والأَسَى * أنّ الرَّزِيّة كان يومَ ذُؤَابِ

(١) الجرين : موضع التمر الذى يجفف فيه .

(٢) خو : كثيب معروف بنجد بين ديار بنى أسد وديار بنى يربوع .

إنْ يَقْتُلُوكَ فقدْ هتكتَ بُيُوتَهُمْ * بِعُتَيْبَةَ بن الحَارث بن شِهابِ
بِأَحَبِّهِم فقْـدًا عَلَى أعدَائِه * وأشَـدِّهِمْ فقدًا على الأَصْحَابِ [1]

فلما بلغ إليهم الشعر قتلوا ذؤابَ بنَ ربيعة .

أيامُ الفِجَـار [2]

الفِجارُ الأوّل

قال أبو عبيدة : أيامُ الفِجارِ عدّةٌ ، فأوّلها بين كنانة وهَوازن . وكان الذى هاجه أنّ بدْرَ بنَ معشر أحد بنى عقال بن مُلَيك بن ضَمْـرَة بن بكر بن عبـد مناة بن كنانة جعل له مجلسا بسوق عُكَاظ ، وكان منيعا فى نفسه ، فقامَ فى المجلس وقام على رأسه قائم وأنشأ يقول :

نَحْنُ بنُـو مُدْرِكَةَ بنِ خِنْدِفِ * مَن يَطْعَنُوا فى عَيْنِه لا يَطْرِفِ
وَمَنْ يكُونُوا قومَـه يُغَطْرِفِ [3] * كأنَّهُـمْ لُجّـةُ بَحْـرٍ مُسْـدِفِ [4]

قال : ومدّ رجله وقال : أنا أعزّ العرب ، فمن زعم أنه أعزّ منّى فليَضربها ، فضربها الأُحَيمرُ بنُ مازنٍ أحد بنى دُهْمان بن نضر بن معاوية ، فأندرها [5] من الركْبة

---

(١) كذا فى العقد الفريد . وفى الأصول : « الى » .

(٢) سميت الفجار لأنها كانت فى الأشهر الحـرم ، وهى الشهور التى يحرّمونها ففجروا فيها ، وهى فجاران ، الفجار الأوّل ثلاثة أيام ، والفجار الثانى خمسة أيام فى أربع سنين ، وقد حضر النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم عكاظ مع أعمامه وكان يناولهم النبل ، وانتهت سنة ٥٨٩ م .

(٣) الغطريف والغطارف : السيد الشريف السخىّ الكثير الخير .

(٤) مسدف : مظلم .

(٥) أندرها : قطعها .

وقال : خذها إليك أيها الخندِفُ ! قال أبو عبيدة : إنما خرصها خُرَيصية يسيرة وقال فى ذلك :

نَحْنُ بنُو دُهْمَانَ ذُو التَّغَطْرُفِ * بحـرٌ لِبحْـرٍ زَاخِرٍ لم يُـنْزَفِ

[* نَبْنِى على الأحياء بالمُعتَرف *] (١)

قال أبو عبيدة : فتحاور الحيّان عند ذلك حتى كاد يكون بينهم قتالٌ، ثم تراجعوا ورأَوا أنّ الخطبَ يسيرٌ . ٥

الفِجَارُ الثانى

قال : كانَ الفجارُ الثانى بين قُرَيش وهوَازِن ، وكان الذى هاجه أنّ فِتْيةً من قريش قَعَدوا الى آمرأةٍ من بنى عامر بن صعصعة وضيئةٍ بسوق عُكَاظ . وقالوا : بل أطاف بهـا شبابٌ من بنى كنانة وعليها برقع [فأعجبهم ما رأَوا من هيئتهـا] (١) ، ١٠
فسألوها أن تسفر عن وجهها ، فأبت عليهم ، فأتى أحدُهم من خلفها فشدّ دُبُرَدِرْعها بشوكة إلى ظهرها وهى لا تَدرى ، فلما قامت تقلّص الدِّرعُ عن دُبُرها ، فضحكوا وقالوا : منعْتنـا النظر الى وجهها فقد رأينا دُبُرَها ، فنادتِ المرأةُ : يا آلَ عامر ! فتحاور الناسُ ، وكان بينهم قتالٌ ودماء يسيرة ، فحملها حربُ بنُ أُميّة وأصلح بينهم .

الفِجَارُ الثالثُ وهو بين كِنانةَ وهَوَازِن ١٥

وكان الذى هاجه أنّ رجلا من بنى كنانة كان عليه دَيْنٌ لرجل من بنى نضر بن معاوية ، فأعدم الكنانىّ ، فوافى النضرىّ بسـوق عُكَاظ بقرد ، فأوقفـه فى سوق عكاظ فقال : مَنْ يبيعنى مثلَ هذا بمـا لى على فلان حتى أكثر فى ذلك . و إنمـا فعل ذلك تعييرا للكنانىّ ولقومه ، فمرّ به رجلٌ من بنى كنانة فضرب القردَ بالسيف

١٣٨ / ١٣

(١) التكملة من العقد الفريد . ٢٠

فقتله، فهتف النضرىّ : يا آلَ هوازن ! وهتف الكنانىُّ : يا آلَ كِنانة ! فهاج الناسُ حتى كاد أن يكونَ بينهم قتالٌ، ثم رأوا الخطبَ يسيرا فتراجعوا .

قال أبو عبيدة : إنما سُميتْ هذه الأيامُ بالفجَار لأنها كانت فى الأشهر الحُرُم، وهى الشهور التى يحرّمونها، وهذه يقال لها أيامُ الفجار الأوّل .

الفجار الآخر وهو بين قريش وكنانة كلها وبين هَوَازِن

وإنما هاجها البرّاضُ بقتله عُرْوَةَ الرحّال بن عُتْبة بن جعفر بن كِلاب، فأبت أن تقتل بعُروة البرّاض لأن عُرْوَةَ سيّدُ هوازن، والبرّاضُ خليعٌ من بنى كِنانة، وأرادوا أن يقتلوا به سيّدًا من قريش .

وهذه الحربُ كانت قبل مبعث النبىّ صلى الله عليه وسلم بستّ وعشرين سنة، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كنتُ أنبُلُ على أعمامى يومَ الفِجَار وأنا آبنُ أربع عشرة سنة" يعنى أُناوِلهم النبل .

وكان سببُ هذه الحرب أنّ النعمانَ بَن المنذر اللَّخْمىّ ملكُ الحيرة كان يبعث الى سوق عُكَاظ فى كلّ عام لَطِيمة[1] فى جِوَار رجل شريف من أشراف العرب يُجيرها له، حتى تباعَ هنالك ويشترِى له بها من أَدَم الطائف ما يحتاج إليه. وكانت سوق عكاظ تقوم فى أوّل يوم من ذى القعدة، فيتسوّقون إلى حضور الحجّ، ثم يحجّون، فجهّز النعمان عِير اللطيمةِ ثم قال : مَنْ يُجيرُها ؟ فقال البرّاضُ بنُ قيس الضمرىّ : أنا أُجيرها على بنى كنانة، فقال النعمان : ما أريد إلاّ رجلا يُجيرها على أهل نجد وتهامة، فقال عُرْوة الرحّال — وهو يومئذ رجل هوازن — أكلبٌ خليع يجيرها لك ؟ أبيتَ اللعن ! أنا أُجيرها لك على أهل الشِّيح والقَيْصوم من أهل

(١) اللطيمة : العير التى تحمل الطيب وبزّ التجار .

نجد وتهامة! فقال البرّاض : أعلى بنى كنانة تُجيرها يا عُرْوةُ ؟ قال : وعلى النـاس كلّهم ! فدفعها النعمانُ إلى عُروةَ ، فخرج بها وتَبِعه البرّاضُ ، وعُرْوةُ لا يخشى منه شيئا ، إلى أن نزل بأرض يقال لها أُوارَة(١)، فشرب من الخمر وغنّته قَيْنـةٌ ، ثم نام ، فجاء البرّاض فدخل عليـه ، فناشده عُروة وقال : كانت منّى زلّة ، وكانت الغفْـلة منى ضَلّة ، فقتله وخرج وهو يرتجز ويقول :

قَدْ كانتِ الغفْـلةُ مِنِّى ضَـلَّهْ * هلّا على غَيْرى جَعلْتَ الزَّلَّهْ

* فسوفَ أعلو بالحُسامِ القُلَّهْ *

وقال :

وَداهيـةٍ يُهَـالُ الناسُ مِنْهَـا * شَدَدْتُ لَهَـا بَنِي بكْرٍ ضُلوعِي

هَتَكْتُ بها بيوتَ بَنِي كِلَابٍ * وأرْضَعتُ المَـوَالِيَ بالضُّرُوعِ

جَمَعْتُ له يَدَىَّ بِنَصْلِ سَيْفٍ * أفلَّ نخـرّ كالجِـذْعِ الصَّرِيعِ

وآستاق اللطيمةَ إلى خَيْـبر ، وآتّبعه المُسَاوِرُ بنُ مالك الغَطَفانىّ ، وأَسَـدُ بنُ خَيْثم الغَنَوىّ حتى دخلا خيبرَ ، فكان البرّاضُ أوّلَ مَن لقيهما ، فقال لهما : مَن الرجلان؟ قالا : من غَطَفانَ وغَنِىّ . قال البرّاض : ما شأنُ غَطَفان وغَنِىّ بهذا البلد؟ قالا : ومَن أنت ؟ قال : من أهل خيبر . قالا : ألك علمٌ بالبرّاض ؟ قال : دخل علينا طَرِيدا خَلِيعا فلم يُؤْوِه أحدٌ بخيبر ولا أدخله بيتا . قالا : فأين يكون؟ قال : وهل لكما [به](٢) طاقةٌ إن دللتكما عليه ؟ قالا : نعم . قال : فآنزلا ، فنزلا وعقـلا راحلتَيْهما . قال : أيّكما أجرأُ عليه وأمضى مقدَما وأحدُّ سـيفا ؟ قال الغَطَفانىّ : أنا . قال : فآنطلِق أدلّك عليه ، فآنطلقا حتى آنتهيا إلى خَرِبَة فى جانب خيبر خارجةٍ عن البيوت ، فقال البرّاض : هو فى هذه الخرِبة وإليها يأوِى ، فأنظِرْنى حتى أنظُر

(١) أوارة (بضم أوّله وبالراء المهملة) : ماء دوين الحريب لبنى تميم .

(٢) التكلة من العقد الفريد .

أَثَمّ هو أم لا ، فوقف له ودخل البرّاض ثم خرج إليـه وقال : هو قائمٌ فى البيت الأقصى خلف هذا الجدار ، فهل عند سيفك صَرامةٌ ؟ قال : نعم . قال : هات سيفك أنظر إليه أصارمٌ هو؟ فأعطاه سيفه ، فهزّه البرّاض ثم ضربه فقتله ، ووضع السيفَ خلف الباب وأقبل إلى الغَنَوِىّ فقال : ماوراءك؟ قال : أَجبنُ من صاحبك ، تركتُه قائمـا فى البيت الذى فيه الرجل ، والرجل نائمٌ لا يتقدّم إليه ولا يتأخّر عنه ، قال الغَنَوِىّ : يا لهفاه ! لو كان لى من ينظر راحلتينا ، قال البرّاض : هما علىّ إن ذَهَبتا ، فانطلق الغنوىّ والبرّاض خلفه حتى إذا جاو ر الغنوىّ باب الخَرِبة أخذ البرّاض السيف من خلف الباب ثم ضربه حتى قتله وأخذ سلاحَيْهما وراحِلَتَيْهما وانطلق . ١٣٩/١٣

وبلغ قُرَيشا خبرُ البرّاض بسـوق عُكَاظ ، فخلصوا نَجِيًّا ، واتّبعتهم قيسٌ لمـا بلغهم أنّ البرّاض قتل عُرْوَةَ الرحّال ، وعلى قيس أبو براءٍ عامر بن مالك ، فأدركوهم وقد دخلوا الحـرم ، فنادوهم : يا معشرَ قريش ، إنّا نعاهد الله ألّا نُبطل دَمَ عُرْوة أبدا ، أو نقتُل به عظيما منكم ، وميعادُنا معكم هذه الليلة من العـام القابل ، فقال حرب بن أمّية لأبى سفيان ابنه : قل لهم : إنّ موعدكم قابلٌ فى هذا اليوم ، فقال خِدَاش بن زُهَير فى هذا اليوم ، وهو يوم نخلة ، من أبيات أوّلها :

يا شَـدَّةً ما شَدَدْنا غيرَ كاذِبَةٍ * على سَخِينَةَ لولا الليلُ والحُـرَمُ

وكانت العرب تسمّى قريشا سَخِينة لأكلها السُّخْن .

يومُ شَمْطَةَ[1] وهو يومُ نَخْلَةَ من الفجَار الآخر

قال : فجمعتْ كِنَانةُ قُرَشيها وعبدَ مَنَاتِها والأحابيشَ ومَنْ لحق بهـم من بنى أَسَـد بن خُزَيمة ، وألبس يومئذ عبدُ الله بنُ جُدْعان مائةَ كَمِىّ[2] السـلاح بأداة

(١) شمطة (بفتح أوّله و إسكان ثانيه بعده ظاء معجمة) : موضع قريب من عكاظ .
(٢) الكمىّ : الشجاع .

كاملة، سوى ما ألبس من قومه، والأحابيش بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة. قال: وجمعت سُلَيم وهَوَازن وجموعهما وأحلافهما، غير كلاب وبنى كعب، فإنهما لم يشهدا يوما من أيام الفِجار غير يوم نَخْلة، فآجتمعوا بشَمْطَةَ من عُكَاظ فى هذه الأيام التى تواعدوا فيها على قَرْن الحَوْل، وعلى كلّ قبيلة من قُرَيش وكنانة سيِّدُها، وكذلك على قبائل قيس، غير أنّ أمر كنانة كلّها الى حرب بن أميّة، وعلى إحدى مجنبتَيْها عبدُ الله بنُ جَدْعان، وعلى الأخرى كُرَيْز بن ربيعة، وحرب بن أميّة فى القلب، وأمرُ هَوَازن كلّها الى مسعود بن معتب الثقفىّ، فزحف بعضهم الى بعض، فكانت الدائرة فى أوّل النهار لكنانة على هَوازِن، حتى إذا كان من آخر النهار تداعت هَوازن وصابرت، وآنكشفت كنانة فآستحرّ القتل فيهم، فقُتِل منهم تحت رايتهم مائةُ رجل، ويقال ثمانون، ولم يُقتَل من قريش أحدٌ يذكر، فكان هذا اليومُ لهوازن على كنانة.

يوم العَبْلاء

قال: ثم رجع هؤلاء وأولئك فآلتقَوْا على قَرْن الحَوْل من يوم عُكَاظ، والرؤساء عليهم الذين ذكرناهم فى يوم شَمْطَة، فكان هذا اليومُ أيضا لهَوَازِن على كنانة. وفى هذا اليوم قُتِل العوّام بن خُوَيلد والد الزبير، قتله مُرّة بن معتب الثقفىّ، وقال رجلٌ من ثقيف:

منّا الذى ترك العوّام مُجَنْدَلا * تنتابه الطيرُ لحما بين أحجار

يوم شَرِب (1)

ثم جمع هؤلاء وأولئك فآلتقَوْا على قَرْن الحَوْل فى اليوم الثالث من أيام عُكَاظ، فآلتقَوْا بشَرِب، وهو أعظمُ أيامهم والرؤساء عليهم وعلى المجنبتَيْن مَنْ ذكرنا، وحمل

(١) شرب (بفتح أوّله وثانيه بعده باء بواحدة، هكذا ثبتت الرواية عن أبى الحسن الطوسىّ فيه، ورواه ابن دريد عن أبى حاتم عن الأصمعىّ بكسر الراء): موضع قرب مكة.

ٱبنُ جَدْعان يومئذ مائةَ رجل على مائة بعـير ممن لم تكن له حمولة ، فٱلتقَوْا ، وقد كان لهَوَازِن على كنانة يومان متواليـان : يوم شَمْظة والعَبْـلاء ، فحمشت قريش وكنانة ، وصابرت بنو مخزوم وبنو بكر ، فٱنهزمت هوازن وقُتلت قتلا ذريعا ، فقال عبدُ الله بن الزِّبَعْرَى يمدح بنى المغيرة :

٥ أَلَا لِلهِ قَــوْمٌ * لِدَتْ أُخْتُ بنى سَهْمِ

هِشَـامٌ وأبو عبــد * مَنَـافٍ مِـدْرَهُ[1] الخَصْمِ

وذو الرُّمحين أَشْبَاكَ[2] * مِنَ القُـوَّة والحَـزْمِ

فهٰــذَانِ يَذُودَانِ * وذَا مِنْ كَثَبٍ يَرْمِى

وأبو عبد مناف : هاشم بن المغيرة . وذو الرُّمحين : أبو ربيعة بن المغيرة ، قاتل يومَ

١٠ شَرَب برمحين . وأُمهم رَيْطة بنت سعد بن سَهْم ، فقال فى ذلك جِذْل الطعان :

جاءتْ هَوَازِنُ أَرْسالًا وإخْوَتُها * بنو سُلَيْم فهابُوا المَوْتَ وٱنْصَرَفُوا

فٱسْتُقْبِلُوا بِضِرابٍ فَضَّ جَمْعَهُـمُ * مِثْلِ الحَرِيقِ فما عاجُوا ولا عَطَفُوا

يومُ الحُــرَيْرة[3]

ثم جمع هؤلاء وأولئك وٱلتقَوْا على رأس الحَوْل بالحُرَيْرة ، وهى حَرَّة إلى جَنْب

١٥ عُكَاظ ، والرؤساء على هؤلاء [وأولئك][4] هم الذين كانوا فى سائر الأيام ، وكذلك على المجنبتَيْن إلّا أنّ أبا مُسَاحِق بن قيس اليَعْمُرِىّ قد كان مات ، فكان بعده على بكر بن عَبْد مَنَاة ابن كِنانة أخوه جُثَامة بن قيس ، فكان يوم الحُـرَيْرة لهَوَازِن على كِنانة ، وهو آخرُ الأيام الخمسة التى تزاحفوا فيها ، فقُتِل يومئذ أبو سُفيان بن أميّـة أخو حرب بن

(١) المدره : زعيم القوم وخطيبهم والمتكلم عنهم ، وقد أطلق تجوّزا الآن على المحامى .

٢٠ (٢) يقال : أشباك لفلان ، كما يقال : حسبك لفلان .

(٣) الحريرة : موضع بين الأبواء ومكة قرب نخلة . (٤) التكلة من العقد الفريد .

أميَّة، وقُتِل من بنى كنانة ثمانية نَفَر، قتلهم عثمان بن أُسَيد بن مالك من بنى عامر ابن صعصعة، وقُتِل جماعة أخر، فقال خِدَاش بن زُهَيْر :

١٤٠ / ١٣

إِنِّى مِنَ النَّفَرِ المُحْمَرِّ أَعْيُنُهُمْ * أَهْلِ السَّوَامِ وأَهْلِ الصَّخْرِ واللُّوبِ

الطَّاعِنِينَ نُحُورَ الخَيْلِ مُقْبِلَةً * بِكُلِّ سَمْرَاءَ لم تُغْلَبْ ومَغْلُوبِ

وقَدْ بَلَوْتُمْ وَأَبْلُوكُمْ بَلاءَهُمُ * يومَ الحُرَيْرَةِ ضَرْباً غيرَ تكْذِيبِ

لَاقَيْتُمُ مِنْهُمُ آسَادَ مَلْحَمَةٍ * لَيْسُوا بِزَرَّاعَةٍ عُوجِ العَرَاقِيبِ

فالآنَ إن تَقْبَلُوا نَأْخُذْ نُحُورَكُمُ * وإنْ تُبَاهُوا فإنِّى غيرُ مَغْلُوبِ

وقال الحارثُ بنُ كِلْدَةَ الثَّقفىّ :

تركتُ الفارِسَ البَذَّاخَ مِنْهُمْ * تَمُجُّ عُرُوقُهُ عَلَقاً عَبِيطَا

دَعَسْتُ لَبَانَهُ بالرُّمْحِ حتّى * سَمِعْتُ لِمَتْنِهِ فِيهِ أَطِيطَا

لقدْ أَرْدَيْتَ قَوْمَكَ يابْنَ صَخْرٍ * وقدْ جَشَّمْتَهُمْ أمرًا سَلِيطَا

وكَمْ أَسْلَمْتُ مِنْكُمْ مِنْ كَمِىٍّ * جَرِيحاً قدْ سَمِعْتُ لهُ غَطِيطَا

مَضَتْ أيّام الفِجَار الآخِر، وهى خمسة أيام فى أربع سنين .

قال أبو عبيدة : ثم تَدَاعَى الناسُ إلى السِّلْم على أن يذروا الفضل ويتعاهدوا ويتواثقوا .

يومُ عَيْنِ أُبَاغ (١)

قال أبو عبيدة : كان ملك العرب المُنذِر الأكبر بن ماء السماء، ثم مات فملك ابنه عمرو، ثم هلك فملك بعده أخوه قابوس، ثم مات فملك أخوه المنذر بن المنذر —

(١) أباغ الذى تنسب اليه عين أباغ (بضم الهمزة وغين معجمة وبفتح الهمزة أيضا) : بطرف أرض العراق مما يلى الشام .

ابن ماء السماء . وذلك فى مملكة كسرى بن هرمز، فغزاه الحارث الغسانى، وكان بالشام من جهة قيصر، فالتقوا بعين أباغ ، فقتل المنذر، فولّى كسرى النعمان بن المنذر، ثم سعى الى كسرى فى النعمان فقتله ، وقد تقدّم ذكر سبب ولايته ومقتله .

وكان النعمان لمّا تحقق غضب كسرى عليه هرب، ثم علم أنه لا منجى له من يد كسرى فقدم إليه فقتله . واستعمل كسرى على العرب إياس بن قبيصة الطائى. وكان النعمان لمّا شخص الى كسرى أودع حلقته، وهى ثمانمائة درع وسلاحا كثيرا، هانئ بن مسعود الشيبانىّ، وجعل عنده ابنته هندًا التى تسمّى حرقة، فلمّا قتل النعمان قالت فيه الشعراء، فقال زهير بن أبى سلمى من أبيات :

ألم تر للنعمان كان بنجوة * من الشرّ لو أنّ امرأً كان ناجيا
فلم أر مخذولًا له مثل ملكه * أقلّ صديقا باذلًا أو مواسيا

يومُ ذى قارٍ

قال أبو عبيدة : يومُ ذى قار هو يومُ الحِنو، ويوم قُراقر، ويومُ الجُبابات، ويومُ ذات العُجْرُم، ويومُ بطحاء ذى قار، وكلّها حول ذى قار .

قال أبو عبيدة : لم يكن هانئُ بنُ مسعود المستودع حلقة النعمان، وإنّما هو ابنُ ابنه ، واسمه هانئ بن قبيصة بن هانئ بن مسعود ، لأنّ وقعة ذى قار كانت وقد بعث النبىّ صلى الله عليه وسلم وخبّر أصحابه بها فقال : " اليومُ أوّلُ يوم انتصفت فيه العرب من العجم، وبى نُصروا " .

ولما قُتل النعمانُ كتب كسرى الى إياس بن قبيصة يأمره أن يضمّ ما كان للنعمان، فأبى هانئ بن قبيصة أن يسلّم ذلك إليه، فغضب كسرى وأراد استئصال بكر بن وائل، فقدم عليه النعمانُ بنُ زُرْعة التغلبىّ فقال : يا خيرَ الملوك ، ألا أدلّك

على غِرَّة بكر بن وائل، قال نعم، قال : أَقِرَّها وأظهِـر الإضراب عنهـا حتى يُجْليها القَيْظ ويُدْنيها منك، فأقرّهم، حتى إذا قاظوا نزلت بكرحِنو ذى قار، فأرسل إليهم كسرى النعمانَ بن زُرْعة يخيّرهم بين ثلاث خِصال : إمّا أن يُسلّموا الحَلقة ، وإمّا أن يُعَرُّوا الدِّيار ، وإمّا أن يَأذَنوا بحـرب . فتنازعتْ بكر بينهـا ، فهمّ هانىءُ بنُ قَبِيصة بركوب الفَـلاة، وأشار به على بكروقال : لا طاقةَ لكم بجموع الملك، فلم تُرَ من هانىء سقطة قبلها .

١٤١ / ١٣ — ٥

وقال حنظلةُ بن ثعلبة بن سـيّار العِجْليّ : لا أرى غيرَ القتـال، فإنّا إن ركبنا الفَلاة لَمُتنا عَطَشا ، وإن أعطينا بأيدينا تُقتَل مقاتلتُنا وتُسبَى ذراريّنا ، فراسلت بكر عنها وتوافت بذى قار، ولم يشهدها أحدٌ من بنى حنيفة ، ورؤساء بكر يومئذ ثلاثةُ نَفَر : هانىء بن قَبِيصة الشيبـانىّ ، ويزيد بن مُسْهِر الشَّيْبانىّ ، وحنظلة بن ثعلبة العِجْليّ . ١٠

فقال حنظلة بن ثعلبة لهانىء بن قَبِيصة : يا أبا أُمامة ، إنّ ذمّتكم ذِمّتنا عامّة ، وإنه لن يُوصَل إليك حتى تَفْنَى أرواحنا ، فأخرِج هذه الحلقة ففرّقْها بين قومك، فإن تظفر فستُردّ عليك ، وإن تهلك فأهون مفقود، ففَرّقها فيهـم . وقال للنعمان : لولا أنك رسولٌ ما أُبْتَ إلى قومك سالمـا . ١٥

قال : فعقد كسرى للنعمان بن زُرْعة على تغلب والنَّمِر . وعقـد لخالد بن يزيد البهرانىّ على قُضاعة وإياد . وعقـد لإياس بن قَبِيصة على جميـع العرب، ومعـه كتيبتاه : الشهباء ودَوْسَر . وعقَد للهامَرْز التُّسْتَرىّ على ألف من الأساورة، وكتب إلى قيس بن مسعود بن قيس بن خالد ذى الجَدَّيْن ــ وكان عاملَه على طَفّ سَفَوانَ ــ يأمره أن يوافىَ لإياس بن قَبِيصة، فسار إليه . ٢٠

وسار إياس بمَنْ معه من الجُنْد وغيرهم، فلما دنَوْا من بكر أقبل قيس بن مسعود الى قومه ليلا، فأمرهم بالصبر ثم رَجَع .

فلما ٱلتقَى الزّحفان وتقرّب القوم، قام حنظلةُ بن ثعلبة بن سيّار العِجْلِيّ فقال: يا معشر بكر، إنّ نُشّابَ الأعاجم يفرّقكم ، فعاجلوهم الى اللّقاء وابدءوهم بالشدّة ،

٥ وقال هانىء بن مسعود : يا قوم ، مَهْلَكٌ مقــدور ، خيرٌ من منجىً مغرور . إنّ الجزع لا يَرُدّ القَــدَر ، وإنّ الصبرَ من أسباب الظفَر ، المنيّــة خيرٌ من الدنيّة ، وٱستقبال المنيّة خيرٌ من ٱستدبارها ، فالجدّ الجدّ، فما من الموت بدّ .

ثم قام حنظلةُ بنُ ثعلبة فقطَع وُضُن[1] النساء فسَقَطْنَ الى الأرض وقال : ليقاتل كلّ رجل عن حَليلته ، فسُمّيَ مُقَطِّع الوُضُنَ .

١٠ قال : وقطع يومئذ ســبعمائة من بنى شــيبان أيدى أَقْبِيَتهم من منا كبها لتخفّ أيديَهم لضرب السيوف فتجالد القوم ، وقتَــل يزيد بن حارثة اليَشكُرِيّ الهامَرْز مبارزة، ثم قُتِل يزيد بعد ذلك . فضرب الله وجوه الفُرْس فٱنهزموا ، وٱتبعتهم بكر حتى دخلوا السوَادَ فى طلبهم، وأُسِرَ النعمان بن زُرْعة التغلبيّ. ونجا إيَاس بن قَبِيصة على فرسه الحمامة ، فكان أوّل من ٱنصرف إلى كسرى بالهزيمة هو . وكان لا يأتيه

١٥ أحدٌ بهزيمــة جيش إلّا نزع كتفيه . فلمّــا أتاه إياس بن قَبِيصة سأله عن الجيش فقال : هَزَمْنا بكرَ بنَ وائل وأتيناك ببناتهم . فأَعجب ذلك كسرى وأمر له بكسوة، ثم ٱستأذنه إياس فقــال : أخى قيس بن قَبِيصة مريض بعَيْن التَّمْــر ، فأردتُ أن آتِيَه ، فأذِنَ له .

ثم أتى كسرى رجلٌ من أهل الحيرة وهو بالخَوَرْنَق فسأل: هل دخل على الملك

٢٠ أحد ؟ فقالوا : إياس، فظنّ أنه قد حدّثه الخبر، فدخل عليه وأخبره بهزيمة القوم

(١) الوضن : حزم الرحال .

وقتلهم، فأمر به فنُزِعَتْ كتفاه. وقد أكثرت الشعراء فى يوم ذي قار. فمن ذلك ما قاله أعشى بكر من قصيدة له :

لَوْ أَنَّ كُلَّ معَدٍّ كان شاركَنا * فى يومِ ذِى قارٍ ما أخطاهُمُ الشَّرَفُ
لمَّا أمالُوا الى النُّشَّاب أيديَهُمْ * مِلْنا بِبِيضٍ لمثْلِ الهَامِ تَخْتطِفُ
بَطَارِقٌ وبنو مَلْك مَرَازِبَةٌ * من الأعاجِمِ فى آذانِها النُّطُفُ
كأنما الآلُ فى حافاتِ جَمْعِهِمُ * والبِيضُ بَرْقٌ بدا فى عارِضٍ يَكِفُ
ما فى الخُدُودِ صُدُودٌ عن سيوفِهِمُ * ولا عَنِ الطَّعنِ فى اللَّبَاتِ مُنْحَرِفُ

وقال الأعشى يلوم قيسا من أبيات :

أقيسَ بنَ مسعودِ بنِ قيسِ بن خالدٍ * وأنتَ امرؤٌ ترجو شَبَابَكَ وائلُ
رَحَلْتَ ولم تنظُرْ وأنتَ عَمِيدُهُمْ * فلا يَبْلُغَنِّى عنكَ ما أنتَ فاعِلُ
فعُرِّيتَ من أهلٍ ومالٍ جَمَعْتَهُ * كما عُرِّيَتْ مما تُمِرُّ المغازِلُ
شَفَى النفسَ قتْلَى لم تُوَسَّدْ خُدُودُها * وِسادًا ولم تُغْضَض عليها الأنامِلُ
لعلَّكَ يومَ الحِنْوِ إذ صَبَّحَتْهُمُ * كتائبُ لم تَعْضِكَ بهِنّ العواذِلُ (١)

قال : ولما بلغ كسرى خبر قيس بن مسعود بما فعل مع قومه حبسه حتى مات فى حبسه، ففيه قال الأعشى :

* وعُرِّيتَ من أهلٍ ومالٍ جَمَعْتَهُ *

صورة ما ورد بآخر الجزء الثالث عشر فى أحد الأصلين الفتوغرافيين المرموز له بنسخة (١)

[انتهت أيام العرب على وجه الاختصار وحذف التكرار من كتاب « نهاية الأرب فى فنون الأدب » لمؤلفه أحمد بن عبد الوهاب القُرَشى المعروف بالنُّوَيرِى

(١) رواية العقد الفريد : * كتائب موت لم تعظك العواذل *

رحمة الله تعالى عليه وغُفْرانه على يد كاتبه فقير رحمة ربه الشامل نور الدين بن شرف الدين العالمى ، فى اليوم السابع والعشرين من شهر رجب الفرد من شهور سنة سبع وستين وتسعمائة من الهجرة النبوية ، وصلى الله على نبيّنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرًا دائمًا أبدًا الى يوم الدين،ويليه الجزء الرابع عشر من نسخة الأصل وأوّله : (القسم الخامس من الفنّ الخامس فى أخبار الملّة الإسلامية)] .

صورة ما ورد بآخر الجزء الثالث عشر أيضا فى الأصل الثانى الفتوغرافى المرموز له بنسخة (ب)

[انتهت أيام العرب على وجه الاختصار، وحذف التكرار، بعون الله تعالى وتوفيقه ويُمْنه ، وبتمامها كمل الجزء الثالث عشر من كتاب « نهاية الأرب فى فنون الأدب » يتلوه إن شاء الله تعالى فى أوّل الجزء الرابع عشر من الكتاب ، وهو الجزء الرابع من التاريخ : القسم الخامس من الفنّ الخامس فى أخبار الملّة الإسلامية . وحسبنا الله ونعم الوكيل] .

« وكتب بالهامش مانصه : بلغ مؤلفه مقابلة بأصله والحمد لله » .

*
* *

أنجزت — بعون الله وحسن توفيقه — تصحيح وتحقيق الجزء الخامس عشر من كتاب « نهاية الأرب فى فنون الأدب » من تجزئة طبعة دار الكتب المصرية فى يوم الأحد ١٧ من ذى الحجة سنة ١٣٦٨ هـ (٩ أكتوبر سنة ١٩٤٩ م) . ويليه الجزء السادس عشر وأوّله : « القسم الخامس من الفنّ الخامس فى أخبار الملّة الإسلامية » .

محمد عبد الجوّاد الأصمعىّ
المصحح بالقسم الأدبى بدار الكتب المصرية

كَمُلَ طبع " الجزء الخامس عشر من (نهاية الأرب فى فنون الأدب)"
بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الأربعاء ١١ محرم سنة ١٣٦٩
(٢ نوفبر سنة ١٩٤٩) م

محمد نديم
مدير المطبعة بدار الكتب
المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٥/١٩٤٢/١٥٠٠)